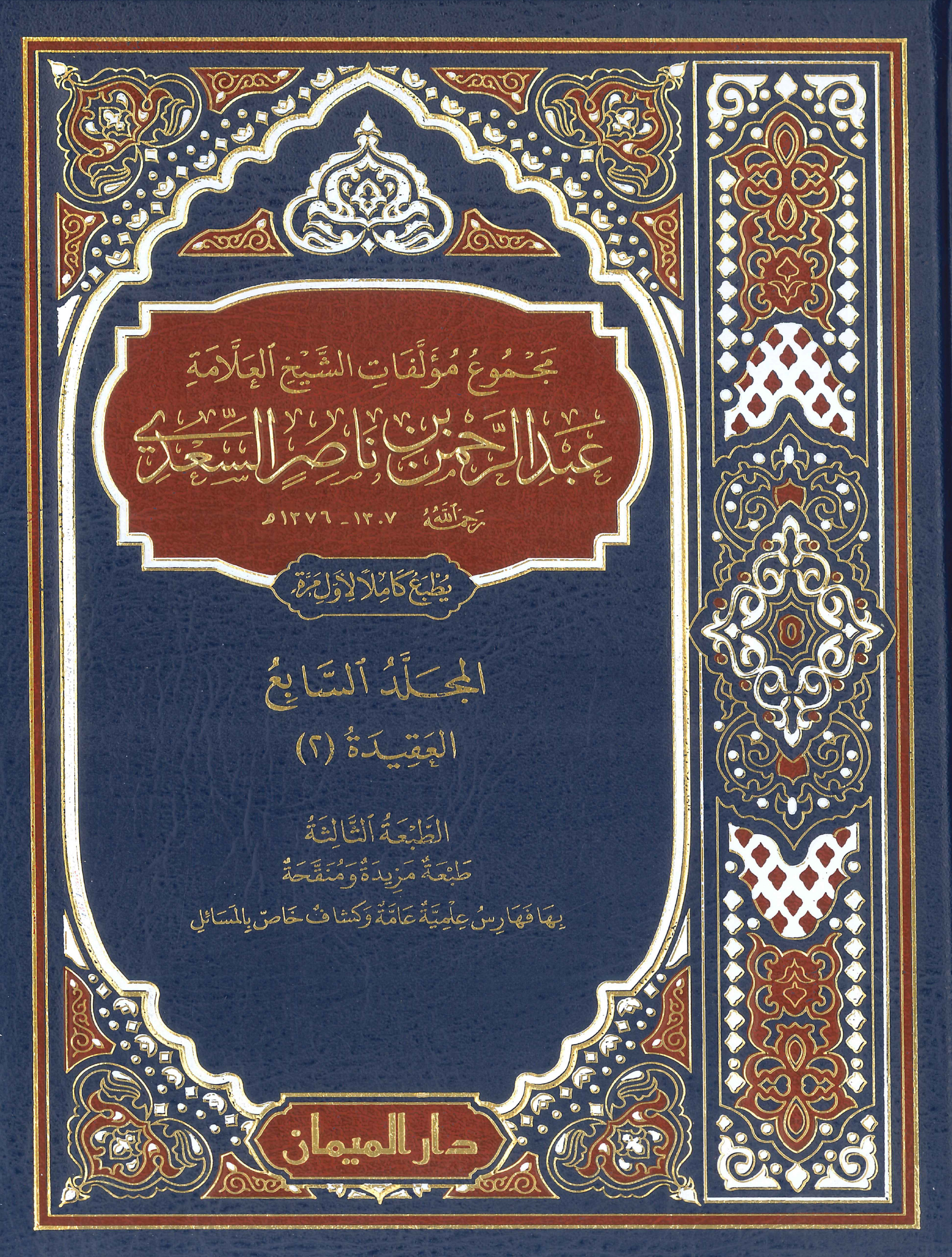
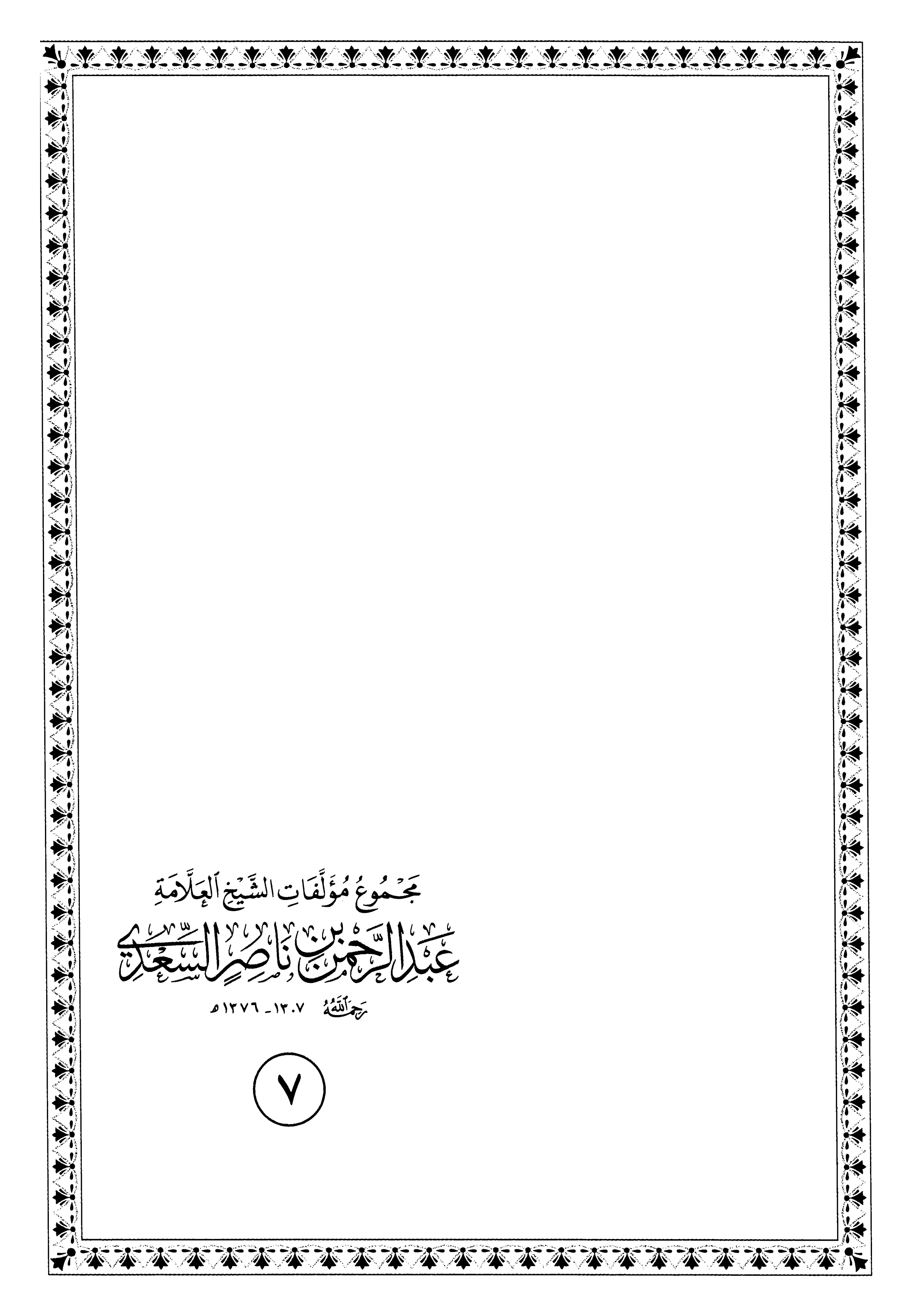

مجموع مؤلفات الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله ١٣٠٧ - ١٣٧٦هـ
يطبع كاملاً لأول مرة
المجلد السابع
العقيدة (٢)
الطبعة الثالثة
طبعة مزيدة ومنقحة
بها فهارس علمية عامة وكشاف خاص بالمسائل
دار الميمان
٥



مَجْمُوعُ مُؤَلَّفَاتِ الشَّيْخِ العَلَّامَةِ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله ١٣٠٧ - ١٣٧٦ هـ

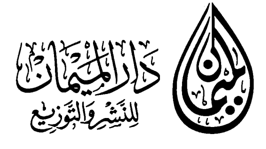
٧

© دار الميمان للنشر والتوزيع، ١٤٤٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السعدي، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر
مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي./
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - ط٣.- الرياض، ١٤٤٣هـ
٣٠ مج.
ردمك: ٧-٠٠-٨٣٧٨-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٦-٠٧-٨٣٧٨-٦٠٣-٩٧٨ (ج٧)
١- الإسلام - مجموعات أ. العنوان
ديوي ٢١٠,٨ ١٤٣٣/٨٣٩٠

رقم الإيداع: ١٤٣٣/٨٣٩٠
ردمك: ٧-٠٠-٨٣٧٨-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٦-٠٧-٨٣٧٨-٦٠٣-٩٧٨ (ج٧)

الطبعة الأولى ١٤٣٢هجري - ٢٠١١م
الطبعة الثانية ١٤٣٦هجري - ٢٠١٥م
الطبعة الثالثة ١٤٤٤هجري - ٢٠٢٢م

جمعه ورتبه وصفه وحققه وضبطه على أصوله وصنع فهارسه وكشافاته
قسم تحقيق التراث والنشر العلمي
دار الميمان للنشر والتوزيع



واتساب: 07111 48 55 966+
Info@DarAlMaiman.com
www.DarAlMaiman.com
DarAlMaiman

مجموع مؤلفات الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله ١٣٠٧ - ١٣٧٦هـ

(يطبع كاملاً لأول مرة)

إشراف ومتابعة وتنسيق

محمد بن عبد الرحمن السعدي رحمه الله
مساعد بن عبد الله السعدي
سليمان بن عبد الله الميمان
أيمن بن عبد الرحمن الحنيحن

المجلد السابع

العقيدة (٢)

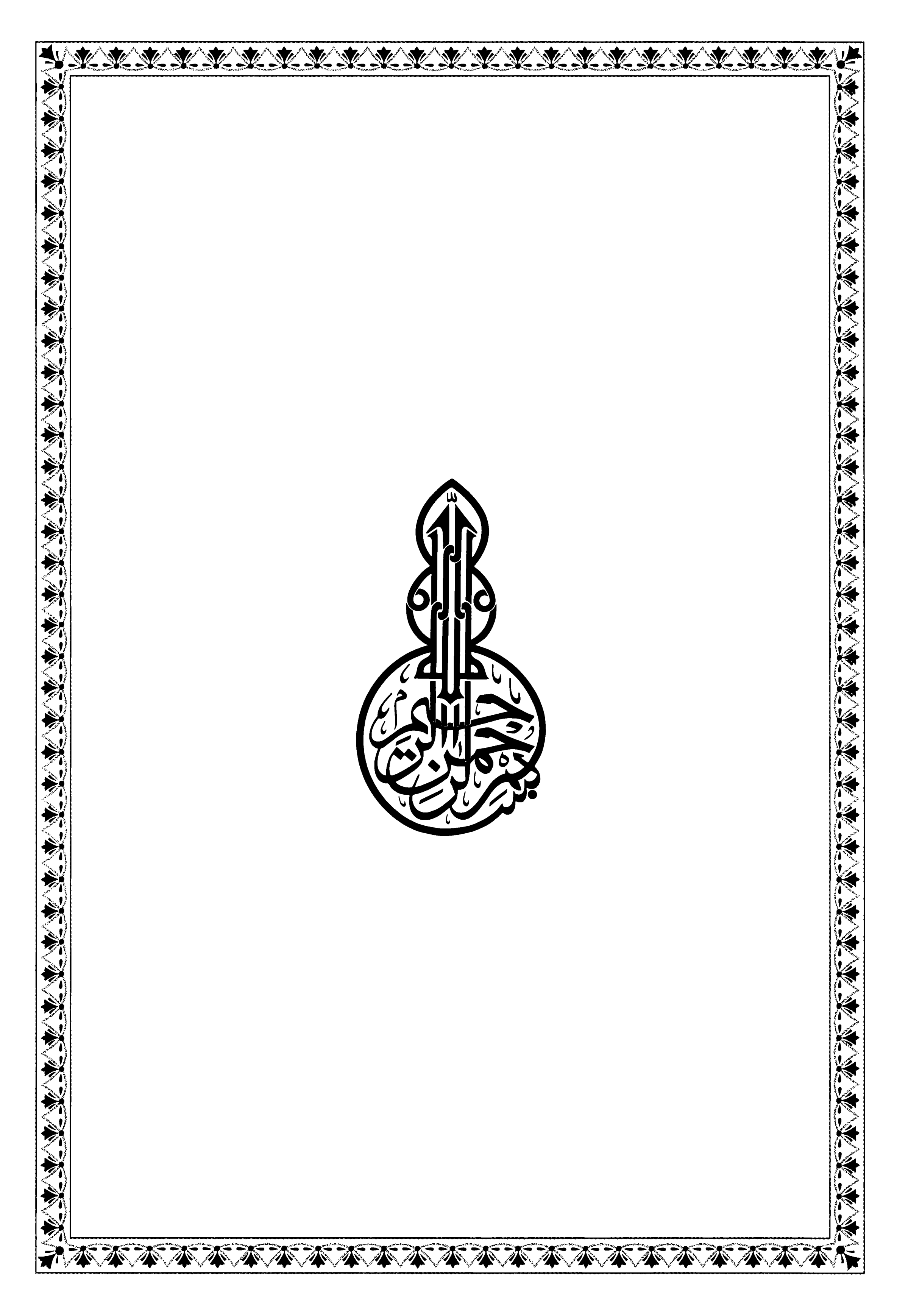
الطبعة الثالثة

طبعة مزيدة ومنقحة

بها فهارس علمية عامة وكشاف خاص بالمسائل



السعودية - الرياض


بسم الله الرحمن الرحيم

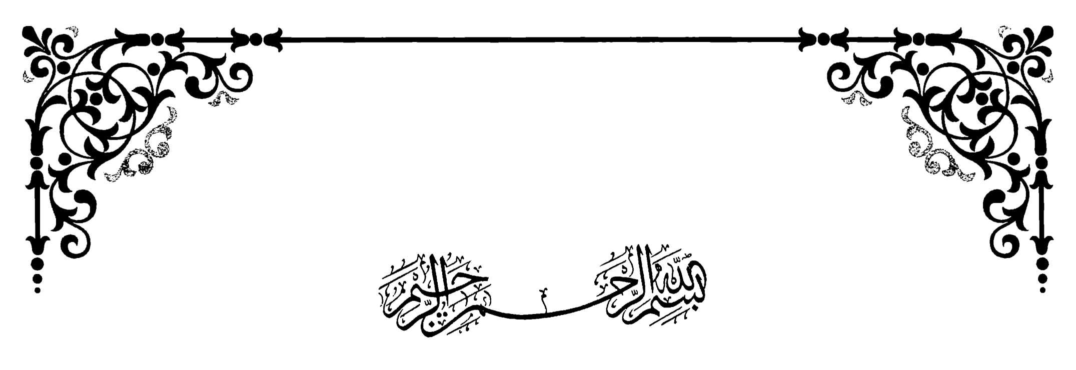
مجموع مؤلفات ابن سعدي (٢٤)

التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين

من الكافية الشافية

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

تم الاعتماد في تحقيق هذا الكتاب على عدة طبعات
أبرزها نشرة الشيخ
محمد بن سليمان البسام
رحمه الله



وبه نستعين

الحمد لله العظيم الكبير، الحميد المجيد، الذي له الألوهية وصفًا كما العبودية وصفًا للعبيد، الموصوف بالأوصاف الكاملة العليا، المدعو بالأسماء الحميدة الحسنى، الذي له كل كمال وجلال وجمال، ولديه كل إحسان ونعمة وإفضال، الذي خلق الخلق وأدرَّ عليهم واسع الرزق ليقوموا بتوحيده ومحبته وعبادته، فيثيبهم ويتم عليهم نعمته بأصناف كرامته، أحمده على ما له من وصف عظيم، وإحسان جسيم، وبر وتكريم، وأشهد أنه الإله حقًّا، الذي دل على توحيده جميع أدلة من العقل والنقل، وأذعن لعبوديته أهل الكمال والفضل. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أفضل العارفين، وأجلُّ الموحدين، وواسطة عقد نظام الأنبياء والمرسلين، وهو الإمام الكامل لجميع العابدين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن الله تعالى خلق الخلق لعبادته، وأوجدهم للقيام بمعرفته ومحبته، وبيَّن لهم في كتبه المنزلة من السماء وعلى ألسنة رسله تبيينًا كافيًا، وأوضح لهم جميع الطرق الموصلة إلى هذه الغاية الفاضلة توضيحًا وافيًا، خصوصًا في القرآن العظيم وعلى لسان محمد النبي الكريم، فإن في القرآن والسنة من تفاصيل معرفة الله بأسمائه وصفاته وتوحيده ما ليس في غيرهما، فتعين على العباد الإقبال عليهما، والتدبر والتفكر فيهما، إذ لا سبيل لهم إلى معرفة ما خلقوا له إلا بمعرفتهما، ولا طريق لهم إلى الوصول إلى ربهم وإلى دار كرامته إلا بالقيام بحقهما.

ولما كان الباري تعالى قد امتن على هذه الأمة بعلماء ربانيين، وفضلاء متقنين، قد بذلوا نفائس أعمارهم، وأعملوا جواهر أفكارهم في استخراج كنوز الوحي ومعانيه، وحل ألفاظه المعصومة ومبانيه، فحصل لهم به علم كثير وفضل غزير، وصاروا الهداة لأمة الأئمة، واقتدى

بهديهم وسيرهم وطريقتهم جميع أصناف الأمة. وممن له في هذا الشأن القدم العليا، والقدح المعلى، والباع الأعلى: الإمامان العظيمان، والحافظان الثقتان، شيخ الإسلام تقي الدين الإمام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، والإمام أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، قدس الله أرواحهما، فإنه قد حصل لهما من العلم والفهم للكتاب والسنة واستخراج علومهما ما فاقا فيه كبار العلماء، وسبقا فيه الجهابذة النبلاء، خصوصًا علم التوحيد والعقائد السلفية، فإن الله منَّ على المسلمين بهما، فبينا لهم من ذلك ما لم يبينه أحد، ونصرا مذهب أهل السنة والحق نصرًا عظيمًا، ودحضا مذاهب الضالين والمبتدعين، فصنفا في ذلك المصنفات التي سارت في مشارق الأرض ومغاربها، وانتفع بها الموافق والمخالف. ومعرفة كتبهما والوقوف عليها فيه كفاية لمعرفة أقدارهما وعلو مراتبهما.

ولما كانت الكافية الشافية لشمس الدين ابن القيم قد اشتملت على ما لم يشتمل عليه كتاب في فن التوحيد والعقائد والأصول، واحتوت على تفاصيل كثيرة لا توجد في سائر الكتب، حتى كتب مؤلفها، وكان قد تكرر عليَّ الطلب من بعض الأصحاب في وضع تعليق عليها، فرأيت ذلك من الأمور المتعسرة عليَّ؛ لأنه يستدعي وقتا كثيرًا، ويشغلني عمَّا هو أهم عندي منه. ثم استخرت الله تعالى على وضع شرح لطيف على توحيد الأنبياء والمرسلين منها، ومتعلقاته ما هو أهم ما فيها وأحسنه، والحاجة بل الضرورة ماسة إلى معرفته، وربما كان الاقتصار عليه أولى وأنفع من السعي في شرح جميعها لأمور كثيرة، وأكثرت فيه من النقل لعبارات المؤلف في كتبه التي فيها إيضاح وتبيين يعين على فهمها؛ لأنه أحسن ما يشرح كلامه بكلامه، فجاء بحمد الله كتابًا وافيًا بمقصوده، محتويًا على جواهر نفائس علم التوحيد، الذي هو أشرف العلوم على الإطلاق.

وأسأله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به النفع العميم، إنه جواد كريم رءوف رحيم، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.



فصل

في بيان توحيد الأنبياء والمرسلين ومخالفته لتوحيد الملاحدة والمعطلين

وهذا التوحيد هو التوحيد على الحقيقة، الذي لا يستحق هذا الاسم غيره، وهو التوحيد الوحيد في ذاته وحقيقته، وأدلته وبراهينه، وآثاره الفاضلة، فهو التوحيد الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وأقام الأدلة والبراهين على صحته، وتعينه طريقًا للنجاة، وأنه لا خير ولا سرور ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلا بسببه، وهو الذي أعد الله لأهله ومن قام به أنواع الكرامات، ولمن لم يقم به أنواع العقوبات، وهو الذي عليه المدار والأساس لجميع الأعمال، فكل عمل غير مبني على التوحيد فهو باطل مضمحل، وكل بناء بني على غيره فهو بناء على شفا جرف هار، وهو التوحيد الذي عليه خيار الخلق، وأكملهم عقولًا وآراء، وأجمعهم للمحاسن، وهم الأنبياء والمرسلون ومن تبعهم.

ونبذه ورده كل ملحد ومعطل، ممن مرجت أديانهم، وفسدت عقولهم، واكتسبوا شر الأخلاق، وعطلت قلوبهم من معرفته ومحبته، وألسنتهم من ذكره، وجوارحهم من طاعته، ممن خالفوا الأنبياء والمرسلين في توحيدهم وطريقهم في الدليل والمدلول، فتوحيد الأنبياء والمرسلين مشتمل على الحق والصدق، المزكي للنفوس المطهر للأخلاق، وأدلته كل دليل عقلي صريح، وكل دليل نقلي صحيح، وتوحيد الملاحدة والمعطلين مشتمل على أبطل الباطل، مؤيد بالشبه التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وهي على جهل أهلها وفساد عقولهم وأفهامهم من أكبر الأدلة، ولهذا قال المصنف:

فاسـمع إذًا توحيد رسل الله ثم اجعلـه داخل كفـة الميزان
مع هـذه الأنـواع وانظـر أيها أولى لـدى الميـزان بالرجحان

وهذا لأن الشيء يعرف بضده، والحق يتضح ويبين بمعرفة الباطل، فإنك إذا وزنت بميزان العقل الحقيقي والفطرة الأولى التي لم تغير، والقواطع الدالة على الحقائق - توحيد الأنبياء والمرسلين وتوحيد غيرهم، وجدت بينها من الفروق ما لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل، وكيف يوزن توحيد المعطلين والملحدين، المشتمل على مسبة رب العالمين ووصفه بكل صفة ناقصة، ونفي حقائق أوصافه الكاملة، والافتراء عليه وعلى رسله وكتبه، وجعل المخلوق الناقص من جميع الوجوه مساويًا للخالق الكامل من جميع الوجوه، بتوحيد الأنبياء والمرسلين المشتمل على تعظيم رب العالمين وتقديسه، والثناء عليه بأكمل الثناء، ووصفه بكل صفة كمال، وتنزيهه عن التمثيل والتشبيه، ومشاركة أحد من المخلوقات في خصائص صفاته المقدسة. وكيف يوزن توحيد يرقى بمن قام به إلى أعلى عليين بتوحيد ينزل بصاحبه إلى أسفل سافلين؟ أم كيف يوزن توحيد يجعل من اتصف به هاديًا مهديًّا وطاهرًا مرضيًّا بتوحيد يكسب أهله الضلال والإضلال، وأرذل الخصال، والشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي؟

توحيدهـم نوعـان قولـي وفعـ ـلي كـلا نـوعـيـه ذو بـرهـان

يعني أن توحيد الأنبياء والمرسلين ينقسم قسمين:

أحدهما: التوحيد الفعلي، وهو إفراد الله بالمحبة والذل وسائر العبادات والتقربات، ويأتي في آخر هذه الفصول، وهو المعبر عنه بتوحيد العبادة، وبتوحيد الألوهية. وسمي توحيدًا فعليًّا؛ لأنه يتضمن أفعال القلوب والجوارح، فهو توحيد الله بأفعال العبيد، وألا يتخذ له شريك ولا ند.

والثاني: التوحيد القولي المشتمل على أقوال القلوب، وهو اعترافها واعتقادها، وعلى أقوال اللسان، والثناء على الله به. وهذا النوع هو توحيد الأسماء والصفات، الذي يدخل فيه توحيد الربوبية، وكل واحد من النوعين له براهين وأدلة عقلية ونقلية، فبدأ المصنف

رحمه الله بالتوحيد القولي فقال:

فـالأول القولـي ذو نوعيـن أيـ ـضًا في كتاب اللـه موجودان
إحداهمـا سـلب وذا نوعان أيـ ـضًـا فـيـه مـذكـوران
سلب النقائص والعيوب جميعها عـنـه هـمـا نـوعـان مـعـقـولان

يعني أن التوحيد القولي على نوعين موجودين في كتاب الله: أحدهما: سلب، أي نفي للنقائص والعيوب عن الله، والثاني: إثبات الصفات الكاملة لله، كما سيأتي إن شاء الله. وبدأ بالسلب؛ لأنه وسيلة ومقصود لغيره، فإن المقصود إثبات صفات المدح والحمد، وكل ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله من النقائص فإنه متضمن للمدح والثناء بضد ذلك النقص، من الأوصاف الحميدة والأفعال الرشيدة. وهذا السلب على قسمين، ذكرهما المصنف بقوله:

سـلب لمتصـل ومنفصـل هما نـوعـان مـعـروفـان أمـا الثاني
سلب الشريك مع الظهير مع الشفيـ ـع بـدون إذن الخالـق الديان
وكذاك سلب الزوج والولد الذي نسـبوا إليـه عابـدو الصلبـان
وكـذاك نفي الكـفء أيضًا والولي لنـا سـوى الرحمـن ذي الغفران

يعني أن ما ينزه الله عنه من النقص ويسلب عنه من العيوب، نوعان:

سلب لمتصل، وضابطه: نفي ما يناقض ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، كما سيأتي.

وسلب لمنفصل، وضابطه: تنزيه رب العالمين أن يشاركه أحد من الخلق في خصائصه التي لا تكون لغيره، وذلك كنفي الشريك لله، فإن الله متفرد بالملك والقدرة والتدبير، فليس له شريك في الملك، وليس له أيضًا ظهير؛ أي عوين يعاونه على خلق شيء من المخلوقات أو تدبيرها، لكمال قدرته وسعة علمه ونفوذ مشيئته، وعجز المخلوقين وعدم حولهم

وقوتهم إلا بالله، فالشريك والظهير منفيان عنه مطلقًا، وأما الشفيع فإنه ينفى عنه أن يشفع أحد عنده على وجه يكون نقصًا في حق الله، كأن يشفع عنده أحد بغير إذنه؛ كما يشفع الوزراء عند الملوك والسلاطين. وأما الشفاعة عنده بإذنه فإنها ثابتة، كما أثبتها الله في عدة مواضع من كتابه؛ وذلك لأنها دالة على كمال رحمته تعالى وعموم إحسانه، فإنها من رحمته بالشافع والمشفوع له، فالشافع ينال بها الأجر والثناء من الله ومن خلقه، والمشفوع له يرحمه الله على يد من أمره بالشفاعة فيه، ومع هذا فلا يأذن لأحد بالشفاعة إلا فيمن ارتضى قوله وعمله، وهو من كان مخلصًا متابعًا للرسول. قال تعالى نافيًا هذه المراتب الثلاثة: الملك والشركة فيه، والعوين له، والشفاعة بغير إذنه عن كل من عبد من دونه من أهل السماء وأهل الأرض: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]. فقطع في هذه الآية كل سبب يتوسل به المشركون لدعوة غيره، وأن من كان بهذا الوصف لا ملك له بوجه من الوجوه، ولا شركة في الملك ولا معاونة ومظاهرة فيه، وليس له شفاعة بدون إذن الله - لا يستحق من العبادة مثقال ذرة.

وكذلك يسلب وينفى عن الله الزوجة والولد الذي نسبه إليه عباد الصلبان، وهم النصارى، حيث قالوا: المسيح ابن الله، وكذلك نسبه إليه عباد الأصنام، حيث قالوا: الملائكة بنات الله، فكذب الله كل من أثبت له زوجة أو ولدًا فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[الإخلاص: ١ - ٤]. وقال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الزخرف: ٨١]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[التوبة: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ

مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [المائدة: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٠، ١٠١]... إلى غير ذلك من الآيات النافيات عن الله أن يتخذ صاحبة أو ولدًا، لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الغني الذي لا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه من الوجوه، ولأنه المالك لكل شيء، وكل الخلق مملوكون فقراء إليه. فمن كان كذلك فمن أين يتخذ الصاحبة أو الولد، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

وقول المصنف:

.... نسبوا إليه عابدو الصلبان

هذا على لغة من يلحق الفعل المسند إلى الظاهر علامة التثنية والجمع، وهي لغة ضعيفة تحمل عليها الضرورة، واللغة الفصحى أن يفرد الفعل المسند إلى الظاهر، فيقال: نسب إليه عابدو الصلبان.

وقوله:

وكذاك نفي الكفؤ أيضًا ....

أي يتعين أن ينفي عن الله الكفؤ، الذي نفاه عن نفسه في قوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤]. ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥]. فلا تجعلوا لله الأنداد، ليس كمثله شيء، فليس أحد من الخلق مكافئًا لله، أي مساويًا له في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال؛ لأنه الخالق الكامل من كل وجه، وسواه مخلوق ناقص إن لم يكمله ربه بكماله اللائق به، فليس أحد له صفات تقارب صفات الله، أو له أفعال تشبه أفعال الله، بل

ليس لأحد من الخلق استقلال بفعل شيء أصلًا، حتى يعينه الله على أفعاله؛ ولهذا كانت أفعال العباد تابعة لمشيئته، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]. ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وكذلك مما ينفى عن الله أن يكون لنا ولي من دونه يحصل لنا المطالب الدينية والدنيوية، أو يدفع عنا مضار الدين والدنيا، بل ليس لنا ولي إلا هو، فهو الذي تولى خلقنا وتدبيرنا وتربيتنا العامة والخاصة، فالولاية العامة ولاية الخلق والتدبير، الشاملة للبر والفاجر. قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧]. والولاية الخاصة هي ولايته للذين آمنوا وكانوا يتقون، يخرجهم بها من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي إلى نور العلم والإيمان والطاعة، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وكذلك لا يتخذ أحدًا من خلقه وليًّا من الذل، لكمال اقتداره وعظمته، بل يتخذ منهم أولياء رحمة بهم وإحسانًا منه إليهم، يحبهم ويحبونه، والحاصل أنه ليس أحد من الخلق مساويًا لرب العالمين، أو مماثلًا أو عوينًا أو وزيرًا بوجه من الوجوه.

والأول التنزيـــه للرحمـــن عن	وصف العيوب وكل ذي نقصان
كالموت والإعيـــاء والتعب الذي	ينفـــي اقتـــدار الخالـــق الديـــان
والنوم والســنة التـــي هي أصله	وعزوب شـــيء عنه فـــي الأكوان

هذا القسم الأول من قسمي السلب المنفي عن الله، وهو التنزيه لله عن أن يتصف بعيب أو نقص يناقض كمال أوصافه، فهو موصوف بكل صفة كمال منزه عن ضدها وعن نقصها، فهو موصوف بكمال القدرة، منزه عمَّا يضادها من الموت والإعياء والتعب واللغوب، فإنه لو كان موصوفًا بشيء من ذلك لكان ناقص القدرة. قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ

أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[ق: ٣٨].

وهو تعالى موصوف بالحياة الكاملة التامة، منزه عمَّا يضادها من النوم والنعاس الذي هو أصل النوم، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ ﴾[البقرة: ٢٥٥]. وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام**»[1].

وكذلك هو موصوف بالعلم المحيط بكل شيء، يعلم ما في السماوات والأرض، ويعلم ما يسر العباد وما يعلنون، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. ومنزه عن كل ما ينافي ذلك، فلا يعزب؛ أي يغيب عن علمه وبصره وسمعه شيء في السماوات والأرض. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥]. وقال تعالى: ﴿ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [سبأ: ٣].

وكذلك العبث الذي تنفيه حكـ ـــمته وحمد الله ذي الإتقان
وكذاك ترك الخلق إهمالًا سدى لا يبعثون إلى معادٍ ثاني
كلا ولا أمر ولا نهي عليـ ـــهم من إله قادر ديَّان

أي وكذلك ينزه الله عن العبث في الخلق والأمر، وأنه خلق شيئًا عبثًا وباطلًا، أو شرع شيئًا عبثًا، لأنه حكيم حميد، فمن تمام حكمته وحمده إتقان المخلوقات وإحكامها، وإحسان المأمورات على أكمل وجه وأتمه، وهذا أمر مشهود في الخلق والأمر، تحير حكمته الألباب، ويستدل بما بان من الحكمة فيها على ما خفي على العباد، ومن تمام الحكمة أنه لم يخلق الخلق سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون على تلك الأوامر والنواهي بالبعث بعد الموت، فالحكمة والحمد دالان على أنه خلق المكلفين لينفذ فيهم أحكامه الشرعية، ثم بعد ذلك يبعثهم بعد موتهم إلى دار تجري فيهم أحكام الجزاء

(١) مسلم (٢٩٣).

والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. أي عن هذا الظن والحسبان، لأنه لا يليق بجلاله. وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٦ - ٣٨]. فالذي نقله في هذه الأطوار لا يليق به أن يتركه مهملًا سدى، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

وكذاك ظلم عباده وهو الغني ... فما له والظلم للإنسان

أي وكذلك ينزه الله تعالى عن الظلم للعباد، بأن يزيد في سيئاتهم أو ينقص من حسناتهم، أو يعاقبهم على ما لم يفعلوا: فإن الظلم لا يفعله إلا من هو محتاج إليه، أو من هو موصوف بالجور، وأما الله تعالى الغني عن خلقه من جميع الوجوه، العادل الحميد، فما له وظلم العباد؟ قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]. ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]. وقال تعالى على لسان نبيه محمد: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا**». رواه مسلم من حديث أبي ذر[١].

وكذاك غفلته تعالى وهو عـ ... ـلام الغيوب فظاهر البطلان

وكذلك النسيان جل إلهنا ... لا يعتريه قط من نسيان

وكذاك حاجته إلى طعم ورز ... ق وهو رزاق بلا حسبان

أي وكذلك ينزه الله تعالى عن الغفلة والنسيان، لأنه عالم الغيب والشهادة، وعلمه محيط، لا يعرض له ما يعرض لعلم غيره، من خفاء بعض المعلومات أو نسيانها أو الذهول عنها. كما قال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]. وكذلك ينزه

(١) مسلم (٢٥٧٧).

تعالى عن احتياجه إلى الطعام والرزق، لأنه تعالى هو الرزاق لجميع الخلق، الغني عنهم، وكلهم فقراء إليه محتاجون إليه. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

هـــذا وثاني نوعي الســـلب الذي	هـــو أول الأنـــواع فـــي الميزان
تنزيه أوصـــاف الكمال لـــه عن الـ	ـــتشبيه والتمثيـــل والنكـــران
لســـــنا نشــــبه وصفه بصفاتنا	إن المشــــبه عابـــد الأوثـــان
كلا ولا نخليــــه مــــن أوصافه	إن المعطــــل عابـــد البهتان
أو عطـــل الرحمـــن مـــن أوصافه	فهـــو الكفـــور وليـــس ذا إيمان
مـــن مثـــل اللـــه العظيـــم بخلقه	فهو النســـيب لمشـــرك نصراني

هذا النوع الثاني من نوعي السلب الذي ينزه الله عنه الذي هو أول النوعين الثبوتي والسلبي، في الميزان أي في هذه القصيدة. وتقدم النوع الأول من قسمي السلب، وهو السلب المتصل والمنفصل، المتضمن لتنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مشاركة أحد من الخلق له في صفاته الخاصة به، وعما يناقض كماله. وهذا النوع يرجع إلى حفظ كماله ونعوت جلاله، عن تشبيهها بصفات الخلق، فلا يقال: علم الله أو قدرته كعلم الخلق أو قدرهم، ولا رحمته كرحمة خلقه، ونحو ذلك؛ فإن هذا كله تشبيه لله بالخلق. ومن كان بهذا الحال فإنه يمثل بفكره صنمًا ووثنًا يعبده، كما فعل النصارى بالمسيح ابن مريم، جعلوه إلههم ومعبودهم، فالمشبه نسيب ومشبه للنصراني، ورب العالمين فوق ما يظنون، وأعلى مما يتوهمون، فإنه كما أن ذاته لا تشبهها ذوات المخلوقين، فصفاته لا تشبهها صفاتهم.

وعن تعطيل صفاته ونفيها، كما فعلته الجهمية المعطلة ومن تبعهم من المتكلمين، فإن ذلك رد لنصوص الكتاب والسنة، الدالة على اتصافه بصفات الكمال، فيتوهم المعطل أن

ظاهر النصوص يدل على التشبيه، فينفيها بوهمه الفاسد، ويصير قلبه متعبدًا للعدم المحض، لأنه لا يعقل ذات ليس لها صفة ولا نعت، ولا يعقل من قول الجهمية ومن تبعهم: «إن الله ليس بداخل العالم ولا خارجه» إلا العدم المحض والنفي الصرف، فإنه كفر بآيات الله، وتكذيب للرسل، ورد لما جاءوا به. ولهذا قال المصنف

.... **فهو الكفـــــور وليس ذا إيمان**

ولكن سيأتي إن شاء الله في كلام المصنف حكم الجهمية وغيرهم من المعطلة، والتمييز بين من يكفر منهم ومن يعذر بتأويله.

وبالجملة فالناس في هذا المقام ثلاثة أقسام: مؤمن موحد، ومشبه، ومعطل.

فالمؤمن الموحد يصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله من صفات الكمال، على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته، من غير تمثيل ولا تشبيه، ومن غير تحريف ولا تعطيل لشيء من أوصاف الله.

والمشبه هو الذي يشبه صفات الخالق بصفات المخلوقين، أو يتعرض لمعرفة كنهها وحقيقتها التي لا يعلمها غير الله، **والمعطل** هو من نفى شيئًا من صفات الله.

وكل من المشبه والمعطل قد حُرِمَ الوصول إلى معرفة ربه على وجهها، وابتلي بالتكلف والتحريف لنصوص الوحي، وكما أنه مناقض للوحي فهو مناقض لما دلت عليه الفطر التي لم تغير، والعقول المستقيمة، فلا معقول لديهم ولا منقول.

وهدى الله أهل السنة والجماعة لاتباع الحق المنقول عن الله وعن رسله، والمعقول لذوي الألباب، وذلك يظهر بتدبر ما عليه هذه الطوائف من المسائل والدلائل وتحقيقها، ونسأله الهداية لأقوم الطرق وأهداها.



فصل

في النوع الثاني من النوع الأول وهو الثبوت

وهذا أشرف القسمين وأجلهما، وهو المقصود لذاته، ومجمله ما ذكره المصنف في هذا البيت حيث قال:

هذا ومن توحيدهم إثبات أو ... صاف الكمال لربنا الرحمن

أي من توحيد الأنبياء والمرسلين وأتباعهم إثبات كل صفة للرحمن وردت في الكتب الإلهية والنصوص النبوية، ثم شرع يفصل شيئًا منها، فقال:

كعلوه سبحانه فوق السما ... وات العلى بل فوق كل مكان

فهو العلي بذاته سبحانه ... إذ يستحيل خلاف ذا ببيان

وهو الذي حقًّا على العرش استوى ... قد قام بالتدبير للأكوان

أما علو الباري تعالى فوق جميع المخلوقات ومباينته لها، فقد دل عليها مع النصوص الكثيرة العقل الصريح، فإنه عليٌّ بذاته فوق جميع مخلوقاته، ويستحيل ألا يكون عليًّا، فإنه يستحيل ويمتنع أن يكون هو نفس المخلوقات، ويمتنع أيضًا أن يكون حالًّا فيها، فتعين أن يكون فوقها مباينًا لها.

وأما استواؤه على العرش العظيم فيستفاد من النقل صريحًا، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]. وسئل الإمام مالك -رحمه الله- عن كيفية الاستواء، فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب. والسؤال عنه (أي عن الكيفية) بدعة، فكما أنه تثبت لله صفاته على الوجه اللائق بجلاله وعظمته، فالاستواء من جملة أوصافه الفعلية،

فاستوى على العرش، واحتوى على جميع الملك، يدبر الأمر في أقطار العالم العلوي والسفلي، فلا يتحرك متحرك إلا بإذنه، ولا يوجد شيء إلا بمشيئته. قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾. وقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣].

حــي مــريــد قـــادر مــتـكـلــم	**ذو رحمـــــة وإرادة وحنـــــان**

أي: هو تعالى حي حياة كاملة جامعة لجميع صفات الذات، لا تأخذه سنة ولا نوم، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وهو المريد القادر؛ أي: كامل الإرادة والقدرة، وجمع بينهما لأن جميع الأفعال المتعلقة بذاته: كالاستواء والنزول إلى السماء الدنيا والمجيء يوم القيامة ونحو ذلك، والمتعلقة بخلقه: كالإحياء والإماتة والخلق، وجميع أنواع التدبير، وجميع الأقوال تصدر عن القدرة والإرادة، فما وجد عُلم أن الله أراده وخلقه، وما لم يوجد علم أن الله لم يرده، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وإذا كان كامل القدرة والإرادة علم أنه ما في الكون من حول وقوة إلا مستفادة وتابعة لحول الله وقوته.

متكلم؛ أي: لم يزل ولا يزال موصوفًا بالكلام، فيكلم بما أراد، كيف أراد، وحيث أراد.

ذو رحمة وحنان؛ أي: قد اتصف بالرحمة، وعم خلقه بالنعم والإحسان، والبر والحنان، واللطف والامتنان.

هــو أول هـــو آخــر هـــو ظاهر	**هـــو بـاطــن هـــي أربــع بـــوزان**
مـــا قبلـــه شـــيء كـــذا ما بعده	**شـــيء تعالى الله ذو الســـلطان**
مـــا فوقـــه شـــيء كـــذا ما دونه	**شـــيء وذا تفســـير ذي البرهـــان**
فانظـــر إلـــى تفســـيره بتدبر	**وتـــبـــصـــر وتـــعـــقـــل لـــمـــعـــانـــي**
وانظر إلى ما فيـــه من أنواع معـ	**ـــرفة لخالقنـــا العظيـــم الشـــان**

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]. وقال

النبي ﷺ في الحديث الثابت عنه: «**أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**...» الحديث[1].

ولهذا فسر المصنف هذه الأسماء الأربعة المباركة بما فسرها به النبي ﷺ وقال: «وذا تفسير ذي البرهان» أي تفسير الرسول الذي كلامه أعلى مراتب البيان والإيضاح بعد كلام الله تعالى، فإنه مشتمل على إثبات معانيها ونفي ما ينافيها ويضادها. وحث المصنف على تدبر هذه الأسماء الأربعة وتعقل معانيها، وأنها مشتملة على أمور عظيمة من أنواع معرفة الله تعالى، التي بها تحيا القلوب وتستنير الأفئدة، فلنسق كلام المؤلف في **سفر الهجرتين** على هذه الأسماء الأربعة فإن فيه الشفاء والكفاية.

قال رحمه الله على كلام شيخ الإسلام الأنصاري في قوله: الثانية الرجوع إلى فضل الله، ومطالعة سبقه الأسباب والوسائط، فبفضل الله ورحمته وجدت منه الأعمال والأقوال الشريفة والمقامات العلية، وبفضله ورحمته وصلوا إلى رضاه ورحمته وقربه وكرامته وموالاته، وكان سبحانه هو الأول في ذلك كله، كما أنه الأول في كل شيء، وكان هو الآخر في ذلك كما هو الآخر في كل شيء، فمن عبده باسمه الأول والآخر حصلت له حقيقة هذا الفقر، فإن انضاف إلى ذلك عبوديته باسمه الظاهر والباطن فهذا هو العارف الجامع لمتفرقات التعبد ظاهرا وباطنا، فعبوديته باسمه الأول تقتضي التجرد من مطالعة الأسباب والوقوف والالتفات إليها، وتجريد النظر إلى مجرد سبق فضله ورحمته، وأنه هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد، إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده؛ وأي وسيلة كانت هناك؟ وإنما هو عدم محض، وقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، فمنه سبحانه الإعداد، ومنه الإمداد، وفضله سابق على الوسائل، والوسائل من مجرد فضله وجوده، لم تكن بوسائل أخرى، فمن نزل اسمه «الأول» على هذا المعنى أوجب له فقرًا خاصًّا وعبودية خاصة، وعبوديته باسمه «الآخر» تقتضي أيضًا عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها،

(١) مسلم (٢٧١٣).

فإنها تعدم لا محالة، وتنقضي بالآخرية، ويبقى الدائم الباقي بعدها. فالتعلق بها تعلق بما يعدم وينقضي، والتعلق بالآخر سبحانه تعلق بالحي الذي لا يموت ولا يزول، فالمتعلق به حقيق ألا يزول ولا ينقطع، بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يفنى به، كما نظر العارف إليه بسبق الأولية، حيث كان قبل الأسباب كلها، فكذلك نظره إليه ببقاء الآخرية، حيث يبقى بعد الأسباب كلها، فكان الله ولم يكنِ شيءٌ غيرِه، وكل شيء هالك إلا وجهه.

فتأمل عبودية هذين الاسمين وما يوجبانه من صحة الاضطرار إلى الله وحده ودوام الفقر إليه، دون كل شيء سواه، وأن الأمر ابتدأ منه وإليه يرجع، فهو المبتدي بالفضل، حيث لا سبب ولا وسيلة، وإليه تنتهي الأسباب والوسائل، فهو أول كل شيء وآخره. وكما أنه رب كل شيء وفاعله وخالقه وبارئه، فهو إلهه وغايته التي لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال إلا بأن يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده، فهو الأول الذي ابتدأت منه المخلوقات، والآخر الذي انتهت إليه عبودياتها وإراداتها ومحبتها، فليس وراء الله شيء يقصد ويعبد ويتأله، كما أنه ليس قبله شيء يخلق ويبرئ، فكما كان واحدًا في إيجادك فاجعله واحدًا في تألهك إليه لتصح عبوديتك، كما ابتدأ وجودك وخلقك منه فاجعله نهاية حبك وإرادتك وتألهك إليه، لتصح عبوديته باسمه الأول والآخر. وأكثر الخلق تعبدوا له باسمه الأول، وإنما الشأن في التعبد له باسمه الآخر، فهذه عبودية الرسل وأتباعهم، فهو رب العالمين وإله المرسلين سبحانه وبحمده.

وأما عبوديته باسمه الظاهر فكما فسره النبي ﷺ بقوله: «**وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»[1]. فإذا تحقق للعبد علوه المطلق على كل شيء بذاته، وأنه ليس فوقه شيء البتة، وأنه قاهر فوق عباده، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. صار لقلبه أَمَمًا يقصده، وربًّا يعبده، وإلهًا يتوجه إليه. بخلاف من لا يدري أين ربه، فإنه ضائع مشتت القلب، ليس لقلبه

(١) مسلم (٢٧١٣).

قبلة يتوجه نحوها، ولا معبود يتوجه إليه قصده.

وصاحب هذه الحال إذا سلك وتأله وتعبد طلب قلبه إلهًا يسكن إليه ويتوجه إليه، وقد اعتقد أنه ليس فوق العرش إلا العدم، وأنه ليس فوق العالم إله يعبد ويصلى له ويُسجد، وأنه ليس على العرش من يصعد إليه الكلم الطيب ولا يرفع إليه العمل الصالح، جال قلبه في الوجود جميعه، فوقع في الاتحاد ولا بد، وتعلق قلبه بالوجود المطلق الساري في المعينات، فاتخذه إلهه من دون إله الحق، وظن أنه قد وصل إلى عين الحقيقة، وإنما تأله وتعبد لمخلوق مثله، ولخيال نحته بفكره، واتخذه إلهًا من دون الله سبحانه، وإله الرسل وراء ذلك كله ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٣، ٤].

وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ إلى قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٤ -٩]. فقد تعرف سبحانه إلى عباده بكلامه معرفة لا يجحدها إلا من أنكره سبحانه، وإن زعم أنه مقر به.

والمقصود أن التعبد باسمه «الظاهر» يجمع القلب على المعبود، ويجعل له ربًّا يقصده، وصمدًا يصمد إليه في حوائجه، وملجأ يلجأ إليه. فإذا استقر ذلك في قلبه، وعرف ربه باسمه الظاهر استقامت له عبوديته، وصار له معقل وموئل يلجأ إليه، ويهرب إليه، ويفر كل وقت إليه.

وأما تعبده باسمه «الباطن» فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكل اللسان عن وصفه، ثم تصطلم الإشارة إليه، وتجفو العبارة عنه، فإنه يستلزم معرفة بريئة من شوائب التعطيل، مخلصة من فرث التشبيه، منزهة عن رجس الحلول والاتحاد، وعبارة مؤدية للمعنى كاشفة

عنه، وذوقًا صحيحًا سليمًا من أذواق أهل الانحراف، فمن رزق هذا فهم معنى اسمه «الباطن»، وصح له التعبد به. وسبحان الله كم زلت في هذا المقام أقدام، وضلت فيه أفهام، وتكلم فيه الزنديق بلسان الصديق، واشتبه فيه إخوان النصارى بالحنفاء المخلصين، لنبو الأفهام عنه، وعزة تخلص الحق من الباطل فيه، والتباس ما في الذهن بما في الخارج، إلا على من رزقه الله بصيرة في الحق، ونورًا يميز به بين الهدى والضلال، وفرقانًا يفرق به بين الحق والباطل، ورزق مع ذلك اطلاعًا على أسباب الخطأ وتفرق الطرق ومثار الغلط، وكان له بصيرة في الحق والباطل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وباب هذه المعرفة والتعبد هو معرفة إحاطة الرب سبحانه بالعالم وعظمته، وأن العوالم كلها في قبضته، وأن السماوات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]. وقال: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠].

ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين اسم العلو، الدال على أنه الظاهر وأنه لا شيء فوقه، واسم العظمة الدال على الإحاطة وأنه لا شيء دونه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]. وقال ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]. وهو تبارك وتعالى كما أنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء، فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء، بل ظهر على كل شيء فكان فوقه، وبطن فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه، وكل شيء في قبضته، وليس شيء في قبضة نفسه، فهذا قرب الإحاطة العامة.

وأما القرب المذكور في القرآن والسنة فقرب خاص بين عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن. قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. فهذا قربه من داعيه، وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ

ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦]. فذكَّر الخبر وهو قريب، عن لفظ الرحمة وهي مؤنثة، إيذانًا بقربه تعالى من المحسنين، فكأنه قال: إن الله برحمته قريب من المحسنين. وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وأقرب ما يكون الرب من عبده في جوف الليل**»[1]. فهذا قرب خاص، غير قرب الإحاطة وقرب البطون.

وفي **الصحيح** من حديث أبي موسى أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر، فارتفعت أصواتهم بالتكبير، فقال: «**أيها الناس أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إن الذي تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»[2]. فهذا قربه من داعيه وذاكره، يعني: فأي حاجة بكم إلى رفع الأصوات، وهو لقربه يسمعها وإن خفضت، كما يسمعها إذا رفعت، فإنه سميع قريب؟! وهذا القرب هو من لوازم المحبة، فكلما كان الحب أعظم كان القرب أكثر.

وقد تستولي محبة المحبوب على قلب محبه بحيث يفنى بها عن غيرها، ويغلب محبوبه على قلبه حتى كأنه يراه ويشاهده، فإن لم يكن عنده معرفة صحيحة بالله وما يجب له وما يستحيل عليه، وإلا طرق باب الحلول إن لم يلجه، وسببه ضعف تمييزه، وقوة سلطان المحبة، واستيلاء المحبوب على قلبه، بحيث يغيب عن ملاحظة ما سواه. وفي مثل هذه الحال يقول: سبحاني، أو ما في الجبة إلا الله، ونحو هذا من الشطحات التي نهايتها أن يغفر له ويعذره، لسكره وعدم تمييزه في تلك الحال.

فالتعبد بهذا الاسم هو التعبد بخالص المحبة وصفو الوداد، وأن يكون الإله أقرب إليه من كل شيء، وأقرب إليه من نفسه، مع كونه ظاهرًا ليس فوقه شيء، ومن كثف ذهنه وغلظ طبعه عن فهم هذا المعنى فليضرب عنه صفحًا إلى ما هو أولى به، فقد قيل:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

(١) مسلم (٢١٥).

(٢) البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤)

فمن لم يكن له ذوق من قرب المحبة، ومعرفة بقرب المحبوب من محبه غاية القرب وإن كان بينهما غاية المسافة، ولا سيما إذا كانت المحبة من الطرفين، وهي محبة بريئة من العلل والشوائب والأعراض القادحة فيها، فإن المحب كثيرًا ما يستولي محبوبه على قلبه وذكره، ويفنى عن غيره، ويرق قلبه، وتتجرد نفسه، فيشاهد محبوبه كالحاضر معه القريب إليه، وبينهما من البعد ما بينهما. وفي هذه الحال يكون في قلبه وجوده العلمي، وفي لسانه وجوده اللفظي، فيستولي هذا الشهود عليه ويغيب به، فيظن أن في عينه وجوده الخارجي، لغلبة حكم القلب والروح، كما قيل:

خيالك فـــي عيني وذكرك في فمي ومثـــواك فـــي قلبي فأيـــن تغيب

هذا ويكون ذلك المحبوب بينه وبين عدوه وما بينهما من البعد، وإن قربت الأبدان وتلاصقت الديار، والمقصود أن المثال العلمي غير الحقيقة الخارجية، وإن كان مطابقًا لها، لكن المثال العلمي محله القلب، والحقيقة الخارجية محلها الخارج.

فمعرفة هذه الأسماء الأربعة - وهي الأول والآخر والظاهر والباطن - هي أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه وفهمه. واعلم أن لك أنت أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، بل كل شيء فله أول وآخر وظاهر وباطن، حتى الخطرة واللحظة والنفس، وأدنى من ذلك وأكثر، فأولية الله عز وجل سابقة على أولية كل ما سواه، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه، فأوليته سبقه لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء، وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء، بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه، هذا لون وهذا لون.

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة، وهي إحاطتان: زمانية ومكانية، فإحاطة أوليته وآخريته بالقبل والبعد، فكل سابق انتهى إلى أوليته، وكل آخر انتهى إلى آخريته، فإحاطة أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وإحاطة ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن،

فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده. فالأول قِدَمُهُ، والآخر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودنوه. فسبق كل شيء بأوليته، وبقي بعد آخر كل شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه، فلا تواري منه سماء سماء، ولا أرض أرضًا، ولا يحجب عنه ظاهر باطنًا، بل الباطن له ظاهر، والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية.

فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد، فهو الأول في آخريته، والآخر في أوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

هذا آخر كلام المصنف رحمه الله، وهو في غاية النفاسة في هذا الموضع، وكرر العبارات المتنوعة لأجل أن يفهم المعنى فهمًا صحيحًا تامًّا، لأن هذا الموضع من أهم المواضع وأعظمها حاجة.

وهو العلي فكل أنواع العلـ ... ـو له فثابتة بلا نكران

يعني أن الله تعالى هو العلي، الذي له جميع أنواع العلو ثابتة شرعًا وعقلًا، بلا إنكار ولا تعطيل لشيء منها، فله علو الذات لأنه فوق المخلوقات، فوق العرش العظيم، قد باين العالم العلوي والسفلي، وله علو القدر، وهو علو صفاته وعظمتها، بحيث كانت صفاته عالية عظيمة، لا يماثلها ولا يقاربها صفة شيء من المخلوقات، بل لا يقدر الخلق كلهم أن يحيطوا علمًا ببعض صفاته. قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. وله علو القهر، فعلا على جميع المخلوقات وقهرها، فكلها تحت قبضته، ونواصيها بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه، ولو اجتمعوا على إيجاد فعل أو حركة لم يردها الله لم يقدروا على ذلك، وذلك لكمال اقتداره وعظمته، وشدة افتقار المخلوقات إليه من كل وجه.

وهو العظيم بكل معنى يوجب الـ ... ـتعظيم لا يحصيه من إنسان

يريد أن الله تعالى عظيم له كل وصف ومعنى يوجب التعظيم، بحيث لا يقدر إنسان ولا مخلوق أن يحصي الثناء على الله بعظمته. ومعاني التعظيم نوعان:

أحدهما: أنه تعالى موصوف بكل صفة كمال، وله من ذلك الكمال الذي وصف به أكمله وأعظمه وأجله، فله العلم المحيط، والقدرة النافذة، والكبرياء والعظمة، حتى إن من عظمته أن السماوات والأرض في كف الرحمن كالخردلة في يد المخلوق، كما قال ذلك ابن عباس رضي الله عنهما. وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٤، ٥]. وقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني شيئا منهما عذبته**»[1]. وقال النبي ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه، في جنة عدن**»[2]. فلله تعالى الكبرياء والعظمة، الوصفان اللذان لا يقادر قدرهما، ولا يبلغ كنههما.

النوع الثاني من معاني عظمته تعالى: أنه لا يستحق أحد التعظيم من الخلق غيره تعالى، فيستحق على العباد أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وأعمالهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته، والذل له والخوف منه، وإعمال اللسان بالثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته. ومن تعظيمه أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، ومن تعظيمه وإجلاله ألا يعترض على شيء مما خلقه أو شرعه، بل يُخضع لحكمته، وينقاد لحكمه.

وهو الجليل فكل أوصاف الجلا ... ل له محققة بلا بطلان
وهو الجميل على الحقيقة كيف لا ... وجمال سائر هذه الأكوان

---

(١) أبو داود (٤٠٩٠).
(٢) أحمد (١٩٧٣١).

مـن بعض آثـار الجميـل فربها   أولى وأجـدر عنـد ذي العرفان

فجماله بالـذات والأوصاف والـ   أفعـال والأسـماء بالبرهـان

لا شـيء يشـبه ذاتـه وصفاتـه   سـبحانه عـن إفـك ذي بهتـان

يعني أن الله تعالى هو الجليل الذي له جميع أوصاف الجلال، وهي أوصاف العظمة والكبرياء، ثابتة لله محققة، لا يفوته منها وصف جلال وكمال، وكذلك هو الجميل بالذات والأوصاف والأفعال والأسماء، فإن ذاته تعالى لها من الجمال ما لا يمكن مخلوقًا أن يعبر عن بعض جماله، حتى إن أهل الجنة مع ما هم فيه من النعيم الذي لا يوصف، واللذات التي لا يقادر قدرها، والأفراح والسرور، إذا رأوا ربهم وتمتعوا بجماله نسوا ما هم فيه من النعيم، وتلاشى ما هم فيه من الأفراح، وودوا أن لَو تدوم لهم هذه الحال، واكتسوا من جماله جمالًا إلى جمالهم، وكانت قلوبهم دائمًا في شوق ونزوع إلى رؤية ربهم، حتى إنهم يفرحون بيوم المزيد فرحًا تكاد تطير له القلوب.

وكذلك هو الجميل في أسمائه؛ لأن أسماءه كلها حسنى، بل هي أحسن الأسماء على الإطلاق وأجملها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. ولهذا لا يسمى باسم محتمل لمدح وغيره، بل لا يسمى إلا بالأسماء الدالة على غاية المدح والحمد.

وكذلك هو الجميل في أوصافه، فإن أوصافه كلها أوصاف كمال، ونعوت ثناء وحمد، فهي أوسع الصفات وأعمها وأكثرها تعلقًا، خصوصًا أوصاف الرحمة والبر والإحسان والجود والكرم. وكذلك أفعاله تعالى كلها جميلة، فإنها دائرة بين أفعال البر والإحسان التي يحمد عليها ويشكر ويثنى عليه بها، وبين أفعال العدل التي يحمد عليها لموافقتها الحكمة والحمد، فليس في أفعاله عبث ولا سفه ولا ظلم، بل كلها هدى ورحمة وعدل ورشد. ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]. ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧].

ثم استدل المصنف -رحمه الله- بدليل عقلي على جمال الباري، فقال: كيف لا، أي: كيف لا يكون جميلًا والحال أن جمال جميع الأكوان من بعض آثار الجميل، فربها الذي أعطاها الجمال أحق وأجدر منها بالجمال، فكل جمال في الدنيا والآخرة باطني وظاهري، مما تبهر له العقول، وتحير له الأفئدة، خصوصًا ما يعطى أهل الجنة في الجنة من الجمال، لهم ولنسائهم اللاتي لو بدا كف واحدة منهن إلى الدنيا لطمس نوره نور الشمس، كما تطمس الشمس ضوء النجوم، أليس الذي كساهم ذلك الجمال ومنَّ عليهم بذلك الكمال أحقَّ منهم به؟

فهذا دليل عقلي واضح مسلَّم المقدمات على هذه المسألة العظيمة. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]. أي كل ما وجد في المخلوقات من كمال لا يستلزم نقصًا فإن معطيه أحق به من المُعطَى، بما لا نسبة له بينه وبينهم إلا كنسبة ذواتهم إلى ذاته، وصفاتهم إلى صفاته، فالذي أعطاهم السمع والبصر والعلم والقدرة والجمال والكمال أحق منهم بذلك، وكيف يعبر أحد عن جماله وقد قال أعلم الخلق به: «**لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[(١)]. وقال: «**حجابه النور، ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[(٢)].

ولهذا قال المؤلف:

لا شيء يشبه ذاته وصفاته ... سبحانه عن إفك ذي بهتان

سبحانه؛ أي: تنزه وتقدس. إفك ذي بهتان؛ أي: كذب المفترين، الذين لم يقدروا الله حق قدره، ولا عظموه حق عظمته، حين عطلوا أوصافه التي نطقت بها الكتب، وصرحت بها الرسل، وحسبهم خسارًا ومقتًا أن حرموا من الوصول إلى معرفته والابتهاج بمحبته.

وجمع المؤلف بين الجليل والجميل؛ لأن تمام التعبد لله هو التعبد له بهذين الاسمين الكريمين، فالتعبد بالجليل يقتضي تعظيمه وخوفه وهيبته وإجلاله، والتعبد باسمه الجميل

---

(١) أبو داود (١٤٢٧). (٢) مسلم (١٧٩).

يقتضي محبته والتأله له، وأن يبذل له خالص المحبة وصفو الوداد، بحيث تسبح القلوب في رياض معرفته وميادين جماله، وتبتهج بما يحصل لها من آثار جماله وكماله، فإن الله ذو الجلال والإكرام.

وهـو المجيـد صفاتـه أوصـاف تعـ ـظيم فشأن الوصف أعظم شان

يعني أن معنى اسمه «المجيد» أنه عظيم الصفات واسعها، فكل وصف من أوصافه فشأنه عظيم، فهو العليم الكامل في علمه، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يعجزه شيء، الحليم الكامل في حلمه.

قال المصنف في **بدائع الفوائد**[1]: فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، فمنه: استمجد المرخ والعفار، وأمجد الناقة علفًا، ومنه: رب العرش المجيد، صفة للعرش لسعته وعظمته وشرفه.

وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله، كما علَّمَناه ﷺ يعني قوله: «**اللهم صل على محمد، وبارك على محمد، إنك حميد مجيد**»[2]. لأنه في مقام طلب المزيد، والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، ولا يحسن: إنك أنت السميع البصير، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه. ومنه الحديث الذي في **المسند والترمذي**: «**أَلِظُّوا**[3] **بيا ذا الجلال والإكرام**»[4]. ومنه: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال**

(١) ١/ ١٦٠.

(٢) أحمد (١٣٩٦).

(٣) أي: الزموه واثبتوا عليه وأكثروا من قوله والتلفظ به في دعائكم.

(٤) أحمد (١٧٥٩٦)، والترمذي (٣٥٢٤).

والإكرام»[1]. فهذا سؤال له، وتوسل إليه بحمده، وأنه لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعًا عند المسئول. وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصره الله. انتهى كلامه.

وهو السميع يرى ويسمع كل ما ... في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر ... فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفى عليه بعيدها والداني
وهو البصير يرى دبيب النملة الـ ... ـسوداء تحت الصخر والصوان
ويرى مجاري القوت في أعضائها ... ويرى نياط عروقها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها ... ويرى كذاك تقلب الأجفان

هذه الأبيات في شرح هذين الاسمين الكريمين «السميع، البصير». وكثيرًا ما يقرن الله بينهما، كمثل قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]. فكل من السمع والبصر محيط بجميع متعلقاته الظاهرة والباطنة، فالسميع هو الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات، فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها - سرها وعلانيتها - حتى كأنها لديه صوت واحد، لا تختلط عليه الأصوات، ولا تغلطه اللغات، والقريب منها والبعيد والسر والعلانية كلها عنده سواء. قال تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] .وقال تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. قالت عائشة رضي الله عنها: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشتكي إلى رسول الله ﷺ وأنا في جانب الحجرة، وإنه ليخفى عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ الآية.

---

(١) أحمد (١٢٢٠٥).

وسمعه تعالى نوعان:

أحدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والخفية، وإحاطته بها إحاطة تامة.

والثاني: سمع الإجابة منه للسائلين والعابدين والمتضرعين، فيجيبهم ويثيبهم، ومنه قول العبد في صلاته: سمع الله لمن حمده، أي استجاب الله لمن حمده وأثنى عليه وعبده، ومنه قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ثم قال المصنف: «وهو البصير». أي الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسماوات، حتى أخفى ما يكون منها، فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى جميع أعضائها الظاهرة والباطنة، حتى إنه يرى سريان القوت في أعضائها الصغار جدًّا، ويرى سريان المياه في الأشجار وأغصانها وعروقها وجميع النباتات، ويرى نياط عروق النملة والبعوضة وأصغر من ذلك. فتبارك من تنبهر العقول عند التأمل لبعض صفاته المقدسة، وتشهد البصائر كماله وعظمته ولطفه، وخبرته بالغيب والشهادة والحاضر والغائب والخفي والجلي، ويرى تعالى خيانات العيون بلحظها، أي حين يلحظ العبد منظرًا يخفيه على جليسه، فالله تعالى يراه في تلك الحالة التي يحرص على إخفاء ملاحظته عن كل أحد، ويرى تقلب الأجفان حين يقلبها الناظر من آدمي أو ملك أو جني أو حيوان، وحين يطبقها ويفتحها. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩]. وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]. أي مطلع، ومحيط علمه بجميع المعلومات، وسمعه بجميع المسموعات، وبصره بجميع المرئيات ما نبصره وما لا نبصره.

وهو العليم أحاط علمًا بالذي ... في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه ... فهو المحيط وليس ذا نسيان

وكذاك يعلم ما يكون غدًا وما قد كان والموجود في ذا الآن

وكذاك أمر لم يكن لو كان كيف يكون ذا إمكان

هذا تفسير للعليم بأحسن تفسير وأجمعه، فهو تعالى العليم الذي له العلم العام للواجبات والممتنعات والممكنات، فيعلم نفسه الكريمة وصفاته المقدسة ونعوته العظيمة، وهي الواجبات التي لا يمكن إلا وجودها، ويعلم الممتنعات حال امتناعها، ويعلم ما يترتب على وجودها لو وجدت، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]. فهذا ونحوه من ذكره للممتنعات التي يعلمها، وإخباره بما ينشأ عنها لو وجدت على وجه الفرض والتقدير. ويعلم تعالى الممكنات، وهي التي يجوز وجودها وعدمها، ما وجد منها وما لم يوجد ما لم تقتض الحكمة إيجاده، فهو العليم الذي أحاط علمه بالعالم العلوي والسفلي، بحيث لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان، ويعلم الغيب والشهادة والظواهر والبواطن والجلي والخفي.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥]. وفي غيرها، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الحشر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤]. وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤]. وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٤]. وقال تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ

﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ [فصلت: ٤٧]. إلى غير ذلك من النصوص الدالة على شمول علم الله لكل شيء، وأنه لا يخفى عليه ظاهر ولا باطن، ولا بعيد ولا قريب، ولا يغفل عنه ولا ينساه، ولا يعرض لعلمه ما يعرض لعلم غيره، فإن علم المخلوق يعرض له عدم الإحاطة، ويعرض له النسيان لما علمه. والله تعالى كما قال المصنف:

.... فهو المحيط وليس ذا نسيان

كما قال تعالى: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

وقال الخضر - الذي قد علمه الله من لدنه علما كثيرًا، وخصه من علم الباطن بما ليس لموسى ولا لغيره - لموسى كليم الرحمن أعلم الخلق على الإطلاق بعد محمد وإبراهيم عليهم السلام، لما لقي الخضر ليتعلم منه، مرَّا على البحر، فنقر عصفور من البحر بمنقاره، فقال الخضر لموسى: **«ما نقص علمي وعلمك وعلم سائر الخلق من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر»**[(١)].

ولما ذكر المصنف - رحمه الله - إحاطة علم الله بجميع الأكوان، ذكر إحاطته بجميع الأزمان الحاضرة والماضية والمستقبلة، فقال: «وهو العليم بما يكون غدًا»، أي: المستقبلات، «وما قد كان» أي مضى من جميع الأمور الماضيات، «والموجود في ذا الآن»؛ أي: الحاضرات كلها، دقيقها وجليلها، قد أحاط الله بها علمًا. ولما خلق الله القلم قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال له: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة[(٢)]. ولهذا يجمع الله كثيرًا بين علمه المحيط وكتابته المحيطة بالأشياء، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي

---

(١) البخاري (١٢٢)، مسلم (٢٣٨٠).

(٢) الطبراني (١٠٥٩٥).

ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٠]. وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي من الأمور الماضية، ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي من الأمور المستقبلة، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال فرعون لموسى: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥١، ٥٢].

وحين تستكمل خلقة الآدمي يرسل الله إليه الملك، ويأمره بأربع كلمات، يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، فما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام، وطويت الصحف، وإذا مات الخلق وتفرقوا في جهات الأرض وفلوات القفار ولجج البحار وبطون الطيور والسباع، وصاروا رفاتًا، واضمحلت أوصالهم، وتلاشت أعضاؤهم فعلم الله محيط بهم ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق: ٤]. فإذا نفخ في الصور أرسل الله كل روح إلى جسدها الذي كانت تعمره، ثم يوقفهم على كل ما عملوا من خير وشر، أحصاه الله ونسوه، فيعلم مقادير أعمالهم، ومقادير ثوابها وعقابها، ثم إذا استقر أهل الجنة بالجنة، وأهل النار بالنار، وجرت عليهم أحكام الجزاء، فعلم الله محيط بتفاصيل أحوالهم، وما هم فيه من النعيم والعذاب. فتبارك الله رب العالمين، ما أعظمه وأجله، وما أوسع صفاته وأكملها وأجملها.

وقول المؤلف:

وكذاك أمر لـم يكن لو كان كيـ ـــف يكــون ذا إمــكان

أي وكذلك يعلم تعالى الأمور التي لم تكن ولا تكون، من الممكنات التي لم يوجدها الباري ولن يوجدها، يعلم لو وقعت كيف تكون، وكيف ينشأ عنها. مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]. فردهم لا يكون، ولو كان على الفرض والتقدير لعادوا لما نهوا عنه، فإن أخلاقهم التي اكتسبوا فيها الشر معهم وقد عمرهم الله عمرًا يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير، فسؤالهم هذا لا محل له، وهم كذبة أيضًا في هذا السؤال، لم يكن قصدهم إلا دفع العذاب الذي حتم عليهم، فقالوا ما قالوا. ومثل قوله: ﴿وَلَوْ

أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١١١]. وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٥]. ونحو ذلك من الآيات التي فيها الإخبار عن أمر لم يكن أنه لو كان لكان كذا وكذا.

فصل

وهـو الحميد فـكل حمد واقع ... أو كان مفروضًـا مـدى الأزمان
مـلأ الوجـود جميعـه ونظيـره ... من غيـر ما عد ولا حسـبان
هـو أهلـه سـبحانه وبحمـده ... كل المحامد وصف ذي الإحسان

عقد المصنف - رحمه الله - لهذا الاسم المبارك هذا الفصل على حدته، لشدة الاعتناء به وسعته وعظمته، فذكر أنه الحميد من وجهين:

أحدهما: من جهة حمد المخلوقات له، وذلك أنه كل حمد وقع من أهل السماوات والأرض الأولين والآخرين، وكل حمد يقع منهم في الدنيا وفي الآخرة، وكل حمد لم يقع من الخلق، بل كان مفروضًا ومقدرًا حيثما تسلسلت الأزمان وتوالت الأوقات، حمدًا يملأ الوجود كله العالم العلوي والسفلي، ويملأ نظير الوجود من غير عد ولا حسبان، فالله سبحانه أهله ومستحقه من وجوه كثيرة. منها أن الله هو الذي خلقهم ورزقهم، وأسدى عليهم النعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية، وصرف عنهم النقم والمكاره، فما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع المكروهات إلا هو، فيستحق منهم أن يحمدوه في جميع الأوقات، ويثنوا عليه ويشكروه بعدد اللحظات.

والوجه الثاني: من جهة أن المحامد والمدائح والنعوت الجليلة الجميلة أوصاف لله تعالى، فله كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها. فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل الحمد والثناء، فكيف بجميع الأوصاف المقدسة، فله تعالى الحمد لذاته، وله الحمد لصفاته؛ لأنها كلها مدائح وكمالات، وله الحمد لأفعاله؛ لأنها دائرة بين الفضل والإحسان، وبين العدل والحكمة.

قال المصنف - رحمه الله تعالى - في كتابه **سفر الهجرتين وباب السعادتين** لما ذكر الحكمة والقدرة:

فصل

ويجمع هذين الأصلين العظيمين أصل ثالث، هو عقد نظامهما وجامع شملهما، وبتحقيقه وإثباته على وجهه يتم بناء هذين الأصلين، وهو إثبات الحمد كله لله رب العالمين، فإنه المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه، فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين، وعلى خلق الرسل وأعدائهم، وهو المحمود على عدله في أعدائه، كما هو المحمود على فضله وإنعامه. فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده، ولهذا سبح بحمده السماوات السبع والأرض ومن فيهن: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وكان في قول النبي ﷺ عند الاعتدال من الركوع: «**ربنا ولك الحمد ملء السماء، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد**»[1]. فله سبحانه الحمد حمدًا يملأ المخلوقات والفضاء الذي بين السماء والأرض، ويملأ ما يقدر بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأ بحمده، وذاك يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يملأ ما يخلقه الله بعد السماوات والأرض، والمعنى أن الحمد ملء ما خلقته، وملء ما تخلقه بعد ذلك.

الثاني: أن يكون المعنى ملء ما شئت من شيء بعد يملؤه حمدك، أي يقدر مملوءًا بحمدك وإن لم يكن موجودًا، ولكن يقال: المعنى الأول أولى، لأن قوله ما شئت من شيء بعد يقتضي أنه شيء يشاؤه، وما شاء كان، والمشيئة متعلقة بعينه لا بمجرد ملء الحمد له.

---

(١) أحمد (١٠٦٦).

فتأمله، لكنه إذا شاء كونه، فله الحمد ملؤه، فالمشيئة راجعة إلى المملوء بالحمد، فلا بد أن يكون شيئًا موجودًا يملؤه حمده. وأيضًا فإن قوله: «**من شيء بعد**». يقتضي أنه شيء يشاؤه سبحانه بعد هذه المخلوقات، كما يخلقه بعد ذلك من مخلوقاته من القيامة وما بعدها، ولو أريد تقدير خلقه لقيل: وملء ما شئت من شيء مع ذلك، لأن المقدر يكون مع المحقق. وأيضًا فإنه لم يقل: ملء ما شئت أن يملأه الحمد، بل قال: ما شئت، والعبد قد حمد حمدًا أخبر به وأنشأه، ووصفه بأنه يملأ ما خلقه الرب سبحانه، وما يشاء بعد ذلك، وأيضًا فقوله: «**وملء ما شئت من شيء بعد**». يقتضي إثبات مشيئة تتعلق بشيء بعد ذلك.

وعلى الوجه الثاني قد تتعلق المشيئة بملء المقدر، وأيضًا فإذا قيل: ما شئت من شيء بعد ذلك كان الحمد مالئًا لما هو موجود، يشاؤه الرب دائمًا، ولا ريب أن له الحمد دائمًا في الدنيا والآخرة، وأما إذا قدر ما يملؤه الحمد وهو غير موجود، فالمقدرات لا حد لها، وما من شيء منها إلا يمكن تقدير شيء بعده، وتقدير ما لا نهاية له، كتقدير الأعداد، ولو أريد هذا المعنى لم يحتج إلى تعليقه بالمشيئة، بل قيل: ملء ما لا يتناهى، فأما ما يشاؤه الرب فلا يكون إلا موجودًا مقدرًا، وإن كان لا آخر لنوع الحوادث أو بقاء ما يبقى منها، فهذا كله مما يشاؤه بعد. وأيضا فالحمد هو الإخبار بمحاسن المحمود على وجه الحب له، ومحاسن المحمود تعالى إما قائمة بذاته، وإما ظاهرة بمخلوقاته، فأما المعدوم المحض الذي لم يخلق ولا خلق قط فذاك ليس فيه محاسن ولا غيرها، فلا محامد فيه البتة، فالحمد لله الذي يملأ المخلوقات ما وجد منها ويوجد، هو حمد يتضمن الثناء عليه بكماله القائم بذاته، والمحاسن الظاهرة في مخلوقاته، وأما ما لا وجود له فلا محامد فيه ولا مذام، فجعل الحمد مالئًا له جعله مالئًا لما لا حقيقة له.

وقد اختلف الناس في معنى كون حمده يملأ السماوات والأرض وما بينهما، فقالت طائفة: على جهة التمثيل، أي لو كان أجسامًا لملأ السماوات والأرض وما بينهما، قالوا: فإن الحمد من قبيل المعاني والأعراض التي لا تملأ بها الأجسام، ولا تملأ الأجسام إلا بالأجسام.

والصواب أنه لا يحتاج إلى هذا التكلف البارد، فإن ملء كل شيء يكون بحسب المالئ والمملوء، فإذا قيل: امتلأ الإناء ماء، وامتلأت الجفنة طعامًا. فهذا الامتلاء نوع، وإذا قيل: امتلأت الدار رجالًا، وامتلأت المدينة خيلًا ورجالًا. فهذا نوع آخر، وإذا قيل: امتلأ الكتاب سطورًا. فهذا نوع آخر، وإذا قيل: امتلأت مسامع الناس حمدًا وذمًّا لفلان. فهذا نوع آخر، كما في أثر معروف: أهل الجنة من امتلأت مسامعه من ثناء الناس عليه، وأهل النار من امتلأت مسامعه من ذم الناس له. وقال عمر بن الخطاب في عبد الله بن مسعود: كُنَيْف ملئ علمًا. ويقال: فلان علمه قد ملأ الدنيا، وكان يقال: ملأ ابن أبي الدنيا الدنيا علمًا، ويقال: صيت فلان قد ملأ الدنيا وضيق الآفاق، وحبه قد ملأ القلوب، وبغض فلان قد ملأ القلوب، وامتلأ قلبه رعبًا، وهذا أكثر من أن يستوعب شواهده، وهو حقيقة في بابه، وجَعْل الملء والامتلاء حقيقة للأجسام خاصة تَحَكُّم باطل، ودعوى لا دليل عليها البتة، والأصل الحقيقة الواحدة، والاشتراك المعنوي هو الغالب على اللغة والأفهام والاستعمال، فالمصير إليه أولى من المجاز والاشتراك. وليس هذا موضع تقرير المسألة.

والمقصود أن الرب أسماؤه كلها حسنى، ليس فيها اسم سوء، وأوصافه كلها كمال، ليس فيها صفة نقص، وأفعاله كلها حكمة، ليس فيها فعل خال عن الحكمة والمصلحة، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم، موصوف بصفة الكمال، منعوت بنعوت الجلال، منزه عن الشبيه والمثال، ومنزه عما يضاد صفات كماله، فمنزه عن الموت المضاد للحياة، وعن السنة والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيومية، وموصوف بالعلم منزه عن أضداده كلها من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه، موصوف بالقدرة التامة، منزه عن ضدها من العجز واللغوب والإعياء، موصوف بالعدل منزه عن الظلم، موصوف بالحكمة منزه عن العبث، موصوف بالسمع والبصر منزه عن أضدادهما من الصمم والبكم، موصوف بالعلو والفوقية منزه عن أضداد ذلك، موصوف بالغنى التام، منزه عما يضاده بوجه من الوجوه، ومستحق للحمد كله، فيستحيل أن يكون غير محمود، كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق ولا حي، وله الحمد كله واجب لذاته، فلا يكون إلا محمودًا، كما لا يكون

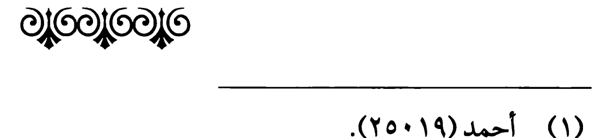
إلا إلهًا وربًّا وقادرًا.

فإذا قيل: الحمد كله لله فهنا له معنيان:

أحدهما: أنه محمود على كل شيء، وبكل ما يحمد به المحمود التام، وإن كان بعض خلقه يحمد إذًا، كما يحمد أنبياؤه ورسله وأتباعهم، فذاك من حمده تبارك وتعالى، بل هو المحمود بالقصد الأول وبالذات، وما نالوه من الحمد فإنما نالوه بحمده، فهو المحمود أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وهذا كما أنه بكل شيء عليم، وقد علم غيره من علمه ما لم يكن يعلمه بدون تعليمه، وفي الدعاء المأثور: «**اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله**»[1]. وهو سبحانه له الملك، وقد آتى من المملكة بعض خلقه، وله الحمد وقد آتى من الحمد ما شاء، وكما أن ملك المخلوق داخل في ملكه، فحمده أيضًا داخل في حمده، فما من محمود يحمد على شيء مما دق أو جل إلا والله المحمود عليه بالذات والأولوية أيضًا، وإذا قال: اللهم لك الحمد، فالمراد به أنت المستحق لكل حمد، ليس المراد به الحمد الخارجي فقط.

المعنى الثاني: أن يقال: لك الحمد كله، أي الحمد التام الكامل، فهذا مختص بالله ليس لغيره فيه شركة. والتحقيق أن له الحمد بالمعنيين جميعًا، فله عموم الحمد وكماله، وهذا من خصائصه سبحانه، فهو المحمود على كل حال، وعلى كل شيء، أكمل حمد وأعظمه، كما أن له الملك التام العام، فلا يملك كل شيء إلا هو، وليس الملك التام الكامل إلا له. وأتباع الرسل يثبتون له كمال الملك وكمال الحمد، فإنهم يقولون: إنه خالق كل شيء وربه ومليكه، لا يخرج عن خلقه وقدرته ومشيئته شيء البتة، فله الملك كله.

إلى أن قال:



(١) أحمد (٢٥٠١٩).

فصل

والمقصود بيان شمول حمده سبحانه وحكمته لكل ما يحدثه من إحسان ونعمة وامتحان وبلية، وما يقضيه من طاعة ومعصية، والله تعالى محمود على ذلك مشكور، حمد المدح وحمد الشكر. أما حمد المدح فالله محمود على كل ما خلق، إذ هو رب العالمين، والحمد لله رب العالمين، وأما حمد الشكر فلأن ذلك كله نعمة في حق المؤمن إذا اقترن بواجبه، والإحسان والنعمة إذا اقترنت بالشكر صارت نعمة، والامتحان والبلية إذا اقترنا بالصبر كانا نعمة، والطاعة من أجلِّ نعمه، وأما المعصية فإذا اقترنت بواجبها من التوبة والاستغفار والإنابة والذل والخضوع فقد ترتب عليها من الآثار المحمودة والغايات المطلوبة ما هو نعمة أيضًا، وإن كان سببها مسخوطًا مبغوضًا للرب سبحانه، ولكنه يحب ما يترتب عليه من التوبة والاستغفار.

إلى أن قال: والمقصود أن الملك والحمد في حقه متلازمان، فكل ما شمله ملكه وقدرته شمله حمده، فهو محمود في ملكه، وله الملك والقدرة مع حمده، فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته، يستحيل خروجها عن حمده وحكمته؛ ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقه وأمره؛ لينبه عباده على أن مصدر خلقه وأمره عن حمده، فهو محمود على ما خلقه وأمر به حمد شكر وعبودية، وحمد ثناء ومدح، ويجمعها التبارك، فتبارك الله يشمل ذلك كله، ولهذا ذكر هذه الكلمة عقيب قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فالحمد أوسع الصفات وأعم المدائح، والطرق إلى العلم به في غاية الكثرة، والسبيل إلى اعتباره في ذرات العالم وجزئياته، وتفاصيل الأمر والنهي واسعة جدًّا؛ لأن جميع أسمائه تبارك وتعالى حمد، وصفاته حمد، وأفعاله حمد، وأحكامه حمد،

وعدله حمد، وانتقامه من أعدائه حمد، وفضله وإحسانه إلى أوليائه حمد، والخلق والأمر إنما قام بأمره بحمده، ووجد بحمده، وظهر بحمده، وكان الغاية هي حمده، فحمده سبب ذلك وغايته ومظهره وحامله، فحمده روح كل شيء، وقيام كل شيء بحمده، وسريان حمده في الموجودات، وظهور آثاره فيه أمر مشهود بالأبصار والبصائر.

ثم ذكر الطرق الدالة على سريان حمده وشموله بتدبر أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه، وأطال في ذلك، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرًا.



فصل

وهـو المكلم عبده موسـى بتكـ ـــليم الخطـاب وقبلـه الأبوان
كلماتـه جلت عـن الإحصاء والـ ـتعداد بل عن حصر ذي الحسبان
لو أن أشـجار البلاد جميعها الـ أقـلام تكتبهـا بـكل بنـان
والبحـر تلقـى فيه سـبعة أبحر لكتابـة الكلمـات كل زمـان
نفـدت ولـم تنفـد بهـا كلماته ليـس الـكلام مـن الإلـه بفان

يعني أنه تبارك وتعالى متكلم إذا شاء وكيف شاء، ولم يزل ولا يزال بصفة الكلام موصوفًا، وبالبر والإحسان معروفًا، وهو الذي يتكلم بالكلام القدري الذي يوجد به الأشياء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. ويتكلم بكلامه الشرعي الديني، الذي منه الكتب التي أنزلها الله على رسله، فهو الذي يتكلم بها حقًّا، ونزل بها جبريل من عنده صدقًا، ليست بمخلوقة، بل هي من جملة صفاته تعالى.

وتكليمه لعباده نوعان: نوع بلا واسطة، كما كلم موسى بن عمران، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]. وكما كلم الأبوين آدم وحواء ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]. وكما نادى محمدًا ﷺ وخاطبه حين أسرى به، وكما يخاطب الله أهل الموقف، وأهل الجنة في الجنة حين يرونه، ويكلمهم ويكلمونه.

النوع الثاني: تكليمه لعباده بواسطة، إما بالوحي الخاص للأنبياء، وإما بإرساله إليهم رسولًا يكلمهم من أمره بما شاء، وقد ذكر الله هذه الأنواع في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

واعلم أن صفة الكلام لله تعالى من صفاته الذاتية، من حيث تعلقها بذاته واتصافه بها، ومن صفاته الفعلية، حيث كانت متعلقة بقدرته ومشيئته، فإذا كان معلومًا أن الله لم يزل ولا يزال كامل القدرة نافذ المشيئة علم أنه لم يزل ولا يزال متكلمًا إذا شاء؛ لأن الكلام من أجلِّ صفات الكمال، التي يستحيل على الله ألا يوصف بها، وكلماته تعالى غير متناهية، فلا تفنى ولا تبيد، فلو أن أشجار الأرض جميعها من عمرانها وقفارها وبحارها أقلام، والبحر تمده من بعده سبعة أبحر - مداد، فكتب بتلك الأقلام بذلك المداد لتكسرت الأقلام ونفد المداد، وكلام الله لا يفنى ولا ينفد، وذلك أن المخلوق متناهٍ، له غاية وحد، وصفات الله ليس لها غاية ولا حد، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢]. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧].

وهذا كله من باب تقريب المعنى العظيم الواسع، الذي لا تدركه الأذهان إليها بهذا المثال الذي يبهر العقول؛ ولهذا قال المؤلف:

.... ليس الكلام من الإله بفاني

ولم يقدر الله حق قدره من زعم أن كلامه مخلوق من جملة المخلوقات التي تنتهي، وكيف يكون الوصف المضاف إلى الله تعالى مخلوقًا، يلزم منه أن يكون كلامًا للخلق، فإذا كان علم الله وقدرته ونحو ذلك من أوصافه يستحيل أن تقوم بغير الله وأن تكون مخلوقة، فكلامه كذلك.

وهو القدير فليس يعجزه إذا ... ما رام شيئًا قط ذو سلطان

وهو القوي له القوى جمعًا تعا ... لى الله ذو الأكوان والسلطان

يعني أنه تعالى القدير كامل القدرة، فكل ما أراده فعله من غير عجز ولا معارض له ولا مضاد، فإذا أراد إيجاد شيء أو إعدامه فلو اجتمعت الخليقة كلها على معارضته في شيء من ذلك لم يكن لهم قدرة على معارضته، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه

الترمذي وغيره عن ابن عباس أنه قال لابن عباس: «**واعلم أن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء (أي قليل أو كثير) لم ينفعوك إلا بشيء قدره الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قدره الله عليك**»[1]. وقال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]. وهو القوي الذي له القوة كلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فما بالخلق من قوة ظاهرة أو باطنة إلا من الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. فمن قوته وقدرته أنه خلق السماوات العظيمة، والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأنه خلق الخلق، ثم يميتهم ثم يحييهم بعدما يفرقهم البلى، بل خلقهم وبعثهم عليه كنفس واحدة: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. ومن قدرته أنه يحيي الأرض الهامدة اليابسة بعد موتها، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

ومن آثار قدرته ما فعله بالأمم المكذبين من أنواع العقوبات وحلول المثلات، وأنهم لم يغن عنهم كيدهم ولا مكرهم ولا أموالهم وأولادهم وجنودهم وحصونهم من عذاب الله شيئًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠]. وقال تعالى في سورة الشعراء بعد كل قصة يذكر فيها نجاة الرسل وأتباعهم وإهلاك من كذبهم: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي على كمال رحمته

(١) الترمذي (٢٥١٦).

التي منها إنجاء المؤمنين، وعلى كمال عزته وقدرته حيث أباد المكذبين؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٩].

ومن تمام قدرته وشمولها أنه كما أنه هو الخالق للعباد فهو خالق أعمالهم وطاعاتهم ومعاصيهم، وهي أيضًا أفعالهم، فهي تضاف إلى الله خلقًا وتقديرًا، وتضاف إليهم فعلًا ومباشرة على الحقيقة، من غير منافاة ولا مناقضة، فإن الأعمال يضيفها الله إليهم وينسبها لهم، وهم الفاعلون لها، وهذا معروف عقلًا وشرعًا وحسًّا، والله خالق قدرتهم ومشيئتهم التي لا يوجد فعل إلا بهما، وخالق السبب التام خالق للمسبب، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]. فأثبت لهم مشيئة وفعلًا، وذكر أن مشيئتهم تابعة لمشيئته وإرادته.

ومن آثار قدرته ورحمته نصره لأوليائه على قلة عَدَدهم وعُدَدهم بالنسبة إلى أعدائهم، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[الصافات: ١٣٠]. وقال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[البقرة: ٢٤٩]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[غافر: ٥١]. ومن آثار قدرته ورحمته ما يحدثه لأهل النار وأهل الجنة من أنواع العذاب وأصناف النعيم المستمر الكثير المتتابع، الذي لا ينقطع ولا يتناهى، وقد أخبر عن كثير من الأشياء أنه قادر على فعلها، ولكنه لا يفعلها؛ لأن الحكمة تقتضي عدم إيجادها، قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ [الأنعام: ٦٥]. ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ [يونس: ١٦]. ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النحل: ٩]. فقدرة الله تعالى لا يستعصي عليها شيء ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنى يرام جناب ذي السلطان

وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان

وهو العزيز بقوة هي وصفه   فالعز حينئذ ثلاث معاني

هذه الأبيات الثلاثة مشتملة على معنى اسمه «العزيز» فذكر له ثلاث معانٍ:

الأول: العزيز بمعنى الممتنع الذي لا يرام جنابه، لعظمة سلطانه وجليل كبريائه، قال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**»[1].

والمعنى الثاني: أنه العزيز بمعنى القاهر لكل شيء، الذي قهر جميع الأشياء، فما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، ولا حول ولا قوة بأحد إلا بالله العلي العظيم، فلا يتحرك متحرك إلا بإذنه، ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فهو الذي قهر كل شيء، وذل له كل حي، ونفذت إرادته في كل شيء.

والمعنى الثالث: أنه العزيز بمعنى القوي المتين، فله القوة الكاملة التي لا عجز ولا نقص فيها بوجه من الوجوه، فصار معنى العزيز بمعنى القوي الممتنع القاهر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥]. وقال:﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]. فـ(أل) تفيد الاستغراق والعموم لجميع معاني العز؛ ولهذا قال المؤلف:

وهي التي كملت له سبحانه   من كل وجه عادم النقصان

أي: هذه المعاني الثلاثة قد كملت لله من جميع الوجوه، فلا نقص في شيء منها.

وهو الغني بذاته فغناه ذا   تي له كالجود والإحسان

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[فاطر: ١٥]. فهو تعالى الغني الذي له الغنى التام المطلق من كل الوجوه والاعتبارات لكماله وكمال صفاته، بحيث لا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنيًّا، وإن غناه من

(١) مسلم (٢٥٧٧).

لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقًا رازقًا محسنًا جوادًا كريمًا رحيمًا، فلا يكون إلا غنيًّا عن الخلق لا يحتاج إليهم بشيء من الأشياء، بل هم الفقراء إليه في جميع أمورهم، لا يستغنون عن إحسانه وكرمه وتدبيره طرفة عين.

ومن كمال غناه أن خزائن السماوات والأرض بيده، وأن جوده على خلقه متواصل في جميع اللحظات والأنفاس، وأن يديه سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه.

ومن كمال غناه أن يدعو عباده إلى سؤاله، ويعدهم بالإجابة، ويؤتيهم من كل ما سألوه: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨]. ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

ومن كمال غناه أنه لو اجتمع أهل السماوات والأرض وأول الخلق وآخرهم وإنسهم وجنهم في صعيد واحد، فسأله كل واحد منهم ما بلغت أمنيته، ما نقص ذلك من ملكه شيئًا.

ومن كمال غناه وسعة عطاياه ما يبسطه على أهل دار كرامته من اللذات المتتابعات والشهوات المتواصلات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فهو الغني بذاته، المغني لجميع مخلوقاته.

ومن غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ولا عوينًا، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[يونس: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴾[النجم: ٤٨]. تبارك وتعالى وتقدس.

وهو الحكيم وذاك من أوصافه	نوعان أيضًا ما هما عدمان
حكم وأحكام فكل منهما	نوعان أيضًا ثابتا البرهان
والحكم شرعي وكوني ولا	يتلازمان وما هما سيان

بـل ذاك يوجد دون هـذا مفردًا ... والعكـس أيضًـا ثـم يجتمعان

لـن يخلو المربوب مـن إحداهما ... أو منهمـا بـل ليس ينتفيـان

لكنمـا الشـرعي محبـوب لـه ... أبـدًا ولـن يخلو مـن الأكوان

هو أمـره الديني جاءت رسـله ... بقيامـه فـي سـائر الأزمان

لكنمـا الكونـي فهـو قضـاؤه ... فـي خلقـه بالعدل والإحسـان

هـو كلـه حـق وعـدل ذو رضا ... والشـأن في المقضي كل الشان

فلذاك نرضى بالقضاء ونسـخط الـ ... ـمقضي حين يكـون بالعصيان

فالله يرضـى بالقضاء ونسـخط الـ ... ـمقضي ما الأمـران متحـدان

فقضـاؤه صفة بـه قامت وما الـ ... ـمقضي إلا صنعـة الإنسـان

والكـون محبـوب ومبغوض له ... وكلاهمـا بمشـيئة الرحمن

هـذا البيان يزيـل لبسًـا طالما ... هلكـت عليـه النـاس كل زمان

ويحـل ما قد عقَّـدوا بأصولهم ... وبحوثهـم فافهمـه فهـم بيـان

من وافـق الكوني وافق سـخطه ... أو لـم يوافـق طاعـة الرحمـن

فلـذاك لا يعـدوه ذم أو فـوا ... ت الحمد مـع أجر ومع رضوان

وموافـق الدينـي لا يعدوه أجـ ... ـر بل لـه عند الصـواب اثنان

أطال المؤلف - رحمه الله - الكلام على هذا الاسم المبارك «الحكيم»، لاقتضاء الحال للإطالة والبسط، فإنه كما قال في آخر هذا الكلام: «هذا البيان يزيل لبسا» إلى آخر ما ذكره فذكر أن الحكيم من أوصاف الله تعالى نوعان: **أحدهما**: حكم، **والثاني**: أحكام، وكل واحد منهما نوعان، فتصير الأقسام أربعة: حكم قدري كوني، وحكم شرعي ديني، وحكمة في خلقه، وحكمة في أمره. فذكر أن الحكم القدري والحكم الشرعي لا يتلازمان، أي لا يلزم من وجود أحدهما وجود الآخر، ومن عدمه عدم الآخر، كما هو شأن كل متلازمين، بل

قد يوجد الشرعي دون القدري، وقد يوجد القدري دون الشرعي، وقد يجتمعان، ولكنهما لا يرتفعان، أي لا يفقدان كلاهما، ولهذا قال: «لن يخلو المربوب»؛ أي المخلوق، وهذا شامل للمخلوقات كلها، أي: لن يخلو شيء من المخلوقات من أحد الحكمين، أو منهما، بل ليس ينتفيان أي: لا يعدمان، فيصير المربوب خاليًا منهما، فإن هذا محال.

وبيان ذلك أن الحكم الشرعي هو الحكم الذي تعلقت به محبة الله تعالى، وهو الحكم الذي شرعه وحكم به على ألسنة رسله، ودعوا إليه العباد، فقام به من استجاب لهم، وإذا وجد الحكم الشرعي فعلًا فإنه لا يخلو من الأكوان، أي لا يخلو من الحكم القدري، وذلك أن الإيمان والطاعات الصادرة من المؤمنين بقضاء الله وقدره وتوفيقه، فإذا وجدت الطاعات وجد الحكمان معًا. وإذا وجد الكفر والفسوق والمعاصي وجد الحكم القدري، لكونها واقعة بقضاء وقدر، دون الحكم الشرعي، لعدم تعلق الأمر والمحبة بها، وإذا كان الأمر بالخير والإيمان والطاعة موجودًا، ولم يقم به من أمر به، كان الحكم الشرعي موجودًا لوجود الأمر، دون القدري فإنه لو وجد لحصلت، فإنه ما شاء الله كان، فالحكم الكوني هو قضاؤه على خلقه بالعدل والإحسان، أي لأن أفعاله تعالى لا تخلو من هذين الأمرين، إما إحسان ونعم، وإما عدل، وهو تقديره ما يقدره من وقوع الشر من أهل الشر، ومن عقوباتهم في الدنيا والآخرة، فإنه عدل يحمد عليه، لموافقته الحكمة، ووضعه العقوبة موضعها.

وذكر المصنف الفرق بين القضاء والمقضي، وأن القضاء وصف لله تعالى وفعله الذي يتعين الرضاء به، لكونه غير خارج عن العدل والفضل، وأن المقضي صنعة الإنسان وفعله، وذلك ينقسم إلى قسمين محمود ومذموم، فيرضى بالمحمود من المقضي، كالطاعات والإيمان الصادر من أهل الخير، ويسخط المذموم من ذلك، كالمعاصي الواقعة من فاعليها، وذلك كله موافقة لمحبة الله وكراهته، فإن الله يرضى ويحب من عباده الإيمان والشكر وأنواع الخير، ويكره منهم الكفر والفسوق والمعاصي. فالكون بالنسبة إلى الحكم

الشرعي ينقسم إلى قسمين: محبوب لله ومبغوض له، وبالنسبة إلى الحكم القدري كله واقع بمشيئة الله وقدرته، ولهذا قال: وكلاهما بمشيئة الرحمن.

فبهذا التفصيل الذي ذكره المصنف ينكشف الأمر ويتضح، ويزيل لبسًا أي اختلاطًا واشتباهًا طالما هلكت عليه الناس منذ زمان، بسبب اشتباه الحق بالباطل، وعدم تمييز الأمور وتفصيلها، فإن كثيرًا من المتكلمين أصلوا لهم أصولًا فاسدة ينبني عليها عقائد باطلة، كما قرر كثير من أهل التصوف وأهل الكلام أن الحكم القدري مرادف للحكم الديني، وأن الله يحب كل ما قدره وقضاه، وهذا من أعظم الباطل وأشده، فإنه يتضمن التسوية بين الأبرار والفجار، وبين البر والفجور، ويلزم منه إبطال الشرع وعذر من ظلم وعصى، لأنه موافق للقضاء والقدر، وهذا تكذيب لله ولكتبه ورسله. ولهذا قال المصنف:

هــذا البيان يزيــل لبسًــا طالما هلكــت عليــه النــاس منذ زمان

أي بسبب اختلاط الحق بالباطل، ويحل ما قد عقدوا من الأغلال، والعقائد الباطلة، بأصولهم التي بنوها، وبحوثهم التي هي نتائج آرائهم الفاسدة وعقولهم الضعيفة ومقاصدهم السيئة. فافهمه فهم بيان، لأنه موضع مهم خطر لا يكاد يوجد هذا التفصيل بغير كتب المصنف وشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية.

إذا تقرر ما تقدم من أن الأحكام نوعان: أحكام قدرية موافقة للقضاء والقدر، وإن لم توافق محبة الله، وأحكام دينية موافقة للمحبة والأمر الديني، وإن لم يوجد معها الحكم القدري، وأنهما قد يجتمعان أو ينفرد أحدهما، فمن وافق في فعله وقوله ونيته الحكم القدري وحده، بألا يكون ما فعله أو قاله أو نواه محبوبًا لله، فإنه لا يخلو إما أن يوافق سخطه أي سخط الله إذا كان ذلك معصية، وإما ألا يوافق مرضاة الله، وذلك إذا كان ما فعله أمرًا مباحًا غير طاعة ولا معصية، فلذلك لا يعدوه ذم إذا كان معصية، أو فوات الأجر إن كان مباحًا، وموافق الديني وهو الذي امتثل ما أمر الله به، واجتنب ما نهى عنه بحسب قدرته وإمكانه، لا يعدوه أجر إن اجتهد فأخطأ الحق، بل له عند الصواب أي إذا

اجتهد فأصاب؛ اثنان أي أجران، كما قال النبي ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**»[1]. لأن نيته الحق، وسعى لتحصيله، وذلك عمل صالح، ولكن فاته إدراكه بغير تفريط منه.

وحاصل ما ذكره المصنف في هذا الفصل أن الحكيم هو من له الحكم وله الأحكام، وأن الحكم نوعان: حكم كوني شامل لجميع ما قدره وقضاه وكوَّنه من خير وشر، وحكم ديني مختص بما يحبه الله ويرضاه، وأن من وجد منه الخير بالفعل، واجتمع في حقه الحكمان معًا، ومن وجد في حقه الشر بالفعل، انفرد في حقه الحكم الكوني؛ لأنه بقضاء وقدر، والله لا يحب الشر والفساد، ومن توجه إليه الأمر الديني فلم ينقد له، وجد فيه في تلك الحال الحكم الديني؛ لأنه وجه إليه، ولم يوجد الحكم القدري؛ لأنه لم ينقد له، ولو شاء الله لفعله.

وأن القضاء غير المقضي، فالقضاء فعل الله يجب الرضاء به من غير تفصيل؛ لأنه عدل وإحسان لا يخرج عن الحمد والحكمة، والمقضي فعل العبد، وفي الرضاء به تفصيل، فإن كان خيرًا وطاعة وإيمانًا تعين الرضاء به ومحبته، وإن كان شرًّا ومعصية وكفرًا تعينت كراهته، وإن لم يكن لا خيرًا ولا شرًّا لم يتعين فيه الرضاء ولا الكراهة. ثم ذكر الأحكام والحكمة فقال:



(١) مسند أبي عوانة (٦٣٩٧).

فصل

والحكمة العليا على نوعين أيـ	ـضًا حصلا بقواطع البرهان
إحداهما في خلقه سبحانه	نوعان أيضًا ليس يفترقان
أحكام هذا الخلق إذ إيجاده	في غاية الإحكام والإتقان
وصدوره من أجل غايات له	وله عليها حمد كل لسان
والحكمة الأخرى فحكمة شرعه	أيضًا وفيها ذانك الوصفان
غاياتها اللاتي حمدن وكونها	في غاية الإحكام والإتقان

هذا النوع الثاني مما يدل عليه اسم الله «الحكيم»، وهو أن له الحكمة التامة في خلقه وأمره، وحكمته علياء لا يشابهها شيء، فليس كمثله شيء في جميع نعوته التي من جملتها الحكمة.

والحكمة في خلقه على نوعين:

أحدهما: أنه أحكم جميع ما خلقه وأتقنه بأحسن خلق وأتم نظام، لا يمكن أحدًا من الخلق أن يقترح أحسن منه، ولا يرى فيه عيبًا ولا عبثًا، فكل ما خلقه فهو محكم متقن، لم يخلق شيئًا عبثًا، ولا خلق شيئًا معيبًا، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[ص: ٢٧]. فهم الذين يظنون بالله الظن السيئ، والذي من جملته أنه يخلق شيئًا لغير فائدة ولا مصلحة، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾[السجدة: ٧]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين: ٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. ونحوها من الآيات التي يحث الله بها العباد إلى النظر والتفكر في المخلوقات، لاشتمالها على الحكم البالغة والنعم السابغة، وأنها سالمة من كل عبث وعيب. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤]. لم ير خللًا ولا نقصًا، بل يرى جميع العالم على أتم نظام وأكمل خلق وأحسنه، فهذا نوع من أنواع الحكمة في الخلق، وهو أنها كلها محكمة متقنة، تشاهد حكمتها بالأبصار والبصائر، ويخفى أكثرها، فيستدل بما علم منها على ما لم يعلم.

والنوع الثاني: أنها مخلوقة لغاية، ومقصود بها مقصود عظيم، فخلقها الله تعالى ليستدل بها العباد على ما لله من صفات الكمال، وما له من جميل الفعال، وهذه غايات يحمد عليها، ليتضمنها ظهور آثار أسمائه وصفاته ومعرفة العباد لها، وأيضًا خلق الله السماوات والأرض وما بينهما بالحق، فهي مخلوقة بالحق وللحق. ومن ذلك أنه ليجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وخلق الله المكلفين ليعرفوه ويعبدوه ويطيعوه لأجل أن يجازيهم بأعمالهم، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. ففي هاتين الآيتين الإخبار من أن الغاية لخلق السماوات والأرض والجن والإنس وإنزال الشرائع على الأنبياء لأجل أن يعرفوا الله بأسمائه وصفاته، ويعبدوه بمقتضى ذلك.

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. أي معطلًا لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب، فإن هذا ظن فاسد؛ لأنه يتضمن العبث في أفعاله تعالى، وهو منزه عن ذلك، ثم قرر ذلك بدليل عقلي، فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧ - ٤٠]. فالذي نقل الإنسان بهذه الأطوار المتنوعة، حتى أوصله إلى ما وصل إليه، لا يليق به أن يهمله ويعطله

عن أمره ونهيه وثوابه وعقابه.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ أي تنزه عن هذا الحسبان الباطل المنافي لملكه وحمده وكماله؛ ولهذا قال: ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. فإن الملك الحق لا بد أن يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وقال تعالى منزها نفسه عن ظن من ظن أنه يترك خلقه سدى، لا يرسل إليهم رسولًا، ولا ينزل عليهم كتابًا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. إلى غير ذلك من النصوص الدالة على هذا الأصل الكبير، وهو أن أفعاله تعالى كلها محكمة متقنة، لا عيب فيها ولا خلل، وأنه فعل ما فعله لغايات محمودة ومقاصد سديدة.

ثم ذكر الحكمة الأخرى في شرعه وأنها على نوعين أيضًا:

أحدهما: أنها في غاية الإحكام والإتقان، ويكفي في هذا الموضع معرفة القاعدة العامة، وهي أن الأوامر والنواهي تبع للمصالح والمنافع فعلًا وتركًا، فكل أمر مشتمل على المصلحة الخالصة أو المصلحة الراجحة فإنه مأمور به، وكل أمر مشتمل على مفسدة خالصة أو راجحة فإنه منهي عنه، ويدل على هذا قوله تعالى في وصف النبي ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فالمعروف الذي يأمر به هو ما عرف حسنه شرعًا وعقلًا، وذلك ما ترجحت مصلحته، وفائدته في القلب والبدن والدنيا والآخرة. والمنكر الذي ينهى عنه هو ما عرف قبحه شرعًا وعقلًا، وذلك ما ترجحت مضرته في الدنيا والآخرة والقلب والبدن. والطيبات التي أحلها كل مأكول ومشروب وملبوس ومنكوح، وَصْفُهُ الطيب والمنفعة الذي يضطر أو يحتاج إليه. والخبيثات التي حرمها ضد ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. فالبر والتقوى الذي أمر الله بفعله والتعاون عليه كل عمل صالح وخلق فاضل وفعل رشيد وقول

سديد، من الإخلاص لله تعالى، والصدق، وحسن الخلق، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى عموم الخلق، والعدل بينهم، وسلامة الصدر، والنصح للخلق، والتأدب بالآداب الحسنة، والرفق واللين والسماحة، وغير ذلك مما حث الشرع عليه.

وضد ذلك النهي عن الكبر، والتجبر على الخلق، والكذب، والرياء، وعقوق الوالدين، وقطيعة الأرحام، وظلم الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وسوء الخلق، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق.

ومن أحكام الأمر والنهي أن شريعة نبينا محمد ﷺ صالحة لكل زمان ومكان، فكل وقت ومحل يحتاج إليها فيه، بل لا تصلح الدنيا والآخرة إلا بالعمل بها؛ ولهذا كانت من أعظم الأدلة على كمال من أنزلها وعلمه وحكمته وصدق رسوله ﷺ؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء، فلا نبي بعده، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

والنوع الثاني: من حكمة الأمر أن الله أمر ونهى وشرع الشرائع ليبتلي عباده، المطيع منهم والعاصي، والصادق والكاذب، وليقوم سوق الجهاد والعبادات التي يحبها ويرضاها، ولتتنور القلوب بمعرفته، والألسنة بذكره، والأعضاء بطاعته، وليثيب المطيعين من فضله وكرمه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وليتم عليهم فضله وإحسانه، إلى غير ذلك من الغايات والحكم التي شرع الله الشرائع لأجلها.

قال المصنف في **بدائع الفوائد**[(١)] نشر دار الكتاب: فتأمل أسرار كلام رب العالمين، وما تضمنته آيات الكتاب المجيد، من الحكمة البالغة الشاهدة بأنه كلام رب العالمين، والشاهدة لرسوله بأنه الصادق المصدوق، وهذا كله من مقتضى حكمته وحمده تعالى، وهو معنى كونه خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق، ولم يخلق ذلك باطلًا، بل خلقه خلقًا صادرًا عن

(١) ٤/ ١٦٢.

الحق، آيلًا إلى الحق، مشتملًا على الحق، فالحق سابق لخلقها، مقارن له، غاية له؛ ولهذا أتى بالباء الدالة على هذا المعنى، دون اللام المفيدة للغاية وحدها، فالباء مفيدة معنى اشتمالها على الحق السابق والمقارن والغاية، فالحق السابق صدور ذلك عن علمه وحكمته، فمصدر خلقه تعالى وأمره عن كمال علمه وحكمته، وبكمال هاتين الصفتين يكون المفعول الصادر عن الموصوف بهما حكمة كلية ومصلحة وحقًّا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]. فأخبر عن مصدر المتلقي عن علم المتكلم وحكمته، وما كان كذلك كان صدقًا وعدلًا وهدى ورشادًا، وكذلك قالت الملائكة لامرأة إبراهيم حين قالت: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢]. ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠]. وهذا راجع إلى قوله وخلقه، وهو خلق الولد لهما على الكبر. وأما مقارنة الحق لهذه المخلوقات فهو ما اشتملت عليه من الحكم والمصالح والمنافع، والآيات الدالة للعباد على إلههم، ووحدانيته وصفاته وصدق رسوله، وأن لقاءه حق لا ريب فيه.

ومن نظر في الموجودات ببصيرة قلبه رآها كالأشخاص الشاهدة الناطقة بذلك، بل شهادتها أتم من شهادة الخبر المجرد؛ لأنها شهادة حال لا تقبل كذبًا، فلا يتأمل العاقل المستبصر مخلوقًا حق تأمله إلا وجده شاهدًا دالًّا على فاطره وباريه، وعلى وحدانيته، وعلى كمال صفاته وأسمائه، وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق لا ريب فيه.

وهذه طريقة القرآن في إرشاد الخلق إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات وأحوالها على إثبات الصانع، وعلى التوحيد والمعاد والنبوات، فمرة يخبر أنه لم يخلق خلقه باطلًا ولا عبثًا، ومرة يخبر أنه خلقهم بالحق، ومرة يخبرهم وينبههم على وجوه الاعتبار والاستدلال بها على صدق ما أخبرت به رسله؛ حتى يتبين لهم أن الرسل إنما جاءوهم بما يشاهدون أدلة صدقه، وبما لو تأملوه لوجدوه مركوزًا في فطرهم مستقرًّا في عقولهم، وأن ما يشاهدونه من مخلوقاته شاهد بما أخبرت به عنه رسله من أسمائه وصفاته وتوحيده ولقائه ووجود ملائكته. وهذا باب

عظيم من أبواب الإيمان، إنما يفتحه الله على من سبقت له من الله سابقة السعادة، وهذا أشرف علم يناله العبد في هذه الدار.

وقد بينت في موضع آخر أن كل حركة تشاهد على اختلاف أنواعها فهي دالة على التوحيد والنبوات والمعاد، وطريق سهلة واضحة برهانية، وكذلك ذكرت في رسالة إلى بعض الأصحاب بدليل واضح أن الروح مركوز في أصل فطرتها وخلقها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الإنسان لو استقصى التفتيش لوجد ذلك مركوزًا في نفس روحه وذاته وفطرته، فلو تأمل العاقل الروح وحركتها فقط، لاستخرج منها الإيمان بالله وصفاته، والشهادة بأنه لا إله إلا الله والإيمان برسله وملائكته ولقائه، وإنما يصدق بهذا من أشرقت شمس الهداية على أفق قلبه، وانجابت عنه سحائب غيه، وانكشف عن قلبه حجاب ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]. فهنالك يبدو له سر طال عنه اكتتامه، ويلوح له صباح هو ليله وظلامه.

فقف الآن على كل كلمة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٣ - ٥]. ثم تأمل وجه كونها آية، وعلى ماذا جعلت آية؟ على مطلوب واحد أم مطالب متعددة؟ وكذلك سائر ما في القرآن من هذا النمط، كآخر آل عمران، وقوله في سورة الروم ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [الروم: ٢٠]. إلى آخرها، وقوله في سورة النمل: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩]. إلى آخر الآيات، وأضعاف أضعاف ذلك في القرآن، وكقوله في سورة الذاريات: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، فهذا كله من الحق الذي خلقت به السماوات والأرض وما بينهما، وهو حق مقارن لوجود هذه المخلوقات، مسطور في صفحاتها، يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب، كما قيل:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملأ الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وأما الحق الذي هو غاية خلقها، فهو غاية تراد من العباد، وغاية تراد بهم، فالتي تراد منهم أن يعرفوا الله تعالى وصفات كماله تعالى، وأن يعبدوه لا يشركون به شيئًا، فيكون هو وحده إلههم ومعبودهم ومطاعهم ومحبوبهم، قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢]. فأخبر أنه خلق العالم ليعرف عباده كمال قدرته وإحاطة علمه، وذلك يستلزم معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات: ٥٦]. فهذه الغاية هي المرادة من العباد، وهي أن يعرفوا ربهم ويعبدوه وحده.

فأما الغاية المرادة بهم فهي الجزاء بالعدل والفضل والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ١٥]. وقال تعالى: ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٩]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ إلى قوله: ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾[يونس: ٣، ٤].

فتأمل الآن كيف اشتمل خلق السماوات والأرض وما بينهما على الحق أولًا وآخرًا ووسطًا، وأنها خلقت بالحق وللحق وشاهدة بالحق. وقد أنكر تعالى على من زعم خلاف ذلك، فقال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[المؤمنون: ١١٥]. ثم نزه نفسه عن هذا الحسبان المضاد لحكمته وعلمه وحمده، فقال: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]. وتأمل ما في هذين الاسمين وهما الملك الحق من إبطال هذا الحسبان، الذي ظنه أعداؤه، إذ هو منافٍ لكمال ملكه ولكونه الحق، إذ الملك الحق هو الذي يكون له الأمر والنهي، فيتصرف في ملكه بقوله وأمره، وهذا هو الفرق بين الملك والمالك؛ إذ المالك هو المتصرف بفعله، والملك هو المتصرف بأمره وفعله، والرب تعالى مالك الملك، فهو المتصرف بفعله وأمره.

فمن ظن أنه خلق خلقه عبثًا لم يأمرهم ولم ينههم، فقد طعن في ملكه، ولم يقدره حق قدره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٩١]. ومن جحد شرع الله وأمره ونهيه، وجعل الخلق بمنزلة الأنعام المهملة، فقد طعن في ملك الله، ولم يقدره حق قدره، وكذلك قوله الحق يقتضي كمال ذاته وصفاته وأسمائه، ووقوع أفعاله على أكمل الوجوه وأتمها، فكما أن ذاته الحق، فقوله الحق، ووعده الحق، وأمره الحق، وأفعاله كلها حق، وجزاؤه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الآخر حق، فمن أنكر شيئًا من ذلك فما وصف الله تعالى بأنه الحق المطلق من كل وجه، وبكل اعتبار، فكونه حقًّا يستلزم شرعه ودينه وثوابه وعقابه، فكيف يظن بالملك الحق أن يخلق خلقه عبثًا، وأن يتركهم سدى، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم، كما قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. قال الشافعي: مهملًا لا يؤمر ولا ينهى، وقال غيره: لا يجزى بالخير والشر، ولا يثاب ولا يعاقب. والقولان متلازمان، فالشافعي ذكر سبب الجزاء والثواب والعقاب، وهو الأمر والنهي، والآخر ذكر غاية الأمر والنهي، وهو الثواب والعقاب.

ثم تأمل قوله بعد ذلك: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٨]، فمن لم يتركه وهو نطفة سدى، بل قلب النطفة وصرفها، حتى صارت أكمل مما هي وهي العلقة، ثم قلب العلقة حتى صارت أكمل مما هي، حتى خلقها فسوى خلقها، فدبرها بتصريفه وحكمته في أطوار كمالاتها، حتى انتهى كمالها بشرًا سويًّا، فكيف يتركه سدى، لا يسوقه إلى غاية كماله الذي خلق له، فإذا تأمل العاقل البصير أحوال النطفة من مبدئها إلى منتهاها دلته على المعاد

والنبوات، كما تدله على إثبات الصانع وتوحيده وصفات كماله، فكما يدل أحوال النطفة من مبدئها إلى غايتها على كمال قدرة فاطر الإنسان وباريه، كذلك يدل على كمال حكمته وعلمه وملكه، وأنه الملك الحق المتعالي عن أن يخلقها عبثًا، أو يتركها سدى بعد كمال خلقها.

وتأمل كيف لما زعم أعداؤه الكافرون أنه لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله، وأنه لا يبعثهم للثواب والعقاب، كيف كان هذا الزعم منهم قولًا بأن خلق السماوات والأرض باطل، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]. فلما ظن أعداؤه أنه لم يرسل إليهم رسولًا، ولم يجعل لهم أجلًا للقائه كان ذلك ظنًّا منهم أنه خلق خلقه باطلًا، ولهذا أثنى على عباده المتفكرين في مخلوقاته، بأنهم أوصلهم فكرهم فيها إلى شهادتهم بأنه تعالى لم يخلقها باطلًا، وأنهم لما علموا ذلك وشهدوا به، علموا أن خلقها يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه، فذكروا في دعائهم هذين الأمرين، فقالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩١، ١٩٢]. فلما علموا أن خلق السماوات والأرض يستلزم الثواب والعقاب تعوذوا بالله من عقابه، ثم ذكروا الإيمان الذي أوقعهم عليه فكرهم في خلق السماوات والأرض، فقالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]. فكانت ثمرة فكرهم في خلق السماوات والأرض الإقرار به تعالى وبوحدانيته وبدينه وبرسله وبثوابه وعقابه، فتوسلوا إليه بإيمانهم الذي هو من أعظم فضله عليهم، إلى مغفرة ذنوبهم وتكفير سيئاتهم، وإدخالهم مع الأبرار إلى جنته التي وعدوها، وذلك تمام نعمته عليهم، فتوسلوا بإنعامه عليهم أولًا إلى إنعامه عليهم آخرًا، وتلك وسيلة بطاعته إلى كرامته، وهي إحدى الوسائل إليه، وهي الوسيلة التي أمرهم فيها في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]. وأخبر عن خاصة عباده أنهم يبتغون الوسيلة إليه، إذ يقول تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

على أن في هاتين الآيتين أسرارًا بديعة ذكرتها في كتاب **التحفة المكية في بيان الملة الإبراهيمية**، فأثمر لهم فكرهم الصحيح في خلق السماوات والأرض أنه لم يخلقهما عبثًا باطلًا، وأثمر لهم الإيمان بالله ورسوله ودينه وشرعه وثوابه وعقابه، والتوسل إليه بطاعته والإيمان به.

وهذا الذي ذكرناه في هذا الفصل قطرة من بحر لا ساحل له، فلا تستطله، فإنه كنز من كنوز العلم لا يلائم كل نفس، ولا يقبله كل محروم، والله يختص برحمته من يشاء.

انتهى كلامه رحمه الله، وهو كما ذكره في غاية النفاسة، ويوضح هذا المبحث توضيحًا تامًّا، وإذا شئت أن تعرف تفاصيل الحكمة في الشرع فاعتبر المسائل مسألة مسألة، فإنك تجدها في غاية الإحكام والإتقان، وفي أعلى درجات الحكمة والمصلحة، ولهذا كان الفقهاء والمتكلمون على الأحكام الشرعية يعللونها بالمصالح والحكم والمناسبات، فلو كان الأمر والنهي والتحليل والتحريم غير تابع للحكمة لم يكن فائدة في تعليل الأحكام والاحتجاج بها عليها. ومن أراد التوسع في بيان حكمة الله في شرعه وقدره إجمالًا وتفصيلًا وتأصيلًا، فعليه بكتاب **مفتاح دار السعادة** للمصنف رحمه الله، فإنه بسط الكلام فيه بسطًا شافيًا، وفيما نبهنا عليه من ذلك كفاية، والله أعلم.



فصل

وهـو الحيي فليـس يفضح عبده ... عنـد التجاهـر منـه بالعصيـان
لكنـه يلقـي عليه سـتره ... فهو السـتير وصاحـب الغفران

هذا مأخوذ من الحديث الذي رواه الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله حيي ستير يستحي من عبده إذا مد يديه أن يردهما صفرا**»[1]. وهذا من رحمته وكرمه وكماله أن العبد يجاهره بالعصيان، وهو الفقير إلى ربه غاية الافتقار، حتى إنه لا يمكنه أن يفعل معصية الله إلا بالتقوي عليها بنعم ربه، فيستحي ربه الكريم الرءوف الرحيم من هتكه وفضيحته وإحلال العقوبة عليه، فيستره بما يقيض له من أسباب الستر ما لا يخطر على البال، ويعفو عنه، ويغفر له ذنوبه، فهو يتحبب إلى عباده بالنعم وهم يتبغضون إليه بالمعاصي، خيره إليهم نازل بعدد اللحظات، وشرهم إليه صاعد، ولا يزال الملك الكريم يصعد إليه منهم بعمل قبيح، ويستحي تبارك وتعالى ممن شاب في الإسلام أن يعذبه، وممن يمد إليه يديه أن يردهما من غير شيء، بل يدعو العباد إلى دعائه، ويعدهم بالإجابة، وهو الحيي الستير، يحب أهل الحياء والستر، ومن ستر مسلمًا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة. ولهذا يكره من عبده إذا فعل معصية أن يذيعها، بل يتوب إليه فيما بينه وبينه، ولا يظهرها للناس، وإن من أمقت الناس إليه من بات عاصيًا والله يستره، فيصبح يكشف ستر الله عليه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]. وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله يخلو بعبده المؤمن يوم القيامة، فيقرره بذنوبه، حتى إذا ظن أنه قد هلك قال: إني سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتابه بيمينه**»[2].

---

(١) الترمذي (٣٥٥٦).
(٢) البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

ومن العجب أن الكريم يستحي من فضيحة عبده، والظالم الجاهل لا يستحي من ربه، بل لا يزال دائبًا في معصيته، متبعًا لسخطه، يدعوه ربه إلى بابه فيشرد عنه، ويدعوه عدوه إلى ولايته فيلبي دعوته، قد أقبل على عدوه الذي يشقى بطاعته في دنياه وأخراه، وتولى عن وليه الذي كل السعادة في الإقبال عليه والاشتغال بخدمته، وكل الأرباح في معاملته، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].
ولما كان ترك الحق وترك بيانه على أي حال كان، لا يكون من الحياء المحمود، أخبر تعالى أنه لا يستحي من الحق، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]. وذلك لأن بيانه الحق لعباده بأي طريق كان من أجلِّ نعمه عليهم.

وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان
وهو العفو فعفوه وسع الورى ... لولاه غار الأرض بالسكان

يعني أنه تعالى الحليم الذي له الحلم الكامل، العفوّ الذي له العفو الشامل. ومتعلق هذين الوصفين الكريمين معصية العاصين وذنوب المجرمين، فإن الذنوب في الأصل تقتضي ترتب آثارها عليها من العقوبات العاجلة، فحلمه تعالى يقتضي إمهال العاصين وعدم معاجلتهم بالعقوبة، ليتوبوا من عصيانهم. وعفوه تعالى يقتضي مغفرة ما صدر منهم من الذنوب، خصوصًا إذا أتوا بأسباب العفو من الاستغفار والتوبة النصوح، فإن حلمه وعفوه وسعا أهل السماوات والأرض، فلولا حلمه وعفوه لغارت الأرض بسكانها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: ٦١].
وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

وهو تعالى عفو يحب العفو، ويحب من عباده أن يجتهدوا في تحصيل أسباب عفوه، من السعي في مرضاته على الدوام، والعفو عن زلات العباد، قالت عائشة رضي الله عنها

للنبي ﷺ: يا رسول الله، إن وافقت ليلة القدر فبم أدعو؟ قال: «**قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني**»[1]. فمن سامح عباد الله سامحه الله، ومن عفا عنهم عفا الله عنه.

ومن كماله تعالى أن عفوه مقرون بالقدرة، فيعفو عن قدرة، لا كمن يعفو لعجزه عن الانتقام، ولهذا جمع الله بينهما في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

ومن تمام حلمه وعفوه أن المجرم الذي أفنى عمره بالكفر به وبرسله وبتكذيبه، وتكذيب رسله، والسعي في محاربته ومحاربة أوليائه، والحرص على إطفاء الحق وإظهار الباطل، أنه إذا تاب توبة نصوحًا، ورجع إليه نادمًا على جرمه، فإنه يعفو عنه في ساعة واحدة جميع ما تقدم من المعاصي والإجرام. ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. وقال تعالى لما ذكر أصحاب الأخدود الذين حرقوا أولياءه المؤمنين بالنار، يدعوهم إلى التوبة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]. وقال النبي ﷺ: «**الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها**»[2].

وهـو الصبور علـى أذى أعدائه	شـتموه بـل نسـبوه للبهتـان
قالـوا لـه ولـد وليـس يعيدنا	شـتمًا وتكذيبًـا مـن الإنسـان
هــذا وذاك بســمعه وبعلمــه	لـو شـاء عاجلهـم بـكل هوان
لكـن يعافيهـم ويرزقهـم وهم	يـؤذونـه بـالـشـرك والـكـفـران

وهذه الأبيات مأخوذة من قوله ﷺ في الحديث الثابت الصحيح: «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يجعلون له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم**»[3]. وبما ثبت عنه ﷺ **في الصحيح** من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «**قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول**

---

(١) الترمذي (٣٥١٣). (٢) أحمد (١٧٨٢٧).

(٣) البخاري (٦٠٩٩)، مسلم (٢٨٠٤).

الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: إن لي ولدًا، وأنا الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد»[1].

ولهذا قال المصنف: «وهو الصبور على أذى أعدائه، شتموه» أي: سبوه سبًّا لا يليق بجلاله، ونسبوه للبهتان الذي يتنزه عنه، فالشتم هو السب بقولهم: له ولد، فإن هذا مناقض لوحدانيته وغناه، وأنه مالك السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾، عن هذه النسبة الباطلة التي لا تصدر إلا من أعظم المبطلين، ثم ذكر ما يدفع ذلك فقال: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، ثم ذكر مصدر هذا القول الذي قالوه، وأنهم يقولون ويتكلمون بلا علم، وهذا من أعظم المحرمات، فقال: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾ أي ليس عندكم أدنى حجة بهذا القول الذي قلتم، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، ثم ذكر أنه افتراء، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [يونس: ٦٨، ٦٩]، وقال تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]. ونسبته للبهتان هو تكذيبه بقول المنكرين للبعث: لن يعيدنا، وهذا تكذيب له ولرسله، قال تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧]. فلم يبال المعاندون بقول الله، بل كذبوه ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء: ٤٩]. أي لا يكون ذلك بزعمهم، فإنهم من جهلهم قاسوا قدرة العظيم بقدرة العبد الضعيف، ولم يفقهوا قوله تعالى مخبرًا عن عظمته وكمال اقتداره: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨]. ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧].

فقول المؤلف: «شتمًا» عائد إلى نسبة الولد له، وقوله: «تكذيبًا» عائد لإنكارهم البعث.

---

(١) البخاري (٤٩٧٤).

ثم قال: هذا وذاك، أي نسبة الولد والتكذيب بالبعث بسمعه تعالى، يسمع ما به ينطقون، ويعلم ما يسرون وما يعلنون، والحال أنه لو شاء لعاجلهم بكل هوان، أي بكل عقوبة تستأصلهم، لكمال قدرته، وعدم امتناعهم عن تنفيذ إرادته فيهم، ومع هذا يعافيهم ويرزقهم، فيدر لهم الأرزاق، وينعم عليهم بالنعم، وهم يؤذونه بالشرك والكفران، فهل مثل هذا الصبر شيء، فإنه صبر متضمن لإحسانه وقدرته، فإن الصبر قد يوجبه عدم قدرة الصابر على مقابلة المؤذي، وقد يصبر على الأذى ولا يحسن إلى من أساء إليه، وأما الله تعالى فهو الصبور على الحقيقة، يؤذيه العبد الضعيف العاجز بمعاداته ومعاداة رسله، ومحاربة أوليائه، والسعي في إطفاء دينه، وناصيته بيد الله، وهو المتصرف فيه في حركاته وسكناته، ومع ذلك يمهله، ويستدعيه إلى التوبة، ويحثه على الإنابة ويدر عليه الأرزاق الواسعة. فتبارك الرب الرحيم الذي ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، الصابر الذي يحب الصابرين، ويعينهم في جميع أمورهم.



فصل

وهو الرقيب على الخواطر واللوا　　　حظ كيف بالأفعال بالأركان

«الرقيب» و «الشهيد» مترادفان، وكلاهما يدل على إحاطة سمع الله بجميع المسموعات، وبصره بجميع المبصرات، وعلمه بجميع المعلومات الجلية والخفية. ولهذا قال المصنف: «وهو الرقيب على الخواطر»؛ أي: يعلم ما يخطر في القلوب من الأفكار والوساوس التي لم يتكلم بها العبد، وعلى اللواحظ بالأبصار اللواحظ الخفية والجلية، فإذا كان رقيبًا على الخواطر واللحظات فكيف لا يكون رقيبًا على ما هو أظهر منها من الأفعال بالأركان والحركات. قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

ولهذا كانت المراقبة هي التعبد لله باسمه «الرقيب»، فإذا علم العبد أن حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاط الله بعلمها، واستحضر العبد لهذا العلم في جميع أحواله؛ أوجب له ذلك حراسة باطنه عن كل فكر وهاجس يبغضه الله، وحفظ ظاهره عن كل قول أو فعل يسخط الله، وتعبد بمقام الإحسان، فعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه. قال تعالى منبهًا على هذا المعنى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠]. وقال الشاعر:

كأن رقيبًا منك يرعى خواطري　　　وآخر يرعى ناظري ولساني
فما خطرت في القلب مني خطرة　　　لغيرك إلا عرجا بجناني

ولا نظـرت عينـي لغيـرك نظرة ... مـن الخلق إلا قلت قـد رمقاني

ولا بدرت مـن فيّ بعـدك لفظة ... لغيـرك إلا قلـت قد سـمعاني

ثم قال المصنف:

وهـو الحفيـظ عليهمُ وهـو الكفيـ ... ـل بحفظهم مـن كل أمر عاني

ذكر رحمه الله للحفيظ معنيين:

أحدهما: أنه الحفيظ عليهم جميع ما عملوه من خير وشر وطاعة ومعصية، فإن علمه تعالى محيط بجميع أعمالهم ظاهرها وباطنها، وقد كتب ذلك في اللوح المحفوظ، ومع ذلك فقد وكل بالعباد ملائكة كرامًا كاتبين، يعلمون ما تفعلون. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]. وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]. وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

فهذا المعنى من حفظه تعالى على عبده متضمن لإحاطة علم الله تعالى بأحوال عبده الظاهرة والباطنة والأقوال والأفعال، وكتابتها باللوح المحفوظ وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، وعلمه تعالى بمقاديرها وكمالها ونقصها ومقادير جزائها في الثواب والعقاب، ثم مجازاته عليها بعدله وفضله.

والمعنى الثاني: من معنى الحفيظ أنه تعالى الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون، ولهذا قال المصنف: «وهو الكفيل بحفظهم من كل أمر عاني» أي مشق مكروه، وحفظه تعالى لخلقه نوعان عام وخاص:

فالعام حفظه لجميع المخلوقات، بتيسيره لها ما يقيم بنيتها، ويحفظ قوتها، وتمشي إلى

مصالحها بهدايته العامة التي قال الله عنها: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. أي هدى كل مخلوق إلى ما قدر له وقضي له، مما هو من ضروراته، كالهداية للمأكل والمشرب والمنكح، والسعي في أسباب ذلك، وكدفعه عنهم أنواع المكاره وأصناف المضار التي يشترك فيها الأبرار والفجار، بل الحيوانات وغيرها، فهو الذي يحفظ السماوات والأرض أن تزولا، ويحفظ الخلائق بنعمه أن يفسدوا أو يتلفوا، وقد وكل بالآدميين حفظة من الملائكة الكرام يحفظونه من أمر الله، يدفعون عنه كل ما يضره مما هو بصدد أن يضره لولا حفظ الله، قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]. أي لو تخلى عنكم الرحمن الذي رحمكم بحفظكم، من ذا الذي يقوم بكلاءتكم في نومكم ويقظتكم غيره؟ أي لا أحد يقوم بذلك سوى الرحمن، فتعين أن يكون هو المعبود وحده.

والنوع الثاني: حفظه الخاص لأوليائه وعباده المؤمنين سوى ما تقدم، يحفظهم عما يضر إيمانهم أو يزلزل إيقانهم، من أنواع المحن والفتن والشبه التي يخاف معها على الإيمان، فيعافيهم الله منها، وإن ابتلوا بها يسر لهم الخروج منها بعافية، ويحفظهم من أعدائهم من الإنس والجن، فينصرهم عليهم، ويدفع عنهم كيدهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]. ولم يذكر ما يدفع عنهم لأجل العموم والشمول، وأنه يدفع عنهم كل ما يضر إيمانهم، وعلى حسب ما مع العبد من الإيمان يكون دفع الله عنه، قال تعالى في دفعه العام للمؤمنين: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ [الحج: ٤٠]. ومن الحفظ الخاص ما ورد عن النبي ﷺ في الدعاء الذي يقال عند المنام: «**إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**»[1]. فصار معنى الحفيظ الذي يحفظ على العباد أعمالهم ليجازيهم بها ويحفظهم مما يكرهون.

---

(١) البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤).

وهو اللطيف بعبده ولعبده   واللطف في أوصافه نوعان
إدراك أسرار الأمور بخبرة   واللطف عند مواقع الإحسان
فيريك عزته ويبدي لطفه   والعبد في الغفلات عن ذا الشان

يعني أن اللطيف هو اللطيف بعبده في أموره المتعلقة بنفسه، وهو اللطيف لعبده، أي يلطف له في الأمور الخارجة عنه، فيسوق إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر، ولهذا كان اللطف في أوصاف الله تعالى على قسمين:

أحدهما: خبرته تعالى وإدراكه لأسرار الأمور وخفايا الصدور ومغيبات الأمور، وما لطف ودق من كل شيء، وهذا النوع يرجع إلى إحاطة علمه بالمعلومات، إلا أنه العلم الخاص في الأمور الخفية، ويلزم منه علمه بجليات الأمور، ومن ذلك لما ذكر تعالى تعلق علمه بما في باطن الأرض من خفايا البذور، واستخراجها من باطن الأرض بما ينزل عليها من السماء، وخبرته بشدة حاجة عباده إلى ذلك، ذكر هذا الاسم الكريم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣]. فهو الذي يعلم السر وأخفى، ويعلم ما في السماوات والأرض، ويخرج الخبء في السماوات والأرض، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

والنوع الثاني: لطفه بعبده ووليه الذي يريد أن يتم عليه إحسانه، ويشمله بكرمه، ويرقيه إلى المنازل العالية، فييسره لليسرى، ويجنبه العسرى، ويمتحنه بأنواع المحن التي تشق عليه ويكرهها، وهي عين صلاحه، والطريق إلى سعادته، كما امتحن أنبياءه بأذى قومهم، وبالجهاد في سبيله، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]. وكما ذكر الله عن يوسف عليه السلام بعدما حصلت له المحن بإخوته، ثم بالرق، ثم بمراودة امرأة العزيز، ثم بالسجن الطويل، ثم جعل الله ذلك كله طريقًا إلى علوه وارتفاعه وملكه، وخضوع أبويه وإخوته له، ولهذا قال في آخر قصته: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ

جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيَ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وكثيرًا ما يمتحن أولياءه بما يكرهون، لينيلهم ما يحبون، ولهذا قال المصنف: **فيريك عزته، أي في امتحانك فيما تكره، ويبدي لطفه، والعبد في الغفلات عن ذا الشأن، فلو اطلع على الغيب لفرح بكثير من الأمور التي تجري عليه بخلاف ما يهوى، وكم لله من لطف وكرم** لا تدركه الأفهام، ولا تتصوره الأوهام، وكم استشرق العبد لمطلوب من مطالب الدنيا، من إمارة أو ولاية أو سبب من الأسباب الدنيوية، فيصرفه الله عنه رحمة به، لئلا يفسد عليه دينه، فيظل العبد حزينًا من جهله وعدم معرفته بربه. وفي الدعاء المأثور: «**اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغًا لي فيما تحب، اللهم الطف بنا في قضائك، وبارك لنا في قدرك، حتى لا نحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت**»[1].



(١) الترمذي (٣٤٩١).

فصل

وهو الرفيق يحـب أهل الرفق بل يعطيهـمُ في الرفـق فوق أماني

وهذا قد أخذه المؤلف رحمه الله من قول النبي ﷺ لعائشة بعدما سمعت اليهودي الذي قال للنبي ﷺ: السام عليك يا محمد، فأجابه النبي ﷺ بقوله: «وعليكم». ففطنت عائشة لليهودي، فقالت: وعليكم السام واللعنة، فقال النبي ﷺ: «**مهلًا يا عائشة، إن الله رفيق يحب أهل الرفق**»[1]. الحديث. وقال: «**إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف**»[2].

فالله تعالى رفيق في أفعاله، خلق السماوات والأرض في ستة أيام مع قدرته على خلقها في لحظة واحدة، وكذلك الآدميون والحيوانات وأنواع الأشجار والنبات يخلقها تعالى بالتدريج شيئًا فشيئًا، حتى تتم وتكبر، وهذا من رفقه وحكمته التي فيها من الفوائد والمنافع ما لا يدخل تحت الحصر. وإذا كان رفيقًا فهو يحب أهل الرفق، ويعطيهم من فضله وإحسانه ما لا يعطي غيرهم، ولهذا ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان العنف في شيء إلا شانه. فالمتأني الذي يأتي الأمور برفق وسكينة ووقار اتباعًا لسنن الله في الكون، تتيسر له الأمور، خصوصًا الذي يأمر الناس وينهاهم في مصالح دينهم ودنياهم، فإنه محتاج بل مضطر إلى الرفق واللين، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وكذلك من آذاه الناس بالأقوال البشعة، فصان لسانه عن مشاتمتهم، ورفع عن نفسه برفق ولين، اندفع عنه من أذاهم بسبب ذلك ما لا يندفع عمن قابلهم وصنع كصنيعهم، مع راحته

---

(١) البخاري (٦٠٢٤). (٢) مسلم (٢٥٩٣).

وطمأنينة قلبه واكتسابه للرزانة والحلم، وتنزهه عن سفسفة الأقوال، ولهذا لما كان اليهود يريدون بخطابهم للنبي ﷺ بقولهم السام عليكم؛ يريدون الموت، من كمال حلمه ﷺ لم يشتمهم، بل قال: «**وعليكم**»؛ أي: ما قلتم، ولهذا قال لعائشة: «**ألم تسمعي ما قلت لهم؟**». فبين عليه الصلاة والسلام أن المقابلة قد تحصل من دون كلام مستبشع ولا قول غليظ. وقال سفيان الثوري رحمه الله: ينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون عالمًا بما يأمر به، عالمًا بما ينهى عنه، عدلًا فيما يأمر به، عدلًا فيما ينهى عنه، رفيقًا فيما يأمر به، رفيقًا فيما ينهى عنه، فالرفق يدرك به خير كثير، ويثيب الله عليه ثوابًا جزيلًا، والعنف بخلاف ذلك.

وهـو القريب وقربـه المختص بالـ ـــداعي وعابـده علـى الإيمان

يعني أن القريب من أسمائه تعالى قسمان: قرب عام، وقرب خاص.

فالقرب العام: إحاطة علمه بجميع الأشياء، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

والنوع الثاني: قربه المختص بالداعين والعابدين والمحبين، وهو قرب يقتضي المحبة والنصرة والتأييد والإجابة والقبول والإثابة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩]. وقال النبي ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[1]. فهذا قربه من عابديه. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]. فهذا قربه من داعيه بالإجابة والتوفيق.

وللمصنف ههنا كلام حسن ذكره في **بدائع الفوائد**، فلنذكره لشدة الحاجة إليه، وعدم إجزاء غيره عنه، قال[2] في أثناء كلامه على قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ إلى

(١) مسلم (٤٨٢).
(٢) بدائع الفوائد ٣/ ٧.

قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦]: ...وسادسها: وهو من النكت السرية البديعة جدًّا، أنه دال على قرب صاحبه من الله، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأل مسألة أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾[مريم:٣]. فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه، وأنه أقرب إليه من كل قريب، وتصور ذلك؛ أخفى دعاءه مهما أمكنه، ولم يتأت له رفع الصوت به، بل يراه غير مستحسن، كما أن من خاطب جليسًا له يسمع أخفى كلامه، فإنه لو بالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه، ولله المثل الأعلى سبحانه.

وقد أشار إليه النبي ﷺ إلى هذا المعنى بقوله في الحديث الصحيح لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر، فقال: «**اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»[1]. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، ربنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾. وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء، لا للنداء الذي هو رفع الصوت، فإنهم سألوه فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب، لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء، وإنما يسأله مسألة القريب المناجي، لا مسألة البعيد المنادي.

وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص، ليس قربًا عامًّا من كل أحد، فهو قريب من داعيه، وقريب من عابده، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه، بل هو قرب خاص من الداعي

(١) البخاري (٢٩٩٢).

والعابد، كما قال النبي ﷺ رواية عن ربه تبارك وتعالى: «**من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا**»[1]. فهذا قربه من عابده، وأما قربه من داعيه وسائليه فكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥]. فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب. وأما قربه تبارك وتعالى من محبه فنوع آخر ونبأ آخر وشأن آخر، قد ذكرناه في كتاب **التحفة المكية**، على أن العبارة تنبو عنه، ولا يحصل في القلب حقيقة معناه، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب، وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية، أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها، فتزل قدم بعد ثبوتها.

وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام، وساء تعبيرهم، فوقعوا في أنواع من الطامات والشطح، فقابلهم من غلظ حجابه، فأنكر محبة العبد لربه جملة وقربه منه، وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوق، فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا. وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء وهؤلاء في كتاب **التحفة** أكثر من مائة طريق. انتهى كلامه رحمه الله.

وهـو المجيب يقول مـن يدعو أجبـ ـــه أنا المجيب لكل من ناداني

وهـو المجيب لدعـوة المضطر إذ يدعـوه فـي سـر وفـي إعلان

جعل المؤلف للمجيب معنيين: معنى عام، ومعنى خاص:

فالعام: هو إجابته تعالى لكل من دعاه دعاء عبادة ودعاء مسألة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. فدعاء المسألة أن يقول بلسانه: اللهم أعطني كذا، أو: اللهم ادفع عني كذا. فهذا يقع من البر والفاجر، ويستجيب الله فيه للبر والفاجر، فقد يدعو الكافر بحصول رزق أو دفع عدو أو خروج من مشقة، فيستجيب الله له، ولا أعظم كفرًا من إبليس، وقد سأل الله النظرة، فأنظره الله إلى يوم يبعثون، ولهذا يستدل بهذا النوع

(١) البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

على كرم الباري وسعة جوده وحلمه.

ولا يدل مجرد الإجابة على حسن حال الداعي الذي أجيبت دعوته، حتى يأتي ما يدل على ذلك، فإن اقترن بذلك ما يدل على تعين الحق معه، كسؤال الأنبياء ودعائهم لقومهم وعلى قومهم، دل ذلك على صدق من أجاب الله دعاءه، ولهذا كان النبي ﷺ كثيرًا ما يدعو بدعاء يرى الناس عيانًا إجابته، فيجعلونه من دلائل النبوة وآيات صدقه ﷺ، وكذلك ما يذكرونه عن كثير من أولياء الله من إجابة دعواتهم، يجعلونه من كرامات الله لأوليائه.

وأما الإجابة الخاصة فلها أسباب عديدة، ومن أعظمها: دعوة المضطر الذي وقع في شدة وكربة عظيمة، فإن الله تعالى يجيب دعوته، وذلك لشدة افتقار العبد لربه في هذه الحال، وانقطاع يقلقه من المخلوقين، ولسعة رحمة الله التي يشمل بها الخلق بحسب حاجاتهم إليها، فكيف بمن اضطر إليها، ولهذا قال المصنف: «وهو المجيب لدعوة المضطر إذ يدعوه في سر وفي إعلان».

ومن أسباب إجابة الدعاء إطالة السفر، والتوسل إلى الله بأحب الوسائل المقربة إليه، من أسمائه وصفاته ونعمه، ودعوة المظلوم، ودعوة الوالد لولده أو عليه، وفي الأوقات والأحوال الشريفة، كما وردت بذلك كله النصوص والأخبار التي لا يسعها هذا الموضع. قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود:٦١]. وقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ [النمل:٦٢].

وهـو الجواد فجـوده عم الوجو ... د جميعـه بالفضـل والإحسـان
وهو الجـواد فلا يخيّب سـائلًا ... ولـو انـه مـن أمـة الكفـران

يعني أن جوده تعالى عام لجميع المخلوقات، قد عمها وشملها، وملأها من فضله وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.

وخاص للسائلين بلسان المقال، أو بلسان الحال؛ من بر وفاجر ومسلم وكافر، فمن سأل الله أعطاه سؤله، وناله ما طلب. قال تعالى وهو الرحيم: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور:٢٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤].

وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى، أنه قال: **«يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر»**(١). وفي رواية لغير مسلم: **«ذلك بأني جواد ماجد واجد، عطائي كلام، وعذابي كلام، إنما أمري لشيء إذا أردت أن أقول له كن فيكون»**(٢).

وقال ﷺ في الحديث الصحيح: **«إن خزائن الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه، وبيده الأخرى القسط، يخفض بها ويرفع»**(٣). ومن جوده وكرمه ما أعده الله لأوليائه في دار كرامته، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ومن جوده وكرمه أنه المغيث لكل مخلوقاته، فلهذا قال:

وهـو المغيـث لـكل مخلوقاته وكـذا يجيـب إغاثـة اللهفـان

فالمغيث يتعلق بالشدائد والمشقات، فهو المغيث لجميع المخلوقات عندما تتعسر أمورها، وتقع في الشدائد والكربات، من إطعام جائعهم، وكسوة عاريهم، وتخليص مكروبهم، وكشف الضر عنهم، وإنزال الغيث عليهم في وقت الضرورة إليه.

(١) مسلم (٢٥٧٧).
(٢) الترمذي (٢٤٩٥).
(٣) البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣).

وكذا يجيب إغاثة اللهفان، أي دعاء من دعاه في حالة اللهف وشدة الاضطرار، فمن استغاثه أغاثه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى:٢٨]. وقال النبي ﷺ: «**إن الله ينظر إليكم آزلين قنطين**[١]**، فيظل يضحك، يعلم أن فرجكم قريب**»[٢].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣]. وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ [يونس:٢٢، ٢٣] الآية. وقال تعالى ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤]. وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٦٢]. وقال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥، ٦]. وقال النبي ﷺ في حديث ابن عباس الذي رواه الترمذي وغيره: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا**»[٣]. وقال تعالى عن ذي النون عليه السلام: إنه نادى في الظلمات ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧، ٨٨]. أي إذا وقعوا في الشدائد نجاهم الله، ودفعها عنهم بإيمانهم؛ ولهذا ينجيهم من كربات الموت وشدة القبر وأهوال يوم القيامة، حين تعجز قدرهم، ولا يبقى ملجأ يلجئون إليه إلا الله تبارك وتعالى، وكم أنجى في الدنيا من الكرب والشدائد كثيرًا من أنبيائه وأوليائه، وأغاثهم بلطفه، ودفع عنهم بعزته، ورحمهم ويسرهم لليسرى.

---

(١) كذا بالمخطوط، وفي مصدر التخريج : «مشفقين».

(٢) أحمد (١٦٢٠٦).

(٣) لم نجده في الترمذي، وهو في مسند أحمد (٢٨٠٣).

فصل

وهـو الـودود يحبهـم ويحبـه	أحبابـه والفضـل للمنـان
وهو الذي جعـل المحبة في قلو	بهـمُ وجازاهـم بحـب ثانـي
هذا هو الإحسان حقًّا لا معا	وضـة ولا لـتـوقـع الـشـكـران
لكن يحب شـكورهم وشـكورهم	لا لاحتيـاج منه للشـكـران

هذا تفسير لاسمه تعالى «الودود»، وقد اختلف المفسرون في تفسيره، فقيل: إنه فعول بمعنى فاعل، وقيل: إنه فعول بمعنى مفعول. والصحيح أنه يعم النوعين كليهما كما قال المصنف، فهو الودود الذي يود عباده المؤمنين وأولياءه الصالحين، وهو المودود لأوليائه وعباده المتقين، بل لا شيء أود إليهم منه، ولا تعادل محبة الله محبة، لا في أصلها ولا في متعلقاتها ولا في كيفيتها، وهذا هو الواجب أن تكون محبة الله في قلب العبد سابقة لكل محبة، غالبة على كل محبة، ويتعين أن يكون كل محبة تبعًا لمحبة الله.

قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤] الآية. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤]. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف:٤]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج:١٤]. إشارة إلى أن من أحبه الله غفر له الذنوب، ويسره لكل مطلوب. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١]. والدليل على وجوب محبة الله تعالى وأنه يجب تقديمها على سائر محاب النفوس قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ

ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ [التوبة: ٢٤]. **فتوعد تعالى من كانت هذه الأمور أحب إليه من الله ورسوله واتباع مرضاة الله.**

ولهذا كانت محبة الله تعالى هي روح الأعمال، وجميع العبودية ناشئة من محبة الله. ومحبة العبد لربه فضل من الله وإحسان، ليست بحول العبد ولا قوته، فهو الذي أحب عبده، فجعل المحبة في قلبه. ثم لما أحبه العبد جازاه الله بحب آخر، فهذا هو الإحسان على الحقيقة، إحسان محض ليس المقصود به المعاوضة، وإنما ذلك محبة منه تعالى للشاكرين من عباده، ومحبة للشكر من غير حاجة منه إلى الشكر، بل المصلحة كلها عائدة إلى العبد، فتبارك الذي أودع محبته في قلوب عباده المتقين، ثم لم يزل ينميها ويقويها حتى وصلت إلى حالة تتضاءل عندها المحاب، وتسليهم عن المألوفات، وتهون عليهم المصيبات، وتلذذ لهم مشقة الطاعات، وتثمر لهم ما يشاءون من أصناف الكرامات، التي أعلاها حصول محبة الله والفوز برضاه والأنس بقربه.

فمحبة العبد لربه محفوفة بمحبتين من ربه، محبة قبلها صار بها محبًّا لربه، ومحبة بعدها شكرًا من الله له على محبته، صار بها من أصفيائه المخلصين. فنسألك اللهم حبك وحب من يحبك، وحب العمل الذي يقربنا إلى حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلينا من أنفسنا وأهلنا وأولادنا ومن الماء البارد، واجعل كل محبة تعلقت منا بغيرك تابعة لمحبتك.

وأعظم سبب يكتسب به العبد محبة الله التي هي أعظم المطالب: الإكثار من ذكره، وكثرة الإنابة إليه، وكثرة التقرب إليه بالفرائض والنوافل، وتحقيق متابعة الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾ [آل عمران: ٣١]. **وقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني**

لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته» رواه البخاري[1].

والمقصود أن معنى الودود أنه المحبوب المودود، أعظم مودة وأصفاها وأخلصها من عباده المؤمنين، الواد لعباده القائلين بمحابه ومراضيه، وله الفضل والمنة في ذلك كله.

وهو الشكور فلن يضيع سعيهم	**لكن يضاعفه بلا حسبان**
ما للعباد عليه حق واجب	**هو أوجب الأجر العظيم الشان**
كلا ولا عمل لديه ضائع	**إن كان بالإخلاص والإحسان**
إن عُذِّبوا فبعدله أو نعموا	**فبفضله والحمد للمنان**

قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٧]. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن:١٧]. فمن أسمائه تعالى: الشاكر الشكور، الذي لا يضيع سعي العاملين لوجهه، ولا يتركه باطلًا، بل يضاعفه أضعافًا مضاعفة بلا عد ولا حسبان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف:٣٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:١٢٠]. وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠]. وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١]. وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل:٨٩]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧].

---

(١) البخاري (٦٥٠٢).

وثبت في **الصحيحين** عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له حسنة كاملة فإن عملها كتبها الله له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة**»[1]. وقال ﷺ: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب؛ فإن الله يقبلها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل العظيم**» متفق عليه[2].

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على سعة فضل الله، وأنه الشاكر لسعي العاملين، الذي لا يضيع عمل عامل، وبعينه ما يتحمل المتحملون من أجله. ومن فعل لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن ترك لأجله عوضه الله خيرًا من ذلك، وهو الذي وفق عباده المؤمنين لمرضاته، ثم شكرهم على ذلك، وأعطاهم من كراماته ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكل هذا ليس حقًّا واجبًا عليه بالأصل، وإنما هو الذي أوجبه على نفسه. ولهذا قال المصنف:

ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأجر العظيم الشان

وهذا القيد الذي قيده به المصنف أحسن من إطلاق من أطلق ذلك بقوله:

كلا ولا سعي لديه ضائع ... ما للعباد عليه حق واجب

وكذلك تقييد المصنف للسعي الذي لا يضيعه الله بقوله:

.... إن كان بالإخلاص والإحسان

أي: مقصودًا به وجه الله، محسنًا فيه على سنة رسول الله؛ لأن العمل لا يكون صالحًا حتى يوجد فيه هذان الشرطان: الإخلاص والمتابعة، كما قال في موضع آخر:

فقيام دين الله بالإخلاص والـ ... إحسان إنهما له أصلان

---

(١) البخاري (٩٤٦١)، ومسلم (١٢٨).

(٢) البخاري (٧٤٣٠)، ومسلم (١٠١٤).

وقول المؤلف: «إن عذبوا فبعدله»، لأنه لا يعذبهم إلا بذنوبهم التي اجترحوها، بعدما قامت عليهم حجة الله، وحذرهم الله منها غاية التحذير، فإذا استمروا على الطغيان بعد ذلك، ولم يقبلوا نصائح الناصحين، علم أنهم لا يصلحون إلا للعذاب، فعدل فيهم حيث عذبهم؛ لأنه لم يضع العقوبة إلا في موضعها. وأما إنعامه وإكرامه فإن ذلك محض فضله وإحسانه؛ لأنه الذي وفقهم وأعانهم وأعد لهم من الكرامات ما لا يقابله أضعاف أضعاف أعمالهم، ولكن له تعالى تمام الحمد وكمال النعمة، وله الفضل أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

قال في **بدائع الفوائد**[1]: قد أخبر الله سبحانه في كتابه أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا إيجاب منه على نفسه، فهو الموجب، وهو متعلق الإيجاب الذي أوجبه، فأوجب بنفسه على نفسه بقوله في الحديث الصحيح: «**لما قضى الله الخلق كتب بيده على نفسه في كتاب، فهو عنده موضوع فوق العرش، إن رحمتي تغلب غضبي**»[2]. وفي لفظ: «**سبقت غضبي**».

فتأمل كيف أكد هذا الطلب والإيجاب بذكر فعل الكتابة، وصفة اليد، ومحل الكتابة، وأنه كتاب، وذكر مستقر الكتاب، وأنه عنده فوق العرش، فهذا إيجاب مؤكد بأنواع التأكيد، وهو إيجاب منه على نفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]. فهذا حق أحقه على نفسه، فهو طلب وإيجاب على نفسه بلفظ (الحق) ولفظ (على).

ومنه قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح لمعاذ: «**أتدري ما حق الله على عباده؟**» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟**» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**حقهم عليه ألا يعذبهم بالنار**»[3]. ومنه قوله ﷺ في غير حديث: من فعل كذا وكذا كان حقًّا على الله أن يفعل به كذا وكذا في الوعد والوعيد، فهذا الحق الذي أحقه على نفسه.

---

(١) ٢/ ١٦١.

(٢) البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

(٣) البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠).

ومنه الحديث الذي في المسند عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قول الماشي إلى الصلاة: أسألك بحق ممشاي هذا، وبحق السائلين عليك، فهذا حق السائلين عليه هو أحقه على نفسه، لا أنهم أوجبوه وأحقوه، بل أحق على نفسه أن يجيب من سأله، كما أحق على نفسه في حديث معاذ ألا يعذب من عَبَدَه، فحق السائلين عليه أن يجيبهم، وحق العابدين له أن يثيبهم، والحقان هو الذي أحقهما وأوجبهما، لا السائلون ولا العابدون، فإنه:

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعي لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

ومنه قوله تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [التوبة:١١١]، فهذا الوعد هو الحق الذي أحقه على نفسه وأوجبه. ونظير هذا ما أخبر به تعالى من قسمه ليفعلنه؛ نحو قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٩٢]، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم:٦٨]. وقوله: ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم:١٣]. وقوله: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٤، ٨٥]. إلى آخر ما ذكره رحمه الله.

والمقصود من هذا الكلام ذكر ما يتعلق بقوله:

ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأجر العظيم الشان

فإن إيجابه على نفسه ما أوجبه فضل منه وإحسان، لا معاوضة ولا في مقابلة عمل مستقل من أحد من العالمين، فله المنة في هذه الدار وفي دار البرزخ ودار القرار.

فصل

وهو الغفور فلو أتى بقرابها ... من غير شرك بل من العصيان

لاقاه بالغفران ملء قرابها ... سبحانه هو واسع الغفران

يعني أنه تعالى الغفور الذي وصفه المغفرة للذنوب والجرائم، فلو أتى العبد بقراب الأرض خطايا وهو لا يشرك بالله شيئًا، لاقاه الله بقرابها أي بملئها مغفرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. هذا مع عدم التوبة، وأما التوبة فإن الله يمحو بها الذنوب الكبار والصغار، الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]. فمغفرته تعالى وسعت كل شيء، فالعباد لا يزالون يذنبون، والله يتجاوز عنهم، ويحب العفو عنهم، وهو وإن كان واسع المغفرة فإنه قد جعل لمغفرته أسبابًا تنال بها؛ لأنها أعظم المطالب، وذلك كالتوبة والاستغفار، والإيمان، والعمل الصالح، والإحسان إلى عباد الله، ومغفرة ما يصدر منهم، وحسن الظن بالله تعالى، وغير ذلك مما جعله مقربًا لمغفرته، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]. ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]. وقال النبي ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يصب منه**»[1].

وقد تكاثرت النصوص الدالة على تكفير السيئات بالمصائب والمكاره التي تصيب

(١) البخاري (٥٦٤٥).

العبد، خصوصًا إذا عمل بما أمره الله به من الصبر والاحتساب، وقال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم**»[1]. ولولا عفوه ومغفرته ما ترك على ظهر الأرض من دابة، ولكنه يعامل عباده بالإحسان إليهم، بحصول الخيرات ودفع المضرات التي انعقدت أسبابها، فيحلها ويزيل آثارها، وسيأتي إن شاء الله وجه عدم دخول الشرك في مغفرة الله في آخر هذه الفصول.

وكذلك التـــواب من أوصافه ... والتـوب فـي أوصافـه نوعـان

إِذْنٌ بتوبــة عبـــده وقبولهـــا ... بعـــد المتاب بمنـــة المنان

يعني أنه التواب أي كثير التوبة على الخطائين والمذنبين، وتوبته على عبده نوعان:

الأول: إذنه لعبده وتوفيقه للتوبة، فإنه لولا توفيقه لما خطر بقلب العبد إرادة التوبة، ثم لولا توفيقه لما صارت تلك الإرادة عزمًا جازمًا مقرونًا بفعل أسباب التوبة، من الإقلاع عن الذنب في الحال، والندم على ما مضى منه، والعزم على ألا يعود إليه، والاستمرار على ذلك.

النوع الثاني: توبته على عبده بعد توبة العبد، بقبولها وإجابتها ومحو الذنوب بها، فهو الذي من بالسبب والمسبب، وله الفضل والإحسان في أول الأمر وآخره، فعلى العبد الاجتهاد في مرضاته، والشكر له على توفيقه ومنته، قال النبي ﷺ: «**التوبة تجب ما قبلها**» متفق عليه[2]. وقال تعالى بعدما ذكر الشرك والمعاصي الكبار، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١].

---

(١) مسلم (٢٥٧٧).

(٢) تقدم تخريجه ص٥٥٠.

ومن لطفه تعالى وكرمه أنه يفرح بتوبة التائب، أعظم من فرح من فقد راحلته التي عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، في أرض مهلكة دَوّيّة [1]، فطلبها حتى أيس منها، وجعل ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال إذا هو براحلته على رأسه، فأخذ بخطامها، فقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح الذي أذهب حواسه وإدراكه، كما ثبت ذلك في الصحيح [2].



(١) الدوية : نسبة إلى الدو بتشديد الواو، وهي : البرية التي لا نبات بها.

(٢) مسلم (٢٧٤٧).

فصل

وهـو الإله السـيد الصمد الذي ... صمدت إليـه الخلـق بالإذعان

الكامل الأوصـاف من كل الوجو ... ه كمالـه ما فيـه مـن نقصـان

هذا معنى اسمه « الصمد»، المعنى الجامع، الذي يدخل فيه كل ما فسر به الصمد، فهو الصمد الذي تصمد إليه جميع المخلوقات بالذل والحاجة والافتقار، ويقصده العالم العلوي والسفلي في حوائجه ومهماته، لا يستغني أحد عنه طرفة عين. وهو الصمد الذي له الصفات الكاملة من كل الوجوه، الذي ما في كماله من نقصان، فهو العليم الكامل في علمه، الحليم الكامل في حلمه، الرحيم الكامل في رحمته، وهكذا سائر الصفات، فالصمد الذي تصمد إليه جميع المخلوقات؛ لأنه كامل الصفات.

قال المصنف في **البدائع**[1]:

التاسع عشر: أن من أسمائه الحسنى ما يكون دالًّا على عدة صفات، ويكون ذلك الاسم متناولًا لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة لها، كما تقدم بيانه، كاسمه العظيم والمجيد والصمد، كما قال ابن عباس فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره: قال: الصمد الذي كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحليم الذي قد كمل في حلمه، وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه وسؤدده، وهو الله سبحانه وتعالى، هذه صفته لا ينبغي إلا له، ليس له كفوًا أحد، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار. وهذا مما

(١) ١/١٦٨.

خفي على كثير ممن تعاطى الكلام في تفسير الأسماء الحسنى، ففسر الاسم بدون معناه، ونقصه من حيث لا يعلم.

وكذلك القهار من أوصافه　　فالخلق مقهورون بالسلطان

لو لم يكن حيًّا عزيزًا قادرًا　　ما كان من قهر ولا سلطان

«القهار» هو الذي قهر الأشياء، وانقادت لعظمته ومشيئته المخلوقات كلها، فلا يحدث حادث إلا بمشيئة الله، ولا يسكن ساكن إلا بإرادته، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [يونس: ٣١]. وقال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]. فالخلق كلهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا. والله تعالى هو المالك للملك، الذي له العظمة والسلطان والتصرف.

ثم ذكر المصنف أن القهار من أسمائه مستلزم لكمال حياته وكمال عزته وكمال قدرته؛ لأنه محال أن يكون قاهرًا لكل شيء وهو غير حي ولا عزيز ولا قادر، ولهذا قال:

لو لم يكن حيًّا عزيزًا قادرًا　　ما كان من قهر ولا سلطان

وسيأتي إن شاء الله تفصيل القول في أنواع الدلالات.

وكذلك الجبار من أوصافه　　والجبر في أوصافه قسمان

جبر الضعيف وكل قلب قد غدا　　ذا كسرة فالجبر منه دان

والثانِ جبر القهر بالعز الذي　　لا ينبغي لسواه من إنسان

ولـه مسـمى ثالث وهـو العلو فليـس يدنـو منـه من إنسـان

مـن قولهـم جبـارة للنخلة الـ ـعليا التـي فاتـت لـكل بنان

يعني أن للجبار معنيين بل ثلاثة معانٍ، كلها داخلة في اسمه الجبار.

فهو الجبار يجبر القلوب المنكسرة من أجله، فيجبر الكسير، ويغني الفقير، وييسر على المعسر كل عسير، ويجبر المصاب بتثبيته وتوفيقه للصبر، وإعاضته على ذلك أكمل الأجر، ويجبر قلوب الخاضعين لعظمته، الخاضعين لكبريائه، ويجبر قلوب المحبين بما يفيض عليها من أنواع كراماته وصنوف مسراته، فالقلب المنكسر لربه جبره من أقرب الأشياء؛ ولهذا كان دعاء المظلوم والمضطر والمريض والمسافر ونحوهم مجابًا للكسرة التي في قلوبهم، ومن هذا قول الداعي: اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني، فإن الجبر معناه: جبر الشيء المنكسر بإصلاحه وتقويمه وإزالة كسره، ومنه الجبيرة وهي اليد التي تكسر فيربط عليها ما يشدها ويقيمها، فسؤال العبد لربه أن يجبره يتضمن الدعاء بإصلاح حاله، وتقويم أموره، وسائر شئونه، وإزالة ما فيه من الوهن والضعف والنقص.

والمعنى الثاني للجبار: أنه القهار لكل شيء، الذي إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، بحيث لا يمتنع عليه شيء.

والمعنى الثالث: أنه الجبار، أي العالي على خلقه، الذي من عظمته وكبريائه قد باين مخلوقاته وعلا عليها، فليس يدانيه أحد منها لكمال رفعته وجلاله، وهذا المعنى مأخوذ من قول العرب للنخلة المرتفعة: نخلة جبارة، فالجبار العالي على كل شيء، القاهر لكل شيء، الجابر للمنكسرين، خصوصًا المنكسرين من أجله.

فصل

وهـو الحسـيب حمايـة وكفاية والحسـب كافي العبد كل أوان

يعني أن «الحسيب» معناه الكافي لعبده جميع ما أهمه من أمر دينه ودنياه، الحامي له من جميع المكاره؛ لأن الحسب بمعنى الكفاية، فالحسيب هو الكافي. وللحسيب معنى آخر لم يذكره المصنف، وهو أنه الذي يحفظ على العباد أعمالهم من خير وشر، ثم ينبئهم بها، ويحاسبهم عليها، ويعرفهم مقادير أعمالهم ومراتبها في الخير والشر، ويجازيهم عليها. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. وقال تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]. أي كافيك وكافي أتباعك، فكفاية الله لعبده بحسب ما قام به العبد من اتباع الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا، وبحسب عبوديته لربه، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. إلى غير ذلك من النصوص الدالة على محاسبته لعباده بما عملوه، وعلى كفايته إياهم جميع أمورهم.

وهـو الرشـيد فقولـه وفعالـه رشـد وربـك مرشـد الحيـران
وكـلاهـمـا حـق فـهـذا وصـفـه والفعـل للإرشـاد ذاك الثانـي

يعني أن معنى «الرشيد» الذي قوله رشد، وأفعاله رشد، المرشد لكل حيران وتائه وضال إلى الصراط المستقيم بيانًا وتوفيقًا. وكلا المعنيين حق، فهذا وصف، أي كون أقواله وأفعاله رشد.

.... والفعل للإرشاد ذاك الثاني

أي كونه مرشد الحائرين وهادي الضالين؛ فأما أقواله تعالى فإنها أقوال قدرية وأقوال شرعية دينية، فأقواله القدرية التي يوجد بها الأشياء، ويدبر بها ما شاء من أنواع التصاريف، كلها حق؛ لأنها مشتملة على الحكمة التامة التي يحمد عليها تعالى أتم حمد وأكمله. ويعرف ذلك باستقراء المخلوقات وما فيها من الحكم والمصالح، وأنه لا عبث فيها بوجه من الوجوه.

وأقواله الشرعية الدينية هي الأقوال التي تكلم بها في كتبه وعلى ألسنة رسله، المشتملة على الصدق التام في الأخبار، والعدل التام في الأمر والنهي، فإنه لا أصدق من الله قيلًا ولا أحسن منه حديثًا، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]. صدقًا في الأخبار، عدلًا في الأوامر والنواهي، وهي أعظم ما يرشد به العباد، بل لا حصول إلى الرشاد بغيرها، فمن لم يسترشد بها فليس برشيد، فيحصل بها الرشد العلمي، وهو بيان الحقائق والهدى والضلال والأحكام الشرعية، ويحصل بها الرشد العملي، فإنها تزكي النفوس، وتطهر القلوب، وتدعو إلى صالح الأعمال وأحسن الأخلاق، وتحث على الأفعال الجميلة، وترهب عن الأفعال الرذيلة، فمن استرشد بها فهو المهتدي، ومن لم يسترشد بها فهو الغاوي، والله تعالى لم يجعل لأحد عليه حجة بعد بعثته للرسل، وإنزاله عليهم الكتب المشتملة على الهدى، وكم قد هدى ضالًا، وأرشد حائرًا، فهو الرشيد في قوله وفعله وإرشاده.

والعدل من أوصافه في فعله ... ومقاله والحكم بالميزان

فعلى الصراط المستقيم إلهنا ... قولًا وفعلًا ذاك في القرآن

يعني أن الله هو الحكم العدل في وصفه وفي فعله وفي قوله وفي حكمه بالقسط، وهذا معنى كونه تعالى على صراط مستقيم، كما قال هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]. وذلك لأن أفعاله تعالى كلها دائرة بين الفضل والعدل والحكمة، فكلها أفعال رشيدة مستقيمة، وجميع أقواله صدق وعدل، وحكمه الديني عدل، وحكمه بين عباده

فيما اختلفوا فيه عدل، وحكمه بين عباده في الجزاء والثواب والعقاب عدل، فليس في شيء من ذلك ظلم بوجه من الوجوه، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة؛ ولهذا يحمده الخلائق بعدما يقضي بينهم في القيامة، فقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]. وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]. وقال تعالى آمرًا عباده بإقامة العدل والقسط: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]. ولهذا اتفقت الشرائع كلها على الأمر بالعدل والنهي عن الظلم.

فصل

هذا ومن أوصافه القدوس ذو الـ ـتنزيه بالتعظيم للرحمن

وهو السلام على الحقيقة سالم من كل تمثيل ومن نقصان

يعني أن من أسمائه القدوس السلام، فالقدوس هو المنزه المعظم عن كل سوء، وكذلك السلام على الحقيقة، وضابط ما ينزه عنه أمران ذكرهما المؤلف:

أحدهما: أنه الكامل المنزه عن مماثلة أحد من المخلوقات، فليس كمثله شيء في جميع نعوته، لكمال أوصافه.

والثاني: أنه المنزه عن كل عيب ونقصان، والنقصان يرجع إلى ما يناقض أوصاف كماله، فالقدوس السلام يرجع معناها إلى التنزيه، ويلزم من التنزيه التعظيم والثناء عليه بصفات الكمال؛ لأن التنزيه والسلب المحض ليس مدحًا، حتى يتضمن إثبات ضده وهو الكمال.

قال المصنف: في **بدائع الفوائد**[1]: فصل: إذا عرف هذا فإطلاق السلام على الله تعالى اسمًا من أسمائه هو أولى به من هذا كله، وأحق من هذا الاسم من كل مسمى به، لسلامته سبحانه من كل عيب ونقص يتخيله وهم.

وسلام في صفاته من كل عيب ونقص، وسلام في أفعاله من كل عيب وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة، بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار، فعلم أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه.

وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه به نفسه ونزهه به رسوله، فهو السلام من الصاحبة والولد،

(١) ٢/ ١٣٥.

والسلام من النظير والكفؤ والسمي والمماثل، والسلام من الشريك. ولذلك إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلامًا مما يضاد كمالها، فحياته سلام من السنة ومن الموت والنوم، وكذلك قيوميته وقدرته سلام من التعب واللغوب، وعلمه سلام من عزوب شيء عنه أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر وتفكر، وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة، وكلماته سلام من الكذب والظلم، بل تمت كلماته صدقًا وعدلًا، وغناه سلام من الحاجة إلى غيره بوجه ما، بل كل ما سواه محتاج إليه، وهو غني عن كل ما سواه، وملكه سلام من منازع فيه أو مشارك أو معاون أو مظاهر أو شافع عنده بدون إذنه، وإلهيته سلام من مشارك له فيها، بل هو الله الذي لا إله إلا هو، وحلمه وعفوه وصفحه ومغفرته وتجاوزه سلام من أن يكون عن حاجة منه أو ذل أو مصانعة كما يكون من غيره، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه، وكذلك عذابه وانتقامه وشدة بطشه وسرعة عقابه سلام أن يكون ظلمًا أو تشفيًا أو غلظة أو قسوة، بل هو محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء مواضعها، وهو مما يستحق عليه الحمد والثناء، كما يستحقه على إحسانه وثوابه ونعمته، بل لو وضع الثواب مكان العقوبة لكان مناقضًا لحكمته ولعزته، فوضعه العقوبة موضعها هو من حمده وحكمته وعزته، فهو سلام مما يتوهمه أعداؤه والجاهلون به من خلاف حكمته. وقضاؤه وقدرته سلام من العبث والجور والظلم ومن توهم وقوعه على خلاف الحكمة البالغة...

وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم وخلاف حكمته؛ بل شرعه كل حكمة ورحمة ومصلحة وعدل، وكذلك عطاؤه سلام من كونه معاوضة أو لحاجة إلى المعطي، ومنعه سلام من البخل وخوف الإملاق، بل عطاؤه إحسان محض لا لمعاوضة ولا لحاجة، ومنعه عدل محض وحكمة لا يشوبه بخل ولا عجز.

واستواؤه وعلوه على عرشه سلام من أن يكون محتاجًا إلى ما يحمله أو يستوي عليه، بل العرش محتاج إليه، وحملته محتاجون إليه، فهو الغني عن العرش وحملته وعن كل ما سواه، فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر، ولا حاجة إلى عرش ولا غيره، ولا إحاطة شيء

به سبحانه وتعالى، بل كان سبحانه ولا عرش، ولم يكن به حاجة إليه، وهو الغني الحميد، بل استواؤه على عرشه واستيلاؤه على خلقه من موجبات ملكه وقهره، من غير حاجة إلى عرش ولا غيره بوجه ما.

ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا ليس مما يضاد علوه، وسلام مما يضاد غناه، وكماله سلام من كل ما يضاد كماله وغناه، وسلام من كل ما يتوهم معطل أو مشبه، وسلام من أن يكون تحت شيء أو محصورًا في شيء، فتعالى الله ربنا عن كل ما يضاد غناه وكماله، وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل.

وموالاته لأوليائه سلام من أن يكون عن ذل، كما يوالي المخلوق المخلوق، بل هي موالاة رحمة وخير وإحسان وبر، كما قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الإسراء: ١١١]. وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق للمخلوق من كونها محبة حاجة إليه أو تملق له أو انتفاع بقربه.

وسلام مما يتقوله المعطلون فيها، وكذلك ما أضافه إلى نفسه من اليد والوجه، فإنه سلام عما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل.

فتأمل كيف تضمن اسمه «السلام» كل ما ينزه عنه تبارك وتعالى. وكم من يحفظ هذا الاسم ولا يدري ما تضمنه من هذه الأسرار والمعاني. والله المسئول أن يوفق على تعليق على الأسماء الحسنى على هذا النمط؛ إنه قريب مجيب. انتهى كلامه رحمه الله. وقد اشتمل من تفصيل معاني هذا الاسم الكريم على خير كثير.

والبر في أوصافه سبحانه ... هو كثرة الخيرات والإحسان
صدرت عن البر الذي هو وصفه ... فالبر حينئذ له نوعان
وصف وفعل فهو بر محسن ... مولي الجميل ودائم الإحسان

يعني أن البر في نسبته إلى الله نوعان:

أحدهما: أنه البر الرحيم الذي اتصف بالجود والكرم، وكثرة الخيرات، وأصناف البر الذي لا منتهى له.

والثاني: أنه البر بمعنى أنه المحسن الذي أنعم على العباد بأصناف النعم، ودفع عنهم جميع النقم، فما بالعباد من بر وإحسان وخير وسرور في دينهم ودنياهم إلا من الله. وبر الأبرار الذي استحقوا به دخول الجنة من لطفه بهم وتوفيقه إياهم، فمعنى البر: هو المتصف بالرحمة العظيمة، الذي والى على خلقه آثارها، وأسدى عليهم من جوده ما به استقامت أحوالهم وتمت أمورهم.

وكذلك الوهاب من أسمائه … فانظر مواهبه مدى الأزمان
أهل السماوات العلى والأرض عن … تلك المواهب ليس ينفكان

يعني أنه تعالى الوهاب مستمر الإحسان متواتر الفضل، لم يزل ولا يزال محسنًا متفضلًا، دائم الهبات كثير الخيرات جزيل العطايا، لا يخلو مخلوق عن رحمته وإحسانه طرفة عين، فأهل السماوات والأرض وأهل الدنيا والآخرة لا ينفكون عن جوده وإحسانه، ولا يستغنون عنه في حال من الأحوال، بل هم المفتقرون إليه على الدوام، فيهب لهم من إحسانه ما به تقوم أمورهم الدنيوية، ويهب لعباده المؤمنين من لدنه رحمة يلم بها شعثهم، ويصلح فيها نقصهم، ويرقيهم بها إلى أعلى الدرجات والوصول إلى أجل الكرامات، ولا يمكن أحدًا من المخلوقين تعداد بعض نعم الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨].

وكذلك الفتاح من أسمائه … والفتح في أوصافه أمران
فتح بحكم وهو شرع إلهنا … والفتح بالأقدار فتح ثاني
والرب فتاح بذين كليهما … عدلًا وإحسانًا من الرحمن

يعني أن من أسمائه الحسنى الفتاح، وذلك على قسمين:

أحدهما: الفتاح بحكمه الديني وحكمه الجزائي.

والثاني: الفتاح بحكمه القدري. ففتحه بحكمه الديني هو شرعه على ألسنة رسله ما به تقوم أحوال المكلفين، وتستقيم أحوالهم الدينية والدنيوية، ويعرفهم كل ما يحتاجون إليه.

وأما فتحه بحكمه الجزائي فهو فتحه بين أنبيائهم ومخالفيهم، وبين أوليائه وأعدائه، والفتح يوم القيامة بين سائر الخلق حين يوفي كل عامل بعمله: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

وأما فتحه القدري فهو ما يفتحه على عباده من خير وشر، ونفع وضر، وعطاء ومنع، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]. فهذا في فتح الخير. وقال في فتح الشر على من تعرض له: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]. واستفتاحهم طلبهم أن يحل بهم ما وعدهم الله على لسان رسوله، تكذيبًا للرسول وتعجيزًا لربهم، وقال تعالى في فتحه بين أنبيائه ومن خالفهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ [السجدة: ٢٨، ٢٩]. أي حين ينزل بهم العذاب الذي توعدوا به، وقال شعيب عليه السلام: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]. وقال في الفتح بين عباده في دار الجزاء: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦].

فالرب هو الفتاح الذي انفرد بالعطاء والمنع، وهو الذي يفتح للعباد خزائن جوده وكرمه، فيعطي من يشاء ويمنع من يشاء، وهو الذي يأمر وينهى ويثيب ويعاقب، وكل هذا تابع لعدله وفضله، يحمد عليه أتم الحمد وأكمله، ولهذا قال المصنف: «عدلًا وإحسانًا من الرحمن».

وكذلك الرزاق من أسمائه ... والرزق من أفعاله نوعان

رزق على يد عبده ورسوله ... نوعان أيضًا ذان معروفان

رزق القلــوب العلــم والإيمان والـ	ــــرزق المعــد لهــذه الأبــدان
هــذا هو الــرزق الحــلال وربنا	رزاقـــــه والــفــضــل لــلــمــنــان
والثان ســوق القوت للأعضاء في	تلــك المجــاري ســوقه بــوزان
هذا يكون من الحــلال كما يكو	ن مــن الحــرام كلاهمــا رزقان
والــرب رازقــه بهــذا الاعتبــا	ر وليــس بالإطــلاق دون بيــان

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. وذكر المؤلف رحمه الله أن رزقه نوعان:

أحدهما: الرزق النافع المستمر نفعه في الدنيا والآخرة، وهو الرزق الذي على يد الرسول ﷺ، رزق القلوب بالعلم والإيمان وحقائقه، ورزق البدن بالحلال الذي لا تبعة فيه، فإن الرزق الذي خص الله به المؤمنين والذي يسألون منه شامل لذلك كله. فينبغي للداعي بالرزق أن يستحضر بقلبه هذه الأنواع، فإذا قال: اللهم ارزقني، فمعناه: اللهم ارزقني ما يصلح به قلبي من العلم والهدى والمعرفة، ومن الإيمان الشامل لكل عمل صالح وخلق حسن، وما به يصلح بدني من الرزق الحلال الهني، الذي لا مشقة فيه ولا تبعة تعتريه، وهذا وسيلة للأول، والأول هو المقصود من العبد، ولا بد له من الثاني ليعد بدنه ويصلح لإقامة دين الله.

والنوع الثاني من الرزق: الرزق العام لسائر الخليقة، برها وفاجرها، بل ناطقها وبهيمها، وحقيقته هو أن يسوق الله لكل حيوان قوته الذي به تصلح بنيته ويستقيم بدنه، ولا بد لكل مخلوق من هذا الرزق، وقد تكفل الله به لكل دابة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]. أي فيوصل لها رزقها في أي مكان كانت؛ في ظلمات البحار، وفي جوف الأرض والصخور، وفي العالم العلوي أو السفلي، وهذا قد يكون بأسباب، وقد يأتي في بعض الأوقات بلا سعي من المخلوق، وقد يكون السبب مباحًا وقد يكون محرمًا.

ولهذا قال المصنف: هذا يكون من الحلال كما يكون من الحرام، وربنا رزاقه بهذا الاعتبار؛ أي من جهة أنه أوصل إليه بقضائه وقدره ما به يستقيم بدنه، وإن كان محرمًا يلام عليه العبد، ولا يتعلق به أمر الله، بل هو منهي عنه. وقوله: «وليس بالإطلاق» أي: وليس هذا الرزق الذي يكون من الحرام يسمى رزقًا مطلقًا، بحيث يكون رزقا تامًّا لا محذور فيه، وإنما يقال: مطلق رزق.

وبهذا يعرف الجواب عن السؤال المشهور إذا قيل: هل لله على الفاجر نعمة ورحمة؟ وهل الله رزقه أم لا؟

فالجواب أن يقال: أما النعمة المطلقة والرحمة المطلقة والرزق المطلق فإن هذا مخصوص بالمؤمن المتبع لمرضاة الله، فإن هذه الأمور تكون تامة في حقه. وأما الكافر والفاجر فله من ذلك مطلق الرحمة ومطلق الرزق، فإنه لولا رحمته ورزقه لما وجد، ولما استقام بدنه، ولما حصل له ما يوافق هواه.

وفي كلام المصنف إشارة لرد قول من قال من المعتزلة وغيرهم: إن الحرام لا يسمى رزقًا لوجود التبعة فيه، وهذا قول فاسد، من لازمه أن من يغتذي بالحرام فالله لم يرزقه، وهذا مصادم لما دلت عليه النصوص، ولما تقرر عند كافة بني آدم المثبتين لوجود الله، فإنهم متفقون على أن الله هو الرزاق وحده، كما أنه الخالق وحده، وأنه ما من مخلوق يخلو من رزقه في وقت من الأوقات، ولكن الحرام لا يسمى رزقًا مطلقًا، وإنما هو مطلق رزق كما تقدم.



فصل

هذا ومــن أوصافــه القيوم والـ ... قــيـوم فـي أوصــافــه أمــران

إحداهمــا القيــوم قــام بنفســه ... والكــون قــام بــه همــا الأمران

فــالأول اســتغناؤه عــن غيــره ... والفقــر مــن كلٍّ إليــه الثانــي

والوصــف بالقيوم ذو شــأن كذا ... موصوفــه أيضًــا عظيــم الشــان

والحــي يتلــوه فأوصــاف الكما ... ل همــا لأفــق ســمائه قطبــان

فالحــي والقيوم لــن تتخلف الـ ... أوصــاف أصــلاً عنهمــا ببيــان

هذا تفسير للحي القيوم، وجمعهما في غاية المناسبة؛ لأن الله جمع بينهما في غير آية، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]. وذلك أنهما - كما قال المصنف - مشتملان على جميع أوصاف الكمال ومتضمنان لذلك، فإنك إذا أعطيت هذين الاسمين حقهما من المعنى لم يتخلف عن ذلك شيء من الأسماء الحسنى والصفات العلى.

وبيان ذلك أن الحي هو من له الحياة الكاملة التامة، التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه، والحياة الكاملة مستلزمة للسمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة النافذة، وسائر الصفات الذاتية داخلة في مسمى الحياة.

وأما الصفات الفعلية التي يفعلها الباري، مما يتعلق بنفسه: كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين عباده، والكلام، وغير ذلك، ومما يتعلق بالمخلوقات: كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والرحمة وأنواع التدابير الإلهية، فإنها

داخلة في القيوم؛ لأن معنى القيوم هو الذي قام بنفسه بما له من صفات الكمال ونعوت الجلال؛ بحيث كان مستغنيا عن غيره من جميع الوجوه، الذي قام بجميع المخلوقات في إيجادها وإعدادها وإمدادها، فكما لا وجود لها إلا بالله، فلا بقاء لها ولا صلاح إلا به، فهي مفتقرة إليه في جميع شئونها، لا يمكن أن تستغني عنه طرفة عين.

ومن كمال قيوميته أنه كامل القوة والقدرة، نافذ الإرادة والمشيئة، فعال لما يريد، قام بنفسه وقام به من سواه. فالحياة تستلزم الصفات الذاتية، والقيومية تستلزم الصفات الفعلية.

قال المصنف رحمه الله في **مدارج السالكين**[1] في منزلة الحياة في أثناء كلام له: فيشهد قيام الكون كله بالله، وقيامه سبحانه بنفسه، فهو القائم بنفسه، المقيم لكل ما سواه، فإذا رسخ قلبه في ذلك شهد الصفة المصححة لجميع صفات الكمال، وهي الحياة التي كمالها يستلزم كمال السمع والبصر والقدرة والإرادة والكلام وسائر صفات الكمال، وصفة القيومية الصحيحة المصححة لجميع الأفعال، فالحي والقيوم من له كل صفة كمال، وهو الفعال لما يريد. انتهى.

هو قابض هو باسط هو خافض ... هو رافع بالعدل والميزان

يعني أنه القابض للأرزاق والأرواح والنفوس، الباسط للأرزاق والرحمة والنفوس، وهو الخافض لأقوام، الرافع لآخرين، وذلك كله عدل من الله وحكمة، يحمد عليه أتم الحمد وأكمله، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٢٧]. فقبضه نعمة في حق عباده المؤمنين؛ لأنه يمنعهم به من البغي والظلم والعدوان. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨].

---

(١) ٣/٢٦٩.

وإن كان تعالى هو القابض الباسط الخافض الرافع قدرًا وقضاء، فلا يمتنع أن تكون هذه الأمور بأسباب من العباد، متى قاموا بها حصلت لهم، وهذا هو الواقع؛ فإن الأسباب محل حكمته وسنته الجارية التي لا تبدل ولا تغير، وإذا كان أعظم أنواع رفعه رفعَهُ لأوليائه إلى أعلى عليين في محل قربه والدنو منه؛ فهذا محال أن يدرك بدون الإيمان والأعمال الصالحة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧] الآية. وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]. فجعل استحقاقهم لأعلى الأمكنة بسبب برهم؛ فكل قبض وبسط وخفض ورفع قدري أو ديني فإنه من الله تعالى، لانفراده بالتدبير، وهذه من أنواع التدبير والشئون التي يصرفها بحسب حكمته وحمده.

وهو المعز لأهل طاعته وذا ... عز حقيقي بلا بطلان

وهو المذل لمن يشاء بذلة الـ ... ـدارين ذل شقا وذل هوان

يعني أنه المعز لمن يشاء المذل من يشاء، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾[آل عمران: ٢٦]. والعز الحقيقي الذي هو عز ظاهر وباطن إنما يكون بالقيام بطاعته واتباع رسله، والذل الحقيقي إنما يكون بعدم القيام بطاعة الله، فإنه وإن وجد مع أهل المعاصي عز ظاهر وأبهة دنيوية فإن ذلك محشو بالذل والهوان. فقد يشعر به صاحبه، وقد تغلب عليه السكرة فلا يشعر بذلك، كما قال الحسن رحمه الله في أهل المعاصي: إنهم وإن طقطقت[١] بهم البراذين[٢]، وهملجت بهم البغال[٣]، إن ذل المعاصي قد علاهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]. فالعاصي له الذل والشقاء في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ

(١) الطقطقة: أصوات حوافر الدواب في سرعة ترددها.

(٢) البراذين: الدواب. (٣) أي: سارت بهم سيرًا في سرعة وبخترة.

ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]. وأما أهل العلم والإيمان فإن لهم العز والسعادة في الدنيا والآخرة، ولا يغترون بظاهر ما يعطاه المترفون في الدنيا، ولا يقع في نفوسهم من ذلك شيء، كما قال أهل العلم والإيمان لمن غبط قارون على ما أوتيه من زينة الدنيا، فقالوا: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ [القصص: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠]. أي من أراد العزة فإنها كلها لله تعالى، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨].

هو مانع معطٍ فهذا فضله ... والمنع عين العدل للمنان

يعطي برحمته ويمنع من يشا ... ء بحكمة والله ذو سلطان

يعني أنه تعالى المنفرد بالعطاء والمنع، فلا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فإن أعطى فبمحض فضله وإحسانه، لا بسبب من العبد ولا بتقدم واسطة. وإن منع فبمحض عدله وحكمته. ومن أعظم عطائه عطاء الهدى والأمن والتوفيق للأعمال الصالحة، وليست بحول العبد وقوته، بل بتوفيق الله ومنِّه ولطفه، يضعهما في المحل القابل لها الذي تصلح به، ويمنعها من المحل الذي لا يليق بها ولا تصلح به ولا تزكو عليه، وليس منعه لعبده من التوفيق منعًا لحق للعبد حتى يكون ذلك ظلمًا، وإنما هو محض فضله يمنعه ممن ليس له بأهل، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣].

والعطاء أحب إلى الله من المنع، وقد فتح للعباد من أبواب رحمته وخزائن جوده وعطائه كل باب، فيسر لهم كل طريق يوصل إلى ذلك، وأمرهم بسلوكها، فمن سلكها حصل له من الجود والعطاء ما لا يخطر بالبال ويدور في الخيال، ومن لم يسلكها، بل سد دون نفسه أبوابها، وسلك الطرق التي تفضي به إلى الحرمان، فلا يلومن إلا نفسه.

والنور من أسمائه أيضًا ومن ... أوصافه سبحان ذي البرهان

قال ابن مسعود كلامًا قد حكا ه الدارمي عنه بلا نكران
ما عنده ليل يكون ولا نها ر قلت تحت الفلك يوجد ذان
نور السماوات العلى من نوره والأرض كيف الشمس والقمران
من نور وجه الرب جل جلاله وكذا حكاه الحافظ الطبراني
فبه استنار العرش والكرسي مع سبع الطباق وسائر الأكوان
وكتابه نور كذلك شرعه نور كذا المبعوث بالفرقان
وكذلك الإيمان في قلب الفتى نور على نور مع القرآن
وحجابه نور فلو كشف الحجا ب لأحرق السبحات للأكوان
وإذا أتى للفصل يشرق نوره في الأرض يوم قيامة الأبدان
وكذاك دار الرب جنات العلى نور تلألأ ليس ذا بطلان
والنور ذو نوعين مخلوق ووصـ ـف ما هما والله متحدان
وكذلك المخلوق ذو نوعين محـ ـسوس ومعقول هما شيئان
احذر تزلّ فتحت رجلك هوة كم قد هوى فيها على الأزمان
من عابد بالجهل زلت رجله فهوى إلى قعر الحضيض الداني
لاحت له آثار أنوار العبا دة ظنها الأنوار للرحمن
فأتى بكل مصيبة وبلية ما شئت من شطح ومن هذيان
وكذا الحلولي الذي هو خدنه من ههنا حقًّا هما أخوان
ويقابل الرجلين ذو التعطيل والـ ـحجب الكثيفة ما هما سيان
ذا في كثافة طبعه وظلامه وبظلمة التعطيل هذا الثاني
والنور محجوب فلا هذا ولا هذا له من ظلمة يريان

بسط المصنف الكلام على النور في هذا الفصل، لشدة الحاجة إلى معرفته ومعرفة الفرقان فيه. وحاصل ما ذكره أن من أسمائه وأوصافه النور الذي استنارت به العوالم كلها، فبنور وجهه أشرقت الظلمات، واستنار العرش والكرسي مع سبع الطباق وسائر الأكوان، وكتابه نور ورسوله نور، والإيمان الذي في قلوب المؤمنين نور، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤]. وقال: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾[المائدة: ١٥]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾[النور: ٣٥]. أي نور الإيمان على نور القرآن على نور الفطرة، وقال تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

وحجابه تعالى نور كما قال النبي ﷺ: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**» رواه مسلم(١). وروى الطبراني عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «**إن ربكم عز وجل ليس عنده ليل ولا نهار، نور السماوات من نور وجهه...**»(٢). الحديث. ولهذا قال المؤلف: «قلت تحت الفلك يوجد ذان»، أي الليل والنهار لا يوجدان إلا تحت الفلك الأسفل؛ لأنهما تبع لوجود الشمس وعدمها، وأما الملأ الأعلى والعالم العلوي ففي غاية السعة والنور.

وقوله: «وكذاك دار الرب نور تلألأ»، يشير إلى الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أسامة ابن زيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «**ألا مشمر للجنة، فإنها لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، ونهر مطرد، وقصر مشيد، وزوجة حسناء**

---

(١) مسلم (١٧٩).

(٢) الطبراني (٨٨٨٦).

جميلة، وحلل كثيرة، وفاكهة وخضرة وحبرة في أبد لا يزول». فقال القوم: نحن المشمرون لها، فقال: «قولوا إن شاء الله». فقال القوم: إن شاء الله[1].

ثم ذكر المؤلف أن النور نوعان: نور وصف لله، وهو ما أطلقه على نفسه الكريمة في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]. وكما في قول النبي ﷺ: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والإنس والجن يموتون**»[2]. وكما في قوله: «**لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[3]. أي: لأحرق نوره وبهاؤه جميع المخلوقات، وكما في قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]. فهذا كله وصف لله تعالى. وكذلك كتابه تعالى نور، وكلامه صفة من صفاته.

أما النور المخلوق فهو نوعان: محسوس ومعقول، فالمحسوس: الذي يدرك بالحواس ويرى عيانًا، فهو نور الحجاب ونور الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الأنوار التي تدخل في قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]. وأما النور الذي لا يدرك بالحس وإنما هو معقول، فهو نور الإيمان وشواهد الإيقان ونور المعرفة وحقائق الذكر ونور المحبة، فهذا نور معقول يشرح الصدر، ويجعل صاحبه في جنة معجلة لا يشبهها شيء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وكما كان النبي ﷺ يدعو في قيام الليل وفي الخروج إلى المسجد: «**اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، ومن فوقي نورًا، وتحتي نورًا، اللهم أعطني نورًا، وزدني نورًا**»[4]. فهذا النور يقوى بحسب المعرفة وقوة المحبة،

---

(١) ابن ماجه (٤٣٣٢).
(٢) الطبراني (١٨١).
(٣) مسلم (١٧٩).
(٤) أبو داود (١٣٥٣).

وكثرة الذكر الذي يتواطأ عليه القلب واللسان، وبحسب ما يقوم بالقلب من حقائق العبادات.

ثم حذر المصنف رحمه الله في هذا المقام من اغترار من اغتر من جهلة المتصوفة والمتعبدة، حين عملوا على الحقائق فاجتهدوا في التعبد، فاستنارت بذلك قلوبهم، وعظم الوارد إليها، فظنوا بجهلهم وظلمهم أن تلك أنوار الصفات للذات المقدسة، وتوهموا أن ما يجدونه في أذهانهم موجود في الخارج والعيان، فباحوا بالشطح والطامات الكبرى، وادعوا أنهم يشاهدون الله حقا، بل ربما وصلوا إلى درجة الحلول، فظنوا أن الله حالٌّ فيهم ومتصل بهم، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرا. فالمتعبد إن لم يصحبه العلم والتمييز بين النور المخلوق وغيره طرق باب الحلول ولا بد، وسبب ذلك قوة الوارد وضعف المورد وقلة العلم، فلهذا حذر المؤلف، فقال:

احذر تزل فتحت رجلك هوة ....

أي حفرة تهوي بصاحبها إلى أسفل سافلين.

.... كم قد هوى فيها على الأزمان

من عابد بالجهل زلت رجله فهوى إلى قعر الحضيض الداني

ثم ذكر السبب في قوله:

لاحت له آثار أنوار العبا دة ظنها الأنوار للرحمن

أي ظنها نور الذات من جهله.

فأتى بكل مصيبة وبلية ما شئت من شطح ومن هذيان

والشطح كلام الغلو الذي يجعل لنفسه منزلة ليست له، بل ربما جعل لها من خصائص الإلهية شيئًا. والهذيان الكلام الذي لا حاصل له، بل هو عبث وباطل.

ثم قال:

وكــذا الحلولي الــذي هو خدنه ....

أي نظيره ومشبهه من هذا الوجه، فإن المتعبد تعرض له هذه الأمور في بعض الأوقات، وإن كان اعتقاده اللازم مخالفًا لذلك. وأما الحلولي فهو الذي يعتقد حلول الإله - تعالى الله عن قوله - في بعض الأشخاص، كدعوى النصارى حلوله في عيسى ابن مريم، ودعوى غلاة الرافضة حلوله في بعض أهل البيت، ودعوى كثير من المتصوفة حلوله العام أو الخاص، فكل هذا انحراف عن الصراط المستقيم الذي دلت عليه الكتب، ودعت إليه الرسل، وكفر وزندقة. فهؤلاء حصل لهم الانحراف من جهة الغلو.

«ويقابل الرجلين» أي: جهلة المتعبدة والحلولية رجلان آخران:

أحدهما: المعطل لصفات الله تعالى، الذي ينفر القلوب عن معرفة ربها ومحبته والإنابة إليه، فإن إثبات الصفات شرط لذلك، وهذا يسعى في تعطيلها وتحريفها ونفي حقائقها الثابتة، فهذا محجوب عن الله بتعطيله.

والثاني: صاحب الحجب الكثيفة، وهو الذي قد أعرض عن معرفة ربه، وغفل عن ذكره، واتبع هواه وكان أمره فرطًا، قد أقبل على شهوات نفسه ولذة جسمه، فقلبه مغمور بالشهوات، مصدود عن حقائق العبادات، فهذا بظلمة طبعه وشهوته ممنوع من نور القلب والأنس بربه والابتهاج بمحبته، لا يصل إليه النور حتى يفرغ قلبه من الشواغل الصادة عن مباشرة حقائق الإيمان إليه، ثم يجعل محبة الله هي غايته ومقصوده، وإرادة وجهه هي منتهى طلبه، ويجاهد نفسه على تخلقها بهذا الخلق الكامل، ويستعين بربه ويلتجئ إليه، فما خاب عبد أمَّل جوده وإحسانه، وتسبب لذلك بما يصل إليه قدرته.



فصل

وهـو المقـدم والمؤخـر ذانك الـ ـــصفتان للأفعـــال تابعتان

وهما صفـات الذات أيضًا إذ هما بالذات لا بالغيـــر قائمتان

ولذاك قد غلط المقسـم حين ظـ ـــن صفاتـه نوعـان مختلفـان

إن لـم يرد هـذا ولكـن قد أرا د قيامهـا بالفعـل ذي الإمـكان

والفعـل والمفعول شـيء واحد عنـد المقسـم ما هما شـيئان

فلذاك وصف الفعـل ليس لديه إلْـ لَا نـسـبـة عـدمـيـة ببيـان

فجميع أسـماء الفعال لديـه ليـ ـــست قـط ثابتـة ذوات معاني

موجـودة لكـن أمـور كلهـا نسـب تـرى عدميـة الوجـدان

هـذا هـو التعطيل للأفعـال كالـ ـــتعطيل للأوصـاف بالميـزان

فالحـق أن الوصف ليـس بمورد الـ ـــتقسيم هـذا مقتضـى البرهان

بل مـورد التقسـيم ما قد قام بالذْ ذات التـي للواحـد الرحمـن

فهمـا إذًا نوعـان أوصـاف وأفـ ـــعال فهـذي قسـمة التبيـان

فالوصـف بالأفعال يسـتدعي قيا م الفعـل بالموصـوف بالبرهان

كالوصـف بالمعنى سـوى الأفعال ما إن بيـن ذينـك قـط مـن فرقان

ومـن العجائـب أنهم ردوا على مـن أثبت الأسـماء دون معاني

قامت بمن هـي وصفه هذا محا ل غيـر معقـول لـذي الأذهان

وأتوا إلى الأوصاف باسـم الفعل قا لـوا لـم تقـم بالواحـد الديان

فانظر إليهم أبطلوا الأصل الذي ... ردوا به أقوالهم بوزان
إن كان هذا ممكنًا فكذاك قو ... ل خصومكم أيضًا فذو إمكان
والوصف بالتقديم والتأخير كو ... ني وديني هما نوعان
وكلاهما أمر حقيقي ونسـ ... ـبي ولا يخفى على الأذهان
والله قدر ذاك أجمعه بإحـ ... ـكام وإتقانٍ من الرحمن

أصل ما ذكر المصنف في تفسير المقدم والمؤخر أنه المقدم لمن يشاء من خلقه المؤخر له، والتقديم والتأخير نوعان: كوني قدري وديني شرعي، الأول: متعلق بقدرته وحكمته. والثاني: برحمته وقدرته وحكمته. فالأول لا يدل على رضاه ومحبته. والثاني يدل على ذلك. وحاصل الأول أنه المقدم لبعض المخلوقات على بعض في الخلق والرزق والتدبير، المؤخر لها في ذلك. وحاصل الثاني أنه المقدم بعض عباده على بعض في العلم والإيمان والفضائل الدينية وثواب ذلك، وكل من التقديم والتأخير حقيقي ونسبي، فالحقيقي أن يكون المخلوق مقدما مطلقًا أو مؤخرًا مطلقًا كونًا أو دينًا. والنسبي أن يكون ذلك بالنسبة إلى ما دونه أو إلى ما فوقه.

وقول المؤلف: «ولا يخفى (المثال) على (أولي) الأذهان».

أما التقديم والتأخير النسبي فظاهر في الكوني والديني، كتقديم الأب على الولد، وتقديم بعض القرون على بعض، وتأخرها عما قبلها، وكتقديم موسى في الفضل على غيره من الخلق سوى محمد وإبراهيم وتأخره عنهما، وكتقديم من فضل غيره بصفة دينية على المفضول وتأخره عن الفاضل.

وأما التقديم والتأخير الحقيقي الديني فظاهر، فإنه على الإطلاق محمد ﷺ مقدم بالفضل على سائر الخلق، وإبليس على الإطلاق مؤخر على سائر الخلق، فإنه شر الخليقة قطعًا.

وأما التقديم والتأخير الكوني الحقيقي فهذا لا يدري مثاله إلا الله تعالى، لأنا لا نعلم

ما أول ما خلق الله مطلقًا، ولا ندري آخر ما يخلق الله تعالى، بل لا سبيل لأحد من الخلق إلى علم ذلك، لأن الله لم يزل ولا يزال يفعل، لا مبتدأ لذلك ولا منتهى، فلا يحيط أحد من الخلق بشيء من ذلك.

ثم ذكر المصنف رحمه الله أن المقدم والمؤخر من صفات الأفعال، وذكر الفرق بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية، وأنها كلها تشترك بقيامها بالله تعالى، لا فرق في ذلك بين الصفات الذاتية - كالسمع والبصر والعلم والقدرة ونحوها - وبين الصفات الفعلية - كالاستواء والنزول والكلام والخلق وأنواع التدبير - فكلها قائمة بالله تعالى، لاستحالة وجود الفعل من غير أن يتصف به الفاعل، هذا محال عقلًا ونقلًا ولغة، فكيف يضيف تعالى إلى نفسه فعلًا وهو قائم بغيره، هذا من أبطل الباطل، ولكن الفرق بين الصفات الذاتية والفعلية من جهة أن الصفات الذاتية لا ينفك عنها بوقت ولا حال من الأحوال، كالعلم الذي لا يمكن أن يفارقه بحال، وكالقدرة والغنى الذي هو من لوازم ذاته، وكالعلو على المخلوقات ونحو ذلك.

وأما الصفات الفعلية فضابطها هي كل صفة تعلقت بقدرته ومشيئته، التي إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها على حسب ما تقتضيه الحكمة الربانية، ويعبر عنها بالأفعال الاختيارية؛ أي المتعلقة بإرادته واختياره تعالى، وذلك كالكلام، فإنه لم يزل ولا يزال متكلمًا إذا شاء وكيف شاء، لا يخلو وقت من الأوقات السابقة والأوقات اللاحقة التي لا منتهى لها ولا غاية إلا وهو موصوف بأنه متكلم بما يشاء، بكلماته الدينية وكلماته القدرية، بل لو أن ما في الأرض من شجرة أقلام، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مدادًا، فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد، لنفدت ولم تنفد كلمات الله، إذ هي غير مخلوقة، ولا منتهية.

وكذلك الخلق والتدبير والإحسان لم يزل تعالى بذلك موصوفًا وبالإحسان معروفًا، ولا يزال كذلك، ويدل على ذلك كل ما ورد في الكتاب والسنة من أنه قال كذا أو يقول كذا أو فعل كذا أو يفعل كذا مما لا يحاط بذكره لكثرته وانتشاره، ويدل على ذلك عقلًا أنه

قد تقرر أنه تعالى كامل القدرة نافذ المشيئة لم يزل ولا يزال كذلك، ومن كان كامل القدرة تام الإرادة فكيف يخلو وقت من الأوقات أن يكون معطلًا عن فعله وكلامه المترتب على ذلك، وقد تقرر أيضًا أنه الكامل من جميع الوجوه لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه، ومن المعلوم أن الكمال إنما يكون باتصافه كل وقت أنه يقول ويفعل ما يشاء، فإنا لو فرضنا أن يكون معطلًا في وقت من الأوقات عن أفعاله لكان ذلك نقصًا، يتعالى عنه الرب العظيم الكامل في ذاته وأوصافه وأفعاله.

فهذا التقسيم بين صفات الذات وصفات الأفعال هو الحق الذي تدل عليه الأدلة والبراهين، فليس الوصف مورد التقسيم، فإنها كلها قائمة بالله قد اتصف بها، وإنما مورد التقسيم ما قد قام بذات الله من الصفات اللازمة التي لا ينفك عنها أبدًا، والصفات المتعلقة بقدرته ومشيئته وهي الصفات الفعلية.

ثم أنكر المصنف على من قسمها غير هذا التقسيم، ممن ينتسب إلى الأشعري وغيره من أهل الكلام، أنه لم يرد ما ذكره من هذا التقسيم، بل أرادوا أن صفات الأفعال لم تقم بالله ولم يتصف بها، وزعموا أن ذلك يقتضي حلول الحوادث في ذات الله، فنفوا بهذا اللفظ كل صفة فعلية، فأنكروا استواءه على عرشه، ونزوله إلى السماء الدنيا، وأفعاله التي يوجدها شيئًا فشيئًا، وبنوا على هذا أن الكلام عبارة عن المعنى النفسي القديم الذي لا يعقل، ونفوا أن يكون متكلمًا في كل وقت بما شاء وإذا شاء، وهذا التعطيل لأفعال الله نظير تعطيل الجهمية ومن تبعهم لجميع صفات الله الذاتية والفعلية، ولا فرق بين الأمرين.

ولهذا تعجب المصنف من الأشعرية الذين أثبتوا الصفات الذاتية، وأنكروا غاية الإنكار على الجهمية الذين أثبتوا الأسماء دون المعاني والصفات، وحقيق بهم أن ينكروا عليهم، فإن إثبات الأسماء دون المعاني باطل عقلًا ونقلًا، ولكن الأشعرية نقضوا أصلهم الذي ردوا به على الجهمية في صفات الأفعال، وعطلوا الأفعال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله، فتناقضوا في هذا الأصل، فاستطالت عليهم الجهمية بما سلموه لهم من الأصل

الذي نفوا به الأفعال لله، وقالوا: الفعل هو المفعول، فحرفوا نصوص الكتاب والسنة، ونزلوها على هذا الأصل الذي أصلوه، وهو أن الفعل هو المفعول، وهذا باطل في الشرع؛ لمنافاته له، فاسد في العقل؛ لأنه محال أن يوجد مفعول بدون فعل متصف به الفاعل.

ولهذا ألزمهم المؤلف أنه إن كان قولكم هذا ممكنًا على الفرض والتقدير، فكذلك قول خصومكم الجهمية في أصلهم الذي ردوا به صفات الله يكون ممكنًا، وإن كان قول خصومكم باطلًا، فقولكم أيضًا باطل، إذ لا فرق بينهما بوجه من الوجوه.

وقول المؤلف في حكايته لقول هذه الطائفة: فلذاك أي لأجل أن الفعل والمفعول شيء واحد عندهم، ليس وصف الفعل عندهم إلا نسبة عدمية الوجدان، أي تنسب إليه باللفظ وهي مفقودة فيه، وهكذا سائر صفات الأفعال، وهل أعظم من هذا التعطيل وأبطل من قول يلزم منه تعطيل الأفعال عن فاعل لها، وتعطيل الكلام عن المتكلم فيه، فالوصف بالفعل يستدعي قيامه بالموصوف قطعًا.

والذي أوجب لهذه الطائفة النافية لصفات أفعاله أنهم ظنوا أن إثباتها يقتضي الحدوث لها، فإذا كانت حادثة كان من قامت به حادثًا أيضًا، وهذا غير لازم لإثباتها، فإنه لم يزل ولا يزال موصوفًا بالقدرة الكاملة على الأقوال والأفعال، ومشيئته أيضًا نافذة لا مانع لها بوجه من الوجوه، وحدوث أفعاله وأقواله شيئًا فشيئًا لا محذور فيه، بل هو الكمال كما تقدم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: وأما قول القائل لو قامت به الأفعال لكان محلا للحوادث، والحادث إن أوجد له كمالًا فقد عدمه قبله وهو نقص، وإن لم يوجب له كمالًا لم يجز وصفه به.

فيقال أولًا: هذا معارض بنظيره من الحوادث التي يفعلها، فإن كليهما حادث بقدرته

(١) مجموع الفتاوى ٦/ ١٠٥- ١٠٨.

ومشيئته، وإنما يفترقان في المحل، وهذا التقسيم وارد على الجهتين.

وإن قيل في الفرق: المفعول لا يتصف به، بخلاف الفعل القائم به.

قيل في الجواب: بل هم يصفونه بالصفات الفعلية، ويقسمون الصفات إلى فعلية ونفسية، فيصفونه بكونه خالقًا رازقًا بعد أن لم يكن كذلك، وهذا التقسيم وارد عليهم، وقد أورده عليهم الفلاسفة في مسألة حدوث العالم، فزعموا أن صفات الأفعال ليست صفات كمال ولا نقص.

فيقال لهم كما قالوه لهؤلاء في الأفعال التي تقوم به: إنها ليست كمالًا ولا نقصًا.

فإن قيل: لا بد أن يتصف إما بنقص أو كمال، قيل: ولا بد أن يتصف من الصفات الفعلية إما بنقص وإما بكمال، فإن جاز ادعاء خلو أحدهما عن القسمين أمكن الدعوى في الآخر مثله، وإلا فالجواب مشترك.

وأما المتفلسفة فيقال لهم: القديم لا تحله الحوادث، ولا يزال محلًّا للحوادث عندكم، فليس القدم مانعًا من ذلك عندكم، بل عندكم هذا هو الكمال الممكن الذي لا يمكن غيره، وإنما نفوه عن واجب الوجود لظنهم عدم اتصافه به.

وقد تقدم التنبيه على إبطال قولهم في ذلك، لا سيما وما قامت به الحوادث المتعاقبة يمتنع وجوده عن علة تامة أزلية موجبة لمعلولها، فإن العلة التامة الموجبة يمتنع أن يتأخر عنها معلولها أو شيء من معلولها، ومتى تأخر عنها شيء من معلولها كانت علة له بالقوة لا بالفعل، واحتاج مصيرها علة بالفعل أو بسبب آخر، فإن كان المخرج لها من القوة إلى الفعل هو نفسه صار فيه ما هو بالقوة هو المخرج له إلى الفعل، وذلك يستلزم أن يكون قابلًا وفاعلًا، وهم يمنعون ذلك لامتناع الصفات التي يسمونها التركيب.

وإن كان المخرج له غيره كان ذلك ممتنعًا بالضرورة والاتفاق؛ لأن ذلك ينافي وجوب الوجود، ولأنه يتضمن الدور المعيّ والتسلسل في المؤثرات، وإن كان هو الذي صار فاعلًا

للمعين بعد أن لم يكن امتنع أن يكون علة تامة أزلية، فقدم شيء من العالم مستلزم كونه علة تامة في الأزل، وذلك يستلزم ألا يحدث عنه شيء بوسط وبغير وسط، وهذا مخالف للمشهود.

ويقال أيضًا ثانيًا في إبطال قول من جعل حدوث الحوادث ممتنعًا: هذا مبني على تجدد هذه الأمور بتجدد الإضافات والأحوال والأعدام، فإن الناس متفقون في تجدد هذه الأمور، وفرق الآمدي بينهما من جهة اللفظ، فقال: هذه حوادث وهذه متجددات، والفروق اللفظية لا تؤثر في الحقائق العلمية.

فيقال: تجدد هذه التجددات إن أوجب له كمالًا فقد عدمه قبله وهو نقص، وإن أوجب له نقصًا لم يجز وصفه به.

ويقال ثالثًا: الكمال الذي يجب اتصافه به هو الممكن الوجود، وأما الممتنع فليس من الكمال الذي يتصف به موجود. والحوادث المتعلقة بقدرته ومشيئته يمتنع وجودها جميعًا في الأزل، فلا يكون انتفاؤها في الأزل نقصًا؛ لأن انتفاء الممتنع ليس بنقص.

ويقال رابعًا: إذا قدر ذات تفعل شيئًا بعد شيء وهي قادرة على الفعل بنفسها، وذات لا يمكنها أن تفعل بنفسها شيئًا، بل هي كالجماد الذي لا يمكنه بحال أن يتحرك، كانت الأولى أكمل من الثانية، فعدم هذه الأفعال نقص بالضرورة، أما وجودها بحسب الإمكان فهو الكمال.

ويقال خامسًا: لا نسلم أن عدم هذه مطلقًا نقص ولا كمال، ولا أن وجودها مطلقًا نقص ولا كمال، بل وجودها في الوقت الذي اقتضته مشيئته وقدرته وحكمته وجودَها فيه هو الكمال، ووجودها بدون ذلك نقص، وعدمها مع اقتضاء الحكمة عدمَها كمالٌ، ووجودها حيث اقتضت الحكمة وجودها هو الكمال.

وإذا كان الشيء الواحد يكون وجوده تارة كمالًا وتارة نقصًا، وكذلك عدمه، بطل التقسيم

المطلق، وهذا كما أن الشيء يكون رحمة بالخلق إذا احتاجوا إليه كالمطر، ويكون عذابًا إذا ضرهم، فيكون إنزاله عند حاجتهم رحمة وإحسانًا من المحسن الرحيم، المتصف بالكمال، ولا يكون ترك إنزاله حيث يضرهم نقصًا، بل هو أيضًا رحمة وإحسان، فهو محسن بالوجود حيث كان رحمة، وبالعدم حيث كان العدم رحمة. انتهى كلامه رحمه الله.

وقد برهن فيه بالدليل العقلي ما به يتبين الحق المبين، فجزاه الله خيرًا وأحسن إليه الجزاء. والمقصود أنه تبارك وتعالى هو المقدم المؤخر قدرًا وشرعًا تقديمًا وتأخيرًا تابعا لحكمته وحمده تعالى.

فصل

اعلم أن المصنف رحمه الله قد استوفى معظم شرح الأسماء الحسنى المذكورة في الكتاب، وما لم يذكره منها فإنه ذكر نظيره أو ما يدل عليه ويستلزمه، فإنه لم يذكر «المتين» وهو في معنى القوي القدير، ولم يذكر «الأعلى» وهو في معنى العلو، ولم يذكر «الرحمن الرحيم الكريم الرءوف» وهي في معنى البر الجواد الوهاب، ولم يذكر «الرب والله والملك والمالك».

وقد ذكر في **البدائع** أنها متضمنة لكثير من الأسماء الحسنى؛ فقال[1]: «الرب» هو القادر الخالق البارئ المصور الحي القيوم العليم السميع البصير المحسن المنعم الجواد المعطي المانع الضار النافع المقدم المؤخر، الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء ويشقي من يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى.

وأما «الملك» فهو الآمر الناهي المعز المذل، الذي يصرف أمور عباده كما يحب ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى، كالعزيز الجبار المتكبر الحكم العدل الخافض الرافع المعز المذل العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد الوالي المتعالي مالك الملك المقسط الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

وأما «الإله» فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فتدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى. ولهذا كان القول الصحيح أن الله أصله الإله، كما هو قول سيبويه

(١) ٢/٢٤٩.

وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم، وأن اسم الله تبارك وتعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى، فقد شملت هذه الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنى. انتهى.



فصل

هذا ومن أسمائه ما ليس يفـ ـــرد بل يقال إذا أتى بقران
وهي التي تدعى بمزدوجاتها إفرادها خطر على الإنسان
إذ ذاك موهم نوع نقص جل رب العرش عن عيب وعن نقصان
كالمانع المعطي وكالضار الذي هو نافع وكماله الأمران
ونظير هذا القابض المقرون باســ ـــم الباسط اللفظان مقترنان
وكذا المعز مع المذل وخافض مع رافع لفظان مزدوجان
وحديث إفراد اسم منتقم فمو قوف كما قد قال ذو العرفان
ما جاء في القرآن غير مقيد بالمجرمين وجا بـ«ذو» نوعان

قال المصنف في **بدائع الفوائد**[1]: أسماؤه تعالى منها ما يطلق عليه مفردًا ومقترنًا بغيره، وهو غالب الأسماء، كالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم، وهذا يسوغ أن يدعى به مفردًا أو مقترنًا بغيره، فتقول: يا عزيز يا حكيم يا غفور يا رحيم، وأن يفرد كل اسم، وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه به، فيسوغ لك الإفراد والجمع.

ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده، بل مقرونًا بمقابله، كالمانع والضار والمنتقم، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعفو، فهو المعطي المانع، الضار النافع، العفو المنتقم، المعز المذل، لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله، لأنه يراد به

(١) ١/١٦٧.

أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم عطاء ومنعًا ونفعًا وضرًّا وعفوًا وانتقامًا، وأما أن يثني عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ.

فهذه الأسماء المزدوجة يجري الاسمان منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل حروفه عن بعض، فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد، ولذلك لم تجئ مفردة، ولم تطلق عليه إلا مقترنة، فاعلمه، فلو قلت: يا مذل يا ضار يا مانع، أو أخبرت بذلك، لم تكن مثنيًا عليه ولا حامدًا له حتى تذكر مقابله. هذا كلامه رحمه الله، وهو شرح لهذه الأبيات التي ذكرها هنا.

وقوله: ولم تطلق عليه إلا مقترنة، وهنا قال: «وحديث إفراد اسم منتقم فموقوف»، كما قاله أهل المعرفة، فإن الثابت في **الصحيحين**[1]: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**» ولم يذكر عددها، وإنما ذكرت في رواية الترمذي مرفوعة وموقوفة، والموقوف أصح، فإذا كان موقوفًا لم ينقض هذه القاعدة. وأما مجيء المنتقم في القرآن فإنه لم يطلق عليه إطلاقًا، وإنما قيده الله بالانتقام من المجرمين في قوله ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[السجدة: ٢٢].

وجاء في القرآن بلفظ «ذو» نوعان؛ يحتمل أنه في موضعين، ويحتمل أنه نوعان أي نوع مقيد بالمجرمين، ومرة لم يقيد بذلك، كما في قوله ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[المائدة: ٩٥]. وقال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [الأعراف: ١٣٦]. وقال: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

---

(١) البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

فصل

ودلالـة الأسـماء أنـواع ثـلا — ث كـلـهـا مـعـلـومـة بـبـيـان
دلـت مطابقـة كـذاك تضمنًـا — وكـذا التزامًـا واضـح البرهان
أمـا مطابقـة الدلالـة فهـي أن — الإسـم يفهـم منـه مفهومـان
ذات الإله وذلـك الوصف الذي — يشـتق منـه الإسـم بالميـزان
لكـن دلالتـه علـى إحداهمـا — بتضمـن فافهمـه فهـم بيـان
وكـذا دلالتـه على الصفـة التي — مـا اشـتق منهـا فالتـزام دان
وإذا أردت لـذا مثـالًا بينًـا — فمثـال ذلـك لفظـة الرحمـن
ذات الإلـه ورحمـة مدلولهـا — فهمـا لهـذا اللفـظ مدلـولان
إحداهمـا بعض لـذا الموضوع فهـ — ـي تضمـن ذا واضـح التبيان
لكن وصـف الحي لازم ذلك الـ — ـمعنى لـزوم العلـم للرحمـن
فـلـذا دلالـتـه عـلـيـه بـالـتـزا — م بـيّـن والـحـق ذو تـبـيـان

هذه القاعدة التي ذكرها المصنف ليست خاصة بدلالة الأسماء الحسنى على معانيها، بل عامة في جميع الألفاظ بالنسبة لمدلولاتها، وضابط ذلك أن الدلالة نوعان: لفظية وعقلية.

فاللفظية: إما أن تعطي الألفاظ كل ما تناولته من المعاني والأوصاف، فتسمى دلالة مطابقة؛ لأن اللفظ طابق المعنى من غير زيادة ولا نقص. وإما أن تعطي الألفاظ بعض ما تناولته من المعاني، فتسمى دلالة تضمن، لأن المعنى بعض اللفظ وداخل في ضمنه.

وأما الدلالة العقلية: فهي خاصية العقل والفكر، لعدم دلالة اللفظ بمجرده عليها وإنما ينظر العقل في ذلك المعنى الذي دل عليه اللفظ، وما يلزمه من المعاني الخارجية، وما يشترط له من الشروط التي لا يتم بدونها، فهذه قاعدة أصولية تجري في جميع الألفاظ، وتعتبر في كل موضع.

وذكر المصنف هنا منها ما يتعلق بالأسماء الحسنى، فأخبر أن الاسم من أسمائه الكريمة إن دل على الذات الإلهية والوصف الذي اشتق منها فدلالته دلالة مطابقة، وإن دل على أحد الأمرين إما الذات وحدها أو الصفة وحدها فدلالته دلالة تضمن، وإن دل على صفة أخرى لازمة لما دل عليه فدلالة التزام.

ومثال ذلك من الأسماء الحسنى لفظة «الرحمن»، فإن دلالته على ذات الإله وعلى رحمته الواسعة دلالة مطابقة، ودلالته على الذات وحدها أو على الرحمة وحدها دلالة تضمن، ودلالته على الحياة الكاملة وعلمه المحيط دلالة التزام، لأنه لا توجد الرحمة من دون حياة الراحم وعلمه بحال المرحوم وما يوصل إليه من الرحمة. وكذلك ما تقدم من استلزام الملك جميع صفات الملك الكامل الذي لا يتم بدونها، واستلزام الرب جميع صفات الربوبية، واستلزام الإله جميع صفات الإلهية، وكثير من أسمائه الحسنى يستلزم عدة أوصاف، كالكبير والعظيم والمجيد والحميد والصمد.

وحيث ذكر المصنف هذه القاعدة المتعلقة بأسمائه الحسنى، فلنضف إلى ذلك عدة قواعد تتعلق بالأسماء والصفات تتميمًا للفائدة، ذكرها في **بدائع الفوائد**. قال رحمه الله[1]: فائدة جليلة؛ ما يجري صفة أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات، كقولك ذات وموجود وشيء.

الثاني: ما يرجع إلى صفاته ونعوته، كالعليم والقدير والسميع.

---

(١) ١/١٥٩.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله، كالخالق والرازق.

الرابع: ما يرجع إلى التنزيه المحض، ولا بد من تضمنه ثبوتًا، إذ لا كمال في العدم المحض؛ كالقدوس السلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا يختص بصفة معينة، بل دال على معاني لا على معنى مفرد، نحو المجيد العظيم الصمد، فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، ومنه استمجد المرخ والعفار، وأمجد الناقة علفا، ومنه رب العرش المجيد، صفة للعرش لسعته وعظمته وشرفه.

وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنا بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه ﷺ، لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، ولا يحسن؛ إنك أنت السميع البصير، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إلى الله، ومنه الحديث الذي في المسند والترمذي: «**ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام**»[1]. ومنه: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام**»[2]. فهذا سؤال له وتوسل إليه بحمده، وأنه لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعًا عند المسئول. وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصره الله.

فلنرجع إلى المقصود، وهو وصفه تعالى بالاسم المتضمن لصفات عديدة، فالعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال، وكذلك الصمد، قلت: وقد تقدم ذلك في الصمد.

---

(١) المسند (١٧٥٩٦)، الترمذي (٣٥٢٤).

(٢) أحمد (١٢٢٠٥).

ثم قال: **السادس**: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما، نحو الغني الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه وثناء من حمده وثناء من اجتماعهما. وكذلك العفو القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله فإنه من أشرف المعارف.

وأما صفات السلب المحض فلا تدخل في أوصافه تعالى إلا أن تكون متضمنة لثبوت؛ كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهية، والسلام المتضمن لبراءته من كل نقص يناقض كماله. وكذلك الإخبار عنه بالسلوب هو لتضمنها ثبوتًا، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. متضمن لكمال قدرته. وكذلك ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١]. متضمن لكمال علمه. وكذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]. متضمن لكمال صمديته وغناه، وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]. متضمن لتفرده بكماله وأنه لا نظير له. وكذلك قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. متضمن لعظمته، وأنه جل عن أن يدرك بحيث يحاط به، وهذا مطرد في كل ما وصف به نفسه من السلوب.

ويجب أن يعلم هنا أمور:

أحدها: أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، كالشيء والموجود والقائم بنفسه، فإن هذا يخبر به عنه، ولا يدخل في باب أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

الثاني: أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه، بل يطلق عليه منها كمالها، وهذا كالمريد والصانع والفاعل، فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه، ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الإطلاق، بل هو الفعال لما يريد، فإن الإرادة

والفعل والصنع منقسمة؛ ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلًا وخبرًا.

الثالث: أنه لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدًا أن يشتق له منه اسم مطلق، كما غلط فيه بعض المتأخرين، فجعل من أسمائه الحسنى: المضل الفاتن الماكر، تعالى الله عن قوله، فإن هذه الأسماء لم يطلق عليه سبحانه منها إلا أفعال مخصوصة معينة، فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة.

الرابع: أن أسماءه الحسنى هي أعلام وأوصاف، والوصف فيها لا ينافي العلمية، بخلاف أوصاف العباد فإنها تنافي علميتهم، لأن أوصافهم مشتركة، وفائدتها العلمية محضة بخلاف أوصافه تعالى.

الخامس: أن الاسم من أسمائه له دلالات، دلالة على الذات والصفة بالمطابقة، ودلالة على أحدهما بالتضمن، ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم.

السادس: أن أسماءه الحسنى لها اعتباران، اعتبار من حيث الذات، واعتبار من حيث الصفات، فهي بالاعتبار الأول مترادفة، وبالاعتبار الثاني متباينة.

السابع: ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه في الأخبار لا يجب أن يكون توقيفيًّا؛ كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه. فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه هل هي توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها ما لم يرد به السمع.

الثامن: أن الاسم إذا أطلق عليه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل، فيخبر به عنه فعلًا ومصدرًا، نحو السميع البصير القدير، يطلق عليه منه اسم السمع والبصر والقدرة، ويخبر عنه بالأفعال من ذلك، نحو ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ [المجادلة: ١]. ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣]. هذا إن كان الفعل متعديًا، فإن كان لازمًا لم يخبر عنه به، نحو الحي، بل يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل فلا يقال: حَيِيَ.

التاسع: أن أفعال الرب تعالى صادرة عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرة

عن أفعالهم. فالرب تعالى فعاله عن كماله، والمخلوق كماله عن فعاله، فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل. والرب تعالى لم يزل كاملًا فحصلت أفعاله عن كماله؛ لأنه كامل بذاته وصفاته، فأفعاله صادرة عن كماله، كمل ففعل، والمخلوق فعل فكمل الكمال اللائق به.

العاشر: إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم، فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقًا له تعالى أو أمرًا، إما علم بما كونه أو علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضي بمقتضيه، فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنى، ولهذا كله حسن، لا يخرج عن مصالح العباد والرأفة والرحمة بهم والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه، فأمره كله مصلحة وحكمة ورحمة ولطف وإحسان، إذ مصدره أسماؤه الحسنى، وفعله كله لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة، إذ مصدره أسماؤه الحسنى، فلا تفاوت في خلقه ولا عبث، ولم يخلق خلقه باطلًا ولا عبثًا ولا سدى، وكما أن كل موجود سواه بإيجاده، فوجود من سواه تابع لوجوده، فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم، إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضياتها ومرتبطة بها. فتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى، ولهذا لا تجد فيها خللًا ولا تفاوتًا؛ لأن الخلل الواقع فيما يأمر به العبد أو يفعله إما أن يكون لجهله به أو لعدم حكمته. وأما الرب تعالى فهو العليم الحكيم، فلا يلحق فعله ولا أمره خلل ولا تفاوت ولا تناقض.

الحادي عشر: أن أسماءه كلها حسنى، ليس فيها اسم غير ذلك أصلًا. وقد تقدم أن من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل، نحو الخالق الرازق والمحيي والمميت، وهذا يدل على أن أفعاله كلها خيرات محضة لا شر فيها؛ لأنه لو فعل الشر لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، وهذا باطل، فالشر ليس إليه، فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحق في ذاته فلا يدخل في أفعاله، فالشر ليس إليه، لا يضاف إليه فعلًا ولا وصفًا، وإنما يدخل في

مفعولاته. وفرق بين الفعل والمفعول، فالشر قائم بمفعوله المباين له، لا بفعله الذي هو فعله. فتأمل هذا، فإنه خفي على كثير من المتكلمين، وزلت فيه أقدام، وضلت فيه أفهام، وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الثاني عشر: في بيان مراتب إحصاء أسماء الله تبارك وتعالى التي من أحصاها دخل الجنة، هو قطب السعادة ومدار النجاة والفلاح.

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومداركها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف: ١٨٠]. وهو مرتبتان:

إحداهما: دعاء ثناء وعبادة.

والثانية: دعاء طلب ومسألة، ولا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، ولذلك لا يسأل إلا بها، فلا يقال: يا موجود أو يا شيء أو يا ذات، اغفر لي وارحمني، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيًا لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلًا إليه بذلك الاسم، ومن تأمل أدعية الرسل ولا سيما خاتمهم وإمامهم صلوات الله وسلامه عليهم وجدها مطابقة لهذا. إلى أن قال:

الثالث عشر: اختلف النظار في الأسماء التي تطلق على الله وعلى العباد، كالحي والسميع والبصير والعليم والعزيز والملك ونحوها:

فقالت طائفة من المتكلمين: هي حقيقة في العبد مجاز في الرب، وهذا قول غلاة الجهمية، وهو أخبث الأقوال.

الثاني: مقابله وهو أنها حقيقة في الرب مجاز في العبد، وهذا قول أبي العباس الناشئ.

الثالث: أنها حقيقة فيهما، وهذا قول الأكثرين، وهو الصواب، واختلاف الحقيقتين فيهما لا يخرجها عن كونها حقيقة فيهما، وللرب تعالى منها ما يليق بجلاله، وللعبد منها ما يليق به.

وليس هذا موضع التعرض لمأخذ هذه الأقوال وإبطال باطلها وتصحيح صحيحها، فإن الغرض الإشارة إلى أمور ينبغي معرفتها في هذا الباب، ولو كان المقصود بسطها لاستدعت سفرين أو أكثر.

الرابع عشر: أن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاثة اعتبارات:

اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب أو بالعبد.

الاعتبار الثاني: اعتباره مضافًا إلى الرب مختصًّا به.

الثالث: اعتباره مضافًا إلى العبد مقيدًا به، فما لزم الاسم لذاته وحقيقته كان ثابتًا للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله وللعبد ما يليق به، وهذا كاسم «السميع» الذي يلزمه إدراك المسموعات، و «البصير» الذي يلزمه رؤية المبصرات، و «العليم» و «القدير» وسائر الأسماء، فإن شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها كما لزم هذه الأسماء لذاتها، فإثباته للرب تعالى لا محذور فيه بوجه، بل يثبت له على وجه لا يماثل فيه خلقه، ولا يشابههم، فمن نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق ألحد في أسمائه، وجحد صفات كماله، ومن أثبته على وجه يماثل فيه خلقه فقد شبهه بخلقه، ومن شبه الله بخلقه فقد كفر. ومن أثبته له على وجه لا يماثل فيه خلقه، بل كما يليق بجلاله وعظمته، فقد برئ من فرث التشبيه ودم التعطيل، وهذا طريق أهل السنة.

وما لزم الصفة لإضافتها إلى العبد وجب نفيه عن الله، كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك. وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به، وكذلك ما يلزم من علوه من احتياجه إلى ما هو عال عليه وكونه محمولًا

به مفتقرًا إليه محاطًا به، كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالى.

وما لزم الصفة من جهة اختصاصه تعالى بها فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه، كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق، فإذا أحطت بهذه القاعدة خبرًا، وعقلتها كما ينبغي، خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين، آفة التعطيل وآفة التشبيه، فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور أثبت لله الأسماء الحسنى والصفات العلى حقيقة، فخلصت من التعطيل، ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم، فخلصت من التشبيه، فتدبر هذا الموضع واجعله جنتك التي ترجع إليها في هذا الباب، والله الموفق للصواب.

الخامس عشر: أن الصفة متى قامت بموصوف لزمها أربعة أمور: أمران لفظيان، وأمران معنويان، فاللفظيان ثبوتي وسلبي، فالثبوتي أن يشتق للموصوف منها اسم. والسلبي أن يمتنع الاشتقاق لغيره. والمعنويان ثبوتي وسلبي. فالثبوتي أن يعود حكمها إلى الموصوف ويخبر بها عنه. والسلبي ألا يعود حكمها إلى غيره ولا يكون خبرًا عنه.

وهذه قاعدة عظيمة في معرفة الأسماء والصفات. فلنذكر من ذلك مثالًا واحدًا وهي صفة الكلام، فإنها إذا قامت بمحل كان هو المتكلم دون من لم يقم به، وأخبر عنه بها، وعاد حكمها إليه دون غيره، فيقال: قال وأمر ونهى ونادى وناجى وأخبر وخاطب وتكلم وكلم ونحو ذلك، وامتنعت هذه الأحكام لغيره، فيستدل بهذه الأحكام والأسماء على قيام الصفة به وسلبها عن غيره على عدم قيامها به، وهذا هو أصل أهل السنة الذي ردوا به على المعتزلة والجهمية، وهو من أصح الأصول طردًا وعكسًا.

السادس عشر: أن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحد بحد. إلى آخر ما ذكره مما تقدم مضمونه، ومما سيأتي تتمته في الفصل بعده.



فصل

في بيان حقيقة الإلحاد في أسماء رب العالمين، وذكر انقسام الملحدين

والمقصود من هذا الفصل حفظ أسماء الله وأوصافه عن أن تحرف أو تغير، أو ينقص منها شيء، أو يبخس من كمال شيء من أوصافه، أو تعطل أو تمثل، ولهذا ذكر الأصل الجامع في هذا بقوله:

أسماؤه أوصاف مدح كلها مشتقة قد حملت لمعاني

يعني أن أسماءه كلها أوصاف مدح وحمد وثناء، وهي مشتقة من معانيها ثابتة له حقائقها، ولذلك كانت حسنى، فلو كانت أعلامًا محضة لم تكن حسنى، ولو كانت دالة على نقص أو بعضها دالا على ذلك لما كانت كلها حسنى، ولهذا إذا كان الوصف محتملًا للمدح ولغيره لم يدخل بمطلقه في أوصاف الله وأسمائه، كالمريد والصانع والفاعل ونحو ذلك.

قال المصنف في **البدائع**[1]:

الثامن عشر: أن الصفات ثلاثة أنواع: صفات كمال، وصفات نقص، وصفات لا تقتضي كمالًا ولا نقصًا. وإن كانت التسمية التقديرية تقتضي قسمًا رابعًا، وهو ما يكون كمالًا ونقصًا باعتبارين، والرب تعالى منزه عن الأقسام الثلاثة، وموصوف بالقسم الأول، فصفاته كلها صفات كمال محض، فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله، وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها،

(١) ١/ ١٦٧.

ولا يقوم غيرها مقامها، ولا يؤدي معناها، وتفسير الاسم منها بغيرها ليس تفسيرًا بمرادف محض، وهو على سبيل التقريب والتفهيم. وإذا عرفت هذا فله تعالى من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى، وأبعده وأنزهه عن شائبة عيب أو نقص. انتهى.

إيـــاك والإلـــحـــاد فـيـهـا إنـه ... كفـر معـاذ اللـه مـن كفـران

وحقيقـة الإلحاد فيهـا الميل بالـ ... إشـــراك والتعطيـــل والنكران

فالملحـدون إذًا ثـلاث طوائف ... فعليهـمُ غضـب مـن الرحمـن

بيَّن أن أسماءه تعالى كلها أوصاف مدح، حذر مما ينافي ذلك وهو الإلحاد، وأخبر أنه كفر كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وإنما كان الإلحاد فيها كفرًا لأنه رد لما أخبر الله به ورسوله من صفات الله المقدسة ونعوته الكاملة، بالميل فيها بالإشراك فيها، وجعلها له ولغيره، كما يفعله المشركون، أو نفي معانيها وحقائقها كما يفعله المعطلة، أو إنكارها كاملة كما يفعله الزنادقة.

ولهذا أخبر المصنف أن الملحدين منقسمون إلى ثلاثة أقسام، وهم حل عليهم غضب الله وعذابه.

قال في بدائع الفوائد[1]:

العشرون: وهو الجامع لما تقدم من الوجوه، وهو معرفة الإلحاد في أسمائه حتى لا يقع فيها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. والإلحاد فيها هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل، كما يدل عليه مادة (ل ح د)، فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط، ومنه الملحد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل.

(١) ١/١٦٩.

قال ابن السكيت: الملحد المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه، ومنه الملتحد وهو مفتعل من ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧]. أي من تعدل إليه وتهرب إليه وتلتجئ إليه وتبتهل إليه فتميل إليه عن غيره، تقول العرب: التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه.

إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه تبارك وتعالى أنواع: أن يسمى الأصنام بها لتسميتهم اللات من الإلهية، والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلها، وهذا الإلحاد حقيقة، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة، ولهذا قال هنا:

المشركون لأنهم سموا بها ... أوثانهم قالوا إله ثاني
هم شبهوا المخلوق بالخلاق عكـ ... ـس مشبه الخلاق بالإنسان

أي يدخل في الإلحاد في أسماء الله من جهة التشريك في التسمية المشركون الذين شبهوا المخلوقات الناقصات من جميع الوجوه بالخالق الرب العظيم الكامل من كل وجه، فسموها آلهة ونحلوا لها من أسماء الله ما نحلوا، كما تقدم. ويدخل فيه أيضًا المشبهة من غلاة الرافضة واليهود الذين شبهوا الخالق تعالى بالمخلوق، فحملوا ما جاءت به نصوص الأنبياء من أوصاف كماله على ما يعقلونه من صفات المخلوقين، وأعطوا صفاته خصائص صفات المخلوقين، وهذا من أعظم الإلحاد في أسمائه وآياته.

وكذاك أهل الإتحاد فإنهم ... إخوانهم من أقرب الإخوان
أعطوا الوجود جميعه أسماءه ... إذ كان عين الله ذا السلطان
والمشركون أقل شركًا منهمُ ... هم خصصوا ذا الإسم بالأوثان
ولذاك كانوا أهل شرك عندهم ... لو عمموا ما كان من كفران

أي وكذلك يدخل في هؤلاء الملحدين الذين شركوا بين المخلوقين والخالق ببعض الصفات أهل الاتحاد، الذين عم شرهم وطغى كفرهم وتلطفوا غاية التلطف

إلى إضلال الناس بكفرياتهم الشنيعة، التي لو أظهروها على صورتها وحقيقتها لرأى الناس منها إنكار رب العالمين جملة، وإنكار الرسل والكتب جملة، وإنكار المعاد والبعث بعد الموت، ولذلك اتفق العارفون بأقوالهم أنهم أكفر من اليهود والنصارى والمشركين.

ومن أكبر العجب اغترار كثير ممن ينتسب إلى الإسلام بهذا المذهب الخبيث، وتعظيمهم لأهل هذا المذهب حتى أدخلوه في كتبهم، واعتبروه في مباحثهم، ونسبوه للتحقيق، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وحقيقة مذهبهم أن جميع العالم العلوي والسفلي شيء واحد متحد بعضه ببعض، وإن تباينت أجزاؤه وتفرقت أحواله، فما ثم خالق ولا مخلوق، ولا رب ولا مربوب، ولا واجب الوجود وممكن الوجود، بل الخالق نفس المخلوق، والرب نفس المربوب، والعبد نفس المعبود، وجعلوا لله كل صفة ممدوحة ومذمومة، إذ كان هو الممدوح المذموم، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، فإنهم أعظم الملحدين في أسماء الله وصفاته.

والمشــركون أقــل شــركًا منهمُ ....

لأنهم خصصوا معبوداتهم من الأصنام والأوثان بأسماء الله، وهؤلاء الملاحدة أعطوا جميع الموجودات أسماء الله وأوصافه، إذ كان أصل مذهبهم أن الله هو عين هذه الموجودات، قالوا: وإنما كفرنا المشركين لأنهم خصصوا الإلهية ببعض المخلوقات، ولو عمموا فجعلوا كل موجود إلهًا ما أشركوا ولا كفروا.

فتبًّا لهم ما أضلهم وأعماهم، حيث أنكروا وجود واجب الوجود الرب العظيم الملك الكبير، واشتبه عليهم بوجود هذه المخلوقات الممكنات التي ليس لها من أنفسها إلا العدم؛ عدم الوجود وعدم الكمال، وهذا القول يكفي في رده مجرد تصوره، فإن فساده معلوم بضرورة العقل والشرع. والمقصود أن هؤلاء الملاحدة من الذين ألحدوا في أسماء الله، وجعلوها لسائر المخلوقات، كما خصها المشركون ببعض المخلوقات.

والملحد الثاني فذو التعطيل إذ ... ينفي حقائقها بلا برهان

ما ثم غير الإسم أوّله بما ... ينفي الحقيقة نفي ذي بطلان

هذا القسم الثاني من الملحدين في أسماء الله، وهم المعطلة لأسماء الله النافون لحقائقها ومعانيها بلا برهان، ولا حجة إلا أهوية وآراء فاسدة لا تسمن ولا تغني من جوع، فلا يثبتون لله إلا أسماء مجردة عن المعاني، فيقولون: عليم بلا علم، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، قدير بلا قدرة، وإن أثبتوا لها معنى أولوها بالمعاني المجازية التي يعلم بالضرورة أن الله ورسوله لم يريداها، بل أرادا غيرها، ويدخل في هؤلاء الجهمية والمعتزلة والأشعرية والماتريدية في الصفات الفعلية الخبرية، فإن مسلكهم فيها كمسلك الجهمية في الصفات الذاتية.

قال في **البدائع**[1]: ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها؛ كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ محدودة لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلًا ولغة وشرعًا وفطرة، وهو مقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله، وجحدوها وعطلوها، فكلاهما ملحد في أسمائه.

ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فيهم العالي والمتوسط والمنكوب، وكل من جحد شيئًا مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك، فليستقلّ أو ليستكثر. انتهى. وقوله:

فالقصد دفع النص عن معنى الحقيـ ... ـقة فاجتهد فيه بلفظ بيان

عطل وحرف ثم أول وانفها ... واقذف بتجسيم وبالكفران

للمثبتين حقائق الأسماء والـ ... أوصاف بالأخبار والقرآن

---

(1) ١/١٦٩.

فإذا همُ احتجوا عليك فقل لهم هذا مجاز وهو وضع ثاني
فإذا غلبت عن المجاز فقل لهم لا يستفاد حقيقة الإيقان
أنى وتلك أدلة لفظية عزلت عن الإيقان منذ زمان

يعني: أن القصد من هذا المعطل الملحد دفع نص الكتاب والسنة الوارد في صفات الله ونعوته، فهو مجتهد بدفعه غاية ما يمكنه بكل ما يقدر عليه، فيتوسلون إلى هذا المقصد الباطل بتعطيل المعاني الصحيحة وتحريفها؛ أي: تعويجها إلى معان باطلة، فينفي المعنى الحق ويثبت المعنى الباطل، ثم ما يكفيهم هذا حتى يقذفوا أهل الحق المثبتين حقائق أسماء الله وصفاته على ما جاءت به النصوص بالتجسيم والتكفير، لينفروا من قولهم ويقبحوه بما وضعوا لهم من الأسماء الباطلة، ويسمون أنفسهم أهل الحق ومقالتهم هي التنزيه قلبًا للحقائق، كما قال الله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

فإذا هم ناظروا أهل السنة والجماعة عرفوا أن نصوص الكتاب والسنة مع أهل السنة، فيوصي بعضهم بعضًا، فيقولون: إذا احتجوا عليكم فقولوا لهم: هذا مجاز، والمجاز هو ما وضع ثانيًا، وليس المراد به ما يفهم منه، فإذا تمكنوا من هذا صالوا به وجالوا، فإذا غلبوا عن المجاز وأتاهم من الحقائق ما لا قبل لهم به، ولا يمكن دعوى المجاز به كما هو جلي في نصوص الأسماء والصفات، لجئوا إلى قاعدة لهم خبيثة باطلة، وهي أن النصوص أدلة لفظية لا تفيد الحق واليقين، وإنما تفيد غلبة الظن، وبزعمهم أن الذي يفيد اليقين هو آراؤهم الفاسدة وعقولهم الضالة، فإذا أتت النصوص مخالفة لما استقر في نفوسهم رأوا من اللازم صرفها عن المراد بها موافقة لما يعتقدونه.

وقد غلطوا في هذا أكبر الغلط وأفحشه، فإن نصوص الكتاب والسنة في أعلى رتب الحق واليقين، وهي أرفع أنواع الصدق، فإنها كلام الله الذي لا أصدق منه قيلًا ولا أحسن منه حديثًا، وكلام الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى. ومع ذلك فقد أيد الله ورسوله ما أخبرا به من الحق بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة، التي

لا تبقي في قلب مريد الحق والهدى أدنى ريب.

وغاية ما يوجد عند المتكلمين من المعقولات والبراهين جزء يسير مما اشتمل عليه كتاب الله وسنة رسوله، بل لا يمكن أن يوجد في الكتاب والسنة مسألة واحدة مخالفة لما يعلمه العقلاء أهل البصائر النافذة، بل أدلة المعقول موافقة لأدلة المنقول، فكيف يقول القائل: إنها أدلة لفظية لا تفيد اليقين. سبحانك هذا بهتان عظيم، يلزم منه بطلان أخباره وأوامره ونواهيه والكفر برب العالمين رأسا، فإنه لا يشاء متأول أن يتأول إذا فتحت لهم هذه القاعدة الشنعاء، والمقالة التي لم يسبق المتكلمين بها أحد من رسل الله ولا من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

ثم إن للمتكلمين أصلًا آخر إليه يفزعون عند تزاحم النصوص عليهم، وبه يتحصنون عن أدلة الكتاب والسنة، ذكره بقوله.

فإذا تضافرت الأدلة كثرة	وغلبْت عن تقرير ذا ببيان
فعليك حينئذ بقانون وضعـ	ـناه لدفع أدلة القرآن
ولكل نص ليس يقبل أن يؤ	ول بالمجاز ولا بمعنى ثاني
قل عارض المنقول معقول وما الـ	أمران عند العقل يتفقان
ما ثم إلا واحد من أربع	متقابلات كلها بوزان
إعمال ذين وعكسه أو تلغيَ الـ	ـمعقول ما هذا بذي إمكان
العقل أصل النقل وهو أبوه إن	تبطله يبطل أصله التحتاني
فتعين الإعمال للمعقول والـ	إلغاء للمنقول بالبرهان
إعماله يفضي إلى إلغائه	فاهجره هجر الترك والنسيان

يعني أن المتكلمين يصولون بهذا القانون الباطل على دفع أدلة الكتاب والسنة، وحاصل تقريره أنهم يقولون: إذا تعارض العقل والنقل فلا بد من واحد من أربعة أمور: إما أن يعملا

كلاهما، أو يلغيا، أو يعمل النقل ويلغى العقل، أو يعمل العقل ويلغى النقل.

وعندهم أن الأقسام الثلاثة الأول غير ممكنة، وأنه يتعين القسم الرابع، وهو إعمال المعقول وإلغاء المنقول، وذلك أن إعمالها مع التعارض غير ممكن، فإنهما لو أعملا والحالة هذه لم يكن تعارض، وإلغاؤهما أيضًا غير ممكن، لأنه يلزم منه إبطال العقل والنقل، وإعمال النقل مع إلغاء العقل غير ممكن على زعمهم، لأن إعمال النقل يقتضي إلغاءه، فإن النقل لم يعرف إلا بالعقل، فهو الطريق لثبوته على زعمهم، فإذا قدحنا في الأصل الذي هو العقل لزم القدح فيما يتفرع عنه وهو النقل، فتعين حينئذ إعمال العقل وإلغاء النقل بهذا القانون الفاسد، ووجب أن توزن به نصوص الكتاب والسنة.

وهذا التقسيم الذي حصروه بهذه الأقسام والحكم الذي حكموا به باطلان عقلًا وشرعًا، وقد تصدى لإبطاله الإمام الكبير شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في كتابه **العقل والنقل**[1]، فقال لما ذكر تقسيمهم هذا: والمقصود هنا الكلام على قول القائل إذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية إلى آخره. والكلام على هذه الجملة بني على بيان ما في مقدمتها من التلبيس، فإنها مبنية على مقدمات: **أولها:** ثبوت تعارضهما، **والثانية:** انحصار التقسيم فيما ذكره من الأقسام الأربعة، **والثالثة:** بطلان الأقسام الثلاثة. والمقدمات الثلاثة باطلة.

وبيان ذلك بتقديم أصل، وهو أن يقال: إذا قيل: تعارض دليلان سواء كانا سمعيين أو عقليين أو أحدهما سمعيًّا والآخر عقليًّا، فالواجب أن يقال: لا يخلو إما أن يكونا قطعيين أو يكونا ظنيين، وإما أن يكون أحدهما قطعيًّا والآخر ظنيًّا، فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما سواء كانا عقليين أو سمعيين أو أحدهما عقليًّا والآخر سمعيًّا، وهذا متفق عليه بين العقلاء؛ لأن الدليل القطعي هو الذي يجب ثبوت مدلوله ولا يمكن أن تكون دلالته باطلة، وحينئذ فلو تعارض دليلان قطعيان وأحدهما يناقض مدلول الآخر للزم الجمع بين النقيضين وهو محال، بل كل ما يعتقد تعارضه من الدلائل التي يعتقد أنها قطعية؛ فلا بد أن

(١) ١/ ٧٨.

يكون الدليلان أو أحدهما غير قطعي، أو ألا يكون مدلولاهما متناقضين، فأما مع تناقض المدلولين المعلومين فيمتنع تعارض الدليلين.

وإن كان أحد الدليلين المتعارضين قطعيًّا دون الآخر فإنه يجب تقديمه باتفاق العقلاء؛ سواء كان هو السمعي أو العقلي فإن الظن لا يدفع اليقين. وأما إن كانا جميعًا ظنيين فإنه يصار إلى طلب ترجيح أحدهما، فأيهما ترجح كان هو المقدم سواء كان سمعيًّا أو عقليًّا.

ثم أطال الكلام بما يشفي ويكفي، رحمه الله تعالى.

ولما كان كلام المؤلف عن المتكلمين بذكر هذا القانون يوهم نوع مبالغة دفع هذا الوهم بقوله:

والله لم نكذب عليهم إننا وهمُ لدى الرحمن مجتمعان
وهناك يجزى الملحدون ومن نفى الـ إلحاد يجزى ثمّ بالغفران

ولعله أخذه من قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠]. فالملحدون يجزون بالعقاب الوبيل، والمثبتون لله الأسماء والصفات النافون لإلحاد الملحدين يجزون هناك بالعفو والغفران والخلود في الجنة ونيل أعلى الكرامات.

فاصبر قليلًا إنما هي ساعة يا مثبت الأوصاف للرحمن
فلسوف تجني أجر صبرك حين يجـ ـني الغير وزر الإثم والعدوان
فالله سائلنا وسائلهم عن الـ إثبات والتعطيل بعد زمان
فأعدّ حينئذ جوابًا كافيًا عند السؤال يكون ذا تبيان

يرغّب رحمه الله المثبت لصفات الله على صبره على ذلك، ولو كثر المخالفون ورأى منهم المعارضة والمعاكسة، فإن الصبر عاقبته حميدة، خصوصًا في المحن التي ستنقطع، وربما أعقبها في الدنيا السعادة والفلاح والعز والصلاح، فإن الدنيا كلها قليل، وعمر الإنسان

منها أقل القليل، وأوقات الابتلاء والامتحان نزر يسير بالنسبة إلى عمره ووقته.

فالله سائل العباد عما كانوا عليه في الدنيا، فمن كان جوابه أن يقول: قد قلت يا ربي ما قلته في كتابك وقاله رسولك محمد ﷺ، فهذا الجواب المنجي، ومن كان جوابه تقديم العقول الكاسدة والآراء الفاسدة على ما قاله الله وقاله رسوله لم يكن ذلك منجيًا له من العقاب، ولا موصلًا له إلى الثواب، فإن الله لا يسأل العباد إلا عما جاءت به المرسلون إقرارًا وعلمًا وعملًا.

هذا وثالثهم فنافيها ونا ... في ما تدل عليه بالبهتان

ذا جاحد الرحمن حقًّا لم يقرّ ... بخالق أبدًا ولا رحمن

يعني أن الملحد الثالث هو النافي لأسماء الله ونافي ما تدل عليه من صفات الكمال بالبهتان والقول الباطل، وهذا أعظم أنواع الإلحاد، فإنه متضمن لجحد الخالق وجحد ربوبيته وأوصافه المقدسة، وذلك كفرعون ونحوه، وكالفلاسفة الذين يشتمل قولهم على جحد رب العالمين.

هذا هو الإلحاد فاحذره لعل ... الله أن ينجيك من نيران

وتفوز بالزلفى لديه وجنة الـ ... مأوى مع الغفران والرضوان

هذا أي جميع ما تقدم من الأقسام هو الإلحاد بينه المصنف لأجل أن يحذر منه، فإنه موجب لدخول النار، والحذر منه موجب للنجاة منها، وللفوز بالزلفى عند الله في جنات النعيم، ونيل المغفرة والرضا من الرب الكريم، فإن العبد إذا نجا من الإلحاد في أسماء الله وآياته كان متبعًا لكتب الله ولما جاءت به الرسل، وهذا الطريق الموصل إلى السعادة الأبدية، وإذا فاته هذا الطريق فما ثم إلا طرق الجحيم.

ولما كان أكثر الناس قد سلكوا طرق المهالك، واقتطعتهم الشياطين عن سعادتهم إلا النادر منهم، وكانت النفس مجبولة على وحشة التفرد وعدم الرفيق، حث المصنف رحمه

الله على لزوم الاستقامة وإن قل الموافق وكثر المخالف، فقال:

لا توحشنك غربة بين الورى ... فالناس كالأموات في الجبان

أوما علمت بأن أهل السنة الـ ... ـغرباء حقًّا عند كل زمان

قل لي متى سلم الرسول وصحبه ... والتابعون لهم على الإحسان

من جاهل ومعاند ومنافق ... ومحارب بالبغي والطغيان

وتظن أنك وارث لهمُ وما ... ذقت الأذى في طاعة الرحمن

كلا ولا جاهدت حق جهاده ... في الله لا بيد ولا بلسان

منّتك والله المحال النفس فاسـ ... ـتحدثْ سوى ذا الرأي والحسبان

لو كنت وارثه لآذاك الألى ... ورثوا عداه بسائر الألوان

وكل هذا من حكمة الله تعالى، حيث جعل لأهل الحق من يعارضهم ويقاومهم، ويحرص على أذيتهم ورد ما معهم بأي طريق، ليقوم بذلك سبيل الجهاد، وليتبين الحق من الباطل، فإن الحق إذا عارضه الباطل وأهله؛ ظهر من أدلته وبراهينه ما يبهر العقول، ووضح واستعلن وتبين من بطلان الباطل وفساده ما به العبرة لمن اعتبر، وليحصل بذلك التمييز بين الصادق من الكاذب، فإن المؤمن الصادق المتبع للحق على الحقيقة لا تزيده المعارضات إلا ثباتًا على ما هو عليه، ويزداد إيمانه ويكمل إيقانه، بخلاف من لم يباشر الإيمان قلبه، ولم يصل اليقين في حقه إلى مرتبة الجزم الذي لا شك فيه، فهذا لا يكاد يثبت عند المحن والقلاقل، فإنه ممن يعبد الله على حرف، فمع العافية المستمرة ربما لزم ما هو عليه، ومن لطف الله في حق هذا ألا يقيض له من المحن ما يزيل إيمانه بل يعافيه، وإلا فسنة الله الجارية التي لا تغير ولا تبدل أنه لا بد من الابتلاء، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣].

فلو سلم أحد من المعارضين من المعاندين والمنافقين والمحاربين، لسلم الرسول وأصحابه والتابعون لهم بإحسان، فمن ظن أنه متبع لهم على الحقيقة، وأنه سيسلم من الأذى في سبيل الله فهو غالط، فإنه لا بد أن يكون للرسول وأصحابه وراث، ولأعدائهم وراث، ويقوم سوق الجهاد، فإن الدنيا دار مجاهدة وعبادة، لا محل طمأنينة واستقرار، فإن الراحة التامة في جنات النعيم، ومن المعلوم أن الراحة لا تدرك بالراحة، بل لا بد من التعب والعناء، ولكن قد يهونه الله على عباده المؤمنين فيجدون من لذة المجاهدة في طاعة ربهم أعظم مما يجده أهل الشهوات الحسية، وهذا هو الواقع، ولكن مرارة الابتداء تمنع أكثر الناس عن هذا الأمر العظيم. ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.



فصل

في النوع الثاني من نوعي توحيد الأنبياء والمرسلين المخالف لتوحيد المعطلين والمشركين

وهذا النوع هو زبدة رسالة الله لرسله، فإنه كل نبي يبعثه الله تعالى يدعو قومه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، فكل نبي يقول لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، وأمرهم به على ألسنة رسله، وشرع الجهاد لإقامته، وجعل الثواب في الدنيا والآخرة لمن قام به، والعقاب في الدنيا والآخرة لمن تركه، وبه الفرق بين أهل السعادة وأهل الشقاء، وعلى العبد أن يبذل جهده في معرفته وتحقيقه من كل وجه، فيعرف حده وتفسيره، ويعرف حكمه ومرتبته، ويعرف آثاره ومقتضياته، ويعرف شواهده وأدلته وبراهينه وحججه التي تؤيده وتنميه وتقويه، ويعرف شروطه ومكملاته، ويعرف نواقضه ومفسداته، لأنه الأصل الأصيل الذي لا تصح الأصول إلا به، فكيف بالفروع، فأما حدُّه وتفسيره وأركانه ومكملاته فقد ذكرها المصنف في ضمن قوله:

هذا وثاني نوعَيِ التوحيد تو ... حيد العبادة منك للرحمن

ألا تكون لغيره عبدًا ولا ... تعبد بغير شريعة الإيمان

فتقوم بالإسلام والإيمان والـ ... إحسان في سر وفي إعلان

والصدق والإخلاص ركنا ذلك الـ ... ـتوحيد كالركنين للبنيان

فحده أن يعلم العبد أن الله هو المألوه المعبود على الحقيقة، فيفرده بأنواع العبادة كلها الظاهرة والباطنة، يعني أنه يقوم بالإسلام كالصلاة والزكاة والصيام والحج ونحوها من الأعمال الظاهرة، وبالإيمان كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والتزام القيام بما أوجب الله وترك ما حرم الله، وبالإحسان كالقيام بحقائق العلم والإيمان والأعمال الصالحة، وهي روحها ولبها المقصود منها، فيقوم بذلك كله خالصًا لوجه الله تعالى متابعًا فيه سنة رسوله محمد ﷺ.

وهذان الركنان: الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول ركنان، وإن شئت قلت: شرطان لكل عبادة ظاهرة وباطنة، فكل عبادة خلت منهما أو من أحدهما فهي باطلة غير معتد بها، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾[الزمر: ٣]. وقال تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الملك:٢]. قال الفضيل بن عياض رحمه الله: أخلصه وأصوبه، قالوا: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، وقال ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم[١]: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**». وفي رواية لمسلم: «**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٢].

وحقيقة هذا التوحيد أنه يسمى توحيد الإلهية، بالنسبة إلى وصف الله المقتضي لأن يكون هو المحبوب المألوه المعظم المعبود وحده، ويسمى توحيد العبادة بالنسبة إلى وصف العبد، الذي هو إخلاص جميع أنواع العبادة التي شرعها الله ورسوله لله تعالى، فالإلهية وصف الله تعالى، والعبودية وصف العبد، ولهذا جمع الله بين الأمرين في قوله لموسى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ [طه:١٤]. وفي قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ [مريم:٣٦]. وقول الرسل لأممهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٦٥].

---

(١) البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨/١٧). (٢) مسلم (١٧١٨/ ١٨).

وإذا علمنا أن هذا حده وتفسيره، فمن المعلوم أن الداخلين في هذا الاسم متفاوتون تفاوتًا عظيمًا، وأنه بحسب قيام العبد بالإسلام والإيمان والإحسان والأعمال الصالحة علمًا وعملًا وحالًا تكون مرتبة العبد في التوحيد وكماله فيه، والأجر والثواب في الدنيا والآخرة على هذا الأصل، بل كل خير في الدنيا والآخرة فإنه من آثار التوحيد وثمراته، كما أنه كل شر في الدنيا والآخرة فمن آثار ترك التوحيد.

ثم فسر المؤلف الإخلاص والمتابعة فقال:

وحقيقة الإخلاص توحيد المرا ... د فلا يزاحمه مراد ثاني

لكن مراد العبد يبقى واحدًا ... ما فيه تفريق لدى الإنسان

يعني أن الإخلاص حقيقة أن يوحد العبد مراده ومقصوده، فتكون نيته وإرادته متعلقة بالله وحده لا شريك له، فلا يكون لهذا المراد مزاحم يزاحمه من الأغراض النفسية، بل يكون وصف العبد الإخلاص لله على الدوام، ويقوم بما يقوم به من الأعمال مستحضرًا لهذا المعنى الشريف، خاليًا من الرياء والمقاصد المخالفة لهذا المقصود، وبهذا يكون العمل صالحًا مقبولًا مثمرًا للثواب.

ولهذا قال النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**» متفق عليه[1]. ففاوت بين العملين، وصورتهما واحدة بحسب تفاوت النية والمقصود. وكذلك لما سئل عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل ليرى مكانه، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**» متفق عليه[2].

فعلى العبد أن يجاهد نفسه على الدوام في كل فرد من أفراد العبودية على أن يقصد به

---

(١) البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤).

وجه الله وحده لا شريك له، ويجتهد في دفع الخواطر المنافية لذلك، ليكون الإخلاص له وصفًا وخلقًا، وهو روح التوحيد والأعمال الصالحة، وتمام ذلك أن يراعي متابعة الرسول ﷺ في جميع أقواله وأفعاله الظاهرة والخفية، وذلك تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فينفي الإلهية عما سوى الله تعالى، ويثبتها لله وحده، ويتحقق بمعناها، ويصدق الرسول في خبره ويطيعه في أمره.

ثم ذكر نموذجًا من الأدلة الدالة على التوحيد والعبادة فقال:

إن كان ربك واحدًا سبحانه ... فاخصصه بالتوحيد مع إحسان

أو كان ربك واحدًا أنشاك لم ... يشركه إذ أنشاك رب ثاني

فكذاك أيضًا وحده فاعبده لا ... تعبد سواه يا أخا العرفان

يعني إذا كنت مقرًّا بأن ربك واحد فهو الخالق الرازق المربي لك ولسائر المخلوقات، فخصه بالتوحيد والأعمال الصالحة، فإذا علمت أنه الذي أنشأك وحده من غير مشارك له ولا معاون، فكذلك اعبده وحده لا تعبد غيره ممن لم يكن كذلك. وهذا الدليل - وهو الاستدلال بتوحيد الربوبية على صحة توحيد العبادة - كثيرًا ما يذكره الله في كتابه، ويستدل على المشركين الذين ينكرون توحيد الألوهية، فيلزمهم بأقوالهم توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]. وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٩]. إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا دليل واضح جدًّا ينتقل الذهن منه إلى المدلول بأول وهلة، فإنه إذا كان من المعلوم المتقرر عند كل أحد حتى المشركين بالله أن الله هو الخالق وحده المدبر لجميع الأمور،

وكل ما سواه مخلوق مدبر، فإن العقل والفطر يجزمان بتعين عبادة الله وحده، وأنه المستحق للعبادة دون من سواه ممن لا يملك نفعًا ولا ضرًّا ولا حياة ولا نشورًا، ولا له من الكمال ما يقتضي أن يعبد لأجله.

واعلم أن أدلة التوحيد كثيرة جدًّا يعسر عد أنواعها، فضلًا عن أفرادها، ولكن سننقل هنا عبارتنا في التفسير على قوله تعالى ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾[محمد: ١٩]. الآية.

قلت: العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته بما طلب منه علمه، وتمامه العمل بمقتضاه، وهذا العلم الذي أمر الله به وهو العلم بتوحيد الله فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد معه عقله، كائنًا من كان، بل كلٌّ مضطر إلى ذلك.

والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله أمور:

أحدها: بل أعظمها تدبر أسمائه وصفاته وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلاله، فإنها توجب بذل الجهد في التأله والتعبد للرب الكامل، الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرًّا ولا حياة

ولا موتًا ولا نشورًا، ولا ينصرون من عبدهم ولا ينفعونهم بمثقال ذرة من جلب خير أو دفع شر، فإن معرفة ذلك والعلم به يوجب العلم بأنه لا إله إلا الله، وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق الذين هم أكمل الخليقة أخلاقًا وعقولًا ورأيًا وصوابًا وعلمًا وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته وبديع حكمته وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا هو، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت براهين التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم في قلب العبد بحيث يكون أعظم من الجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد على تكرار الباطل والشبه إلا نموًّا وكمالًا. هذا وإن نظرت إلى الدليل العظيم والأمر الكبير وهو تدبر هذا القرآن العظيم والتأمل في آياته، فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد، ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره، إلى آخر ما ذكرته على تلك الآية الكريمة.

وهذه المذكورات أجناس وأنواع للأدلة، لو فصلت وبسطت لبلغت شيئًا كثيرًا.

قال المصنف في **مدارج السالكين** (1) لما ذكر توحيد المبطلين والمثبتين:



(1) ٣/ ٤٤٩.

فصل

وأما التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه فوراء ذلك كله، وهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد.

فالأول: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعلوه فوق سماواته على عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع حد الإفصاح، كما في أول الحديد وسورة طه وآخر سورة الحشر وأول تنزيل السجدة وأول آل عمران وسورة الإخلاص بكمالها وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة قل يا أيها الكافرون، وقوله:﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية. وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها وأول سورة يونس ووسطها وآخرها وأول سورة الأعراف وآخرها وجملة سورة الأنعام، وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل نقول قولًا كليًّا: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الطلبي الإرادي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته ونهيه وأمره فهو من حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده. وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عن حكم من خرج عن التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم. فالحمد لله توحيد، رب العالمين توحيد، الرحمن الرحيم توحيد، مالك يوم الدين توحيد، إياك نعبد توحيد، إياك نستعين توحيد، اهدنا الصراط المستقيم توحيد، متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين الذين فارقوا التوحيد.

ثم أطال الكلام في هذا الموضع بما لا يستغني عنه المؤمن.

والصدق توحيد الإرادة وهو بذ	**ل الجهد لا كسلًا ولا متواني**
والسنة المثلى لسالكها فتو	**حيد الطريق الأعظم السلطاني**
فلواحدٍ كن واحدًا في واحد	**أعني سبيل الحق والإيمان**

يعني أن التوحيد لا يتم إلا بثلاثة أمور:

توحيد المراد: وهو الإخلاص كما تقدم.

وتوحيد الإرادة: وهي ألا تكون الإرادة منقسمة، بأن يبذل العبد جهده ومقدوره في القيام بما أمر الله به علمًا وعملًا ووصفًا من غير كسل ولا توان ولا انحلال عزيمة، فهذا حقيقة الصدق.

وتوحيد الطريق: وهو اتباع السنة ظاهرًا وباطنًا.

ثم أجمل الثلاثة في قوله: «فلواحد» أي الله وحده، وهو الإخلاص، «كن واحدًا » أي مجتمع الإرادة والقصد والعمل، وهو الصدق، في «واحد» وهي المتابعة، فسره بقوله: «أعني سبيل الحق والإيمان»، أي وما سواها من الطرق فإنها طرق الغي والضلال والكفر والوبال.

هذي ثلاث مسعدات للذي	**قد نالها والفضل للمنان**
فإذا هي اجتمعت لنفس حرة	**بلغت من العلياء كل مكان**

يعني أن من اجتمعت له هذه الأمور الثلاثة بأن يكون الإخلاص خلقه ووصفه، وأعماله مقرونة به، والصدق والاجتهاد قرينه وحامله، واتباع الرسول طريقه، فهو السابق حقًّا، المستولي على الغاية التي لا غاية فوقها، والكمال الذي لا كمال فوقه، وحصلت له السعادة والفلاح، والفوز والأرباح، فإن تخلف كمال العبد وحرمانه مداره على فقد واحد من هذه الثلاثة أو اثنين أو كلها.

لله قلب شام هاتيك البرو	ق من الخيام فهمّ بالطيران
لولا التعلل بالرجاء تصدعت	أعشاره كتصدع الحيران
وتراه يبسطه الرجاء فينثني	متمايلًا كتمايل النشوان
ويعود يقبضه الإياس لكونه	متخلفًا عن رفقة الإحسان
فتراه بين القبض والبسط اللذيـ	ـن هما لأفق سمائه قطبان
وبدا له سعد السعود فصار مسـ	ـراه عليه لا على الدبران
لله ذياك الفريق فإنهم	خصوا بخالصة من الرحمن
شدت ركائبهم إلى معبودهم	ورسوله يا خيبة الكسلان

يتعجب المؤلف رحمه الله ويستعظم من قلب مَنّ الله عليه بالتحقق بالصدق والإخلاص والمتابعة، حتى صارت له نعتًا، وصارت رغبته كلها في مراضي ربه في كل وقت، فكلما بدا له منزلة من منازل السائرين، وخصلة من خصال العاملين بادر إليها شوقًا ومحبة، وانقاد لها طوعًا واختيارًا، بمنزلة من طالع البروق من خيام الأحبة على بعد، فصار قلبه ينازعه، حتى يكاد يهم أن يطير إلى أحبابه ويتمتع بلقائهم، الذي هو ألذ للمحبين، يمر عليهم من أرواحهم، فلولا أن المحب يتعلل بقرب اللقاء ويحدث نفسه باجتماعه بأحبته لتصدعت أعشار قلبه، أي جوانبه، كتصدع الحيران الذي حيره الحب وذهب بشعوره.

كذلك المحب لله تعالى، يجهد نفسه في مراضيه حتى تنمو محبة الله في قلبه، ويحدث

له الشوق والقلق، فلولا أنه يلاطف نفسه برجاء اللقاء لذابت نفسه واحترق لبه، ثم إذا نظر إلى نفسه وتقصيره وتخلفه عن رفقة السابقين قبضه اليأس، فتجده بين الخوف والرجاء اللذين هما لعبادته وأعماله كالقطبين في النجوم.

فالعبادات كلها تدور على الخوف والرجاء، فيرجو العبد قبولها وتقريبها لربه، ويخاف من ردها وعدم القيام بها وبحقوقها. إن نظر إلى رحمة الله ولطفه انفتح له باب الرجاء والطمع، وإن نظر إلى تقصيره وما يستحقه الله من العبودية التي لا يمكن العبد القيام بها أحدث له القبض، وباعتدال الخوف والرجاء يعتدل سير العبد، فإذا رجح جانب الرجاء خيف الأمن من مكر الله، وحصل الإدلال والشطح الذي لا يليق بالمخلوق، وإن رجح جانب الخوف خيف منه اليأس والقنوط من رحمة الله.

وهذه المراتب الثلاث المحبة والخوف والرجاء أصل أعمال القلوب، وبها تستقيم الأعمال الظاهرة والباطنة، كما جمعها الله في قوله: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء:٥٧].

وقول المصنف: «وبدا له سعد السعود»، البيت يحتمل أن مراده بهذا التشبيه أن سير هذا الفريق لما كان مصاحبًا للخوف والرجاء، وكانت روحه المحبة كان سيرًا محمودًا مآله إلى العز والفلاح، والعلو وحصول الأرباح، بخلاف من كان سيره سير البطالين أهل الكسل، فإن سيرهم إلى وراء. قال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧].

ويحتمل أنه أراد «بسعد السعود» السير على متابعة الرسول والاقتداء بهديه، وتجنب السير على الدبران، كالسير خلف كل من خالف الرسول. وقوله: «لله ذياك الفريق»، أي الموصوف بتلك الصفات الحميدة.

وهذا التصغير المراد به التعظيم والتعجب من حسن حالهم وعلو قدرهم، ولهذا قال: «فإنهم خصوا بخالصة من الرحمن». أي أخلصهم الله من كل كدر واختصهم بولايته. قال تعالى عن خيار أنبيائه: ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ [ص:٤٦]. أي جعلنا ذكر الدار

الآخرة في قلوبهم والعمل لها صفوة وقتهم، والإخلاص والمراقبة لله وصفهم الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار، يتذكر بأحوالهم المتذكر، ويعتبر بهم المعتبر، ويذكرون بأحسن الذكر. وقوله:

شـــدت ركائبهم إلـــى معبودهم ....

هذا هو الإخلاص لله ورسوله بالمتابعة. «يا خيبة الكسلان» الذي تخلف عن فريقهم، ولم يسلك مسلكهم في طريقهم.

فصل

في بيان ما يناقض هذا التوحيد من الشرك الأكبر والأصغر ووسائل ذلك

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ... ذا القسم ليس بقابل الغفران

وهو اتخاذ الند للرحمن أيـ ... ـا كان من حجر ومن إنسان

يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ... ويحبه كمحبة الرحمن

يعني أن الشرك نوعان: ظاهر: وهو الشرك الأكبر المخرج من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفران، الذي لا يغفره الله ولا يدخل صاحبه الجنة، بل هو من أصحاب النار. وحدّه اتخاذ الند للرحمن من الملائكة أو الرسل أو الأولياء أو الحيوانات أو الجمادات، يتقرب إليه كما يتقرب إلى الرحمن بالدعاء والخوف والرجاء والمحبة وسائر أنواع العبادة، فحقيقته أن يصرف العبد نوعًا من أنواع العبادة لغير الله تعالى، وسواء سمى من تقرب إليه بذلك إلهًا أم لا. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس:١٠٦]. ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة:٧٢]. إلى غير ذلك من الآيات الدالات على كفر من عبد مع الله غيره وخلوده في النار.

وأما الشرك الأصغر فهو كل وسيلة قريبة موصلة إلى الشرك الأكبر، إذا لم تصل إلى رتبة العبادة، كالحلف بغير الله والرياء والتصنع للمخلوقين والغلو في الأموات ونحو ذلك، فلا

يتم للعبد التوحيد حتى يتبرأ من الشرك كله ظاهره وباطنه، ويخلص لله أعماله كلها.

وهذا التوحيد الذي هو عبادة الله وحده هو الذي أنكره المشركون على رسول الله ﷺ، وقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]. وهم مقرّون بتوحيد الربوبية، وأنه المالك وما سواه مملوك، ولهذا قال المصنف:

والله ما ساووهمُ بالله في	خلق ولا رزق ولا إحسان
فالله عندهمُ هو الخلاق والرْ	رَزاق مولي الفضل والإحسان
لكنهم ساووهمُ بالله في	حب وتعظيم وفي إيمان
جعلوا محبتهم مع الرحمن ما	جعلوا المحبة قط للرحمن
لو كان حبهمُ لأجل الله ما	عادَوْا أحبته على الإيمان
ولما أحبوا سخطه وتجنبوا	محبوبه ومواقع الرضوان
شرط المحبة أن توافق من تحـ	ـب على محبته بلا عصيان
فإذا ادعيت له المحبة معْ خلا	فك ما يحب فأنت ذو بهتان
أتحب أعداء الحبيب وتدعي	حبًّا له ما ذاك ذو إمكان
وكذا تعادي جاهدًا أحبابه	أين المحبة يا أخا الشيطان

يريد المؤلف رحمه الله قول الله تعالى عن أهل النار حين رأوا بطلان عبادتها: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨]. أي أنهم ما ساووهم بالله بالخلق والرزق والإحسان، فإن المشركين كما تقدم مقرون بأن الله هو الخالق الرازق المتفضل بالنعم الظاهرة والباطنة، وإنما سووهم بالله في الحب والتعظيم والعبادة، فأحبوهم مع الرحمن وشركوهم فيها، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥]. فهذا الحب مع الله الذي يقدح في التوحيد فلو كانت محبتهم لهم لله أو لأجله لأحبوا ما يحبه الله من الأعمال والأشخاص، فإن هذا

علامة المحبة لله.

وأما من زعم أنه يحب الله ثم عادى أولياء الله وعادى ما يحبه الله من الأعمال، ووالى أعداء الله وما يبغضه من أنواع المعاصي، فهذا كاذب في دعواه. فإن شرط المحبة موافقة المحبوب في محابه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. وكما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

ومن صفات المحبين لله أنهم ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

فالمحبة ثلاثة أنواع:

محبة الله: وهي روح التوحيد وأصل العبادات والتقربات كلها.

ومحبة في الله: وهي محبة ما يحبه الله من أنبيائه وأوليائه والأعمال المقربة إلى الله، وهذه من تمام محبة الله، وبحسب قوة محبة الله تقوى هذه المحبة. ولهذا ورد في الدعاء المشهور: «**اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب العمل الذي يقرب إلى حبك**»[1].

والثالث: المحبة مع الله؛ وهي محبة المشركين لآلهتهم مع الله محبة عبودية، وهذه منافية للتوحيد من كل وجه. وثم محبة طبيعية لا تحمد ولا تذم إلا لآثارها، كمحبة الطعام والشراب، ومحبة الأليف والوطن ونحو ذلك.

ليس العبادة غير توحيد المحبـ ـة مع خضوع القلب والأركان

يعني أن حقيقة المحبة هي توحيد المحبة والذل، والتعظيم لله تعالى، فإن العبادة حب

(١) الترمذي (٣٤٩٠).

كامل وذل تام للمحبوب.

والحب نفس وفاقه فيما يحب	وبغض ما لا يرتضي بجنان
ووفاقه نفس اتباعك أمره	والقصد وجه الله ذي الإحسان
هذا هو الإحسان شرط في قبو	ل السعي فافهمه من القرآن
والإتباع بدون شرع رسوله	عين المحال وأبطل البطلان
فإذا نبذت كتابه ورسوله	وتبعت أمر النفس والشيطان
وتَخِذْتَ أندادًا تحبهمُ كحب	الله كنت مجانب الإيمان

يريد رحمه الله أن المحبة في الحقيقة نفس موافقة الله في محبة ما يحبه وبغض ما يبغضه، وذلك يتحقق باتباع أمر الله الذي شرعه على لسان رسوله محمد ﷺ في أصول الدين وفروعه في ظاهره وباطنه، مع الإخلاص لله تعالى وإرادة وجهه الأعلى. وهذه الموافقة المشتملة على المتابعة والإخلاص هي الإحسان الذي قال الله فيه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. أي أخلصه وأصوبه، وفي قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وفي قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

والمتابعة لا تمكن إلا باتباع الرسول ﷺ، فمن نبذ كتاب الله وسنة رسوله، وتبع أوامر النفس الأمارة بالسوء، والشيطان الذي لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء، واتخذ من دون الله أندادًا يحبهم كحب الله، خرج من الإيمان من حيث يظن أنه مؤمن، فإن اتخاذ الأنداد من دون الله مناقض لقول لا إله إلا الله، وإن الخروج عن الاهتداء بالكتاب والسنة مناقض لشهادة محمد رسول الله، وما أكثر من هو بهذا الوصف ممن ينتسب إلى الإيمان والتحقيق، كما قال المصنف:

ولقد رأينا من فريق يدعي الـ	إسلام شركًا ظاهر التبيان
جعلوا له شركاء والوهم وسو	وهم به في الحب لا السلطان

والله ما ساووهمُ بالله بل زادوا لهم حبًّا بلا كتمان
والله ما غضبوا إذا انتهكت محا رم ربهم في السر والإعلان
حتى إذا ما قيل في الوثن الذي يدعونه ما فيه من نقصان
فأجارك الرحمن من غضب ومن حرب ومن شتم ومن عدوان
وأجارك الرحمن من ضرب وتعـ ـزير ومن سب ومن سجان
والله لو عطّلت كل صفاته ما قابلوك ببعض ذا العدوان
والله لو خالفت نص رسوله نصًّا صريحًا واضح التبيان
وتبعت قول شيوخهم أو غيرهم كنت المحقق صاحب العرفان
حتى إذا خالفت آراء الرجا ل لسنة المبعوث بالفرقان
نادوا عليك ببدعة وضلالة قالوا وفي تكفيره قولان
قالوا تنقصت الكبار وسائر الـ ـعلماء بل جاهرت بالبهتان
هذا ولم تسلبهمُ حقًّا لهم ليكون ذا كذب وذا عدوان
وإذا سلبت صفاته وعلوه وكلامه جهرًا بلا كتمان
لم يغضبوا بل كان ذلك عندهم عين الصواب ومقتضى الإحسان
والأمر والله العظيم يزيد فو ق الوصف لا يخفى على العميان
وإذا ذكرت الله توحيدًا رأيـ ـت وجوههم مكسوفة الألوان
بل ينظرون إليك شزرًا مثلما نظر التيوس إلى عصا الجوبان
وإذا ذكرت بمدحة شركاءهم يستبشرون تباشر الفرحان
والله ما شموا روائح دينه يا زكمة أعيت طبيب زمان

وهذه الأبيات واضحة المعنى. والأمر كما قال المصنف عن هذا الفريق المنتسب

للإسلام، الذي يقتضي منهم دينهم تعظيم ربهم، والقيام له بحق العبودية، ولرسوله بحق الرسالة، فعكسوا القضية، فاتخذوا لهم أندادًا من دون الله، يعبدونها ويغضبون لها أعظم مما يغضبون لله، والدليل على هذا أنه لو انتهكت محارم الله لم يغضبوا، وإذا قيل فيما ينتحلونه من ذلك الوثن بعض ما فيه من النقص اشتد غضبهم، ويتباشرون إذا مدحت شركاءهم، وإذا ذكر توحيد الله تغيرت وجوههم واشمأزوا، وكذلك جعلوا لهم رؤساء يطيعونهم في كل حال، وجعلوهم بمنزلة الرسول المعصومة أقواله وأفعاله، فيقدمون طاعتهم على طاعة الرسول، ومن خالفهم لقول الرسول رموه بأنه متنقص لهم مبغض، فهل بقي بعد هذا إيمان؟ ولكن لكثرة الإمساس قل الإحساس، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فنسألك اللهم العفو والعافية والمعافاة في الدنيا والآخرة، وأن تحفظ لنا ديننا من كل شرك وشبهة وبدعة وضلالة ومعصية، إنك على كل شيء قدير.

تم ما أردت تعليقه، ولله الحمد والمنة والفضل والإحسان، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا. فرغت من تسويده في ٢٣ شعبان سنة ١٣٤٤هـ، وأنا الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي.

وتم نقله من خط المؤلف شيخنا رحمه الله في ٢٠ شوال سنة ١٤١٩هـ، بقلم الفقير إلى الله محمد بن سليمان بن عبد العزيز آل بسام، غفر الله له ولوالديه ولشيخه وللمسلمين.

بلغ مقابلة وتصحيحًا على نسخة بخط المؤلف، وذلك بحسب الإمكان، بقلم كاتبه وابنه منصور، نسأل الله المغفرة والرحمة في ١٣ ذي القعدة سنة ١٤١٩هـ.



مجموع مؤلفات ابن سعدي (٢٥)

الحق الواضح المبين

في شرح

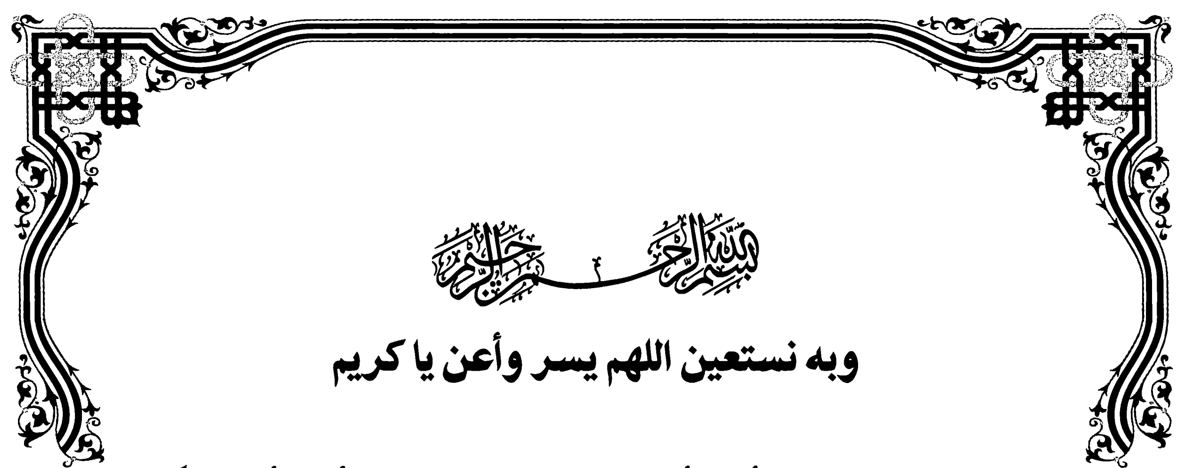
توحيد الأنبياء والمرسلين

تأليف

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله



وبه نستعين اللهم يسر وأعن يا كريم

الحمد لله رب العالمين وأشهد أنه الإله الحق الملك المبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله سيد المرسلين اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد كنت وضعت شرحًا على توحيد الأنبياء والمرسلين من (الكافية الشافية) للمحقق شمس الدين ابن القيم رحمه الله، أطلت فيه وأكثرت فيه من النقول عن كتب المؤلف فبدا لي أن ألخصه بشرح متوسط يأتي بأغراضه ومقاصده، ويحتوي على المهم من مسائله وفوائده، وأرجو الله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه، موافقًا لمرضاته، نافعًا لكاتبه وقارئه، إنه جواد كريم.

قال المصنف رحمه الله:

فصل

في توحيد الأنبياء والمرسلين ومخالفته لتوحيد الملاحدة والمعطلين

وهذا التوحيد هو التوحيد على الحقيقة الذي لا يستحق هذا الاسم غيره، وهو التوحيد الوحيد في ذاته وحقيقته وأدلته وبراهينه وآثاره الجميلة وثمراته الجزيلة، وهو التوحيد الذي بعث الله به جميع رسله، وأنزل لأجله كتبه، وخلق المخلوقات وشرع الشرائع لإقامته، وأقام الأدلة العقلية والنقلية والآفاقية والنفسية على صحته وكماله ووجوبه، وتعينه طريقًا للنجاة من شرور الدنيا والآخرة، ووسيلة إلى السعادة والفلاح، وهو الذي لا يحصل للقلوب زكاة ولا سرور ولا طمأنينة ولا إيمان صحيح ويقين إلا به، وهو الأصل والأساس لجميع الأعمال، وهو التوحيد الذي عليه خيار الخلق وأكملهم عقولًا وأزكاهم نفوسًا وأجمعهم للمحاسن، وهم جميع الأنبياء والمرسلين وأئمة الهدى ومصابيح الدجى وأصحابهم وأتباعهم.

ونبذه وزهد فيه كل ملحد ومعطل، ممن فسدت أديانهم ومرجت عقولهم واكتسبوا شر الأخلاق، وممن خالفوا الأنبياء في طريقهم وتوحيدهم في الدليل والمدلول. فتوحيد الأنبياء مشتمل على الحق والصدق المزكي للنفوس المطهر للأخلاق، وأدلته كل دليل عقلي صريح وكل دليل نقلي صحيح، وتوحيد الملاحدة والمعطلين مشتمل على أبطل الباطل مؤيد بالشبه التي هي على جهل أصحابها وفساد عقولهم وأفهامهم من أكبر الأدلة، ولهذا قال المصنف:

فاسمع إذًا توحيد رسل الله ثُمّ ... اجعله داخل كفة الميزان

مع هذه الأنواع وانظر أيها ... أولى لدى الميزان بالرجحان

وذلك أن الشيء يعرف بضده، والحق يتضح ويظهر نوره بمعرفته ومعرفة ما يضاده من الباطل، فإنك إذا وزنت - بميزان العقل الحقيقي والفطر السليمة التي لم تتغير والبراهين الدالة على الحقائق - توحيد الأنبياء والمرسلين وتوحيد المعطلين؛ وجدت بينهما من الفروق ما لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل. وكيف يوزن توحيد المعطلين الملحدين المشتمل على مسبّة رب العالمين، ووصفه بكل صفة ناقصة ونفي حقائق أوصافه الكاملة والافتراء عليه وعلى كتبه، ورسله وجعل المخلوق الناقص من جميع الوجوه مساويًا للخالق الكامل في أسمائه وصفاته من جميع الوجوه، بتوحيد الأنبياء والمرسلين المحتوي على تعظيم رب العالمين وتقديسه وتمجيده، والثناء عليه بأكمل الثناء ووصفه بكل صفة كمال، وتنزيهه عن التشبيه والتمثيل وعن مشاركة المخلوقات في خصائص صفاته المقدسة وكماله العظيم، وكيف يوزن توحيد يرقى أصحابه إلى أعلى عليين، بتوحيد النفاة الذي ينزل بأهله إلى أسفل سافلين، أم كيف يوزن توحيد يجعل من اتصف به هاديًا مهديًّا وطاهرًا مرضيًّا، بتوحيد يكسب أهله الضلال والإضلال وأرذل الخصال، ويفضي بهم إلى الشقاء الأبدي.

توحيدهم نوعان قولي وفعـ ـليٌّ كلا نوعيه ذو برهان

يعني أن توحيد الأنبياء ينقسم قسمين:

أحدهما: التوحيد الفعلي وهو إفراد الله بالمحبة والذل وسائر العبادات والتقربات، ويأتي آخر الفصول، هو المسمى (توحيد العبادة وتوحيد الإلهية)، وسمي توحيدًا فعليًّا؛ لأنه متضمن لأفعال القلوب والجوارح، فهو توحيد الله بأفعال العبيد، وأنه لا يتخذ له شريك ولا نديد.

والثاني: التوحيد القولي الاعتقادي، وهو المشتمل على أقوال القلوب وهو اعترافها واعتقادها، وعلى أقوال اللسان والثناء على الله بتوحيده. وهذا النوع هو توحيد الأسماء والصفات الذي يدخل فيه (توحيد الربوبية). وكل واحد من النوعين له براهين وأدلة عقلية ونقلية، فبدأ المصنف بالتوحيد القولي فقال:

فالأول القولي ذو نوعين أيـ ـضًا في كتاب الله موجودان
إحداهما سلب وذا نوعان أيـ ـضًا فيه حقًّا فيه مذكوران
سلب النقائص والعيوب جميعها عنه هما نوعان معقولان

يعني أن التوحيد القولي على نوعين موجودين في كتاب الله وكذلك في السنة: **أحدهما:** سلب أي نفي النقائص والعيوب عن الله تعالى، **والثاني:** إثبات صفات الكمال لله تعالى كما سيأتي إن شاء الله. وبدأ بالسلب لأنه وسيلة ومقصود لغيره، فإن المقصود الأعظم من التوحيد إثبات صفات المدح والحمد، و نفي كل ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله من النقائص، فإنه متضمن للمدح وللثناء على الله بضد ذلك النقص من الأوصاف الحميدة والأفعال الرشيدة. وهذا السلب على قسمين ذكرهما المصنف بقوله:

سلب لمتصل ومنفصل هما نوعان معروفان أما الثاني
سلب الشريك مع الظهير مع الشفيـ ـع بدون إذن الخالق الديان
وكذاك سلب الزوج والولد الذي نسبوا إليه عابدو الصلبان
وكذاك نفي الكفو أيضًا والوليـ ـيِ لنا سوى الرحمن ذي الغفران

يعني أن ما ينزه الله عنه من النقص نوعان:

سلب لمتصل: وضابطه نفي ما يناقض ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله من كل ما يضاد الصفات الكاملة.

وسلب لمنفصل: وضابطه تنزيه رب العالمين عن أن يشاركه أحد من الخلق في خصائصه التي لا تكون لغيره من التوحد والتفرد بالكمال، وأن يفرد بالعبودية، وذلك كنفي الشريك له في ربوبيته وإلاهيته، فإنه متفرد بالملك والقدرة والتدبير، فليس له في ذلك شريك وليس له أيضًا ظهير؛ أي معين يعاونه على خلق شيء من المخلوقات أو تدبيرها؛ لكمال قدرته وسعة علمه ونفوذ مشيئته، وعجز المخلوقين وعدم حولهم وقوتهم إلا بالله، فالشريك والظهير

منفيان عنه مطلقًا، وأما الشفيع فإنه من عظمته وكمال ملكه ينزه عن أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه.

وأما الشفاعة عنده بإذنه من الأنبياء والأصفياء لأهل الجرائم؛ فإنها ثابتة كما أثبتها في عدة مواضع من كتابه، وذلك لأنها دالة على كمال رحمته وعموم إحسانه، فإنها من رحمته بالشافع والمشفوع له، فالشافع ينال بها الأجر والثناء من الله ومن خلقه، والمشفوع له يرحمه الله على يد من أذن له بالشفاعة فيه. ومع هذا فلا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن رضي قوله وعمله، وهو من كان مخلصًا لله متابعًا لرسول الله، قال تعالى نافيًا مشاركة أحد له في الأمور الثلاثة الملك والشركة فيه والمعاونة والشفاعة بغير إذنه: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فقطع بهذه الآية كل سبب يتوسل به المشركون لدعوة غيره، وبين أن من كان بهذا الوصف – لا ملك له بوجه من الوجوه، ولا شركة في الملك، ولا معاونة ومظاهرة فيه، وليس له شفاعة بدون إذن الله – لا يستحق من العبادة مثقال ذرة.

وكذلك ينزه الله عن اتخاذ الزوجة والولد الذي نسبه إليه عباد الصلبان؛ حيث قالوا: إن المسيح ابن الله، وكذلك عباد الأوثان إذ قالوا: الملائكة بنات الله، فكذب الله كل من زعم أن له زوجة أو ولدًا فقال: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١ – ٤]. وقال: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١]. وقال: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١]. إلى غير ذلك من الآيات النافية عن الله أن يتخذ صاحبة أو ولدًا أو شريكًا؛ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الغني الذي لا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه من الوجوه، ولأنه المالك لكل شيء، وكل الخلق مملوكون له فقراء إليه، فمن كان كذلك فكيف يتخذ الصاحبة والولد تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ

وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣].

وقول المصنف:

.... نســبوا إليــه عابــدو الصلبــان

هذا على لغة من يلحق الفعل المسند إلى الظاهر علامة التثنية والجمع، وهي لغة ضعيفة تحمل عليها الضرورة، واللغة الفصحى أن يفرد الفعل المسند إلى الظاهر مطلقًا، فيقال: نسب إليه عابدو الصلبان.

قوله: «وكذاك نفي الكفو أيضًا» أي يجب ويتعين أن ينفى أن يكون أحد مكافئًا لله في كماله وحقوقه، قال تعالى: ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ [مريم: ٦٥]. ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا ﴾ [البقرة: ٢٢]. ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ [الشورى: ١١].

فليس أحد مكافئًا لله أي مساويًا له في الأسماء والصفات ولا في الأفعال؛ لأنه الخالق الكامل من كل وجه، وسواه مخلوق ناقص إن لم يكمله ربه بكمال المخلوق اللائق به، فليس لأحد صفات تقارب صفات الله ولا أفعال تشبه أفعال الله، بل ليس لأحد من الخلق استقلال بفعل شيء أصلًا حتى يعينه الله على أفعاله؛ ولهذا كانت أفعال العباد تابعة لمشيئة الله مع وقوعها بإرادتهم وقدرتهم، فخالق القدرة والإرادة خالق ما يكون بهما، قال تعالى في بيان الأصلين: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

ومما ينفى عن الله وينزه عنه أنه ليس لنا وليّ سواه يجلب لنا المنافع ويدفع عنا المضار، فليس لنا وليٌّ سواه، فإنه تولى خلقنا ورزقنا وتدبيرنا وتربيتنا العامة والخاصة. فالولاية العامة ولاية الخلق والتدبير الشاملة للبر والفاجر قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ ﴾ [السجدة: ٤]. ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ [الشورى: ٤٤]. والولاية الخاصة ولايته للمؤمنين المتقين يخرجهم بها من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي إلى نور العلم والإيمان والطاعة، قال تعالى: ﴿أَلَآ

إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وكذلك لم يتخذ من خلقه وليًّا من الذل لكمال اقتداره وغناه وعظمته، وإنما يتخذ منهم أولياء رحمة بهم وإحسانًا إليهم يحبهم ويحبونه. والحاصل أنه ليس أحد مساويًا لله تعالى أو مماثلًا أو معينًا أو وزيرًا، أو محتاجًا إليه بوجه من الوجوه.

والأول التنزيه للرحمن عن	وصف العيوب وكل ذي نقصان
كالموت والإعياء والتعب الذي	ينفي اقتدار الخالق الديان
والنوم والسنة التي هي أصله	وعزوب شيء عنه في الأكوان

هذا القسم الأول من قسمي السلب المنفي عن الله: وهو التنزيه لله عن أن يتصف بعيب أو نقص مناقضٍ لكمال أوصافه، فهو موصوف بكل صفة كمال منزه عن ضدها وعن نقصها، فهو موصوف بكمال الحياة وبكمال القدرة، منزه عما يضادها من الموت والإعياء والتعب واللغوب، فإنه لو كان موصوفًا بشيء من هذا النقص لكان ناقص القدرة، قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨]. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨]. ومنزه أيضًا عما يضاد الحياة والقيومية من النوم والنعاس وهو السنة، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال النبي ﷺ: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام**»[1]. وكذلك هو موصوف بالعلم المحيط بكل شيء يعلم ما في السماوات والأرض، ويعلم ما يسر العباد وما يعلنون، منزه عما ينافي ذلك، فلا يعزب ولا يغيب عن علمه وبصره وسمعه شيء في السماوات والأرض قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥]. وقال تعالى ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ

(١) تقدم تخريجه ص٤٩٧.

أَكۡبَرُ ﴾ [سبأ: ٣].

وكذلك العبث الذي تنفيه حكـ ـمته وحمد الله ذي الإتقان

وكذاك ترك الخلق إهمالًا سدى لا يبعثون إلى معادٍ ثاني

كلا ولا أمر ولا نهي عليـ ـهم من إله قادر ديّان

أي: وكذلك يجب تنزيه الله عن العبث في الخلق والأمر، فلم يخلق شيئًا عبثًا ولا باطلًا، ولا شرع شيئًا إلا لحكمة عظيمة؛ لأنه حكيم حميد، فمن تمام حكمته وحمده إتقان المصنوعات وإحكامها وإحكام الشرائع على أكمل وجه وأتمه، وهذا مشاهد في خلقه وشرعه، ومن تمام حكمته أنه لم يخلق خلقه سدى لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون على تلك الأوامر والنواهي، فالحكمة والحمد دالان على أنه خلق المكلفين لينفذ فيهم أحكامه الشرعية ويبتليهم بالأوامر والنواهي. ثم بعد ذلك يبعثهم بعد موتهم إلى دار تجري فيها عليهم أحكام الجزاء والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. وقال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠]. فالذي نقله في هذه الأطوار لا يليق به أن يتركه هملًا مهملًا لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب.

وكذاك ظلم عباده وهو الغنيّ فما له والظلم للإنسان

أي وكذلك ينزه الباري عن الظلم للعباد بأن يزيد في سيئاتهم أو ينقص من حسناتهم أو يعاقبهم على ما لم يفعلوا، فإن الظلم لا يفعله إلا من هو محتاج إليه أو من هو موصوف بالجور، وأما الله الغني عن خلقه من جميع الوجوه، الحكم العدل الحميد، فما له وظلم العباد، قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]. وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا ﴾ [النساء: ٤٠]. ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا

يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾ [طه: ١١٢]. وقال على لسان نبيه: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**» رواه مسلم[١].

وكذاك غفلته تعالى وهو علّـ ... ـام الغيوب فظاهر البطلان

وكذلك النسيان جل إلهنا ... لا يعتريه قط من نسيان

وكذاك حاجته إلى طعم ورز ... قٍ وهو رزاق بلا حسبان

أي كذلك ينزه عن الغفلة والنسيان بوجه من الوجوه؛ لأنه عالم الغيب والشهادة وعلمه محيط لا يعرض له ما يعرض لعلم المخلوق من خفاء بعض المعلومات أو نسيانها والذهول عنها قال تعالى: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]. وكذلك ينزه عن احتياجه إلى الطعام والرزق فإنه تعالى هو الرزاق لجميع الخلق الغني عنهم وكلهم فقراء إليه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]. ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

هذا وثاني نوعي السلب الذي ... هو أول الأنواع في الأوزان

تنزيه أوصاف الكمال له عن الـ ... ـتشبيه والتمثيل والنكران

لسنا نشبه وصفه بصفاتنا ... إن المشبه عابد الأوثان

كلا ولا نخليه من أوصافه ... إن المعطل عابد البهتان

من مثل الله العظيم بخلقه ... فهو النسيب لمشرك نصراني

أو عطل الرحمن من أوصافه ... فهو الكفور وليس ذا إيمان

هذا النوع الثاني من نوعي السلب الذي ينزه الله عنه، الذي هو أول النوعين الثبوتي والسلبي في الميزان؛ أي: في هذه القصيدة، وتقدم النوع الأول من قسمي السلب؛ وهو

(١) تقدم تخريجه ص٤٩٨.

السلب المتصل والمنفصل المتضمن تنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مشاركة أحد من الخلق له في صفاته الخاصة به وعما يناقض كماله، وهذا النوع يرجع إلى حفظ كماله ونعوت جلاله عن تشبيهها بصفات الخلق، فلا يقال: علم الله أو قدرة الله كعلم الخلق أو قدرتهم، ولا رحمته كرحمة خلقه، فإن ذلك تشبيه لله بالخلق، ومن قال بهذا فإنه يمثل بفكره صنمًا ووثنًا يعبده كما فعل النصارى بالمسيح ابن مريم جعلوه إلههم ومعبودهم.

فالمشبه نسيب أي مشابه للنصراني، وأما رب العالمين فهو فوق ما يظنون وأعلى مما يتوهمون، فإنه كما أن ذاته لا تشبهها ذوات المخلوقين فصفاته لا تشبهها صفاتهم، وينزه عن تعطيل صفاته ونفيها كما فعلته الجهمية ومن تبعهم من المتكلمين، فإن ذلك رد لنصوص الكتاب والسنة الدالة على اتصافه بصفات الكمال، فيتوهم المعطل أن ظاهر النصوص يدل على التشبيه، فينفيها بوهمه الفاسد، ويصير قلبه متعبدًا للعدم المحض والنفي الصرف، فإنه كفر بآيات الله، وتكذيب للرسل، ورد لما جاءوا به؛ ولهذا قال المصنف:

.... **فهـو الكفـور وليـس ذا إيمان**

وسيأتي إن شاء الله كلام المصنف في الكلام على الجهمية وغيرهم من أهل البدع.

وبالجملة فالناس في هذا المقام ثلاثة أقسام: مؤمن موحد، ومشبِّه، ومعطل؛ **فالمؤمن الموحد**: يصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الكمال على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل ولا تشبيه، ومن غير تحريف ولا تعطيل لشيء من أوصاف الله.

والمشبِّه: هو الذي يشبه صفات الخالق بصفات المخلوقين، أو يتعرض لمعرفة كنهها وحقيقتها التي لا يعلمها غير الله.

والمعطل: هو من نفى شيئًا من صفات الله.

وكل من المعطل والمشبه قد حرم الوصول إلى معرفة الله على وجهها، وابتلي بالتكلف

والتحريف لنصوص الوحي، وكما أنه مناقض للوحي فهو مناقض لما دلت عليه العقول والفطر التي لم يطرأ عليها التغير، فلا معقول لديهم ولا منقول. وهدى الله أهل السنة والجماعة لاتباع الحق المنقول عن الله وعن رسله، والمعقول لذوي الألباب، وذلك يظهر بتدبر ما عليه هذه الطرائف في المسائل والدلائل وتحقيقها، ونسأل الله الهداية لأقوم الطرق.

فصل

في النوع الثاني من النوع الأول وهو الثبوت

وهذا أشرف النوعين وأجلهما، وهو المقصود لذاته، ومجمله ما ذكره المصنف في هذا البيت:

هذا ومن توحيدهم إثبات أو صاف الكمال لربنا الرحمن

أي من توحيد الأنبياء والمرسلين وأتباعهم أن يعترفوا ويثبتوا لله كل صفة للرحمن وردت في الكتب الإلهية، وثبتت في النصوص النبوية، يتعرفون معناها ويعقلونه بقلوبهم، ويتعبدون لله تعالى بعلمها واعتقادها، ويعملون بما يقتضيه ذلك الوصف من الأحوال القلبية والمعارف الربانية، فأوصاف العظمة والكبرياء والمجد والجلال تملأ قلوبهم هيبة لله وتعظيمًا له وتقديسًا، وأوصاف العزّ والقدرة والجبروت تخضع لها القلوب وتذل وتنكسر بين يدي ربها، وأوصاف الرحمة والبر والجود والكرم تملأ القلوب رغبة وطمعًا فيه وفي فضله وإحسانه وجوده وامتنانه، وأوصاف العلم والإحاطة توجب للعبد مراقبة ربه في جميع حركاته وسكناته، ومجموع الصفات المتنوعة الدالة على الجلال والجمال والإكرام تملأ القلوب محبة لله وشوقًا إليه، وتوجب له التأله والتعبد والتقرب من العبد إلى ربه بأقواله وأفعاله، بظاهره وباطنه، بقيامه بحقه وقيامه بحقوق خلقه.

وبهذه المعاني الجليلة وتحقيقها يرجى للعبد أن يدخل في قوله ﷺ: **«إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة»** متفق عليه[1]. فإحصاؤها فهمها وعقلها والاعتراف بها والتعبد لله بها. ثم شرع يفصلها فقال:

(١) تقدم تخريجه ص٦٠٧.

كعلوه سبحانه فوق السما وات العلى بل فوق كل مكان

فهو العلي بذاته سبحانه إذ يستحيل خلاف ذا ببيان

وهو الذي حقًّا على العرش استوى قد قام بالتدبير للأكوان

أما علو الباري تعالى فوق جميع المخلوقات ومباينته لها فقد دل عليهما العقل والفطرة مع النصوص الكثيرة المتواترة، فإنه علا بذاته فوق مخلوقاته، ويستحيل ألا يكون عليًّا؛ فإنه يمتنع أن يكون حالًّا في المخلوقات، فيتعين أن يكون فوقها مباينًا لها، وأما استواؤه على العرش العظيم فيستفاد من النقل؛ الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. وأخبر أنه العلي الأعلى، وأنه فوق عباده في مواضع كثيرة.

وقد سئل الإمام مالك رحمه الله عن الاستواء فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب». وهكذا يجاب عن جميع ما أخبر الله به عن نفسه وأخبر عنه رسوله، فكما أنه ثبت لله صفاته العظيمة على الوجه اللائق بجلاله وعظمته، فالاستواء على العرش من جملة أوصافه، فاستوى على العرش واحتوى على الملك؛ يدبر الأمر في أقطار العالم العلوي والسفلي، كما جمع بين الأمرين في قوله ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣].

حي مريد قادر متكلم ذو رحمة وإرادة وحنان

أي: هو تعالى حي حياة كاملة جامعة لجميع صفات الذات، ومن كمال حياته أنه كامل القدرة نافذ الإرادة والمشيئة.

وجمع المؤلف بين القدرة والإرادة وهي المشيئة لأن جميع صفات الأفعال المتعلقة بذاته: كالاستواء على العرش، ونزوله إلى سماء الدنيا على ما وردت به النصوص، والمجيء والإتيان والقول ونحو ذلك، والمتعلقة بخلقه كالإحياء والإماتة والخلق وأنواع التدبيرات كلها تصدر عن القدرة والإرادة، فما وُجد علم أن الله أراده، وما لم يوجد علم أن الله لم

يرده، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة لأحد إلا به لشمول إرادته وكمال قدرته.

وقوله « متكلم » أي لم يزل ولا يزال بالكلام موصوفًا، فيكلم بما أراد كيف أراد وحيث أراد ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥]. وسيأتي إن شاء الله القول في الكلام، «ذو رحمة وحنان». أي: قد اتصف بالرحمة وعمَّ خلقه بالنعم وشملهم بالكرم والبر والحنان والجود والامتنان.

هـو أول هـو آخـر هـو ظاهر ... هـو باطـن هـي أربـع بـوزان

مـا قبلـه شـيء كـذا مـا بعده ... شـيء تعالى الله ذو السـلطان

مـا فوقه شـيء كـذا مـا دونه ... شـيء وذا تفسـير ذي البرهـان

فانظـر إلـى تفسـيره بتدبـر ... وتـبـصـر وتـعـقـل لـمـعـانـي

وانظر إلى مـا فيه من أنواع معـ ... ـرفة لخالقنـا العظيـم الشـان

أي: هذا التفسير لهذه الأسماء الأربعة المباركة قد فسرها به النبي ﷺ بقوله: «**أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»[1] إلى آخر الحديث، ففسر كل اسم بمعناه العظيم، ونفى عنه ما يضاده وينافيه، فتدبر هذه المعاني الجليلة الدالة على تفرد الرب العظيم بالكمال المطلق والإحاطة المطلقة الزمانية في قوله: (الأول والآخر) والمكانية في (الظاهر والباطن).

فالأول: يدل على أن كل ما سواه حادث بعد أن لم يكن، ويوجب للعبد أن يلحظ فضل ربه في كل نعمة دينية أو دنيوية؛ إذ السبب والمسبب منه تعالى.

والآخر: يدل على أنه هو الغاية والصمد الذي تصمد إليه المخلوقات بتألهها ورغبتها ورهبتها وجميع مطالبها.

---

(١) تقدم تخريجه ص٥٠٣.

والظاهر: يدل على عظمة صفاته واضمحلال كل شيء عند عظمته من ذوات وصفات، وعلى علوه.

والباطن: يدل على اطلاعه على السرائر والضمائر والخبايا والخفايا ودقائق الأشياء، كما يدل على كمال قربه ودنوه. ولا يتنافى الظاهر والباطن؛ لأن الله ليس كمثله شيء في كل النعوت.

وهو العلي فكل أنواع العلوّ له فثابتة بلا نكران

في القرآن من أسمائه الحسنى (العلي الأعلى) وذلك دال على أن جميع معاني العلو ثابتة لله من كل وجه، فله علو الذات فإنه فوق المخلوقات، وعلى العرش استوى؛ أي: علا وارتفع. وله علو القدر: هو علو صفاته وعظمتها فلا يماثله صفة مخلوق، بل لا يقدر الخلائق كلهم أن يحيطوا ببعض معاني صفة واحدة من صفاته، قال تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. وبذلك يعلم أنه ليس كمثله شيء في كل نعوته.

وله علو القهر، فإنه الواحد القهار الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلهم، فنواصيهم بيده، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممانع، وما لم يشأ لم يكن، فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشأه الله لم يقدروا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعوه، وذلك لكمال اقتداره ونفوذ مشيئته وشدة افتقار المخلوقات كلها إليه من كل وجه.

وهو العظيم بكل معنى يوجب التـ ـعظيم لا يحصيه من إنسان

يريد أن الله تعالى عظيم له كل وصف ومعنى يوجب التعظيم، فلا يقدر مخلوق أن يثني عليه؛ كما ينبغي له ولا يحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده.

واعلم أن معاني التعظيم الثابتة لله وحده نوعان: **أحدهما**: أنه موصوف بكل صفة كمال وله من ذلك الكمال أكمله وأعظمه وأوسعه، فله العلم المحيط والقدرة النافذة والكبرياء والعظمة، ومن عظمته أن السماوات والأرض في كف الرحمن أصغر من الخردلة كما قال ذلك ابن عباس

وغيره، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١]. وقال تعالى وهو العلي العظيم: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ [الشورى: ٥] الآية. وفي الصحيح عنه ﷺ أن الله يقول: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما عذبته**»[1]؛ فلله تعالى الكبرياء والعظمة، الوصفان اللذان لا يقدر قدرهما ولا يبلغ كنههما.

النوع الثاني من معاني عظمته تعالى: أنه لا يستحق أحد من الخلق أن يعظم كما يعظم الله، فيستحق جل جلاله من عباده أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته والذل له والانكسار له والخضوع لكبريائه والخوف منه وإعمال اللسان بالثناء عليه وقيام الجوارح بشكره وعبوديته.

ومن تعظيمه أن يتقى حق تقاته، فيطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر. ومن تعظيمه تعظيم ما حرمه وشرعه من زمان ومكان وأعمال ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. و﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠]. ومن تعظيمه ألا يعترض على شيء مما خلقه أو شرعه.

وهو الجليل فكل أوصاف الجلا ... ل له محققة بلا بطلان

وهو الجميل على الحقيقة كيف لا ... وجمال سائر هذه الأكوان

من بعض آثار الجميل فربها ... أولى وأجدر عند ذي العرفان

فجماله بالذات والأوصاف والـ ... أفعال والأسماء بالبرهان

لا شيء يشبه ذاته وصفاته ... سبحانه عن إفك ذي بهتان

يعني أن الله تعالى هو (الجليل) الذي له أوصاف الجلال، وهي أوصاف العظمة والكبرياء

(١) تقدم تخريجه ص٥١٠.

ثابتة محققة لا يفوته منها وصف جلال وكمال، وكذلك هو (الجميل) بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا يمكن مخلوقًا أن يعبر عن بعض جمال ذاته، حتى إن أهل الجنة مع ما هم فيه من النعيم المقيم واللذات والسرور والأفراح التي لا يقدر قدرها إذا رأوا ربهم وتمتعوا بجماله نسوا ما هم فيه من النعيم، وتلاشى ما هم فيه من الأفراح، وودوا أن لو تدوم هذه الحال، واكتسبوا من جماله ونوره جمالًا إلى جمالهم، وكانت قلوبهم في شوق دائم ونزوع إلى رؤية ربهم، ويفرحون بيوم المزيد فرحًا تكاد تطير له القلوب.

وكذلك هو الجميل في أسمائه فإنها كلها حسنى بل أحسن الأسماء على الإطلاق وأجملها، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. فكلها دالة على غاية الحمد والمجد والكمال، لا يسمى باسم منقسم إلى كمال وغيره.

وكذلك هو الجميل في أوصافه، فإن أوصافه كلها أوصاف كمال ونعوت ثناء وحمد؛ فهي أوسع الصفات وأعمها وأكثرها تعلقًا، خصوصًا أوصاف الرحمة والبر والكرم والجود. وكذلك أفعاله كلها جميلة، فإنها دائرة بين أفعال البر والإحسان التي يحمد عليها ويثنى عليه ويشكر، وبين أفعال العدل التي يحمد عليها لموافقتها للحكمة والحمد، فليس في أفعاله عبث ولا سفه ولا سدى ولا ظلم، كلها خير وهدى ورحمة ورشد وعدل ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] فلكماله الذي لا يحصي أحد عليه به ثناء كملت أفعاله كلها فصارت أحكامه من أحسن الأحكام، وصنعه وخلقه أحسن خلق وصنع: أتقن ما صنعه ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. وأحسن ما خلقه ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ثم استدل المصنف بدليل عقلي على جمال الباري، وأن الأكوان محتوية على أصناف الجمال، وجمالها من الله تعالى فهو الذي كساها الجمال وأعطاها الحسن، فهو أولى منها لأن معطي الجمال أحق بالجمال، فكل جمال في الدنيا والآخرة باطني وظاهري،

خصوصًا ما يعطيه المولى لأهل الجنة من الجمال المفرط في رجالهم ونسائهم، فلو بدا كَفٌّ واحدة من الحور العين إلى الدنيا لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، أليس الذي كساهم ذلك الجمال ومَنّ عليهم بذلك الحسن والكمال أحق منهم بالجمال الذي ليس كمثله شيء؟!

فهذا دليل عقلي واضح مسلم المقدمات على هذه المسألة العظيمة وعلى غيرها من صفاته قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]. فكل ما وجد في المخلوقات من كمال لا يستلزم نقصًا؛ فإن معطيه وهو الله أحق به من المعطى بما لا نسبة بينه وبينهم، كما لا نسبة لذواتهم إلى ذاته وصفاتهم إلى صفاته، فالذي أعطاهم السمع والبصر والحياة والعلم والقدرة والجمال أحق منهم بذلك، وكيف يعبر أحد عن جماله وقد قال أعلم الخلق به: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[1]. وقال «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[2] فسبحان الله وتقدس عما يقوله الظالمون النافون لكماله علوًّا كبيرًا، وحسبهم مقتًا وخسارًا أنهم حرموا من الوصول إلى معرفته والابتهاج بمحبته.

وجمع المؤلف بين الجليل والجميل؛ لأن تمام التعبد لله هو التعبد بهذين الاسمين الكريمين، فالتعبد بالجليل يقتضي تعظيمه وخوفه وهيبته وإجلاله، والتعبد باسمه الجميل يقتضي محبته والتأله له وأن يبذل العبد له خالص المحبة وصفو الوداد بحيث يسيح القلب في رياض معرفته وميادين جماله، ويبتهج بما يحصل له من آثار جماله وكماله فإن الله ذو الجلال والإكرام.

وهو المجيد صفاته أوصاف تعـ ... ـظيم فشأن الوصف أعظم شان

(المجيد) الذي له المجد العظيم، والمجد هو عظمة الصفات وسعتها، فكل وصف من

(١) تقدم تخريجه ص٥١٢.

(٢) تقدم تخريجه ص٥١٢.

أوصافه عظيم شأنه: فهو العليم الكامل في علمه، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يعجزه شيء، الحليم الكامل في حلمه، الحكيم الكامل في حكمته، إلى بقية أسمائه وصفاته.

وهو السميع يرى ويسمع كل ما ... في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر ... فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفى عليه بعيدها والدان
وهو البصير يرى دبيب النملة الـ ... ـسوداء تحت الصخر والصوان
ويرى مجاري القوت في أعضائها ... ويرى نياط عروقها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها ... ويرى كذاك تقلب الأجفان

هذه الأبيات في شرح هذين الاسمين الكريمين (السميع، البصير) وكثيرًا ما يقرن الله بينهما مثل قوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] فكل من السمع والبصر محيط بجميع متعلقاته الظاهرة والباطنة، فالسميع الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات، فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها سرها وعلنها وكأنها لديه صوت واحد، لا تختلط عليه الأصوات، ولا تخفى عليه جميع اللغات، والقريب منها والبعيد والسر والعلانية عنده سواء ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]. ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. قالت عائشة رضي الله عنها: «تبارك الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشتكي إلى رسول الله ﷺ وأنا في جانب الحجرة وإنه ليخفى علي بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ الآية. وسمعه تعالى نوعان:

أحدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة الخفية والجلية، وإحاطته التامة بها.

الثاني: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيجيبهم ويثيبهم، ومنه قوله

تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]. وقول المصلي: (سمع الله لمن حمده) أي استجاب.

ثم قال المصنف « وهو البصير » أي الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسماوات، حتى أخفى ما يكون فيها فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وجميع أعضائها الباطنة والظاهرة وسريان القوت في أعضائها الدقيقة، ويرى سريان المياه في أغصان الأشجار وعروقها وجميع النباتات على اختلاف أنواعها وصغرها ودقتها، ويرى نياط عروق النملة والنحلة والبعوضة وأصغر من ذلك، فسبحان من تحيرت العقول في عظمة وسعة متعلقات صفاته وكمال عظمته ولطفه وخبرته بالغيب والشهادة والحاضر والغائب ويرى خيانات الأعين وتقلبات الأجفان وحركات الجنان، قال تعالى ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨ - ٢٢٠]. ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]. أي: مطلع ومحيط علمه وبصره وسمعه بجميع الكائنات.

وهـو العليم أحـاط علمًا بالذي	في الكـون من سـر ومن إعلان
وبـكل شـيء علمـه سـبحانه	فهـو المحيط وليس ذا نسـيان
وكـذاك يعلم ما يكـون غدًا وما	قـد كان والموجـود في ذا الآن
وكذاك أمر لـم يكن لو كان كيـ	ـف يـكـون ذا إمـكـان

هذا تفسير لاسمه (العليم) بأحسن تفسير وأجمعه، فهو العليم المحيط علمه بكل شيء: بالواجبات والممتنعات والممكنات، فيعلم تعالى نفسه الكريمة ونعوته المقدسة وأوصافه العظيمة، وهي الواجبات التي لا يمكن إلا وجودها، ويعلم الممتنعات حال امتناعها، ويعلم ما يترتب على وجودها لو وجدت. كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقال تعالى ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]. فهذا وشبهه من ذكر علمه بالممتنعات التي يعلمها،

وإخباره بما ينشأ عنها لو وجدت على وجه الفرض والتقدير، ويعلم تعالى الممكنات، وهي التي يجوز وجودها وعدمها ما وجد منها وما لم يوجد مما لم تقتض الحكمة إيجاده، فهو العليم الذي أحاط علمه بالعالم العلوي والسفلي لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان، ويعلم الغيب والشهادة والظواهر والبواطن، والجلي والخفي. قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [الأنفال: ٧٥]. والنصوص في ذكر إحاطة علم الله وتفصيل دقائق معلوماته كثيرة جدًّا لا يمكن حصرها وإحصاؤها، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه لا يغفل ولا ينسى، وأن علوم الخلائق على سعتها وتنوعها إذا نسبت إلى علم الله اضمحلت وتلاشت كما أن قدرهم إذا نسبت إلى قدرة الله لم يكن لها نسبة إليها بوجه من الوجوه، فهو الذي علمهم ما لم يكونوا يعلمون، وأقدرهم على ما لم يكونوا عليه قادرين. وكما أن علمه محيط بجميع العالم العلوي والسفلي وما فيه من المخلوقات ذواتها وأوصافها وأفعالها وجميع أمورها فهو يعلم ما كان وما يكون في المستقبلات التي لا نهاية لها، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ويعلم أحوال المكلفين منذ أنشأهم وبعدما يميتهم وبعدما يحييهم، قد أحاط علمه بأعمالهم كلها خيرها وشرها، وجزاء تلك الأعمال وتفاصيل ذلك في دار القرار.

فصل

وهــو الحميد فــكل حمد واقع ... أو كان مفروضًــا مــدى الأزمان

مــلأ الوجــود جميعــه ونظيــره ... مــن غيــر ما عــد ولا حســبان

هــو أهلــه ســبحانه وبحمــده ... كل المحامد وصف ذي الإحســان

هذا تفسير لاسمه (الحميد) فذكر أنه حميد من وجهين:

أحدهما: أن جميع المخلوقات ناطقة بحمده، فكل حمد وقع من أهل السماوات والأرض الأولين منهم والآخرين، وكل حمد يقع منهم في الدنيا والآخرة، وكل حمد لم يقع منهم بل كان مفروضًا ومقدرًا حيثما تسلسلت الأزمان واتصلت الأوقات، حمدًا يملأ الوجود كله العالم العلوي والسفلي، ويملأ نظير الوجود من غير عد ولا إحصاء، فإن الله تعالى مستحقه من وجوه كثيرة؛ منها: أن الله هو الذي خلقهم ورزقهم وأسدى عليهم النعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية، وصرف عنهم النقم والمكاره، فما بالعباد من نعمة فمن الله، ولا يدفع الشرور إلا هو، فيستحق منهم أن يحمدوه في جميع الأوقات، وأن يثنوا عليه ويشكروه بعدد اللحظات.

الوجه الثاني: أنه يحمد على ما له من الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا والمدائح والمحامد والنعوت الجليلة الجميلة، فله كل صفة كمال وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها، فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل الحمد والثناء فكيف بجميع الأوصاف المقدسة، فله الحمد لذاته، وله الحمد لصفاته، وله الحمد لأفعاله؛ لأنها دائرة بين أفعال الفضل والإحسان، وبين أفعال العدل والحكمة التي يستحق عليها كمال

الحمد، وله الحمد على خلقه وعلى شرعه وعلى أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية وأحكام الجزاء في الأولى والآخرة، وتفاصيل حمده وما يحمد عليه لا تحيط بها الأفكار ولا تحصيها الأقلام.



فصل

وهو المكلم عبده موسى بتكـ ـليم الخطاب وقبله الأبوان

كلماته جلت عن الإحصاء والـ ـتعداد بل عن حصر ذي الحسبان

لو أن أشجار البلاد جميعها الـ أقلام تكتبها بكل بنان

والبحر تلقى فيه سبعة أبحر لكتابة الكلمات كل زمان

نفدت ولم تنفد بها كلماته ليس الكلام من الإله بفان

يعني أنه تبارك وتعالى متكلم إذا شاء وكيف شاء، ولم يزل ولا يزال بصفة الكلام معروفًا موصوفًا، وكلامه تعالى من صفاته الذاتية الفعلية غير مخلوق كسائر صفات أفعاله، قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. وذكر كلامه للأبوين في عدة مواضع من كتابه قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [لقمان: ٢٧]. ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف: ١٠٩]. فالكلام متعلقاته عامة عظيمة، يتكلم تعالى بما يتعلق بذاته وصفاته وأفعاله وبما يتعلق بجميع مخلوقاته، بالأحكام القدرية والأحكام الشرعية وأحكام الجزاء، وكلماته كلها عدل وصدق: صدق في الأخبار ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢]. وعدل في الأوامر والنواهي، والقرآن العظيم من أجلّ كلامه وأشرفه وأعلاه، وكذلك الكتب التي أنزلها على رسله.

ويكلم عباده وتكليمه إياهم نوعان: نوع بلا واسطة كما كلم موسى بن عمران ﷺ والأبوين، وكما خاطب محمدًا ﷺ ليلة أسري به إليه، وكما يخاطب أهل الموقف وأهل

الجنة في الجنة حين يرونه ويكلمهم ويكلمونه.

والنوع الثاني: تكليمه لعباده بواسطة؛ إما بالوحي الخاص للأنبياء، وإما بإرساله إليهم رسولًا يكلمهم من أمره بما يشاء. وقد ذكر الله هذه الأنواع في قوله ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

واعلم أن صفة الكلام من صفاته الذاتية من حيث تعلقها وقيامها بذاته واتصافه بها، ومن صفاته الفعلية من حيث تعلقها بقدرته ومشيئته، فإذا كان من المعلوم أن الله لم يزل ولا يزال كامل القدرة نافذ المشيئة علم أنه لم يزل ولا يزال متكلمًا إذا شاء؛ لأن الكلام من أعظم صفات الكمال التي يستحيل نفيها عن الله تعالى، وكلماته غير متناهية فلا تفنى ولا تبيد، ولم يقدر الله حق قدره من زعم أن كلامه مخلوق في جملة المخلوقات التي تنتهي، وتصور هذا القول كاف في ردّه.

وهو القدير فليس يعجزه إذا ... ما رام شيئًا قط ذو سلطان
وهو القوي له القوى جمعًا تعا ... لى الله ذو الأكوان والسلطان
وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنى يرام جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معاني
وهي التي كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصان

هذه الأسماء الثلاثة العظيمة (القدير، القوي، العزيز) معانيها متقاربة، فهو تعالى كامل القوة عظيم القدرة شامل العزة ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥]. فمعاني العزة الثلاثة كلها كاملة لله العظيم: عزة القوة الدال عليها من أسمائه القوي المتين، وهي وصفه العظيم الذي لا تنسب إليه قوة المخلوقات وإن عظمت، وعزة الامتناع فإنه هو الغني بذاته فلا يحتاج إلى أحد ولا يبلغ العباد ضره فيضروه ولا نفعه فينفعوه، بل هو الضار النافع المعطي المانع،

وعزة القهر والغلبة لكل الكائنات فهي كلها مقهورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته، فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا به، فمن قوته واقتداره أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأنه خلق الخلق ثم يميتهم ثم يحييهم ثم إليه يرجعون ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨]. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].

ومن آثار قدرته أنك ترى الأرض هامدة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ومن آثار قدرته ما أوقعه بالأمم المكذبين والكفار الظالمين من أنواع العقوبات وحلول المثلات، وأنه لم يغن عنهم كيدهم ومكرهم ولا أموالهم ولا جنودهم ولا حصونهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، وما زادهم غير تتبيب، وخصوصًا في هذه الأوقات، فإن هذه القوة الهائلة والمخترعات الباهرة التي وصلت إليها مقدرة هذه الأمم هي من إقدار الله لهم وتعليمه لهم ما لم يكونوا يعلمونه، فمن آيات الله أن قواهم وقدرهم ومخترعاتهم لم تغن عنهم شيئًا في صد ما أصابهم من النكبات والعقوبات المهلكة، مع بذل جدهم واجتهادهم في توقي ذلك ولكن أمر الله غالب، وقدرته تنقاد لها عناصر العالم العلوي والسفلي.

ومن تمام عزته وقدرته وشمولهما أنه كما أنه هو الخالق للعباد فهو خالق أعمالهم وطاعتهم ومعاصيهم، وهي أيضًا أفعالهم، فهي تضاف إلى الله خلقًا وتقديرًا وتضاف إليهم فعلًا ومباشرة على الحقيقة، ولا منافاة بين الأمرين، فإن الله خالق قدرتهم وإرادتهم، وخالق السبب التام خالق للمسبب، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦].

ومن آثار قدرته ما ذكره في كتابه من نصره أولياءه على قلة عَددهم وعُددهم على أعدائهم الذين فاقوهم بكثرة العدد والعُدة، قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ومن آثار قدرته ورحمته ما يحدثه لأهل النار وأهل الجنة من أنواع

العقاب وأصناف النعيم المستمر الكثير المتتابع الذي لا ينقطع ولا يتناهى.

وهو الغني بذاته فغناه ذا	تيٌّ له كالجود والإحسان

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].
فهو تعالى (الغني) الذي له الغنى التام المطلق من كل الوجوه لكماله وكمال صفاته التي لا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنيًّا فإن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا محسنًا جوادًا برًّا رحيمًا كريمًا، والمخلوقات بأسرها لا تستغني عنه في حال من أحوالها، فهي مفتقرة إليه في إيجادها وفي بقائها وفي كل ما تحتاجه أو تضطر إليه، ومن سعة غناه أن خزائن السماوات والأرض والرحمة بيده، وأن جوده على خلقه متواصل في جميع اللحظات والأوقات، وأن يده سحاء الليل والنهار، وخيره على الخلق مدرار.

ومن كمال غناه وكرمه أنه يأمر عباده بدعائه ويعدهم بإجابة دعواتهم وإسعافهم بجميع مراداتهم ويؤتيهم من فضله ما سألوه وما لم يسألوه، ومن كمال غناه أنه لو اجتمع أول الخلق وآخرهم في صعيد واحد فسألوه فأعطى كلًّا منهم ما سأله وما بلغت أمانيه ما نقص من ملكه مثقال ذرة.

ومن كمال غناه وسعة عطاياه ما يبسطه على أهل دار كرامته من النعيم واللذات المتتابعات والخيرات المتواصلات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ومن كمال غناه أنه لم يتخذ صاحبة، ولا ولدًا ولا شريكًا في الملك ولا وليًّا من الذل، فهو الغني الذي كمل بنعوته وأوصافه، المغني لجميع مخلوقاته.

وهو الحكيم وذاك من أوصافه	نوعان أيضًا ما هما عدمان
حكم وأحكام فكل منهما	نوعان أيضًا ثابتا البرهان
والحكم شرعي وكوني ولا	يتلازمان وما هما سيان
بل ذاك يوجد دون هذا مفردًا	والعكس أيضًا ثم يجتمعان

لـن يخلو المربوب مـن إحداهما ... أو منهما بـل ليـس ينتفيـان

لكنمـا الشـرعي محبـوب لـه ... أبـدًا ولـن يخلو مـن الأكوان

هو أمـره الديني جاءت رسـله ... بقيامـه فـي سـائر الأزمـان

لكنمـا الكونـي فهـو قضـاؤه ... فـي خلقـه بالعدل والإحسـان

هـو كلـه حـق وعـدل ذو رضا ... والشـأن في المقضي كل الشان

فلذاك نرضـى بالقضاء ونسـخط الـ ... ـمقضي حين يكـون بالعصيان

فاللـه يرضـى بالقضاء ويسـخط الـ ... ـمقضي مـا الأمـران متحدان

فقضـاؤه صفة بـه قامت وما الـ ... مـقـضي إلا صـنـعـة الإنـسـان

والكـون محبـوب ومبغوض له ... وكلاهمـا بمشـيئة الرحمن

هـذا البيان يزيـل لبسًـا طالما ... هلكـت عليـه النـاس كل زمان

ويحل ما قـد عقـدوا بأصولهم ... وبحوثهـم فافهمـه فهـم بيـان

من وافـق الكوني وافق سـخطه ... أو لـم يوافـق طاعـة الرحمـن

فلـذاك لا يعـدوه ذم أو فـوا ... ت الحمد مـع أجر ومع رضوان

وموافـق الدينـي لا يعدوه أجـ ... ـر بل لـه عند الصـواب اثنان

فصل

والحكمـة العليـا علـى نوعين أيـ ... ـضًا حصّـلا بقواطـع البرهان

إحداهمـا فـي خلقـه سـبحانه ... نوعـان أيضًـا ليـس يفترقـان

إحـكام هـذا الخلـق إذ إيجاده ... فـي غايـة الإحـكام والإتقـان

وصـدوره من أجـل غايـات له ... ولـه عليهـا حمـد كل لسـان

والحكمـة الأخرى فحكمة شـرعه ... أيضًـا وفيهـا ذانـك الوصفـان

غاياتهـا اللائي حمـدن وكونها ... فـي غايـة الإحـكام والإتقـان

أي هو تعالى (الحكيم) الموصوف بكمال الحكمة وبكمال الحكم بين المخلوقات، فالحكيم هو واسع العلم والاطلاع على مبادئ الأمور وعواقبها، واسع الحمد تام القدرة غزير الرحمة فهو الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها في خلقه وأمره، فلا يتوجه إليه سؤال، ولا يقدح في حكمته مقال.

وحكمته نوعان: **أحدهما**: الحكمة في خلقه، فإنه خلق الخلق بالحق ومشتملًا على الحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، بل أعطى كل جزء من أجزاء المخلوقات وكل عضو من أعضاء الحيوانات خلقته وهيئته، فلا يرى أحد في خلقه خللًا ولا نقصًا ولا فطورًا، فلو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلى آخرهم ليقترحوا مثل خلق الرحمن أو ما يقارب ما أودعه في الكائنات من الحسن والانتظام والإتقان لم يقدروا، وأنى لهم القدرة على شيء من ذلك وحسب العقلاء الحكماء منهم أن يعرفوا كثيرًا من حكمه، ويطلعوا على بعض ما فيها من الحسن والإتقان. وهذا أمر معلوم قطعًا بما يعلم من عظمته وكمال صفاته وتتبع حكمه في الخلق والأمر، وقد تحدى عباده وأمرهم أن ينظروا ويكرروا النظر والتأمل هل يجدون في خلقه خللًا أو نقصًا، وأنه لا بد أن ترجع الأبصار كليلة عاجزة عن الانتقاد على شيء من مخلوقاته.

النوع الثاني: الحكمة في شرعه وأمره، فإنه تعالى شرع الشرائع وأنزل الكتب وأرسل الرسل ليعرفه العباد ويعبدوه، فأي حكمة أجل من هذا، وأي فضل وكرم أعظم من هذا؟ فإن معرفته تعالى وعبادته وحده لا شريك له وإخلاص العمل له وحمده وشكره والثناء عليه أفضل العطايا منه لعباده على الإطلاق، وأجلُّ الفضائل لمن يَمُنُّ الله عليه بها، وأكمل سعادة وسرور للقلوب والأرواح، كما أنها هي السبب الوحيد للوصول إلى السعادة الأبدية والنعيم

الدائم، فلو لم يكن في أمره وشرعه إلا هذه الحكمة العظيمة التي هي أصل الخيرات، وأكمل اللذات، ولأجلها خلقت الخليقة وحق الجزاء وخلقت الجنة والنار، لكانت كافية شافية.

هذا وقد اشتمل شرعه ودينه على كل خير، فأخباره تملأ القلوب علمًا ويقينًا وإيمانًا وعقائد صحيحة، وتستقيم بها القلوب ويزول انحرافها، وتثمر كل خلق جميل وعمل صالح وهدى ورشد، وأوامره ونواهيه محتوية على غاية الحكمة والصلاح والإصلاح للدين والدنيا، فإنه لا يأمر إلا بما مصلحته خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما مضرته خالصة أو راجحة.

ومن حكمة الشرع الإسلامي أنه كما أنه هو الغاية لصلاح القلوب والأخلاق والأعمال والاستقامة على الصراط المستقيم، فهو الغاية لصلاح الدنيا، فلا تصلح أمور الدنيا صلاحًا حقيقيًّا إلا بالدين الذي جاء به محمد ﷺ، وهذا مشاهد محسوس لكل عاقل، فإن أمة محمد لما كانوا قائمين بهذا الدين أصوله وفروعه وجميع ما يهدي ويرشد إليه؛ كانت أحوالهم في غاية الاستقامة والصلاح، ولما انحرفوا عنه وتركوا كثيرًا من هداه ولم يسترشدوا بتعاليمه العالية؛ انحرفت دنياهم كما انحرف دينهم. وكذلك انظر إلى الأمم الأخرى التي بلغت في القوة والحضارة والمدنية مبلغًا هائلًا، لكن لما كانت خالية من روح الدين ورحمته وعدله كان ضررها أعظم من نفعها وشرها أكبر من خيرها، وعجز علماؤها وحكماؤها وساستها عن تلافي الشرور الناشئة عنها، ولن يقدروا على ذلك ما داموا على حالهم. ولهذا كان من حكمته تعالى أن ما جاء به محمد ﷺ من الدين والقرآن أكبر البراهين على صدقه وصدق ما جاء به، لكونه محكمًا كاملًا لا يحصل الصلاح إلا به.

وبالجملة فالحكيم متعلقاته المخلوقات والشرائع، وكلها في غاية الإحكام، فهو الحكيم في أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية، والفرق بين أحكام القدر وأحكام الشرع أن القدر متعلق بما أوجده وكونه وقدره، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وأحكام الشرع متعلقة بما شرعه، والعبد المربوب لا يخلو منهما أو من أحدهما، فمن فعل منهم ما يحبه الله ويرضاه فقد اجتمع فيه الحكمان، ومن فعل ما يضاد ذلك فقد وجد فيه الحكم

القدري، فإن ما فعله واقع بقضاء الله وقدره، ولم يوجد فيه الحكم الشرعي لكونه ترك ما يحبه الله ويرضاه. فالخير والشر والطاعات والمعاصي كلها متعلقة وتابعة للحكم القدري، وما يحبه الله منها هو تابع للحكم الشرعي ومتعلقه. والله أعلم.

وهو الحيي فليس يفضح عبده — عند التجاهر منه بالعصيان

لكنه يلقي عليه ستره — فهو الستير وصاحب الغفران

هذا مأخوذ من قوله ﷺ: «**إن الله حيي يستحي من عبده إذا مد يديه إليه أن يردهما صفرًا**»[1]. وهذا من رحمته وكرمه وكماله وحلمه أن العبد يجاهره بالمعاصي مع فقره الشديد إليه حتى إنه لا يمكنه أن يعصي إلا أن يتقوى عليها بنعم ربه، والرب مع كمال غناه عن الخلق كلهم من كرمه يستحيي من هتكه وفضيحته وإحلال العقوبة به، فيستره بما يقيض له من أسباب الستر، ويعفو عنه ويغفر له، فهو يتحبب إلى عباده بالنعم وهم يتبغضون إليه بالمعاصي، خيره إليهم بعدد اللحظات نازل، وشرهم إليه صاعد، ولا يزال الملك الكريم يصعد إليه منهم بالمعاصي وكل قبيح، ويستحيي تعالى ممن شاب في الإسلام أن يعذبه وممن يمد يديه إليه أن يردهما صفرًا، ويدعو عباده إلى دعائه ويعدهم بالإجابة.

وهو الحيي الستير يحب أهل الحياء والستر، ومن ستر مسلمًا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، ولهذا يكره من عبده إذا فعل معصية أن يذيعها، بل يتوب إليه فيما بينه وبينه ولا يظهرها للناس، وإن من أمقت الناس إليه من بات عاصيًا والله يستره فيصبح يكشف ستر الله عليه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]. وهذا كله من معنى اسمه (الحليم) الذي وسع حلمه أهل الكفر والفسوق والعصيان، ومنع عقوبته أن تحل بأهل الظلم عاجلًا، فهو يمهلهم ليتوبوا، ولا يهملهم إذا أصروا واستمروا في طغيانهم ولم ينيبوا، ولهذا قال:

---

(١) تقدم تخريجه ص٥٤٨.

وهـو الحليم فـلا يعاجل عبده ... بعقوبـة ليتـوب مـن عصيـان

وهـو العفو فعفوه وسـع الورى ... لـولاه غـار الأرض بالسـكان

يعني أنه تعالى (الحليم) الذي له الحلم الكامل، (العفو) الذي له العفو الشامل، ومتعلق هذين الوصفين العظيمين معصية العاصين وظلم المجرمين، فإن الذنوب تقتضي ترتب آثارها عليها من العقوبات العاجلة المتنوعة، وحلمه تعالى يقتضي إمهال العاصين وعدم معاجلتهم ليتوبوا، وعفوه يقتضي مغفرة ما صدر منهم من الذنوب، خصوصًا إذا أتوا بأسباب المغفرة من الاستغفار والتوبة والإيمان والأعمال الصالحة، وحلمه وسع السماوات والأرض، فلولا عفوه ما ترك على ظهرها من دابة، وهو تعالى عفو يحب العفو عن عباده، ويحب منهم أن يسعوا بالأسباب التي ينالون بها عفوه، من السعي في مرضاته والإحسان إلى خلقه، ومن كمال عفوه أن المسرفين على أنفسهم إذا تابوا إليه غفر لهم كل جرم صغير وكبير، وأنه جعل الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها.

وهـو الصبور علـى أذى أعدائه ... شـتموه بـل نسبوه للبهتـان

قالـوا لـه ولـد وليـس يعيدنا ... شـتمًا وتكذيبًـا مـن الإنسـان

هـذا وذاك بسـمعه وبعلمه ... لـو شـاء عاجلهـم بـكل هوان

لكـن يعافيهـم ويرزقهـم وهم ... يـؤذونـه بـالـشـرك والـكـفـران

وهذه الأبيات في تفسير اسمه (الصبور) مأخوذة من قوله ﷺ في الحديث الصحيح «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يجعلون له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم**»[1]. وبما ثبت أيضًا في الصحيح قال الله تعالى: «**كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله إن لي ولدًا وأنا الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له**

---

(١) تقدم تخريجه ص٥٥٠.

كفوًا أحد»[1]. فالله تعالى يدر على عباده الأرزاق المطيع منهم والعاصي، والعصاة لا يزالون في محاربته وتكذيبه وتكذيب رسله والسعي في إطفاء دينه، والله تعالى حليم صبور على ما يقولون وما يفعلون، يتتابعون في الشرور وهو يتابع عليهم النعم، وصبره أكمل صبر؛ لأنه عن كمال قدرة وكمال غنى عن الخلق وكمال رحمة وإحسان، فتبارك الرب الرحيم الذي ليس كمثله شيء، الصبور الذي يحب الصابرين ويعينهم في كل أمورهم.

وهو الرقيب على الخواطر واللوا حظ كيف بالأفعال بالأركان

(الرقيب) و (الشهيد) مترادفان، وكلاهما يدل على إحاطة سمع الله بالمسموعات، وبصره بالمبصرات، وعلمه بجميع المعلومات الجلية والخفية، وهو الرقيب على ما دار في الخواطر، وما تحركت به اللواحظ، ومن باب أولى الأفعال الظاهرة بالأركان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]. ولهذا كانت المراقبة التي هي من أعلى أعمال القلوب هي التعبد لله باسمه الرقيب الشهيد، فمتى علم العبد أن حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاط الله بعلمها، واستحضر هذا العلم في كل أحواله، أوجب له ذلك حراسة باطنه عن كل فكر وهاجس يبغضه الله، وحفظ ظاهره عن كل قول أو فعل يسخط الله، وتعبد بمقام الإحسان فعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه.

وهو الحفيظ عليهمُ وهو الكفيـ ـل بحفظهم من كل أمر عان

ذكر رحمه الله (للحفيظ) معنيين: **أحدهما**: أنه قد حفظ على عباده ما عملوه من خير وشر وطاعة ومعصية، فإن علمه محيط بجميع أعمالهم ظاهرها وباطنها، وقد كتب ذلك في اللوح المحفوظ، ووكل بالعباد ملائكة كرامًا كاتبين يعلمون ما تفعلون، فهذا المعنى من حفظه يقتضي إحاطة علم الله بأحوال العباد كلها ظاهرها وباطنها وكتابتها في اللوح المحفوظ وفي الصحف التي في أيدي الملائكة، وعلمه بمقاديرها وكمالها ونقصها ومقادير جزائها في الثواب والعقاب ثم مجازاته عليها بفضله وعدله.

---

(١) تقدم تخريجه ص٥٥١.

والمعنى الثاني: من معنيي (الحفيظ) أنه تعالى الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون، ولهذا قال « وهو الكفيل بحفظهم من كل أمر عاني » أي مشق مكروه.

وحفظه لخلقه نوعان عام وخاص؛ **فالعام**: حفظه لجميع المخلوقات بتيسيره لها ما يُقيتها ويحفظ بنيتها، وتمشي إلى هدايته وإلى مصالحها بإرشاده وهدايته العامة التي قال عنها: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. أي هدى كل مخلوق إلى ما قدر له وقضى له من ضروراته وحاجاته؛ كالهداية للمأكل والمشرب والمنكح، والسعي في أسباب ذلك، وكدفعه عنهم أصناف المكاره والمضار، وهذا يشترك فيه البر والفاجر بل الحيوانات وغيرها، فهو الذي يحفظ السماوات والأرض أن تزولا، ويحفظ الخلائق بنعمه، وقد وكل بالآدمي حفظة من الملائكة الكرام يحفظونه من أمر الله، أي يدفعون عنه كل ما يضره مما هو بصدد أن يضره لولا حفظ الله.

والنوع الثاني: حفظه الخاص لأوليائه سوى ما تقدم، يحفظهم عما يضر إيمانهم أو يزلزل إيقانهم من الشبه والفتن والشهوات، فيعافيهم منها ويخرجهم منها بسلامة وحفظ وعافية، ويحفظهم من أعدائهم من الجن والإنس، فينصرهم عليهم ويدفع عنهم كيدهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]. وهذا عام في دفع جميع ما يضرهم في دينهم ودنياهم، فعلى حسب ما عند العبد من الإيمان تكون مدافعة الله عنه بلطفه، وفي الحديث: «**احفظ الله يحفظك**»[١]. أي: احفظ أوامره بالامتثال، ونواهيه بالاجتناب، وحدوده بعدم تعديها، يحفظك في نفسك ودينك ومالك وولدك، وفي جميع ما آتاك الله من فضله.

وهو اللطيف بعبده ولعبده ... واللطف في أوصافه نوعان

إدراك أسرار الأمور بخبرة ... واللطف عند مواقع الإحسان

فيريك عزته ويبدي لطفه ... والعبد في الغفلات عن ذا الشان

(١) الترمذي (٢٥١٦).

يعني أن (اللطيف) من أسمائه الحسنى وهو الذي يلطف بعبده في أموره الداخلية المتعلقة بنفسه، ويلطف لعبده في الأمور الخارجية عنه، فيسوقه ويسوق إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر، وهذا من آثار علمه وكرمه ورحمته، فلهذا كان معنى اللطيف أنه الخبير الذي أحاط علمه بالأسرار والبواطن والخبايا والخفايا ومكنونات الصدور ومغيبات الأمور وما لطف ودق من كل شيء.

النوع الثاني: لطفه بعبده ووليه الذي يريد أن يتم عليه إحسانه ويشمله بكرمه ويرقيه إلى المنازل العالية، فييسره لليسرى ويجنبه العسرى، ويجري عليه من أصناف المحن التي يكرهها وتشق عليه وهي عين صلاحه والطريق إلى سعادته، كما امتحن الأنبياء بأذى قومهم وبالجهاد في سبيله، وكما ذكر الله عن يوسف ﷺ وكيف ترقت به الأحوال ولطف الله به وله بما قدره عليه من تلك الأحوال التي حصل له في عاقبتها حسن العقبى في الدنيا والآخرة.

وكما يمتحن أولياءه بما يكرهونه لينيلهم ما يحبون، ولهذا قال المصنف «فيريك عزته» أي بامتحانك بما تكره، «ويبدي لطفه» في العواقب الحميدة السارة، فكم لله من لطف وكرم لا تدركه الأفهام ولا تتصوره الأوهام، وكم استشرف العبد على مطلوب من مطالب الدنيا من ولاية أو رياسة أو سبب من الأسباب المحبوبة، فيصرفه الله عنها ويصرفها عنه رحمة به لئلا تضره في دينه، فيظل العبد حزينًا من جهله وعدم معرفته بربه، ولو علم ما ذخر له في الغيب وأريد إصلاحه فيه لحمد الله وشكره على ذلك، فإن الله بعباده رءوف رحيم لطيف بأوليائه، وفي الدعاء المأثور «**اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغًا لي فيما تحب، اللهم الطف بنا في قضائك وبارك لنا في قدرك حتى لا نحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت**»[1].



(١) تقدم تخريجه ص٥٥٧.

فصل

وهو الرفيق يحب أهل الرفق بل يعطيهمُ بالرفق فوق أماني

هذا قد أخذه المؤلف من قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**إن الله رفيق يحب أهل الرفق**»[1]. وإن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، فالله تعالى رفيق في أفعاله، خلق المخلوقات كلها بالتدريج شيئًا فشيئًا بحسب حكمته ورفقه مع أنه قادر على خلقها دفعة واحدة وفي لحظة واحدة. ومن تدبر المخلوقات وتدبر الشرائع كيف يأتي بها شيئًا بعد شيء شاهد من ذلك العجب العجيب، فالمتأني الذي يأتي الأمور برفق وسكينة ووقار اتباعًا لسنن الله في الكون واتباعًا لنبيه ﷺ فإن هذا هديه وطريقه تتيسر له الأمور، وبالأخص الذي يحتاج إلى أمر الناس ونهيهم وإرشادهم فإنه مضطر إلى الرفق واللين، وكذلك من آذاه الخلق بالأقوال البشعة وصان لسانه عن مشاتمتهم، ودافع عن نفسه برفق ولين، اندفع عنه من أذاهم ما لا يندفع بمقابلتهم بمثل مقالهم وفعالهم، ومع ذلك فقد كسب الراحة والطمأنينة والرزانة والحلم.

وهو القريب وقربه المختص بالـ ـداعي وعابده على الإيمان

من أسمائه (القريب)، وقربه نوعان: **قرب عام**: وهو إحاطة علمه بجميع الأشياء، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، **وقرب خاص**: بالداعين والعابدين والمحبين، وهو قرب يقتضي المحبة والنصرة والتأييد في الحركات والسكنات، والإجابة للداعين، والقبول والإثابة للعابدين. قال تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ

(١) تقدم تخريجه ص٥٥٨.

دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وهـو المجيب يقول مـن يدعُو أجبـ ـه أنا المجيب لكل من ناداني

وهـو المجيب لدعـوة المضطر إذ يدعـوه فـي سـرٍّ وفـي إعلان

من أسمائه (المجيب) لدعوة الداعين وسؤال السائلين وعبادة المستجيبين، وإجابته نوعان: إجابة عامة لكل من دعاه دعاء عبادة أو دعاء مسألة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]. فدعاء المسألة أن يقول العبد: اللهم أعطني كذا أو اللهم ادفع عني كذا، فهذا يقع من البر والفاجر، ويستجيب الله فيه لكل من دعاه بحسب الحال المقتضية وبحسب ما تقتضيه حكمته.

وهذا يستدل به على كرم المولى وشمول إحسانه للبر والفاجر، ولا يدل بمجرده على حسن حال الداعي الذي أجيبت دعوته إن لم يقترن بذلك ما يدل عليه وعلى صدقه وتعين الحق معه، كسؤال الأنبياء ودعائهم لقومهم وعلى قومهم فيجيبهم الله، فإنه يدل على صدقهم فيما أخبروا به وكرامتهم على ربهم، ولهذا كان النبي ﷺ كثيرًا ما يدعو بدعاء يشاهد المسلمون وغيرهم إجابته، وذلك من دلائل نبوته وآيات صدقه.

وكذلك ما يذكرونه عن كثير من أولياء الله من إجابة الدعوات؛ فإنه من أدلة كراماتهم على الله، وأما الإجابة الخاصة فلها أسباب عديدة، منها دعوة المضطر الذي وقع في شدة وكربة عظيمة، فإن الله يجيب دعوته قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]. وسبب ذلك شدة الافتقار إلى الله وقوة الانكسار وانقطاع تعلقه بالمخلوقين، ولسعة رحمة الله التي يشمل بها الخلق بحسب حاجتهم إليها، فكيف بمن اضطر إليها، ومن أسباب الإجابة طول السفر والتوسل إلى الله بأحب الوسائل إليه من أسمائه وصفاته ونعمه، وكذلك دعوة المريض والمظلوم والصائم والوالد على ولده أو له وفي الأوقات والأحوال الشريفة.

وهـــو الجواد فجـــوده عم الوجو ... د جميعـــه بالفضـــل والإحســـان

وهو الجـــواد فلا يخيب ســـائلًا ... ولـــو انـــه مـــن أمـــة الكفـــران

يعني أنه تعالى (الجواد) المطلق الذي عم بجوده الكائنات، وملأها من فضله وكرمه ونعمه المتنوعة، وخص بجوده السائلين بلسان المقال أو لسان الحال من بر وفاجر ومسلم وكافر، فمن سأل الله أعطاه سؤله، وأناله ما طلب فإنه البر الرحيم ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣]. ومن جوده الواسع ما أعده لأوليائه في دار النعيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وهـــو المغيـــث لـــكل مخلوقاته ... وكـــذا يجيـــب إغاثـــة اللهفـــان

(فالمغيث) يتعلق بالشدائد والمشقات، فهو المغيث لجميع المخلوقات عندما تتعسر أمورها وتقع في الشدائد والكربات؛ يطعم جائعهم ويكسو عاريهم ويخلص مكروبهم وينزل الغيث عليهم في وقت الضرورة والحاجة، وكذلك يجيب إغاثة اللهفان أي دعاء من دعاه في حالة اللهف والشدة والاضطرار. فمن استغاثه أغاثه، وفي الكتاب والسنة من ذكر تفريجه للكربات وإزالته الشدائد وتيسيره للعسير شيء كثير جدًّا معروف.

فصل

وهو الودود يحبهم ويحبه — أحبابه والفضل للمنان

وهو الذي جعل المحبة في قلو — بهمُ وجازاهم بحب ثان

هذا هو الإحسان حقًّا لا معا — وضة ولا لتوقع الشكران

لكن يحب شكورهم وشكورهم — لا لاحتياج منه للشكران

وهو الشكور فلن يضيع سعيهم — لكن يضاعفه بلا حسبان

ما للعباد عليه حق واجب — هو أوجب الأجر العظيم الشان

كلا ولا عمل لديه ضائع — إن كان بالإخلاص والإحسان

إن عُذِّبوا فبعدله أو نعموا — فبفضله والحمد للمنان

هذه الأبيات في تفسير (الودود الشكور) فالودود هو المحب المحبوب بمعنى وادّ وبمعنى مودود، فهو الواد لأنبيائه وملائكته وعباده المؤمنين، وهو المحبوب لهم، بل لا شيء أحب إليهم منه، ولا تعادل محبة الله من أصفيائه محبة أخرى، لا في أصلها ولا في كيفيتها ولا في متعلقاتها، وهذا هو الفرض والواجب أن تكون محبة الله في قلب العبد سابقة لكل محبة، غالبة كل محبة، ويتعين أن تكون بقية المحاب تبعًا لها.

ومحبة الله هي روح الأعمال، وجميع العبودية الظاهرة والباطنة ناشئة عن محبة الله، ومحبة العبد لربه فضل من الله وإحسان، ليست بحول العبد ولا قوته فهو تعالى الذي أحب عبده فجعل المحبة في قلبه، ثم لما أحبه العبد بتوفيقه جازاه الله بحب آخر، فهذا هو الإحسان المحض على الحقيقة؛ إذ منه السبب ومنه المسبب، ليس المقصود منها المعاوضة وإنما ذلك

محبة منه تعالى للشاكرين من عباده ولشكرهم، فالمصلحة كلها عائدة إلى العبد، فتبارك الذي جعل وأودع المحبة في قلوب المؤمنين، ثم لم يزل ينميها ويقويها حتى وصلت في قلوب الأصفياء إلى حالة تتضاءل عندها جميع المحاب، وتسليهم عن الأحباب، وتهون عليهم المصائب، وتلذذ لهم مشقة الطاعات، وتثمر لهم ما يشاءون من أصناف الكرامات التي أعلاها محبة الله والفوز برضاه والأنس بقربه.

فمحبة العبد لربه محفوفة بمحبتين من ربه: فمحبة قبلها صار بها محبًّا لربه، ومحبة بعدها شكرًا من الله له على محبة صار بها من أصفيائه المخلصين.

وأعظم سبب يكتسب به العبد محبة ربه التي هي أعظم المطالب الإكثار من ذكره والثناء عليه، وكثرة الإنابة إليه، وقوة التوكل عليه، والتقرب إليه بالفرائض والنوافل، وتحقيق الإخلاص له في الأقوال والأفعال، ومتابعة النبي ﷺ ظاهرًا وباطنًا كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومن أسمائه تعالى (الشاكر الشكور) الذي لا يضيع سعي العاملين لوجهه، بل يضاعفه أضعافًا مضاعفة، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، وقد أخبر في كتابه وسنة نبيه بمضاعفة الحسنات؛ الواحدة بعشر إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، وذلك من شكره لعباده، فبعينه ما يتحمل المتحملون[1] لأجله ومن فعل لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن ترك شيئًا لأجله عوضه خيرًا منه، وهو الذي وفق المؤمنين لمرضاته ثم شكرهم على ذلك، وأعطاهم من كراماته ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكل هذا ليس حقًّا واجبًا عليه، وإنما هو الذي أوجبه على نفسه جودًا منه وكرمًا، ولهذا قال المصنف:

ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأجر العظيم الشان

(١) إشارة إلى ما جاء في بعض الآثار عن الله عز وجل: بعيني ما يتحمله المتحملون من أجلي... حسن الظن بالله (٩٠).

وهذا القيد الذي قيده المصنف أحسن من إطلاق من قال:

ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا سعي لديه ضائع

وكذلك تقييد المؤلف للسعي بقوله:

كلا ولا سعي لديه ضائع إن كان بالإخلاص والإحسان

أي جامعًا للإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، وبذلك يكون العمل صالحًا كما قال في موضع آخر:

وقيام دين الله بالإخلاص والـ إحسان إنهما له أصلان

فما أصاب العباد من النعم ودفع النقم فإنه من الله تعالى فضلًا منه وكرمًا، وإن نعمهم فبفضله وإحسانه، وإن عذبهم فبعدله وحكمته، وهو المحمود على جميع ذلك.

فصل

وهــو الغفــور فلو أتــي بقرابها	**من غير شــرك بل مــن العصيان**
لاقــاه بالغفــران مــلء قرابهــا	**ســبحانه هــو واســع الغفــران**
وكذلــك التــواب مــن أوصافه	**والتــوب فــي أوصافــه نوعــان**
إذنٌ بتوبـــة عبـــده وقبولهـــا	**بعــد المتــاب بمنــة المنــان**

فهو تعالى (الغفور التواب) الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب، ففي الحديث: «**إن الله يقول يابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة**»[1]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]. وقد فتح الله الأسباب لنيل مغفرته بالتوبة والاستغفار والإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى عباد الله والعفو عنهم وقوة الطمع في فضل الله وحسن الظن بالله وغير ذلك مما جعله الله مقربًا لمغفرته.

وتوبته على عبده نوعان: **أحدهما**: أنه يوقع في قلب عبده التوبة إليه والإنابة إليه، فيقوم بالتوبة وشروطها من الإقلاع عن المعاصي والندم على فعلها والعزم على ألا يعود إليها واستبدالها بعمل صالح، **والثاني**: توبته على عبده بقبولها وإجابتها ومحو الذنوب بها؛ فإن التوبة النصوح تجب ما قبلها.

---

(١) الترمذي (٣٥٤٠).

فصل

وهـو الإله السـيد الصمد الذي ... صمدت إليـه الخلـق بالإذعان

الكامل الأوصاف مـن كل الوجو ... ه كمالـه مـا فيـه مـن نقصان

هذا معنى اسمه (الصمد) المعنى الجامع الذي يدخل فيه كل ما فسر به هذا الاسم الكريم، فهو الصمد الذي تصمد إليه أي تقصده جميع المخلوقات بالذل والحاجة والافتقار، ويفزع إليه العالم بأسراره، وهو الذي قد كمل في علمه وحكمته وحلمه وقدرته وعظمته ورحمته وسائر أوصافه، فالصمد هو كامل الصفات، وهو الذي تقصده المخلوقات في كل الحاجات.

وكذلـك القهـار مـن أوصافـه ... فالخلـق مقهـورون بالسـلطان

لـو لـم يكن حيًّـا عزيـزًا قادرًا ... مـا كان مـن قهـر ولا سـلطان

(القهار) وهو الذي قهر جميع الكائنات، وذلت له جميع المخلوقات، ودانت لقدرته ومشيئته مواد وعناصر العالم العلوي والسفلي، فلا يحدث حادث ولا يسكن ساكن إلا بإذنه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وجميع الخلق فقراء إلى الله عاجزون، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ولا خيرًا ولا شرًّا. ثم ذكر المصنف أن قهره مستلزم لحياته وعزته وقدرته فلا يتم قهره للخليقة إلا بتمام حياته وقوة عزته واقتداره.

وكذلـك الجبـار مـن أوصافـه ... والجبـر فـي أوصافـه قسـمان

جبر الضعيـف وكل قلب قد غدا ... ذا كسـرة فالجبـر منـه دانـي

والثانِ جبـر القهـر بالعز الذي ... لا ينبغـي لسـواه مـن إنسـان

ولـه مسـمى ثالث وهـو العلو ... فليـس يدنـو منـه من إنسـان

من قولهم جبارة للنخلة الـ ... علیا التي فاتت لكل بنان

يعني أن للجبار من أسمائه الحسنى ثلاثة معانٍ كلها داخلة باسمه (الجبار) فهو الذي يجبر الضعيف وكل قلب منكسر لأجله، فيجبر الكسير ويغني الفقير وييسر على المعسر كل عسير ويجبر المصاب بتوفيقه للثبات والصبر يعيضه على مصابه أعظم الأجر إذا قام بواجبها، ويجبر جبرًا خاصًّا قلوب الخاضعين لعظمته وجلاله، وقلوب المحبين بما يفيض عليها من أنواع كراماته وأصناف المعارف والأحوال الإيمانية، فقلوب المنكسرين لأجله جبرها دان قريب، وإذا دعا الداعي فقال: (اللهم اجبرني) فإنه يريد هذا الجبر الذي حقيقته إصلاح العبد ودفع جميع المكاره عنه.

والمعنى الثاني: أنه القهار لكل شيء، الذي دان له كل شيء، وخضع له كل شيء.

والمعنى الثالث: أنه العلي على كل شيء.

فصار الجبار متضمنًا لمعنى الرءوف القهار العلي، وقد يراد به معنى رابع وهو المتكبر عن كل سوء ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له كفو أو ضد أو سمي أو شريك في خصائصه وحقوقه.

وهو الحسيب حماية وكفاية ... والحسب كافي العبد كل أوان

(فالحسيب) هو الكافي للعباد جميع ما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم من حصول المنافع ودفع المضار. والحسيب بالمعنى الأخص هو الكافي لعبده المتقي المتوكل عليه كفاية خاصة يصلح بها دينه ودنياه، والحسيب أيضًا هو الذي يحفظ أعمال عباده من خير وشر ويحاسبهم عليها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]. أي كافيك وكافي أتباعك. فكفاية الله لعبده بحسب ما قام به من متابعة الرسول ظاهرًا وباطنًا وقيامه بعبودية الله تعالى.

وهو الرشيد فقوله وفعاله ... رشد وربك مرشد الحيران

وكلاهما حق فهذا وصفه ... والفعل للإرشاد ذاك الثاني

يعني أن (الرشيد) هو الذي قوله رشد وفعله كله رشد وهو مرشد الحيران الضال فيهديه إلى الصراط المستقيم بيانًا وتعليمًا وتوفيقًا، فالرشد الدال عليه اسم الرشيد وصفه تعالى، والإرشاد لعباده فعله، فأقواله القدرية التي يوجد بها الأشياء ويدبر بها الأمور كلها حق لاشتمالها على الحكمة والحسن والإتقان، وأقواله الشرعية الدينية هي أقواله التي تكلم بها في كتبه وعلى ألسنة رسله المشتملة على الصدق التام في الأخبار والعدل الكامل في الأمر والنهي، فإنه لا أصدق من الله قيلًا ولا أحسن منه حديثًا ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]. في الأمر والنهي، وهي أعظم وأجل ما يرشد بها العباد، بل لا وصول إلى الرشاد بغيرها، فمن ابتغى الهدى من غيرها أضله الله، ومن لم يسترشد بها فليس برشيد، فيحصل بها الرشد العلمي وهو بيان الحقائق والأصول والفروع والمصالح والمضار الدينية والدنيوية، ويحصل بها الرشد العملي فإنها تزكي النفوس وتطهر القلوب وتدعو إلى أصلح الأعمال وأحسن الأخلاق، وتحث على كل جميل، وترهب عن كل ذميم رذيل، فمن استرشد بها فهو المهتدي، ومن لم يسترشد بها فهو ضال. ولم يجعل لأحد عليه حجة بعد بعثته للرسل وإنزاله الكتب المشتملة على الهدى المطلق، فكم هدى بفضله ضالًّا وأرشد حائرًا وخصوصًا من تعلق به وطلب منه الهدى من صميم قلبه وعلم أنه المنفرد بالهداية.

والعدل من أوصافه في فعله ... ومقاله والحكم بالميزان
فعلى الصراط المستقيم إلهنا ... قولًا وفعلًا ذاك في القرآن

يعني أن الله هو (الحكم العدل) في وصفه وفي فعله وفي قوله وفي حكمه بالقسط. وهذا معنى قوله ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]. فإن أقواله صدق وأفعاله دائرة بين العدل والفضل، فهي كلها أفعال رشيدة، وحكمه بين عباده فيما اختلفوا فيه أحكام عادلة لا ظلم فيها بوجه من الوجوه، وكذلك أحكام الجزاء والثواب والعقاب.

فصل

هذا ومن أوصافه القدوس ذو الـ ـــتنزيه بالتعظيم للرحمن

وهو السلام على الحقيقة سالم من كل تمثيل ومن نقصان

هذا تفسير (القدوس السلام) فهو المقدس المعظم المنزه عن كل سوء، السالم من مماثلة أحد من خلقه ومن النقصان ومن كل ما ينافي كماله، فهذا ضابط ما ينزه عنه؛ ينزه عن كل نقص بوجه من الوجوه، وينزه ويعظم أن يكون له مثيل أو شبيه أو كفؤ أو سمي أو ند أو مضاد، وينزه عن نقص صفة من صفاته التي هي أكمل الصفات وأعظمها وأوسعها. ومن تمام تنزيهه عن ذلك إثبات صفات الكبرياء والعظمة له، فإن التنزيه مراد لغيره ومقصود به حفظ كماله عن الظنون السيئة؛ كظن الجاهلية الذين يظنون به ظن السوء ظن غير ما يليق بجلاله، وإذا قال العبد مثنيًا على ربه: « سبحان الله » « أو « تقدس الله » أو « تعالى الله » ونحوها كان مثنيًا عليه بالسلامة من كل نقص وإثبات كل كمال.

والبر في أوصافه سبحانه هو كثرة الخيرات والإحسان

صدرت عن البر الذي هو وصفه فالبر حينئذ له نوعان

وصف وفعل فهو بر محسن مولي الجميل ودائم الإحسان

وكذلك الوهاب من أسمائه فانظر مواهبه مدى الأزمان

أهل السماوات العلى والأرض عن تلك المواهب ليس ينفكان

من أسمائه تعالى (البر الوهاب) الذي شمل الكائنات بأسرها ببره وهباته وكرمه، فهو مولي الجميل ودائم الإحسان وواسع المواهب، وصفه البر وآثار هذا الوصف جميع النعم

الظاهرة والباطنة، فلا يستغني مخلوق عن إحسانه وبره طرفة عين.

وإحسانه عام وخاص: فالعام المذكور في قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. وهذا يشترك فيه البر والفاجر وأهل السماء وأهل الأرض والمكلفون وغيرهم. والخاص رحمته ونعمه على المتقين حيث قال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧] الآية. وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. وفي دعاء سليمان: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. وهذه الرحمة الخاصة التي يطلبها الأنبياء وأتباعهم تقتضي التوفيق للإيمان والعلم والعمل وصلاح الأحوال كلها والسعادة الأبدية والفلاح والنجاح، وهي المقصود الأعظم لخواص الخلق.

وكذلك الفتاح من أسمائه والفتح في أوصافه أمران

فتح بحكم وهو شرع إلهنا والفتح بالأقدار فتح ثاني

والرب فتاح بذين كليهما عدلًا وإحسانًا من الرحمن

فالفتاح هو الحكم المحسن الجواد، وفتحه تعالى قسمان:

أحدهما: فتحه بحكمه الديني وحكمه الجزائي.

والثاني: الفتاح بحكمه القدري.

ففتحه بحكمه الديني هو شرعه على ألسنة رسله جميع ما يحتاجه المكلفون، ويستقيمون به على الصراط المستقيم، وأما فتحه بجزائه فهو فتحه بين أنبيائه ومخالفيهم وبين أوليائه وأعدائه بإكرام الأنبياء واتباعهم ونجاتهم، وبإهانة أعدائهم وعقوباتهم. وكذلك فتحه يوم القيامة وحكمه بين الخلائق حين يوفى كل عامل ما عمله. وأما فتحه القدري فهو ما يقدره على عباده من خير وشر ونفع وضر وعطاء ومنع، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا

مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]. فالرب تعالى هو الفتاح العليم الذي يفتح لعباده الطائعين خزائن جوده وكرمه، ويفتح على أعدائه ضد ذلك، وذلك بفضله وعدله.

وكذلك الرزاق من أسمائه	والرزق من أفعاله نوعان
رزق على يد عبده ورسوله	نوعان أيضًا ذان معروفان
رزق القلوب العلم والإيمان والـ	ـرزق المعد لهذه الأبدان
هذا هو الرزق الحلال وربنا	رزاقه والفضل للمنان
والثان سوق القوت للأعضاء في	تلك المجاري سوقه بوزان
هذا يكون من الحلال كما يكو	ن من الحرام كلاهما رزقان
والرب رازقه بهذا الاعتبا	ر وليس بالإطلاق دون بيان

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. ورزقه لعباده نوعان: عام وخاص.

فالعام إيصاله لجميع الخليقة جميع ما تحتاجه في معاشها وقيامها، فسهل لها الأرزاق، ودبرها في أجسامها، وساق إلى كل عضو صغير وكبير ما يحتاجه من القوت، وهذا عام للبر والفاجر والمسلم والكافر، بل للآدميين والجن والملائكة والحيوانات كلها. وعام أيضًا من وجه آخر في حق المكلفين، فإنه قد يكون من الحلال الذي لا تبعة على العبد فيه، وقد يكون من الحرام ويسمى رزقًا ونعمة بهذا الاعتبار ويقال: « رزقه الله » سواء ارتزق من حلال أو حرام وهو مطلق الرزق.

وأما الرزق المطلق فهو النوع الثاني، وهو الرزق الخاص، وهو الرزق النافع المستمر نفعه في الدنيا والآخرة، وهو الذي على يد الرسول ﷺ: رزق القلوب بالعلم والإيمان وحقائق ذلك، فإن القلوب مفتقرة غاية الافتقار إلى أن تكون عالمة بالحق مريدة له متألهة

لله متعبدة، وبذلك يحصل غناها ويزول فقرها. ورزق البدن بالرزق الحلال الذي لا تبعة فيه، فإن الرزق الذي خص به المؤمنين والذي يسألونه منه شامل للأمرين، فينبغي للعبد إذا دعا ربه في حصول الرزق أن يستحضر بقلبه هذين الأمرين، فمعنى « اللهم ارزقني » أي ما يصلح به قلبي من العلم والهدى والمعرفة ومن الإيمان الشامل لكل عمل صالح وخلق حسن، وما به يصلح بدني من الرزق الحلال الهنيّ الذي لا صعوبة فيه ولا تبعة تعتريه.

فصل

هذا ومـن أوصافـه القيوم والـ ـقيوم فـي أوصافـه أمـران

إحداهمـا القيـوم قـام بنفسـه والكـون قـام بـه همـا الأمران

فـالأول اسـتغناؤه عـن غيـره والفقـر مـن كل إليـه الثانـي

والوصـف بالقيوم ذو شـأن كذا موصوفـه أيضًـا عظيـم الشـان

والحـي يتلـوه فأوصـاف الكما ل همـا لأفـق سـمائه قطبـان

فالحـي والقيوم لـن تتخلف الـ أوصـاف أصـلًا عنهمـا ببيـان

هذا تفسير (الحي القيوم) وجمعهما في غاية المناسبة كما جمعهما الله في عدة مواضع من كتابه كقوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وذلك أنهما محتويان على جميع صفات الكمال، فالحي هو كامل الحياة، وذلك يتضمن جميع الصفات الذاتية لله كالعلم والعزة والقدرة والإرادة والعظمة والكبرياء وغيرها من صفات الذات المقدسة، والقيوم هو كامل القيومية الذي قام بنفسه، وعظمت صفاته، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقامت به الأرض والسماوات وما فيهما من المخلوقات، فهو الذي أوجدها وأمدها وأعدها لكل ما فيه بقاؤها وصلاحها وقيامها، فهو الغني عنها من كل وجه وهي التي افتقرت إليه من كل وجه، فالحي والقيوم من له صفة كل كمال وهو الفعال لما يريد.

هو قابض هو باسـط هو خافض هـو رافـع بالعـدل والميـزان

وهـو المعـز لأهـل طاعته وذا عـز حـقـيـقـي بـلا بـطـلان

وهو المذل لمن يشـاء بذلة الدْ ـدَارين ذل شـقا وذل هـوان

هـو مانـع معـطٍ فهـذا فضلـه والمنـع عيـن العـدل للمنـان
يعطـي برحمتـه ويمنع من يشـا ء بحكمـة واللـه ذو سـلطان

هذه الأسماء الكريمة من الأسماء المتقابلات التي لا ينبغي أن يثنى على الله بها إلا كل واحد منها مع الآخر؛ لأن الكمال المطلق من اجتماع الوصفين، فهو القابض للأرزاق والأرواح والنفوس، والباسط للأرزاق والرحمة والقلوب، وهو الرافع لأقوام قائمين بالعلم والإيمان، الخافض لأعدائه. وهو المعز لأهل طاعته، وهذا عز حقيقي، فإن المطيع لله عزيز وإن كان فقيرًا ليس له أعوان، المذل لأهل معصيته وأعدائه ذلًّا في الدنيا والآخرة، فالعاصي وإن ظهر بمظاهر العز فقلبه حشوه الذل وإن لم يشعر به لانغماسه في الشهوات، فإن العز كل العز بطاعة الله، والذل بمعصيته ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]. ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. وهو تعالى المانع المعطي فلا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى. وهذه الأمور كلها تبع لعدله وحكمته وحمده، فإن له الحكمة في خفض من يخفضه ويذله ويحرمه، ولا حجة لأحد على الله، كما له الفضل المحض على من رفعه وأعطاه وبسط له الخيرات، فعلى العبد أن يعترف بحكمة الله، كما عليه أن يعترف بفضله ويشكره بلسانه وجنانه وأركانه.

وكما أنه هو المنفرد بهذه الأمور وكلها جارية تحت أقداره، فإن الله جعل لرفعه وعطائه وإكرامه أسبابًا ولضد ذلك أسبابًا؛ من قام بها ترتبت عليها مسبباتها، وكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، وهذا يوجب للعبد القيام بتوحيد الله، والاعتماد على ربه في حصول ما يحب، ويجتهد في فعل الأسباب النافعة فإنها محل حكمة الله.

فصل

والنـــور مـــن أســـمائه أيضًا ومن ... أوصافـــه ســـبحان ذي البرهـــان

قال ابن مســـعود كلامًـــا قد حكا ... ه الدارمـــي عنـــه بـــلا نكـــران

مـــا عنـــده ليـــل يكـــون ولا نها ... ر قلـــت تحـــت الفلك يوجد ذان

نور الســـماوات العـــلا من نوره ... والأرض كيف الشـــمس والقمران

من نـــور وجه الرب جـــل جلاله ... وكذا حـــكاه الحافـــظ الطبراني

فبه اســـتنار العرش والكرســـي مع ... ســـبع الطبـــاق وســـائر الأكوان

وكتابـــه نـــور كذلـــك شـــرعه ... نـــور كـــذا المبعـــوث بالفرقان

وكذلـــك الإيمان في قلـــب الفتى ... نـــور علـــى نـــور مـــع القـــرآن

وحجابـــه نور فلو كشـــف الحجا ... ب لأحـــرق الســـبحات للأكوان

وإذا أتـــى للفصـــل يشـــرق نوره ... في الأرض يـــوم قيامـــة الأبدان

وكـــذاك دار الرب جنـــات العلا ... نـــور تـــلألأ ليـــس ذا بطـــلان

والنـــور ذو نوعيـــن مخلوق ووصـ ... ـــف مـــا همـــا واللـــه متحدان

وكذلـــك المخلـــوق ذو نوعين محـ ... ـــسوس ومعقـــول هما شـــيئان

احذر تـــزلّ فتحـــت رجلك هوة ... كـــم قد هوى فيهـــا على الأزمان

مـــن عابـــد بالجهل زلـــت رجله ... فهوى إلى قعـــر الحضيض الداني

لاحـــت لـــه أنـــوار آثـــار العبـــا ... دة ظنهـــا الأنـــوار للرحمن

فأتـى بـكل مصيبـة وبليـة	ما شـئت من شـطح ومن هذيان
وكـذا الحلولي الـذي هو خدنه	مـن ههنـا حقًّـا همـا أخـوان
ويقابـل الرجليـن ذو التعطيل والـ	ـحجب الكثيفة ما هما سـيان
ذا فـي كثافـة طبعـه وظلامـه	وبظلمـة التعطيـل هـذا الثاني
والنـور محجـوب فـلا هذا ولا	هـذا لـه مـن ظلمـة يريـان

بسط المصنف الكلام على هذا الاسم الكريم لشدة الحاجة إلى معرفته ومعرفة متعلقاته ووقوع الاشتباه الكثير في ذلك. وحاصل ذلك أن من أسمائه جل جلاله ومن أوصافه (النور) الذي هو وصفه العظيم، فإنه ذو الجلال والإكرام وذو البهاء والهيبة والسبحات الذي لو كشف الحجاب عن وجهه الكريم لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه، وهو الذي استنارت به العوالم كلها فبنور وجهه أشرقت الظلمات، واستنار به العرش والكرسي والسبع الطباق وجميع الأكوان.

والنور نوعان: حسي: كهذه العوالم التي لم يحصل لها نور إلا من نوره، ونور معنوي: يحصل في القلوب والأرواح بما جاء به محمد ﷺ من كتاب الله وسنة نبيه. فعلم الكتاب والسنة والعمل بهما ينير القلوب والأسماع والأبصار ويكون نورًا للعبد في الدنيا والآخرة ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النور: ٣٥]. لما ذكر أنه نور السماوات والأرض وسمى الله كتابه نورًا ورسوله نورًا ووحيه نورًا.

ثم إن المؤلف حذر من اغترار من اغتر من أهل التصوف الذين لم يفرقوا بين نور الصفات وبين أنوار الإيمان والمعارف، فإنهم لما تألهوا وتعبدوا من غير فرقان وعلم كامل ولاحت أنوار التعبد في قلوبهم؛ لأن العبادات لها أنوار في القلوب، فظنوا هذا النور هو نور الذات المقدسة، فحصل منهم من الشطح والكلام القبيح ما هو أثر هذا الجهل والاغترار والضلال.

وأما أهل العلم والإيمان والفرقان فإنهم يفرقون بين نور الذات والصفات وبين النور المخلوق الحسي منه والمعنوي، فيعترفون أن نور أوصاف الباري ملازم لذاته لا يفارقها ولا يحل بمخلوق، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا. وأما النور المخلوق فهو الذي تتصف به المخلوقات بحسب الأسباب والمعاني القائمة بها. والمؤمن إذا كمل إيمانه أنار الله قلبه، فانكشفت له حقائق الأشياء، وحصل له فرقان يفرق به بين الحق والباطل، وصار هذا النور هو مادة حياة العبد وقوته على الخير علمًا وعملًا، وانكشفت عنه الشبهات القادحة في العلم واليقين، والشهوات الناشئة عن الغفلة والظلمة، وكان قلبه نورًا وكلامه نورًا وعمله نورًا والنور محيط به من جهاته، والكافر أو المنافق أو المعارض أو المعرض الغافل كل هؤلاء يتخبطون في الظلمات، كل له من الظلمة بحسب ما معه من موادها وأسبابها والله الموفق وحده.



فصل

وهو المقدم والمؤخر ذانك الـ ـــصفتان للأفعال تابعتان
وهما صفات الذات أيضًا إذ هما بالذات لا بالغير قائمتان
ولذاك قد غلط المقسم حين ظـ ـــن صفاته نوعان مختلفان
إن لم يرد هذا ولكن قد أرا د قيامها بالفعل ذي الإمكان
والفعل والمفعول شيء واحد عند المقسم ما هما شيئان
فلذاك وصف الفعل ليس لديه إلْـ لَا نسبة عدمية ببيان
فجميع أسماء الفعال لديه ليـ ـــست قط ثابتة ذوات معاني
موجودة لكن أمور كلها نسب ترى عدمية الوجدان
هذا هو التعطيل للأفعال كالـ ـــتعطيل للأوصاف بالميزان
فالحق أن الوصف ليس بمورد الـ ـــتقسيم هذا مقتضى البرهان
بل مورد التقسيم ما قد قام بالذْ ـــذَاتِ التي للواحد الرحمن
فهما إذًا نوعان أوصاف وأفـ ـــعال فهذي قسمة التبيان
فالوصف بالأفعال يستدعي قيا م الفعل بالموصوف بالبرهان
كالوصف بالمعنى سوى الأفعال ما إن بين ذينك قط من فرقان
ومن العجائب أنهم ردوا على من أثبت الأسماء دون معاني
قامت بمن هي وصفه هذا محا ل غير معقول لذي الأذهان

وأتوا إلى الأوصاف باسم الفعل قا لوا لم تقم بالواحد الديان
فانظر إليهم أبطلوا الأصل الذي ردوا به أقوالهم بوزان
إن كان هذا ممكنًا فكذاك قو ل خصومكم أيضًا فذو إمكان
والوصف بالتقديم والتأخير كَوْ ني وديني هما نوعان
وكلاهما أمر حقيقي ونسـ ـبي ولا يخفى على الأذهان
والله قدر ذاك أجمعه بإحـ ـكام وإتقانٍ من الرحمن

فصل

هذا ومن أسمائه ما ليس يفـ ـرد بل يقال إذا أتى بقران
وهي التي تدعى بمزدوجاتها إفرادها خطر على الإنسان
إذ ذاك موهم نوع نقص جل رب العرش عن عيب وعن نقصان
كالمانع المعطي وكالضار الذي هو نافع وكماله الأمران
ونظير هذا القابض المقرون باسـ ـم الباسط اللفظان مقترنان
وكذا المعز مع المذل وخافض مع رافع لفظان مزدوجان
وحديث إفراد اسم منتقم فمو قوف كما قد قال ذو العرفان
ما جاء في القرآن غير مقيد بالمجرمين وجا بـ(ذو) نوعان

ذكر المصنف هذه الأبيات في تفسير اسمه (المقدم المؤخر) وهما كما تقدم من الأسماء المزدوجة المتقابلة التي لا يطلق واحد بمفرده على الله إلا مقرونًا بالآخر فإن الكمال من اجتماعهما، فهو تعالى المقدم لمن شاء والمؤخر لمن شاء بحكمته.

وهذا التقديم يكون كونيًّا كتقديم بعض المخلوقات على بعض وتأخير بعضها على بعض، وكتقديم الأسباب على مسبباتها والشروط على مشروطاتها. وأنواع التقديم والتأخير في الخلق والتقدير بحر لا ساحل له. ويكون شرعيًّا كما فضل الأنبياء على الخلق وفضل بعضهم على بعض، وفضل بعض عباده على بعض، وقدمهم في العلم والإيمان والعمل والأخلاق وسائر الأوصاف، وأخر من أخر منهم بشيء من ذلك، وكل هذا تبع لحكمته. وهذان الوصفان وما أشبههما من الصفات الذاتية لكونهما قائمين بالله، والله متصف بهما، ومن صفات الأفعال؛ لأن التقديم والتأخير متعلق بالمخلوقات ذواتها وأفعالها ومعانيها وأوصافها، وهي ناشئة عن إرادة الله وقدرته. فهذا هو التقسيم الصحيح لصفات الباري، وأن صفات الذات متعلقة بالذات، وصفات أفعاله متصفة بها الذات ومتعلقة بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال.

وأما تقسيم بعض أهل الكلام الباطل أن صفات الأفعال لا تقوم بذات الله، بل الفعل عندهم عين المفعول، فهذا قول باطل بالكتاب والسنة والإجماع من السلف، وهو مخالف لما يعقله العقلاء في قلوبهم، فإن صفات الأفعال قائمة بمن فعلها، ومتصف بها من قالها أو عملها، ولا يتصور في العقل مفعول من غير فعل ولا مخلوق من غير خلق، كما لا يتصور أحد اسمًا مشتقًّا دالًّا على غير صفة في المحل المسمى به، والذي أوجب لهم هذا الغلط الفاحش زعموا أنهم إذا لم يقولوا بهذا اقتضى حلول الحوادث في ذات الله، فنفوا بهذا كل صفة فعلية لله فأنكروا استواءه على عرشه ونزوله، وأفعاله التي يوجدها شيئًا فشيئًا، وأقواله التي يتكلم بها شيئًا بعد شيء. وهذا التعطيل لأفعاله نظير تعطيل الجهمية ومن تبعهم لجميع صفات الله الذاتية والفعلية، ولا فرق بين الأمرين، فإذا كان هذا التعطيل لصفاته الذاتية باطلًا؛ فكذلك التعطيل لصفاته الفعلية باطل.

أما أهل السنة والجماعة فإنهم أثبتوا كل ما جاء به الكتاب والسنة من صفات الله، واعترفوا بها، لا فرق عندهم بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية المتعلقة بمشيئته وقدرته

وكلها قائمة بالله، والله موصوف بها، وهو القول الذي دل عليه النقل والعقل. ومن أوصاف الأفعال الأسماء المزدوجة كالمقدم المؤخر والضار النافع والمعطي المانع ونحوها وتقدمت.



فصل

واعلم أن المصنف رحمه الله قد استوفى معظم شرح الأسماء الحسنى المذكورة في الكتاب شرحًا جامعًا مختصرًا كما تقدم، وما لم يذكره فإنه ذكر نظيره من الأسماء الحسنى أو ما يدل عليه ويستلزمه، فإنه لم يذكر (المتين) وهو داخل في (القوي القدير)، ولم يذكر (الأعلى) وهو في معنى (العلي) كما تقدم، ولم يذكر (الرحمن الرحيم الرءوف الكريم) وهي في معنى (البر الجواد الوهاب) ولم يذكر (الرب والله والملك والمالك) وقد ذكر في **البدائع** أنها متضمنة لكثير من الأسماء الحسنى فقال: الرب هو القادر الخالق البارئ المصور الحي القيوم السميع العليم البصير المحسن المنعم الجواد المعطي المانع الضار النافع الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء ويشقي من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى.

وأما (الملك) فهو الآمر الناهي المعز المذل الذي يصرف أمور عباده كما يحب ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى كالعزيز الجبار المتكبر الحكم العدل الخافض الرافع المعز المذل العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد الوالي المتعالي مالك الملك المُقسط الجامع إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

وأما (الإله) فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فقد دخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى، ولهذا كان القول الصحيح أن (الله) أصله (الإله) وأن اسم (الله) هو الجامع لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلى والله أعلم.



فصل

ودلالـة الأسـماء أنـواع ثـلا ... ث كـلـهـا مـعـلـومـة بـبـيـان
دلـت مطابقـة كـذاك تضمنًـا ... وكـذا التزامًـا واضـح البرهان
أمـا مطابقـة الدلالـة فهـي أن ... الإسـم يفهـم منـه مفهومـان
ذات الإله وذلـك الوصف الذي ... يشـتق منـه الإسـم بالميـزان
لكـن دلالتـه علـى إحداهمـا ... بتضمـن فافهمـه فهـم بيـان
وكـذا دلالتـه على الصفـة التي ... مـا اشـتق منهـا فالتـزام داني
وإذا أردت لـذا مثـالًا بينًـا ... فمثـال ذلـك لفظـة الرحمـن
ذات الإلـه ورحمـة مدلولهـا ... فهمـا لهـذا اللفـظ مدلـولان
إحداهمـا بعض لـذا الموضوع فهـ ... ـي تضمـن ذا واضـح التبيان
لكن وصـف الحي لازم ذلك الـ ... ـمعنى لـزوم العلـم للرحمـن
فلـذا دلالتـه عليـه بالتـزا ... م بيّـن والحـق ذو تبيـان

هذه قاعدة ذكرها المصنف نافعة في الأسماء الحسنى، وذلك أن الدلالة نوعان: لفظية ومعنوية عقلية، فإن أعطيت اللفظ جميع ما دخل فيه من المعاني فهي دلالة مطابقة، لأن اللفظ طابق المعنى من غير زيادة ولا نقص، وإن أعطيته بعض المعنى فتسمى دلالة تضمن، لأن المعنى المذكور بعض اللفظ وداخل في ضمنه، وأما الدلالة المعنوية العقلية فيه خاصة العقل والفكر الصحيح؛ لأن اللفظ بمجرده لا يدل عليها، وإنما ينظر العبد ويتأمل في المعاني اللازمة لذلك اللفظ الذي لا يتم معناها بدونه وما يشترط له من الشروط، وهذا

يجري في جميع الأسماء الحسنى، كل واحد منها يدل على الذات وتلك الصفة دلالة مطابقة، ويدل على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تضمن، ويدل على الصفة الأخرى اللازمة لتلك المعاني دلالة التزام؛ مثال ذلك (الرحمن) يدل على الذات وحدها وعلى الرحمة وحدها دلالة تضمن، وعلى الأمرين دلالة مطابقة، ويدل على الحياة الكاملة والعلم المحيط والقدرة التامة ونحوها دلالة التزام؛ لأنه لا توجد الرحمة من دون حياة الراحم وقدرته الموصلة لرحمته للمرحوم وعلمه به وبحاجته، وكذلك ما تقدم من استلزام (الملك) جميع صفات الملك الكامل، واستلزام (الرب) لصفات الربوبية، و(الله) لصفات الألوهية وهي صفات الكمال كلها، وكثير من أسمائه الحسنى يستلزم عدة أوصاف، كالكبير والعظيم والمجيد والحميد والصمد. فهذه قاعدة نافعة.

ومن القواعد المتعلقة بأسمائه الحسنى ما ذكره المصنف بقوله:

أسماؤه أوصاف مدح كلها ... مشتقة قد حمّلت لمعاني

إياك والإلحاد فيها إنه ... كفر معاذ الله من كفران

وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالـ ... إشراك والتعطيل والنكران

فالملحدون إذًا ثلاث طوائف ... فعليهمُ غضب من الرحمن

يعني أن أسماءه الحسنى كلها أعلام وأوصاف دالة على معانيها، وكلها أوصاف مدح وحمد وثناء، ولذلك كانت حسنى فلو كانت أعلامًا محضة لم تكن حسنى، ولهذا إن كان الاسم منقسمًا إلى حمد ومدح وغيره لم يدخل بمطلقه بأسماء الله كالمريد والصانع والفاعل ونحوها فهذه ليست من الأسماء الحسنى، فصفاته كلها صفات كمال محض فهو موصوف بأكمل الصفات، وله أيضًا من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه.

والواجب في أسمائه الحسنى وصفاته العليا أن تثبت على ما جاء به الكتاب والسنة على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته، فلا ينفى منها اسم ولا ينفى من معانيها صفة، ولا تشبه بصفات المخلوقين، ولهذا توعد الله الملحدين في أسمائه. إما أن يسموا بها بعض

المخلوقات كتسمية آلهتهم (اللات) من (الإله) و(العزى) من (العزيز) و(مناة) من (المنان)، وإما أن تمثل بصفات المخلوقين، وإما أن تنفى وتعطل كما يفعل الجهمية ومن تبعهم من كل معطل لصفات الله أو بعضها.

وأعظم أنواع الملحدين فيها ملاحدة الاتحادية الذين سموا بأسمائه وصفاته كل موجود في الوجود، وهذا تعطيل لذاته وصفاته وأفعاله. ولنقتصر في الإشارة إلى الإلحاد بأسمائه وصفاته على ما ذكرنا، مع أن المؤلف بسط الكلام، لكننا أتينا بالجمل الكلية فيها.



فصل

في النوع الثاني من نوعي توحيد الأنبياء والمرسلين المخالف لتوحيد المعطلين والمشركين

هـذا وثانـي نوعـي التوحيد تو ... حيـد العبـادة منـك للرحمـن

ألا تكـون لغيـره عبـدًا ولا ... تعبـد بغيـر شـريعة الإيمـان

فتقـوم بالإسـلام والإيمـان والـ ... إحسـان فـي سـر وفـي إعلان

والصـدق والإخلاص ركنـا ذلك التـ ... تَوحيـد كالركنيـن للبنيان

وحقيقـة الإخلاص توحيـد المرا ... د فـلا يزاحمـه مـراد ثانـي

لكـن مـراد العبد يبقـى واحدًا ... مـا فيـه تفريـق لدى الإنسـان

إن كان ربـك واحـدًا سـبحانه ... فاخصصـه بالتوحيد مع إحسـان

أو كان ربـك واحدًا أنشـاك لم ... يشـركه إذ أنشـاك رب ثانـي

فكـذاك أيضًا وحـده فاعبده لا ... تعبـد سـواه يـا أخـا العرفان

والصـدق توحيد الإرادة وهو بذ ... ل الجهـد لا كسـلًا ولا متواني

والسـنة المثلـى لسـالكها فتو ... حيـد الطريق الأعظم السـلطاني

فلواحـدٍ كـن واحدًا فـي واحد ... أعنـي سـبيل الحـق والإيمـان

هـذي ثـلاث مسـعدات للذي ... قـد نالهـا والفضـل للمنـان

فإذا هـي اجتمعـت لنفس حرة ... بلغـت مـن العليـاء كل مكان

وهذا النوع زبدة رسالة الله لرسله، فكل نبي يبعثه الله يدعو قومه يقول: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦]. وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، وشرع الجهاد لإقامته، وجعل الثواب الدنيوي والأخروي لمن قام به وحققه والعقاب لمن تركه، وبه يحصل الفرق بين أهل السعادة القائمين به، وأهل الشقاوة التاركين له، فعلى العبد أن يبذل جهده في معرفته وتحقيقه والتحقق به، ويعرف حده وتفسيره، ويعرف حكمه ومرتبته، ويعرف آثاره ومقتضياته وشواهده وأدلته، وما يقويه وينميه، وما ينقضه أو ينقصه، وشروطه ومكملاته، ويعرف نواقضه ومفسداته، لأنه الأصل الأصيل الذي لا تصح الأصول إلا به، فكيف بالفروع.

فأما حده وتفسيره وأركانه فهو أن يعلم العبد ويعترف على وجه العلم واليقين أن الله هو المألوه وحده المعبود على الحقيقة، وأن صفات الإلهية ومعانيها ليست موجودة بأحد من المخلوقات، ولا يستحقها إلا الله تعالى.

فإذا عرف ذلك واعترف به حقًّا أفرده بالعبادة كلها الظاهرة والباطنة، فيقوم بشرائع الإسلام الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبر الوالدين وصلة الأرحام والقيام بحقوق الله وحقوق خلقه، ويقوم بأصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

ويقوم بحقائق الإحسان وروح الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، مخلصًا ذلك كله لله، لا يقصد به غرضًا من الأغراض غير رضا ربه وطلب ثوابه، متابعًا في ذلك رسول الله ﷺ، فعقيدته ما دل عليه الكتاب والسنة، وأعماله وأفعاله ما شرعه الله ورسوله، وأخلاقه وآدابه الاقتداء بنبيه ﷺ في هديه وسمته وكل أحواله؛ ولهذا كمال هذا التوحيد وقوامه بثلاثة أشياء (توحيد الإخلاص لله وحده) فلا يكون للعبد مراد غير مراد واحد وهو العمل لله وحده، و(توحيد الصدق) وهو توحد إرادة العبد في إرادته وقوة إنابته لربه وكمال عبوديته، و(توحيد الطريق) وهو المتابعة.

فلهذا قال « فلواحد » وهو الله « كن واحدًا » في عزمك وصدقك وإرادتك « في واحد » أي متابعة الرسول؛ ولهذا فسره بقوله « أعني طريق الحق والإيمان ». فمن اجتمعت له هذه الثلاثة نال كل كمال وسعادة وفلاح، ولا ينقص من كمال العبد إلا بنقص واحد من هذه الثلاثة، وإذا كان الله تعالى هو الذي خلقك ورزقك وأنعم عليك بالنعم الظاهرة والباطنة لم يشاركه في ذلك مشارك، فعليك ألا تتأله ولا تتعبد لغيره، وعليك أن تخصه بالتوحيد والسؤال واللجأ والفزع في أمورك كلها.

وهذا من أعظم الأدلة على توحيد الإلهية، وهو الاستدلال بربوبية الله للعبد، بل وللخلق كلهم والتفرد بتدبيرهم وإسداء النعم عليهم، على أنه هو الإله حقًّا الذي لا يستحق الألوهية ولا شيئًا من العبودية غيره.

ومن الأدلة على ذلك معرفة تفرد الرب بالكمال المطلق، وأن له كل صفة كمال، وأن المخلوقات كلها كل وصف حميد فيها فإنه من الله تعالى، ليس بها وليس منها. وهذا من أعظم البراهين على أنه هو المخصوص بالتأله والعبودية، وكذلك هو المنفرد بالنعم كلها، وهو وحده المعطي المانع، الضار النافع، الخافض الرافع، وسواه فقير إلى ربه في كل حال، لا يستغني عنه طرفة عين، فمن أعظم الباطل وأكبر المنكرات أن يجعل شيئًا منه شريكًا لله في شيء من خصائصه، وشيء من حقوقه على عباده، فإن حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، لا نبيًّا مرسلًا ولا ملكًا مقربًا.

وهذا النوع من التوحيد متضمن للنوع الأول الذي هو توحيد الأسماء والصفات الداخل فيها توحيد الربوبية؛ لأن الله هو الذي له صفة الإلهية وهي صفات الكمال كلها. ولهذا كلما قوي إيمان العبد ومعرفته بأسماء الله وصفاته قوي توحيده وتم إيمانه، وأما ما يناقض هذا التوحيد فقد ذكره المصنف بقوله:

والشـرك فاحذره فشـرك ظاهر ... ذا القسـم ليس بقابـل الغفران

وهـو اتخـاذ النـد للرحمن أيـ ... ـًا كان مـن حجر ومن إنسـان

يدعــوه أو يرجــوه ثــم يخافــه   ويـحـبـه كـمـحـبـة الـرحـمـن

يعني أن الشرك المناقض لهذا التوحيد نوعان: جلي ظاهر مخرج من دائرة الإسلام، وهو الشرك الأكبر، وهذا النوع لا يقبل الغفران قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. وتفسيره أن يتخذ العبد لله ندًّا يحبه كمحبة الله، أو يرجوه أو يخافه كخوفه من الله، أو يدعوه أو يصرف له نوعًا من العبادة الظاهرة والباطنة.

وفي هذا المقام لا فرق بين الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين والطالحين والأشجار والأحجار وغيرها؛ فمن صرف لشيء منها نوعًا من العبادة فهو مشرك كافر قد سواها بربه في هذا الحق الذي يختص به، فإن العبودية لا حق فيها لملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غيرهما، بل هم مفتقرون غاية الافتقار إلى تألههم وتعبدهم لله.

وأما الشرك الأصغر فهو كل وسيلة يتوسل بها ويتطرق إلى الشرك الأكبر، بشرط ألا يبلغ مرتبة العبادة، كالحلف بغير الله وكالرياء والتصنع للمخلوقين ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المؤدية إلى الشرك، فلا يتم للعبد توحيد حتى يتبرأ من الشرك كله؛ جليّه وخفيه ظاهره وباطنه الأقوال منه والأفعال، وتكون أعماله كلها خالصة لله متبعًا فيها سنة رسول الله ﷺ.

والعبادة هي كل ما يحبه الله ويرضاه مما شرعه من الأعمال الظاهرة والباطنة، وقد حدها المؤلف بقوله:

ليس العبــادة غير توحيــد المحبْـ   ـبَة مــع خضــوع القلب والأركان

يعني أن العبادة روحها وحقيقتها تحقيق الحب والخضوع لله، فالحب التام والخضوع الكامل لله هو حقيقة العبادة، فمتى خلت العبادة من هذين الأمرين أو من أحدهما فليست عبادة، فإن حقيقتها الذل والانكسار لله، ولا يكون ذلك إلا مع محبته المحبة التامة التي تتبعها المحابّ كلها، والله أعلم.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم هذا التعليق المبارك على يد جامعه الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، وذلك في ثالث ربيع الآخر سنة ألف وثلاثمائة وسبع وستين. وتم نقله من خط المصنف في تسعة عشر من شهر ربيع الآخر سنة ألف وثلاثمائة وسبع وستين والحمد لله.

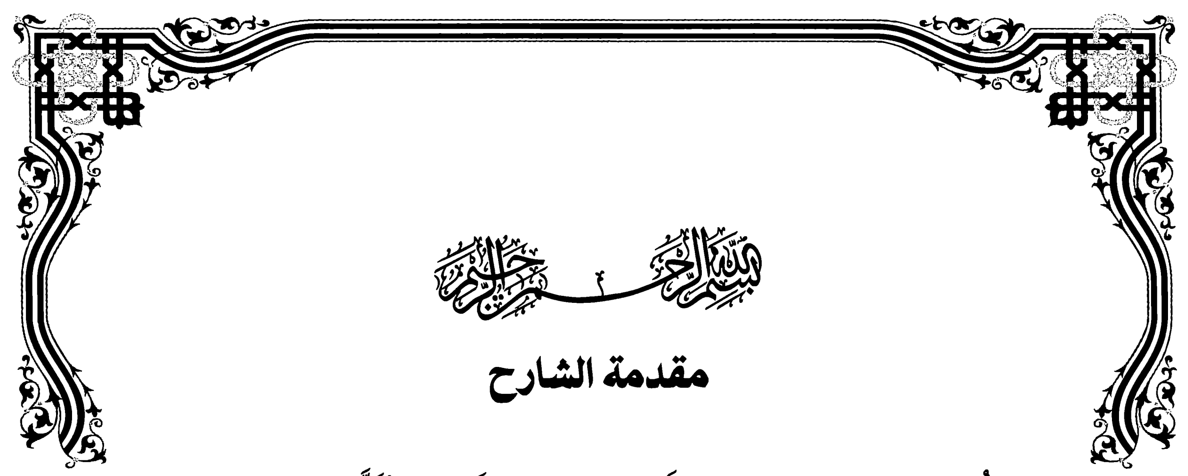


مجموع مؤلفات ابن سعدي (٢٦)

التنبيهات اللطيفة

على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله



مقدمة الشارح

الحمدُ لله الموصوفِ بصفات العَظَمةِ والكبرياءِ والكَمَالِ، المُنَزَّهِ عن الشريكِ والنقصِ والشَّبَهِ والمِثَالِ.

وأَشهدُ أَنَّه المُنْفَرِدُ بالوحدانيةِ المستحقُّ لإفرادِهِ بالعبوديةِ في كُلِّ الأحوال.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم في العقائد والأَخلاق والأَقوال والأَفعال.

أما بعد:

فهذا تعليق لطيف على عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية المسماة بـ «الواسطية» التي جمعت على اختصارها ووضوحها جميع ما يجب اعتقاده من أصول الإيمان وعقائده الصحيحة، وهي وإن كانت واضحة المعاني محكمة المباني، تحتاج إلى تعليق يزيد في توضيح بعض ما فيها من الآيات القرآنية والأَحاديث النبوية وتبين وجه دلالتها على المقصود، وبيان وجه ارتباط بعض المسائل ببعض، وجمع ما يحتاج إلى جمعه في موضع واحد، والإشارة إلى بعض آثارها وفوائدها في القلوب والأَخلاق، والتنبيه لكل ما يحتاج إلى التنبيه عليه.

وأرجو الله أن يكون هذا التعليق على هذا الوصف، وأن يكون خالصًا لوجهه الكريم مقربًا إليه نافعًا سهلًا في ألفاظه ومعانيه.

مقدمة المصنف

قال المصنِّف رحمه الله وقدس روحه في عليِّين: (الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا).

(الحمد لله) أي: أن جميع أوصاف الكمال ثابتة لله على أكمل الوجوه وأتمها، ومما يحمد عليه نِعَمُهُ على العباد التي لا يُحصي أحد من الخلق تعدادها، وأعظمُها إرساله محمدًا ﷺ رحمة للعالمين (بالهدى) الذي هو العلم النافع (ودين الحق) الذي هو العمل الصالح (ليظهره) على جميع الأديان بالحجة والبرهان وبالعز والسلطان، (وكفى بالله شهيدًا) على صدق رسوله وحقيقة ما جاء به، وشهادتُه تعالى بقوله وفِعْله وتأييده لرسوله بالنصر والمعجزات والبراهين المتنوعة الدال كل واحد منها - فكيف بجميعها - على رسالته وصدقه، وأن جميع ما جاء به هو الحق من عقائد وأخلاق وآداب وأعمال وغيرها.

(وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارًا به وتوحيدًا).

أي: أُقِرُّ وأعترف مصدقًا ومنقادًا أنه لا يستحق الألوهية: وهي التفرد بكل كمال إلا الله، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له.

ولهذا قال: (إقرارًا به)، أي بالقلب واللسان (وتوحيدًا)، أي: إخلاصًا لله في كل عبادة قولية أو عملية أو اعتقادية، وأعظم ما يوحد به ويتقرب إليه به تحقيق العقيدة السلفية، المحتوي عليها هذا الكتاب، وبتحقيق العقيدة تصلح الأعمال وتقبل وتستقيم الأمور.

(وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم تسليمًا مزيدًا).

الشهادة للرسول بالرسالة والعبودية مقرونة بالشهادة لله بالتوحيد لا يكفي إحداهما عن الأخرى ولا بد فيها من اعتراف العبد بكمال عبودية النبي ﷺ لربه وكمال رسالته المتضمنة لكماله ﷺ، وأنه فاق جميع البشر في كل خصلة كمال ولا تسمى شهادة حتى يُصدِّقه العبد في كل ما أخبر ويطيعه في كل ما أمر وينتهي عما نهى عنه.

وبهذه الأمور تتحقق الشهادة لله بالتوحيد، وللرسول بالرسالة.

ثم قال المصنف: (أما بعد: فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره).

يقول المصنف رحمه الله: إن ما احتوت عليه هذه الرسالة هو العقيدة المنجية من الهلاك والشرور، المُحصّلة لخيري الدنيا والآخرة الموروثة عن محمد ﷺ المأخوذة عن كتاب الله وسنة رسوله، وهي التي عليها الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة الذي ضمن الله لهم على لسان رسوله النصر إلى قيام الساعة.

والنصر إنما حصل لهم ببركة هذه العقيدة والعمل بها وتحقيقها بالقيام بجميع أمور الدين.

وأصلها الذي تبنى عليه هو الإيمان بهذه الأصول الستة التي صرح بها الكتاب والسنة في مواضع كثيرة جملة وتفصيلًا، وتأصيلًا وتفريعًا، وهي المذكورة في حديث جبريل المشهور[1] حين سأل جبريل النبي ﷺ عن الإيمان. فأجابه بها.

فهذه الرسالة من أولها إلى آخرها تفصيل لهذه الأصول الستة.



(١) البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (١٠).

فصل

الصفات

في الأصل الأول، وهو أصل الأصول كلها وأعظمها وأهمها، وعليه تنبني جميع الأصول والعقائد وهو: الإيمان بالله.

قال المصنف:(ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأن الله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يُحَرِّفون الكلم عن مواضعه ولا يُلحِدون في أسماء الله وآياته ولا يُكَيِّفون ولا يُمَثِّلون صفاته بصفات خلقه؛ لأنه سبحانه لا سمي له ولا كُفُوَ له ولا ندَّ له ولا يُقَاس بخلقه سبحانه.

فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا من خلقه، ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون، ولهذا قال سبحانه:

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

(فسبَّح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب).

ذكر المصنف رحمه الله هذا الأصل والضابط العظيم في الإيمان بالله إجمالًا قبل أن يشرع في التفصيل؛ ليبني العبد على هذا الأصل جميع ما يرد عليه من الكتاب والسنة، فيستقيم له إيمانه ويسلَمُ من الانحراف.

فذكر أنه يجب ويتعين الإيمان بكل ما أخبر الله به في كتابه وأخبر به رسوله ﷺ عن ربه إيمانًا صحيحًا سالمًا من التحريف والتعطيل، وسالمًا من التكييف والتمثيل، بل يثبت ما أثبته الله ورسوله ولا يزيد على ذلك ولا ينقص، فإن الكلام على ذات الباري وصفاته واحدٌ، فكما أن لله ذاتًا لا تشبهها الذوات، فله تعالى صفات لا تشبهها الصفات، فمن مال إلى نفي الصفات أو بعضها فهو ناف مُعَطِّلٌ مُحَرف، ومن كيَّفها أو مثَّلها بصفات الخلق فهو مُمَثِّلٌ مُشَبِّه.

والفرق بين التحريف والتعطيل: أن التعطيل: نفي للمعنى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة. والتحريف: تفسير للنصوص بالمعاني الباطلة التي لا تدل عليها بوجه من الوجوه.

فالتحريف والتعطيل قد يكونان متلازمين إذا أُثْبتَ المعنى الباطل، ونفي المعنى الحق، وقد يوجد التعطيل بلا تحريف كما هو قول النافين للصفات الذين ينفون الصفات الواردة في الكتاب والسنة ويقولون: ظاهرها غير مراد! ولكنهم لا يعينون معنى آخر، ويسمون أنفسهم مفوِّضة ويظنون أن هذا مذهب السلف وهو غلط فاحش، فإن السلف يثبتون الصفات، وإنما يفوضون علم كيفيتها إلى الله، فيقولون: الوصف المذكور معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، وإثباته واجب، والسؤال عن كيفيته بدعة، كما قال الإمام مالك وغيره في الاستواء[1].

وأما قوله: من غير تكييف ولا تمثيل، فالفرق بينهما أن:

التكييف: هو تكييف صفات الله والبحث عن كنهها.

والتمثيل: أن يقال فيها: إنها مثل صفات المخلوقين فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) اللالكائي في شرح أصول السنة (٦٦٤، ٦٦٥).

ونفي الكفؤ والند والسمي ينفي ذلك التكييف والتمثيلَ.

وقل مثله في ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ و﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ ونحوها من إثبات أسماء الله وصفاته تنفي التعطيل والتحريف.

فالمؤمن الموحد يثبت الصفات كلها على الوجه اللائق بعظمة الله وكبريائه.

والمعطل ينفيها أو ينفي بعضها، والمشبه المُمَثّل يُثْبِتُها على وجهٍ يليق بالمخلوقِ.

ونصوص الكتاب والسنة التي يتعذر إحصاؤها كلها تشترك في دلالتها على هذا الأصل، وهو إثبات الصفات على وجه الكمال الذي لا يشبهه كمال أحد، وهي في غاية الوضوح والبيان وأعلى مراتب الصدق.

فإن الكلام إنما يقصر بيانُه ودلالتُه لأمورٍ ثلاثة:

إما: جهل المتكلم وعدم علمه وقصوره.

وإما: عدم فصاحته وبيانه.

وإما: كذبه وغشه.

أما نصوص الكتاب والسنة، فإنها بريئة من هذه الأمور الثلاثة من كل وجه.

فكلام الله ورسوله في غاية الوضوح والبيان وفي غاية الصدق كما قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

والرسول ﷺ في غاية النصح والشفقة العظيمة على الخَلْق، وهو من أعلم الخلق وأصدقهم وأفصحهم، وأنصح الخَلْقِ للخَلْق، وهل يُمكن أن يكون في كلامه شيء من النقص أو القصور؟ بل كلامه هو الغاية التي ليس فوقها غاية في الوضوح والبيان للحقائق.

وهذا برهان على أن كلام الله وكلام رسوله يوصل إلى أعلى درجات العلم واليقين، والله يقول [الحق] وهو يهدي السبيل.

والحق النافع هو ما اشتمل عليه كلام الله وكلام رسوله في جميع أبواب العلم لا سيما في هذا الباب الذي هو أصل الأصول كلها.

وهذا معنى قول المصنف في إيراده للآية الكريمة:

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

فسبح نفسه عما قاله المخالفون للرسل وسلَّم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب، أي: قال: الحمد لله ربّ العالمين لدلالة الحمد على الكمال المطلق من جميع الوجوه.

(وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات، فلا عدول لأهل السنة عما جاء به المرسلون، فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين).

هذا الذي ذكره المصنف ضابط نافع في كيفية الإيمان بالله وبأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وأنه مبني على أصلين:

أحدهما: النفي.

وثانيهما: الإثبات.

أما النفي: فإنه ينفي عن الله ما يضاد كماله من أنواع العيوب والنقائص، وينفي عنه أيضًا أن يكون له شريك أو نديد أو مثيل في شيء من صفاته أو في حق من حقوقه الخاصة، فكل ما ينافي صفات الكمال فإنَّ الله منزه عنه مُقَدَّس.

والنفي مقصود لغيره، القصد منه الإثبات، ولهذا لم يرد نفي شيءٍ في الكتاب والسنة عن الله إلا لقصد إثبات ضده، فنفي الشريك والنديد عن الله لكمال عظمته وتفرده بالكمال، ونفي السِّنَةِ والنوم والموت لكمال حياته، ونفي عُزوب شيءٍ عن علمه وقدرته وحكمته، كل ذلك لإثبات سعة علمه وتحول حكمته وكمال قدرته.

ولهذا كان التنزيه والنفي لأمور مجملة عامة.

وأما الإثبات: فإنه يجمع الأمرين: المجملات: كالحمد المطلق، والكمال المطلق، والمجد المطلق ونحوها، وإثبات المفصلات: كتفصيل علم الله وقدرته وحكمته ورحمته ونحو ذلك من صفاته.

فأهل السنة والجماعة لزموا هذا الطريق الذي هو الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم، وبلزومهم لهذا الطريق النافع تمت عليهم النعمة، وصحت عقائدهم، وكَمُلَت أخلاقهم، أما من سلك غير هذا السبيل، فإنه منحرف في عقيدته وأخلاقه وآدابه.

(وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن حيث يقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]).

هذا شروع في تفصيل النصوص الواردة في الكتاب والسنة الداخلة في الإيمان بالله، وأنه يجب فيها إثباتها ونفي التعطيل والتحريف والتكييف والتمثيل عنها، فثبت عنه ﷺ في **الصحيح**[(١)] أن هذه السورة «تعدل ثلث القرآن». وذلك كما قال أهل العلم: إن القرآن يحتوي على علوم عظيمة كثيرة وهي ترجع إلى ثلاثة علوم:

أحدها: علوم الأحكام والشرائع الداخل فيها علوم الفقه كلها عباداته ومعاملاته وتوابعهما.

الثاني: علوم الجزاء على الأعمال والأسباب التي يجازى بها العاملون من خير وشر،

---

(١) البخاري (٥٠١٣)، ومسلم (٨١١).

وبيان تفصيل الثواب والعقاب.

الثالث: علوم التوحيد وما يجب على العباد من معرفته والإيمان به، وهو أشرف العلوم الثلاثة.

وسورة الإخلاص كفيلة باشتمالها على أصول هذا العلم وقواعده.

فإن قوله: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: الله متفرد بالعظمة والكمال، ومتوحد بالجلال والجمال والمجد والكبرياء، يحقق ذلك قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي: الله السيد العظيم الذي قد انتهى في سؤدده ومجده وكماله، فهو العظيم الكامل في عظمته، العليم الكامل في علمه، الحكيم الكامل في حلمه، فهو الكامل في جميع نعوته وأسمائه وصفاته.

ومن معاني «الصمد» أنه الذي تصمد إليه الخليقة كلها، وتقصده في جميع حاجاتها ومهماتها، فهو المقصود، وهو الكامل المعبود.

فإثبات الأحدية لله ومعاني الصمدية كلها يتضمن إثبات تفاصيل جميع الأسماء الحسنى والصفات العلى.

فهذا أحد نوعي التوحيد وهو الإثبات، وهو أعظم النوعين.

والنوع الثاني: التنزيه لله عن الولادة والند والكفو والمثل، وهذا داخل في قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي: ليس له مكافئ ولا مماثل ولا نظير، فمتى اجتمع للعبد هذه المقامات المذكورة في هذه السورة بأن نزه الله وقدسه عن كل نقص وند وكفؤ ومثيل، وشهد بقلبه انفراد الرب بالوحدانية والعظمة والكبرياء وجميع صفات الكمال التي ترجع إلى هذين الاسمين الكريمين وهما الأحد الصمد، ثم صمد إلى ربه وقصده في عبوديته وحاجته الظاهرة والباطنة، متى كان كذلك تم له التوحيد العِلْمِي الاعتقادي، والتوحيد العَمَلي، فحق لسورة تشتمل على هذه المعارف أن تعدل ثلث القرآن.

قال المصنف: (ودخل في ذلك ما وصف به نفسه في أعظم آية من القرآن حيث يقول:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]).

ولهذا «**من قرأ هذه الآية في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح**»[١]. وذلك لاشتمالها على أجلِّ المعارف وأوسع الصفات، فأخبر أنه المتوحد في الألوهية المستحق لإخلاص العبودية، وأنه الحي كامل الحياة، وذلك يقتضي كمال عزته، وقدرته، وسَعَة علمه، وشُمولَ حكمته، وعموم رحمته، وغيرها من صفات الكمال الذاتية، وأنه القيوم الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع المخلوقات، وقام بالموجودات كلها فخلقها وأحكمها ورزقها ودبَّرها وأمدَّها بكل ما تحتاج إليه.

وهذا الاسم يتضمن جميع الصفات الفعلية، ولهذا ورد أن الحي القيوم هو الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب وإذا سئل به أعطى[٢]، لدلالة «الحي» على الصفات الذاتية و«القيوم» على الصفات الفعلية، والصفات كلها ترجع إليهما.

ومن كمال قيوميته وحياته أنه ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾ وهي النعاس ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾، ثم ذَكَرَ عُمومَ ملكه للعالم العُلويِّ والسُّفلي.

ومن تمام ملكه أن الشفاعة كلها لله، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ففيها ذكر الشفاعة التي يجب إثباتها، وهي التي تقع بإذنه لمن ارتضى.

والشفاعة المنفية التي يعتقدها المشركون ما كانت تطلب من غير الله وبغير إذنه، فمن كمال عظمة الله أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن إلَّا فيمن رضي قوله وعمله، وبيّن أن المشركين لا تنفعهم شفاعة الشافعين، ثم ذكر سعة علمه فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا

(١) البخاري (٣٢٧٥ - معلقًا)، والنسائي (٩٥٩).

(٢) أبو داود (٩٨٥)، النسائي (٣/ ٥٢).

خَلْفَهُمْ ﴾ أي: علمه محيط بالأمور الماضية والمستقبلة فلا يخفى عليه منها شيء، وأما الخلق فلا يحيطون بشيء من علم الله لا قليل ولا كثير إلا بما شاء أن يُعْلِمَهُمُ الله على ألسنة رُسُله وبطرق وأسباب متنوعة.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ﴾ قيل: إنه العرش، وقيل: إنه غيره، وإنه كرسي ملكه من عِظَمِهِ وسعته أنه وَسعَ السماوات والأرض، ومع ذلك فلا يَئودُه أي: لا يثقله ولا يكربُهُ - حفظهما - أي: حفظ العالم العُلويّ والسُّفليّ - وذلك لكمال قُدرته وقُوّته.

وفيها بيان لعظيم نعمة الله على الخلق؛ إذ خلق لهم السماوات والأرض وما فيهما وحَفِظَهما وأمسكهما عن الزوال والتَّزَلزُل وجعلهما على نظام بديع جامع للأحكام والمنافع المُتعَدِّدة التي لا تحصى وهو ﴿ٱلْعَلِيُّ ﴾ الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه:

علوّ الذات بكونه فوق جميع المخلوقات على العرش استوى.

وعلوّ القدر: إذ كان له كل صفة كمال وله من تلك الصفة أعلاها وغايتها.

﴿ ٱلْعَظِيمُ ﴾: الذي له جميع أوصاف العظمة والكبرياء وله العظمة والتعظيم الكامل في قلوب أنبيائه وملائكته وأصفيائه الذي لا أعظَمَ منه ولا أجَلَّ ولا أكبر، فحقيق بآية تحتوي على هذه المعاني الجليلة أن تكون أعظم آيات القرآن[1]، وأن يكون لها من الواقع وحفظ قارئها من الشرور والشياطين ما ليس لغيرها.

(وقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣]).

قد فسر النبي ﷺ هذه الأسماء الأربعة بتفسير مختصر جامع واضح حيث قال: **«أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء،**

(١) كما صح عن أُبي بن كعب أنه قال: قال ﷺ: «يا أبا المنذر! أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟». قلت: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾. فضرب في صدري، وقال: «لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر». مسلم (٨١٠).

وأنت الباطن فليس دونك شيء»[1].

وهذا يدل على كمال عظمته وأنه لا نهاية لها، وبيان إحاطته من كل وجه، فـ «الأول والآخر» إحاطته الزمانية، و«الظاهر والباطن» إحاطته المكانية.

ثم صرح بإحاطة علمه بكل شيء من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة ومن العالم العُلويّ والسُّفليّ، ومن الظواهر والبواطن والواجبات والجائزات والمستحيلات، فلا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وقوله: (﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨]. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الشورى: ٤].

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [سبأ: ١، ٢]. ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ [فاطر: ١١]. ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨]. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى: ١١]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨]. ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف: ٣٩]. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة: ١]. ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥]. ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩]. ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٧]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

(١) مسلم (٢٧١٣)، الترمذي (٣٣٩٧)، أبو داود (٥٠٥١).

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]. ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤]. ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]. ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]. ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]. ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]. ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]. ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء: ٩٣]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [محمد: ٢٨]. ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]. ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]. ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]. ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]. ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١، ٢٢]. ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]. ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]. ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]. ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]. ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٣، ١٤]. ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]. ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]. ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]. ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]. ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩]. ﴿وَقُلِ

ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣]. ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]. ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ [النمل: ٥٠]. ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ [الطارق: ١٥ - ١٦]. ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]. ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: ٨]. ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]. ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]. ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]. ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ٤]. ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ [الإسراء: ١١١]. ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]. ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: ١، ٢]. ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١ - ٩٢]. ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]. ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. في سبعة مواضع من القرآن وقوله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]. ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ [النساء: ١٥٨]. ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]. ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧]. ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي

سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤]. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧]. ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]. ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦]. ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]. ﴿وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦]. ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧]. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢]. ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١١٦]. ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥]. ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]. ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم: ٥٢]. ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠]. ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف: ٢٢]. ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص: ٦٢]. ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥]. ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦]. ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ [البقرة: ٧٥]. ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ [الفتح: ١٥]. ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ [الكهف: ٢٧]. ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل: ٧٦]. ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١]. ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ

لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠١ - ١٠٣].
﴿ وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. ﴿ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين: ٢٣].
﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]. ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣٥].

وهذا الباب في كتاب الله كثير، من تدبر القرآن طالبًا الهدى منه تبيَّن له طريق الحق).

أقول: ذكر المصنف رحمه الله في هذا الموضع عدة آيات، وكلها داخلة في الإيمان بالله، ويتضح معناها عمومًا وخصوصًا بذكر أصول وضوابط نوضحها فيما يأتي:

منها: أن هذه النصوص القرآنية تنطبق عليها القاعدة المتفق عليها بين السلف، وهو أنه يجب الإيمان بجميع الأسماء الحسنى وما دلت عليه من الصفات وما نشأ عنها من الأفعال، مثال ذلك في القدرة، يجب علينا الإيمان بأنه على كل شيء قدير، والإيمان بكمال قدرة الله، والإيمان بأن قدرته شاملة لجميع الكائنات، وبأنه عليم ذو علم محيط، وأنه يعلم الأشياء كلها.

وهكذا بقية الأسماء الحسنى على هذا النمط كما في هذه الآيات التي ذكرها المصنف من الأسماء الحسنى، فإنها داخلة في الإيمان بالأسماء وما فيها من ذكر الصفات، مثل عزة الله وقدرته وعلمه وحكمته وإرادته ومشيئته وكلامه وأمره وقوله ونحوها، فإنها داخلة في الإيمان بالصفات، وما فيها من ذكر الأفعال المطلقة والمقيدة مثل: ﴿ يَعۡلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [العنكبوت: ٥٢]. ويعلم كذا وكذا، ويحكم ويريد، وَسمعَ ويسمع، ويرى وأسمع وأرى، وقال ويقول، وكلّم ويكلِّم، ونادى وناجى، ونحوها من الأفعال، فإنها داخلة في الإيمان بأفعاله تعالى.

فعلى العبد الإيمان بكل ذلك إجمالًا وتفصيلًا وإطلاقًا وتقييدًا على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته، وأن يعلم أن صفاته لا تشبهها صفات المخلوقين، كما أن ذاته لا تشبهها ذوات المخلوقين.

ومن الأصول المتفق عليها بين السلف التي دلت عليها هذه النصوص أنّ صفات الباري قسمان:

صفات ذاتية: لا تنفك عنها الذات كصفة الحياة، والعلم، والقدرة والقوة، والعزة، والملك، والعظمة، والكبرياء، ونحوها، كالعلو المطلق.

وصفات فعليّة: تتعلق بها أفعاله كل وقت وآن وزمان، ولها آثارها في الخلق والأمر، فيؤمنون بأنه تعالى فعّال لما يريد وأنه لم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور، وأن أفعاله تقع شيئًا فشيئًا تبعًا لحكمته وإرادته، كما أن شرائعه وأوامره ونواهيه الشرعية لا تزال تقع شيئًا فشيئًا.

وقد دل على هذا الأصل الكبير ما في هذه النصوص من ذكر (قال) و(يقول) و(سمع) و(يسمع) و(كلم) و(يكلم) و(نادى) و(ناجى) و(عَلِم) و(كتب) و(يكتب) و(جاء) و(يجيء) و(أتى) و(يأتي) و(أوحى) و(يُوحي) ونحوها من الأفعال المتنوعة التي تقع مقيدة بأوقاتها كما سمعت في هذه النصوص المذكورة آنفًا.

وهذا من أكبر الأصول وأعظمها.

ولقد صنّف فيه المؤلف مصنفًا مستقلًّا وهو المسمى بالأفعال الاختيارية.

فعلى المؤمن الإيمان بكل ما نسبه الله لنفسه من الأفعال المتعلقة بذاته كالاستواء على العرش، والمجيء، والإتيان، والنزول إلى السماء الدنيا، والقول، ونحوها، والمتعلقة بخلقِه كالخَلْقِ والرِّزق وأنواع التدبير.

ومن الأصول الثابتة في الكتاب والسنة المتفق عليها بين السلف التفريق بين مشيئة الله وإرادته وبين محبته؛ فمشيئة الله وإرادته الكونية تتعلَّق بكلِّ موجود محبوب لله وغير محبوب، كما ذُكر في هذه الآيات أن الله يفعل ما يُريد وما يشاء وإذا أراد شيئًا قال له: كن، فيكون، وأما محبته فإنها تتعلق بما يحبه خاصة من الأشخاص والأعمال كما ذكر في هذه

الآيات تقييدها بأنه يحب الصابرين والمتقين والمؤمنين والمحسنين والمقسطين ونحوها، فمشيئته عامة للكائنات ومحبته خاصة ومتعلقة بالمحبوبات.

ويتفرع عن هذا أصل آخر وهو التفريق بين الإرادة الكونية - فإنها تطابق المشيئة - وبين الإرادة الدينية - فإنها تطابق المحبة - فالأولى مثل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤].

﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]. ونحوها، والثانية نحو: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء: ٢٧] ونحوها.

ومع ذلك فجميع ذلك خاصه وعامه يثبته أهل السنة والجماعة على الوجه الذي قاله الله ورسوله.

ومن أصول أهل السنة والجماعة الثابتة: إثبات علو الله على خلقه واستوائه على عرشه، وهي من أهم الأصول التي باين[1] بها أهل السنة الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، فما في هذه الآيات من ذكر علو الله واسمه العلي الأعلى، وصعود الأشياء إليه وعروجها ونزولها منه يدل على العلو.

وما صرَّح به من استوائه على العرش برهان قاطع على ثبوت ذلك، وقد قيل للإمام مالك: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه - أي عن الكيفية - بدعة.

ومن أصول أهل السنة والجماعة إثبات معية الله، كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾ [المجادلة: ٧].

وهذه المعية تدل على إحاطة علمه بالعباد، ومجازاته لهم بأعمالهم وفيها ذكر المعية الخاصة كقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

---

(١) أي: افترقوا بها عن غيرهم.

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وهذه الآيات تدل مع العلم المحيط على العناية بمن تعلقت به تلك المعية، وأن الله معهم بعونه وحفظه وكلاءته[1] وتوفيقه.

وإذا أردت أن تعرف: هل المراد المعية العامة أو الخاصة؟ فانظر إلى سياق الآيات، فإن كان المقام مقام تخويف ومحاسبة للعباد على أعمالهم وحث على المراقبة، فإن المعية عامة مثل قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المجادلة: ٧] الآية.

وإن كان المقام مقام لطف وعناية من الله بأنبيائه وأصفيائه وقد رُتِّبت المعية على الاتصاف بالأوصاف الحميدة، فإنّ المعيّة معيّة خاصة، وهو أغلب إطلاقاتها في القرآن مثل: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ ونحوها.

ومن الأصول العظيمة: إثبات تفرد الرب بكل صفة كمال وأنه ليس لله شريك ولا مثيل في شيء منها، والنصوص المذكورة التي فيها نفي الند والمثل والكفؤ والسَّمِيِّ عن الله تدل على ذلك، وتدل على أنه منزه عن كل عيب ونقص وآفة.

ومن أصول أهل السنة والجماعة الثابتة: إثبات رؤية المؤمنين لربهم في دار القرار والتنعم برؤيته وقربه ورضاه، ويدل على ذلك من الآيات التي ذكرها المصنف قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ أي: جميلة ناعمة حسنة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. وهذا صريح في نظرهم إلى ربهم، وكذلك قوله: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣]. أي: إلى ما أعطاهم من النعيم الذي أجله وأعظَمُهُ النظر إلى ربهم، وكذلك قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ أي: وفوا مقام الإحسان. ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ التي هي الجنة. ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وهي النظر إلى وجه الله الكريم[2]، وكذلك قوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

---

(١) أي: حفظه.

(٢) مسلم (١٨١)، الترمذي (٢٥٥٥).

فصل

أهل السُّنَّة وأهل البِدَع

اعلم أن أهل السنة والجماعة وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان وأهل القرون المفضلة متفقون على إثبات جميع ما ورد في الكتاب والسنة من صفات الله لا فرق بين الذاتية منها كالعلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر ونحوها، ولا بين الفعلية كالرضا والغضب والمحبة والكراهية.

وكذلك لا فرق بين إثبات الوجه واليدين ونحوها وبين الاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا كل ليلة وغيرها.

وكُلُّها يُثْبِتُونَها من غير نفي لشيء منها ولا تأويل ولا تحريف ولا تمثيل، وهذا هو الحق وهو الصراط المستقيم وهو الطريق المُنْجي من عذاب الله، والهدى والنور، وخالفهم في هذا الأصل طائفتان من أهل البِدَع:

إحداهما: الجهمية والمعتزلة على اختلاف طوائفهم، فإنهم نفوا جميع الصفات ولم يثبتوا إلا الأسماء والأحكام، والآيات السابقة كلها تنقض قولهم وَتُبْطِلُه، وكذلك كلامهم هذا يَنْقُض بعضُه بعضًا، فإن إثبات الأسماء والأحكام بلا أوصاف تقوم بالله محال عقلًا كما أنه باطل سمعًا.

الطائفة الثانية: الأشعرية ومن تبعهم وهم أخف حالا وأهون من المعتزلة؛ لأنهم وافقوا أهل السنة في شيء ووافقوا المعتزلة في شيء:

وافقوا أهل السنة في إثبات الصفات السبع وهي الحياة والكلام والعلم والسمع والبصر

والإرادة والقدرة، ووافقوا المعتزلة في بقية الصفات، والجميع محجوجون بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقرون المفضلة على الإثبات العام.

وأما النفي للصفات كلها أو التناقض فإنه مخالف للكتاب والسنة ومنافٍ للعقل الصحيح، فلا يثبت للعبد إيمان إلا بالإيمان المحض والتسليم لما جاء به الرسول بلا شرط ولا قيد، والدَّوَران مع النصوص الشرعية إثباتًا أو نفيًا.

فصل

في سنة رسول ﷺ

(فالسنة تفسر القرآن وتُبَيِّنه وتَدُلُّ عليه، وتُعَبِّر عنه، وما وصف الرسول به ربه عزّ وجل من الأحاديث الصحاح التي نقلها وتلقاها أهل المعرفة بالقبول وجب الإيمان بها كذلك).

أي إيمانًا خاليًا من التعطيل والتحريف، ومن التكييف والتمثيل، بل إثباتًا لها على الوجه اللائق بعظمة الرب.

وحُكْمُ السُّنة حُكْمُ القرآن في ثبوت العلم واليقين والاعتقاد والعمل، فإن السنة توضح القرآن وتبين مجمله وتُقَيِّد مطلقه، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]. أي: السنة، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

(وذلك مثل قوله ﷺ: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ ومن يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له؟**» متفق عليه)[1].

فهذا الحديث قد استفاض في الصحاح والسنن والمسانيد، واتُّفق على تلقيه بالقبول والتصديق بين أهل السنة والجماعة، بل جميع المسلمين الذين لم تُغَيِّرهم البدع، وعرفوا به عظيم رحمة ربهم وَسَعَةَ جُوده واعتناءه بعباده وتعرضه لحوائجهم الدينية والدنيوية وأن نزوله حقيقة كيف يشاء فيثبتون النزول كما يثبتون جميع الصفات التي ثبتت في الكتاب

(١) البخاري (١١٤٥)، مسلم (٧٥٨).

والسنة ويقفون عند ذلك، فلا يُكيفون، ولا يُمثلون، ولا يَنْفُون، ولا يُعطِّلون، ويقولون: إن الرسول أخبرنا أنه ينزل ولم يخبرنا كيف ينزل، وقد علمنا أنه فعال لما يريد وعلى كل شيء قدير.

ولهذا كان خواص المؤمنين يتعرضون في هذا الوقت الجليل لألطاف ربهم ومواهبه، فيقومون بعبوديّته خاضعين خاشعين داعين متضرعين يرجون منه حصول مطالبهم التي وعدهم إياها على لسان رسوله ﷺ، ويعلمون أن وعده حق ويخشون أن ترد أدعيتهم بذنوبهم ومعاصيهم، فيجمعون بين الخوف والرجاء، ويعترفون بكمال نعمة الله عليهم فتمتلئ قلوبهم من التعظيم والإيمان لربهم ومن التصديق والإذعان.

(وقوله ﷺ: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن التائب من أحدكم براحلته»... الحديث) متفق عليه[1].

وهذا فرح جود وإحسان، لأنه جل جلاله ينوع جوده وكرمه على عباده من جميع الوجوه ويحب من عباده أن يسلكوا كل طريق يوصلهم إلى كرمه وإحسانه ويكره لهم ضد ذلك، فإنه تعالى جعل لرحمته وكرمه أسبابًا بينها لعباده وحثهم على سلوكها وأعانهم عليها ونهاهم عما ينافيها ويمنعها، فإذا عصوه وبارزوه بالذنوب فقد تعرضوا لعقوباته التي لا يحب منهم أن يتعرضوا لها، فإذا رجعوا إلى التوبة والإنابة فرح بذلك أعظم فرح يُقَدَّر، فإنه ليس في الدنيا نظير فرح هذا الذي في أرض فلاة مُهْلِكة وقد انفلتت منه راحلته التي عليها مادّة حياته من طعام وشراب وركوب فأيس منها وجلس ينتظر الموت فإذا هو بها واقفة على رأسه فأخذ بخطامها[2] وكاد الفرح أن يقضي عليه، وقال من الدهشة وشدة الفرح: **«اللهم أنت عبدي وأنا ربك، فهل يوجد فرح أعظم من فرح الآيس من حياته إذا حصلت له على أكمل الوجوه؟»**[3].

---

(١) البخاري (٦٣٠٨)، مسلم (٢٧٤٤).

(٢) هو زمامها الذي تقاد به.

(٣) البخاري (٢٣٩٢)، مسلم (٢٧٤٧).

فتبارك الرب الكريم الجواد الذي لا يُحصي العباد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده.

وهذا الفرح تبع لغيره من الصفات كما تقدم أن الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات، فهذا فرح لا يشبه فرح أحد من خلقه لا في ذاته ولا في أسبابه ولا في غاياته، فسببه الرحمة والإحسان، وغايته إتمام نعمته على التائبين المنيبين.

(وقوله ﷺ: «**يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخل الجنة**» متفق عليه)[1].

وهذا أيضًا من كمال وجمال إحسانه وسعة رحمته؛ فإن المسلم يقاتل في سبيل الله ويقتله الكافر، فيكرم الله المسلم بالشهادة، ثم يمنّ الله على ذلك الكافر القاتل فيهديه للإسلام، فيدخلان الجنة جميعًا، وهذا من تنويع جوده المُتتابع على عباده من كل وجه.

والضحك يكون من الأُمور العجيبة التي تخرج عن نظائرها، وهذه الحالة المذكورة كذلك، فإن تسليط الكافر على قتل المسلم في بادئ الأمر أمر غير محبوب، ثم هذا المتجرِّئ على القتل يتبادر لأذهان كثير من الناس أنه يبقى على ضلاله ويعاقب في الدنيا والآخرة، ولكن رحمة الله وإحسانه فوق ذلك كله، وفوق ما يظن الظانون ويتوهم المُتوهِّمون، وكذلك لما دعا النبي ﷺ على أُناسٍ من رؤساء المشركين لعنادهم وأذيّتهم بالطرد عن رحمة الله أنزل الله قوله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. فتاب عليهم بعد ذلك وحسن إسلام كثير منهم[2].

(وقوله ﷺ: «**عجب ربُّنا من قُنوط عباده وقُرْب غيثه**[3] **ينظر إليكم أزلين**[4] **قَنِطين، فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب**». حديث حسن)[5].

---

(١) البخاري (٢٨٢٦)، مسلم (١٨٩٠). (٢) البخاري (٤٠٦٩)، الترمذي (٣٠٠٣).

(٣) كذا وهذا اللفظ أورده ابن كثير في تفسيره ١/ ٢٥٢.

(٤) متضايقين، ومفردها: أزل. (٥) ابن ماجه (١٨١).

وهذا العَجَبُ الذي وصف الرسول به ربَّه من آثار رحمة الله، وهو من كماله تعالى، والله تعالى ليس كمثله شيء في جميع نعوته، فإذا تأخَّر الغيثُ عن العباد مع فقرهم وشدة حاجتهم استولى عليهم اليأس والقنوط وصار نظرهم قاصرًا على الأسباب الظاهرة، وحسبوا ألا يكون وراءها فرجٌ من القريب المُجيب، فيعجب الله منهم.

وهذا محل عجب! كيف يقنطون ورحمته وسعت كل شيء؟!

والأسباب لحصولها قد توفرت، فإن حاجة العباد وضرورتهم من أسباب رحمته، والدعاء لحصول الغيث والرجاء لله من الأسباب، ووقوع الغيث بعد امتناعه مدة طويلة وحصول الضرورة يُوجِبُ أن يكون لفضل الله وإحسانه موقع كبير وأثر عجيب، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: ٤٨، ٤٩].

والله تعالى قدَّر من ألطافِهِ وعوائده الجميلة أن الفرج مع الكرب وأنَّ اليُسر مع العسر. وأن الضرورة لا تدوم، فإن حصل مع ذلك قوة التجاء، وشدّة طمع بفضل الله ورجاء، وتضرع كثير ودعاء، فتح الله عليهم من خزائن جوده ما لا يخطر بالبال، وفي لفظ: (قُرْب غِيَره) أي: تغييره الشِّدة بالرخاء.

(وقوله ﷺ: «لا تزال جهنّم يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع ربُّ العزة فيها رِجْله»، وفي رواية: «عليها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قَط قَطْ». مُتفق عليه)[1].

وهذه الصفة تجري مجرى بقية الصفات تُثْبَتُ لله حقًّا على الوجه اللائق بعظمته، وذلك أن الله وعد النار مَلأَها كما قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. فلَما كان من مقتضى رحمته ألا يعذِّب أحدًا بغير جُرْمٍ، وكانت النار في غاية القعر والسَّعة

(١) البخاري (٧٣٨٤)، مسلم (٢٨٤٨).

حقَّق وعده تعالى ووضع عليها قدمه فتلاقى طرفاها ولم يبْقَ فيها فضل عن أهلها.

وأما الجنة فإنه يبقى فيها فضلٌ عن أهلها مع كثرة ما أعطاهم وسعته، فينشئ الله لها خلقًا آخر، كما ثبت بذلك الحديث فيقول الله تعالى: (يا آدم) فيقول: «**لبّيك وسعدَيك، فيُنادي بصوت: إِنَّ الله يأمُرُك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار**» متفق عليه)[1].

ففي هذا الحديث إثبات القول من الله والنداء لآدم وأنه نداءٌ حقيقة بصوت، وهذا من فضل الله لا يُشْكِل على المؤمنين، فإنّ النداء والقول من أنواع الكلام، وكلام الله صفة من صفاته، والصفةُ تتبع الموصوف. وفيها أن القول والنداءَ يكون في يوم القيامة، وهذا من أدلة الأفعال الاختيارية.

وكم لهذه المسألة من البراهين من الكتاب والسُّنة.

(وقوله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلِّمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان**»)[2]. وهذا أيضًا إثبات لتكليمه لجميع العباد بلا واسطة، وتكليمه لعباده نوعان:

(نوع بلا واسطة): كما في هذا الحديث، وتكليم لأهل الجنة تكليم محبة ورضوان وإحسان، وأما ما في الحديث فإنه تكليم محاسبة، ويكون مع البَرِّ والفاجر، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٤]. فالمنفي كلامٌ خاص وهو الكلام الذي يسر المتكلم.

(ونوع بواسطة): وهو كلامه تعالى لرسله من الملائكة بأمره ونواهيه وأخباره لأنبيائه ورسله من البشر.

(وقوله ﷺ في رُقية المريض: «**ربنا الله الذي في السماء تقدَّس اسمك، أمرك في السماء والأرض كما رحْمتك في السماء، اجعل رحْمتك في الأرض، اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، أنت**

---

(١) البخاري (٧٤٨٣)، مسلم (٢٢٢).

(٢) البخاري (٧٥١٢)، مسلم (١٠١٦).

رب الطيِّبين، أَنْزل رحمة من رحمتك وشفاءً من شفائك على هذا الوجع فيبرأ». حديث حسن رواه أبو داود[1].

وقوله: «**ألا تَأْمَنُونِي وأنا أمين من في السماء**» حديث صحيح [2].

وقوله: «.. **والعرش فوق ذلك والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه**» حديث حسن رواه أبو داود وغيره[3].

وقوله للجارية: «**أين الله؟**» قالت: في السماء، فقال: «**من أنا؟**» قالت: أنت رسول الله، قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**». رواه مسلم) [4].

فهذه النصوص وغيرُها المصرِّحة بأنه تعالى في السماء حق على حقيقتها، و(في) تكونُ بمعنى (على) كما قاله كثير من أهل العلم واللغة، وقد وردت في مواضع كثيرة على هذا النحو قال تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]. أي: عليها، وقال طائفة من أهل العلم: إنَّ معنى (في السماء) أي: في جهة العُلُوّ، وعلى الوجهين فهي نصٌّ في عُلُوِّ الله على خَلْقِه.

وفي حديث الرُّقية المذكور توسل إلى الله بالثناء عليه بربوبيته وأُلوهيّته وقُدسيّته وعُلُوِّه وعموم أمره الشرعي وأمره القدري؛ فإن الله له الأمر القدري الذي ينشأ عنه جميع الموجودات والحوادث والتدابير القدرية كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وله الأمر الشرعي المتضمن الشرائع التي شرعها لعباده على ألسنة رُسُله.

---

(١) (٣٨٩٢).

(٢) البخاري (٤٣٥١)، مسلم (١٠٦٤).

(٣) أبو داود (٤٧٢٣).

(٤) مسلم (٥٣٧).

فتوسل إلى الله بذلك، ثم توسل إليه برحمته التي شملت أهل السماوات كلهم أن يجعل لأهل الأرض نصيبًا وافرًا منها، ثم توسل إليه بسؤال مغفرة الحوب - وهو الذنب العظيم والخطايا وما دونها - ثم بربوبيّته الخاصة للطيبين - وهم الأنبياء وأتباعهم الذين غمرهم بِنِعم الدِّين والدنيا الظاهرة والباطنة.

فهذه الوسائل المتنوعة إلى الله لا يكاد يُرَدُّ دعاء من توسل بها، فلهذا دعا الله بعدها بالشفاء الذي هو شفاء الله الذي لا يدع مرضًا إلا أزاله، ولا فيه تعلق بغير الله، فأفضل المنن منن المولى التي لا سعي لمخلوق فيها.

وفي شهادة الرسول بالإيمان للجارية التي اعترفت بِعُلُوِّ الله ورسالة رسوله دليل على أن من أعظم أوصاف الباري الاعتراف بِعُلُوِّه على خلقه ومباينته لهم، وأنه على العرش استوى، وأن هذا أصل الإيمان، وأن من أنكر علو الله المُطلق من كل وجه فقد حرم هذا الإيمان.

وقوله: «والعرش فوق ذلك، والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه». فيه الجمع بين الإيمان بعلوه على عرشه وفوق مخلوقاته وبإحاطة علمه بالموجودات كلِّها، وقد جمع الله بين الأمرين في عدة مواضع من كتابه.

(وقوله: «**أفضل الإيمان أن تَعْلَم أن الله معك حيثما كنت**» حديث حسن[1]. وقوله: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإنَّ الله قِبَلَ وجهه فلا يبصقن قِبَلَ وجهه، ولا عن يمينه، ولكن عن يساره أو تحت قدمه**» متفق عليه)[2].

هذان الحديثان دَلّا على أن أفضل الإيمان مقام الإحسان والمراقبة، وهو أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وتعلم أن الله معك لا تتكلم ولا تفعل ولا تتصرف إلا والله يراك ويشاهدك ويعلم سرَّك وجهرك وأن تلزم الأدب مع الله خصوصًا إذا دخلت في

---

(١) الطبراني في الكبير (٤٢٥).

(٢) البخاري (٧٥٣)، مسلم (٣٠٠٨).

الصلاة التي هي أعظم صلة ومناجاة بين العبد وبين ربِّه، فتخضع وتخشع وتعلم أنك واقف بين يدي الله فتقلل الحركات ولا تُسيء الأَدب معه بالبصاق أمامك أو عن يمينك، فهذه المعيّة متى حصل للعبد استحضارها في كل أحواله لا سيما في عباداته، فإنها أعظم عون على المراقبة التي هي أعلى مراتب الإيمان، فيجمع العبد بين الإيمان بعُلُوِّ الله واستحضار قُرْبه، ولا منافاة بين الأمرين كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

وقوله: **«اللهم ربَّ السماوات السبع ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر»**. رواه مسلم[١]. وقوله ﷺ لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير: **«أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا إنما تدعون سميعًا قريبًا، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»**. متفق عليه[٢].

(وقوله: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تُضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تُغلبوا على صلاةٍ قَبل طلوع الشمس وصلاةٍ قبل غروبها فافعلوا» متفق عليه)[٣].

وقد تواترت النصوص في رؤية الله لأهل الجنة وأنهم يرون ربهم ويتمتعون بمشاهدته، وهي تدل على أمرين: على عُلُوِّه على خلْقه، لأنها صريحة بأنهم يرونه من فوقهم، وعلى أن أعظم النعيم نعيم النظر إلى وجهه الكريم، وحثُّه ﷺ في هذا الحديث على صلاة العصر وصلاة الفجر خصوصًا فيه إشارة على أن من حافظ عليهما نال هذا النعيم الكامل الذي يضمحل عنده كل نعيم، وهذا يدل على تأكُّدهما كما دل على ذلك الحديث الآخر: **«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر...»** الحديث،

(١) مسلم (٢٧١٣).
(٢) البخاري (٧٣٨٦)، مسلم (٢٧٠٤).
(٣) البخاري (٥٥٤)، مسلم (٦٣٣).

متفق عليه[1].

(إلى أمثال هذه الأحاديث التي يُخبر فيها رسول الله ﷺ عن ربه بما يُخبر به، فإنَّ الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل هم وسط في فرق الأمة، كما أن الأُمة وسط في جميع الأُمم).

والمراد بالوسط العدل الخِيار[2] الذين جمعوا كل حق في أقوال الخَلْقِ وردُّوا ما فيها من الباطل، قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فهذه الأمة وسط بين الأمم التي تميل إلى الغلوّ الضار والأمم التي تميل إلى التفريط المهلك، فمن الأمم من غلا في المخلوقين وجعل لهم من صفات الخالق ومن حقوقه ما جعل.

ومنهم من جفا الأنبياء وأتباعهم حتى قتلهم وردَّ دعوتهم، وهذه الأمة آمنت بكل رسول أرسله الله واعتقدت رسالتهم وعرفت مقاماتِهم الرفيعة التي فضَّلهم الله بها ولم يغلوا في أحدٍ من المخلوقين.

ومن الأمم من أحلّت كل طيِّب وخبيث، ومنهم من حرّم الطيّبات غلوًّا ومجاوزة، وهذه الأمة أحلّ الله لهم الطيبات وحرّم عليهم الخبائث ونحو ذلك من الأُمور التي منَّ الله على هذه الأمة الكاملة بالتوسط فيها.

وكذلك أهل السنة والجماعة متوسطون بين فِرق الأمة المبتدعة التي انحرفت عن الصراط المستقيم.

---

(١) البخاري (٥٥٥)، مسلم (٦٣٢).

(٢) الترمذي (٢٩٦١)، أحمد (١١٢٧١).

(فهم وسط في باب صفات الله تعالى بين الجهميّة أهل التعطيل وبين المُشبِّهة أهل التمثيل).

كما تقدم بيان ذلك، وأن أهل السنة يُثبتون جميع ما ثبت في النصوص من صفات الله على حقيقتها اللائقة بعظمة الباري، وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية، فإن الجبرية يزعمون أن العبد مجبور على أفعاله لا قدرة له عليها وأن أفعاله بمنزلة حركات الأشجار، كل هذا غُلوٌّ منهم في إثبات القَدَر.

والقدرية قابلوهم فنفوا تَعَلُّقَ قُدرةِ الله بأفعال العباد تنزيهًا لله بزعمهم؛ فأفعال العباد عندهم لا تدخل تحت مشيئة الله وإرادته، وكل من هاتين الطائفتين ردَّت طائفة كبيرة من نصوص الكتاب والسُّنة.

وهدى الله أهل السنة والجماعة للتوسط بين الطائفتين المنحرفتين فآمنوا بقضاء الله وقدره وشمولهما للأعيان والأوصاف والأفعال التي من جملتها أفعال المُكَلَّفين وغيرهم، وآمنوا بأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وآمنوا مع ذلك بأن الله تعالى جعل للعباد قدرة وإرادة تقع بها أقوالهم وأفعالهم على حسب اختيارهم وإرادتهم، فآمنوا بكل نص فيه تعميم قدرته ومشيئته لكل شيء وبكل نصٍّ فيه إثبات أن العباد يعملون ويفعلون كل الأفعال الكبيرة والصغيرة بإرادتهم وقدرتهم، وعلموا أن الأمرين لا يتنافيان بل يتساعدان، كما سيأتي توضيح ذلك إن شاء الله.

(وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم).

وذلك أن المرجئة جعلت الإيمان فقط تصديق القلب وأخرجت عنه جميع الأعمال الباطنة والظاهرة، وجوّزوا على الله أن يعذب المطيعين وأن يُنعِّم العاصين.

وأما الوعيدية من القدرية فخلّدوا في النار كل من مات مصرًّا على الكبائر التي دون الشرك، فانحرفت كل واحدة وردت لأجل ذلك من النصوص ما رَدَّت.

وهدى الله أهل السنة والجماعة فتوسَّطوا وقالوا: إن الإيمان اسم لجميع العقائد الدينية والأعمال القلبية والبدنية، وإنه قد يبقى ناقصًا إذا تجرّأ المؤمن على المعاصي بدون توبة، وإن الله لا يظلم من عباده أحدًا ولا يعذب الطائعين بغير جرم ولا ذنب، وإنه لا يُخلِّد في النار من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ولو فعل الكبائر، كما تواترت بذلك النصوص في الكتاب والسنة.

(وفي أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين الجهمية والمرجئة).

وقد تقدم ذلك، لكن الفرق بين الحرورية والمعتزلة: أن الحرورية وهم الخوارج يطلقون الكفر على العُصاة من المؤمنين ويخلدونهم في النار، وأما المعتزلة فلا يطلقون عليهم الكفر بل يقولون: إنهم لا مسلمون ولا كُفار ولكنهم يُخلدونهم في النار كما تقول الخوارج، والنصوص تردُّ قولهم جميعًا.

(وفي أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج).

فإن الرافضة تسبهم وتلعنهم وربما كفَّرتهم أو كفرت بعضهم، وأمّا الرافضة الغالية فإنهم مع سبِّهم لطائفة من الصحابة وللخلفاء الثلاثة فإنهم يَغْلُون في عليٍّ ويَدَّعون فيه الأُلوهية، وهم الذين حرَّقهم عليُّ بن أبي طالب بالنار[1]، وقابلهم الخوارج فقاتلوه وقاتلوا الصحابة وكفّروهم[2] واستحلوا دماءَ الصحابة والمسلمين.

وهدى الله أهل السنة والجماعة، فاعترفوا بفضل الصحابة جميعًا وأنهم أعلى الأُمة في كل خصْلة كمال، ومع ذلك فلم يغْلوا فيهم ولم يعتقدوا عِصْمتهم، بل قاموا بحقوقهم وأحبُّوهم لما لهم من الحق الأكبر على جميع الأمة، كما سيأتي إن شاء الله.



(١) البخاري (٣٠١٧).

(٢) في نسخة أخرى: وكفّروه.

فصل

العُلوّ والفوقيّة

قال المصنف رحمه الله: (وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر الله به في كتابه وتواتر عن رسوله، وأجمع عليه سلف الأمة من أن الله سبحانه فوق سماواته على عرشه، عَليٌّ على خلقه وهو تعالى معهم أينما كانوا يعلم ما هم عاملون، كما جمع بين ذلك في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وليس معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أنه مختلط بالخلق، فإن هذا لا توجبه اللغة وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته، وهو موضوع في السماء وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان، وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه، مُهيمن ومطَّلع عليهم، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته.

وكل هذا الكلام الذي ذكره الله من أنه فوق العرش، وأنه معنا؛ حقٌّ على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف ولكن يُصان عن الظنون الكاذبة مثل أن يظن أن ظاهر قوله: «في السماء» أن السماء تقلُّه أو تظِلُّه، وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان، فإنَّ الله قد ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وهو الذي ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]. ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]).

صرَّح المصنف في هذا الفصل بمسألة العُلُوِّ لله واستوائه على عرشه، وأن ذلك داخل في الإيمان بالله، وذلك لما حصل في هذه المسألة من الاختلاف والمُخاصمات الطويلة بين أهل السنة والجماعة وبين طوائف الجهمية والمعتزلة، ومن تبعهم في هذه المسألة من الأشعرية ونحوهم.

فإن مسألة العُلُوِّ صُنِّفت فيها المُصنفات المستقلة، وأورد فيها أهل السنة من نصوص الكتاب والسنة ما لا يمكن دفعه أو دفع بعضه، وحقّقوا ذلك بالعقل الصحيح وأن الفِطَرَ والعُقول معترفة بل ومضطرة إلى الإيمان بعلوِّ الله، إلا من غَيَّرت فطرته العقائد الباطلة.

وقد بيَّن المصنف في هذا الموضوع الجمع بين الإيمان بعلوِّ الله وإثبات معيته وعلمه المحيط، وحققه في كلام واضح مبين بالأمثلة المقربة للمعاني بما لا مزيد عليه.



فصل
القُرْب

قال المصنف رحمه الله: (وقد دخل في ذلك الإيمان بأنه قريب مجيب كما جَمَع بين ذلك في قوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقوله ﷺ: «إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[(١)].

وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من عُلُوِّه وفوقيته، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته وهو عَلِيٌّ في دنوه قَرِيبٌ في عُلْوِّه).

خصص المصنف رحمه الله هذا البحث بهذين الأمرين، وذلك لشدة الحاجة إلى الإيمان بقربه وإجابته؛ ليكون العبد مراقبًا لله إذا آمن بقربه إيمانًا تامًّا، كثير اللهج بذكره ودعائه منيبًا إليه على الدوام إذا آمن بإجابته للسائلين وإثابته للمطيعين.

ثم ذكر رحمه الله الجمع بين الإيمان بعلو الله وقربه ومعيته لئلا يظن الظانّ أن ذلك مثل صفات المخلوقين، وأنه إذا قيل: إنه عَلِيٌّ فوق خلقه كيف يكون معهم وقريبًا منهم؟ فأجاب بما تضمنه هذا الأصل الثابت في الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وهو أن الله تعالى ليس كمثله شيء في جميع نعوته، ومن نعوته اللازمة العُلُوُّ المطلق والقُرْب العام والخاص، وأن القرب والعلو في حقه يجتمعان لعظمته وكبريائه وإحاطته من كل وجه، فهو العليُّ في دُنُوِّه القَرِيبُ في عُلُوِّه.

---

(١) تقدم تخريجه ص٥٠٧.

وهذا الأصل ينفعك في كل ما ورد عليك من صفات الله الثابتة فأثبتها ولا تتوقف، فإن الذي أثبتها هو الله الذي هو أعلم بنفسه، ورسوله الذي هو أعلم الخلق وأورعهم وأنصحهم للمخلوقين، فإن خطر ببالك تمثيل أو تشبيه فتفطن لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وكذلك أيضًا؛ فإنَّ الكلام على الصفات مثل الكلام على الذات، فكما أنه لا نظير له ولا مثيل له في ذاته، فكذلك لا مثيل له ولا نظير له في صفاته.



فصل

القرآن كلام الله

قال المصنف: (ومن الإيمان به وبكتبه الإيمان بأن القرآن كلام الله مُنَزَّل غير مَخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأن الله تكلم به حقيقة، وأن هذا القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره، ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة، بل إذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله حقيقة، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مُبتدئًا لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا، وهو كلام الله حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف).

ووجه ذلك، وأنه داخل في الإيمان بالله وبكتبه أن الإيمان بكلام الله على هذا الوصف الذي ذكره المصنف وأنه من الإيمان بالله لأنه وصفه، والكلام صفة للمتكلم، فإن الله تعالى موصوف بأنه متكلم إذا شاء بما شاء وأنه لم يزل ولا يزال يتكلم، وكلامه تعالى لا ينفد ولا يَبيد، ونوع الكلام أزلي أبدي ومفرداته لا تزال تقع شيئًا فشيئًا بحسب حكمة الله تعالى، والله تعالى أضافه إلى نفسه في قوله: ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٥]. إضافة الصفة لموصوفها، فدل على أنه كلامه لفظه ومعناه ووصفه، وإذا كان كذلك كان غير مخلوق، ومن زعم أنه مخلوق من المعتزلة فقد أعظم الفِرْية على الله ونفى كلام الله عن الله وصفًا، وجعله وصفًا للمخلوق، ومن زعم أن القرآن الموجود بيننا عبارة عن كلام الله أو حكاية عنه كما قاله الكُلَّابية والأشعرية فقد قال بنصف قول المعتزلة.

فالقرآن كلام الله حيث تصرف سواء كان محفوظًا في الصدور أو متلوًّا بالألسنة

أو مكتوبًا في المصاحف فلا يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله كما قال المصنف، فإن الكلام إنما يضاف إلى من قاله مُبتدئًا لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا.

وقول السلف: «كلام الله منه بدأ» أي: هو الذي تكلم به لا غيره، وقولهم: «وإليه يعود» أي: يرجع، أي يوصف الله به، وقيل: إن المراد بذلك ما ورد من أن من أشراط الساعة أن يرفع القرآن من الصدور والمصاحف، ولكن الأوّل أَوْلَى.

وهذه المسألة مسألة الكلام عظيمة تكلم فيها الناس على اختلاف طرائقهم، ولكن المصنف ذكر في هذا الفصل كلامًا في التكلم جامعًا نافعًا مأخوذًا من الأدلة الشرعية العقلية والنقلية.

وأما كون هذا داخلا في الإيمان بكتبه، فإنَّ الإيمان بالكتب وخصوصًا القرآن، يقتضي أن يؤمن العبد بكل ألفاظها ومعانيها وما دلت عليه من العقائد والمعاني الجليلة، فمن لم يؤمن بجميع ذلك فلن يتم إيمانه.

واعلم أن المؤمنين بالقرآن على قسمين؛ كاملين وناقصين:

أما **الكامِلون**: فإنهم أقبلوا على القرآن فتفهموا معانيه ثم آمنوا بها واعتقدوها كلها، وتخلقوا بأخلاقها وعملوا بما دل عليه امتثالًا لأوامره واجتنابًا لنواهيه، ولم يفرقوا بين نصوصه، كحال أهل البدع الذين آمنوا ببعض دون بعض.

وأما **الناقصون** فهم قسمان؛ قِسم مبتدعون، وقِسم فاسقون ظالمون.

أما **المبتدعون**: فكل من ابتدع بدعة ترك لها شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله، وهؤلاء على مراتبهم في البدعة بحسب ما خالفوا فيه.

وأما **الفاسقون**: فهم الذين عرفوا أنه يجب عليهم الإيمان بالكتاب والعمل به فاعترفوا بذلك، ولكن أعمالهم ناقضت أقوالهم فتجرءوا على مخالفة الكتاب بترك كثير من واجباته والاقتحام على كثير مما نهى عنه من غير أن يجحدوا، ولكن نفوسهم الأمارة بالسوء غلبتهم

واستولت عليهم، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن آمن بكتابه إيمانًا صحيحًا حتى نكون لجميع نصوصه معتقدين، ولأوامره ونواهيه خاضعين، إنه جواد كريم.

فصل

ما بَعْدَ الموتِ

قال المصنف رحمه الله:

(ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت).

وهذا ضابط جامع يدخل فيه الإيمان بالنصوص الواردة في حالة الاحتضار وفي القبر والقيامة والجنة والنار وجميع ما احتوت عليه من التفاصيل التي صُنِّفت فيها المُصنفات المُطولة والمُختصرة، وكلها داخلة في الإيمان باليوم الآخر، ثم أشار المصنف إلى شيء منها، فقال:

(فيؤمنون بفتنة القبر وبعذابه ونعيمه؛ فأما الفتنة، فإن الناس يفتنون في قبورهم فيقال للرجل: مَنْ ربُّك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فَيُثَبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فيقول المؤمن: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد ﷺ نبيّي، وأما المُرتاب فيقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، فيضرب بِمِرْزَبَة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصعق)[1].

وهذا الابتلاء والامتحان لكل عبد؛ فأما من كان مؤمنًا إيمانًا صحيحًا ثبته الله ولقنه الجواب الصحيح للملكين؛ كما قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

(١) أحمد (١١٥٥٢، ١٨٦١٤)، أبو داود (٤٧٥٣).

فذكر أن تثبيته لهم جزاء لهم على إيمانهم في الدنيا، فالمؤمن يجيب الجواب الصحيح وإن كان عاميًّا أو أعجميًّا، وأما الكافر والمنافق ممن كان في الدنيا غير مؤمن بما جاء به الرسول فإنه يستعجم عليه الجواب ولو كان من أعلم الناس وأفصحهم كما قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ومن حكمة الله أن نعيم البرزخ وعذابه لا يحس به الإنس والجن بمشاعرهم، لأن الله تعالى جعله من الغيب ولو أظهره لفاتت الحكمة المطلوبة.

(ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب إلى أن تقوم القيامة الكبرى، فتُعاد الأرواح إلى الأجساد، وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون، فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حُفاة عُراة غُرْلًا، وتدنو منهم الشمس، ويلجمهم العرق، وتنصب الموازين، فتوزن فيها أعمال العباد، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣].

وتنشر الدواوين وهي صحائف الأعمال؛ فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

ويحاسب الله الخلق ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه، كما وُصف ذلك في الكتاب والسنة[1].

وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من تُوزن حسناته وسيئاته، فإنه لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم فتحصى فَيُوقَفون عليها ويقررون بها ويجزون بها. وفي عرصات القيامة الحوض المورود لمحمد ﷺ؛ ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل، آنيته عدد نجوم السماء،

---

(١) البخاري (٤٦٨٥)، مسلم (٢٧٦٨).

طوله شهر وعرضه شهر، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا[1]، والصراط منصوب على متن جهنم وهو الجسر الذي بين الجنة والنار يمر الناس عليه على قدر أعمالهم؛ فمنهم من يمر كالفرس، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو عدوًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يزحف زحفًا، ومنهم من يخطف ويلقى في جهنم[2]، فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم، فمن مر على الصراط دخل الجنة، فإذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة[3].

وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ[4]. وأول من يدخل الجنة أمته ﷺ[5]. وله ﷺ ثلاث شفاعات[6]:

أما الشفاعة الأولى: فيشفع في أهل الموقف حتى يقضي بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وعيسى ابن مريم، حتى تنتهي إليه.

وأما الشفاعة الثانية: فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة.

وهاتان الشفاعتان خاصتان له.

وأما الشفاعة الثالثة: فيشفع فيمن استحق النار ألا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج منها.

وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصدِّيقين وغيرهم، فيشفع فيمن استحق النار ألا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج منها، ويخرج الله من النار أقوامًا بغير شفاعة، بل بفضله ورحمته،

---

(١) البخاري (٦٥٧٩)، مسلم (٢٣٠٠).

(٢) البخاري (٧٤٣٩).

(٣) البخاري (٦٥٣٥).

(٤) مسلم (١٩٦).

(٥) البخاري (٧٤٣٤)، مسلم (٨٥٥).

(٦) راجع شرح العقيدة الطحاوية (٢٢٩، ٢٣٨).

ويبقى في الجنة فضل عمَّن دخلها من أهل الدنيا فينشئ الله لها أقوامًا فيدخلهم الجنة.

وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار، وتفاصيل ذلك مذكور في الكتب المنزلة من السماء، وفي الآثار من العلم الموروث عن الأنبياء، وفي العلم الموروث عن محمد ﷺ من ذلك ما يكفي ويشفي، فمن ابتغاه وجده).

ذكر المصنف رحمه الله هذا الكلام النفيس المتعلق باليوم الآخر المأخوذ من نصوص الكتاب والسنة، وهو كلام واضح جامع، وأحال على الكتاب والسنة في بقية تفاصيل اليوم الآخر، وقد كتب أهل الإسلام من النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة فيما يتعلق باليوم الآخر وبالجنة والنار، وتفاصيل ذلك الكثير، وصنفوا المصنفات المطولة والمبسوطة، والمهم أن ذلك كله داخل في الإيمان باليوم الآخر.

واعلم أن أصل الجزاء على الأعمال خيرها وشرها ثابت بالعقل، كما هو ثابت بالسمع، فإن الله نبه العقول إلى ذلك في مواضع كثيرة من الكتاب، وذكر ما هو مستقر في العقول الصحيحة من أنه لا يليق بحكمة الله وحمده أن يُتْرَكَ الناس سدى، أو أن يكونوا مخلوقين عبثًا لا يؤمرون، ولا يُنهون، ولا يُثابون، ولا يُعاقبون، وأن العقول الصحيحة تنكر ذلك أشد الإنكار، وكذلك نبههم على ذلك بما أوقعه من أيامه في الدنيا من إثابة الطائعين وتعجيل بعض ثوابهم وعقوبة الطاغين وإذاقتهم بعض ما وعدوا به.

وهذا شيء مشاهد محسوس متناقل بين الناس بالتواتر الذي لا يقبل الشك، ولا يزال يري عباده آياته في الآفاق وفي أنفسهم ما يتبيّن به الحق لأولي العقول والألباب.

وأما تفاصيل الجزاء ومقاديره فلا يُدْرَك إلا بالسمع والنقول الصحيحة عن النبي ﷺ المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ومن الحكمة في محاسبة الخلق على أعمالهم وزنها وظهورها مكتوبة في الصحف مع إحاطة علم الله بذلك لِيُري عباده كمال حمده، وكمال عدله، وسعة رحمته، وعظمة ملكه،

ولهذا قال ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤]. مع أن ملكه عام مطلق لهذا اليوم ولغيره.

قال المصنف رحمه الله: (وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقَدَرِ خيره وشره، والإيمان بالقَدَرِ على درجتين كل درجة تتضمن شيئين:

فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله يعلم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا وأبدًا، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال، ثم كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلق «**فأول ما خلق الله القلم. قال له: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**»[1]. فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه جفت الأقلام وطويت الصحف[2]، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وهذا التقدير تابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلًا، فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء، وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكًا فيؤمر بأربع كلمات فيقال له: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد[3]، ونحو ذلك، فهذا التقدير قد كان ينكره غلاة القدرية قديمًا ومنكره اليوم قليل.

وأمّا الدرجة الثانية: فهي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السماوات ولا في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه لا يكون في ملكه ما لا يريد، وأنه سبحانه على كل شيء قدير؛ من الموجودات والمعدومات.

---

(١) أحمد (٢٢٧٠٧).

(٢) أحمد (٢٦٦٩)، الترمذي (٢٥١٦). (٣) البخاري (٦٥٩٤)، مسلم (٢٦٤٣).

فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه، سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه.

ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسوله ونهاهم عن معصيته وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد.

والعِبَادُ فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم، والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم، وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة[1] ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها).

اعلم أن الإيمان بالقدر أمره عظيم وشأنه مهم جدًّا وهو أحد أركان الإيمان الستة، وقد انحرف فيه طوائف من أهل البدع والضلال، فضلًا عن المنكرين من الملحدين وغيرهم، وقد فصله الشيخ في هذا الفصل بهذا الكلام الجامع النفيس الذي لا يوجد له نظير في تحقيقه وتفصيله وجمعه وتوضيحه، وهو مجموع من نصوص الكتاب والسنة ومن العقيدة السلفية الخالصة.

فذكر أنه لا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحقيق هذه الأمور الأربعة التي يفتقر كل منها إلى البقية، وقد ارتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا لا ينفصم إلا بالانحراف إلى الأقوال المنحرفة، وذلك

---

(١) أبو داود (٤٦٩١).

أنه ثبت في نصوص الكتاب والسنة إحاطة علم الله بجميع الموجودات السابقة والحاضرة والمستقبلة من أعيان وأوصاف وأفعال للمكلفين وغيرهم، وتثبت النصوص أيضًا أن الله أثبت علمه بالكائنات والموجودات دقيقها وجليلها باللوح المحفوظ في نصوص لا يمكن إحصاؤها، وتثبت النصوص أيضًا أن مشيئة الله عامة، وإرادته القدرية شاملة لا يخرج عنها حادث صغير ولا كبير ولا عين ولا فعل ولا وصف، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والنصوص على شمول قدرة الله ومشيئته لكل حادث لا تحصى، وتثبت النصوص أيضًا أن العباد مختارون غير مجبورين على أفعالهم، وأن أعمالهم خيرها وشرها واقعة بمشيئتهم وقدرتهم التي خلقها الله لهم، وخالق السبب التام خالق للمُسَبِّب.

وبهذا ينحل عن العبد الإشكال ويتسع قلبه للجمع بين إثبات عموم مشيئة الله وقدرته وشمولهما لأفعال العباد مع وقوعها شرعًا وحسًّا وعقلًا باختيارهم.

فمتى جمع العبد هذه المراتب الأربع وآمن بها إيمانًا صحيحًا كان هو المؤمن بالقدر حقًّا الذي يعلم أن الله بكل شيء عليم وعلمه بالحوادث قد أودعها في اللوح المحفوظ، والحوادث كلها تجري على ما علمه الله وكتبه، وتقع بأسباب ربطها العزيز الحكيم بمسبباتها.

والأسباب والمسببات من قضاء الله وقدره، ولهذا لما قال النبي ﷺ لأصحابه: **«ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة أو النار»**، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: **«اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة»**. ثم قرأ ﷺ:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠] متفق عليه[1].

(١) البخاري (٤٩٤٦)، مسلم (٢٦٤٧).

وتوضيح ذلك أن العبد إذا صلى وصام وعمل الخير أو عمل شيئًا من المعاصي كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح وذلك العمل السيئ، وفعله المذكور بلا ريب واقع باختياره، وهو يحس ضرورة أنه غير مجبور على الفعل أو الترك وأنه لو شاء لم يفعل، وكما أن هذا هو الواقع فهو الذي نص الله عليه في كتابه ونص عليه رسوله حيث أضاف الأعمال صالحها وسيئها إلى العباد وأخبر أنهم الفاعلون لها وأنهم محمودون عليها إن كانت صالحة، ومثابون عليها ومذمومون إن كانت سيئة ومعاقبون عليها.

فقد تبين بهذا واتضح أنها واقعة منهم وباختيارهم، وأنهم إن شاءوا فعلوا وإن شاءوا تركوا، وأن هذا الأمر ثابت عقلًا وحسًّا وشرعًا ومشاهدة، ومع ذلك فإذا أردت أن تعرف أنها كذلك واقعة منهم واعترض معترض وقال: كيف تكون داخلة في القدر، وكيف تشملها المشيئة؟ فيقال: بأي شيء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها، فهي بقدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم وهذا يعترف به كل أحد، ويقال أيضًا: إن الله خلق قدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم، والجواب كذلك يعترف به كل أحد وأن الله هو الذي خلق قدرتهم وإرادتهم، وهو الذي خلق ما به تقع الأفعال كما أنه الخالق للأفعال، وهذا هو الذي يحل الإشكال ويتمكن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار.

ومع ذلك فهو تعالى أمد المؤمنين بأسباب وألطاف وإعانات متنوعة، وصرف عنهم الموانع كما قال ﷺ: «**وأمّا من كان من أهل السعادة فيُيَسَّر لعمل أهل السعادة**»[1]. وكذلك خذل الفاسقين ووكلهم إلى أنفسهم ولم يُعِنْهُمْ لأنهم لم يؤمنوا به ولم يتوكلوا عليه فولاهم ما تولوه لأنفسهم.

ولما ضاق تحقيق هذا المقام على قلوب كثير من الخلق انحرفت هنا طائفتان من الناس:

طائفة يقال لهم الجبرية، غلوا في إثبات القدر وتوهموا أن العبد ليس له فعل حقيقة، وأنه

---

(١) البخاري (١٣٦٢)، مسلم (٢٦٤٧).

لا يمكن أن يثبت للعبد عموم المشيئة ويثبت للعبد الاختيار.

والطائفة الأخرى: القدرية قابلتهم فشهدت وقوع أفعالهم بقدرتهم واختيارهم، وتوهموا أنه لا يمكن مع ذلك أن يدخل ذلك في قضاء الله وقدره ولم تتسع قلوب الجبرية والقدرية للجمع بين الأمرين فرد كل منهما قسمًا كبيرًا من نصوص الكتاب والسنة المؤيدة للقول الصحيح.

وهدى الله أهل السنة والجماعة فآمنوا بجميع الكتاب والسنة وآمنوا بقضائه وقدره وشمولهما لكل موجود وبشرعه وأمره، وأن العباد فاعلون حقيقة مختارون.

فإيمانهم بعموم القدر يوجب لهم الاستعانة التامة بربهم لعلمهم أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأن له في عباده المؤمنين ألطافًا وتيسيرًا لا يناله أحد منهم إلا بقوة الإيمان والتوكل، وأوجب لهم إيمانهم بالشرع والأمر والنهي والأسباب وأنها مرتبطة بمسبباتها شرعًا وقدرًا الجد والاجتهاد في فعل الأسباب النافعة، وبذلك تعرف أن الإيمان الصحيح سبب لكل خير.

ومن فوائد الإيمان بالقضاء والقدر: أنه يوجب للعبد سكون القلب وطمأنينته وَقُوَّته وشجاعته لعلمه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

كما أنه يُسلي العبد عن المصائب ويوجب له الصبر والتسليم والقناعة بما رزقه الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

قال بعض السلف: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويُسلِّم.

ومن فوائده أنه يوجب للعبد شهود مِنَّةِ الله عليه فيما يَمُنُّ به عليه مِن فعل الخيرات وأنواع الطاعات، ولا يُعْجَبُ بنفسه ولا يُدِلُّ بِعَمَلِهِ لعلمه أنه تعالى هو الذي تفضل عليه بالتوفيق والإعانة وصرف الموانع والعوائق، وأنه لو وكِلَ إلى نفسه لضعف وعَجَزَ عن العمل.

كما أنه سبب لِشُكر نِعمِ الله بما يُنْعِمُ عليه من نعم الدين والدنيا، فإنه يعلم أنه ما بالعبد من نعمة إلا من الله، وأن الله هو الدافع لكل مكروه ونقمة.

فصل

الإيمان

قال المصنف رحمه الله: (ومن أصول أهل السنة أن الدِّين والإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، وأنَّ الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهم مع ذلك لا يكفِّرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، كما يفعله الخوارج، بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي كما قال في آية القصاص: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]. وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠]).

قد دل الكتاب والسنة على ما قاله الشيخ، وأجمع على ذلك سلف الأمة، فكم من آية قرآنية وأحاديث نبوية أطلقت على كثير من الأقوال والأعمال اسم الإيمان، فالإيمان المطلق يدخل فيه جميع الدين ظاهره وباطنه أصوله وفروعه، ويدخل فيه العقائد التي يجب اعتقادها في كل ما احتوى عليه هذا الكتاب.

ويدخل فيه أعمال القلوب كالحب لله ورسوله وإرادة الله والإنابة إليه.

والفرق بين أقوال القلب وبين أعماله: أن أقواله هي العقائد التي يعترف بها القلب ويعلمها ويعتقدها، وأما أعمال القلب فهي حركته التي يحبها الله ورسوله، وضابطها: محبة الخير وإرادته الجازمة وكراهية الشر، والعزم على تركه لله وهذه الأعمال القلبية تنشأ عنها أعمال الجوارح؛ فالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد من الإيمان، وبر الوالدين وصلة

الأرحام والقيام بحقوق الله وحقوق خلقه المتنوعة كلها من الإيمان وكذلك الأقوال؛ فَقِراءة القرآن وذكر الله والثناء عليه والدعوة إلى الله والنصيحة لعباد الله وتعلم العلوم النافعة كلها داخلة في الإيمان.

ولهذا لما كان الإيمان اسمًا لهذه الأمور ترتب عليه أنه يزيد وينقص كما هو صريح الأدلة من الكتاب والسنة وكما هو ظاهر مشاهد في تفاوت المؤمنين في عقائدهم وأعمال قلوبهم وجوارحهم.

ومن زيادته ونقصه أن قسم الله المؤمنين إلى ثلاث طبقات:

سابقون بالخيرات: وهم الذين أدوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات. فهؤلاء المقربون.

ومقتصدون: وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات.

وظالمون لأنفسهم: وهم الذين تجرءوا على بعض المحرمات وقصروا في بعض الواجبات مع بقاء أصل الإيمان معهم، فهذا من أكبر البراهين على زيادة الإيمان ونقصه.

فما أعظم التفاوت بين هؤلاء الطبقات.

ومن وجوه زيادته ونقصه: أن المؤمنين متفاوتون في علوم الإيمان وتفاصيله؛ فمنهم من وصل إليه من تفاصيله وعقائده خير كثير فازداد به إيمانه وتم به يقينه، ومنهم من هو دون ذلك ودون ذلك، حتى تصل الحال إلى أن من المؤمنين من معه إيمان إجمالي ولم يتيسر له من التفاصيل شيء وهو مع ذلك مؤمن! ومعلوم الفرق بين هذه المراتب.

ومن وجوه زيادة الإيمان ونقصه أن المؤمنين متفاوتون تفاوتًا كبيرًا في أعمال القلب والجوارح وكثرة الطاعات وقلتها، وهذا شيء محسوس.

ومن وجوه زيادته ونقصه أن من المؤمنين من لم تجرح المعاصي إيمانه وإن وقع منه

شيء من ذلك بادر إلى التوبة والإنابة، ومنهم من هو متجرئ على كثير من المعاصي ومعلوم الفرق بينهما.

ومن وجوه زيادته ونقصه أن من المؤمنين من هو واجد حلاوة الإيمان وقد ذاق طعمه واستحلى الطاعات واستنار قلبه بالإيمان، ومنهم من لم يصل إلى ذلك؛ ولهذا قال المصنف رحمه الله: (ولا يسلبون الفاسق المِلِّيَّ اسم الإيمان بالكلية ولا يخلدونه في النار كما تقول المعتزلة، بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

وقوله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نُهْبَةً ذاتَ شَرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن**»[1]. ونقول: هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته فلا يعطى الاسم المطلق ولا يُسْلبُ مُطْلَقَ الاسم).

وهذا تحقيق مذهب السلف الذي باينوا فيه الخوارج المارقين الذين يسلبون العصاة اسم الإيمان ويخلدونهم في النار.

وباينوا فيه المعتزلة الذين وافقوا الخوارج في المعنى وخالفوهم في اللفظ؛ أما الكتاب والسنة فإنهما دلا من وجوه كثيرة على أن العبد يكون فيه خير وشر وإيمان، وخصال كفر وخصال نفاق لا تخرجه عن الإيمان بالكلية، وأن الإيمان المطلق إنما يتناول الإيمان الممدوح الكامل في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٢، ٣]. ونحو ذلك من النصوص.

---

(١) البخاري (٢١٧٥)، مسلم (٥٧).

وأما مطلق الإيمان الذي يدخل فيه الإيمان الكامل والإيمان الناقص فإنه قد ثبت في الكتاب والسنة إطلاقه على العصاة من المؤمنين، وأجمع على ذلك سلف الأمة وأئمتها، قال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ١٩٢]. ومن المعلوم دخول أي مؤمن من الأرقاء في هذا النص، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]. فسماهم إخوة بعد وجود الاقتتال.

ويقال أيضًا في توضيح ذلك: إن الإيمان الممدوح الذي يؤتى به في سياق الثناء على أهله إنما يتناول الإيمان الكامل، والإيمان الذي يقال لصاحبه: إنه من المؤمنين يدخل فيه هذا وهذا، ويقال أيضًا: الإيمان الذي يمنع صاحبه من التجري على الزنا وشرب الخمر والسرقة ونحوها من الفواحش هو الإيمان الكامل، والإيمان الذي لا يمنع من ذلك هو الناقص.

وهذا هو وجه الحديث الذي ذكره المصنف «**لا يزني الزاني**»[(١)] إلخ.

ويقال أيضًا: الإيمان الذي يمنع من دخول النار هو الإيمان الكامل، والإيمان الذي يمنع من الخلود فيها يكون إيمانًا ناقصًا.

وقد تواترت الأحاديث بخروج من في قلبه حبة خردل من إيمان[(٢)].

ويقال أيضًا: الأحكام الأصولية والفروعية تدور مع أسبابها وعللها، وإذا وجد في العبد أسباب متعارضة عمل كل سبب في مُسَبَّبِهِ، فالطاعات سَبَبٌ لدخول الجنة والثواب، والمعاصي سَبَبٌ لدخول النار والعقاب، فأَعْمِلْ كُلَّ واحد في مقتضاه.

ولكن لما كانت رحمة الله قد سبقت غضبه[(٣)] وفضله على العباد قد غمرهم وتنوع عليهم من كل وجه كان أقل القليل من الإيمان له الأثر المُسْتَقِرُّ الذي يَضْمَحِل ضِدُّه من كل وجه، وإن كان معه شيء من الإيمان فإنَّ مَآله إلى الخلود في دار النعيم.

---

(١) تقدم تخريجه ص١٤٩.

(٢) البخاري (٧٥١٠)، مسلم (٩١).

(٣) البخاري (٧٤٢٢)، مسلم (٢٧٥١).

فصل

الصَّحابة

(ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ كما وصفهم الله به في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]).

وهذا الدعاء الصادر ممن اتبع المهاجرين والأنصار بإحسان يدل على كمال محبتهم لأصحاب رسول الله وثنائهم عليهم، لأن من سعى في أمر من الأمور فهو ساعٍ في تحقيقه فاجتهد في طلبه متضرعًا لربه أن يتم ذلك له، وأولى من دخل في هذا الدعاء الصحابة الذين سبقوا إلى الإيمان وحققوه وحصل لهم من براهينه وطرقه ما لم يحصل لغيرهم.

ونفي الغل من جميع الوجوه يقتضي تمام المحبة لهم فهم يحبون الصحابة لفضلهم وسبقهم واختصاصهم لصحبة الرسول ولإحسانهم إلى جميع الأمة؛ لأنهم هم المبلغون جميع ما جاء به نبيهم، فما وصل لأحد علم ولا خير إلا على أيديهم وبواسطتهم.

(وطاعة النبي ﷺ في قوله: «**لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»)[1]. فعلى الأمة أن يطيعوا النبي ﷺ في كل أمر وخصوصًا في هذا الأمر الخاص، وأن يوقروا أصحابه ويحترموهم ويعتقدوا أن العمل القليل منهم يفضل العمل الكثير من غيرهم، كما في هذا الحديث، وهذا من أعظم براهين فضلهم على غيرهم.

---

(١) البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).

(ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم، ويفضلون من أنفق من قبل الفتح - وهو صلح الحديبية[1] - وقاتل على من أنفق من بعده وقاتل). وقد ذكر الله ورسوله للصحابة فضائل كثيرة على الأمة، فيجب على الأمة الإيمان بها، وأن يحبوا الصحابة لأجلها، وقيل لصلح الحديبية: فَتْحٌ، لما ترتب عليه من المصالح والخير الكثير ودخول الكثير في الإسلام، ولهذا كان من أسلم قبل ذلك وأنفق وقاتل أفضل ممن فعل ذلك بعده لما حصل لهم من السبق في الإسلام وقت ضعف المسلمين وكثرة الأعداء ووجود الموانع والمصاعب الكثيرة في طريق الإسلام.

ثم قال المصنف: (ويقدمون المهاجرين على الأنصار). وهذا لأن المهاجرين جمعوا الوصفين: النصرة والهجرة، ولهذا كان الخلفاء الراشدون وبقية العشرة من المهاجرين، وقد قدم الله ذكر المهاجرين على الأنصار في سورة التوبة والحشر[2]، وهذا التفضيل للجملة على الجملة لا لكل فرد من هؤلاء على كل فرد من الآخرين.

(ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر: «**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[3]. وبأنه: «**لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة**»[4]. كما أخبر به النبي ﷺ، بل لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة) أي: رضي الله عنهم في قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. وكان عددهم يتراوح ما بين ألف وأربعمائة أو خمسمائة، فأهل بدر وأهل بيعة الرضوان يشهد لهم بالجنة والنجاة من النار على وجه أخص من الشهادة بذلك لجميع الصحابة في قوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥].

---

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ٤٤١) للحافظ ابن حجر.
(٢) سورة التوبة الآيتان: ١٠٠، ١١٧، وسورة الحشر آية: ٨.
(٣) البخاري (٣٠٠٧)، مسلم (٢٤٩٤).
(٤) الترمذي (٤٢٣٣).

ولهذا قال المصنف: (ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ كالعشرة وثابت بن قيس بن شَمَّاس[1] وغيرهم من الصحابة).

وهذا من أعظم الفضائل تخصيص النبي ﷺ لهم بالشهادة والجنة، وهو من جملة براهين رسالته ﷺ، فإن جميع من عينه النبي ﷺ بالشهادة له بالجنة ولوازمها لم يزالوا مستقيمين على الإيمان حتى وصلوا إلى ما وعدوا به رضي الله عنهم.

(ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب[2] وغيره[3] من أن: «خير هذه الأُمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر». ويثلثون بعثمان ويربعون بعلي رضي الله عنهم كما دلت عليه الآثار، وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة).

أي: والخلافة، وخلافة أحد الاثنين لم يكن إلا بعد مشاورة جميع المسلمين على اختلاف طبقاتهم، والقصة مشهورة في كتب التاريخ[4].

(مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، أيهما أفضل؟ فقدم قوم عثمان وسكتوا، وربَّعُوا بعلي، وقدم قوم عليًّا وتوقفوا، لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي، وإن كانت هذه المسألة مسألة عثمان وعلي ليست من الأصول التي يُضَلَّلُ المخالف فيها عند جمهور أهل السنة ولكن التي يُضَلَّلُ فيها: مسألة الخلافة، وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله).

يريد المؤلف رحمه الله أن الخلاف الكائن بين الأمة على وجهين:

---

(١) البخاري (٣٦١٣)، مسلم (١١٩).
(٢) البخاري (٣٦٧١).
(٣) البخاري (٣٦٥٥)، أحمد في فضائل الصحابة (٣٧٩).
(٤) البداية والنهاية (٧/ ١٨).

أحدهما: الخلاف في الفروع والمسائل الاجتهادية التي إذا اجتهد فيها الحاكم من قاضٍ ومفتٍ ومصنف ومعلم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد[١].

الوجه الثاني: الخلاف في المسائل الأصولية كمسائل صفات الباري والقَدَرِ والإيمان ونحوها، وهذا يُضَلَّلُ فيها المخالفون لما دل عليه الكتاب والسنة، ولما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

فمسألة الخلافة وتقديم علي على عثمان فيها يعد من البدع التي من اعتقدها فهو في الغالب متشيع، وقد أزْرَى بالمهاجرين والأنصار كما قال ذلك غير واحد من السلف.

وأما التفضيل بينهما فإنها مسألة خفية من جنس مسائل الخلاف في المسائل الاجتهادية.

(ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية محمد ﷺ حيث قال يوم غدير خم: «أذكركم الله في أهل بيتي»[٢]. وقال أيضًا للعباس عمه، وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم فقال: «والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي»[٣]) فمحبة أهل بيت النبي ﷺ واجبة من وجوه:

منها أولًا: لإسلامهم وفضلهم وسوابقهم.

ومنها: لما يتميزون به من قرب النبي ﷺ واتصالهم بنسبه.

ومنها: لما حث عليه ورغب فيه.

ولما في ذلك من علامة محبة الرسول ﷺ.

(وقال: «إن الله اصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى

---

(١) كما عند البخاري (٧٣٥٢)، مسلم (١٧١٦).

(٢) مسلم (٢٤٠٨). (٣) أحمد (١٧٥٦).

من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»)[1]. فهو ﷺ خيار من خيار، وقد جمع الله له أنواع الشرف من كل وجه.

(وَيَتَوَلَّوْن أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين، ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة خصوصًا خديجة أمّ أكثر أولاده).

فإن جميع أولاده الذكور والإناث منها إلا إبراهيم فإنه من سُريتِهِ مارية القبطية.

(وأوّل من آمن به وعاضده على أمره وكان لها منه المنزلة الطيبة، والصدِّيقة بنت الصديق التي قال فيها النبي ﷺ: «**فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»)[2].

وعائشة وخديجة رضي الله عنهما هما أفضل نساء النبي ﷺ وقد اختلف العلماء أيهما أفضل، والتحقيق أن لكل واحدة منهن من الفضائل والخصائص ما ليس للأخرى، فلخديجة من السبق ومعاونة النبي ﷺ على أمره في أول الأمر وتثبيته وكون أكثر أولاد النبي ﷺ منها ما ليس لعائشة، ولعائشة من العلم والتعليم ونفع الأمة ما ليس لخديجة رضي الله عنهما.

(ويتبرءُون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل).

وأول من سمى الروافض بهذا اللقب زيدُ بن علي الذي خرج في أوائل دولة بني العباس وبايعه كثير من الشيعة، ولما ناظروه في أبي بكر وعمر وطلبوا منه أن يتبرأ منهما فأبى؛ تفرقوا عنه فقال: رفضتموني، فمن يومئذ قيل لهم: الرافضة[3] وكانوا فرقًا كثيرة، منهم الغالية ومنهم من هم دون ذلك، وفرقهم معروفة، وأما النواصب فهم الذين نصبوا العداوة والأذية لأهل بيت النبي ﷺ، وكان لهم وجود في صدر هذه الأمة لأسباب وأمور سياسية معروفة، ومن زمن طويل ليس لهم وجود والحمد لله.

---

(١) مسلم (٢٧٦).

(٢) البخاري (٣٤٣٣)، مسلم (٢٤٤٦).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٩/ ٣٢٧).

ثم قال المصنف رحمه الله: (ويمسكون عما شَجَر بين الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه وَنَقَصَ وغُيِّرَ عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون، وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم.

وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون [1] وأن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبًا ممن بعدهم)[2].

أي: وهذه الأمور إذا قوبلت بالمساوي على فرض أن هناك مساوي اضمحلت تلك المساوي معها، ولا يقاربهم أحد في شيء من ذلك رضي الله عنهم.

(ثم إذا كان قد صدر عن أحد منهم ذنب فيكون قد تاب منه أو أتى بحسنات تمحوه، أو غفر له بفضل سابقته أو بشفاعة محمد ﷺ الذين هم أحق الناس بشفاعته ﷺ أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين؛ إن أصابوا فلهم أجران وإن أخطئوا فلهم أجر، والخطأ مغفور؟!

ثم إن القَدْر الذي يُنْكَرُ من فعل بعضهم قليلٌ نَزْرٌ مغفور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح.

ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما مَنَّ الله عليهم به من الفضائل عَلِمَ يقينًا أنهم

---

(١) البخاري (٢٦٥١)، مسلم (٢٥٣٥).

(٢) تقدم تخريجه ص٧٧١.

خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله).

وهذا كلام نفيس في غاية التحقيق والإبداع ولا زيادة عليه في إقامة البرهان على كمال فضل الصحابة رضي الله عنهم لا يحتاج إلى شرح أو بيان.

فصل

كرامات الأولياء

قال المصنف رحمه الله: (ومن أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء وما يُجْري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات، وأنواع القدرة والتأثيرات كالمأثور عن سلف الأمة في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمة وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة). وتواترت نصوص الكتاب والسنة والوقائع قديمًا وحديثًا على وقوع كرامات الله لأوليائه المتبعين لأنبيائه.

وكرامتهم في الحقيقة تفيد ثلاث قضايا:

أعظمها الدلالة على كمال قدرة الله ونفوذ مشيئته، وكما أن لله سننًا وأسبابًا تقتضي مسبباتها الموضوعة لها شرعًا وقدرًا، فإن لله أيضًا سننًا أخرى لا يقع عليها علم البشر ولا تدركها أعمالهم وأسبابهم؛ فمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء؛ بل وأيام الله وعقوباته في أعدائه الخارقة للعادة كلها تدل دلالة واضحة أن الأمر كله لله، والتقدير والتدبير كله لله، وأن لله سننًا لا يعلمها بشر ولا ملك؛ فمن ذلك قصة أصحاب الكهف والنوم الذي أوقعه الله بهم تلك المدة العظيمة، وقيض أسبابًا متنوعة لحفظ دينهم وأبدانهم كما ذكر الله في قصتهم.

ومنها: ما أكرم الله به مريم بنت عمران وأنه ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وكذلك حملها وولادتها بعيسى على ذلك الوصف الذي ذكر الله، وكلامه في المهد هذا فيه كرامة لمريم ومعجزة لعيسى عليه السلام.

وكذلك هبته تعالى الولد لإبراهيم من سارة وهي عجوز عقيم على كبره، كما وهب لزكريا يحيى على كبره وعقم زوجته، وهذه معجزة للنبي وكرامة لزوجته.

وقد أطال المؤلف النفس وبسط الكلام في هذا الموضوع في كتابه: **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان** وذكر قصصًا كثيرة متوافرة تدل على هذه القضية.

القضية الثانية: أن وقوع الكرامات للأولياء في الحقيقة معجزات للأنبياء؛ لأن تلك الكرامات لم تحصل لهم إلا ببركة متابعة نبيهم الذي نالوا به خيرًا كثيرًا من جملتها الكرامات.

القضية الثالثة: أن كرامات الأولياء هي من البشرى المعجلة لهم في الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [يونس: ٦٤]. وهي على قول بعض المفسرين: كل أمر يدل على ولايتهم وحسن عاقبتهم، ومن ذلك الكرامات، ولم تزل الكرامات موجودة لم تنقطع في أي وقت وفي أي زمن، وقد رأى الناس منها العجائب والأمور الكثيرة، ولم ينكرها إلا زنادقة الفلاسفة، وليس غريبًا عليهم، فإنه فرع عن جحودهم وإنكارهم لرب العالمين ولقضائه وقدره.

وقد أنكرها أيضًا طائفة من أهل الكلام ظنًّا منهم أن في إثباتها إبطالًا لمعجزات الأنبياء وهذا وهم باطل أبطله المؤلف في كتابه **النبوات** وغيره من كتبه.

فأهل السنة والجماعة يعترفون بكرامات الله لأوليائه إجمالًا وتفصيلًا، ويثبتون ذلك على وجه التفصيل كما ورد عن المعصوم ﷺ وكما تحقق وقوعه، ولكن قد أدخل كثير من الناس في الكرامات أمورًا كثيرة اخترعوها وافتروها وخدعوا بها العوام والسذج من الناس وأوهموهم بأنها من الكرامات وليست إلا قسمًا من الخرافات والشعوذات.

وأهل السنة أبعد الناس عن التصديق بالخرافات والأكاذيب المفتراة، وأعرفهم بالطرق التي يتبين بها كذب الكاذبين وافتراء المفترين.



فصل

أهل السنة

قال المصنف رحمه الله: (ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله ظاهرًا وباطنًا واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله ﷺ حيث قال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإنَّ كل بدعة ضلالة**»[١].
ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ، ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد؛ ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة، وسموا أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسمًا لنفس القوم المجتمعين.

والإجماع هو الأصل الثالث الذي يُعتمد عليه في العلم والدين، وهم يُزَيِّنُونَ [٢] بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة مما له تَعَلُّق بالدين.

والإجماع الذي ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح، إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشر في الأمة)[٣].

لَمَّا ذكر طريقة أهل السنة في مسائل الأصول المعينة؛ ذكر طريقهم الكلي في أخذ دينهم: أصوله وفروعه، وأنهم سلكوا في ذلك الصراط المستقيم، والعصمة النافعة؛ الكتاب

(١) أحمد (١٧١٤٤).

(٢) الصواب: يَزِنُونَ.

(٣) في الخطّية: وانتشرت الأمة.

والسنة، واتبعوا أعظم الناس معرفة وعلمًا واتباعًا للكتاب والسنة، وهم الصحابة رضي الله عنهم عمومًا، والخلفاء الراشدون خصوصًا، فسلكوا إلى الله ذلك الطريق مستصحبين هذه الأصول الجليلة، وما جاءهم مما قاله الناس أو ذهبوا إليه من المقالات، وزنوه بمعيار الكتاب والسنة، وإجماع الصحابة والقرون المفضلة؛ فاستقامت طريقتهم وسلموا من بدع الأقوال المخالفة لما عليه الرسول وأصحابه في الاعتقادات، كما سلموا من بدع الأعمال، فلم يتعبدوا ولم يشرعوا إلا ما شرعه الله ورسوله.



فصل
قضايا كلية

ثم قال المصنف رحمه الله:

(ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة).

أي باليد ثم باللسان ثم بالقلب، تبعًا للقدرة والمصلحة، ويسلكون أقرب طريق يحصل به المقصود بالرفق والسهولة، متقربين بنصيحة الخلق إلى الله، قاصدين نفع الخلق وإيصالهم إلى كل خير، وكفهم عن كل شر، ساعين في ذلك حسب وسعهم.

(ويرون إقامة الحج والجهاد والجُمَعِ والأعياد مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا).

وذلك لأن غرضهم الوحيد تحصيل المصالح وتكملتها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فلا يمتنعون من إعانة الظالم على الخير وترغيبه فيه قولًا وفعلًا؛ فيشاركون الولاة الظلمة في الخير ويفارقونهم في الشر ويحرصون على الاتفاق، وينهون عن الافتراق (ويحافظون على الجماعات، ويدينون بالنصيحة للأمة).

(ويعتقدون معنى قوله ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا. وشبَّك بين أصابعه»**[1]. وقوله ﷺ: **«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»**[2]. ويأمرون بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء، والرضا بِمُرِّ القضاء، وَيَدْعُون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويعتقدون

(١) البخاري (٤٨١)، مسلم (٢٥٨٥).

(٢) البخاري (٦٠١١)، مسلم (٢٥٨٦).

معنى قوله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**»[1]. ويندبون إلى أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك، ويأمرون ببر الوالدين وصلة الأرحام وحسن الجوار والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل، والرفق بالمملوك، وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق، ويأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفاسفها[2]، وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة، وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمدًا ﷺ، لكن لما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة.

وفي حديث عنه أنه قال: «**هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[3]. صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشَّوْبِ هم أهل السنة والجماعة، وفيهم الصدِّيقون والشهداء والصالحون ومنهم أعلام الهدى، ومصابيح الدجى، وأولو المناقب المأثورة، والفضائل المذكورة، وفيهم الأبدال، وفيهم أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم، وهم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبي ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة**»[4]. فنسأل الله أن يجعلنا منهم وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب).

وهذا كلام جامع واضح نادر جمعه في موضع واحد، لا يحتاج إلى شرح ولا إلى مزيد من الإيضاح.

---

(١) الترمذي (١١٧٢)، أبو داود (٤٦٨٢).

(٢) الحاكم (١٤١).

(٣) الطبراني في الأوسط (٧٨٤٠).

(٤) البخاري (٧٣١١)، مسلم (١٩٢٠).

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وسلم.

وقال ذلك وكتبه معلقه عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.

وتم الفراغ منه في ٨ جمادى الأولى عام ١٣٦٩ هجرية.

القول السديد

شرح كتاب التوحيد

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله



تصدير

الحمد لله. نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فقد سبق أن كتبنا تعليقا لطيفا في مواضيع كتاب التوحيد، لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - قدس الله روحه - فحصل فيه نفع ومعونة للمشتغلين ومساعدة للمعلمين، لما فيه من التفصيلات النافعة مع الوضوح التام. وطبع بمطبعة الإمام، ثم نفدت نسخه مع كثرة الطلب عليه.

ودعت الحاجة الشديدة إلى إعادة طبعه ونشره، وفي هذه المرة بدا لي أن أقدم أمام ذلك مقدمة مختصرة تحتوي على مجملات عقائد أهل السنة، في الأصول الستة وتوابعها، فأقول مستعينًا بالله:

مقدمة

تشتمل على صفوة عقيدة أهل السنة وخلاصتها المستمدة من الكتاب والسنة

وذلك أنهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، فيشهدون أن الله هو الرب الإله المعبود، المتفرد بكل كمال، فيعبدونه وحده مخلصين له الدين، فيقولون: إن الله هو الخالق البارئ المصور الرزاق المعطي المانع المدبر لجميع الأمور، وأنه المألوه المعبود الموحَّد المقصود، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء، وأنه العلي الأعلى بكل معنى واعتبار، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، وأنه على العرش استوى، استواء يليق بعظمته وجلاله ومع علوه المطلق وفوقيته، فعلمه محيط بالظواهر والبواطن، والعالم العلوي والسفلي؛ وهو مع العباد بعلمه، يعلم جميع أحوالهم، وهو القريب المجيب، وأنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، والكل إليه مفتقرون في إيجادهم وإيجاد ما يحتاجون إليه في جميع الأوقات، ولا غنى لأحد عنه طرفة عين، وهو الرءوف الرحيم، الذي ما بالعباد من نعمة دينية ولا دنيوية ولا دفع نقمة إلا من الله، فهو الجالب للنعم، الدافع للنقم.

ومن رحمته أنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا يستعرض حاجات العباد حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: لا أسأل عن عبادي غيري، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر. فهو ينزل كما يشاء، ويفعل ما يريد، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ويعتقدون أنه الحكيم، الذي له الحكمة التامة في شرعه وفي قدره، فما خلق شيئًا عبثا، ولا شرع الشرائع إلا للمصالح والحكم، وأنه التواب العفو الغفور، يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات، ويغفر الذنوب العظيمة للتائبين والمستغفرين والمنيبين، وهو الشكور الذي يشكر القليل من العمل، ويزيد الشاكرين من فضله.

ويصفونه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من الصفات الذاتية، كالحياة الكاملة، والسمع والبصر، وكمال القدرة، والعظمة والكبرياء، والمجد والجلال والجمال، والحمد المطلق، ومن صفات الأفعال المتعلقة بمشيئته وقدرته كالرحمة والرضا، والسخط والكلام، وأنه يتكلم بما يشاء، كيف يشاء، وكلماته لا تنفد، ولا تبيد، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، وأنه لم يزل ولا يزال موصوفا بأنه يفعل ما يريد، ويتكلم بما يشاء، ويحكم على عباده بأحكامه القدرية، وأحكامه الشرعية، وأحكامه الجزائية، فهو الحاكم المالك، ومن سواه مملوك محكوم عليه، فلا خروج للعباد عن ملكه ولا عن حكمه.

ويؤمنون بما جاء به الكتاب، وتواترت به السنة؛ أن المؤمنين يرون ربهم تعالى عيانًا جهرة، وأن نعيم رؤيته والفوز برضوانه أكبر النعيم وألذه، وأن من مات على غير الإيمان والتوحيد فهو مخلد في نار جهنم أبدًا، وأن أرباب الكبائر إذا ماتوا على غير توبة ولا حصل لهم مكفر لذنوبهم ولا شفاعة، فإنهم وإن دخلوا النار لا يخلدون فيها، ولا يبقى في النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان إلا خرج منها.

وأن الإيمان يشمل عقائد القلوب وأعمالها، وأعمال الجوارح وأقوال اللسان، فمن قام بها على الوجه الأكمل فهو المؤمن حقًّا، الذي استحق الثواب وسلم من العقاب، ومن انتقص منها شيئا نقص من إيمانه بقدر ذلك، ولذلك كان الإيمان يزيد بالطاعة وفعل الخير، وينقص بالمعصية والشر.

ومن أصولهم السعي والجد فيما ينفع من أمور الدين والدنيا مع الاستعانة بالله، فهم يحرصون على ما ينفعهم ويستعينون بالله. وكذلك يحققون الإخلاص لله في جميع حركاتهم، ويتبعون رسول الله، فالإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، والنصيحة للمؤمنين طريقهم.



فصل

ويشهدون أن محمدا عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو خاتم النبيين، أرسل إلى الإنس والجن بشيرا ونذيرا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، أرسله بصلاح الدين وصلاح الدنيا، وليقوم الخلق بعبادة الله، ويستعينوا برزقه على ذلك.

ويعلمون أنه أعلم الخلق وأصدقهم وأنصحهم، وأعظمهم بيانًا، فيعظمونه ويحبونه، ويقدمون محبته على محبة الخلق كلهم، ويتبعونه في أصول دينهم وفروعه، ويقدمون قوله وهديه على قول كل أحد وهديه، ويعتقدون أن الله جمع له من الفضائل والخصائص والكمالات ما لم يجمعه لأحد، فهو أعلى الخلق مقامًا، وأعظمهم جاهًا، وأكملهم في كل فضيلة، لم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرهم منه.

وكذلك يؤمنون بكل كتاب أنزله الله، وكل رسول أرسله الله، لا يفرقون بين أحد من رسله، ويؤمنون بالقدر كله، وأن جميع أعمال العباد - خيرها وشرها - قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته، وتعلقت بها حكمته، حيث خلق للعباد قدرة وإرادة، تقع بها أقوالهم وأفعالهم بحسب مشيئتهم، لم يجبرهم على شيء منها، بل جعلهم مختارين لها، وخص المؤمنين بأن حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين بفضله ونعمته، وولى غيرهم ما تولوه ورضوه لأنفسهم من الكفر والفسوق والعصيان بعدله وحكمته.

ومن أصول أهل السنة أنهم يدينون بالنصيحة لله ولكتابه ورسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ويأمرون ببر

الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجيران والمماليك والمعاملين، ومن له حق، وبالإحسان إلى الخلق أجمعين.

ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها، وينهون عن مساوي الأخلاق وأرذلها، ويعتقدون أن أكمل المؤمنين إيمانًا أعظمهم إيمانًا ويقينًا، وأحسنهم أعمالًا وأخلاقًا، وأصدقهم أقوالًا، وأهداهم إلى كل خير وفضيلة، وأبعدهم من كل رذيلة، ويأمرون بالقيام بشرائع الدين، على ما جاء عن نبيهم فيها وفي صفاتها ومكملاتها، والتحذير عن مفسداتها ومنقصاتها، ويرون الجهاد في سبيل الله ماضيًا مع البر والفاجر، وأنه ذروة سنام الدين؛ جهاد العلم والحجة وجهاد السلاح، وأنه فرض على كل مسلم أن يدافع عن الدين بكل ممكن ومستطاع.

ومن أصولهم الحث على جمع كلمة المسلمين، والسعي في تقريب قلوبهم وتأليفها، والتحذير من التفرق والتعادي والتباغض، والعمل بكل وسيلة توصل إلى هذا.

ومن أصولهم النهي عن أذية الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم، والأمر بالعدل والإنصاف في جميع المعاملات، والندب إلى الإحسان والفضل فيها، ويؤمنون بأن أفضل الأمم أمة محمد ﷺ، وأفضلهم أصحاب رسول الله ﷺ، خصوصا الخلفاء الراشدين، والعشرة المشهود لهم بالجنة، وأهل بدر، وبيعة الرضوان والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فيحبون الصحابة ويدينون الله بذلك، وينشرون محاسنهم ويسكتون عما قيل عن مساويهم، ويدينون الله باحترام العلماء الهداة وأئمة العدل ومن لهم المقامات العالية في الدين والفضل المتنوع على المسلمين، ويسألون الله أن يعيذهم من الشك والشرك والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، وأن يثبتهم على دين نبيهم إلى الممات. فهذه الأصول الكلية بها يؤمنون ولها يعتقدون وإليها يدعون.

قال المصنف رحمه الله:



كتاب
التوحيد

هذه الترجمة تدل على مقصود هذا الكتاب من أوله إلى آخره، ولهذا استغنى بها عن الخطبة؛ أي أن هذا الكتاب يشتمل على توحيد الإلهية والعبادة بذكر أحكامه وحدوده وشروطه، وفضله وبراهينه، وأصوله وتفاصيله، وأسبابه وثمراته ومقتضياته، وما يزداد به ويقويه، أو يضعفه ويوهيه، وما به يتم ويكمل.

اعلم أن التوحيد المطلق العلم والاعتراف بتفرد الرب بصفات الكمال والإقرار بتوحده بصفات العظمة والجلال، وإفراده وحده بالعبادة، وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: توحيد الأسماء والصفات: وهو اعتقاد انفراد الرب جل جلاله بالكمال المطلق؛ من جميع الوجوه بنعوت العظمة والجلال والجمال التي لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله، من غير نفي لشيء منها ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل، ونفي ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب، وعن كل ما ينافي كماله.

الثاني: توحيد الربوبية: بأن يعتقد العبد أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير الذي ربى جميع الخلق بالنعم وربى خواص خلقه وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة والأخلاق الجميلة والعلوم النافعة والأعمال الصالحة، وهذه التربية النافعة للقلوب والأرواح المثمرة لسعادة الدارين.

الثالث: توحيد الإلهية، ويقال له توحيد العبادة: وهو العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية

والعبودية على خلقه أجمعين، وإفراده وحده بالعبادة كلها وإخلاص الدين لله وحده، وهذا الأخير يستلزم القسمين الأولين ويتضمنهما؛ لأن الألوهية التي هي وصفه تعم جميع أوصاف الكمال وجميع أوصاف الربوبية والعظمة، فإنه المألوه المعبود لما له من أوصاف العظمة والجلال ولما أسداه إلى خلقه من الفواضل والأفضال، فتوحده تعالى بصفات الكمال وتفرده بالربوبية يلزم منه أنه لا يستحق العبادة أحد سواه، ومقصود دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم الدعوة إلى هذا التوحيد.

فذكر المصنف في هذه الترجمة من النصوص ما يدل على أن الله خلق الخلق لعبادته والإخلاص له، وأن ذلك حقه الواجب المفروض عليهم، فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل دعوا إلى هذا التوحيد، ونهوا عن ضده من الشرك والتنديد، وخصوصًا محمدًا ﷺ، وهذا القرآن الكريم فإنه أمر به، وفرضه وقرره أعظم تقرير، وبينه أعظم بيان، وأخبر أنه لا نجاة ولا فلاح ولا سعادة إلا بهذا التوحيد، وأن جميع الأدلة العقلية والنقلية والأفقية والنفسية أدلة وبراهين على الأمر بهذا التوحيد ووجوبه، فالتوحيد هو حق الله الواجب على العبيد، وهو أعظم أوامر الدين، وأصل الأصول كلها، وأساس الأعمال.



باب
فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

لما ذكر في الترجمة السابقة وجوب التوحيد، وأنه الفرض الأعظم على جميع العبيد؛ ذكر هنا فضله وهو آثاره الحميدة ونتائجه الجميلة، وليس شيء من الأشياء له من الآثار الحسنة والفضائل المتنوعة- مثل التوحيد، فإن خير الدنيا والآخرة من ثمرات هذا التوحيد وفضائله.

فقول المؤلف رحمه الله: (وما يكفر من الذنوب) من باب عطف الخاص على العام، فإن مغفرة الذنوب وتكفير الذنوب من بعض فضائله وآثاره كما ذكر شواهد ذلك في الترجمة.

ومن فضائله أنه السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة ودفع عقوباتهما.

ومن أجلِّ فوائده أنه يمنع الخلود في النار إذا كان في القلب منه أدنى مثقال حبة خردل، وأنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية. ومنها أنه يحصل لصاحبه الهدى الكامل والأمن التام في الدنيا والآخرة، ومنها أنه السبب الوحيد لنيل رضا الله وثوابه، وأن أسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال: لا إله إلا الله. خالصًا من قلبه.

ومن أعظم فضائله أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتب الثواب عليها- على التوحيد، فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.

ومن فضائله أنه يسهل على العبد فعل الخير وترك المنكرات ويسليه عن المصيبات؛ فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخف عليه الطاعات لما يرجو من ثواب ربه ورضوانه، ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي لما يخشى من سخطه وعقابه.

ومنها أن التوحيد إذا كمل في القلب حبب الله لصاحبه الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان وجعله من الراشدين، ومنها أنه يخفف على العبد المكاره ويهون عليه الآلام، فبحسب تكميل العبد للتوحيد والإيمان يتلقى المكاره والآلام بقلب منشرح، ونفس مطمئنة، وتسليم ورضا بأقدار الله المؤلمة.

ومن أعظم فضائله أنه يحرر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم، وخوفهم ورجائهم، والعمل لأجلهم، وهذا هو العز الحقيقي، والشرف العالي، ويكون مع ذلك متألهًا متعبدًا لله لا يرجو سواه ولا يخشى إلا إياه، ولا ينيب إلا إليه، وبذلك يتم فلاحه ويتحقق نجاحه.

ومن فضائله التي لا يلحقه فيها شيء أن التوحيد إذا تم وكمل في القلب وتحقق تحققًا كاملًا بالإخلاص التام؛ فإنه يصير القليل من عمله كثيرًا، وتضاعف أعماله وأقواله بغير حصر ولا حساب ورجحت كلمة الإخلاص في ميزان العبد؛ بحيث لا تقابلها السماوات والأرض، وعمارها من جميع خلق الله كما في حديث أبي سعيد المذكور في الترجمة، وفي حديث البطاقة التي فيها لا إله إلا الله التي وزنت تسعة وتسعين سجلًّا من الذنوب، كل سجل يبلغ مد البصر، وذلك لكمال إخلاص قائلها، وكم ممن يقولها ولا تبلغ هذا المبلغ؛ لأنه لم يكن في قلبه من التوحيد والإخلاص الكامل مثل ولا قريب مما قام بقلب هذا العبد.

ومن فضائل التوحيد أن الله تكفل لأهله بالفتح والنصر في الدنيا والعز والشرف وحصول الهداية والتيسير لليسرى، وإصلاح الأحوال، والتسديد في الأقوال والأفعال.

ومنها أن الله يدافع عن الموحدين أهل الإيمان شرورَ الدنيا والآخرة، ويمن عليهم بالحياة الطيبة والطمأنينة إليه والطمأنينة بذكره، وشواهد هذه الجمل من الكتاب والسنة كثيرة معروفة والله أعلم.

باب
من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

وهذا الباب تكميل للباب الذي قبله وتابع له، فإن تحقيق التوحيد تهذيبه وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع القولية الاعتقادية، والبدع الفعلية العملية، ومن المعاصي، وذلك بكمال الإخلاص لله في الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافي لكماله، وبالسلامة من البدع والمعاصي التي تكدر التوحيد وتمنع كماله، وتعوقه عن حصول آثاره.

فمن حقق توحيده بأن امتلأ قلبه من الإيمان والتوحيد والإخلاص، وصدقته الأعمال بأن انقادت لأوامر الله طائعة منيبة مخبتة إلى الله، ولم يجرح ذلك بالإصرار على شيء من المعاصي، فهذا الذي يدخل الجنة بغير حساب، ويكون من السابقين إلى دخولها وإلى تبوء المنازل منها.

ومن أخص ما يدخل في تحقيقه كمال القنوت لله وقوة التوكل على الله؛ بحيث لا يلتفت القلب إلى المخلوقين في شأن من شئونه، ولا يستشرف إليهم بقلبه، ولا يسألهم بلسان مقاله أو حاله، بل يكون ظاهره وباطنه وأقواله وأفعاله وحبه وبغضه وجميع أحواله كلها مقصودًا بها وجه الله متبعا فيها رسول الله. والناس في هذا المقام العظيم درجات ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

وليس تحقيق التوحيد بالتمني ولا بالدعاوى الخالية من الحقائق، ولا بالحلي العاطلة، وإنما ذلك بما وقر في القلوب من عقائد الإيمان وحقائق الإحسان، وصدقته الأخلاق الجميلة، والأعمال الصالحة الجليلة، فمن حقق التوحيد على هذا الوجه حصلت له جميع

الفضائل المشار إليها في الباب السابق بأكملها والله أعلم.

باب
الخوف من الشرك

الشرك في توحيد الإلهية والعبادة ينافي التوحيد كل المنافاة وهو نوعان: شرك أكبر جلي، وشرك أصغر خفي، **فأما الشرك الأكبر**: فهو أن يجعل لله ندًّا يدعوه كما يدعو الله، أو يخافه أو يرجوه أو يحبه كحب الله، أو يصرف له نوعا من أنواع العبادة، فهذا الشرك لا يبقى مع صاحبه من التوحيد شيء، وهذا المشرك الذي حرم الله عليه الجنة ومأواه النار، ولا فرق في هذا بين أن يسمي تلك العبادة التي صرفها لغير الله عبادة، أو يسميها توسلا أو يسميها بغير ذلك من الأسماء، فكل ذلك شرك أكبر؛ لأن العبرة بحقائق الأشياء ومعانيها دون ألفاظها وعباراتها.

وأما الشرك الأصغر: فهو جميع الأقوال والأفعال التي يتوسل بها إلى الشرك؛ كالغلو في المخلوق الذي لا يبلغ رتبة العبادة؛ كالحلف بغير الله ويسير الرياء ونحو ذلك، فإذا كان الشرك ينافي التوحيد ويوجب دخول النار والخلود فيها وحرمان الجنة إذا كان أكبر، وأنه لا تتحقق السعادة إلا بالسلامة منه؛ كان حقًّا على العبد أن يخاف منه أعظم خوف، وأن يسعى في الفرار منه ومن طرقه ووسائله وأسبابه ويسأل الله العافية منه، كما فعل ذلك الأنبياء والأصفياء وخيار الخلق، وعلى العبد أن يجتهد في تنمية الإخلاص في قلبه وتقويته، وذلك بكمال التعلق بالله تألها وإنابة وخوفا ورجاء وطمعا وقصدا لمرضاته وثوابه في كل ما يفعله وما يتركه من الأمور الظاهرة والباطنة؛ فإن الإخلاص بطبيعته يدفع الشرك الأكبر والأصغر، وكل من وقع منه نوع من الشرك فلضعف إخلاصه.



باب
الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وهذا الترتيب الذي صنعه المؤلف في هذه الأبواب في غاية المناسبة، فإنه ذكر في الأبواب السابقة وجوب التوحيد وفضله والحث عليه وعلى تكميله، والتحقق به ظاهرا وباطنا، والخوف من ضده: وبذلك يكمل العبد في نفسه. ثم ذكر في هذا الباب تكميله لغيره بالدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإنه لا يتم التوحيد حتى يكمل العبد جميع مراتبه ثم يسعى في تكميل غيره، وهذا هو طريق جميع الأنبياء، فإنهم أول ما يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له وهي طريقة سيدهم وإمامهم ﷺ، لأنه قام بهذه الدعوة أعظم قيام، ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن. ولم يفتر ولم يضعف حتى أقام الله به الدين وهدى به الخلق العظيم، ووصل دينه ببركة دعوته إلى مشارق الأرض ومغاربها، وكان يدعو بنفسه ويأمر رسله وأتباعه أن يدعوا إلى الله وإلى توحيده قبل كل شيء؛ لأن جميع الأعمال متوقفة في صحتها وقبولها على التوحيد.

فكما أن على العبد أن يقوم بتوحيد الله فعليه أن يدعو العباد إلى الله بالتي هي أحسن؛ وكل من اهتدى على يديه فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وإذا كانت الدعوة إلى الله وإلى شهادة أن لا إله إلا الله فرضًا على كل أحد، كان الواجب على كل أحد بحسب مقدوره؛ فعلى العالم من بيان ذلك والدعوة والإرشاد والهداية أعظم مما على غيره ممن ليس بعالم، وعلى القادر ببدنه ويده أو ماله أو جاهه وقوله أعظم مما على من ليست له تلك القدرة؛ قال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦].

ورحم الله من أعان على الدين ولو بشطر كلمة، وإنما الهلاك في ترك ما يقدر عليه العبد

من الدعوة إلى هذا الدين.

باب
تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

هما بمعنى واحد، فهو من باب عطف المترادفين، وهذه المسألة أكبر المسائل وأهمها كما قال المصنف رحمه الله، وحقيقة تفسير التوحيد العلم والاعتراف بتفرد الرب بجميع صفات الكمال وإخلاص العبادة له.

وذلك يرجع إلى أمرين: **نفي الألوهية كلها عن غير الله**: بأن يعلم ويعتقد أنه لا يستحق الإلهية ولا شيئا من العبودية أحد من الخلق، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا غيرهما، وأنه ليس لأحد من الخلق في ذلك حظ ولا نصيب.

والأمر الثاني: إثبات الألوهية لله تعالى وحده لا شريك له وتفرده بمعاني الألوهية كلها وهي نعوت الكمال كلها، ولا يكفي هذا الاعتقاد وحده حتى يحققه العبد بإخلاص الدين كله لله فيقوم بالإسلام والإيمان والإحسان وبحقوق الله وحقوق خلقه، قاصدا بذلك وجه الله وطالبا رضوانه وثوابه، ويعلم أن من تمام تفسيرها وتحقيقها البراءة من عبادة غير الله، وأن اتخاذ أنداد يحبهم كحب الله أو يطيعهم كطاعة الله أو يعمل لهم كما يعمل لله؛ ينافي معنى لا إله إلا الله أشد المنافاة.

وبين المصنف- رحمه الله- أن من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله قوله ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله**»[1]. فلم يجعل مجرد التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ولا دمه حتى يضيف إلى

(١) مسلم (٢٣).

ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ولا دمه.

فتبين بذلك أنه لا بد من اعتقاد وجوب عبادة الله وحده لا شريك له، ومن الإقرار بذلك اعتقادا ونطقا، ولا بد من القيام بعبودية الله وحده طاعة لله وانقيادا ولا بد من البراءة مما ينافي ذلك عقدا وقولا وفعلا، ولا يتم ذلك إلا بمحبة القائمين بتوحيد الله وموالاتهم ونصرتهم، وبغض أهل الكفر والشرك ومعاداتهم، ولا تغني في هذا المقام الألفاظ المجردة ولا الدعاوى الخالية من الحقيقة، بل لا بد أن يتطابق العلم والاعتقاد والقول والعمل، فإن هذه الأشياء متلازمة متى تخلف واحد منها تخلفت البقية، والله أعلم.



باب
من الشرك لبس الحلقة
والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

وهذا الباب يتوقف فهمه على معرفة أحكام الأسباب، وتفصيل القول فيها أنه يجب على العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

أحدها: ألا يجعل منها سببًا إلا ما ثبت أنه سبب شرعًا أو قدرًا.

ثانيها: ألا يعتمد العبد عليها بل يعتمد على مسببها ومقدرها مع قيامه بالمشروع منها، وحرصه على النافع منها.

ثالثها: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت، فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره لا خروج لها عنه، والله تعالى يتصرف فيها كيف يشاء؛ إن شاء أبقى سببيتها جارية على مقتضى حكمته؛ ليقوم بها العباد ويعرفوا بذلك تمام حكمته؛ حيث ربط المسببات بأسبابها والمعلولات بعللها، وإن شاء غيرها كيف يشاء لئلا يعتمد عليها العباد وليعلموا كمال قدرته وأن التصرف المطلق والإرادة المطلقة لله وحده، فهذا هو الواجب على العبد في نظره وعمله بجميع الأسباب.

إذا علم ذلك فمن لبس الحلقة أو الخيط ونحوهما قاصدًا بذلك رفع البلاء بعد نزوله أو دفعه قبل نزوله، فقد أشرك لأنه إن اعتقد أنها هي الدافعة الرافعة فهذا الشرك الأكبر، وهو شرك في الربوبية، حيث اعتقد شريكًا مع الله في الخلق والتدبير، وشرك في العبودية حيث تأله لذلك وعلق به قلبه طمعًا ورجاء لنفعه، وإن اعتقد أن الله هو الدافع الرافع وحده ولكن اعتقدها سببًا يستدفع بها البلاء فقد جعل ما ليس سببًا شرعيًّا ولا قدريًّا سببًا، وهذا محرم

وكذب على الشرع وعلى القدر: أما الشرع فإنه ينهى عن ذلك أشد النهي، وما نهى عنه فليس من الأسباب النافعة، وأما القدر فليس هذا من الأسباب المعهودة ولا غير المعهودة التي يحصل بها المقصود ولا من الأدوية المباحة النافعة.

وكذلك هو من جملة وسائل الشرك فإنه لا بد أن يتعلق قلب متعلقها بها، وذلك نوع شرك ووسيلة إليه، فإذا كانت هذه الأمور ليست من الأسباب الشرعية التي شرعها على لسان نبيه التي يتوسل بها إلى رضا الله وثوابه ولا من الأسباب القدرية التي قد علم أو جرب نفعها مثل الأدوية المباحة كان المتعلق بها متعلقًا قلبه بها راجيًا لنفعها فتعين على المؤمن تركها ليتم إيمانه وتوحيده، فإنه لو تم توحيده لم يتعلق قلبه بما ينافيه، وذلك أيضًا نقص في العقل حيث تعلق بغير متعلق ولا نافع بوجه من الوجوه، بل هو ضرر محض.

والشرع مبناه على تكميل أديان الخلق بنبذ الوثنيات والتعلق بالمخلوقين، وعلى تكميل عقولهم بنبذ الخرافات والخزعبلات، والجد في الأمور النافعة المرقية للعقول، المزكية للنفوس، المصلحة للأحوال كلها دينيها ودنيويها، والله أعلم.



باب
ما جاء في الرقى والتمائم

أما التمائم فهي تعاليق تتعلق بها قلوب متعلقيها، والقول فيها كالقول في الحلقة والخيط كما تقدم؛ فمنها ما هو شرك أكبر كالتي تشتمل على الاستغاثة بالشياطين أو غيرهم من المخلوقين، فالاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك كما سيأتي إن شاء الله، ومنها ما هو محرم كالتي فيها أسماء لا يفهم معناها لأنها تجر إلى الشرك.

وأما التعاليق التي فيها قرآن أو أحاديث نبوية أو أدعية طيبة محترمة فالأولى تركها لعدم ورودها عن الشارع، ولكونها يتوسل بها إلى غيرها من المحرم، ولأن الغالب على متعلقها أنه لا يحترمها ويدخل بها المواضع القذرة.

وأما الرقى ففيها تفصيل: فإن كانت من القرآن أو السنة أو الكلام الحسن فإنها مندوبة في حق الراقي لأنها من باب الإحسان، ولما فيها من النفع، وهي جائزة في حق المرقي إلا أنه لا ينبغي له أن يبتدئ بطلبها، فإن من كمال توكل العبد وقوة يقينه ألا يسأل أحدًا من الخلق لا رقية ولا غيرها، بل ينبغي له إذا سأل أحدًا أن يدعو له أن يلحظ مصلحة الداعي والإحسان إليه بتسببه لهذه العبودية له مع مصلحة نفسه، وهذا من أسرار تحقيق التوحيد ومعانيه البديعة التي لا يوفق للتفقه فيها والعمل بها إلا الكمل من العباد. وإن كانت الرقية يدعى بها غير الله ويطلب الشفاء من غيره فهذا هو الشرك الأكبر؛ لأنه دعاء واستغاثة بغير الله، فافهم هذا التفصيل، وإياك أن تحكم على الرقى بحكم واحد مع تفاوتها في أسبابها وغاياتها.



باب
من تبرك بشجر أو حجر أو غيرهما

أي فإن ذلك من الشرك ومن أعمال المشركين؛ فإن العلماء اتفقوا على أنه لا يشرع التبرك بشيء من الأشجار والأحجار والبقع والمشاهد وغيرها، فإن هذا التبرك غلو فيها، وذلك يتدرج به إلى دعائها وعبادتها، وهذا هو الشرك الأكبر؛ كما تقدم انطباق الحد عليه، وهذا عام في كل شيء حتى مقام إبراهيم وحجرة النبي ﷺ وصخرة بيت المقدس وغيرها من البقع الفاضلة.

وأما استلام الحجر الأسود وتقبيله واستلام الركن اليماني من الكعبة المشرفة فهذا عبودية لله، وتعظيم لله وخضوع لعظمته فهو روح التعبد، فهذا تعظيم للخالق وتعبد له، وذاك تعظيم للمخلوق وتأله له، فالفرق بين الأمرين كالفرق بين الدعاء لله الذي هو إخلاص وتوحيد والدعاء للمخلوق الذي هو شرك وتنديد.



باب
ما جاء في الذبح لغير الله

أي أنه شرك، فإن نصوص الكتاب والسنة صريحة في الأمر بالذبح لله، وإخلاص ذلك لوجهه، كما هي صريحة بذلك في الصلاة؛ فقد قرن الله الذبح بالصلاة في عدة مواضع من كتابه، وإذا ثبت أن الذبح لله من أجل العبادات وأكبر الطاعات، فالذبح لغير الله شرك أكبر مخرج عن دائرة الإسلام، فإن حد الشرك الأكبر وتفسيره الذي يجمع أنواعه وأفراده: أن يصرف العبد نوعًا أو فردًا من أفراد العبادة لغير الله.

فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع؛ فصرفُه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص، وصرفه لغيره شرك وكفر، فعليك بهذا الضابط للشرك الأكبر الذي لا يشذ عنه شيء، كما أن حد الشرك الأصغر هو: كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة، فعليك بهذين الضابطين للشرك الأكبر والأصغر، فإنه مما يعينك على فهم الأبواب السابقة واللاحقة من هذا الكتاب، وبه يحصل لك الفرقان بين الأمور التي يكثر اشتباهها، والله المستعان.



باب
لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

ما أحسن اتباع هذا الباب بالباب الذي قبله، فالذي قبله من المقاصد وهذا من الوسائل. ذاك من باب الشرك الأكبر، وهذا من وسائل الشرك القريبة، فإن المكان الذي يذبح فيه المشركون لآلهتهم تقربًا إليها وشركًا بالله قد صار مشعرًا من مشاعر الشرك، فإذا ذبح فيه المسلم ذبيحة ولو قصدها لله فقد تشبه بالمشركين وشاركهم في مشعرهم، والموافقة الظاهرة تدعو إلى الموافقة الباطنة والميل إليهم.

ومن هذا السبب نهى الشارع عن مشابهة الكفار في شعارهم وأعيادهم وهيئاتهم ولباسهم وجميع ما يختص بهم إبعادًا للمسلمين عن الموافقة لهم في الظاهر التي هي وسيلة قريبة للميل والركون إليهم، حتى إنه نهى عن الصلاة النافلة في أوقات النهي التي يسجد المشركون فيها لغير الله خوفًا من التشبه المحذور.



باب من الشرك النذر لغير الله
باب من الشرك الاستعاذة بغير الله
باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

متى فهمت الضابط السابق في حد الشرك الأكبر، وهو أن من صرف شيئًا من العبادة لغير الله فهو مشرك، فهمت هذه الأبواب الثلاثة التي والى المصنف بينها، فإن النذر عبادةٌ مدح الله الموفين به، وأمر ﷺ بالوفاء بنذر الطاعة، وكل أمر مدحه الشارع أو أثنى على من قام به أو أمر به فهو عبادة، فإن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة، والنذر من ذلك.

وكذلك أمر الله بالاستعاذة به وحده من الشرور كلها وبالاستغاثة به في كل شدة ومشقة، فهذه إخلاصها لله إيمان وتوحيد، وصرفها لغير الله شرك وتنديد.

والفرق بين الدعاء والاستغاثة أن الدعاء عام في كل الأحوال، والاستغاثة هي الدعاء لله في حالة الشدائد، فكل ذلك يتعين إخلاصه لله وحده، وهو المجيب لدعاء الداعين المفرج لكربات المكروبين، ومن دعا غيره من نبي أو ملك أو ولي أو غيرهم، أو استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر، وكما أنه خرج من الدين فقد تجرد أيضًا من العقل، فإن أحدًا من الخلق ليس عنده من النفع والدفع مثقال ذرة لا عن نفسه ولا عن غيره، بل الكل فقراء إلى الله في كل شئونهم.

باب
قول الله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾

هذا شروع في براهين التوحيد وأدلته، فالتوحيد له من البراهين النقلية والعقلية ما ليس لغيره، فتقدم أن التوحيدين: توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات من أكبر براهينه وأضخمها. فالمتفرد بالخلق والتدبير، والمتوحد في الكمال المطلق من جميع الوجوه، هو الذي لا يستحق العبادة سواه.

وكذلك من براهين التوحيد معرفة أوصاف المخلوقين، ومن عُبد مع الله، فإن جميع ما يعبد من دون الله من ملك وبشر ومن شجر وحجر وغيرها كلهم فقراء إلى الله، عاجزون ليس بيدهم من النفع مثقال ذرة، ولا يخلقون شيئًا وهم يخلقون، ولا يملكون ضرًّا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، والله تعالى هو الخالق لكل مخلوق، وهو الرازق لكل مرزوق، المدبر للأمور كلها، الضار النافع، المعطي المانع، الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه يرجع كل شيء وله يقصد ويصمد ويخضع كل شيء، فأي برهان أعظم من هذا البرهان الذي أعاده الله وأبداه في مواضع كثيرة من كتابه وعلى لسان رسوله، فهو دليل عقلي فطري كما أنه دليل سمعي نقلي على وجوب توحيد الله وأنه الحق، وعلى بطلان الشرك.

وإذا كان أشرف الخلق على الإطلاق لا يملك نفع أقرب الخلق إليه وأمسهم به رحما؛ فكيف بغيره؟ فتبًّا لمن أشرك بالله وساوى به أحدا من المخلوقين؛ لقد سلب عقله بعدما سلب دينه، فنعوت الباري تعالى وصفات عظمته وتوحده في الكمال المطلق أكبر برهان على أنه لا يستحق العبادة إلا هو، وكذلك صفات المخلوقات كلها وما هي عليه من النقص والحاجة والفقر إلى ربها في كل شئونها، وأنه ليس لها من الكمال إلا ما أعطاها ربها؛ من

أعظم البراهين على بطلان إلهية شيء منها، فمن عرف الله وعرف الخلق اضطرته هذه المعرفة إلى عبادة الله وحده، وإخلاص الدين له والثناء عليه، وحمده وشكره بلسانه وقلبه وأركانه وانصرف تعلقه بالمخلوقين خوفا ورجاء وطمعا، والله أعلم.

باب
قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ ﴾

وهذا أيضا برهان عظيم آخر على وجوب التوحيد وبطلان الشرك، وهو ذكر النصوص الدالة على كبرياء الرب وعظمته التي تتضاءل وتضمحل عندها عظمة المخلوقات العظيمة، وتخضع له الملائكة والعالم العلوي والسفلي، ولا تثبت أفئدتهم عندما يسمعون كلامه أو تتبدى لهم بعض عظمته ومجده، فالمخلوقات بأسرها خاضعة لجلاله معترفة بعظمته ومجده خاضعة له خائفة منه، فمن كان هذا شأنه فهو الرب الذي لا يستحق العبادة والحمد والثناء والشكر والتعظيم والتأله إلا هو، ومن سواه ليس له من هذا الحق شيء، فكما أن الكمال المطلق والكبرياء والعظمة، ونعوت الجلال والجمال المطلق كلها لله لا يمكن أن يتصف بها غيره فكذلك العبودية الظاهرة والباطنة كلها حقه تعالى الخاص الذي لا يشاركه فيه مشارك بوجه.

باب
الشفاعة

إنما ذكر المصنف الشفاعة في تضاعيف هذه الأبواب؛ لأن المشركين يبررون شركهم ودعاءهم للملائكة والأنبياء والأولياء بقولهم: نحن ندعوهم مع علمنا أنهم مخلوقون مملوكون، ولكن حيث إن لهم عند الله جاهًا عظيما ومقامات عالية ندعوهم ليقربونا إلى الله زلفى، وليشفعوا لنا عنده كما يتقرب إلى الوجهاء عند الملوك والسلاطين؛ ليجعلوهم وسائط لقضاء حاجاتهم وإدراك مآربهم.

وهذا من أبطل الباطل، وهو تشبيه لله العظيم ملك الملوك الذي يخافه كل أحد، وتخضع له المخلوقات بأسرها، بالملوك الفقراء المحتاجين للوجهاء والوزراء في تكميل ملكهم ونفوذ قوتهم، فأبطل الله هذا الزعم وبين أن الشفاعة كلها له كما أن الملك كله له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضى إلا توحيده وإخلاص العمل له، فبين أن المشرك ليس له حظ ولا نصيب من الشفاعة، وبين أن الشفاعة المثبتة التي تقع بإذنه إنما هي الشفاعة لأهل الإخلاص خاصة وأنها كلها منه، رحمة منه وكرامة للشافع، ورحمة منه وعفوًا عن المشفوع له، وأنه هو المحمود عليها في الحقيقة، وهو الذي أذن لمحمد ﷺ فيها وأناله المقام المحمود. فهذا ما دل عليه الكتاب والسنة في تفصيل القول في الشفاعة.

وقد ذكر المصنف رحمه الله كلام الشيخ تقي الدين في هذا الموضع وهو كاف شاف، فالمقصود في هذا الباب ذكر النصوص الدالة على إبطال كل وسيلة وسبب يتعلق به المشركون بآلهتهم، وأنه ليس لها من الملك شيء؛ لا استقلالا ولا مشاركة ولا معاونة

ومظاهرة، ولا من الشفاعة شيء، وإنما ذلك كله لله وحده، فتعين أن يكون المعبود وحده.

باب
قول الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

وهذا الباب أيضا نظير الباب الذي قبله، وذلك أنه إذا كان ﷺ هو أفضل الخلق على الإطلاق وأعظمهم عند الله جاها وأقربهم إليه وسيلة، لا يقدر على هداية من أحب هداية التوفيق وإنما الهداية كلها بيد الله، فهو الذي تفرد بهداية القلوب كما تفرد بخلق المخلوقات، فتبين أنه الإله الحق، وأما قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]. فالمراد بالهداية هنا هداية البيان وهو ﷺ المبلغ عن الله وحيه الذي اهتدى به الخلق.

باب
أن سبب كفر بني آدم
وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

والغلو هو مجاوزة الحد بأن يُجْعَلَ للصالحين من حقوق الله الخاصة به شيء، فإن حق الله الذي لا يشاركه فيه مشارك هو الكمال المطلق، والغنى المطلق، والتصرف المطلق من جميع الوجوه، وأنه لا يستحق العبادة والتأله أحد سواه، فمن غلا بأحد من المخلوقين حتى جعل له نصيبا من هذه الأشياء فقد ساوى به رب العالمين وذلك أعظم الشرك، ومن رفع أحدا من الصالحين فوق منزلته التي أنزله الله بها فقد غلا فيه وذلك وسيلة إلى الشرك وترك الدين.

والناس في معاملة الصالحين ثلاثة أقسام:

أهل الجفاء: الذين يهضمونهم حقوقهم ولا يقومون بحقهم من الحب والموالاة لهم والتوقير والتبجيل.

وأهل الغلو: الذين يرفعونهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله بها.

وأهل الحق: الذين يحبونهم ويوالونهم ويقومون بحقوقهم الحقيقية، ولكنهم يبرءون من الغلو فيهم وادعاء عصمتهم، والصالحون أيضا يتبرءون من أن يدّعوا لأنفسهم حقا من حقوق ربهم الخاصة، كما قال الله عن عيسى ﷺ: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

واعلم أن الحقوق ثلاثة:

حق خاص لله: لا يشاركه فيه مشارك، وهو التأله له وعبادته وحده لا شريك له، والرغبة

والإنابة إليه وحده حبًّا وخوفا ورجاء.

وحق خاص للرسل: وهو توقيرهم وتبجيلهم والقيام بحقوقهم الخاصة.

وحق مشترك: وهو الإيمان بالله ورسله، وطاعة الله ورسله، ومحبة الله، ومحبة رسله، ولكن هذه لله أصلا وللرسل تبعا لحق الله، فأهل الحق يعرفون الفرقان بين هذه الحقوق الثلاثة فيقومون بعبودية الله وإخلاص الدين له، ويقومون بحق رسله وأوليائه على اختلاف منازلهم ومراتبهم، والله أعلم.



باب
ما جاء فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده

باب
ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله

ما ذكره المصنف في البابين يتضح بذكر تفصيل القول فيما يفعل عند قبور الصالحين وغيرهم؛ وذلك أن ما يفعل عندها نوعان: مشروع وممنوع.

أما المشروع فهو ما شرعه الشارع من زيارة القبور على الوجه الشرعي من غير شد رحل؛ يزورها المسلم متبعا للسنة فيدعو لأهلها عموما ولأقاربه ومعارفه خصوصا، فيكون محسنا إليهم بالدعاء لهم وطلب العفو والمغفرة والرحمة لهم، ومحسنا إلى نفسه باتباع السنة وتذكر الآخرة والاعتبار بها والاتعاظ.

وأما الممنوع فإنه نوعان:

أحدهما: محرّم ووسيلة للشرك، كالتمسح بها والتوسل إلى الله بأهلها والصلاة عندها، وكإسراجها والبناء عليها والغلو فيها وفي أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة.

والنوع الثاني: شرك أكبر كدعاء أهل القبور والاستغاثة بهم وطلب الحوائج الدنيوية والأخروية منهم، فهذا شرك أكبر وهو عين ما يفعله عباد الأصنام مع أصنامهم.

ولا فرق في هذا بين أن يعتقد الفاعل لذلك أنهم مستقلون في تحصيل مطالبه أو متوسطون إلى الله، فإن المشركين يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. فمن زعم أنه لا يكفر من دعا أهل القبور حتى يعتقد أنهم مستقلون

بالنفع ودفع الضرر، وأن من اعتقد أن الله هو الفاعل وأنهم وسائط بين الله وبين من دعاهم واستغاث بهم فلا يكفر؛ من زعم ذلك فقد كذب ما جاء به الكتاب والسنة، وأجمعت عليه الأمة من أن من دعا غير الله فهو مشرك كافر في الحالين المذكورين، سواء اعتقدهم مستقلين أو متوسطين؛ وهذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام، فعليك بهذا التفصيل الذي يحصل به الفرقان في هذا الباب المهم الذي حصل به من الاضطراب والفتنة ما حصل ولم ينج من فتنته إلا من عرف الحق واتبعه.



باب
حماية المصطفى حمى التوحيد
وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

من تأمل نصوص الكتاب والسنة في هذا الباب رأى نصوصًا كثيرة تحث على القيام بكل ما يقوي التوحيد وينميه ويغذيه، من الحث على الإنابة إلى الله، وانحصار تعلق القلب بالله رغبة ورهبة، وقوة الطمع بفضله وإحسانه، والسعي لتحصيل ذلك وإلى التحرر من رق المخلوقين وعدم التعلق بهم بوجه من الوجوه أو الغلو في أحد منهم، والقيام التام بالأعمال الظاهرة والباطنة وتكميلها، وخصوصا حث النصوص على روح العبودية، وهو الإخلاص التام لله وحده.

ثم في مقابلة ذلك نهى عن أقوال وأفعال فيها الغلو بالمخلوقين، ونهى عن التشبه بالمشركين، لأنه يدعو إلى الميل إليهم، ونهى عن أقوال وأفعال يخشى أن يتوسل بها إلى الشرك، كل ذلك حماية للتوحيد ونهي عن كل سبب يوصل إلى الشرك، وذلك رحمة بالمؤمنين ليتحققوا بالقيام بما خلقوا له من عبودية الله الظاهرة والباطنة وتكميلها لتكمل لهم السعادة والفلاح، وشواهد هذه الأمور كثيرة معروفة.



باب
ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

مقصود هذه الترجمة الحذر من الشرك والخوف منه، وأنه أمر واقع في هذه الأمة لا محالة، والرد على من زعم أن من قال: لا إله إلا الله، وتسمى بالإسلام أنه يبقى على إسلامه ولو فعل ما ينافيه من الاستغاثة بأهل القبور ودعائهم، وسمى ذلك توسلا لا عبادة فإن هذا باطل.

فإن الوثن اسم جامع لكل ما عبد من دون الله، لا فرق بين الأشجار والأحجار والأبنية، ولا بين الأنبياء والصالحين والطالحين في هذا الموضع وهو العبادة، فإنها حق الله وحده، فمن دعا غير الله أو عبده فقد اتخذه وثنًا، وخرج بذلك عن الدين ولم ينفعه انتسابه إلى الإسلام، فكم انتسب إلى الإسلام من مشرك وملحد وكافر ومنافق. والعبرة بروح الدين وحقيقته لا بمجرد الأسامي والألفاظ التي لا حقيقة لها.



باب السحر
وباب شيء من أنواع السحر

وجه إدخال السحر في أبواب التوحيد أن كثيرًا من أقسامه لا يتأتى إلا بالشرك والتوصل بالأرواح الشيطانية إلى مقاصد الساحر، فلا يتم للعبد توحيد حتى يدع السحر كله قليله وكثيره، ولهذا قرنه الشارع بالشرك، فالسحر يدخل في الشرك من جهتين:

من جهة ما فيه من استخدام الشياطين ومن التعلق بهم، وربما تقرب إليهم بما يحبون ليقوموا بخدمته ومطلوبه؛ ومن جهة ما فيه من دعوى علم الغيب ودعوى مشاركة الله في علمه وسلوك الطرق المفضية إلى ذلك، وذلك من شعب الشرك والكفر، وفيه أيضا من التصرفات المحرمة والأفعال القبيحة كالقتل والتفريق بين المتحابين والصرف والعطف والسعي في تغيير العقول، وهذا من أفظع المحرمات، وذلك من الشرك ووسائله، ولذلك تعين قتل الساحر لشدة مضرته وإفساده.

ومن أنواعه الواقعة في كثير من الناس النميمة لمشاركتها للسحر في التفريق بين الناس وتغيير قلوب المتحابين وتلقيح الشرور. فالسحر أنواع ودركات بعضها أقبح وأسفل من بعض.



باب
ما جاء في الكهان ونحوهم

أي من كل من يدعي علم الغيب بأي طريق من الطرق، وذلك أن الله تعالى هو المنفرد بعلم الغيب، فمن ادعى مشاركة الله في شيء من ذلك بكهانة أو عرافة أو غيرها أو صدق من ادعى ذلك، فقد جعل لله شريكا فيما هو من خصائصه، وقد كذب الله ورسوله. وكثير من الكهانة المتعلقة بالشياطين لا تخلو من الشرك والتقرب إلى الوسائط التي تستعين بها على دعوى العلوم الغيبية، فهو شرك من جهة دعوى مشاركة الله في علمه الذي اختص به، ومن جهة التقرب إلى غير الله، وفيه إبعاد الشارع للخلق عن الخرافات المفسدة للأديان والعقول.



باب
النُّشْرة

وهو حل السحر عن المسحور. ذكر فيه المصنف كلام ابن القيم في التفصيل بين الجائز منه والممنوع، وفيه كفاية.

باب
الطيرة

وهو التشاؤم بالطيور والأسماء والألفاظ والبقاع والأشخاص وغيرها؛ فنهى الشارع عن التطير وذم المتطيرين، وكان يحب الفأل ويكره الطيرة، والفرق بينهما أن الفأل الحسن لا يخل بعقيدة الإنسان ولا بعقله وليس فيه تعليق القلب بغير الله، بل فيه من المصلحة النشاطُ والسرور وتقوية النفوس على المطالب النافعة، وصفة ذلك أن يعزم العبد على سفر أو زواج أو عقد من العقود أو على حالة من الأحوال المهمة ثم يرى في تلك الحال ما يسره أو يسمع كلامًا يسره مثل: يا راشد أو سالم أو غانم، فيتفاءل ويزداد طمعه في تيسير ذلك الأمر الذي عزم عليه، فهذا كله خير، وآثاره خير، وليس فيه من المحاذير شيء.

وأما الطيرة فإنه إذا عزم على فعل شيء من ذلك من الأمور النافعة في الدين أو في الدنيا، فيرى أو يسمع ما يكره؛ أثر في قلبه أحد أمرين: أحدهما أعظم من الآخر؛ **أحدهما**: أن يستجيب لذلك الداعي، فيترك ما كان عازما على فعله أو بالعكس فيتطير بذلك، وينكص عن الأمر الذي كان عازما عليه، فهذا - كما ترى - قد علق قلبه بذلك المكروه غاية التعليق وعمل عليه، وتصرف ذلك المكروه في إرادته وعزمه وعمله، فلا شك أنه على هذا الوجه أثر على إيمانه، وأخل بتوحيده وتوكله، ثم بعد هذا لا تسأل عما يحدثه له هذا الأمر من ضعف القلب ووهنه وخوفه من المخلوقين وتعلقه بالأسباب وبأمور ليست أسبابًا، وانقطاع قلبه من تعلقه بالله؛ وهذا من ضعف التوحيد والتوكل، ومن طرق الشرك ووسائله ومن الخرافات المفسدة للعقل.

الأمر الثاني: ألا يستجيب لذلك الداعي ولكنه يؤثر في قلبه حزنًا وهمًّا وغمًّا، فهذا وإن

كان دون الأول لكنه شر وضرر على العبد، وضعف لقلبه وموهن لتوكله، وربما أصابه مكروه فظن أنه من ذلك الأمر فقوي تطيره، وربما تدرج به إلى الأمر الأول، فهذا التفصيل يبين لك وجه كراهة الشارع للطيرة وذمها، ووجه منافاتها للتوحيد والتوكل، وينبغي لمن وجد شيئًا من ذلك وخاف أن تغلبه الدواعي الطبيعية أن يجاهد نفسه على دفعها ويستعين الله على ذلك، ولا يركن إليها بوجه ليندفع الشر عنه.



باب
ما جاء في التنجيم

التنجيم نوعان: نوع يسمى علم التأثير، وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الكونية، فهذا باطل ودعوى لمشاركة الله في علم الغيب الذي انفرد به، أو تصديق لمن ادعى ذلك وهذا ينافي التوحيد، لما فيه من هذه الدعوى الباطلة، ولما فيه من تعلق القلب بغير الله، ولما فيه من فساد العقل؛ لأن سلوك الطرق الباطلة وتصديقها من مفسدات العقول والأديان.

النوع الثاني: علم التسيير؛ وهو الاستدلال بالشمس والقمر والكواكب على القبلة والأوقات والجهات، فهذا النوع لا بأس به، بل كثير منه نافع قد حث عليه الشارع إذا كان وسيلة إلى معرفة أوقات العبادات أو إلى الاهتداء به في الجهات، فيجب التفريق بين ما نهى عنه الشارع وحرمه وبين ما أباحه أو استحبه أو أوجبه، فالأول هو المنافي للتوحيد دون الثاني.



باب
الاستسقاء بالنجوم

لما كان من التوحيد الاعتراف لله بتفرده بالنعم ودفع النقم وإضافتها إليه قولا واعترافا واستعانة بها على طاعته، كان قول القائل: مطرنا بنوء كذا وكذا ينافي هذا المقصود أشد المنافاة لإضافة المطر إلى النوء، والواجب إضافة المطر وغيره من النعم إلى الله، فإنه الذي تفضل بها على عباده، ثم الأنواء ليست من الأسباب لنزول المطر بوجه من الوجوه، وإنما السبب عناية المولى ورحمته وحاجة العباد وسؤالهم لربهم بلسان الحال ولسان المقال فينزل عليهم الغيث بحكمته ورحمته بالوقت المناسب لحاجتهم وضرورتهم، فلا يتم توحيد العبد حتى يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة عليه وعلى جميع الخلق ويضيفها إليه ويستعين بها على عبادته وذكره وشكره، وهذا الموضع من محققات التوحيد وبه يعرف كامل الإيمان وناقصه.



باب
قول الله تعالى:



أصل التوحيد وروحه إخلاص المحبة لله وحده، وهي أصل التأله والتعبد له، بل هي حقيقة العبادة ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه، وتسبق محبته جميع المحاب وتغلبها، ويكون لها الحكم عليها بحيث تكون سائر محاب العبد تبعا لهذه المحبة التي بها سعادة العبد وفلاحه.

ومن تفريعها وتكميلها الحب في الله والبغض في الله، فيحب العبد ما يحبه الله من الأعمال والأشخاص، ويبغض ما يبغضه الله من الأشخاص والأعمال، ويوالي أولياءه ويعادي أعداءه، وبذلك يكمل إيمان العبد وتوحيده.

أما اتخاذ أنداد من الخلق يحبهم كحب الله ويقدم طاعتهم على طاعة الله ويلهج بذكرهم ودعائهم، فهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وصاحب هذا الشرك قد انقطع قلبه من ولاية العزيز الحميد، وتعلق بغيره ممن لا يملك له شيئًا، وهذا السبب الواهي الذي تعلق به المشركون سينقطع يوم القيامة، أحوج ما يكون العبد لعمله، وستنقلب هذه المودة والموالاة بغضا وعداوة.

واعلم أن أنواع المحبة ثلاثة أقسام:

الأول: محبة الله التي هي أصل الإيمان والتوحيد.

الثاني: المحبة في الله وهي محبة أنبياء الله ورسله وأتباعهم، ومحبة ما يحبه الله من

الأعمال والأزمنة والأمكنة وغيرها، وهذه تابعة لمحبة الله ومكملة لها.

الثالث: محبة مع الله، وهي محبة المشركين لآلهتهم وأندادهم من شجر وحجر وبشر وملك وغيرها، وهي أصل الشرك وأساسه.

وهنا قسم رابع: وهو المحبة الطبيعية التي تتبع ما يلائم العبد ويوافقه من طعام وشراب ونكاح ولباس وعشرة وغيرها، وهذه إذا كانت مباحة؛ إن أعانت على محبة الله وطاعته دخلت في باب العبادات، وإن صدت عن ذلك وتوسل بها إلى ما لا يحبه الله دخلت في المنهيات، وإلا بقيت من أقسام المباحات، والله أعلم.



باب
قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾

هذا الباب عقده المصنف رحمه الله لوجوب تعلق الخوف والخشية بالله وحده، والنهي عن تعلقه بالمخلوقين وبيان أنه لا يتم التوحيد إلا بذلك، ولا بد في هذا الموضع من تفصيل يتضح به الأمر ويزول الاشتباه.

اعلم أن الخوف والخشية تارة يقع عبادة وتارة يقع طبيعة وعادة، وذلك بحسب أسبابه ومتعلقاته، فإن كان الخوف والخشية خوف تأله وتعبد وتقرب بذلك الخوف إلى من يخافه، وكان يدعو إلى طاعة باطنة وخوف سري يزجر عن معصية من يخافه كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان، وتعلقه بغير الله من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله؛ لأنه شرّك في هذه العبادة التي هي من أعظم واجبات القلب غير الله مع الله، وربما زاد خوفه من غير الله على خوفه لله، وأيضا فمن خشي الله وحده على هذا الوجه فهو مخلص موحد، ومن خشي غيره فقد جعله لله ندًّا في الخشية؛ كمن جعل لله ندًّا في المحبة، وذلك كمن يخشى من صاحب القبر أن يوقع به مكروها أو يغضب عليه فيسلبه نعمة أو نحو ذلك مما هو واقع من عباد القبور.

وإن كان الخوف طبيعيًّا؛ كمن يخشى من عدو أو سبع أو حية أو نحو ذلك مما يخشى ضرره الظاهري؛ فهذا النوع ليس عبادة، وقد يوجد من كثير من المؤمنين ولا ينافي الإيمان، وهذا إذا كان خوفاً محققًا قد انعقدت أسباب الخوف فليس بمذموم، وإن كان خوفًا وهميًّا؛ كالخوف الذي ليس له سبب أصلًا أو له سبب ضعيف، فهذا مذموم يدخل صاحبه في وصف الجبناء، وقد تعوَّذ ﷺ من الجبن فهو من الأخلاق الرذيلة؛ ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة

تدفع هذا النوع، حتى إن خواص المؤمنين وأقوياءهم تنقلب المخاوف في حقهم أمنًا وطمأنينة لقوة إيمانهم وشجاعتهم القلبية، وكمال توكلهم؛ ولهذا أتبعه بهذا الباب:



باب
قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

التوكل على الله من أعظم واجبات التوحيد والإيمان، وبحسب قوة توكل العبد على الله يقوى إيمانه، ويتم توحيده، والعبد مضطر إلى التوكل على الله والاستعانة به في كل ما يريد فعله أو تركه من أمور دينه أو دنياه.

وحقيقة التوكل على الله أن يعلم العبد أن الأمر كله لله، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافع الضار المعطي المانع، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه في جلب مصالح دينه ودنياه، وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبه وهو مع هذا باذل جهده في فعل الأسباب النافعة، فمتى استدام العبد هذا العلم وهذا الاعتماد والثقة فهو المتوكل على الله حقيقة، وليبشر بكفاية الله له ووعده للمتوكلين، ومتى علَّق ذلك بغير الله فهو شرك، ومن توكل على غير الله وتعلَّق به وكل إليه وخاب أمله.



باب
قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِ﴾

مقصود الترجمة أنه يجب على العبد أن يكون خائفًا من الله، راجيًا له، راغبًا راهبًا، إن نظر إلى ذنوبه وعدل الله وشدة عقابه؛ خشي ربه وخافه، وإن نظر إلى فضله العام والخاص وعفوه الشامل؛ رجا وطمع، إن وفق لطاعة رجا من ربه تمام النعمة بقبولها، وخاف من ردها بتقصيره في حقها. وإن ابتلي بمعصية رجا من ربه قبول توبته ومحوها وخشي بسبب ضعف التوبة والالتفات للذنب أن يعاقب عليها، وعند النعم والمسار يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق لشكرها، ويخشى بإخلاله بالشكر من سلبها، وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها، وينتظر الفرج بحلها، ويرجو أيضًا أن يثيبه الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر، ويخشى من اجتماع المصيبتين؛ فوات الأجر المحبوب، وحصول الأمر المكروه إذا لم يوفق للقيام بالصبر الواجب، فالمؤمن الموحد في كل أحواله ملازم للخوف والرجاء، وهذا هو الواجب وهو النافع وبه تحصل السعادة، ويخشى على العبد من خلقين رذيلين:

أحدهما: أن يستولي عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله وروحه.

الثاني: أن يتجارى به الرجاء حتى يأمن مكر الله وعقوبته، فمتى بلغت به الحال إلى هذا فقد ضيع واجب الخوف والرجاء اللذين هما من أكبر أصول التوحيد، وواجبات الإيمان.

وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران:

أحدهما: أن يسرف العبد على نفسه ويتجرأ على المحارم فيصر عليها، ويصمم على الإقامة على المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله؛ لأجل أنه مقيم على الأسباب التي تمنع

الرحمة فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفًا وخلقًا لازمًا، وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد، ومتى وصل إلى هذا الحد لم يرج له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوي.

الثاني: أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة، ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب، وتضعف إرادته، فييأس من الرحمة، وهذا من المحاذير الضارة الناشئة من ضعف علم العبد بربه وما له من الحقوق، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها - فلو عرف هذا ربه ولم يخلد إلى الكسل؛ لعلم أن أدنى سعي يوصله إلى ربه وإلى رحمته وجوده وكرمه.

وللأمن من مكر الله أيضًا سببان مهلكان:

أحدهما: إعراض العبد عن الدين وغفلته عن معرفة ربه وما له من الحقوق، وتهاونه بذلك فلا يزال معرضًا غافلًا مقصرا عن الواجبات، منهمكا في المحرمات حتى يضمحل خوف الله من قلبه ولا يبقى في قلبه من الإيمان شيء؛ لأن الإيمان يحمل على خوف الله وخوف عقابه الدنيوي والأخروي.

السبب الثاني: أن يكون العبد عابدا جاهلا معجبا بنفسه مغرورا بعمله، فلا يزال به جهله حتى يُدِلَّ بعمله ويزول الخوف عنه ويرى أن له عند الله المقامات العالية؛ فيصير آمنًا من مكر الله متكلا على نفسه الضعيفة المهينة، ومن ههنا يخذل ويحال بينه وبين التوفيق، إذ هو الذي جنى على نفسه، فبهذا التفصيل تعرف منافاة هذه الأمور للتوحيد.



باب
من الإيمان الصبر على أقدار الله

أما الصبر على طاعة الله والصبر عن معصيته فهو ظاهر لكل أحد أنهما من الإيمان، بل هما أساسه وأصله وفرعه، فإن الإيمان كله صبر على ما يحبه الله ويرضاه ويقرب إليه، وصبر عن محارم الله.

فإن الدين يدور على ثلاثة أصول: تصديق خبر الله ورسوله، وامتثال أمر الله ورسوله، واجتناب نهيهما، فالصبر على أقدار الله المؤلمة داخل في هذا العموم ولكن خص بالذكر لشدة الحاجة إلى معرفته والعمل به، فإن العبد متى علم أن المصيبة بإذن الله، وأن لله أتم الحكمة في تقديرها وله النعمة السابغة في تقديرها على العبد؛ رضي بقضاء الله وسلم لأمره وصبر على المكاره تقربا إلى الله ورجاء لثوابه وخوفا من عقابه واغتناما لأفضل الأخلاق، فاطمأن قلبه وقوي إيمانه وتوحيده.



باب ما جاء في الرياء
باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

اعلم أن الإخلاص لله أساس الدين وروح التوحيد والعبادة، وهو أن يقصد العبد بعمله كله وجه الله وثوابه وفضله فيقوم بأصول الإيمان الستة وشرائع الإسلام الخمس وحقائق الإيمان التي هي الإحسان، وبحقوق الله وحقوق عباده، مكملا لها قاصدا بها وجه الله والدار الآخرة، لا يريد بذلك رياء ولا سمعة ولا رياسة ولا دنيا، وبذلك يتم إيمانه وتوحيده.

ومن أعظم ما ينافي هذا مراءاة الناس والعمل لأجل مدحهم وتعظيمهم أو العمل لأجل الدنيا، فهذا يقدح في الإخلاص والتوحيد.

واعلم أن الرياء فيه تفصيل: فإن كان الحامل للعبد على العمل قصد مراءاة الناس واستمر على هذا القصد الفاسد فعمله حابط، وهو شرك أصغر ويخشى أن يتذرع به إلى الشرك الأكبر، وإن كان الحامل على العمل إرادة وجه الله مع إرادة مراءاة الناس ولم يقلع عن الرياء بعمله فظاهر النصوص أيضا بطلان هذا العمل.

وإن كان الحامل للعبد على العمل وجه الله وحده ولكن عرض له الرياء في أثناء عمله؛ فإن دفعه وخلص إخلاصه لله لم يضره، وإن ساكنه واطمأن إليه نقص العمل وحصل لصاحبه من ضعف الإيمان والإخلاص بحسب ما قام في قلبه من الرياء، وتقاوم العمل لله وما خالطه من شائبة الرياء، والرياء آفة عظيمة ويحتاج إلى علاج شديد وتمرين النفس على الإخلاص ومجاهدتها في مدافعة خواطر الرياء والأغراض الضارة والاستعانة بالله على دفعها لعل الله يخلص إيمان العبد ويحقق توحيده.

وأما العمل لأجل الدنيا وتحصيل أعراضها وأغراضها، فإن كانت إرادة العبد كلها لهذا المقصد ولم يكن له إرادة لوجه الله والدار الآخرة؛ فهذا ليس له في الآخرة من نصيب، وهذا العمل على هذا الوصف لا يصدر من مؤمن، فإن المؤمن ولو كان ضعيف الإيمان لا بد أن يريد الله والدار الآخرة، وأما من عمل العمل لوجه الله ولأجل الدنيا، والقصدان متساويان أو متقاربان، فهذا وإن كان مؤمنا فإنه ناقص الإيمان والتوحيد والإخلاص، وعمله ناقص لفقده كمال الإخلاص.

وأما من عمل لله وحده وأخلص في عمله إخلاصا تاما ولكنه يأخذ على عمله جُعلا ومعلوما، يستعين به على العمل والدين؛ كالجعالات التي تجعل على أعمال الخير، وكالمجاهد الذي يترتب على جهاده غنيمة أو رزق، وكالأوقاف التي تجعل على المساجد والمدارس والوظائف الدينية لمن يقوم بها، فهذا لا يضر أخذه في إيمان العبد وتوحيده لكونه لم يرد بعمله الدنيا وإنما أراد الدين وقصد أن يكون ما حصل له معينا له على قيام الدين، ولهذا جعل الله في الأموال الشرعية كالزكوات وأموال الفيء وغيرها جزءا كبيرا لمن يقوم بالوظائف الدينية والدنيوية النافعة، كما قد عرف تفاصيل ذلك، فهذا التفصيل يبين لك حكم هذه المسألة كبيرة الشأن ويوجب لك أن تنزل الأمور منازلها، والله أعلم.



باب
من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أربابا

باب
قول الله تعالى:
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾

ووجه ما ذكره المصنف ظاهر؛ فإن الرب والإله هو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وهو الذي يؤله ويعبد وحده لا شريك له، ويطاع طاعة مطلقة فلا يعصى، بحيث تكون الطاعات كلها تبعا لطاعته، فإذا اتخذ العبد العلماء والأمراء على هذا الوجه وجعل طاعتهم هي الأصل، وطاعة الله ورسوله تبعا لها؛ فقد اتخذهم أربابا من دون الله يتألههم ويحاكم إليهم ويقدم حكمهم على حكم الله ورسوله، وهذا هو الكفر بعينه؛ فإن الحكم كله لله كما أن العبادة كلها لله، والواجب على كل أحد ألا يتخذ غير الله حكما، وأن يرد ما تنازع فيه الناس إلى الله ورسوله؛ وبذلك يكون دين العبد كله لله وتوحيده خالصا لوجه الله، وكل من حاكم إلى غير حكم الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت، وإن زعم أنه مؤمن فهو كاذب، فالإيمان لا يصح ولا يتم إلا بتحكيم الله ورسوله في أصول الدين وفروعه وفي كل الحقوق؛ كما ذكره المصنف في الباب الآخر، فمن حاكم إلى غير الله ورسوله فقد اتخذ ذلك ربًّا وقد حاكم إلى الطاغوت.

باب
من جحد شيئًا من الأسماء والصفات

أصل الإيمان وقاعدته التي ينبني عليها هو الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته، وكلما قوي علم العبد بذلك وإيمانه به وتعبد لله بذلك قوي توحيده، فإذا علم أن الله متوحد بصفات الكمال، متفرد بالعظمة والجلال والجمال ليس له في كماله مثيل؛ أوجب له ذلك أن يعرف ويتحقق أنه هو الإله الحق وأن إلهية ما سواه باطلة، فمن جحد شيئا من أسماء الله وصفاته فقد أتى بما يناقض التوحيد وينافيه، وذلك من شعب الكفر.



باب
قول الله تعالى:
﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾

الواجب على الخلق إضافة النعم إلى الله قولا واعترافا كما تقدم، وبذلك يتم التوحيد، فمن أنكر نعم الله بقلبه ولسانه فذلك كافر ليس معه من الدين شيء.

ومن أقر بقلبه أن النعم كلها من الله وحده وهو بلسانه تارة يضيفها إلى الله، وتارة يضيفها إلى نفسه وعمله وإلى سعي غيره كما هو جارٍ على ألسنة كثير من الناس، فهذا يجب على العبد أن يتوب منه، وألا يضيف النعم إلا إلى موليها، وأن يجاهد نفسه على ذلك، ولا يتحقق الإيمان والتوحيد إلا بإضافة النعم إلى الله قولا واعترافا، فإن الشكر الذي هو رأس الإيمان مبني على ثلاثة أركان: اعتراف القلب بنعم الله كلها عليه وعلى غيره، والتحدث بها والثناء على الله بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم وعبادته، والله أعلم.

باب
قول الله تعالى:
﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

الترجمة السابقة على قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ [البقرة: ١٦٥].

يقصد بها الشرك الأكبر بأن يجعل لله ندًّا في العبادة والحب والخوف والرجاء وغيرها من العبادات - وهذه الترجمة المراد بها الشرك الأصغر؛ كالشرك في الألفاظ، كالحلف بغير الله، وكالتشريك بين الله وبين خلقه في الألفاظ كـ: لولا الله وفلان، وهذا بالله وبك، وكإضافة الأشياء ووقوعها لغير الله كـ: لولا الحارس لأتانا اللصوص، ولولا الدواء الفلاني لهلكت، ولولا حذق فلان في المكسب الفلاني لما حصل، فكل هذا ينافي التوحيد، والواجب أن تضاف الأمور ووقوعها ونفع الأسباب إلى إرادة الله، وإلى الله ابتداء، ويذكر مع ذلك مرتبة السبب ونفعه، فيقول: لولا الله ثم كذا؛ ليعلم أن الأسباب مربوطة بقضاء الله وقدره، فلا يتم توحيد العبد حتى لا يجعل لله ندًّا في قلبه وقوله وفعله.



باب
من لم يقنع في الحلف بالله

ويراد بهذا إذا توجهت اليمين على خصمك وهو معروف بالصدق أو ظاهره الخير والعدالة فيحلف، فإنه يتعين عليك الرضا والقناعة بيمينه، لأنه ليس عندك يقين يعارض صدقه وما كان عليه المسلمون من تعظيم ربهم وإجلاله يوجب عليك أن ترضى بالحلف بالله، وكذلك لو بذلت له اليمين بالله فلم يرض إلا بالحلف بالطلاق أو دعاء الخصم على نفسه بالعقوبات، فهو داخل في الوعيد؛ لأن ذلك سوء أدب وترك لتعظيم الله، واستدراك على حكم الله ورسوله.

وأما من عرف منه الفجور والكذب وحلف على ما تيقن كذبه فيه فإنه لا يدخل تكذيبه في الوعيد للعلم بكذبه، وأنه ليس في قلبه من تعظيم الله ما يطمئن الناس إلى يمينه، فتعين إخراج هذا النوع من الوعيد لأن حالته متيقنة، والله أعلم.

باب
قول ما شاء الله وشئت

هذه الترجمة داخلة في الترجمة السابقة ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾.

باب
من سب الدهر فقد سب الله

وهذا واقع كثيرا في الجاهلية وتبعهم على هذا كثير من الفساق والمجان والحمقى؛ إذا جرت تصاريف الدهر على خلاف مرادهم جعلوا يسبون الدهر والوقت وربما لعنوه. وهذا ناشئ من ضعف الدين ومن الحمق والجهل العظيم، فإن الدهر ليس عنده من الأمر شيء؛ فإنه مدبر مصرف، والتصاريف الواقعة فيه تدبير العزيز الحكيم، ففي الحقيقة يقع العيب والسب على مدبره، وكما أنه نقص في الدين فهو نقص في العقل، فبه تزداد المصائب ويعظم وقعها ويغلق باب الصبر الواجب، وهذا منافٍ للتوحيد، أما المؤمن فإنه يعلم أن التصاريف واقعة بقضاء الله وقدره وحكمته، فلا يتعرض لعيب ما لم يعبه الله ولا رسوله، بل يرضى بتدبير الله ويسلم لأمره، وبذلك يتم توحيده وطمأنينته.



باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه
وباب احترام أسماء الله وتغيير الاسم لذلك

وهاتان الترجمتان من فروع الباب السابق[1]، وهو أنه يجب ألا يُجعل لله ند في النيات والأقوال والأفعال، فلا يسمى أحد باسم فيه نوع مشاركة لله في أسمائه وصفاته؛ كقاضي القضاة وملك الملوك ونحوها، وحاكم الحكام، أو بأبي الحكم ونحوه، وكل هذا حفظ للتوحيد ولأسماء الله وصفاته، ودفع لوسائل الشرك حتى في الألفاظ التي يخشى أن يتدرج منها إلى أن يظن مشاركة أحد لله في شيء من خصائصه وحقوقه.

---

(١) يقصد باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ص٦٩٥.

باب
من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

أي فإن هذا منافٍ للإيمان بالكلية، ومخرج من الدين، لأن أصل الدين الإيمان بالله وكتبه ورسله، ومن الإيمان تعظيم ذلك. ومن المعلوم أن الاستهزاء والهزل بشيء من هذه أشد من الكفر المجرد، لأن هذا كفر وزيادة احتقار وازدراء، فإن الكفار نوعان: معرضون ومعارضون، فالمعارض المحارب لله ورسوله، القادح بالله وبدينه ورسوله أغلظ كفرا وأعظم فسادا، والهازل بشيء منها من هذا النوع.

باب
قول الله تعالى:
﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾

مقصود هذه الترجمة أن كل من زعم أن ما أوتيه من النعم والرزق فهو بكده وحذقه وفطنته، أو أنه مستحق لذلك لما يظن له على الله من الحق، فإن هذا منافٍ للتوحيد؛ لأن المؤمن حقًّا من يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة ويثني على الله بها، ويضيفها إلى فضله وإحسانه، ويستعين بها على طاعته، ولا يرى له حقا على الله، وإنما الحق كله لله، وأنه عبد محض من جميع الوجوه، فبهذا يتحقق الإيمان والتوحيد، وبضده يتحقق كفران النعم، والعجب بالنفس، والإدلال الذي هو من أعظم العيوب.

باب
قول الله تعالى:
﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾

مقصود الترجمة أن من أنعم الله عليهم بالأولاد، وكمل الله لهم النعمة بهم بأن جعلهم صالحين في أبدانهم، وتمام ذلك أن يصلحوا في دينهم، فعليهم أن يشكروا الله على إنعامه، وألا يُعَبِّدُوا أولادهم لغير الله، أو يضيفوا النعم لغير الله، فإن ذلك كفران للنعم منافٍ للتوحيد.

باب
قول الله تعالى
﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾

أصل التوحيد إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله من الأسماء الحسنى، ومعرفة ما احتوت عليه من المعاني الجليلة، والمعارف الجميلة، والتعبد لله بها ودعاؤه بها، فكل مطلب يطلبه العبد من ربه من أمور دينه ودنياه، فليتوسل إليه باسم مناسب له من أسماء الله الحسنى، فمن دعاه لحصول رزق فليسأله باسمه الرزاق، ولحصول رحمة ومغفرة فباسمه الرحيم الرحمن البر الكريم العفو الغفور التواب ونحو ذلك.

وأفضل من ذلك أن يدعوه بأسمائه وصفاته دعاء العبادة، وذلك باستحضار معاني الأسماء الحسنى وتحصيلها في القلوب؛ حتى تتأثر القلوب بآثارها ومقتضياتها، وتمتلئ بأجلِّ المعارف. فمثلًا أسماء العظمة والكبرياء والمجد والجلال والهيبة تملأ القلب تعظيمًا لله وإجلالًا له.

وأسماء الجمال والبر والإحسان والرحمة والجود تملأ القلب محبة لله، وشوقًا له وحمدًا له وشكرًا. وأسماء العز والحكمة والعلم والقدرة تملأ القلب خضوعًا لله وخشوعًا وانكسارًا بين يديه، وأسماء العلم والخبرة والإحاطة والمراقبة والمشاهدة تملأ القلب مراقبة لله في الحركات والسكنات، وحراسة للخواطر عن الأفكار الردية، والإرادات الفاسدة.

وأسماء الغنى واللطف تملأ القلب افتقارًا واضطرارًا إليه والتفاتًا إليه كل وقت في كل حال.

فهذه المعارف التي تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسمائه وصفاته، وتعبُّده بها لله لا يحصِّل العبد في الدنيا أجلَّ ولا أفضل ولا أكمل منها، وهي أفضل العطايا من الله لعبده، وهي روح التوحيد ورَوْحه، ومن انفتح له هذا الباب انفتح له باب التوحيد الخالص والإيمان الكامل، الذي لا يحصل إلا للكمَّل من الموحدين. وإثبات الأسماء والصفات هو الأصل لهذا المطلب الأعلى.

وأما الإلحاد في أسماء الله وصفاته فإنه ينافي هذا المقصد العظيم أعظم منافاة، والإلحاد أنواع إما أن ينفي الملحد معانيها؛ كما تفعله الجهمية ومن تبعهم، وإما بتشبيهها بصفات المخلوقين؛ كما يفعله المشبهة من الرافضة وغيرهم، وإما بتسمية المخلوقين بها؛ كما يفعله المشركون حيث سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، فاشتقوا لها من أسماء الله الحسنى فشبهوها بالله، ثم جعلوا لها من حقوق العبادة ما هو من حقوق الله الخاصة، فحقيقة الإلحاد في أسماء الله هو الميل بها عن مقصودها لفظًا أو معنى، تصريحًا أو تأويلًا أو تحريفًا. وكل ذلك مناف للتوحيد والإيمان.



باب
لا يقال: السلام على الله

وقد بين ﷺ هذا المعنى بقوله: « **فإن الله هو السلام** »[1]. فهو تعالى السلام السالم من كل عيب ونقص، وعن مماثلة أحد من خلقه له، وهو المسلم لعباده من الآفات والبليات، فالعباد لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، بل هم الفقراء إليه، المحتاجون إليه في جميع أحوالهم، وهو الغني الحميد.

(١) البخاري (٨٣٥)، مسلم (٤٠٢).

باب
لا يقول: اللهم اغفر لي إن شئت

الأمور كلها وإن كانت بمشيئة الله وإرادته، فالمطالب الدينية كسؤال الرحمة والمغفرة، والمطالب الدنيوية المعينة على الدين كسؤال العافية والرزق وتوابع ذلك، قد أمر العبد أن يسألها من ربه طلبًا ملحًّا جازمًا، وهذا الطلب عين العبودية ومخها، ولا يتم ذلك إلا بالطلب الجازم الذي ليس فيه تعليق بالمشيئة؛ لأنه مأمور به، وهو خير محض لا ضرر فيه، والله تعالى لا يتعاظمه شيء.

وبهذا يظهر الفرق بين هذا وبين سؤال بعض المطالب المعينة التي لا يتحقق مصلحتها ومنفعتها، ولا يجزم أن حصولها خير للعبد. فالعبد يسأل ربه ويعلقه على اختيار ربه له أصلح الأمرين، كالدعاء المأثور: **«اللهم أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي»**[1]. وكدعاء الاستخارة.

فافهم هذا الفرق اللطيف البديع بين طلب الأمور النافعة المعلوم نفعها وعدم ضررها، وأن الداعي يجزم بطلبها ولا يعلقها، وبين طلب الأمور التي لا يدري العبد عن عواقبها، ولا رجحان نفعها على ضررها، فالداعي يعلقها على اختيار ربه الذي أحاط بكل شيء علمًا وقدرة ورحمة ولطفًا.



(١) البخاري (٥٦٧١)، مسلم (٢٦٨٠).

باب
لا يقل: عبدي وأمتي

وهذا على وجه الاستحباب أن يعدل العبد عن قول: عبدي وأمتي إلى فتاي وفتاتي، تحفظًا عن اللفظ الذي فيه إيهام ومحذور، ولو على وجه بعيد، وليس حرامًا وإنما الأدب كمال التحفظ بالألفاظ الطيبة التي لا توهم محذورًا بوجه، فإن الأدب في الألفاظ دليل على كمال الإخلاص خصوصًا هذه الألفاظ التي هي أمس بهذا المقام.

باب لا يرد من سأل بالله
وباب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

الباب الأول: خطاب للمسئول، وأنه إذا أدلى على الإنسان أحد بحاجة وتوسل إليه بأعظم الوسائل، وهو السؤال بالله، أن يجيبه احترامًا وتعظيمًا لحق الله، وأداءً لحق أخيه حيث أدلى بهذا السبب الأعظم.

والباب الثاني:خطاب للسائل، وأن عليه أن يحترم أسماء الله وصفاته، وألا يسأل شيئًا من المطالب الدنيوية بوجه الله، بل لا يسأل بوجهه إلا أهم المطالب وأعظم المقاصد، وهي الجنة بما فيها من النعيم المقيم، ورضا الرب والنظر إلى وجهه الكريم والتلذذ بخطابه، فهذا المطلب الأسنى هو الذي يسأل بوجه الله، وأما المطالب الدنيوية، والأمور الدنيئة وإن كان العبد لا يسألها إلا من ربه فإنه لا يسألها بوجهه.



باب
ما جاء في الـ «لو»

اعلم أن استعمال العبد للفظة «لو» يقع على قسمين: مذموم ومحمود:

أما المذموم: فأن يقع منه أو عليه أمر لا يحبه فيقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا، فهذا من عمل الشيطان؛ لأن فيه محذورين:

أحدهما: أنها تفتح عليه باب الندم والسخط والحزن الذي ينبغي له إغلاقه، وليس فيها نفع.

الثاني: أن في ذلك سوء أدب على الله وعلى قدره، فإن الأمور كلها، والحوادث دقيقها وجليلها بقضاء الله وقدره، وما وقع من الأمور فلا بد من وقوعه، ولا يمكن رده. فكان في قوله: لو كان كذا أو لو فعلت كذا كان كذا؛ نوع اعتراض ونوع ضعف إيمان بقضاء الله وقدره.

ولا ريب أن هذين الأمرين المحذورين لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد إلا بتركهما.

وأما المحمود من ذلك: فأن يقولها العبد تمنيا للخير، أو تعليمًا للعلم والخير كقوله ﷺ: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولأهللت بالعمرة**»[1]. وقوله في الرجل المتمني للخير: «**لو أن لي مثل مال فلان لعملت فيه مثل عمل فلان**»[2].

و«**لو صبر أخي موسى لقص الله علينا من نبئهما**»[3]. أي في قصته مع الخضر.

---

(١) مسلم (١٢١١).

(٢) الطبراني في مسند الشاميين (٢٧٥٠).

(٣) أحمد (٢١١٢٦).

وكما أن «لو» إذا قالها للخير فهو محمود، فإذا قالها متمنيا للشر فهو مذموم، فاستعمال «لو» تكون بحسب الحال الحامل عليها، إن حمل عليها الضجر والحزن وضعف الإيمان بالقضاء والقدر، أو تمني الشر كان مذمومًا، وإن حمل عليها الرغبة في الخير والإرشاد والتعليم كان محمودًا؛ ولهذا جعل المصنف الترجمة محتملة للأمرين.



باب
النهي عن سب الريح

وهذا نظير ما سبق في سب الدهر[1] إلا أن ذلك الباب عام في سب جميع حوادث الدهر، وفي هذا خاص بالريح. ومع تحريمه فإنه حمق وضعف في العقل والرأي، فإن الريح مصرَّفة مدبَّرة بتدبير الله وتسخيره، فالسابُّ لها يقع سبُّه على من صرَّفها، ولولا أن المتكلم بسب الريح لا يخطر هذا المعنى في قلبه غالبًا لكان الأمر أفظع من ذلك، ولكن لا يكاد يخطر بقلب مسلم.

(١) يقصد باب من سب الدهر فقد سب الله، ص٦٩٨.

باب
قول الله تعالى:
﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾

وذلك أنه لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد؛حتى يعتقد جميع ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله، وتصديقه بكل ما أخبر به وأنه يفعله، وما وعد به من نصر الدين، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، فاعتقاد هذا من الإيمان، وطمأنينة القلب بذلك من الإيمان، وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية النافية للتوحيد؛ لأنها سوء ظن بالله، ونفي لكماله وتكذيب لخبره، وشك في وعده. والله أعلم.

باب
ما جاء في منكر القدر

قد ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة أن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فمن لم يؤمن بهذا فإنه ما آمن بالله حقيقة. فعلينا أن نؤمن بجميع مراتب القدر، فنؤمن أن الله بكل شيء عليم، وأنه كتب في اللوح المحفوظ جميع ما كان، وما يكون إلى يوم القيامة، وأن الأمور كلها بخلقه وقدرته وتدبيره.

ومن تمام الإيمان بالقدر العلم بأن الله لم يجبر العباد على خلاف ما يريدون، بل جعلهم مختارين لطاعاتهم ومعاصيهم.



باب
ما جاء في المصورين

وهذا من فروع الباب السابق[1] أنه لا يحل أن يجعل لله ندًّا في النيات والأقوال والأفعال. والندُّ هو المشابه ولو بوجه بعيد، فاتخاذ الصور الحيوانية تشبُّه بخلق الله، وكذب على الخلقة الإلهية، وتمويه وتزوير؛ فلذلك زجر الشارع عنه.

(١) يقصد باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ص٦٩٥.

باب
ما جاء في كثرة الحلف

أصل اليمين إنما شرعت تأكيدًا للأمر المحلوف عليه، وتعظيمًا للخالق؛ ولهذا وجب ألا يحلف إلا بالله، وكان الحلف بغيره من الشرك، ومن تمام هذا التعظيم ألا يحلف بالله إلا صادقًا. ومن تمام هذا التعظيم أن يحترم اسمه العظيم عن كثرة الحلف، فالكذبَ وكثرة الحلف تنافي التعظيم الذي هو روح التوحيد.



باب
ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه

المقصود من هذه الترجمة البعد والحذر من التعرض للأحوال التي يخشى منها نقض العهود والإخلال بها، بعدما يجعل للأعداء المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله، فإنه متى وقع النقض في هذه الحال كان انتهاكًا من المسلمين لذمة الله وذمة نبيه، وتركًا لتعظيم الله وارتكابًا لأكبر المفسدتين؛ كما نبَّه عليه ﷺ، وفي ذلك أيضًا تهوين للدين والإسلام وتزهيد للكفار به، فإن الوفاء بالعهود خصوصًا المؤكدة بأغلظ المواثيق من محاسن الإسلام الداعية للأعداء المنصفين إلى تفضيله واتباعه.



باب الإقسام على الله
وباب لا يستشفع بالله على خلقه

وهذان الأمران من سوء الأدب في حق الله، وهو مناف للتوحيد.

أما الإقسام على الله فهو في الغالب من باب العجب بالنفس والإدلال على الله، وسوء الأدب معه، ولا يتم الإيمان حتى يسلم من ذلك كله.

وأما الاستشفاع بالله على خلقه فهو تعالى أعظم شأنًا من أن يتوسل به إلى خلقه؛ لأن رتبة المتوسَّل به غالبًا دون رتبة المتوسَّل إليه، وذلك من سوء الأدب مع الله، فيتعين تركه، فإن الشفعاء لا يشفعون عنده إلا بإذنه، وكلهم يخافونه، فكيف يعكس الأمر فيجعل هو الشافع وهو الكبير العظيم الذي خضعت له الرقاب وذلَّت له الكائنات بأسرها.

باب
ما جاء في حماية المصطفى
حمى التوحيد وسده طرق الشرك

تقدم نظير هذه الترجمة، وأعادها المصنف اهتمامًا بالمقام؛ فإن التوحيد لا يتم ولا يحفظ ويحصن إلا باجتناب جميع الطرق المفضية إلى الشرك، والفرق بين البابين، أن الأول فيه حماية التوحيد بسد الطرق الفعلية، وهذا الباب فيه حمايته وسده بالتأدب والتحفظ بالأقوال، فكل قول يفضي إلى الغلو الذي يخشى منه الوقوع في الشرك فإنه يتعين اجتنابه، ولا يتم التوحيد إلا بتركه.

والحاصل أن تمام التوحيد بالقيام بشروطه وأركانه ومكملاته ومحققاته، وباجتناب نواقضه ومنقصاته ظاهرًا وباطنًا، قولًا وفعلًا، وإرادة واعتقادًا. وقد مضى من التفاصيل ما يوضح ذلك.

باب
قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾

ختم المصنف - رحمه الله - كتابه بهذه الترجمة، وذكر النصوص الدالة على عظمة الرب العظيم وكبريائه ومجده وجلاله، وخضوع المخلوقات بأسرها لعزه؛ لأن هذه النعوت العظيمة والأوصاف الكاملة أكبر الأدلة والبراهين على أنه المعبود وحده، المحمود وحده، الذي يجب أن يبذل له غاية الذل والتعظيم، وغاية الحب والتأله، وأنه الحق وما سواه باطل. وهذا حقيقة التوحيد ولبُّه وروحه، وسر الإخلاص، فنسأل الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته، والإنابة إليه. إنه جواد كريم.



الخاتمة

وهذا آخر التعليق المختصر على كتاب التوحيد وتوضيح مقاصده، وقد حوى من غرر مسائل التوحيد، ومن التقاسيم والتفصيلات النافعة ما لا يستغني عنه الراغبون في هذا الفن الذي هو أصل الأصول وبه تقوم العلوم كلها، والحمد لله على تيسيره ومنته. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.



مجموع مؤلفات ابن سعدي (٢٨)

البراهين العقلية

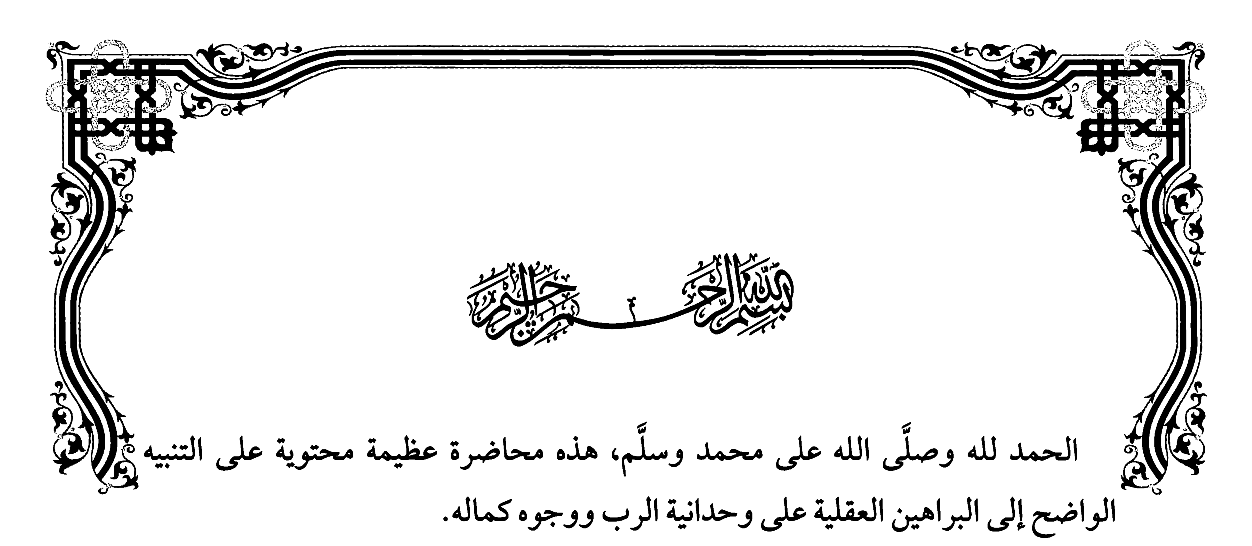
على وحدانية الرب ووجوه كماله

تأليف

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله



الحمد لله وصلَّى الله على محمد وسلَّم، هذه محاضرة عظيمة محتوية على التنبيه الواضح إلى البراهين العقلية على وحدانية الرب ووجوه كماله.

اعلم أن هذه المسألةَ أعظمُ المسائل على الإطلاق، وأكبرُها وأوجبُها وأنفعُها وأوضحُها، وعليها اتفقت جميعُ الكتب المنزلة من الله على رسله، وجميعُ الرسل.

وهي أهمُّ ما دعا إليه الرسل أممَهم، فكلُّ رسول يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]. ويذكرون لأممِهم من أسماء الرب وأوصافه ونعمه وآلائه وألطافه ما به يعرفون ربهم ويخضعون له ويعبدونه.

والقرآنُ العظيم من أوله إلى آخره يبين هذه المسألة ويذكر لها البراهينَ المتنوعة، ويصرِّف لها الآيات، والسنّةُ كذلك.

وليس القصد في هذه المحاضرة ذكر الأدلة النقلية عليها؛ فإن الكتاب والسنّة فيهما من البراهين والأدلة على ذلك ما لا يعد ولا يحصى، ولا يمكن استيفاء بعضه، وهي واضحة جلية؛ يعرفها الخواص والعوام، وبعض ذلك كافٍ وافٍ بالمقصود.

ولكننا نريد في هذه المحاضرة أن نشير إشارةً يسيرةً إلى براهينها العقلية التي يشترك في معرفتها والخضوعِ لها جميعُ العقلاء من البشر، ولا ينكرها إلا كلُّ مكابر مستكبر منابذٍ للعقل والدين.

وهذه المسألة أوضحُ وأظهر من أن يحتجَّ لها وتذكر براهينها، ولكن كلما عرف المؤمنُ

براهينَها قوي إيمانه، وازداد يقينهُ، وحمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر النعم وأجلها.

ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]. فاستفهموهم استفهامَ تقرير ، فإنه متقررٌ في قلوب جميع العقلاء الاعترافُ بربوبيته ووحدانيته. فنقول وبالله التوفيق:

حدوث الأشياء له ثلاثة أقسام عقلية:

اعلم- رحمك الله- أنك إذا نظرتَ إلى العالم العلوي والسفلي وما أودع فيه من المخلوقات المتنوعة الكثيرة جدًّا، والحوادث المتجددة في كل وقت، وتأملتَه تأملًا صحيحًا؛ عرفت أن الأمورَ الممكن تقسيمُها في العقل ثلاثةٌ:

أحدُها: أن توجدَ هذه المخلوقات والحوادثُ بنفسها من غير محدِث ولا خالِق، فهذا محالٌ ممتنعٌ؛ يجزم العقل ضرورة ببطلانه، ويعلم يقينًا أن من ظن ذلك فهو إلى الجنون أقرب منه إلى العقل؛ لأن كل من له عقل يعرف أنه لا يمكن أن يوجَد شيء من غير موجِد، ولا محدِث.

الثاني: أن تكون هذه المخلوقات محدِثةً وخالقةً نفسَها، فهذا أيضًا محالٌ ممتنعٌ؛ يجزم العقل ضرورة ببطلانه وامتناعه، فكل من له أدنى عقل يجزم أن الشيء لا يحدِث نفسه، كما أنه لا يحدُث بلا محدِث.

وإذا بطل هذان القسمان عقلًا وفطرة تعيَّن **القسم الثالث:** وهو أن هذه المخلوقات والحوادث لها خالِقٌ خلقها، ومحدِثٌ أحدثها، وهو الله الرب العظيم، الخالق لكل شيء، المتصرف في كل شيء، المدبر للأمور كلها.

ولهذا نبَّه الله على هذا التقسيم العقلي الواضح لكل عاقل فقال: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥،٣٦].

فالمخلوق لا بد له من خالِق، والأثر لا بد له من مؤثِّر، والمحدَث لا بد له من محدِث، والموجَد لا بد له من موجِد، والمصنوع لا بد له من صانع، والمفعول لا بد له من فاعِل.

هذه قضايا بديهية عقلية، يشترك في العلم بها جميعُ العقلاء، وهي من أعظم القضايا العقلية، فمن ارتاب فيها أو شكَّ في دلالتها فقد برهن على اختلالِ عقله وضلاله.

من الأدلة: التفكر في خلق الإنسان والأكوان:

تفكَّرْ- رحمك الله- في نفسك، وانظر في مبدأ خلقك؛ من نطفة إلى علقة إلى مُضغة، حتى صرتَ بشرًا كامل الخَلْق، مكتمل الأعضاء الظاهرة والباطنة؛ أما يضطرك هذا النظرُ ويُلجئك إلى الاعتراف بالربِّ القادرِ على كل شيء، الذي أحاط علمه بكل شيء، الحكيمِ في كلِّ ما خلقه وصنعه؟

فلو اجتمع الخلقُ كلهم على هذه النطفةِ- التي جعلها الله مبدأَ خلقك- على أن ينقلوها في تلك الأطوار المتنوِّعة، ويحفظوها في ذلك القرار المكين، ويجعلوا لها أعضاء ظاهرة وقوى باطنة، وسمعًا وبصرًا وعقلًا، وينموها هذه التنمية العجيبة، ويركِّبوها هذا التركيب المنظم، ويرتبوا الأعضاء على هذا الترتيب المحكم بحيث يكون كلُّ عضوٍ في محلِّه اللائق به؛ لو اجتمعوا على ذلك؛ فهل في علومهم وهل في اقتدارهم واستطاعتهم الوصولُ إلى ذلك؟

فهذا النظرُ السديدُ يوصلك إلى الاعتراف بقدرة الله وعظمته ووحدانيته، والخضوع له، والتصديق بكتبه، ورسله، ومعرفته، والإيمان باليوم الآخر.

تأمل في حفظِ الله للسماواتِ والأرض، وما فيهما من العوالم التي لا يعلمها إلا هو، وفي إبقائها وإمدادها بكل ما تحتاج إليه في بقائها، من الأسباب المتنوعة، والنظاماتِ العجيبة، أما يدلك ذلك على كمال الرب وربوبيته ووحدانيته وسعةِ علمه وشمولِ حكمته؟

وقد نبه الله على هذا الدليل الواضح العقلي بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ

بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الروم: ٢٥]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١].

تدبر يا أخي في هذا الفلك الدوَّار، وما ترتب عليه من تعاقب الليل والنهار؛ وفي تصريفِ الأوقات بفصولها وكمال انتظامها لمصالح العباد ومنافعهم التي لا يمكن إحصاؤها.

هل حصل ذلك صدفةً واتفاقًا من غير محدِث وفاعِل؟ أم الذي خلق ذلك ودبَّره هذا التدبير المتقن هو الذي أحسنَ كل شيء خلقه؟ كما نبّه على ذلك البرهان العقلي بقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨].

وانظر- هداك الله- إلى أنه أعطى كل شيء خلقَه اللائق به؛ ثم هدى كلَّ مخلوق إلى مصالحه ومنافعه وضروراته التي لا بد فيها من بقائه؛ حتى البهائمَ العُجمَ صغيرَها وكبيرَها قد ألهمها وهداها لكل أمر فيه نفعها وبقاؤها، ويسَّر لها أرزاقها وأقواتها، وهداها لتناولها.

فمن نظر في هذه الهداية العامة، وبثِّها في جميع المخلوقات، وإلهامها هذا الإلهام العجيب الذي تهتدي به إلى مصالحها؛ عَلِم بذلك عنايةَ المولى العظيمة، وعلم أنه الربُّ لكل مربوب، الخالقُ لكل مخلوق، الرازقُ لكل مرزوق، الذي علَّم المخلوقاتِ وأعطاها من الأذهان ما يصلحها ويدفع عنها المضار، وذلك برهانٌ عقليٌّ واضحٌ عظيمٌ على وحدانية الله وكماله. وقد نبَّه الله على ذلك بقوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠].

فهل في طبيعة الحيوانات المتنوعة هذه الهداية، وهذا الإلهام إلى تحصيل منافعها ودفع مضارها، والحنو على أولادها، وقيامها بهم، حتى يَدرجوا ويستقلوا بأنفسهم؟

وهل هذا الحنانُ والرحمةُ الموضوعة في الحيوانات على أولادها؛ إلا من أكبر الأدلة على سعة رحمة الله وشمول علمه وحكمته؟

من الأدلة: رحمة الله العامة:

ثم انظر - رحمك الله - إلى سعة رحمة الله التي ملأت أقطارَ العالم، وشملت كلَّ مخلوق في كل أحواله وأوقاته.

فبرحمته أوجد المخلوقات، وبرحمته أبقاها وحفظها، وبرحمته أمدها بكل ما تحتاج إليه، وأسبغ عليها النِّعم الظاهرة والباطنة التي لا يمكن أن يخلوَ مخلوقٌ منها طرفة عين، وهي متنوعة عليه من كل وجه:

نِعَمُ التعليمِ لأمور الدين والدنيا، ونِعم العافية للأبدان عمومًا ولكلِّ عضوٍ وقوةٍ على وجه الخصوص، ونِعم الأولادِ والأهلِ والأتباعِ، ونِعم الأرزاقِ الواسعة، ونِعم الحروث والزروع والثمار، ونِعم المواشي وأصناف الأمتعة، ونِعم الدور والقصور، ونِعم اللذات والحبور.

النِّعمُ التي فيها جلب المنافع كلها، والنِّعمُ التي فيها دفع المضار.

كلُّ ذلك يدل أكبر دلالة على وحدانية موليها ومسديها والمتفضل بها، وعلى سعةِ كرمه، ووجوبِ شكره والخضوع له، وإخلاص العمل له؛ ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧]. ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣].

من الأدلة: النظر في أحوال المضطرين:

ثم انظر أحوال المضطرين الواقعين في المهالك، والمشرفين على الأخطار، والبائسين من فقرهم المدقع، أو مرضِهم الموجع؛ وكيف تضطرهم الضروراتُ وتلجئهم الحاجاتُ إلى ربهم وإلههم؛ داعين مفتقرين وسائلين له مستعطين، فيجيب دعواتِهم ويكشف كرباتِهم، ويرفع ضروراتِهم.

أليس في هذا أكبرُ برهانٍ على وحدانيته، وسعة علمه ورحمته، ودقيق لطفه، وأنه ملجأ الخليقة كلها؟ وقد نبّه الله على هذا البرهان العقلي بقوله: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ [النمل: ٦٢]. ﴿ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٦٣]. ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣]... الآية.

وهذا النوع - وهو تخليص المضطرين - قد شاهدته الخليقةُ بأعينهم؛ ورأوا من الوقائع ما لا يعد ولا يحصى، وهذا يضطرهم إلى الاعترافِ بالله وبوحدانيته.

فانظر إلى حالة المضطرين إذا كَرَبَتهم الشدائد وأزعجتهم النوائبُ، كيف تجد قلوبَهم متعلقةً بالله، وألسنتَهم ملحةً في سؤاله، وأفئدتَهم متشرفةً لنواله؟ لا تلتفت عن الله يَمنةً ولا يَسرةً؛ لعلمها الضروريِّ أنه وحده كاشفُ الشدائد، فارج الكروب؛ لا ملجأً للخليقة إلا إليه؛ ولا معوَّل لهم إلا عليه؟

فهل هذه الأمور إلا لأن الخليقةَ مفطورةٌ على الاعترافِ بوحدانية ربها، وأنه النافع الضارُّ، وأن ملكوتَ كلِّ شيء بيديه؟ وهل ينكرُ ذلك إلا من فَسَدت فطرتُه بالعقائدِ الفاسدة والإراداتِ السيئة؟

وانظر إلى فقرِ الخلائق إلى ربهم في كل شيء؛ فهم فقراءُ إليه في الخلق والإيجاد، وفقراءُ إليه في البقاء والرزق والإمداد، وفقراءُ إليه في جَلْب جميع المنافع، وفقراءُ إليه في دفع المضار.

فهم يسألونه بلسانِ المقال ولسانِ الحال، فيعطيهم مطالبَهم، ويسعفُهم في كلِّ مآربهم؛ إن رغبوا لم يرغبوا إلا إليه، وإن مستهم الضراءُ لم يلجئوا إلا إليه.

فكم كشف الضرَّ والكروب، وكم جبر الكسيرَ ويسَّرَ المطلوب، وكم أغاث ملهوفًا، وكم أنقذ هالكًا، ففقرهم إليه في جميع الأحوال ظاهر مشاهد، وغناه عنهم لا ينكره إلا كلُّ مكابِر وجاحد.

من الأدلة: إجابة الله للدعوات:

ومن براهينِ رُبوبيته ووحدانيته: إجابتُه للدعواتِ في كلِّ الأوقات، فلا يحصي الخلقُ ما يعطيه السائلين، وما يجيبُ به أدعيةَ الداعين، من برٍّ وفاجر، ومسلمٍ وكافر.

تحصلُ للعباد المطالبُ الكثيرة ولا يعرفون لها شيئًا من الأسباب سوى الدعاء، والطمع في فضل الله والرجاء لرحمته.

هذا برهانٌ مشاهدٌ في كلِّ الأوقات، لا ينكره إلا مباهت جاحد.

يدعونه في مطالب دينهم فيجيبهم، وفي مطالب دنياهم فيجيبهم: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ [البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢].

من الأدلة: آيات الأنبياء:

ومن براهين وجود الله ووحدانيته: ما يجريه الله على أيدي أنبيائه من خوارق الآيات والمعجزات والبراهين القاطعات، وما يكرمهم به في الدنيا وينصرهم، ويجعل لهم العواقب الحميدة، ويخذل أعداءَهم ويعذبهم بأصناف العذاب.

وهذا متواترٌ معروفٌ بين الخواص والعوام، وقد نقلتها الأمم والقرون والأجيال، وصارت أعظمَ من برهانِ الشمس والقمر، وهي كلها براهينُ على ربوبية من أرسلهم، ووحدانيته، وعظمة سلطانه، وكمال قدرته، وسعة علمه وحكمته، وما ينكرها إلا كل متكبر جبار.

من الأدلة: الكتب السماوية والسنّة النبوية وما فيها من الشرائع:

ومن أعظم براهين وحدانيته: ما أنزله الله على أنبيائه عمومًا؛ من الكتب والشرائع،

وما أنزله على محمد ﷺ خصوصًا؛ من الكتاب العظيم والسنّة والشريعة الكاملة التي بها صلاح الخلق، وبها قوام دينهم ودنياهم.

وفيها من الآيات والبراهين ما لا يعبر عنه المعبرون، ولا يقدِرُ أن يصفه الواصفون، وآياته قائمة في جميع الأوقات، متحدية للخلق كلِّهم؛ على اختلاف مللهم ونحلهم، وقد تبين عجزُهم ووضح عليهم: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فمن نظر فيما احتوى عليه القرآن العظيم من الأخبار الصادقة، والأحكام العادلة، والشرائع المحكمة، والصلاح العام، وجلب المنافع الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما، والخير العظيم والهداية، والصلاح المطلق الكامل؛ اضطر إلى الاعتراف بأنه تنزيل من حكيمٍ حميدٍ، وربٍّ كريمٍ.

وكذلك من نظر إلى ما جاء به الرسول ﷺ من السنّة والشرع الكامل، والدين القويم والصراط المستقيم في كل شئونه؛ اضطره بعضُ ذلك- فكيف بكله- إلى الاعتراف بوحدانية الله، وأن الذي شرعه هو الربُّ العظيم الحكيم في شرعه ودينه؛ كما هو حكيم في خلقه وتقديره.

من الأدلة: الفطرة السوية مضطرة إلى الاعتراف بالله:

ومن براهين وحدانية الله: أن العقولَ والفطرَ مضطرةٌ إلى الاعتراف بباريها، وكمالِ قدرته ونفوذ مشيئته، وذلك أن الخلقَ محتاجون ومضطرون إلى جلب المنافع ودفع المضار.

ومن المعلوم لكلِّ عاقلٍ أن حاجة النفوس إلى خالقها وإلهها أعظمُ من جميعِ الحاجات والضرورات، فهي مضطرةٌ إلى علمها بأنه خالقُها وحده، ومالكُها وحده، ومبقيها وحده،

وممدها بمنافعها وحده؛ ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]

ولم يخرج عن هذي الفطرة إلا من اجتالتهم الشياطين[١]، وحوَّلت فِطَرَهم، وغيّرتها بالعقائدِ الفاسدة، والخيالاتِ الضالة، والآراءِ الخبيثة، والنظرياتِ الخاطئة.

فلو خُلُّوا وفطَرَهم لم يميلوا لغير ربهم، منيبين إليه في جلب المنافع ودفع المضار، ومنيبين إليه في التألُّه والتعبُّد والخضوع والانكسار.

من الأدلة: الثواب المعجَّل للمحسنين، والعقاب المعجَّل للظالمين:

ومن براهين وحدانية الله تعالى وكرمه: ما يكرم الله به الواصلين لأرحامهم، المحسنين إلى المضطرين والمحتاجين، وخَلَفُه العاجل لهم في نفقاتِهم، وتعويضُه لهم من جوده وكرمه، وفتحُه لهم أسبابًا وأبوابًا من الرزقِ بسبب ذلك الإحسان؛ الذي له الموقع الطيب.

وقد علم الخلقُ المتأملون أن سببَ ذلك تلك الأعمالُ الصالحة والصلةُ والإحسانُ والمقدماتُ الحسنة؛ ألا يدلنا ذلك أن الله قائمٌ على كل نفس بما كسبت؟ وأن هذا جزاء معجل وثواب حاضر؛ نموذجٌ لثواب الآخرة؟

وأنواعُ ذلك وأفرادُه لا تدخل تحت حصر، وقد رأى الناسُ من ذلك عجائب؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]. و﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]. ولقوله ﷺ: **«من أحب أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أجله، فليصل رحمه»** متفق عليه[٢].

فكم أحسن الله على المحسنين، وكم أخلفَ نفقاتِ المنفقين، وكم جبر قلوبَ الواصلين لأرحامهم المشفقين.

---

(١) اجتالتهم: أي ذهبت بهم وجالت.

(٢) البخاري (٥٩٨٦)، مسلم (٢٥٥٧).

ونظيرُ هذا البرهانِ العقوباتُ التي يعجِّلها الله للباغين والقاطعين والظالمين والمجرمين بحسَبِ جرائمهم؛ عقوباتٌ يشاهدها الناسُ رأيَ العين، ويتيقنون أن ذلك جزاءٌ وعقوبةٌ لتلك الجرائم.

فمن تأمل وسمع الوقائعَ، وأيامَ الله في الخلق، وعَلِم ارتباطها بأسبابها الحسنة والسيئة؛ عَلِم بذلك وحدانيةَ الله وربوبيتَه وكمالَ عدلِه وسعةَ فضلِه؛ فضلًا عن الاستدلال بها على وجوده، ووجوبِ وجوده.

فإن كل ما دلَّ على شيء من أوصافه وأفعاله؛ فإنه يتضمن إثباتَ ذاتِه ووجوبَ وجوده.

وعَلِم استنادَ العوالم العلويةِ والسفليةِ إليه في إيجادها وبقائها وحفظها وإمدادها بكل ما تحتاج إليه.

فصلٌ
تابع لما قبله
طرق معرفة الله واسعة غير منحصرة

واعلم أن طرقَ معرفةِ الله واسعةٌ جدًّا؛ وذلك بحسَبِ حاجةِ الخلق وضروراتِهم إليها، وكلٌّ يعبِّر عنها بعباراتٍ؛ إما كلية وإما جزئية؛ بحسب الحال التي تحضره، وبحسَبِ الأمورِ التي تغلب عليه.

وإلا فكلُّ ما خَطَر في القلوب، وشاهدته الأبصار، وأدركته الحواس والمشاعر، وكلُّ متحركٍ وساكنٍ، وكلُّ حيوانٍ وجماد؛ أدلةٌ وبراهينُ على وحدانية الله وآيات عليه.

وفي كلِّ شيء له آيةٌ تدل على أنه واحدُ

ولكن الجزئيات تسبق إلى الأذهان، وتفهمها القلوبُ تفصيليًّا، ويحصلُ بها النفعُ والفائدةُ العاجلة؛ لسهولتها وبساطتها، وكونها تدرك بالبديهة، فلنذكر لها أمثلةً وحكاياتٍ عن المتقدمين والعصريين، وكلّ يفهم منها ما يناسبه ويليق بفهمه.

أمثلة وحكايات في الاستدلال على الله

سئل بعضهم: بم عرفت ربك؟ فقال: إن البَعْرةَ تدل على البعير، وآثارَ السيرِ تدل على المسير؛ فسماءٌ ذات أبراج، وأرض ذات فِجَاجٍ، وبحارٌ ذات أمواج؛ ألا تدل على اللطيف الخبير؟

واجتمع طائفةٌ من الملاحدة ببعض أهل العلم - أظنه أبا حنيفة - فقالوا: ما الدلالةُ على وجودِ الصانع؟ فقال لهم: دعوني فخاطري مشغولٌ بأمر غريب، قالوا: ما هو؟ قال: بلغني أن في دجلةَ سفينةً عظيمةً مملوءة من أصناف الأمتعة العجيبة، وهي ذاهبة وراجعة من غير أحدٍ يحركها، ولا رُبَّانٍ يقوم عليها.

فقالوا له: مجنونٌ أنت؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: هذا يصدقه عاقل؟ فقال لهم: فكيف صدقت عقولُكم أن هذا العالَمَ؛ بما فيه من الأصناف والأنواع والحوادثِ العجيبة، وهذا الفَلَكَ الدوارَ السيَّارَ يجري وتجري هذه الحوادثُ بغير محدِث، وتتحرك هذه المتحركاتُ بغير محرِّك، فرجعوا على أنفسهم بالملام.

وقيل لبعضهم: بم عرفت ربك؟ فقال: هذه النطفةُ التي يلقيها الفحل في رحم الأنثى، فيطوِّرها الله من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آخر أطوارها، فيكون بشرًا سويًّا كاملَ الأعضاء الظاهرة والباطنة؛ له سمعٌ يسمع به الأصوات، وبصرٌ يبصر به المشاهدات، وعقلٌ يهتدي به

إلى مصالحه، ويدان يبطش بهما ويعمل بهما الأعمال الدقيقة، ورجلان يمشي بهما، وأعضاء كثيرة خلقت لمنافع أخرَ معروفة، وله منافذُ يدخل منها ما يغذي البدنَ، ومنافذُ أخرُ يخرج منها ما يضره؛ وقد رُكِّب هذا التركيبَ العجيبَ الذي لو اجتمعت الخلق على إيجاد شخصٍ واحد على هذا الخلق المحكم العجيب؛ لعجزت معارفهم وقُدَرُهم عن ذلك، أليس ذلك دليلًا وبرهانًا على وجودِ الخالق وعظمتِه ووحدانيتِه؟

قلت: وقد ذكر الله هذا البرهانَ في كتابه في أساليب متنوعة.

وقيل لبعضهم: بم عرفتَ ربك؟ قال: بنقضِ العزائم والهمم.

ومعنى ذلك: أن العبد يعزم في كثير من أموره عزمًا جازمًا مصممًا لا تردد فيه، ثم بعد ذلك تنتقض همته، وينحلُّ عزمه إلى تركه، وإلى أمرٍ آخر يرى فيه مصلحته.

وما ذلك إلا لأن اللهَ على كل شيء قدير، يصرف القلوبَ كما يدبرُ الأبدانَ، وقد يصرفه عن بعض ما يعزم عليه لطفًا به، وإبقاءً على إيمانه ودينه، فيتلطَّف به من حيث لا يشعر؛ فنسأله اللطفَ في الأمور كلها، والتيسير لليسرى.

وسئل بعضهم: بم عرفت ربك؟ فقال: كم كنتُ مكروبًا ففرج كربتي، وكنتُ مريضًا فدعوته فشفاني، وكنتُ فقيرًا فأغناني، وكنتُ ضالًّا عن الهدى فتلطف بي وهداني، وليس هذا الأمر لي وحدي؛ فكم له على عباده من هذه النعم وغيرها مما لا حصرَ له ولا عدَّ، وهذا يضطرني إلى الاعتراف بوحدانيته وقدرته ورحمته.

وقيل لبعضهم: بم عرفتَ الله؟ فقال: قد رأينا ورأى الناسُ في الدنيا مصارعَ البغاةِ المجرمين وعواقبهم الوخيمة، كما رأينا ورأوا في المحسنين عواقبهم الحميدة، فعجَّل للعبادِ نموذجًا من الثواب والعقاب، ليعرفوه، ويخضعوا له وحده، ويعبدوه وحده.

وقيل لآخر: بم عرفتَ الله؟ فقال: بإيصاله النعمَ إلى خلقه وقت الحاجة والضرورة إليها.

هذا الغيثُ ينزله وقتَ الحاجة، ويرفعه إذا خِيف منه الضرر، وهذا الفرج يأتي إذا اشتدت الأزمات، وهذه المطالبُ تأتي منه وقت الحاجة إليها، وهذه أعضاءُ الآدمي وقواه؛ يعطيها الله إياها شيئًا فشيئًا بحسب حاجته إليها.

فهل يمكن أن تكون هذا الأمورُ صدفةً؟ أم يُعلم بذلك علمَ اليقين أن الذي أعطاهم إياها وقتَ الحاجة والضرورة هو الربُّ المعبود، الملك المحمود؟

قلتُ: ومن هذا الباب ما نتكلم فيه من معرفة الله؛ فإنه لما كانت حاجةُ العبادِ إلى معرفة الله فوق جميع الحاجات، والضرورةُ إليها تفوق جميع الضرورات؛ يسَّرها الله لعبادِه ونهج لهم طرقَها، وفتح لهم أبوابَها ومسالكها، وأوضحَ أدلتها، وذلك لشدة الحاجة إليها، وسعة رحمةِ الله وإحسانه.

وقيل لبعضهم: بم يُعرَف الله؟ فقال: يُعرَف بأنه علَّم الإنسانَ ما لم يعلم، خرج من بطن أمه لا يعلم شيئًا، فأعطاه آلاتِ العلم، ويسَّر له أسبابه، فلم يزل يتعلم أمور دينه حتى صارَ عالمًا ربانيًّا، ولم يزل يتعلم أمور دنياه حتى صار ماهرًا مخترعًا للعجائب، ويسَّر له كلَّ سبب ينال به ذلك.

ومن عجيب الأمر أن اللوحَ إذا كتب فيه، وشُغِل بشيء من الأشياء؛ لم يسع غيرها، ولم يمكن أن يكتب فيه شيء آخر قبل مَحْيِ[1] ما كُتِب فيه، وقلبُ الإنسانِ لا يزال يحفظ ويعقل الأمورَ والمعارفَ المتنوعة.

وكلما توسعت معارفُه وغزر علمُه قويت حافظته، واشتدَّت ذاكرته، وتوسعت أفكارُه، فهل هذه الأمورُ في طوق البشر وقدرتهم؟ أم هذا من أكبر البراهينِ على عظمةِ الله ووحدانيته وكماله وسعة رحمته؟

---

(١) المحي: من قولهم: محاه يمحوه أو يمحيه؛ محوًا أو محيًا: أي أذهب أثره؛ على ما في القاموس المحيط.

وقيل لبعضهم: بم يعرف الله؟ فقال: هذه النواةُ يغرسها الناسُ؛ فيأتي منها النخيلُ والأشجارُ المتنوعة، وتخرج الثمارُ اللذيذةُ النافعة، وهذه الحبوبُ تلقى في الأرضِ فتخرج أصنافُ الزروعِ التي هي مادَّةُ أقواتِ الآدميين وبهائمهم، ثم لا تزال تعاد وتُغَلُّ كلَّ عام ما يكفي العبادَ ويزيد عن حاجتِهم.

أليس هذا برهانًا ودليلًا على وجود الله وقدرته، وعنايته بعباده ورحمته؟

وقد نبَّه الله على هذا الدليل والبرهان العقلي المشاهد في قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]. وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

وقيل لمن بادر إلى الإيمانِ بالرسول ﷺ: ما الذي دعاك إلى ذلك؟ فقال: رأيتُه ما أمر بشيء فقال العقل: ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته أمر به.

فاستدلَّ بنور عقلِه وقوة بصيرته على صدق الرسول باشتمال ما جاء به على الصلاح ودفع الفساد، وأن ذلك موافق للعقول السليمة.

وقيل لبعض العارفين: بأي شيء يعرف الله؟ فقال: بذوق حلاوة الطاعاتِ، وتجرُّعِ مرارة المخالفات.

وهذا استدلال برهانيٌّ وجدانيٌّ لمن وُفِّق لهذه الحال، يضطرُّ العبدَ إلى كمالِ الإيمان وزيادة اليقين؛ فإن من وجد حلاوة الطاعات والإيمان، وذاق لذة اليقين، وتألم إذا غلبته النفسُ الأمارةُ بالسوءِ على اقتحام بعض المعاصي، اضطره الأمرُ إلى معرفة الله ووحدانيته.

وقيل لبعضهم: بأي شيء يُعرَفُ الله؟ فقال: بانتظام الأسباب على وتيرة واحدة، ثم بتحويله لبعضها ومنع سببيته، وبإيجادِه أشياءَ بغير أسبابٍ تعرف.

وهذا صحيح، فإنه تعالى أجرى الأمورَ على أسبابها ومسبَّباتها قدرًا وشرعًا؛ لتُعرف بذلك حكمتُه البالغة، ولينشط العاملون على أعمالهم التي ربطها الله بمسبباتها، وأجراها

على سنته، ثم إنه مع ذلك منع بعضَ الأسبابِ عن ترتب آثارها عليها، كما في معجزات الأنبياء الخارقة للعادة، وكرامات الأولياء.

وكذلك يوُجِدُ كثيرًا من الأشياء بغير الأسباب المعهودة، كما أوجدَ عيسى من أمٍّ بلا أب، ويحيى بين أبوين لا يولد لمثلهما.

وأشياء كثيرة من هذا النوعِ؛ ليعرِف العبادُ أنه المتصرِّفُ التصريفَ المطلقَ، وأنه كما يتصرَّف بالأشياء بأسبابها المعلومة المرتبطة بها؛ كذلك يتصرف فيها بغير المعهودة.

ولهذا كان جمهورُ هذا النوعِ من معجزات الأنبياء والكرامات للأولياء، وقد تكون لغيرهم، وهي كلها براهينُ على وحدانية الله وإلهيته وربوبيته.

وقيل لبعضهم: بم يُعرَف الله؟ فقال: من نظر في موادِّ الرزق، وتأمل حالة من لهم موجودات كثيرة وعقارات وغلَّات كثيرة، ولكنهم قد اتكلوا عليها، فضاقت عليهم الأمور، وركبتهم الديون، وجاءت الأمور على خلاف ما يأملون.

ثم نظر إلى أناسٍ كثيرين؛ ليس لهم عقارات ولا غلَّات ولا موجودات، وإنما يسرت لهم أسباب بسيطة، لا تخطر على بال أحدٍ أن تكفيهم، ولكن الله بارك فيها، وبسط لهم الرزقَ، فكانوا أبسط قلوبًا، وأريح نفوسًا، وأرغد عيشًا من الأولين.

والسبب في ذلك أنهم قاموا بالأسباب؛ متوكلين على مسبِّبها، فقلوبُهم على الدوام متطلعةٌ إلى ما عند الله، راجيةٌ منه تسهيلَ الرزق، والأولون بالعكس: قلوبُهم متعلقةٌ بأملاكِهم وموجوداتِهم، فبذلك يُعرَف اللهُ، ويعرف أن الأمرَ كلَّه للهِ.

لذلك إذا نظرنا لكثير من الأقوياء الأذكياء العاملين ليلًا ونهارًا؛ نجد رزقهم مقتَّرًا، وأسبابَهم مخفقةً، ونجد كثيرًا من الضعفاء البُلَداء الذين ليس عندهم من القوة والذكاء ما عند الأولين، والله قد بسط لهم الرزقَ، ويسَّر لهم أمرهم، وهذا كله مشاهدٌ يضطرُّ العاقلَ أن يشهد لله بالتصرف المطلق، وأن الأمر كلَّه لله.

وقيل لآخر: بم يُعرف الله؟ فقال: بمداولته الأيامَ بين العباد في العزِّ والذلِّ، والغنى والفقر، بأسباب وبغير أسباب.

وقيل لآخر: بأي شيء يُعرَف الله؟ فقال: بمشاهدةِ مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فتنظر مصداقها شاملًا للخليقة، وأن كلَّ أحد قد يسَّر الله له من أسباب الرزق ما به يعتاش؛ هذا بتجارته، وهذا بصناعته، وهذا بحراثته، وهذا بعمله وخدمته، وهذا بمخلَّفات من قبله، وهذا بتنميةِ المواشي، وهذا بإحسانِ غيره عليه؛ بسؤالٍ وغير سؤال، وهذا بكدِّ غيره عليه، إلى غير ذلك من الأسباب المعروفة، التي قدرها العزيز الحكيم رزقًا للعباد، فسبحان من وصل رزقه إلى أصغر الذرات، ومَهَامِه البراري، وقعور البحور والظلمات.

وقيل لبعضهم: بم يُعرَف الله؟ فقال: إن لمعرفة الله أبوابًا وطرقًا كثيرة جدًّا، ومن جملتها ما هدى الله له العباد في هذه الأوقات، من المخترعات الكثيرة، وأعمالِ الكهرباء، وإيصالِ الأصوات والأنوار ونحوها إلى مسافات شاسعة، وأمكنة متباعدة.

وهو الذي علَّم الإنسان، وهو الذي أقدره على ذلك، وهو الذي خلق له المواد والمعادن التي تُسْتَخرَج بها هذه الأشياء، وهداه إلى تأليفها.

ومعلومٌ أنه خرج من بطن أمه لا يعلم شيئًا، ولا يقدر على شيء، فعَلِم جميع هذه الأمور، وكانت هذه من جملة منن الله عليه، فخالق السبب هو خالق المسبَّب تبارك وتعالى.

فهذا أكبر برهانٍ على كمال قدرة الله الذي أقدر العبدَ الضعيفَ على هذه الأمور؛ التي تعد سابقًا من الأمور المحالة الممتنعة.

قلتُ: وهذه الأجوبة كلها عن الكليات والجزئيات صحيحة، تضطرُّ العقولَ إلى الاعتراف بربها ووحدانيته، ويمكن مضاعفتُها إلى أضعاف كثيرة.

فإنك إذا نظرتَ نظرةً عمومية إلى العالم العلوي والسفلي وعظم هذه المخلوقات، وانتظامها العجيب، وتركيبها المحكم وترتيبها، وما ينتج عن ذلك من مصالح العالم

والمخلوقات؛ عَلِمتَ أن لهذا العالَمِ ربًّا عظيمًا، ومَلِكًا كبيرًا، وقادرًا مقتدرًا، قد خضعت له الأكوانُ، ودانت له الخليقةُ، وأخذ بنواصي العباد، وعلمتَ أن كلَّ ما في السماواتِ والأرض عبيدٌ ومماليك لربهم؛ ليس لهم من الأمر شيء.

ثم إذا نظرتَ إلى كلِّ مخلوق على حِدَته، وتأملت ما اشتمل عليه من الخلق العجيب والحِكَم الباهرة، ثم نظرتَ على وجه الخصوص إلى نفسِك وصفاتك، وما أُودِع فيها من الخلق العجيب والحِكَم الباهرة؛ عرفتَ أن الله هو الربُّ الخالق الرازق، المدبِّر لكل شيء، الحكيم في كل شيء، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

فجميعُ مخلوقات الله وجميعُ الحوادث التي يحدثها الله آياتٌ وبراهينُ على أنه واحدٌ عظيم، ورب كريم، وملك جواد.

وكذلك إذا تأملت الشرعَ الكامل، وأن أخبارَه كلَّها صدقٌ، وقد قامت البراهينُ على صدقها، وأحكامه كلَّها عدل، تأمر بالخير والصلاح، وتنهى عن الشر والفساد، وتجري أحكامُها المحكَمةُ وحقوقها العادلة مع الأزمان؛ مهما تطورت الأحوالُ، واختلفت العوائد؛ لا يختلُّ صلاحها، ولا ينتقض هداها.

بل لا يكون هديٌ وصلاحٌ وخير إلا بها، ولا تأتي بأمرٍ تحيله العقول، وتكذبه الحواس الصحيحة، بل تشهد العقول الكاملة أنَّ أحكامَها أحسنُ الأحكام، وأعدلُها وأقومها وأهداها.

أليس هذا أكبرَ برهانٍ على عظمة الله وقدرته، وسعةِ علمه وشمولِ حكمته ورحمته؟ وأنه المحمودُ في كلِّ حال؛ على خَلْقه للمخلوقات وعلى شرعه الشرائع؟

أحسنَ ما صنعه، وأحكمَ ما شرعه؛ ليس في ذلك عيبٌ وعبث، وليس فيه ما ينافي الحكمة بوجه من الوجوه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

فصل
من الأدلة: أن وجود الرب أظهر من كلِّ شيء

ومن أعظم البراهينِ على وحدانيةِ الله ووجوبِ وجوده: ما دعت إليه الرسلُ - صلواتُ الله وسلامه عليهم - أُمَمهم، ونبَّهتهُم على البراهينِ العقلية على ذلك، وأخبروهم خبرًا معلنين به ومتفقين عليه: أن وجود الرب أظهرُ من كل شيء، وأجلى وأوضحُ من كل شيء، وأعلى من كل شيء، وأنه لا يمكن أن يعترض ذلك شكٌّ ولا ريب بوجه من الوجوه، ولهذا قالت رسلهم جميعًا: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وهذا استفهامٌ وإنكارٌ عظيم على من يشك أو يمتري بالله، وبيان أنه متقرر في عقول الخلق وفطرهم أن وجودَ الله ووحدانيتَه أظهرُ الأشياء وأجلاها، وأن من شكَّ في ذلك فهو مباهِتٌ مكابِرٌ، غيرُ مبالٍ بمخالفة العقل والدين.

فإن جميعَ الأشياء - وجودَها وبقاءَها وحفظَها وحصولَ جميع كمالاتها - بالله تعالى؛ فهو الأولُ الذي ليس قبله شيء، وهو الذي أوجد كلَّ شيء، ولهذا قالوا: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

فالذي خلق السماواتِ والأرض- العالمَ العلوي والعالم السفلي- بما فيها من المخلوقات، أوجدها من العدم، وأبدعها وأتقن صنعها؛ لا ينكره إلا من جُنَّت عقولهم، وانقلبت قلوبهم، وفسدت فطرهم، واختلت آراؤهم.

وأكثرُ أعداء الرسل مشركون معترفون بالرب وتفرده بالخلق، وذلك كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم، ومنهم ملاحدةٌ معطلون كفرعون؛ إذ قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]. على وجه الإنكار، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وجميع الرسل ذكَّروا أممهم المكذِّبين، واحتجوا عليهم بخلق الربِّ للمخلوقات كلِّها، وأنه ربُّ العالمين، وربُّ الأولين والآخرين، وذكّروهم بكثرة النعم من الله عليهم، وكل رسول يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فاحتجوا عليهم وبرهنوا على ذلك بأنه الربُّ الخالق المدبر، المنعم بالنعم كلِّها، وأن من كان هذا وصفَه فهو المستحق لإخلاص العبادة له، ولكثرة ذكره وشكره وحمده والثناء عليه.

وهذه كلُّها براهينُ عقلية لا ينكرها إلا من نبذ العقل والدين.

من الأدلة: أيام الله ووقائعه:

وكذلك ذكَّروهم بأيامِ الله ووقائعه في الأمم الطاغية، وذكروهم أن هذه العقوبات ثمرةُ الكفرِ والتكذيب، وأنها نموذج من عقوبات الآخرة؛ وهي عقوباتٌ ومَثُلات شاهدها الناسُ بأبصارهم، ومن لم يشاهدها فقد تناقلتها الأمم والقرون، وتواترت أخبارها.

ولهذا يجعل الله هذا النوعَ من الآياتِ العقليةِ الحسية؛ قال الله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥]. ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩]. ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧].

من الأدلة: ما عليه الأنبياء من الكمالات وما لهم من الآيات:

وكذلك ذكَّرتهم الرسل بما هم عليه من النصحِ الكامل، والعلمِ الواسع، والصدقِ، وأن جميعَ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أعلم الخلق، وأصدق الخلق، وأنصح الخلق للخلق، وأنهم معصومون محفوظون عن كلِّ وصف ذميم.

وذَكَروا من معجزاتهم وبراهين صدقهم ما يضطر العبادَ إلى الاعتراف بأنهم أصدق الخلق، وأن كلَّ ما جاءوا به فهو حقٌّ.

وأعظمُ ما دعوا إليه توحيدُ الله ومعرفته، فجميع آيات الأنبياء ومعجزاتهم وبراهين صدقهم من جملة الأدلة على وحدانية ربهم، وأنه الملك الحق المبين.

من الأدلة: اجتماع كلمة الرسل على توحيد الله:

ثم إن الرسل- صلوات الله وسلامه عليهم- الذين هم أعلى الخلق في كل علمٍ وصدقٍ وبيانٍ وفضلٍ وكمالٍ؛ قد اتفقت كلمتهم، واجتمعت دعوتهم على الأمر بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والاعتراف لله بوجوب الوجود والكمال المطلق.

وهذا أعظمُ الحقائقِ كلها، وهو التوحيد، قد أجمع عليه أكملُ الخلائق عقولًا وأديانًا وفضائل: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٦ - ٨].

من الأدلة: شهادة الله وشهادة الملائكة وأولي العلم والمهتدين:

ومن ذلك أنه شهد لنفسه- ومن أكبر منه شهادةً- أن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

فالملائكةُ كلُّهم، وأهل العلم الصحيح الذين أئمتُهم وسادتهم الرسلُ، ثم العلماءُ الربَّانيون، والهداةُ المهتدون؛ شهدوا لله بالوحدانية، لم يتخلَّف منهم أحدٌ.

ومن زَعم أن عنده علمًا، ولم يشهد لله بهذه الشهادةِ؛ فإنه ليس بعلمٍ نافع، بل علم ضارّ، أثَّر في قلب صاحبه العلو والاستكبار، وهو العلم المورث عن أعداء الرسل الذين قال الله عنهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

فأخبر تعالى أن عند أعداء الرسل علومًا قاوموا بها علوم الرسل، ورضوا بها، واطمأنوا لها، واستهزءوا بما جاءتهم به الرسل، حتى نزل بهم العذاب المحيط، والخزي الفاضح.

وهذا نظيرُ ردِّ الملاحدة والماديين لما جاءت به الرسلُ من التوحيد والإيمان، والسخريةِ بها وبأتباعها بأنهم رجعيُّون مقلدون، أتباعُ كل ناعق، وأنهم متخلفون عن ركب الإنسانية! وما أشبه ذلك مما ينعق به سفهاء الأحلام ضعفاء العقول، الذين قلدوا الملاحدة في كلِّ ما يقولون ويفعلون، واغتروا بعلوم مادية دنيوية لا تغني عن أهلها شيئًا حين فقدت روح الدين، بل صار ضررُها عليهم أكثر من نفعها، وشرها عليهم أكثر من خيرها.

ومن أعظم أضرارها وشرورها عليهم أنهم بها تكبروا على الحق وعلى الخلق، واحتقروا بها علومَ الرسل وأتباعهم؛ التي هي النافعة المزكية للقلوب، المطهرة للأخلاق، المصلحة للأمور كلها، الجالبة للخير والهدى، الدافعة للشرور كلها.

فهؤلاء الملاحدةُ ومن قلَّدهم علومُهم نفخت فيهم روحَ الكبرياء، وصيَّرتهم بطورٍ غير طورهم، ورأوا بها العبادَ أخسَّ من الحيوان البهيم، وهم في الحقيقة الأرذلون.

ومن أضرارها عليهم أنها- وإن رقَّت حضارتَهم ومدنيتهم- ولكنها حضارة ومدنية مادية محضة، مهددة كل وقت بالهلاك والتدمير.

فأي مدنيَّة وحضارةٍ روحُها الظلمُ والجشع واستعباد الضعفاء، والاستعداد بالأسلحة الفتاكة، المهلكة للحرث والنسل ونتائجها وثمرتها التطاحن بين أهلها؛ يصبُّ بعضهم على بعض العذابَ الفظيع؟ فهل هذا إلا أكبرُ دليلٍ وبرهان على كمال قدرة الله وعدله وحكمته؟

وهذه الأمورُ من أيامه ووقائعه وعذابِه الأليم بين الناس، ولم تزدهم هذه المواعظُ والعبرُ إلا عتوًّا ونفورًا، فهم ينتقلون من عذاب شديد إلى أشد منه، وهم في طغيانهم يعمهون، وبمدنيتهم الشنيعةِ وآثارها يتمدحون، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

ما أعظمها من عِبَرٍ لو أن القلوبَ واعية! وما أدلها على كمال عدل الله وحكمته لو أنَّ الفهومَ صالحة! ولكنَّ القلوبَ غطيت بأغشيةِ الغفلةِ والكبرياء والاغترار، والنفوس

أقبلت على الأمور الضارة، قد خلبتها المناظرُ البراقةُ وسحرت الأبصار: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣، ٤٤].

وأما شهادته تعالى لنفسه بالوحدانية فقد نطقت بذلك جميعُ الكتب التي أنزلها على رسله، وأنطق بها رسلَه، واتفقت على ذلك دعوتُهم، وتبعهم على ذلك جميعُ أتباعهم من العلماء الربَّانيين والهداة، وجميع طبقات أهل العلم والإيمان.

وكذلك أقام على ذلك الشواهد النفسية والأفقية: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

والعالم العلوي والعالم السفلي كلها آياتٌ بيناتٌ، وبراهينُ قاطعاتٌ على وحدانية خالقِها، ومدبرها، ومتقنِ صنعها، ومبدعِها بالخلقِ العجيب، والنظامِ الباهر، والحِكَم التي يعجز الفصحاءُ والبلغاء عن التعبير والإحاطة ببعض آياتها وبراهينها.

من الأدلة: العواقب الحميدة للمؤمنين، والذميمة للكافرين:

ومن شهادته تعالى لنفسه بالوحدانية والتفرد بالعظمة والكمال: ما عجَّله لأنبيائه وأتباعهم من الآياتِ والمعجزاتِ، والنصر العظيم، والكرامات المتنوعة، والعواقب الحميدة، وما عجَّله لأعدائهم من الهلاك الخاص والعام، والمَثُلاتِ والأَخَذاتِ الصوارم، والعواقبِ الوخيمة.

وكذلك ما تركه لأنبيائه وأصفيائه من لسان الصدق، والثناء العام المنتشر، والمحبة في قلوب الخلق، وما لأعدائِه من البُغضِ والذم، واللعنِ المتتابع.

كلُّ ذلك آياتٌ بينات على وحدانية الله وصدق رسله؛ قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٠، ١٢١]. ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ

﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم: ١٠].

من الأدلة: إخبار الله ورسوله ﷺ عن أمور من الغيب:

ومن أعظم البراهين الجامعةِ بين كونها نقليةً وعقليةً حسيةً إخبارُ الله في كتابِه، وفي سنة رسوله ﷺ عن أمورٍ من الغيب كثيرةٍ جدًّا؛ أمورٍ ماضية سابقة لوقت التنزيل، وأمورٍ حاضرة وقعت أيامَ الرسالة، وأمور مستقبَلةٍ لا تزال تحدث شيئًا فشيئًا؛ موافقةٍ مطابقةٍ لما أخبر اللهُ به ورسولُه على الوجه الذي أخبر، وهي غير محصورة في أنواعها فضلًا عن أفرادها؛ تَستحقُّ أن يصرف لها تصنيفٌ مستقل.

فكل واحد منها برهان، ثم هو مع الثاني ومع الثالث والرابع وما بعده؛ براهين متعددة، وكلها تضطرُّ الناظرَ فيها إلى الاعتراف لله بالوحدانية ولنبيِّه بالرسالة، وأن جميعَ ما أخبر الله به وأخبر رسوله فهو حق لا ريب فيه.

من الأدلة: تحدّي الله لجميع الإنس والجن أن يأتوا بمثل القرآن:

ومن ذلك تحدي الله لجميعِ الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وإخبارُه أنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثله، والتحدي قائمٌ في كل وقت، والعجز من الخلق ظاهرٌ، مع توفر دواعي الأعداء، وحرصهم الشديد على ردِّ ما جاء به الرسول، والقدح في رسالته.

وهذا برهان عظيم يضطرُّ كلَّ عاقلٍ معه إنصافٌ أن يعترفَ بالحق الذي قامت البيناتُ الظاهرة والدلالات الباهرة على صدقه من كل وجه؛ ولله الحمد.

من الأدلة: الآثار الجليلة المترتبة على رسالة محمد ﷺ:

ومن براهين وحدانية الله وصدق ما جاء به محمد ﷺ: الآثارُ الجليلة التي نشأت وترتبت على رسالة محمد ﷺ.

فإنه بعث في أمة أمية، والأرض مملوءة من الجهل والشرك والشرور المتفاقمة، فهداهم الله به من الضلالة، وعلَّمهم به بعد الجهالة، واستقامت أخلاقهم وصلحت أعمالهم، وامتلأت الأرض من الخير والهدى والصلاح، وانتشرت الرحمة والعدل، وتم به الفلاح والنجاح.

وفتحت القلوبُ بالعلوم النافعة والمعارف الصحيحة والإيمان، وأظهر الله دينه على سائر الأديان، وانتشر وقبلته القلوب المستقيمة في جميع الأقطار، وزهق به كل باطل ومحال.

ولم يزل أهلُه ظاهرين على غيرهم حين كانوا مستمسكين به، وقائمين حق القيام به، حتى حصل الانحراف من أهله في العقائد والأخلاق، والأعمال الدينية والدنيوية، فزالت عنهم بذلك آثارُه الجليلة وتبدلوا بأضدادها.

أفليس في هذا أكبرُ برهانٍ على أن هذه الشريعة شَرَعها العزيز الحكيم، ونصرها الرب العظيم؟ وأن الخيرَ كلَّه ملازمٌ لها وتابع لتعاليمها وأخلاقها؟ وأنها تنزيلٌ من حكيم حميد؟ وأن أخبارها كلها صادقة تشهد العقول بصدقها؟

ولم يأتِ منها خبرٌ واحد صحيح يناقض الواقعَ ويخالف المحسوسَ؛ فإنها لا تأتي بما تحيله العقولُ، وربما أتت بما تحارُ فيه العقولُ ولا تهتدي إليه، لأن في الشريعة من التفاصيلِ العظيمةِ الخبريةِ والحُكميةِ ما لا تصل إليه عقول العقلاء، ولا تهتدي إليه فطنة الفطناء.

ولم يأت علم صحيح أو نظرية صادقة متفق عليها بين العقلاء تناقض ما جاء به الرسول محمد ﷺ، وهل في البراهين اليقينية أعظم من هذا البرهان وأوضح من هذا البيان؟ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ صدقًا في إخبارها، وعدلًا في أحكامها وشرائعها.

من الأدلة: إحكام الشريعة وصدق أخبارها واتفاق أحكامها:

ومن البراهين على وحدانية الله وصدق رسوله وحقيقة ما جاء به: أن الشريعةَ كلَّها محكمةٌ في غاية الحسن والانتظام، متصادقة أخبارها، متفقة حقائقها، متعادلة أحكامها؛

لا يمكن البَشَرَ أن يقترحوا مثلها في الحسنِ، وموافقتِها لكل زمان ومكان، ومجاراتِها لجميع الأحوال، وجريانِها على الهدى والرشد والسدادِ والصلاح، لا تناقضَ فيها ولا اختلاف، ولا عبث ولا نقص ولا اختلال.

وكلما أمعن فيها العالِمُ البصيرُ عَلِم أنها أصدقُ الأخبار وأنفعها للقلوب، وأنها أحسنُ الأحكامِ وأصلحها في عباداتها ومعاملاتها، وتفصيلها للحقوق الخاصة والعامة، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فنبّـه اللـه أولي الألباب والعقولِ على هـذا البرهانِ العظيم، الذي هو مـن أعظم البراهين وأوضحهـا وأجلاهـا علـى أنـه مـن عنده، وأنـه حقٌّ كلـه، وأن مـا ناقضـه فهو الباطـل، قال تعالـى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

أما جاء هذا الدين بكل صدقٍ وصدَّق الصادقين؟ أما زجر عن الكذب وأبعد الكاذبين؟

أما حثَّ على العدل الكامل في حقوق الله وحقوق العباد؟ أما نهى عن الظلم والجور والشرور كلها والفساد؟

أمـا تأسـس علـى الإيمـان والإخـلاص والتوحيد ونهـى عما ينافـي ذلك من الشـرك والتنديد؟

أما أمر ببرِّ الوالدين وصلة الأقارب، والإحسان إلى الجيران والمساكين، والإحسان إلى عموم الخلق؛ حتى البهائم العجم، وأخبر أنه يحب المحسنين؟

أما أمر بوفاء العهود والعقود والوعد والأيمان؟ ونهى عن الغدر والنكث والعدوان؟

أما حث على فعل الأسباب النافعة في الدنيا والدين؟ وأمرنا ألا نعتمدَ عليها، بل نعتمد على مسبِّبِها ونرجو فضل رب العالمين؟

أما أحل لنا جميعَ الطيبات وحرَّم علينا كلَّ خبيث؟ وحثنا على كل أمر نافع وحذرنا عن المضار؟

أما أمر بالصبرِ على المكاره والشكر عند المحابِّ والمسار؟

أما نهانا عن الهلع والجزع والجبن والخور والأخلاق الرذيلة؟ أما حثنا على القوة والشجاعة والعفة وجميع الأخلاق الجميلة؟

أما أمر بكل معروف شرعًا وعقلًا وفطرةً؟ ونهانا عن كل منكر شرعًا وعقلًا وفطرةً؟

فما أمر بشيء إلا رآه أهل العقول السليمة أحسنَ الأمورِ وأعدلَها، ولا نهى عن شيء إلا عن أقبحِ الخصال وأرذلِها.

وضَّح العقائدَ الصحيحةَ النافعةَ التي لا تصلح القلوب إلا بها، وأوجبها وجعلها أساسًا تنبني عليه الأقوالُ والأفعالُ، وأمورُ الدين والدنيا، وجاء بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة التي تُصْلِح الأفرادَ والجماعات، وتستقيم بها العباداتُ والمعاملات.

فأيُّ خيرٍ وهدى وصلاح عاجل وآجل لم يبينه ويدعُ إليه؟ وأيُّ شرٍّ وفساد وضرر عاجل وآجل لم يحذِّر عن طرقه ومسالكه؟

وأيُّ أصلٍ من أصوله، وقاعدةٍ من قواعده، وخبرٍ من أخباره، وحكمٍ من أحكامه ناقضته العلومُ الصحيحة أو خالفته العقولُ والنظم المستقيمة؟

بل قامت البراهينُ التي لا تنقض على أن كل شيء أُسِّس على غيره فهو ضرر وخراب، وكل بناء بني على غير تعاليمه وأحكامه فآخره الانهيارُ والتباب، وكلُّ نظام استمد من غيره فعواقبه وخيمة؛ لأن الذي شرعه عالمُ الغيب والشهادة العزيز الحكيم، الذي أحاط بكل شيء علمًا، ووسع كل شيء رحمة وبرًّا، وتكفّل لمن قام به واستقام عليه بالسعادة والفلاح، وضمن لمن تعبّد به ودان لله به الثواب والنجاح.

فهو أكبرُ البراهينِ على عظمة الله ووحدانيته وسلطانه، وأعظمُ الآيات الدالة على حكمته وحمده وجوده وامتنانه، فهو الهدى والرحمة والشفاء والنور، وهو الرشاد والصلاح لكلِّ الأمور: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

فلهذا القرآنِ وهذه الشريعةِ أكملُ الصفات وأجلُّ النعوت، ومَخْبَرُها - في جميع مواردها ومصادرها - يفسِّر هذه الأوصافَ الجليلةَ التي لا سعادة للبشر إلا بعلمها وسلوكها والاهتداء بأنوارِها، والتحقق بحقائقها وأسرارِها.

فصل
من الأدلة: صدق الرسل ووجوب توقيرهم وتقديم أقوالهم

ومن براهين وحدانيته وكماله وتوحده بالعظمة والكمال: أنه قد ثبت بالبراهين والآيات المتنوعة- التي لا يمكن إحصاؤها؛ لا إحصاء أنواعها، ولا أفرادها - صدقُ الرسل، وأن ما جاءوا به هو الحق، وخصوصًا إمامهم وسيدهم محمدًا ﷺ.

وأنه يجب على الخلق أن يعرفوا قَدْر الأنبياءِ، وتميزَهم عن أصناف الخلق بكل أوصاف

الفضائل، وأن الإيمان بهم ومحبتهم وتوقيرهم وتبجيلهم من أفرض الفرائض وأوجب الواجبات.

وأنه يجب أن يكون لهم في قلوب العباد من العظمة والخضوع لما جاءوا به ما يضمحِلُّ معه جميعُ المقالات، وألا تُعارَضَ أقوالهم بمعقولاتٍ أو قياساتٍ أو ذوقياتٍ، أو غيرها مما ينتمي إليه أهل الباطل، بل أقوال الرسل لا يتم للعبد إيمانٌ ولا إسلام حتى يجعلها هي الأصلَ الأصيلَ، والأساسَ الذي يُردُّ إليه كل شيء.

وقد عُلِم أن زبدةَ دعوتِهم وأساسها الدعوة إلى توحيد الله ومعرفته، وإلى عبوديته وإخلاص العمل له، وقد قامت البراهينُ التي لا تعارض ولا تمانع على صدقهم، وصحة ما جاءوا به.

فتعيَّن على كل مكلَّف- له دين أو عقل- أن يعترفَ بما جاءوا به بغير قيد ولا شرط، لأن الأصلَ صحيحٌ، والأساسَ ثابتٌ ثبوتًا يقينيًّا، والمعارضات كلها باطلة؛ لأن ما عارض الحق فهو باطل، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

فمن خَضَع لمعقولاتِ المتحذلقين، أو نظريات المبطلين، وقدمها على ما جاءت به الرسل؛ فقد برهن على نقصان عقله، بل فقده لدينه.

هذا كلُّه مع التنزُّل على فرض وجود معقولاتٍ تناقض ما جاءت به الرسل؛ فكيف والمعقولاتُ الصحيحة تؤيد ما جاءت به الرسل، وهي من أكبر الشواهد على صدقهم، وإنما تقع المعارضة بين معقولات أناس سفهاء الأحلام، متكبرين بمعلوماتهم وآرائهم الضئيلة، والله المستعان.

كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية في آيات الأنبياء:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (آياتُ الأنبياء مما يعلم العقلاء أنها مختصة بهم؛ ليست مما تكون لغيرهم، فيعلمون أن الله لم يخلق مثلها لغير الأنبياء، وسواء في آياتهم التي كانت

في حياة قومهم، وآياتهم التي فرَّق الله بها بين أتباعهم وبين مكذبيهم؛ بنجاة هؤلاء وهلاك هؤلاء؛ ليست من جنس ما يوجد في العادات المختلفة لغيرهم.

وذلك مثل تغريق الله لجميع أهل الأرض إلا لنوح ومن ركب معه في السفينة، فهذا لم يكن قط في العالم نظيره.

وكذلك إهلاك قوم عاد ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر: ٧، ٨]. مع كثرتهم وقوتهم وعظم عمارتهم التي لم يخلق مثلها في البلاد، ثم أهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية؛ مسخرةٍ عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام حسومًا، حتى صاروا كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية، ونجا هود ومن اتبعه، فهذا لم يكن له نظير في العالم.

وكذلك قومُ صالح؛ أصحاب مدائن ومساكن في السهل والجبل وبساتين، أهلكوا كلهم بصيحة واحدة، فهذا لم يوجد نظيره في العالم.

وكذلك قومُ لوطٍ أصحابُ مدائن متعددة؛ رفعت إلى السماء ثم قلبت عليهم، وأُتبعوا بحجارة من السماء تتبع شاذَّهم، ونجا لوط وأهله إلا امرأته أصابها ما أصابهم، فهذا لم يوجد نظيره في العالم.

وكذلك قوم فرعون وموسى، جمعانِ عظيمان ينفرق لهم البحر؛ كلُّ فِرْق كالطَّود العظيم، فيسلك هؤلاء ويخرجون سالمين، فإذا سلك الآخَرون انطبق عليهم الماء، فهذا لم يوجد نظيره في العالم.

فهذه الآياتُ تعرِف العقلاءُ عمومًا أنها ليست من جنس ما يموت به بنو آدم، وقد يحصل لبعض الناس طاعون ولبعضهم جربٌ ونحو ذلك، وهذا مما اعتاده الناس وهو من آيات الله من وجه آخر، بل كلُّ حادث من آيات الله، ولكن هذه الآيات ليست من جنس ما اعتيد.

وكذلك الكعبةُ؛ فإنها بيتٌ من حجارة بوادٍ غير ذي زرع، ليس عندها أحد يحفظها من

عدو، ولا عندها بساتينُ وأمورٌ يرغب الناس فيها، فليس عندها رغبة ولا رهبة، ومع هذا فقد حفظها بالهيبة والعظمة، فكل من يأتيها يأتيها خاضعًا ذليلًا متواضعًا في غاية التواضع، وجعل فيها من الرغبة ما يأتيها الناس من أقطار الأرض؛ محبةً وشوقًا من غير باعث دنيوي، وهي على هذه الحال من ألوف من السنين، وهذا مما لا يعرف في العالم لبِنْية غيرها، وهذا مما حيَّر الفلاسفةَ ونحوهم.

وكذلك ما فعل اللهُ بأصحابِ الفيل لما قصدوا تخريبها، قصدها جيشٌ عظيم ومعهم الفيل، فهرب أهلها منها، فبرك الفيل وامتنع عن المسير إلى جهاتها، وإذا وجَّهوه إلى غيرها توجَّه، ثم جاءهم من البحر طير أبابيل، أي جماعات في تفرقةٍ؛ فوجًا بعد فوج، رَموا عليهم حصى أهلكوا بها كلُّهم، فهذا مما لم يوجد نظيره في العالم، فآيات الأنبياء هي آيات وأدلة على صدقهم.

ومن هذا سنة الله في الفرق بين الأنبياء وأتباعهم وبين مكذبيهم).

ثم ذكر الآياتِ في إهلاك المكذبين للرسل ونجاة الرسل، قال:

(وهذه الأخبار كانت منتشرة ومتواترة في العالم، وقد علم الناس أنها آيات للأنبياء وعقوبة لمكذبيهم، ولهذا يذكرونها عند نظائرها للاعتبار، والقرآن آيته باقية على طول الزمان؛ من حين جاء به الرسول تتلى آيات التحدي فيه ويتلى قوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٨]... الآية.

فنفسُ إخبارِ الرسول بهذا في أول الأمر، وقطعُه بذلك، مع علمه بكثرة الخلق دليلٌ على أنه كان خارقًا يُعجِز الثقلين عن معارضته، وهذا لا يكون لغير الأنبياء، ثم مع طول الزمان قد سمعه الموافقُ والمخالف، والعربُ والعجم، وليس في الأمم من أظهر كتابًا يقرأه الناس وقال إنه مثله.

وهذا يعرفه كلُّ واحد، وما من كلامٍ تكلَّم به الناس- وإن كان في أعلى طبقات الكلام لفظًا ومعنى- إلا وقد قال الناسُ نظيره وما يشبهه ويقاربه، سواء كان شعرًا أو خطابةً أو

كلامًا في العلوم، والحكمة، والاستدلال، والوعظ، والرسائل، وغير ذلك، وما وجد من ذلك شيء إلا وُجد ما يشبهه ويقاربه.

والقرآنُ مما يعلم الناسُ عربُهم وعجمُهم أنه لم يوجد له نظير؛ مع حرص العرب وغير العرب على معارضته.

فلفظه آية، ونظمه آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، ووعده ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية، وإذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية؛ كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم...) إلى ما قال رحمه الله.

فصل
من الأدلة: أن ما جاء به الرسل هو الحق النافع، وما خالفه فباطل

ومن البراهين العقلية على وحدانية الله وصدق رسله: أن الرسلَ كلهم- وخصوصًا إمامهم وخاتمهم محمدا ﷺ - قد جاءوا بالحق النافع، فأخبارهم كلُّها حق وصدق، وأحكامهم كلُّها حق وعدل وحكمة، فلم يبق حق إلا جاءوا به وبيَّنوه وحثُّوا الخلق عليه، ولا باطل إلا وضَّحوه وحذَّروا الخلق منه.

وهذا الأصل متفَقٌ عليه بين جميع المعترفين بالنبواتِ اعترافًا صحيحًا؛ فمن ادعى عقلًا ومعقولًا يناقض هذا الأصلَ الذي جاءت به الرسلُ عرفنا يقينًا أن معقوله فاسد، وأن دعواه باطلة؛ فإن العقل الصحيح لا يخالف الحق الصريح.

ومما يوضح هذا ويؤيده: أن الحق الذي جاءت به الرسلُ - خبرًا وحكمًا - حقٌّ واضحٌ معلومٌ معصومٌ؛ لا ينقسم إلى محمودٍ ومذمومٍ؛ بل كلُّه حقٌّ محمود، وأما ما ادَّعاه المخالفون

للرسل من المعقولات؛ فإنهم يعتمدون على المعقولات التي تنقسم إلى حق وباطل، ومحمود ومذموم باتفاق العقلاء.

وأهلها مع ذلك متباينون تباينًا عظيمًا؛ كلُّ طائفة لها معقولات تنصرها وتقدح في معقولات غيرهم، وهم في خبطٍ وخلطٍ، وخلاف لا ينضبط، قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥].

فهل اتباع هؤلاء الضالين الجاهلين المتخبطين أولى من اتباع رسل الله الذين هم أعلم الخلق، وأهدى الخلق، وأصدق الخلق، وأفضل الخلق، وأعلاهم في كل صفة كمال؟

وقد سلموا من كل نقص وعيب وعثرة، وقد عصموا في أقوالهم وأفعالهم، وقد أنزلت عليهم الكتب العظيمة من الرب العظيم؛ التي هي مادة الهدى ومنبع الرحمة والخير والرشد والنور، وأصل السعادة والفلاح.

وقد نوَّع الله البراهين الدالة على صدقهم، وصحة ما جاءوا به، وأنه الحق وما سواه ضلال، وأنه نور ورحمة وخير، وما سواه ظلمات وشرور وفساد: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٦ - ٨].

أما والله لقد وضحت السبل للسالكين، وظهرت براهينُ الحق وآياتُه للموقنين، وبان الهدى والنور اليقين للمستبصرين، وقامت الحجة على المعاندين.

ولهذا كان جميع الأشقياء المخالفون للرسل يعترفون بأنهم خالفوا الرسل وخالفوا العقل، فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

من الأدلة: الفطرة في قلوب العباد، وخصوصًا الأنبياء:

ومن البراهين العقلية على وحدانية الله وغناه، وافتقار الخليقة كلها إليه: ما فطر الله عليه عباده، وخصوصًا خواصّ الخلقِ من الأنبياء والرسل؛ أئمةِ الهدى ومصابيحِ الدُّجى، وأهلِ العقول الوافية والألبابِ الرزينة، الذين هم الطبقة العليا من الخلق.

فإنهم فُطروا على الاعتراف الكامل بوحدانية الله، وأنه المقصود المعبود في كل الأحوال، وصار هذا الأمرُ في قلوبهم أعظمَ الحقائق كلِّها، وأوضحَها وأجلاها، وهي علوم بديهية ضرورية لا يمكن أحدًا دفعُها.

وليس عند المنكِر لذلك ما يدفع هذا العلمَ اليقينيَّ والطريقَ البرهانيَّ، إلا عدمُ علمه بذلك؛ لفساد إدراكه، واشتغاله بالعقائد الفاسدة، وإعراضه عن طلب الهدى.

ومن المعلوم المتفق عليه بين العقلاء أن عدمَ العلم بالشيء ليس من الشُّبَه في شيء، فضلًا عن أن يكون برهانًا يدفع أقوى البراهين وأجلها وأصدقها من العالِمين الموقنين؛ الذين هم أعظم الخلق علومًا، وأبلغهم يقينًا، وأصدقهم وأبرّهم عقولًا وأصفاهم أفئدة.

فهذا اليقين في قلوب هؤلاء- الذين هم سادات الأولين والآخرين- لا يساويه ولا يقاربه شيء، ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]. وقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٦-٨].

فهذا العلم اليقيني البديهي الضروري المتفقُ عليه بين أهل العلم واليقين، وأعلى الخلق في كل صفة كمال، وهو أكمل علم عندهم وأوضحه وأجلاه؛ محالٌ وممتنع أن يقاربه علمٌ بشيء من الحقائق اليقينية أصلًا؛ فمن شك فيه أو تردد فقد برهن على نفسه بالجهل والضلال والحمق، وهو مكابرة واضحة، والله الموفق.

من الأدلة: الإجماع من المسلمين وممّن عرف حال النبي ﷺ:

ومن أعظم البراهين على أن الحق هو ما جاء به الرسول محمد ﷺ، في جميع الحقائق الصحيحة النافعة: الإجماعُ من جميع المسلمين ومن جميع من عرف حال النبي ﷺ أنه أعلمُ الخلق على الإطلاق بالله وبالحقائق النافعة، وأعظمُهم بيانًا، وأوضحُهم عبارةً، وأفصحُهم وأنصحُهم للخلق.

وهذه الأمور إذا كمُلت- وقد كمُلت- على وجه الكمال التامِّ في محمد ﷺ؛ بحيث لا يدانيه ولا يقاربه أحدٌ في العلم والبلاغة والنصح؛ عُلِم يقينًا ضروريًّا أن جميع ما جاء به هو الحق الذي لا ريب فيه.

لا سيَّما في باب التوحيد، وبيانه العظيم في أن لله الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا؛ التي تفرد بها وتوحد، ولم يشاركه فيها مشارك، وهذا وحده برهان كافٍ شافٍ لمن له أدنى عقل أو ألقى السمع وهو شهيد.

فيا عجبًا لمن يعارض ما جاء به هذا النبيُّ العظيم؛ الذي جاء بشريعة ما طَرَق العالمَ أعظمُ منها ولا أكملُ ولا أصحُّ؛ بأقوال الماديين الذين سَفهت أحلامهم وفَسَدت عقولهم، واتضح أن جميع ما عارضوا به الأديان جهل وضلال ومكابرة صريحةٌ، وذلك معروف بالتتبع لجميع المسائل التي عارضوا فيها الرسل!

قال تعالى في حقِّهم وحق أمثالهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

والحاصل أن جميعَ الموجودات، وجميعَ الحوادث والمعارف والحركات أدلةٌ وبراهين على وحدانية ربِّ الأرض والسماوات؛ من الذي أنشأ المخلوقاتِ من العدم؟ من الذي دبَّر الأمورَ وصرَّفها؟ من الذي خلق السماوات والأرض وحفظها بقدرته وأمسكها؟ من الذي خلق الآدميَّ من نطفة فإذا هو خصيم مبين؟ من الذي أمات وأحيا وأسعد وأشقى،

وأهلك الأمم الطاغية بأنواع المَثُلات، ونجّى الرسل وأتباعهم؟ إن في ذلك لعبرًا وبراهينَ واضحات.

من الذي خلق الحبَّ والنوى وفجَّر الأرض بالأنهار والعيون؟ أليس ذلك من آثار من يقول للشيء: كن، فيكون؟ من الذي أعطى كلَّ شيء خلقَه اللائقَ به؛ ثم هدى كلَّ مخلوق إلى مصالحه التي لا يصلح له سواها؟ من الذي علَّم العلوم المتنوعة والفنون؟

من الذي أخرج الثمارَ الرَّطبة من يابس الغصون؟ من الذي أحكم الأشياءَ بغاية الحكمة وكمال الانتظام وأتقنها؟ من الذي أحسن كل شيء صنعه؟ وشرع الشرائع وجعلها في غاية الهدى والصلاح وأتقنها؟

من الذي سيَّر السحابَ الموقَرَةَ بالمياه العظيمة، فأصاب بها البلاد والعباد؟ أليس ذلك الذي يعيد الخلقَ بعد موتِهم إلى يوم الحشرِ والتناد؟

يا عجبًا لنفوس تنكر الربّ والبعثَ؛ ما أضلَّها وأعماها! كيف لا تعترف بهذه القضية التي هي أعظم القضايا وأوضحها وأجلاها؟!

إله عظيم لم يزل إلهًا، ومَلِكٌ كبيرٌ مُلْكه لا يتناهى، شَمِل العالمين برحمته ورزقه فلا يترك ذرةً ولا ينساها.

يسمع أنين المُذْنِفين(١)، ويجيب أسئلة السائلين، ويجود بمغفرته ورحمته على التائبين.



(١) الدنف: المرض الملازم؛ على ما في القاموس المحيط.

الخاتمة

فنسألك يا الله بأسمائك الحسنى وأوصافك العليا، أن ترزقنا إيمانًا كاملًا، ويقينًا صادقًا، وتنفعنا بآياتك المسموعة، وآياتك المشهودة، وآياتك الأفقية، وآياتك النفسية؛ فإنها براهين للموقنين، وآيات للمستبصرين، وحجة على المعاندين والمكابرين، ورحمة منك وإحسان على الخلق أجمعين.

اللهم صلّ وسلّم وبارك على محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، الأحياء منهم والميِّتين. آمين.

بخط: عبد الله السليمان السلمان

٢٠ جمادى الآخرة ١٣٧٠

قال ذلك الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.



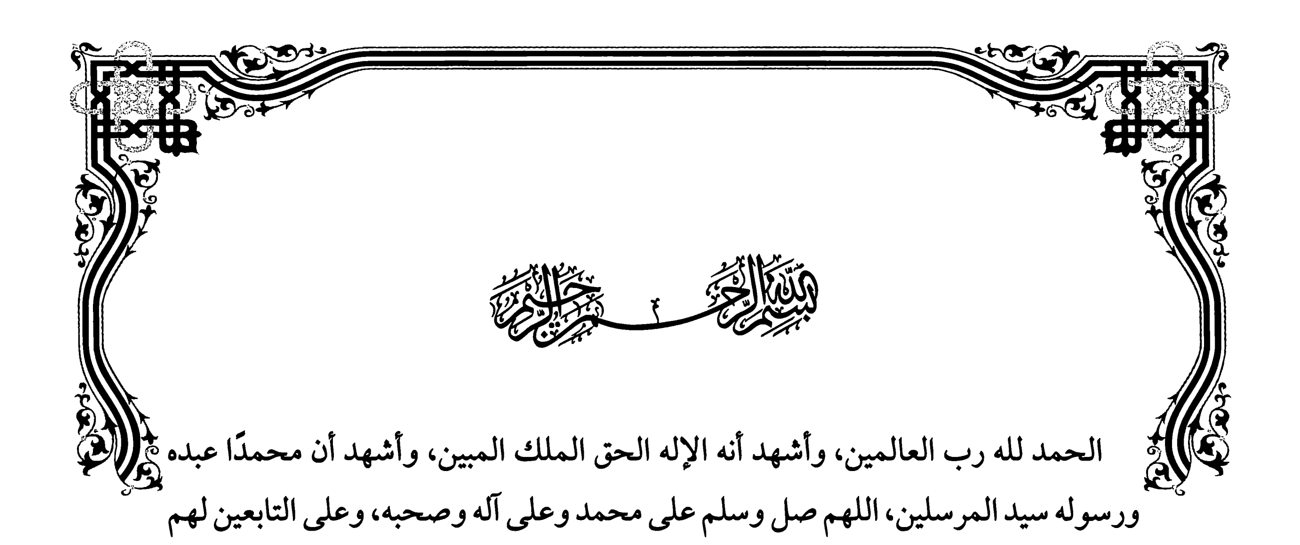
مجموع مؤلفات ابن سعدي (٢٩)

الدرة البهية

شرح القصيدة التائية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله



الحمد لله رب العالمين، وأشهد أنه الإله الحق الملك المبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله سيد المرسلين، اللهم صل وسلم على محمد وعلى آله وصحبه، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فقد طلب مني بعض الإخوان أن أشرح المنظومة التائية في القدر لشيخ الإسلام والمسلمين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، لما فيها من التحقيق العظيم في مسألة القضاء والقدر ولمتانتها وصعوبة فهمها واحتياجها إلى شرح متوسط يوضحها، ويكشف عن معانيها ولكون المقام والموضوع مقاما مهمًّا جدًّا، والحاجة بل الضرورة داعية إلى علمه والتحقق به معرفة واعتقادًا.

وهذا النظم قد أتى فيه الشيخ بالعجب العجاب، وبيّن الحق الصريح، وكشف الشكوك والشبهات التي طالما خالطت قلوب أذكياء العلماء، وحيرت كثيرًا من أهل العلم والفضلاء. فأجبت هذا السائل لما طلبه، وأرجو الله وأسأله أن يعين على تحقيقه وتوضيحه، فإن التوضيح والبيان خصوصًا في هذا المقام أولى من الاختصار، وذكر الشواهد والأمثلة الموضحة أولى من الاقتصار، وأسأله تعالى أن يجعل الداعي إليه إرادة وجهه الكريم وإرادة النفع للمشتغلين به.

والشيخ رحمه الله وقدس روحه نظمها جوابًا لسؤال أورده عليه من قال: إنه ذمي؛ ليشبه على المسلمين وليشككهم في أصول الدين، فإن الإيمان بالقضاء والقدر أحد أصول الإسلام ومبانيه العظام.

وهذا نص السؤال:

أيـا علمـاء الدين ذمـي دينكم تحيـر دلـوه بأوضـح حجـة
إذا مـا قضى ربي بكفـري بزعمكم ولم يرضه مني فما وجـه حيلتي
دعاني وسـد الباب دوني فهل إلى دخولي سـبيل بيّنوا لـي قضيتي
قضـى بضلالي ثم قـال ارض بالقضا فهل أنا راض بالذي فيه شقوتي
فإن كنـت بالمقضي يـا قوم راضيا فربـيَ لا يرضـى بشـؤم بليتـي
وهل لي رضا ما ليس يرضاه سـيدي فقد حرت دلوني على كشـف حيرتي
إذا شـاء ربي الكفر مني مشـيئة فهل أنا عـاصٍ باتباع المشـيئة
وهل لي اختيـار أن أخالف حكمه فباللـه فاشـفوا بالبراهين غلتي

هذا آخر السؤال المذكور، وحاصله أنه إيراد على مذهب الجبرية القائلين: إن العبد مجبور مقهور على جميع أقواله وأفعاله، وأنه لا قدرة له على شيء منها، بل هي عندهم واقعة بغير اختياره، وهذا القول باطل بالكتاب والسنة وباطل بالعقل والحس، كما يأتي- إن شاء الله- بيانه.

وجميع المسلمين من جميع الطوائف أهل السنة وغيرهم ينكرون هذا المذهب ويتبرءون منه، فيقول هذا المشبه على المسلمين المشكك لهم بانيًا على مذهب الجبرية الذي يتبرأ منه جميع الطوائف سوى غلاة الجهمية من الجبرية، يقول: إذا كان الله قضى عليّ بالكفر وقدر عليّ ألا أكون مسلمًا أو قدر عليّ المعاصي، وألا أكون طائعًا، فكيف لي الخلاص من الكفر والمعاصي، وكيف أتمكن من الإيمان والطاعة بعدما قضى عليّ الكفر والمعصية، فهل أكون معذورًا إذا تجرأت على الكفر والفسوق والعصيان، وأنا لا حيلة لي في الانفكاك عنها، وكيف أجمع بين الرضا بالقضا وبين الرضا بالمقضي من الكفر والمعاصي، فإن الله لا يرضى بالكفر والفسوق والعصيان، فكيف قدرها عليّ، وهو لا يرضاها؟ هذا حاصل هذا السؤال.

وجواب هذا السؤال على وجه الإجمال بسيط ولله الحمد، فإنه لا يرد على مذهب جمهور طوائف المسلمين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة الهدى المشهود لهم بالعلم والإيمان، بل ولا على مذهب المعتزلة والقدرية والخوارج وغيرهم من أهل البدع، فإن الجميع يقولون بما جاء به الكتاب والسنة من إثبات الأصلين:

أحدهما: الاعتراف بأن جميع الأشياء كلها أعيانها وأوصافها وأفعالها بقضاء وقدر لا تخرج عن مشيئة الله وإرادته، بل ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

الأصل الثاني: أن أفعال العباد من الطاعات والمعاصي وغيرها واقعة بإرادتهم وقدرتهم، وأنهم لم يجبروا عليها، بل هم الذين فعلوها بما خلق الله لهم من القدرة والإرادة، ويقولون: لا منافاة بين الأمرين، فالحوادث كلها التي من جملتها أفعال العباد، بمشيئة الله وإرادته، والعباد هم الفاعلون لأفعالهم المختارون لها، فهم الذين اختاروا فعل الخيرات وفعلوها، واختاروا ترك المعاصي فتركوها، والآخرون اختاروا فعل المعاصي وفعلوها، واختاروا ترك الأوامر فتركوها، فاستحق الأولون المدح والثواب واستحق الآخرون الذم والعقاب ولم يجبر الله أحدًا منهم على خلاف مراده واختياره، فلا عذر للعاصين إذا عصوا، وقالوا: إن الله قدرها علينا فلنا بذلك العذر. فيقال لهم: إن الله قد أعطاكم المِكْنَة والقدرة على كل ما تريدون، وأنتم بزيغكم وانحرافكم أردتم الشر ففعلتموه، والله قد حذركم وهيأ لكم كل سبب يصرف عن معاصيه وأراكم سبيل الرشد فتركتموه وسبيل الغي فسلكتموه.

وإذا أردت زيادة إيضاح لهذا المقام فإنه من المعلوم لكل أحد أن كل فعل يفعله العبد وكل كلام يتكلم به فلا بد فيه من أمرين: قدرة منه على ذلك الفعل والقول، وإرادة منه، فمتى اجتمعا وجدت منه الأقوال والأفعال.

والله تعالى هو الذي خلق قدرة العبد وإرادة العبد، وخالق السبب التام خالق للمسبب، فالله تعالى خالق أفعال العباد، والعباد هم الفاعلون لها حقيقة، فهذا الإيراد الذي أورده هذا المشكك وما أشبهه من الإيرادات التي يحتج بها أهل المعاصي بالقدر يجيبونهم بهذا

الجواب المفخم، فيقولون: دلت أدلة الكتاب والسنة الكثيرة على أن الله خالق كل شيء وعلى كل شيء قدير، وأن كل شيء بقضاء وقدر، الأعيان والأوصاف والأفعال.

ودلت أيضًا أدلة الكتاب والسنة أن العباد هم الفاعلون لفعلهم حقيقة بقدرتهم واختيارهم؛ فإنه تعالى نسب إليهم وأضاف إليهم كل ما فعلوه من إيمان وكفر وطاعة ومعصية، وأنه تعالى مكنهم من هذا ومن هذا، ولكنه تعالى حبب إلى المؤمنين الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وولى الآخرين ما تولوا لأنفسهم حيث اختاروا الشر على الخير، وأسباب العقاب على أسباب الثواب، وهذا كما أنه معلوم بالضرورة من الشرع فهو معلوم بالحس الذي لا يمكن أحدًا المكابرة فيه، فإن العبد يفرق بين أفعاله التي يقسر ويجبر ويقهر عليها، وبين أفعاله التي يختارها ويريدها ويحب حصولها، فهذا الجواب المجمل.

وأما الجواب المفصل فقد ذكره الشيخ قدس الله روحه فقال:



فصل

سؤالك يا هذا سؤال معاند ... مخاصم رب العرش باري البرية

فهذا سؤال خاصم الملأ العُلَى ... قديما به إبليس أصل البلية

ومن يك خصمًا للمهيمن يرجعن ... على أم رأس هاويًا في الحفيرة

بيّن الشيخ في أول الجواب أن هذا السؤال والإيراد إنما صدر عن رجل معاند مكابر مخاصم لله، فإن هذا السؤال في الحقيقة موجه إلى الله، والسائل قد أورده على ربه، واعترض عليه وزعم أن الله ظالم له، حيث قدر عليه الكفر والمعاصي وعذبه عليه، وكل من عاند الله فحجته داحضة باطلة وهو مخصوم محجوج، وهذا السؤال من جنس سؤال إبليس حيث قال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]. فقال: فبما أغويتني، ولم يقل: غويت، وإبليس هو الذي غوى واستكبر عن أمر ربه حيث أمره بالسجود لآدم فقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦١، ٦٢]. فإبليس خاصم الله وباداه بالمعصية واستكبر عن أمره واستكبر على آدم.

فكل من خاصم عن نفسه أو عن غيره في معصية الله فهو وارث إبليس، وعنه أخذ هذه الخصومة، فكل من خاصم الحق فُلِجَ وخصم، كما أن كل من خاصم بالحق فَلَجَ وغلب. ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]. فكل من نصر الباطل فهو من خصوم الله. ولكن أصناف القدرية الثلاثة هم أحق الناس بهذا الوصف.

فلهذا قال الشيخ:

وتدعى خصوم الله يوم معادهم إلى النار طرًّا فرقة القدرية
سواء نفوه أو سعوا ليخاصموا به الله أو ماروا به للشريعة

يشير الشيخ إلى ما رواه ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «**من تكلم في شيء من القدر سئل عنه يوم القيامة**»[1]. أي سؤال تقريع وتوبيخ وهو كما ذكر الشيخ يشمل طوائف القدرية الثلاث: القدرية النفاة، والقدرية المجبرة، والقدرية المشركين، فكل الطوائف الثلاث خاضوا في القدر خوضًا منحرفًا، وبعضهم أغلظ من بعض، وكلهم عن الصراط ناكبون.

فأما القدرية النفاة فهم الذين يطلق أكثر العلماء عليهم اسم القدرية، وهم الذين ورد فيهم الحديث الذي في السنن: «**إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله**»[2]. وأكثر المعتزلة على هذا المذهب الباطل، وحقيقة مذهبهم أنهم يقولون: إن أفعال العباد وطاعاتهم ومعاصيهم لم تدخل تحت قضاء الله وقدره، فأثبتوا قدرة الله على أعيان المخلوقات وأوصافها ونفوا قدرته على أفعال المكلفين، وقالوا: إن الله لم يردها ولم يشأها منهم، بل هم الذين أرادوها وشاءوها وفعلوها استقلالًا بدون مشيئة الله، ويزعمون أنهم بهذا القول ينزهون الله عن الظلم؛ لأنه لو قدر المعاصي عليهم ثم عذبهم عليها لكان ظالمًا لهم، وللزم من إثبات قدرة الله على أفعالهم الجبر الذي هو باطل بالشرع والعقل كما تقدمت الإشارة إليه، ولكنهم بهذا القول الباطل ردوا نصوصًا كثيرة من الكتاب والسنة تثبت وتصرح أن جميع أعمال العباد من خير وشر وطاعة ومعصية بقضاء الله وقدره، كما أجمع المسلمون أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وسُمُّوا مجوس هذه الأمة؛ لأنهم أشبهوا المجوس الذين أثبتوا خالقًا للخير وهو الله، وخالقًا للشر وهو إبليس على زعم المجوس، وهؤلاء القدرية أثبتوا أن الله خالق للعباد لأعيانهم وأوصافهم، ولم يثبتوا أنه خالق لأفعالهم، فأخرجوا أفعال العباد عن قدر الله ولم

(١) ابن ماجه (٨٤).
(٢) ابن ماجه (٩٢)، والأوسط للطبراني (٤٤٥٥).

يهتدوا إلى ما اهتدى إليه أهل السنة من أن الله كما أنه الذي خلقهم وخلق ما به يفعلون من قدرتهم وإرادتهم، ثم فعلوا الأفعال المتنوعة من طاعة ومعصية بقدرتهم وإرادتهم التي خلقها الله باتفاق المسلمين، حتى هؤلاء القدرية يثبتون أن قدرة العباد وإرادتهم مخلوقة لله، وحيث وقعت أفعال العباد بقدرتهم وإرادتهم اللتين خلقهما الله في العبد ليتمكن بهما من كل ما يريده من أقواله وأفعاله، وخالق السبب التام خالق للمسبب.

فالعبد المؤمن هو الذي يصلي ويصوم ويتصدق ويحج ويعمل أعمال البر بما مكنه الله وأعطاه من قدرة وإرادة يتمكن بها من أفعال الخير، والعبد الكافر أو الفاجر هو الذي يشرك ويقتل ويزني ويسرق ويعمل أجناس المعاصي بما مكنه الله به وأعطاه من قدرة وإرادة، يفعل بها تلك الأفعال، والقدرة والإرادة اللتان أعطاهما الله للعبد هما خير ونعمة وفضل من الله، لكن العبد العاصي هو الذي وجه قواه وأفعاله إلى أعمال الشر فلم يكن له على الله حجة، بل لله عليه الحجة البالغة، نهج الله له طريق الخير فأباه، وسلك بنفسه طريق الشر وارتضاه فلا يلومن بعد ذلك إلا نفسه.

فمن احتج مع ذلك على ربه وقال: إنه قدر عليَّ المعاصي فلا لوم عليَّ، قيل له: هذه حجة أبطلها الله في كتابه حيث قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ۝١٤٨ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨، ١٤٩]. فتضمنت هاتان الآيتان أن الاحتجاج بالقدر على المعاصي باطل من وجوه:

منها: أن هذا هو احتجاج المشركين.

ومنها: أن هذا الاحتجاج بالقدر على الشر لم يمنعهم من عذاب الله، حيث قال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾.

ومنها: أن الله وبخهم على ذلك وطالبهم بالبرهان في قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ

فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾. فنفى عنهم العلم وأخبر أنهم يتبعون الظن الذي لا يغني عن الحق شيئًا.

ومنها: أنه أخبر أن له الحجة البالغة على جميع من تجرأ على معاصيه، فمن احتج بالقدر على المعاصي فهو من أظلم الظالمين، وأيضًا فهذا المحتج بالقدر المقيم لعذر نفسه على ربه هو يكذب نفسه بنفسه، فإنه لو تجرأ عليه أحد بتعدٍّ على ماله أو بدنه أو محبوباته، واعتذر بالقدر لم يقبل عذره، فكيف يقبل عذر نفسه على تجريه على ربه، فالمحتج بالقدر على المعاصي يكذبه الكتاب والسنة والعقل، وضميره يكذبه كما ذكرنا، وإنما يقصد باحتجاجه دفع الشنعة عن نفسه. وكانت طائفة القدر في أول أمرهم ينكرون العلم وينكرون القدر فيقولون: إن الله لا يعلم أعمال العباد قبل أن يعملوها ولا تعلقت بها مشيئة الله، فلما شنع عليهم المسلمون وكفروهم بذلك تحللوا عن قولهم الأول، فأثبتوا العلم وأنكروا القدر.

ولهذا كان الأئمة كالإمام أحمد وغيره يقولون: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أنكروا العلم كفروا وإن اعترفوا به خصموا، يعني أن القدرية النافين لعلم الله بأفعال عباده جاحدون لنصوص الكتاب والسنة المصرحة بإحاطة علم الله بما كان وما يكون من أعيان وأوصاف وأفعال مما دق وجل، فمن أنكر ذلك فقد كذب الكتاب والسنة صريحًا، وذلك هو الكفر، وإن اعترفوا بإحاطة علم الله بكل شيء وبأفعال العباد قبل وقوعها كما هو القول الذي استقر عليه مذهبهم خصموا، ووجه ذلك أنهم يقولون: إن أفعالهم لا تتعلق بها مشيئة الله وإرادته، وإنما هم مستقلون بها من كل وجه، إذا كان هذا قولهم في مشيئة الله مع قولهم: إن الله يعلم أعمال العباد قبل أن يعملوها، فهذا تناقض محض، كيف يعلمها وهو لم يقدرها ولم يردها؟! هذا محال ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

فيلزمهم أحد أمرين: إما ألا يتناقضوا فينفوا الأمرين؛ علم الله بأفعالهم ومشيئته لها؛ فيتضح كفرهم، وإما أن يرجعوا إلى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وأجمع عليه المسلمون، وهو أنه كما أنه بكل شيء عليم وبكل شيء محيط؛ فإنه على كل شيء قدير، ومن جملة الأشياء أفعال العباد وطاعاتهم ومعاصيهم، فهو تعالى يعلمها إجمالًا وتفصيلًا قبل أن يعملوها،

وأعمالهم وأفعالهم داخلة تحت مشيئة الله وإرادته، فقد شاءها منهم وأرادها ولم يجبرهم لا على الطاعات ولا على المعاصي، بل هم الذين فعلوها باختيارهم؛ كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]. فهذه الآية فيها رد على القدرية النفاة وعلى القدرية المجبرة، وإثبات للحق الذي عليه أهل السنة والجماعة، فقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾. فأثبت لهم مشيئة حقيقية وفعلًا حقيقيًّا، وهو الاستقامة باختيارهم؛ فهذا رد على الجبرية، وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. أخبر أن مشيئتهم تابعة لمشيئة الله، وأنها لا توجد بدونها، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ففيها رد على القدرية القائلين: إن مشيئة العباد مستقلة ليست تابعة لمشيئة الله، بل عندهم يشاء العباد ويفعلون ما لا يشاؤه الله ولا يُقَدِّره.

ودلت الآية على الحق الواضح؛ وهو أن العباد هم الذين يعملون الطاعات والمعاصي حقيقة، ليسوا مجبورين عليها، وأنها مع ذلك تابعة لمشيئة الله كما تقدم كيفية وجه ذلك. والآيات الدالات على هذا كثيرة جدًّا، فهذه إحدى الطوائف الثلاث المخاصمين لله، فإنهم أنكروا عموم مشيئته وقدره، وجحدوا ما قرره الله في كتابه وعلى لسان رسوله من شمول قدره لكل شيء، فزعموا أن أفعال العباد خارجة من هذا العموم.

وأما الطائفة الثانية: فهم الجبرية الذين يقال لهم القدرية المجبرة وهم غلاة الجهمية الذين إمامهم في هذا وغيره جهم بن صفوان المتفق على بدعته، بل بدعه الخبيثة المتنوعة، فزعموا أن عموم مشيئة الله وعموم إرادته تقتضي أن العبد مجبور على أفعاله مقسور مقهور على أقواله وأفعاله لا قدرة له على شيء من الطاعات، ولا على ترك المعاصي، ومع أنه لا قدرة له على ذلك عندهم فهو مثاب معاقب على ما لا قدرة له عليه.

وهذا القول من أشنع البدع وأنكرها، وهو مخالف للكتاب والسنة وإجماع الأئمة المهتدين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ومخالف للعقول والفطر ومخالف للمحسوس، وكل قول يمكن صاحبه أن يطرده إلا هذا القول الشنيع، فإنه لا يمكنه أن يعمل به ويطرده؛ كما

تقدم أنه لا يعذر من ظلمه وتعدى عليه واعتذر المعتدي بالقدر، فإن الجبري لا يعذره بل يرى اعتذاره بالقدر زيادة ظلم وتهكمًا به، فكيف يسلك هذا المسلك مع ربه وهو لا يرتضيه لنفسه من غيره، والمقصود أن هذه الطائفة خالفت المنقول والمعقول.

ونصوص الكتاب والسنة تبطل قولهم، فإن الله نسب أعمال العباد إليهم من الطاعات المتنوعة والمعاصي الكثيرة، كلها يضيفها إلى الفاعلين ويخبر أنهم هم الفاعلون لها ويستحقون جزاءها من خير وشر، فلو كانوا مجبورين عليها لم ينسبها لهم ولم يضفها إليهم، بل ينسب الأفعال إلى نفسه حاشاه وتعالى عن ذلك، فلا يقال: الله الذي فعل الإيمان والكفر والطاعة والمعصية، بل يقول كل أحد: العبد هو الذي فعلها، والله هو الذي قدرها من غير أن يجبره عليها، ويلزم على قول الجبرية أيضًا إسقاط الأمر والنهي؛ لأنه كيف يؤمر وينهى من لا قدرة له على امتثال الأمر واجتناب النهي، ويلزم أيضًا على قولهم إسقاط الحدود عن جميع أهل الجرائم؛ إذ كيف يعاقبون وتقام عليهم الحدود وهم غير قادرين بل مجبورين، فهذا القول الباطل مخالف لجميع أصول الدين وفروعه، ويلزم أيضًا على قول الجبرية تعطيل الأسباب الدنيوية والدينية، وذلك أن الله تعالى جعل الأسباب موصلة إلى مسبباتها، وأمر العباد بسلوك كل سبب نافع لهم في دينهم ودنياهم، فكيف يؤمرون وهم مجبورون غير قادرين.

فالقول بالجبر فيه فساد الدين والدنيا، والذي حملهم على هذا القول مع ظهور فساده ظنهم أنه لا يمكنهم إثبات عموم مشيئة الله وقدره حتى يسلبوا العبد قدرته، وقد غلطوا بهذا الظن، فإنه كما تقدم يتمكن العبد من إثبات عموم القدر ومن إثبات أن الأعمال هي أعمال العباد حقيقة؛ لأن الله خلقهم وخلق كل ما فيهم من القوى الظاهرة والباطنة وبقدرتهم وإرادتهم اللتين خلقهما الله ومكن العبد بهما من كل ما يريده من خير وشر، فعلوا الأمرين باختيارهم من غير إجبار.

وقد تصل هذه الطائفة وتغلو في القدر حتى يعتقدوا أن معاصيهم طاعات؛ لأنها بمشيئة الله فيشاركون الطائفة الثالثة وهم القدرية المشركون الذين اعتذروا عن شركهم وتحريمهم ما

أباح الله بالمشيئة وجعلوا مشيئة الله هي محبته فقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] الآية. وفي الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]. فهذه الطوائف الثلاث هم خصماء الله في قضائه وقدره، منهم من نفاه، ومنهم من غلا فيه غلوًّا أوقعه في الباطل، وهدى الله أهل السنة والجماعة لما اختلفوا فيه بإذنه ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]. فأثبتوا عموم قضاء الله ونفوذ مشيئته في كل شيء، وأثبتوا مع ذلك أفعال العباد من الطاعات والمعاصي وقالوا: إنها واقعة باختيارهم ولا حجة للعاصين على الله إذا احتجوا على معاصيهم بقدره، بل حجتهم داحضة باطلة وقالوا: إن مشيئة الله غير محبته، فمشيئته تعلقت بكل شيء موجود من خير وشر وطاعة ومعصية، ومحبته خاصة للطاعات وأهلها، كما أخبر بذلك في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ.

ثم قال الشيخ رحمه الله:

وأصل ضلال الخلق في كل فرقة	هو الخوض في فعل الإله بعلة
فإن جميع الكون أوجب فعله	مشيئة رب الخلق باري الخليقة
وذات إله الخلق واجبة بما	لها من صفات واجبات قديمة
مشيئته مع علمه ثم قدرة	لوازم ذات الله قاضي القضية
وإبداعه ما شاء من مبدعاته	بها حكمة فيه وأنواع رحمة

يذكر الشيخ أن أصل ضلال الخلق من جميع فرق الضلال هو الخوض في فعل الرب، وذلك أن جميع الكون، العالم العلوي والسفلي وما فيهن من المخلوقات خلقها الله، وأوجدها بمشيئته وقدرته، فإنه تعالى هو الواجب بأسمائه وصفاته القديمة التي لا أول لها؛ لأنه الأول الذي ليس قبله شيء ولم يزل بأسمائه وصفاته كذلك، فإذا كانت أوصافه كلها قديمة

واجبة، لأنه واجب الوجود، فمن لوازم صفاته اللازمة لذاته العلم المحيط بكل شيء، والقدرة الشاملة لكل شيء، والمشيئة العامة لكل موجود، فهو تعالى لم يزل عليما فعالًا لما يريد، وأفعاله تعالى وإبداعه لمبتدعاته تابعة لحكمته التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، فلم يخلق ولن يخلق شيئًا عبثًا، بل خلق المخلوقات وأبدع المبدعات بالحق وللحق، فهي صدرت عن الحق واشتملت على الحق، وكانت غاياتها المقصودة الحق.

فهذا التقرير الصحيح لمذهب أهل السنة والجماعة، وهو الذي دلت عليه الأدلة الكثيرة، فكما أنه تعالى أخبر أنه على كل شيء قدير، وأنه فعال لما يريد، وأنه إذا أراد أمرًا قال له: كن فيكون، وأن كل شيء خلقه بقدر، وكل صغير وكبير مستطر، فكذلك قد أخبر أنه الحكيم الذي شملت حكمته كل شيء، وأنه خلق السماوات والأرض ومن فيهن بالحق ولم يخلقهما باطلًا، ذلك ظن الذين كفروا ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. إلى غير ذلك من الآيات الدالات على الأصلين، وهما عموم مشيئته لكل موجود، وشمول حكمته للخلق والأمر، هذا الذي يتعين على المكلفين الاعتراف به واعتقاده.

وأما مذهب الجبرية فإنهم زعموا أن فعل الرب وإبداعه لجميع المبتدعات لغير حكمة، بل أوجدها عندهم بمشيئة مجردة وقالوا: إنه لا يسأل عما يفعل، ولا حجة لهم بالآية الكريمة، بل هي حجة عليهم، فإنه لا يسأل عما يفعل لكمال حكمته، فلا يمكن مخلوقًا أن يعترض على الله اعتراضًا صحيحًا في شيء من مخلوقاته، بل لو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلى آخرهم ليقترحوا أحسن من خلقه وإبداعه وتكوينه؛ لعجزت عقولهم وقواهم، وإنما حسب العقول الكاملة أن تدرك حكمة الله وأن تفهمها وما يخفى عليها من الحكم أعظم وأكثر قال تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. وقال: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]. وقال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي نقص وخلوّ من الحكمة ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤].

ومن تأمل في المخلوقات وتغلغل فكره في بدائع المصنوعات ورأى ما فيها من الحسن والانتظام والإتقان، وشاهد ما فيها من المنافع التي لا تحصى؛ شهد لله بكمال الحكمة وعموم الرحمة، فتبًّا لمن زعم أن أفعال الباري صادرة عن محض المشيئة الخالية من الحكمة والرحمة، وأنه يرجح مثلًا على مثل بلا معنى ولا سبب مرجح، لقد ضلت أفهامهم حيث أنكروا أظهر الأشياء وأوضحها.

ولهذا قال الشيخ:

ولسنا إذا قلنا جرت بمشيئة … من المنكري آياته المستقيمة

بل الحق أن الحكم لله وحده … له الخلق والأمر الذي في الشريعة

أي إذا قلنا: إن جميع الكائنات جرت بمشيئة الله وإرادته فلسنا ننكر حكمته وآياته المستقيمة الدالة على الغايات المحمودة، بل نجمع بين إثبات الأمرين، ونعتقد شمول الأصلين لكل ما خلقه وشرعه، لأنه تعالى له الحكم وحده ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. أي له - وصفًا وفعلًا - الخلق الشامل لكل مخلوق، والأمر الشامل لجميع الأحكام الشرعية، فكما لا خالق سواه فلا حاكم بين العباد سواه، وكما أن مخلوقاته مملوءة من الحكمة والرحمة فشرعه العظيم أعظم وأعظم، كله حكمة وكله رحمة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

فلهذا قال:

هو الملك المحمود في كل حالة … له الملك من غير انتقاص بشركة

أي له الملك كله وله الحمد كله، لا شريك له في ملكه ولا في حمده، فهو المحمود على ما له من الأسماء الحسنى، وعلى ما له من الصفات الكاملة العليا، وهو المحمود على فضله الشامل ورحمته الواسعة، وعلى عدله وحكمته التي وضع بها الأشياء مواضعها، فيحمد على عدله كما يحمد على فضله، كما قال الشاعر:

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعي لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

وقد قرر الشيخ هذا المقام فقال مقررًا مكررًا للمعاني بعبارات مختلفة؛ لأن المقام مهم جدًّا:

فما شاء مولانا الإله فإنه ... يكون وما لا لا يكون بحيلة

وقدرته لا نقص فيها وحكمه ... يعم فلا تخصيص في ذي القضية

أريد بذا أن الحوادث كلها ... بقدرته كانت ومحض المشيئة

ومالكنا في كل ما قد أراده ... له الحمد حمدًا يعتلي كل مدحة

فإن له في الخلق رحمته سرت ... ومن حكم فوق العقول الحكيمة

أمورًا يحار العقل فيها إذا رأى ... من الحكم العليا وكل عجيبة

يعني أنه ما شاء الله كان لا مانع من كونه ووجوده إذا شاءه الله، وما لم يشأ لم يكن؛ فلا يدرك بحيلة ولو اجتمع عليه جميع الخلق، وفي حديث ابن عباس أنه ﷺ قال: «**واعلم أن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»[1]. فقدرة الباري تعالى كاملة لا نقص فيها حدثت جميع الحوادث ووجدت الموجودات بها وبمشيئته، وله في ذلك الخلق والإيجاد كمال الحكمة وسعة الرحمة التي تحار العقول في كثرتها وسعتها وعظمتها، وهو المحمود تعالى على ذلك كله.

ثم قال أيضًا:

فنؤمن أن الله عز بقدرة ... وخلق وإبرام لحكم المشيئة

فنثبت هذا كله لإلهنا ... ونثبت ما في ذاك من كل حكمة

---

(١) الترمذي (٢٥١٦).

وهـذا مقـام طالمـا عجز الألى	نفـوه وكـروا راجعيـن بحيـرة
وتحقيـق مـا فيـه بتبيين غوره	وتحرير حق الحق فـي ذي الحقيقة
هـو المطلب الأقصـى لرواد بحره	وذا عسـر في نظم هذي القصيدة
لحاجتـه إلـى بيـان محقـق	لأوصـاف مولانا الإلـه الكريمة
وأسـمائه الحسـنى وأحكام دينه	وأفعالـه في كل هـذي الخليقة
وهـذا بحمد الله قـد بان ظاهرًا	وإلهامـه للخلـق أفضـل نعمـة
وقـد قيل فـي هذا وخـط كتابه	بيـان شـفاء للنفوس السـقيمة

كرر المؤلف هذه المعاني بهذه العبارات لما ذكره أن المقام مقام عظيم طالما عجز الذين نفوه ولم يفهموه وبقوا حائرين غير مهتدين، ومسائله العظيمة مستمدة من أسماء الله وأوصافه وأفعاله ومعرفة دينه والتدبر لكتابه، فمن تفقه في الأسماء الحسنى واعترف بما لله من الصفات العليا وعرف أن أفعاله تعالى مشتملة على الحق، والحق غايتها ومقصودها، وتدبر كتاب الله الذي فيه الهدى والشفاء، وسنة نبيه ﷺ، من عرف ذلك كله واعترف به جزم جزمًا لا تردد فيه بأنه تعالى خلق المخلوقات وأوجدها ودبرها بمشيئة نافذة وحكمة شاملة ورحمة واسعة.

وذلك أن عظمة المخلوقات تدل على عظمة خالقها ومبدعها وكمال قدرته، وما فيها من التخصيصات المتنوعة من كل وجه تدل على نفوذ مشيئته وإرادته، وما فيها من الحكم والانتظام والحسن والالتئام والخلق الغريب والإبداع العجيب يدل على شمول علمه وإحاطته وشمول حكمته وحمده، وما فيها من الخيرات الكثيرة والمنافع الغزيرة والصلاح والإصلاح يدل ذلك على سعة رحمته وبره وكرمه وإحسانه، وتحقيق هذه المقامات هو المطلب الأقصى لرواد الحقيقة، ولا سبيل لذلك إلا الاستمداد من كلام الله وكلام رسوله والاستنارة بهداية الأئمة المهتدين ومعرفته وإلهامه للعباد من أجلّ نعم الله عليهم، والقرآن شفاء لما في الصدور من أمراض الشكوك والشبهات والشهوات.

ثم قال الشيخ مجيبًا للمعترض:

فقولك لِمْ قد شـاء؟ مثل سؤال من ... يقـول فلِـمْ قد كان فـي الأزلية

وذاك سـؤال يبطل العقل وجهه ... وتحريمه قد جاء في كل شـرعة

يعني رحمه الله أن سؤال السائل واعتراض المعترض بقوله: لِمَ شاء، وكيف شاء كُفْرَ الكافرين ووقوع العصيان من العاصين؟ ونحوها من الأسئلة المشابهة لذلك كلها محظورة ممنوعة؛ لأن الله هو الحاكم ليس محكومًا عليه ولا يلزم أن يبدي لعباده كل حكمة اشتملت عليها مراداته ومفعولاته؛ فقد أخبر عباده بالأمر العام، وهو أنه حكيم في كل ما خلق وكل ما شرع، وأما دقائق الخلق وأسرارها وأسرار أفعاله، فعنده علمها لا يلزم أن يطلع العباد عليها إلا ما شاء منها، وهذا مثل سؤال السائل: لِمَ قدم الله هذا المخلوق على هذا المخلوق؟ ولِمَ كان المخلوق سابقًا وهذا المخلوق لاحقًا؟ فإنه تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون؛ فالعقل والشرع لا يبيح أمثال هذه الأسئلة التي يعترض بها العبد الحقير على الرب العظيم، فإنه محرم في جميع الشرائع حتى وصلت بهم الحال إلى ما قال النبي ﷺ: «**لا يزال الناس يتساءلون حتى يقولوا: هذا الله خلق هذا الخلق فمن خلق الله، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان ولينته**»[(1)]. وفي رواية: «**فليقل: آمنت بالله**»[(2)]. فأمر ﷺ عند هذه الشكوك والأسئلة المحرمة بثلاثة أشياء: بالإيمان بالله؛ لأن الإيمان الصحيح يدفع هذه الشبهات، لعلم العبد المؤمن أنه تعالى الأول الذي ليس قبله شيء، وأنه لا منتهى لأوليته كما لا منتهى لآخريته، وبالاستعاذة بالله من الشيطان الموسوس الموقع لهذه الشكوك والشبهات، وأمره أن ينتهي وأن يعلم أن هذا سؤال باطل شرعًا وعقلًا وهو من باب المكابرة والمباهتة؛ لأنه تعالى واجب الوجود، ووجود كل شيء بإيجاده.

---

(1) البخاري (٣٢٧٦)، مسلم (١٣٤).

(2) البخاري (٧٢٩٦)، مسلم (١٣٤).

وفي الكـون تخصيـص كثير يدل من ... لـه نـوع عـقـل أنـه بـإرادة

وإصـداره عن واحـد بعد واحد ... أو القـول بالتجويـز رمية حيرة

ولا ريـب في تعليق كل مسـبب ... بمـا قبلـه مـن علـة موجبيـة

بل الشأن في الأسـباب أسباب ما ترى ... وإصدارهـا عن حكـم محض المشـيئة

يقول: إن في العالم العلوي والسفلي تخصصات كثيرة جدًّا تدل دلالة عقلية صريحة أنها بإرادة العزيز الحكيم؛ مثل جعل بعضها عاليًا، وبعضها سافلًا، وبعضها كبيرًا، وبعضها صغيرًا، وبعضها متصلًا بغيره، وبعضها منفصلًا، وبعضها على صفة، وبعضها على صفة أخرى مثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [النور: ٤٥].

والتخصيصات لا يحيط بها الوصف، وكلها تدل على أنها متعلقة بإرادة الله ومشيئته، وأنه الفعال لما يريد، ومن الغلط العظيم والحيرة والضلال[1] قول الفلاسفة: إن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد. فإن هذا باطل شرعًا وعقلًا من وجوه كثيرة ذكرها الشيخ في كتاب **العقل والنقل** وفي **المنهاج** وغيرهما من كتبه، لكن الأمر الذي لا ريب فيه أن كل مسبب لا بد له من سبب، وكل معلول لا بد له من علة موجبة، وكل شيء لا بد له من مادة قد خلق منها، ولكن جميع الأسباب تنتظم في قضاء الله وقدره، وهي من القضاء والقدر، ولهذا لما قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، أرأيت رُقًى نسترقيها، ودواء نتداوى به، وتقاة نتقيها؛ هل ترد من قدر الله شيئًا قال: «**هي من قدر الله**»[2].

وثبت في **الصحيحين** أن الصحابة رضي الله عنهم حين ذكر لهم النبي ﷺ القدر السابق قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا الأول وندع العمل، فقال: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له.**

---

(١) في المطبوع: «الضلاة» والتصويب من المخطوط.

(٢) الترمذي (٢٠٦٥)، ابن ماجه (٣٤٣٧).

أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة». ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥ - ١٠][(١)]. فبين ﷺ أن السعادة والشقاوة وإن كانت مقدرة مفروغًا منها، فإن الله قدرها بأسبابها وهو أن الله يسر أهل السعادة لليسرى بما فعلوه من الأسباب الثلاثة، وهي قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾. وأن الله يسر أهل الشقاوة للعسرى بما فعلوه من الأسباب الثلاثة، وهي قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾.

ومشيئته تعالى لا تنافي ما جعله الله من الأسباب الدنيوية والأخروية، فقد أخبر في عدة آيات أنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وفي آيات أخرى أخبر بها بالأسباب التي تنال بها هداية الله ويستحق العبد أن يبقى على ضلاله كقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ [المائدة: ١٦]. وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وكقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]. وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]. ونحوها، وقوله في الضلال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]. وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]. ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

وهذه الآيات فيها من أسرار القدر في هداية من يهديه وإضلال من يضله ما يشهد لله بكمال الحكمة والحمد، وكذلك أخبر في عدة آيات أنه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وفي آيات أخر أخبر عن الأسباب التي تنال بها مغفرة الله مثل قوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. والأسباب التي يستحق بها العذاب مثل قوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨].

---

(١) تقدم تخريجه ص٧٦٤.

وكذلك أخبر في آيات كثيرة أنه يرزق من يشاء، ويوسع الرزق على من يشاء، ويقبضه عمن يشاء، وفي آيات أخرى ذكر فيها الأسباب التي ينال بها رزقه، مثل قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤]. كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه»**[1].

وكذلك الأسباب المادية مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]. وجميع المطالب الدنيوية والأخروية جعل لها أسبابًا متى سلكها الإنسان حصل له مطلوبه، وقد جمع النبي ﷺ ذلك في كلمة واحدة فقال: **«احرص على ما ينفعك واستعن بالله»**[2]. فقوله: **«احرص على ما ينفعك»**. أي في دينك ودنياك، واسلك كل طريق يوصلك إلى هذه المنفعة، ولكن لا تتكل على حولك وقوتك، بل توكل على الله واستعن به، فمن فعل ذلك فهو عنوان سعادته ونجاحه وإلا فلا يَلُم العبد إلا نفسه.

وقولك لِمْ شاء الإله هو الذي — أضل عقول الخلق في قعر حفرة

فإن المجوس القائلين بخالق — لنفع ورب مبدع للمضرة

سؤالهم عن علة السر أوقعت — أوائلهم في شبهة الثنوية

يعني أن هذا السؤال الذي مضمونه الاعتراض على الله، ومضمونه أيضًا الدخول فيما ليس للعقل سبيل إليه، لم يزل يضل عقول الخلق ويلقيهم في الهلاك، وهو الذي أوقع المجوس القائلين: إن الخالق اثنان؛ خالق الخير هو الله، وخالق الشر هو الشيطان؛ فأشركوا بالربوبية بعد شركهم في الإلهية، فكانوا يعبدون النار ويستحلون المحارم؛ فزاد شرهم على المشركين من جهة استحلال المحارم، ومن جهة اعتقادهم أن إبليس خالق الشر؛ فجعلوا رب

(١) البخاري (٢٠٦٧)، مسلم (٢٥٥٧).

(٢) مسلم (٢٦٦٤).

العالمين اثنين، ولهذا يقال لهم: الثنوية، والذي أوقعهم في هذا الشر العظيم الذي لم يصل إليه المشركون هذا السؤال، فقالوا: كيف يخلق الله الشر؟ فعلينا أن ننزه الله عن خلق الشر فأتوا بهذه الطامة الكبرى والمقالة الشنعاء، يقول الشيخ رحمه الله: فهؤلاء المشككون الذين يقولون: كيف يقدر الله علينا الكفر والمعاصي ويعذبنا على ذلك؟ قد تابعوا في اعتراضهم كل كفار عنيد من المجوس الثنوية، وكذلك من هم أعظم منهم شرًّا وجُرْمًا ملاحدة الفلاسفة.

فلهذا قال الشيخ:

وإن ملاحدة الفلاسفة الألى   يقولون بالفعل القديم لعلة

بغوا علة في الكون بعد انعدامه   فلم يجدوا ذاكم فضلوا بضلة

يعني أن ملاحدة الفلاسفة المعطلين لله ولكتبه ورسله المكذبين لهم أوقعتهم عقولهم الفاسدة في الهلاك، حيث حكّموها في البحث عن علة إيجاد هذا الكون، فلم تهتد لذلك لقصورها وتقصيرها، فزعم كثير منهم أن هذا العالم قديم، وأنه لم يزل ولا يزال. وبذلك أنكروا وجود الرب العظيم، ومن باب أولى أنكروا رسله وكتبه وتضاربت نظرياتهم الفاسدة؛ فضلوا وأضلوا، ولقد صدق عليهم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣]. ثم إن هؤلاء الفلاسفة الملاحدة في هذه الأوقات أبطلوا بأنفسهم نظرية أسلافهم، وأحدثوا لهم نظريات متعددة متضاربة مبنية على الخرص والجهل المركب، ولم يزالوا في اضطراب، وهذه حالة كل من ترك الحق واستكبر عنه وتاه بعقله، قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥].

ولهذا قال الشيخ:

وإن مبادي الشر في كل أمة   ذوي ملة ميمونة نبوية

لخوضهم في ذاكم صار شركهم   وجاء رءوس البينات بقترة

يعني: وكذلك الأمم الذين ينتسبون للأنبياء كاليهود والنصارى، مبادي شرهم وشركهم جنس هذا السؤال وخوضهم بالباطل، فانحرفوا عن أديان الأنبياء واتبعوا كل شيطان مريد، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠١، ١٠٢] الآية. فأخبر أنهم تركوا الإيمان بسيد الرسل محمد ﷺ وأفضل الكتب، وتعوضوا عن ذلك بالعلوم الباطلة التي هي السحر ونحوها. فكل من ترك الأمور النافعة ابتلي بالأمور الضارة، وكل من زهد بالحق وقع في الباطل، وهذا مطرد في كل زمان ومكان وكل أمة.

ويكفيك نقضا أن ما قد سألته — من العذر مردود لدى كل فطرة

فأنت تعيب الطاعنين جميعهم — عليك وترميهم بكل مذمة

وتنحل من والاك صفو مودة — وتبغض من ناواك من كل فرقة

وحالهم في كل قول وفعلة — كحالك يا هذا بأرجح حجة

وهذا كما تقدم إلزام ونقض واضح على من اعتذر عن مخالفته ومعاصيه بالقدر، فإنه في كل فطرة عاقل أن من ذمك ذممته، ومن عابك عبته، ومن ظلمك في نفسك أو مالك عاملته معاملة الظالم، فكيف تعذر نفسك إذا عصيت الله ولا تعذرهم إذا ذموك أو ظلموك، بل تبغضهم وتذمهم وتقابلهم على ظلمهم بما تقدر عليه، وهذا شيء كل أحد يعرفه، فاتضح بهذا أن المحتج بالقدر على المعاصي كما أنه مخالف للشرع والعقل، فهو مخالف للفطرة التي فطر عليها كل أحد، بل هو مكابر مستهزئ.

ثم أعاد هذه المعاني بذكر أمثلة توضح المقام لكونه من أهم المهمات فقال:

وهبك كففت اللوم عن كل كافر — وكل غويّ خارج عن محجة

فيلزمك الإعراض عن كل ظالم — على الناس في نفس ومال وحرمة

فـلا تغضبن يومًا على سـافك دمًا ... ولا سـارق مـالًا لصاحـب فاقة
ولا شـاتم عرضًا مصونًا وإن علا ... ولا ناكـح فرجًا على وجـه غية
ولا قاطـع للناس نهج سـبيلهم ... ولا مفسد في الأرض من كل وجهة
ولا شـاهد بالـزور إفـكًا وفرية ... ولا قـاذف للمحصنـات بزنيـة
ولا مهلـك للحرث والنسـل عامدًا ... ولا حاكـم للعالميـن برشـوة
وكف لسـان اللوم عن كل مفسد ... ولا تأخـذن ذا جرمـة بعقوبـة
وسـهل سـبيل الكاذبين تعمدا ... علـى ربهـم من كل جـاءٍ بفرية
وإن قصدوا إضـلال من يسـتجيبهم ... بـروم فسـاد النوع ثم الرياسـة
وجادل عن الملعـون فرعون إذ طغى ... فأغـرق في اليـم انتقامًـا بغصة
وكل كفـور مشـرك بإلهـه ... وآخـر طـاغ كـافـر بـنـبـوة
كعـاد ونمـروذ وقـوم لصالـح ... وقـوم للـوط ثم أصحـاب أيكة
وخاصم لموسـى ثم سـائر من أتى ... مـن الأنبيـاء محييـا للشـريعة
على كونهم قـد جاهدوا الناس إذ بغوا ... ونالوا مـن العاصي بليـغ العقوبة
وإلا فـكل الخلق فـي كل لفظة ... ولحظـة عيـن أو تحرك شـعرة
وبطشـة كـف أو تخطـي قديمة ... وكل حـراك بـل وكل سـكينة
هم تحـت أقدار الْإِلَـهِ وحكمه ... فما أنـت فيما قد أتيـت بحجة

هذه الإلزامات التي ذكرها الشيخ في غاية القوة والوضوح يبطل كل واحد منها اعتذار المعتذر بالأقدار، ومثل بأمثلة كثيرة يعرفها كل أحد؛ لأن كثرة الأمثلة توضح المعاني وتصور المقالات القبيحة بأشنع صورة، ولأنه لو فرض أنه تأول من التزم بها بعض هذه الأمثلة باحتمالات ضعيفة لم يكن له سبيل إلى بقيتها، فالشيخ يقول لهؤلاء المعارضين المعترضين بأقدار الله على المعاصي: يلزمكم أن تعرضوا عن كل ظالم للناس في

دمائهم وأعراضهم وأموالهم، فلا تغضبون على من سفك الدماء وأخذ الأموال بالغصب والسرقة، ولا من شتم الأعراض، ولا على الزناة وقطاع الطريق والمفسدين في الأرض، ولا على قاذف أو شاهد بالزور ولا من سعى في الأرض ليهلك الحرث والنسل، ولا على من حكم بالرشوة وجار في حكمه، بل يجب عندهم كف اللسان عن كل مفسد معتد على الخلق، بل عليك أن تسهل سبيل الكاذبين على ربهم وتعتذر عنهم، وإن سعوا في إضلال الناس، بل وجادل عن أئمة الكفر؛ كفرعون وقارون وهامان، وكل مشرك وكافر؛ كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وما أشبههم من الكفار المعاندين، بل على قول هؤلاء عليك أن تخاصم جميع الرسل والأنبياء حيث جاهدوا الناس على الإيمان وعاقبوا أهل الجرائم؛ لأن الخلق كلهم في جميع حركاتهم وسكناتهم ولفظاتهم ولحظاتهم تحت أقدار الله، وهذا القول الفظيع الذي يفضي إلى هذه المكابرات والمجاهرة بتكذيب الله ورسله وكتبه، حَسبُ الناظر لهذا القول أن يتصور هذه اللوازم التي هي غاية المشاقة لله ولرسله وفيه فساد الدين والدنيا والآخرة.

وهبـك رفعت اللوم عـن كل فاعل	فعال ردى طردًا لهذي المقيسـة
فهـل يمكنن رفع المـلام جميعه	عـن الناس طرًّا عنـد كل قبيحة
وتـرك عقوبات الذيـن قد اعتدوا	وترك الورى الإنصـاف بين الرعية
فـلا تضمنـن نفس ومـال بمثله	ولا يعقبن عـادٍ بمثـل الجريمة
وهل في عقول الناس أو فـي طباعهم	قبول لقول النذل ما وجـه حيلتي

لما ذكر الشيخ تلك الإلزامات التي لا محيد لهم عنها ألجأهم أيضًا إلى إلزامات أخر، فقال: فلو فرض وقدر أنك أيها المعتذر بالقدر على المعاصي رفعت اللوم عن العاملين لمعاصي الله المتجرئين على محارمه؛ فهل يمكنك طرد ذلك وترك عقوبات المعتدين وترك الحدود عن أهل الجرائم، بحيث لا يضمن القاتل نفسًا، ولا الغاصب والمتلف مالًا، ولا ينصف الحكام بين رعاياهم إذا قالوا وادعوا أنهم معذورون بالقدر، وهل في عقل أحد

أو فطرته قبول قول الواحد من هؤلاء المجرمين: ما وجه حيلتي وأنا معذور، فإني وإن خالفت الشرع فقد وافقت القدر، وهل هذا إلا تلاعب محض وتهكم صرف.

ثم قال الشيخ:

ويكفيك نقضًا ما بجسم ابن آدم ... صبي ومجنون وكل بهيمة

من الألم المقضي من غير حيلة ... وفيما يشاء الله أكمل حكمة

إذا كان في هذا له حكمة فما ... يظن بخلق الفعل ثم العقوبة

فكيف ومن هذا عذاب مولد ... عن الفعل فعل العبد عند الطبيعة

كآكل سم أوجب الموت أكله ... وكل بتقدير لرب المشيئة

فكفرك يا هذا كسم أكلته ... وتعذيب نار مثل جرعة غصة

ألست ترى في هذه الدار مَن جنى ... يعاقب إما بالقضا أو بشرعة

ولا عذر للجاني بتقدير خالق ... كذلك في الأخرى بلا مثنوية

يعني أنه يكفيك نقضًا لقولك وإبطالًا له أن الله تعالى يقضي بحكمته الآلام على غير المكلفين من الصبيان والمجانين والبهائم، وهذه الإلزامات من لوازم الطبيعة، فلا تنفك الطبائع إلا أن تكون على هذه الصفة؛ تكون صحيحة ومريضة ومرتاحة ومتألمة، بحسب ما يعرض للطبيعة من استقامة وانحراف.

فإذا كانت أسباب الآلام إذا وجدت تولدت عنها الآلام وترتبت عليها الأسقام، كمن أكل سمًّا ترتب عليه الهلاك، أو ألقى نفسه في نار أو مهلكة، فكفر الكافرين وإجرام المجرمين بمنزلة من أكل سمًّا أو قذف نفسه في نار أو مهلكة؛ لا بد أن يترتب عليه مقتضاه وأثره، فإذا كنت لا تعذر من أكل سمًّا، أو ألقى نفسه في تهلكة وتنسب هلاكه إلى عمله فالكفر والمعاصي كذلك، بل أبلغ لأن آكل السم والملقي نفسه بالهلكة ربما يعرض بعض العوارض المانعة من الهلاك بخلاف الكفر وتوابعه، فإن آثاره مترتبة عليه قطعًا إلا إذا

رفعها العبد بتوبة نصوح.

ومما يؤيد هذا أنك تشاهد في هذه الدار عقوبات الباغين والظالمين والمعتدين، عقوبات يشاهدها كل أحد، إمّا عقوبات قدرية يوقعها الله بالمجرمين؛ كما أهلك الأمم السابقة بالعقوبات المتنوعة، وكما يشاهده من سَبَرَ أحوال الخلق وتتبع مجرياتهم، وكيف كانت عواقب الباغين والمجرمين أشنع العواقب، وإمّا بعقوبات شرعية يقتل القاتل، ويقطع السارق، ويقام الحد بالرجم أو الجلد على الزاني، ويجلد الشارب للخمر، ويعزر في كثير من المعاصي، وهذه عقوبات قدرية شرعية.

فهل تقول أيها المعتذر عن العاصين بالقدر: إن جميع هؤلاء قد ظلمهم الله؛ حيث أوقع بهم هذه العقوبات، وحيث أحل بهم المثلات، فإن قلت ذلك فقد بلغت من عداوة الله وعداوة رسله، ومحاربة الله مبلغًا ما بلغه أحد، وإن رجعت إلى الحق، وقلت: إن هذه العقوبات القدرية والشرعية هي عدل الله بين عباده، وهي حكمته التي وضعها موضعها وجعلها في محلها اللائق بها، وليس لهؤلاء الجناة المعاقبين عذر، بل ما أصابهم من مصيبة فبما كسبت أيديهم ويعفو عن كثير، فالرجوع إلى الحق أحق، وبذلك وغيره يتضح بطلان الاعتذار بالقدر عن المجرمين.

وشبيه بهذا أيضًا قول الشيخ:

وتقدير رب الخلق للذنب موجب	لتقدير عقبى الذنب إلا بتوبة
وما كان من جنس المتاب لرفعه	عواقب أفعال العباد الخبيثة
كخير به تمحى الذنوب ودعوة	تجاب من الجاني ورب الشفاعة
وتقديره للفعل يجلب نعمة	كتقديره الأشياء طرًّا بعلة

يعني كما جعل الله الذنوب والجرائم أسبابًا للعقوبات، فقد جعل الله التوبة وأعمال الخير والدعوات والشفاعات تمحى بها الذنوب، وتكشف بها الكروب، فالله تعالى بحكمته

ورحمته جعل أعمال العباد خيرها وشرها تترتب عليها آثارها وتحصل موجباتها عاجلًا وآجلًا، فكم جلبت أفعال الخير من نعم، وكم دفعت من نقم! كذلك أفعال الشر كم حصل بها من عقوبات، وكم ترتب عليها من شرور ومصائب! فهذه أمور لا بد منها في قدر الله، وفي حكمه الشرعي، وحكمه الجزائي الذي يحمد عليه لما فيه من العدل والفضل.

ثم قال الشيخ رحمه الله:

وقـــول حليف الشــر إنـــي مقدر علي كقول الذئب هــذي طبيعتي

فهــل يرفعــن ذم الملــوم بأنــه كــذا طبعه أم هــل يقــال لعثرة

أم الــذم والتعذيــب أوكد للذي طبيعتــه فعل الشــرور الشــنيعة

يعني أن المجرم إذا اعتذر بذلك العذر المردود، وقال: إن الذنب مقدر علي فهو مثل قول الذئب والسبع المفترس، ومثل الشرير إذا فعل الشر والعدوان والبغي وقال: هذه طبيعتي فلا لوم علي، فهل يرفع هذا القول عنه الملام والعقاب أم يكون لومه أشد وعقوبته أوكد، لأنه عمل العمل القبيح واتصف بالخُلُق القبيح، فكان أغلظ جرمًا وأشد عقوبة ممن فعل جرمًا عارضًا؛ فإنه يرجى له الرجوع والتوبة بخلاف الشرير الذي طبيعته وقوته متوجهة إلى الشرور والمعاصي.

ثم ذكر الشيخ ما ينجي العبد من هذا المأزق الحرج فقال:

فإن كنت ترجو أن تجاب بما عســى ينجيك مــن نار الإلــه العظيمة

فدونــك رب الخلق فاقصــده ضارعًا مريدًا لأن يهديك نحــو الحقيقة

وذلل قيــاد النفس للحق واســمعن ولا تعص من يدعو لأقوم شــرعة

ودع دين ذي العــادات لا تتبعنه وعج عن ســبيل الأمــة الغضبية

ومــا بان مــن حــق فــلا تتركنه ولا تعرضــن عن فكرة مســتقيمة

ومــن ضل عــن حق فــلا تقفونه وزن مــا عليه النــاس بالمعدلية

هنالـــك تبدو طالعـات من الهدى	**بتبشـــير من قـــد جـــاء بالحنفية**
بملـــــة إبراهيـــــم ذاك إمامنا	**ودين رســـول اللـــه خيـــر البرية**
فـــلا يقبل الرحمن دينًا ســـوى الذي	**به جاءت الرســـل الكرام الســـجية**
وقد جاء هذا الحاشـــر الخاتم الذي	**حوى كل خير في عموم الرسالة**
وأخبر عـــن رب العبـــاد بأن من	**غـــدا عنه في الأخرى بأقبح خيبة**
فهـــذي دلالات العبـــاد لحائـــر	**وأمـــا هـــداه فهـــو فعـــل الربوبة**
وفقد الهـــدى عند الورى لا يفيد من	**غدا عنه بل يجري بلا وجه حجة**

هذه نصائح نفيسة من نصائح الشيخ مستندة إلى الكتاب والسنة، يقول: إذا كنت أيها العبد تريد نجاتك من عذاب الله والفوز بثوابه فاقصد ربك متضرعًا له آناء الليل والنهار، واسأله أن يهديك الصراط المستقيم، ووطن نفسك للانقياد للحق، واقبله ممن قاله، وكن ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ودع عنك دين العادات والاقتداء بأهل الغضب والضلال، وأكثر من التدبر لكتاب الله وسنة نبيه، ثم ما بان لك من الحق فاتبعه غير مبال بخلاف المخالفين، واجعل كتاب الله وسنة نبيه نصب عينيك، وزن بهما أحوالك وأحوال غيرك، فإنهما الميزان العادل غير العائل، فإنك إذا فعلت ذلك حصلت لك تباشير الخير وأمارات السعادة.

واتبع ملة إبراهيم حنيفًا مائلًا عن جميع الأديان والبدع إلى دين محمد ﷺ، فإن الله لا يقبل من أحد دينًا سوى الدين الذي ارتضاه لرسله وأتباعهم، حتى ختمهم بإمامهم وسيدهم محمد ﷺ، الذي جمع الله به وله من المحاسن والكمالات ما لم تجتمع في غيره، وقد أخبر عن ربه أن من اتبعه فهو المهتدي السعيد، ومن تولى عنه فهو الضال الطريد.

ثم قال: وهذا الذي بينته في هذه الأبيات فيها الدلالة للحيران، والتفاصيل التي يحصل بها الفرقان، والهداية بيد الله، لكنه من أقبل على ربه صادقًا وعمل بأسباب الهداية فلا بد أن

يقبله الله ويسلك به الصراط المستقيم.

وحجة محتج بتقدير ربه ‏ ‏ ‏ ‏ يزيد عذابًا كاحتجاج مريضة

وذلك لأنه عمل في الحقيقة جرمين بل ثلاثة:

أحدها: فعله للذنب.

ثانيًا: احتجاجه عليه بالقدر، وهو كذب، فإن مضمون الاحتجاج بالقدر يعني أن الله اضطره وألجأه إليه وأكرهه عليه وهو لا يريد الذنب، وهذا كذب صريح، فإن الله مكنه من الترك، بل فتح له كل باب يصده عن الذنب، وقد أبت نفسه الأمارة بالسوء إلا أن توقعه في الذنب، فالملام عليه لا على ربه.

ثالثًا: أنه بهذا الاعتذار يمهد لنفسه الإصرار على الذنوب، والإقامة على ما يسخط علام الغيوب، فإن هذا الاعتذار يهون عليه كل ذنب كما هو مشاهد.

وأما رضانا بالقضاء فإنما ‏ ‏ ‏ ‏ أمرنا بأن نرضى بمثل المصيبة

كسقم وفقر ثم ذل وغربة ‏ ‏ ‏ ‏ وما كان من مؤذ بغير جريمة

فأمّا الأفاعيل التي كرهت لنا ‏ ‏ ‏ ‏ فلا نص يأتي في رضاها بطاعة

وقد قال قوم من أولي العلم لا رضا ‏ ‏ ‏ ‏ بفعل المعاصي والذنوب الكبيرة

فإن إله الخلق لم يرضها لنا ‏ ‏ ‏ ‏ فلا نرتضي مسخوطةً لمشيئة

وقال فريق نرتضي بقضائه ‏ ‏ ‏ ‏ ولا نرتضي المقضي أقبح خصلة

وقال فريق نرتضي بإضافة ‏ ‏ ‏ ‏ إليه وما فينا فنلقى بسخطة

كما أنها للرب خلق وأنها ‏ ‏ ‏ ‏ لمخلوقه كسب كفعل الغريزة

فنرضى من الوجه الذي هو خلقه ‏ ‏ ‏ ‏ ونسخط من وجه اكتساب بحيلة

يعني إذا أورد المورد علينا أنه يجب الرضا بقضاء الله؛ يعني: والمعاصي من قضائه،

فقد أجاب الشيخ بأربعة أجوبة كل واحد منها كافٍ شافٍ، فكيف إذا اجتمعت.

أحدها: أن الذي أمرنا أن نرضى به المصائب دون المعايب، فإذا أصبنا بمرض أو فقر أو فاقة ونحوها من حصول مكروه أو فقد محبوب فيجب علينا الصبر على ذلك.

واختلف في وجوب الرضا، والصحيح استحبابه؛ لأنه لم يثبت وجوب الأمر به على وجه الوجوب، ولتعذره على أكثر النفوس؛ لأن الصبر حبس النفس عن التسخط، واللسان عن الشكوى، والأعضاء عن عملها بمقتضى السخط من نتف الشعر وشق الجيوب وحثو التراب على الرءوس ونحوها، وذلك واجب مقدور.

وأما الرضا الذي هو مع ذلك طمأنينة القلب عند المصيبة، وألا يكون فيه تمنٍّ أنها ما كانت، فهذا صعب جدًّا على أكثر الخلق، فلهذا لم يوجبه الله ولا رسوله، وإنما هو من الدرجات العالية، وهو مأمور به أمر استحباب.

وأما الرضا بالذنوب والمعايب فلم نؤمر بالرضا بها، ولم يأت نص صحيح أو ضعيف في الأمر بها، فأين هذا من ذاك؟!

الجواب الثاني: ما قاله طائفة من أهل العلم أن الله لم يرض لنا أن نكفر ونعصي، فعلينا أن نوافق ربنا في رضاه وسخطه، قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧]. فالدين موافقة ربنا في كراهة الكفر والفسوق والعصيان مع تركها، وموافقته في محبة الشكر والإيمان والطاعة لنا مع فعلها.

الجواب الثالث: أن القضاء غير المقضي فنرضى بالقضاء؛ لأنه فعله تعالى، وأما المقضي الذي هو فعل العبد فينقسم إلى أقسام كثيرة؛ الإيمان والطاعة علينا الرضا بها. والكفر والمعصية لا يحل لنا الرضا بها، بل علينا أن نكرهها، ونفعل الأسباب التي ترفعها؛ من التوبة والاستغفار والحسنات الماحية، وإقامة الحد والتعزير على من فعلها، والمباحات مستوية الطرفين.

الجواب الرابع: أن الشر والمعاصي تختلف إضافتها؛ فهي من الله خلقًا وتقديرًا وتدبيرًا، وهي من العبد فعلًا وتركًا، فحيث أضيفت إلى الله قضاء وقدرًا نرضى بها من هذا الوجه، وحيث أضيفت إلى العبد نسخطها ونسعى بإزالتها بحسب مقدورنا.

فهذه الأجوبة عن الأمر بالرضا بالقضاء قد اتضح أنها لا تدل على شيء من مطلوب المعترض.

ثم قال الشيخ:

ومعصيـــة العبــد المكلف تركه ... لمـــا أمر المولـــى وإن بمشـــيئة

فـــإن إلـــه الخلـــق حـــق مقالـــه ... بـــأن عبادي فـــي جحيـــم وجنة

كمـــا أنهم في هـــذه الدار هكذا ... بل البهـــم في الآلام أيضًا ونعمة

يعني أن معصية العبد تركه لما أمر الله به ورسوله، وإن كان ذلك بمشيئة الله، فالله تعالى شاءه وأراده لما له في ذلك من الحكمة، ولعلمه تعالى أن العبد يفعله باختياره ومراغمته لربه، فلا حجة له في ذلك، وقد أخبر الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]. في دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار؛ إما الجنة أو النار، بل البهائم في الدنيا، منها ما هو منعم، ومنها ما هو مريض أو مصيبه شيء من الآلام، ولذلك كله أسباب وطرق معروفة يحمد المولى بوضعه الأسباب المنوعة مفضية إلى مسبباتها، ولهذا قرر الشيخ هذا المقام بقوله:

وحكمتـــه العليـــا اقتضت مـــا اقتضته من ... فـــروق بعلـــم ثـــم أيْـــدٍ ورحمة

يســـوق أولي التعذيب بالسـبب الذي ... يقـــدره نحـــو العـــذاب بعـــزة

ويهدي أولـــي التنعيـــم نحـــو نعيمهم ... بأعمال صدق في رجاء وخشـــية

وأمـــر إلـــه الخلـــق بيّن مـــا به ... يســـوق أولي التنعيم نحو السعادة

فمن كان من أهل الســعادة أثرت ... أوامـــره فيـــه بتيســـير صنعـــة

ومن كان من أهل الشقاوة لم يُبَلْ **بأمر ولا نهي بتيسير شقوة**

ولا مخرج للعبد عما به قضى **ولكنه مختار حسن وسوأة**

فليس بمجبور عديم إرادة **ولكنه شاء بخلق الإرادة**

يعني أن حكمة الرب العليا اقتضت افتراق العباد بالعلم والجهل والعمل والكسل والنعيم وضده، وذلك بحسب عملهم بالأسباب النافعة أو الأسباب الضارة، فإن الله دعا إلى دار السلام وبيّن طريقها، وأعمال البر الموصلة إليها التي مرجعها إلى ثلاثة أمور؛ تصديق خبر الله ورسوله وامتثال أمر الله وأمر رسوله واجتناب نهيهما، وأمر العباد بسلوكها وأخبر بما لهم عنده من الكرامة، فمن كان من أهل السعادة يسره لعمل أهل السعادة، وحبب إليه الإيمان وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، فسار بحسن طريقه إلى سعادته الأبدية، ومن كان من أهل الشقاوة لم يبال بأمر الله ولا نهيه، بل كذب وتولى، فاستحق العذاب بجرمه وذنوبه، بيّن الله له الهدى وأمره بسلوكه فأدبر وتولى، فولاه الله ما تولى لنفسه ووكله إليها، ومن وُكِلَ إلى نفسه الأمارة بكل سوء، الظالمة الجاهلة فقد هلك، وذلك بما كسبت يداه ليس بمجبور على ذلك ولا مكره ولا مقسور، بل هو مختار مسرف كفور.

فلهذا قال الشيخ:

ومن أعجب الأشياء خلق مشيئة **بها صار مختار الهدى والضلالة**

فقولك هل أختار تركًا لحكمه **كقولك هل أختار ترك مشيئتي**

وأختار لا أختار فعل ضلالة **ولو نلت هذا الترك فزت بتوبة**

وذا ممكن لكنه متوقف **على ما يشاء الله من ذي المشيئة**

يقول الشيخ: إن من أعجب الأشياء أن خلق الله للعبد مشيئة يتمكن بها من كل ما يريد، فيختار بها الهدى إن كان من أهل السعادة، ويختار بها الضلالة إن كان من أهل الشقاوة،

والعبد هو الذي يفعل ويعمل ويكسب من غير مانع له عما يريده، فقولك أيها المعترض عليه: هل أختار ترك حكم الله وقدره؟ مثل قولك: هل أختار ترك مشيئتي؟ يعني: فأنت الذي اخترت أفعال المعاصي، فلو زعمت أنك لا تختار ولا تحب فعل الضلالة والغي، فأنت بين أمرين: إمّا أن تكون كاذبًا، وهو الواقع لكل من يعترض على المعاصي بالقدر، ولكنه يريد بهذا الكلام دفع الشنعة عليه، وقصده معروف، فهو يعرف من نفسه أنه لا يختار ولا يحب أن يترك ما باشره من الكفر والإجرام، فلو فرض وقدر على وجه الإمكان أنه صادق في قوله: إني أختار ألا أختار فعل الضلالة، وكان ذلك من صميم قلبه صادقًا في ذلك، لو كان الأمر كذلك لكان هذا توبة؛ لأن العبد متى كان له إرادة مصممة على فعل ما يحبه الله، وعلى ترك ما يكرهه الله أقبل بهذه الإرادة إلى الخيرات، وانصرف عن السوء والسيئات، وكان توبة له من جميع الموبقات، ولكن من وفق لهذه الحال كان أبعد الناس عن الاحتجاج بالقدر، والوصول إلى هذه الدرجة العالية ممكن في حق كل أحد، ولكنه يتوقف على مشيئة الله وإرادته، ومن لجأ إلى الله وأناب إليه وتضرع له هداه الله وشاء منه أن يفعل ما يحبه ويرضاه، وأشار الشيخ إلى هذا الفرق اللطيف بقوله: على ما يشاء الله من ذي المشيئة.

وذو المشيئة هو العبد، وهذا الفرق اللطيف هو أنه إن شاء تعالى أن يعين عبده على فعل ما يحبه ويرضاه وشاء من عبده ذلك الفعل حصل المطلوب، وفاز العبد بكل مرغوب، وإن لم يشأ تعالى إعانة عبده، بل أمره بالخير وأحب منه أن يفعله ونهاه عن الشر وكره له فعله، ولكن لم يشأ من نفسه إعانته بقي العبد على ما اختاره لنفسه من الإقامة على مساخط الله.

قال الشيخ بعدما أجاب بهذه الأجوبة السديدة والمعارف المفيدة:

فدونك فافهم ما به قد أجبت من ... معـان إذا انحلـت بفهـم غريزة
أشارت إلى أصل يشـير إلى الهدى ... ولـلـه رب الخلق أكمـل مدحتي

أي: دونك هذه الأجوبة لما سألت عنه، سواء كان السؤال سؤال استرشاد أو سؤال اعتراض وعناد، كما هو الظاهر من ألفاظ السائل وفحوى كلامه، وهو الذي فهمه الشيخ، فهذه الأجوبة التي تشير وتبين هذا الأصل وهو أصل القدر، الذي هو أحد أصول الإيمان، وقد بيّن الشيخ في تفاصيل جوابه هذا الأصل بيانًا شافيًا، ووضحه توضيحًا كافيًا، لا تجد هذا التفصيل وهذا التحقيق في كلام غير هذا الإمام العظيم، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين عمومًا وأهل العلم خصوصًا أفضل الجزاء، ورفعه في أعلى درجات الصديقين، ونفع بعلومه جميع المسلمين. آمين.



خاتمة
في ذكر أمثلة منوعة تكشف لك مسألة القضاء والقدر

حيث كان هذا المقام من أهم الأمور، وقد حارت فيه أفهام كثير من الأذكياء، ولم يهتد إلى الصواب المحض كثير من العلماء، وكثير منهم يأخذ مسائله على وجه التقليد غير مقتنع بوجه يجمع فيه بين الإيمان بشمول القضاء والقدر، مع أن العبد هو الفاعل حقيقة لفعله، وهو الممدوح أو الملوم على كسبه، مع أن الشيخ رحمه الله في هذا النظم حقق هذا المقام غاية التحقيق وبيّن الهدى فيه من الضلال حتى وضح الطريق، لكن الأمثلة تزيد البصير بصيرة وتزيل عن الشاك الطالب للحق الريب والحيرة، لهذا نقول في ضرب الأمثلة المتعلقة بهذه المسألة العظيمة:

المثال الأول:

رجل كان مسرفًا على نفسه كثير الجرأة على المعاصي، فقال له صاحبه وهو يناصحه ويحاوره: أما ترتدع عما أنت عليه، أما تتوب إلى ربك وتنيب إليه، أما علمت أن عقابه شديد على العاصين، فقال المسرف: دعني أتمتع فيما أريد، فلو شاء الله لهداني، ولو أراد لي غير ذلك لما أغواني، فقال له الناصح بهذا الاعتذار الكاذب: ازداد جرمك وتضاعف ذنبك، فإن الله لم يغوك، بل الذي أغواك الشيطان، وانقادت له النفس الأمارة بالسوء، حيث قال الشيطان مخاطبًا لربه: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]. فالشيطان دعاك إلى المعاصي فأجبته، والله دعاك إلى الهدى فعصيته، بيّن الله لك السعادة وطرقها، وسهل أسبابها ورغبك فيها، ووضح لك طريق الشقاوة وحذرك من سلوكها واتباع خطوات الشيطان، وأخبرك بما تئول إليه من العذاب

الشديد فرضيت واستبدلت الضلالة بالهدى والشقاوة على السعادة، وجعل لك قدرة وإرادة تختار بهما وتتمكن بهما من كل ما تريد، ولم يلجئك إلى فعل المعاصي ولا منعك من الخير، فسلكت طريق الغي وتركت طريق الرشد، فلا تلم إلا نفسك، أما سمعت ما يقول الداعي لأتباعه يوم القيامة حيث يقوم خطيبًا فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: ٢٢] الآية. فقال المسرف: كيف أستطيع أن أترك ما أنا فيه، والله هو الذي قدره عليَّ، وهل يمكنني الخروج عن قضائه وقدره، فقال له الناصح: نعم يمكنك الخروج من قَدَرِه بقَدرِه، فالتوبة والإقلاع عما أنت فيه، وأنت تعلم علمًا لا تشك فيه من قدر الله، فارفع قدر الله بقدره.

ثم إن قولك: إن المعاصي الواقعة مني من قدر الله، إن أردت أن الله أجبرك عليها وحال بينك وبين الطاعة، فأنت كاذب، وأول من يعلم كذبك نفسك، فإنك تعلم كل العلم أنك لو أردت ترك الذنوب لما فعلتها، ولو أردت إرادة جازمة فعل الواجبات لفعلتها، فلقد أقدمت على المعاصي برغبة منك ومحبة لها وإرادة لا تشك ولا يشك غيرك فيها، وتعلم أن قولك: إنها بقضاء الله وقدره. دفع للوم عنك، فهل تقبل هذا العذر لو ظلمك ظالم أو تجرأ عليك متجرئ، وقال: إني معذور بالقدر فلا تلمني، أما يزيدك كلامه هذا حنقًا، وتعرف أنه متهكم بك، فقال المسرف: بلى هذا الواقع، فقال الناصح: كيف ترضى أن تعامل ربك الذي خلقك وأنعم عليك النعم الكثيرة بما لا ترضى أن يعاملك به الناس.

وإن أردت بقولك أنها بقضاء وقدر، بمعنى أن الله علم مني أني سأقدم عليها وأعطاني قدرة وإرادة أتمكن بهما من فعلها، وأنا الذي فعلت المعاصي بما أعطاني ربي من القوى التي مكنني فيها من المعاصي، وأعلم أنه لم يجبرني ولم يقهرني، وإنما أنا الذي فعلت، وأنا الذي تجرأت فقد رجعت إلى الحق والصواب، واعترفت بأن لله الحجة البالغة على عباده.

المثال الثاني:

رجل جاء لبعض العلماء فقال له: أحب أن ترشدني إلى أمر يطمئن له قلبي وتقتنع به نفسي من جهة القضاء والقدر، فإني لا أشك أن جميع الحوادث بقضاء الله وقدره، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأعلم مع ذلك أن أفعالي كلها باختياري وإرادتي وأنا الذي عملتها، هذا أمر ضروري لا أشك فيه، وأعتقد أنه لا يشك فيه أحد، ولكن أحب طريقة تهديني إلى كيفية الجمع بين الأمرين.

فقال العالم: الجواب المقنع في هذه المسألة أنك إذا علمت أن الله خلقك وخلق أعضاءك الظاهرة وأعضاءك الباطنة، هذا أمر لا تشك فيه ولا يشك فيه مسلم، ومن أعظم الأعضاء الباطنة أن الله جعلك مريدًا لكل ما تحبه، كارهًا لما تبغضه إجمالًا وتفصيلًا، وأن الله أعطاك قدرة توقع بها جميع ما تريد فعله، وتنكف بها عما تريد تركه، فأنت تعترف بذلك ولا تستريب فيه، وتعرف مع ذلك أنك إذا أردت أمرًا من الأمور إرادة جازمة، وأنت تقدر عليه فعلته من دون توقف، حتى إن الأمور المستقبلة التي تريد فعلها إرادة جازمة تقول فيها: سأفعل كذا إن شاء الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]. فإذا اعترفت بذلك كله، يعني اعترفت بأنه تعالى خلقك وخلق قواك الظاهرة والباطنة، ومكنك من كل ما تريد بما أعطاك من قدرة ومشيئة، وأنت الذي تختار وتفعل أو تترك فقد جمعت بين الأصلين؛ الاعتراف بعموم قدر الله، وأن أفعالك كلها من كسبك، وأنه إن وفقك للخير فبفضله وتيسيره، وإن لم يوفقك بل وكلك إلى نفسك فلا تلومن إلا نفسك، ومعرفة هذه المقدمات سهلة بسيطة، وبها يحصل لك الاقتناع التام.

ففعلك داخل في عموم قدرة الله وخلقه؛ لأن خالق السبب التام هو الخالق للمسبب، والسبب التام قدرتك وإرادتك، والله هو الذي خلقهما وأنت الذي تفعل بهما، وإنما الإشكال الذي لا يمكن حله لبطلان أحد أصليه اعتقادك أنك مجبور على أفعالك، فهذا

الذي لا يمكن العبد أن يعترف معه أن الأفعال أفعاله، وهذا يعلم بطلانه بالضرورة كما سبق بيانه، فقال الرجل السائل المسترشد: لقد وضحت المسألة وضوحًا لا أشك فيه، علمت بأن الله خلقني وخلق جميع أوصافي، وخلق الأسباب التي أتمكن بها من الأفعال، وأنا الذي أفعل وأطيع إن ساعدني الله بتوفيقه، وأعصي وأغفل إن وكلني إلى نفسي.

فقال العالم: وأزيدك إيضاحًا وبيانًا لهذا السؤال، قال الله لخيار المؤمنين: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]. فلم يقل: ولكن الله أجبركم على الإيمان إلى آخره، ولكنه لما علم تعالى حالة النفس وأنها ظالمة جاهلة أمارة بالسوء لطف بالمؤمنين، وحبب إلى قلوبهم الإيمان وزينه فيها، فانقادت إلى الخيرات باختيارها لما جعل في قلوبهم من هذه الأوصاف الجليلة، ولما كره إليهم الكفر والفسوق والعصيان انصرفوا عنها لكراهتهم لها، وكان هذا لطفًا وكرمًا منه.

وأما الآخرون فلم يجعل لهم نصيبًا من هذا اللطف فانحرفوا باختيارهم وكانوا هم السبب لأنفسهم، حيث كانت مقاصدهم فاسدة، وحيث عرض عليهم الخير فرفضوه، واعترض لهم الشر والغي فاختاروه فولَّاهم ما تولوا لأنفسهم، واللوم كله عليهم، والحجة البالغة لله على العباد كلهم: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وأزيدك إيضاحًا وبيانًا: ألست تفرق ويفرق كل أحد بين حركة المرتعش بغير اختياره وبين حركة الباطش، والكاتب باختياره وتعلم أن الأخير فعل العبد حقيقة، والأول مقسور عليه وما أشبه ذلك من الحركات التي من هذا النوع، تفرق بين الحركة الاختيارية والحركة الاضطرارية، فمن ألحق أحد القسمين بالآخر وساواه فهو مختل الشعور.

قال الرجل: جزاك الله خيرًا، فلقد أزلت عني كل إشكال، واقتنعت بذلك غاية الاقتناع.

المثال الثالث: قضية الرجل الجبري:

كان رجل قد غلا في الجبر والقدر غلوًّا عظيمًا، فكان يعتذر بالقدر عند كل جليل وحقير

حتى آلت به الحال إلى الاستهتار وانتهاك أصناف المعاصي، وكلما نُصح وليم على أفعاله جعل القدر حجة له في كل أحواله، وكان له صاحب يعذله وينصحه عن هذه المقالة التي تخالف العقل والنقل والحس، ولا يزيده العذل إلا إغراء، وكان صاحبه ينتظر وينتهز الفرصة في إلزامه بأمور تختص به وتتعلق، وكان هذا الجبري صاحب ثروة، له أموال منوعة قد وكل عليها الوكلاء والعملة، فصادف في وقت متقارب أن جاءه صاحب ماشيته فقال: إن الماشية هلكت وتلفت جميعها لأني رعيتها في أرض جدبة، ليس فيها عود أخضر، فقال له: فعلت ذلك وأنت تعلم أن الأرض الفلانية مخصبة فما عذرك في ذلك، فقال: قضاء الله وقدره، وكان ممتلئًا غضبًا قبل ذلك، فزاد غضبه من هذا الكلام واستشاط غضبه وكاد يتقطع من هذا الاعتذار.

وجاءه صاحب البضائع فقال: إني سلكت الطريق المخوف فاقتطع المال قطاع الطريق، فقال له: كيف تسلك هذا الطريق المخوف مع علمك أنه مخوف وتترك الطريق الآمن الذي لا تشك في أمنه، فأجابه بمثل جواب الراعي للماشية وعمل معه الجبري ما عمله مع صاحبه.

ثم جاءه وكيله على تربية أولاده وحفظهم، فقال: إني أمرتهم أن ينزلوا في البئر الفلانية ليتعلموا السباحة فغرقوا، فقال: لِمَ فعلت ذلك وأنت تعلم أنهم لا يحسنون السباحة، والبئر المذكورة تعلم أن ماءها غزير فكيف تتركهم ينزلون فيها وحدهم، وأنت لست معهم؟! فقال: هكذا قضاء الله وقدره. فغضب عليه غضبًا لا يشبه الغضب على الأولين، وكاد الغضب أن يقتله، وكل واحد من هؤلاء الذي وكلهم على ما ذكرنا يزداد غضبه عليه إذا قال له: هذا قضاء الله وقدره.

فحينئذٍ قال له صاحبه: يا عجبًا لك يا فلان، كيف قابلت هؤلاء المذكورين بهذا الغضب البليغ، ولم تعذرهم حين اعتذروا بالقدر، بل زاد هذا الاعتذار في جرمهم عندك، وأنت مع ربك في أحوالك المخجلة قد سلكت مسلكهم وحذوت حذوهم، فإن كان لك عذر فهم

من باب أولى أعذر وأعذر، وإن أعذارهم تشبه التهكم والاستهزاء، فكيف ترضى أن تكون مع ربك هكذا.

فانتبه الجبري حينئذٍ وصحا بعدما كان غارقًا في غلوِّه، وقال: الحمد لله الذي أنقذني مما كنت فيه، وجعل لي موعظة وتذكيرًا من هذه الوقائع التي وقعت لي، ولمست فيها غلطي الفاحش، والآن أعتقد أن ما حصل لي من نعمة الهداية إلى الحق أعظم عندي من هذه المصائب الكبيرة، كما تحقق فيها قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

المثال الرابع: تخاصم القدري مع الجبري:

طال الخصام بين قدري يعتقد أن أفعال العباد لا تتعلق بها مشيئة الله، وبين جبري يعتقد ضد ذلك، وأنهم مجبورون على أفعالهم، واقعة بغير اختيارهم؛ لأنهما متباعدان في طرفي نقيض، فاتفقا على التحاكم إلى عالم من علماء أهل السنة يعرفان كمال معرفته، وكمال دينه.

فقال السني ليعرض كل منكما علي مقالته، ولكما علي أن أدقق الحكم بينكما، وأن أرد ما مع كل واحد من باطل وأثبت ما معه من الحق.

فقال القدري: أنا أقول: إن الله حكم عدل لا يظلم من عباده أحدًا، ومن مقتضى إثباتي لهذا الأصل أنِّي أنزه ربي عن أن تكون الفواحش الواقعة من العباد واقعة بمشيئة الله، بل العبد هو الذي تجرأ عليها، وهو الذي فعلها استقلالًا، وأدلتي على هذا جميع النصوص الدالة على أن الله ليس بظالم لعباده مثقال ذرة، وأنه حكم عدل؛ لأن تعلق مشيئته بأفعالهم، ثم تعذيبهم عليها ظلم من جهتين؛ من جهة إضافتها إلى مشيئته، وظلم من جهة كيف يعذبهم على أمر هو الذي شاءه وقدره، ثم إني لو قلت: إنها واقعة تحت مشيئة الله، لأبطلت بذلك أمر الله ونهيه، بل في ذلك إبطال للشرع، فأنا ما رأيت السلامة من هذا المحذور والمحظور إلا بهذه الطريقة العادلة التي يرتضيها كل عاقل منزه لله.

فقال الجبري: أنا أقول: إن الله على كل شيء قدير، وأنه خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، قضايا لا يمكن لمسلمٍ أن ينكرها ولا ينازع فيها، وهذا عموم لا يخرج عنه حادث، ومن أعظم الحوادث أفعال العباد من طاعات ومعاصٍ وغيرها، فلو أنها خارجة عن قدرة الله ومشيئته لم يكن الله قديرًا على كل شيء، ولا خالقًا لكل شيء، ومقتضى ذلك أن العباد مجبورون على أفعالهم غير مختارين لها؛ لأنهم لو اختاروها وفعلوها حقيقة لخرجت عن مشيئة الله وقدرته، فتعين القول بالجبر، وأنهم مجبورون مقسورون على أفعالهم قد نفذت فيهم مشيئة الله وصرفتهم الإرادة.

وأدلتي على قولي هذا جميع النصوص المثبتة لعموم خلق الله ومشيئته وقدرته، وأني لو قلت: إن العبد فاعل حقيقة لفعله لأخرجت هذا القسم عن مشيئة الله وإرادته.

فقال الحاكم السني: لقد وضح كل واحد منكما مذهبه توضيحًا كاملًا، واستدل كل واحد منكما بأدلة لا يمكن المنازعة فيها لكثرتها ووضوحها، ولكن كل واحد منكما لم ينظر المسألة من جميع نواحيها، بل لحظ جانبًا وعمي عن الجانب الآخر، وكثير من الأغلاط يأتي من هذا السبب، وسأحكم بينكما بحكم يستند على الكتاب والسنة ويستند إلى العقل والفطرة، وسأقنع كل واحد منكما إن كان قصده طلب الحقيقة.

أما أنت أيها القدري فأصبت بقولك: إن أفعال العبيد كلها من كسبهم، وكلها من فعلهم طاعاتها ومعاصيها وغيرها من أفعالهم، وأصبت في استدلالك عليها بأن الله نسبها وأضافها إليهم، وأصبت في تبريك من قول يلزم منه إسقاط الأمر والنهي وهو الجبر، ولكنك أخطأت خطأً كبيرًا، حيث زعمت أن مشيئة الله وقدرته وخلقه لا تعلق لها بأفعال العباد، فنفيت عموم النصوص الدالة على هذا الأصل، وظننت أن إثبات عموم الخلق والمشيئة لله ينافي كون الأفعال الصادرة من العباد تكون باختيارهم ومن كسبهم، وهذا الظن غلط محض، بل المؤمن العارف يجمع بين الأمرين يثبت لله تعالى أنه خالق كل شيء من الأعيان والأوصاف والأفعال، وأنه مع ذلك، الأفعال صادرة منهم حقيقة.

وأما أنت أيها الجبري، فلقد أصبت بإثباتك أن الله على كل شيء قدير، وأنه خالق كل شيء، وأنه ما شاء الله كان، ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن، وأصبت في هذا الاستدلال ولكنك أخطأت خطأ كبيرًا، حيث زعمت أن من لوازم إثبات عموم مشيئة الله أن العبد مجبور على أفعاله، لم تقع بمشيئته، وظننت أن إثبات عموم القدر يقتضي منك أن تقول هذا القول.

ثم قال السني أيضًا لهما: لقد قال كل منكما قولًا ممزوجًا حقه بباطله، وسأحكم بينكما بحكم يتضمن إثبات ما مع كل منكما من حق، وإبطال ما مع[1] كل منكما من باطل، وقد دل على هذا الحكم عدة نصوص، منها قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

فهذه الآية الكريمة حكمت بينكما؛ فإن الله أثبت للعبد مشيئة، بها يفعل ويسلك الصراط المستقيم أو يدعه باختياره ومشيئته، وأخبر أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله غير خارجة عنها، فمشيئة الله عامة لا يخرج عنها شيء، ومع ذلك فالعباد هم الذين يعملون ويطيعون ويعصون، ومع أن هذا هو الذي دلت عليه النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، فهو الذي يدل عليه العقل والواقع والحس، فإن الله خلق العبد وخلق ما فيه من جميع الأوصاف والقوى، ألستما تعترفان بذلك وكل عاقل يعترف به؟ قالا: بلى.

قال السني: فإن من جملة أوصاف العبد التي خلقها الله فيه أنه أعطاه قدرة ومشيئة يتمكن بهما من كل ما يريده من خير وشر وطاعة ومعصية، وبهما تقع طاعاته ومعاصيه، وتعلمان أن العبد متى أراد أمرًا من الأمور التي يقدر عليها فعله بتلك القدرة والإرادة اللتين خلقهما الله فيه، فإذا أوقع العبد بهما فعلًا من أفعاله دخلت تحت عموم قدر الله؛ لأن خالق السبب التام الذي هو قدرة العبد وإرادته خالق للمسبب، يعني لما يصدر عنهما، وكل منكما يعترف أن الله خالق قدرة العبد ومشيئته؛ كما خلق جميع قواه الظاهرة والباطنة.

---

(١) في المطبوع: «مع ما». والتصويب من المخطوط.

فإذا اتفقتما على هذا القول، الذي هو الصواب، بما عرف من دلالة النصوص الشرعية عليه، وأنه هو المعقول المحسوس عاد الأمر إلى الوفاق، فليتبرأ كل منكما من الباطل الذي معه، وليعترف بالحق الذي مع صاحبه؛ ليتبرأ الجبري من اعتقاده أن العبد مجبور مقهور على أفعاله، وليعترف أنها واقعة بكسبه وفعله حقيقة، وليتبرأ القدري من اعتقاده أن أفعاله غير داخلة تحت مشيئة الله، وغير شامل لها خلق الله وقدره، وليعترف بعموم خلق الله وشمول قدره.

والحمد لله الذي بيّن الصواب ووفق من شاء من عباده لاتباعه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

المثال الخامس: في الآجال والأرزاق:

اعلم أن الآجال والأرزاق كسائر الأشياء، مربوطة بقضاء الله وقدره، فالله تعالى ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]. فهذا أمر لا ريب فيه ولا شك، ومع ذلك فهي أيضًا كغيرها لها أسباب دينية وأسباب طبيعية مادية، والأسباب تبع قضاء الله وقدره، ولو كان شيء سابق القضاء والقدر من الأسباب لسبقته العين لقوتها ونفوذها.

فمن الأسباب الدينية لطول العمر وسعة الرزق لزوم التقوى والإحسان إلى الخلق لا سيما الأقارب؛ كما ثبت في **الصحيحين** عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره (أي يطيل عمره) فليصل رحمه**»[1]. وذلك أن الله يجازي العبد من جنس عمله، فمن وصل رحمه وصل الله أجله ورزقه وَصْلًا حقيقيًّا، وضده من قطع رحمه قطعه الله في أجله وفي رزقه، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. ومن الأسباب الدينية لقطع طول العمر البغي، والظلم

(١) تقدم تخريجه ص٨٧٩.

للعباد، فالباغي سريع المصرع، والظالم لا يغفل الله عن عقوبته، وقد يعاقبه عاجلًا بقصم العمر.

ومن الأسباب الدينية لمحق الرزق المعاملات المحرمة كالربا والغش، وأكل أموال الناس بالباطل، فصاحبها يظن بل يجزم أنها توسع عليه الرزق، ولهذا تجرأ عليها، والله تعالى يعامله بنقيض قصده، قال تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. فالمعامل بالربا يمحق صاحبه ويمحق ماله، وإن تمتع به قليلًا فمآله إلى المحق والقل، كما أن المتصدق يفتح الله له من أبواب الرزق ما لا يفتحه على غيره، كما قال النبي ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال**»[1]. بل تزيده ثلاثًا[2]، وكذلك الغش وأكل أموال اليتامى والأوقاف بغير حق من أكبر أسباب المحق، مع ما على صاحبها من الإثم والعقوبة.

ومن أسباب طول العمر وقصره الطبيعية: الصحة والمرض، فالعافية من الأسقام سبب لطول العمر، كما أن الأمراض بأنواعها سبب لقصره، والمسكن والبقعة إذا كانت صحيّة طيبة الهواء صارت من أسباب عافية أهلها وطول أعمارهم، والعكس بالعكس، البقاع الرديئة المناخ والهواء أو البقاع الوبيئة[3] سبب لقصر العمر كما هو مشاهد، والتوقي عن المخاطر والمهالك واستعمال الأسباب الواقية؛ فائدتها في طول العمر ظاهرة، والإلقاء بالنفس إلى التهلكة وسلوك المخاطر وكل أمر فيه خطر سبب ظاهر للهلاك والأمثلة في هذا كثيرة.

ومن الأسباب المادية في حصول الرزق وسعته استعمال المكاسب النافعة، وهي كثيرة متنوعة؛ كل أحد يناسب له منها ما يوافقه ويحسنه ويليق بحاله كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥]. فيدخل في

---

(١) مسند أحمد (٧٢٠٦).

(٢) كذا في المطبوع والمخطوط، وورد في مسند البزار (٩٦٩٧): «...ولكن تزيد فيه».

(٣) البقاع الوبيئة: هي التي كثر فيها الوباء.

هذا العمل جميع الأسباب النافعة، وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. إلى غير ذلك من الآيات.

وكل هذه الأمور تابعة لقضاء الله وقدره، فإن الله تعالى قدر الأمور بأسبابها، فالأسباب والمسببات من قضاء الله وقدره، ولهذا لما قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: «**هي من قدر الله**»[1].

وكذلك الأدعية المتنوعة سبب كبير لحصول المطلوب والسلامة من المرهوب، وقد أمر الله بالدعاء ووعد بالإجابة والدعاء نفسه، والإجابة كلها داخلة في القضاء والقدر.

وقد جمع النبي ﷺ الأمر بالعمل بكل سبب نافع مع الاستعانة بالله، كما ثبت في الصحيح مرفوعًا: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله**»[2]. فهذا أمر بالحرص على الأسباب النافعة في الدين والدنيا مع الاستعانة بالله؛ لأن هذه الاستقامة، وذلك لأن الانحراف من أحد أمور ثلاثة: إما ألا يحرص على الأمور النافعة، بل يكسل عنها وربما اشتغل بضدها أو يشتغل بها ولكن يتوكل على حوله وقوته، وينظر إلى الأسباب ويتعلق جميع قلبه [بها][3] وينقطع عن مسببها، أو لا يشتغل بالأسباب النافعة ويزعم أنه متوكل على الله، فإن التوكل لا يكون إلا بعد العمل بالأسباب، فهذا الحديث بيّن به النبي ﷺ الطرق النافعة للعباد.

ولنقتصر على هذا فإنه يحصل به المقصود والله أعلم، وصلى الله على محمد وسلم.

قال ذلك وكتبه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين، وافق الفراغ منه في ٣ ربيع الأول سنة ١٣٧٦ هـ. وتم نقله من خط المؤلف بيد الفقير إلى مولاه بكل أحواله محمد بن سليمان البسام في ٢٠ شعبان سنة ١٤٢١ هـ.

---

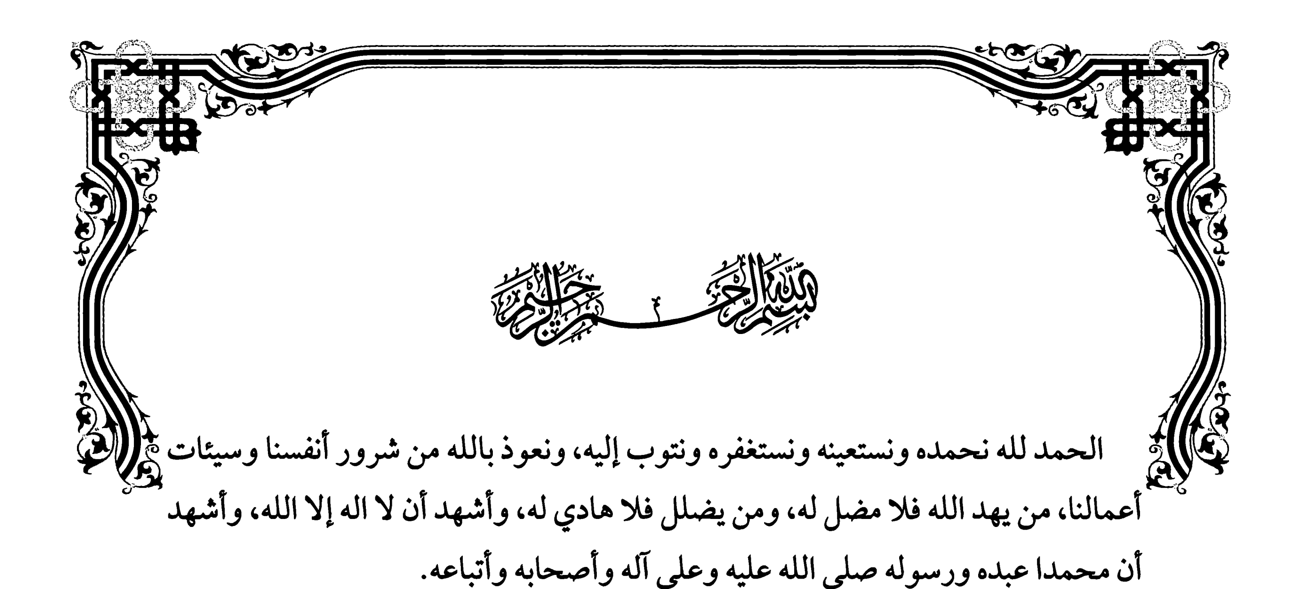
(١) تقدم تخريجه ص٩٢٥. (٢) تقدم تخريجه ص٩٢٧.

(٣) في المطبوع ومخطوطتين للكتاب «به». ولعل المثبت هو الأنسب.

مجموع مؤلفات ابن سعدي (٣٠)

أصول الدين

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله



الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا اله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

أما بعد:

فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقد فسر الله الإسلام في مواضع من كتابه مثل قوله: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢]. ففسره بإسلام الوجه الذي هو انقياد الباطن والظاهر لله، خالصا وهو محسن في هذا الانقياد بأن يكون على الصراط المستقيم، الذي هو طريق الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦]. ففسره بالاعتقادات والإيمان بالله، وما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا وبالإيمان بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله على جميع الرسل، خصوصا ما سمى بهذه الآية الكريمة من صفوة الرسل أهل الشرائع الكبار، وبالخضوع والانقياد لله ظاهرا وباطنا بطاعته وطاعة رسله، وبين تعالى أن هذا هو الهدى، وأنه لا يحصل

الاهتداء بغير هذا الطريق، ولهذا قال: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

فبين تعالى أنه لا يحصل الهدى والاهتداء بغير هذا الطريق كما قال: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٧٣]. وهو الذي هدى به عباده على ألسنة رسله، خصوصا الهدى العظيم التام الذي جاء به خاتم الرسل وإمامهم محمد ﷺ من الحق علما وعملا واعتقادا وسلوكا، وهو الصدق في أخباره النافعة، والعدل في أوامره ونواهيه، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وإذا أردت بيان ذلك والإشارة إليه على وجه التفصيل فإن دين الإسلام أمر العباد أن يؤمنوا بالرب العظيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الذي أحاط بكل شيء رحمة وعلما وقدرة ومشيئة؛ فإنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير ونفذت مشيئته في جميع الموجودات فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وقع كمال قدرته ومشيئته؛ فإنه حكيم في كل ما خلقه من المخلوقات، وحكيم في جميع التصرفات، وحكيم في كل ما شرعه من الشرائع، فما خلق شيئا عبثا بل نفس خلقه صادر عن حكمته، وما أوجده من المخلوقات فإنه مشتمل على غاية الحكمة، وهو الحسن والإتقان والانتظام الذي تشهده الأبصار والبصائر، وتصريف الأمور كلها وتقليبها من حال إلى حال كله على سعته موافق للحكمة والرحمة والمصلحة، وكذلك ما شرعه من الشرائع وحكم به من الأحكام الشرعية بين عباده جميعه أصوله وفروعه وغاياته مشتمل على الحكمة التي لا غاية لها ولا منتهى لكمالها وحسنها.

وكما أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، وله الحكمة في خلقه وأمره وقضائه وشرعه فإن ذلك كله مملوء من رحمته التي من آثارها الخيرات، والبركات وأنواع المنافع، والمصالح الدينية والدنيوية الظاهرة والباطنة، وفيها من النعم والخيرات ما لا يعبر عنه المعبرون، ولا يقدر أن يصفه الواصفون، بل هي نعم لا تعد ولا تحصى ولا يحصي أحد

ثناء عليه: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣]. ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١٨].

وهذا أمر قد اعترف به البر والفاجر؛ ولهذا أخبر الله عن المشركين أنهم يعترفون أن الله هو الخالق وحده، المالك وحده، المدبر وحده المنعم وحده، وإنما يتخذون أوثانهم، ومعبوداتهم يزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى، وإلا فهم يعلمون عجزها وفقرها وغير ذلك من صفات النقص، فإذا علم أن الله تعالى هو الذي له الأسماء العظيمة الحسنى، والصفات الكاملة العليا، وأنه المتفرد بكل كمال وعظمة وجلال، وأنه الخالق الرازق المدبر، ومن سواه مخلوق فقير إليه مدبَّر، وأن جميع النعم والفضل والخيرات والمنافع من الله وحده، وأنه الدافع لكل شر وسوء، فهو الذي يستحق أن يكون هو الإله المألوه وحده ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف: ٨٤]. أي: هو إله أهل السماء وإله أهل الأرض، الذي يعظمه ويحبه ويدعوه أهل السماء والأرض دعاء عبادة ودعاء مسألة، وهذا هو الغاية والمقصود الأعظم من خلق جميع المكلفين ليعرفوه بأسمائه وصفاته وأفعاله، وليعبدوه وحده لا شريك له فيخلصوا له الدين؛ يقومون بالإيمان والإسلام والإحسان على الوجه الذي ينبغي، على وجه الإخلاص والذل لله الواحد القهار، وهذا هو التوحيد الذي دعت إليه جميع الرسل كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فأخبر أنه أوحى إلى جميع رسله أن يعترفوا بإلهيته وحده، وأن يقوموا بعبوديته ظاهرًا وباطنا، وهذه العبودية التي أمر الله بها عباده هي طاعته وطاعة رسوله بتصديق خبر الله ورسوله، وامتثال أمر الله وأمر رسوله، واجتناب نهي الله ورسوله، وذلك هو القيام بحقه تعالى على عباده، وبالقيام بحقوق العباد بحسب حالهم ومراتبهم وذلك كله مبناه على العدل؛ فإن أصل العدل وأساسه عبادة الله وحده لا شريك له؛ فإن توحيده أوجب الواجبات، وأفرض الفرائض شرعا وعقلا، والإخلال بالإخلاص أظلم الظلم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ

لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان: ١٣]. وأي ظلم أعظم من ظلم من تفرد الله بخلقه وتدبيره فعبد سواه، وتفرد بالإحسان إليه وإيصال الفضل إليه بكل سبيل، فصرف شكره لغيره، وإذا كان الشرك أظلم الظلم فما الظن بما هو أفظع من الشرك، وهو الإنكار والإلحاد والاستكبار عن عبادته أو عن الاعتراف به، فكل من لم يؤمن بالله ولم يخلص أعماله لله فهو ظالم على تفاوت في عظمة الظلم وشناعته، وكذلك حكمه وأحكامه بين عباده في المعاملات والحقوق الخاصة والعامة على كثرتها وتبحرها، كل ذلك مبني على العدل الذي تعترف بحسنه وكماله العقول السليمة والفطر المستقيمة ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[المائدة: ٥٠].

وقد ذكر الله أصول العدل والإحسان في أصول الدين وفروعه قال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[الأنعام: ١٥١]. إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[الأنعام: ١٥٣]. وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[الإسراء: ٢٣][1]. إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾[الإسراء: ٣٩].

فتأمل هذه الأوامر الجليلة الجميلة وما فيها من الخيرات وما تضمنته من أداء الحقوق التي هي أفرض الحقوق شرعا، وعقلا، وما نهت عنه من أصناف المحرمات المحتوية على الظلم والشر والضرر والفساد. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]. فقد جمعت هذه الآية الكريمة الأمر بكل عدل وإحسان وخير، وحثت على أداء الحقوق العامة والخاصة، ونهت عن كل منكر وفحشاء في حق الله، وبغي على عباد الله بدمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، وقد جمع الله أيضا أصول العدل في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[الأعراف: ٢٩].

(١) ذكر في المخطوط مكان هذه الآية آية سورة النساء، ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[النساء: ٣٦]. وأثبتنا آية الإسراء لاقتضاء السياق لها.

كما جمع أصول الشر والظلم في الآية الأخرى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وهذه المحرمات في كل شريعة، وكل زمان ومكان؛ لأن الشر والضرر والفساد ملازم لها حيثما كانت، وقال تعالى في بيان أصول البر والتقوى التي هي روح العدل.

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فهذه الآيات الكريمة اشتملت على أصول الشريعة وبيان صدقها وعظمتها وكمالها ومراعاتها للعدل والقسط والمصالح في كل زمان ومكان، وفي كل حالة من الأحوال، وتفاصيل الشريعة كلها تفصيل لما نصت عليه هذه الآيات وذلك أكبر برهان على أنها ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]. عالم بمصالح عباده، رحيم بهم حيث حثهم على ما ينفعهم، وحذرهم عما يضرهم، وأرشدهم إلى كل خير وهدى، ونهاهم عن كل شر وسوء وردى، وهي كلها حق مصدق يعترف أولو الألباب بها، وتخضع العقول الصحيحة لها، ويعلم أن كل ما ناقضها وخالفها فإنه شر وغي وضلال ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس: ٣٢]. ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦]. فأخبر أن الذين أوتوا العلم الحقيقي هم الذين يرون ويعترفون أن الذي أنزل على محمد ﷺ هو الحق في ذاته وأوصافه، وأنه يهدي إلى الصراط المستقيم الموصل إلى الله العزيز الحميد، يعني: ويرون أن ما خالفه وناقضه هو الباطل في ذاته وأوصافه، وما يوصل إليه من غي وضلال، وجهل وشر، فهو تعالى الحق ودينه حق ووعده حق وقوله حق وما خالف ذلك باطل.

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾[الحج: ٦٢]. ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾[الروم: ٦٠]. ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: ٤]. ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢]. ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧]. والحق هو الصلاح وبه الصلاح المطلق، وضده هو الفساد.

قال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

فأخبر أن الحق لو كان تابعا لأهواء كل مخالف للرسول لحصل منه الفساد العام والضرر العظيم؛ فكل شريعة وقانون وسياسة للمخلوق تنافي ما جاء به الرسول؛ فإن شرها مستطير، وضررها كبير، والتجربة والمشاهدة أكبر شاهد على ذلك، وحيث كان الحق وصف الدين اللازم الملازم قاوم كل ما عارضه من جيوش الباطل المتكاثرة الجبارة، فصمد لها وقاومها وأبطلها ومحقها، وهو لا يزال - ولله الحمد - في كل وقت مستعد لمقاومات المعتدين ومنازلة الظالمين وتحدي كل معتد كفار أثيم. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]. ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

فانظر إلى حالة النبي ﷺ، وما عانى من مقاومات المبطلين، وكيف أيده الله بالحق على جميع طوائف الظالمين مع حنقهم وتكالبهم وتناصرهم على باطلهم حتى خرج منتصرا بالحق الذي أيده الله.

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) ﴾ [الأنفال: ٢٦]. ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

ثم تأمل ما قام به الخلفاء الراشدون ومن معهم من الصحابة الأخيار، ومن بعدهم من الملوك العادلين، وكيف فتحوا القلوب بالعلم والإيمان، وفتحوا الأمصار، والحق معهم ملازم لهم والنصر من الله مؤيدهم، ولم يزل الدين الإسلامي قد خضع له أهل المشارق والمغارب، وقد تقبلوه وقبلوه بما فيه من العدل والرحمة والخير الذي لا يوجد في غيره، فلما تحللوا بعد ذلك عن هذا الدين الحق شيئا فشيئا تقلص عزهم، وسلطت عليهم الأعداء من كل مكان، وهو مع كثرة الأعداء وشدة حنقهم واتفاقهم على محقه وإبطاله، ومع قلة أهله الحقيقيين ووقوع التخاذل بين المنتسبين إليه - مع ذلك لم يزل - ولله الحمد - قائم الأصول، محفوظا بحفظ الله، مقاوما كل جيش يغزوه من أصناف الكفار المحاربين المعلنين محاربته، ومن الزنادقة المنافقين الملحدين الذين يظهرون إلحادهم، والذين يخفونه ويعملون في الباطن على القضاء عليه، ولكنهم في كل وقت مخذولون يبدون المقاومات المتنوعة فيظهر للخلق باطلهم وإلحادهم ومكرهم، ولا يروج باطلهم إلا على من لا بصيرة له ولا حق معه، ولما علموا بذلك وعرفوا أنه ليس في إمكانهم مقاومة الحق سعوا في إضعاف الحق من قلوب من ينتسب إليه، ففتحوا المدارس التي تحت سيطرتهم، وطردوا عنها علوم الدين أو جعلوه اسما بلا مسمى ليتمكنوا من بذر باطلهم في قلوب المتعلمين فيها، الذين ليس عندهم علم بالحق يقاوم مكر هؤلاء وخداعهم، وكان هذا من أكبر النكبات التي أصيب بها المسلمون، ومن أكبر السلاح لأعداء الإسلام؛ حتى صار الخريج منها قد تسلح بسلاح أعداء الإسلام، وصار أكبر عون على من ينتسب إليهم دينا وقومية ووطنا، ففضل دين الأجانب الأعداء وقوميتهم ووطنيتهم على دينه وقومه ووطنه فزال دينه وفسدت أخلاقه وذهبت مروءته وإنسانيته، فيتعين على كل أحد السعي في إصلاح التعليم، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتعاليم الدينية ومراعاة الأخلاق والمحافظة على المتعلمين وملاحظتهم؛ فإن إصلاح التعليم هو السبب الوحيد لحفظ الدين، ومقاومة كل شر وفساد، وسبب لصلاح الأمور كلها. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾[التحريم: ٦].

وذلك بالتعليم والإلزام بالحق علما وعملا؛ فمن أهمل أولاده ومن [يقوم][1] عليهم مما هو مسترعى عليه فقد عصى أمر الله وأمر رسوله، وعرضهم للعقوبات، فكيف إذا أهملهم عن التعاليم النافعة، والآداب الصالحة، وأشغلهم بضدها من التعاليم الضارة؟ فما أعظم خسارة من خسر أولاده، بل ما أعظم حسرة من كان أولاده الذين كان يرجو نفعهم، بإهماله إياهم، وتوجيههم للعلوم الضارة، قد صاروا أعظم نكبة عليه وخسر دينه ودنياه.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[2]. وذلك بالتعاليم المنحرفة، وهذه المدارس الإلحادية تخرج الناشئين فيها من الأديان كلها؛ لأن هذا هو الغرض المقصود بها، ولأنها تلقي في أذهانهم قاعدة من أخبث أو أخبث أصول الإلحاد وهي أن العلم الحقيقي عندهم ما يدرك بالحواس فقط، وما لم يدرك بالحواس فليس عندهم بعلم، ولا يعد من الحقائق الصحيحة، وهذه القاعدة الخبيثة خالفوا فيها جميع الأديان الصحيحة، بل خالفوا فيها جميع العقلاء؛ فإن مدارك العلم كثيرة متنوعة؛ مدركات الحس ومدركات العقل ومدركات الأخبار الصحيحة، والنوعان الأخيران مدركاتهما أعظم وأكمل وأوسع، فإذا نفيت لم يبق إلا المدركات التي تدرك بالحس وهي دائرة ضيقة توقع أهلها في المهالك، فأعظم آثارها وأبطلها إنكار علوم الغيب كلها، وهو إنكار جميع ما أخبرت به الرسل، والكتب المنزلة من السماء من توحيد الله، وتفرده بصفات الكمال، وتوحده بالخلق والتدبير، وإنكار البعث والجزاء في الدار الآخرة، وإنكار الملائكة والجن، وجميع ما أخبر الله به وأخبرت به الرسل من أنباء الغيب الواسعة المنتشرة التي قامت البراهين المتنوعة على حقها وصدقها وعدم الريب فيها، فأنكرها هؤلاء الملحدون كما أنكرها أسلافهم الدهريون الذين قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

---

(١) في الأصل: (يقول) ولعل المثبت أنسب للسياق.

(٢) البخاري (١٣٨٥).

وقد علم أن آيات التوحيد، وآيات البعث، وآيات صدق الرسل والبراهين الدالة على ذلك التي لا يمكن إحصاؤها كلها - تبطل قول هؤلاء الملحدين، وتخبر أنهم كما خرجوا من الدين خرجوا من العقل الصحيح، وخالفوا فطرة الله التي فطر الله عباده عليها، فجميع ما أخبر الله به في كتبه وعلى ألسنة رسله من أمور الغيب التي هي أعلى أنواع الصدق - أنكرها هؤلاء الملاحدة.

ومن المعلوم عند العقلاء المعتبرين أن من لم يؤمن بذلك الحق المبين الذي قامت الأدلة والبراهين بصدقه وحقيقته ويقينه لم يكن عنده علم وحق يؤمن به ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٦ - ٨].

وقد تحدت الرسل عليهم الصلاة والسلام جميع من كذبهم أن يعارضوا ما جاءوا به من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، فظهر عجز المكذبين، وبانت مكابرتهم، وأنهم ليسوا على شيء، وأنهم كانوا كاذبين، وقد تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وأخبر أنهم ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. والتحدي قائم منذ نزل القرآن وإلى أن تقوم الساعة، وعجز المعارضين المكذبين قد ظهر لكل أحد، وهذا من أعظم البراهين الموجبة لتصديق جميع ما أخبر به من علوم الغيب والشهادة.

كما أن من أعظم البراهين أحكام هذا الدين، وصدق ما جاء به من الأخبار عن الأولين والآخرين، وعن جميع أمور الغيب، وأنه لم يأت ولن يأتي علم صحيح لا محسوس ولا معقول ينقض خبرا من أخباره، كما أن أحكامه أعدل الأحكام وأهداها وأقومها، وبها الصلاح المطلق في كل زمان ومكان، وقد بان لكل عاقل أن الأمور العامة، والخاصة لا يمكن صلاحها واستقامتها واعتدالها حتى تطبق على أحكام الله بين عباده ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. ولا ينكر هذا ولا يكابر فيه إلا أحد رجلين؛ إما معاند مكابر ينكر الحقائق الواضحة والبراهين الساطعة، وإما ضال جاهل من أعظم

الضالين، فالعناد والضلال لا يستغرب على صاحبهما إنكار أعظم آيات الله، وأعظم البراهين والمعجزات الدالة على صدق الرسل وحقية ما جاءوا به فهؤلاء داخلون في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ الآيات [غافر: ٧٠، ٧١]. فهم كذبوا بجميع آيات الله التي هي أبين الآيات وأعظمها وأوضحها، وبما أرسل الله به رسله من الحق النافع والصدق.

فصل

وحيث كان الملحدون المكذبون بآيات الله، وبما أرسل به رسله قد علموا أنه متى تقابل ما جاءت به الرسل من الحق مع باطلهم لم يكن لباطلهم أدنى ثبوت بل اضمحل كما قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨]. فحيث علموا بهذا الأمر مكروا مكرا كبارا، ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ [إبراهيم: ٤٦، ٤٧]. الذي من جملته ظهور الحق على الباطل وانتصاره في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، فمن أعظم مكرهم ما أشرت إليه سابقا بإضعاف علوم الدين أو منعها من مدارسهم. ومنها أنهم قالوا: يجب أن تكون الأفكار حرة وألا تتقيد بشيء من القيود؛ وذلك لقصد التحلل عما جاءت به الرسل والأديان الصحيحة؛ لأنهم إذا زعموا أن لكل أحد فكره، وأنه مهما خطر بباله من الأفكار، والعقائد الهدامة فله أن يبوح بها، ويدعو إليها، وألا يعارضها بعقيدة صحيحة ولا فاسدة - كان مضمون هذا وجوب التحلل عن الأديان، وعدم التقيد بها، وهذا هو الإلحاد والزندقة، وهؤلاء أعظم جرما وأشد طغيانا من إخوانهم السابقين الذين ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. فأولئك معهم نوع اعتراف بالله صحبه الاستكبار عن الانقياد للرسل، وأما هؤلاء فقلوبهم منكرة للحق الذي جاءت به

الرسل وهم مستكبرون عن الانقياد لرسل الله وكتبه، بل مستكبرون عن الإيمان بالله، ومن المعلوم الذي لا يتمارى فيه العقلاء أن إطلاق الحرية للأفكار، وعدم تقيدها بالحق الثابت الذي قامت البراهين على صدقه وحقيته هو الكفر بالرسل، وهو الفوضى، الذي يؤدي بأهله إلى الهلاك الدنيوي قبل الهلاك الأخروي، ففوضوية الأفكار هي فوضوية الأفعال فعلى ذلك فليفعل كل أحد ما أراد من فسق وفجور وتهتك، وليطلق لحريته ما شاءت نفسه الأمارة بالسوء من فحشاء ومنكر وبغي، لا يتقيد بشريعة ولا بمروءة ولا بإنسانية، بل ينتقل من طور الإنسانية إلى طور البهائم، بل إلى طور الشياطين وهذا ما أرادوه، وهذا ما وصلوا إليه؛ المتوغلون منهم والباقون يسعون خلفهم، ثم إنه من المعلوم أن حرية الأفكار وإعطاء كل أحد أن يتكلم بما يريد ويشتهي، والإرادات متباينة، والأغراض مختلفة - أن في هذا هلاك الحكومات والشعوب، فالخلق في غاية الضرورة إلى ضابط يضبطهم، وإلى قوانين صارمة قوية تحجزهم عن الشرور المتنوعة، ومتى أعطوا حريتهم مرجت أقوالهم، واختلت أعمالهم، وتباينت أفعالهم فوقعوا في الفوضى المهلكة، والشرور القاتلة، والأمم التي تعمل على هذا هي ساعية في طريق هلاكها الدنيوي قبل الهلاك الأخروي.

فالأفكار الصحيحة هي الأفكار السليمة المتقيدة بالحق التي غايتها الحق وسيرها مع الحق، وهي الأفكار التي دعا الله عباده إلى التفكير فيها في آياته المتلوة وآياته المشهودة؛ ليعرف الحق ويعمل بالحق، وذلك هو الصلاح للظاهر والباطن، وحيث قد علم أهل العلم والهدى والرشد أن ما جاء به الرسول هو الحق، وهو الذي يهدي إلى كل خير كان الواجب المتعين والفرض الأكيد التقيد بهذا الحق علما وإرادة وعملا، فتكون الأفكار حائمة حول هذا الحق المبين لاستخراج علومه ومعارفه النافعة، وحول إرشاداته ومواعظه لسلوك الصراط المستقيم.

وهذا التقيد الذي هو أفرض الفروض على المكلفين هو ينبوع العلم وأصل الخير، ومدار صلاح الدين والدنيا عليه، وهو المانع من الفوضى، ومن الانطلاق في الهلاك، فيتقيد العبد

بهذا الحق، ولا يتقيد بأي قول يعارضه، ولا بأي عمل ينافيه ولو صدر من أكابر الناس؛ لأن ما سوى الرسول ﷺ غير معصوم، وأما ما جاء به الكتاب والسنة من الحقائق في الأصول والفروع فهو محكم معصوم يدل على كمال اليقين العلمي واليقين العملي ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢]. ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧]. ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: ٤]. ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]. ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الجاثية: ٦].

وإذا أردت أن تعرف الفرق العظيم بين من يدعو إلى تحرير الأفكار من كل القيود، وبين من يلتزم الحق الذي جاءت به الرسل ولا يبالي بمن خالف ذلك، وبين من يلتزم العمل بالحق، وبين من يمشي بعمله مع غريزته ودواعي نفسه- فاضرب لذلك مثلين:

أحدهما: من قلبه خال من التزام الحق والعمل به، وهو يجري في أعماله وأقواله على مقتضى ما تدعوه إليه نفسه من الإرادات المتنوعة؛ فإنه لا يبالي بالظلم والبغي والفحشاء والمنكر؛ فإن النفس أمارة بالسوء فمن أطاعها طاعة عمياء قادته إلى الهلاك والخسار، تجد مثل هذا أفكاره متضاربة ونظرياته متناقضة وعلومه غير صحيحة، فهو في أمر مريج؛ في فكره وسعيه وعمله وجميع تصرفاته.

والثاني: من الرجلين رجل عرف الحق والتزمه، وعرف أن ما جاءت به الرسل حق، وأن الكتاب القرآن وسنة محمد ﷺ جاءا بكل علم صحيح، وبكل حق وصدق، وبكل هدى ورشاد، وبكل خير عاجل وآجل؛ فحصر أفكاره في هذا الميدان الجليل، واستخرج من كنوز الكتاب والسنة كل حق وهدى ورشد، وتحلت نفسه بكل خلق جميل يدعو إليه الشرع، وتخلت عن كل خلق رذيل؛ فصار عارفا بالحق، عاملا بالحق فهذا لا تسأل عما يحصل له من المعارف الجليلة، والعلوم اليقينية، والأخلاق الجميلة، والسير في جميع تصرفاته على العدل الذي هو الصراط المستقيم فهل يستوي هذا وذاك؟ ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ

﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]. فالأول ضال غاو ساع إلى الهلاك والخسران، والثاني مهتد عالم بالحق، عامل به يسعى إلى كل خير وبر وكرامة.

والمقصود أن الملحدين والمغتر بهم أبدوا وأعادوا في الدعوة إلى حرية الأفكار، والغرض من هذا: التحلل من أديان الرسل، ومن الأخلاق الجميلة؛ لتنطلق النفوس فيما شاءت فتكون البهائم أحسن حالا منها، والعقول والأفكار متفاوتة في إدراكها، وفي مقاصدها وفي غاياتها كالإرادات، بل الإرادات تبع الأفكار، ولو أنهم قيدوا أفكارهم بالحق الذي جاءت به الرسل وإراداتهم باتباع ما نزل الله - لكان خيرا لهم وأقوم.

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩]. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به**»[١]. فمن كان هواه تبعا لما جاء به الرسول لا يزيغ عنه فهو المؤمن الحقيقي، وهو الذي قد هدي للتي هي أقوم في علومه ومعارفه وأخلاقه، وهو الذي أطمأنت نفسه إلى الصدق والحق، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة[٢] والباطل صاحبه في أمر مريج.

فصل[٣]

ومما روج به الملحدون باطلهم وعلومهم المخالفة للدين أنهم زخرفوا لها العبارات فسموها تجديدا ورقيًّا وتقدما ونحوها من الأسماء التي يغرر بها ويغتر بها من لا بصيرة

(١) السنة لابن أبي عاصم (١٥).
(٢) مشكل الآثار (٢١٤٠).
(٣) هذا الفصل موجود بنصه في كتاب (الدلائل القرآنية في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي).

له، وسموا الحق الذي جاءت به الرسل جمودا ورجعية ورجوعا إلى الوراء وتخديرا كما قال تعالى عن أسلافهم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢، ١١٣].

فأخبر تعالى أن هذا دأب أعداء الرسل في كل زمان أنهم يزخرفون العبارات لتحسين باطلهم وتقبيح ما جاءت به الرسل، وأنهم يتواصون بذلك، ويفترون على الله الكذب، وأنه يغتر به من لا علم له ولا بصيرة ولا إيمان، فهؤلاء أخذوا كل ما افتراه الأولون من أسلافهم المكذبين، وزادوا زيادات، كم اصطادوا فيها من ضعفاء البصائر.

وليس ما جاءت به الرسل جمودا ولا رجوعا إلى الوراء وإنما هو الحق والنور والحياة والرشد الذي لا حياة للوجود ولا للقلوب إلا به، ولا نور إلا باقتباس نوره، وهو الموقظ للهمم والعزائم إلى كل خصلة حميدة، وإلى كل رقي صحيح وتقدم نافع؛ فإن من أصول الشريعة الكبرى العمل بالأسباب النافعة، والحث على كل عمل ومصلحة، والاستعانة بالله في تحقيق ذلك، ومن المعلوم أن من تحقق بهذين الوصفين؛ بذل المجهود والاستعانة بالمعبود فإنه لا يزال في تقدم مطرد في إصلاح الدين وإصلاح الدنيا المعينة على الدين. في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**»[1]. وهذا شامل للأمر بالحرص على ما ينفع في العاجل والآجل، وكم في كتاب الله من الأمر بالأعمال الصالحة النافعة، والأمر بالاستعانة بالله التي هي روح الأعمال، وبها قوامها؛ فإن من استعان بالله كفاه وأعانه وقواه وأيده بروح منه ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣].

(١) مسلم (٢٦٦٤).

وقال تعالى في الأمر بالصبر على الجهاد ومقاومة الأعداء والترغيب في ثواب ذلك ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]. فهذا الأمر بملازمة الصبر على كل عمل نافع، والبشارة لهم بمعية الله ومعونته.

وأما العلوم المادية الخالية من روح الدين وروحه فإنها تقدم إلى الهلاك والدمار، وتقدم إلى هدم كل خلق جميل والاتصاف بكل خلق رذيل، والمشاهدة والحس أكبر شاهد على هذا، وذلك أنه من الممتنع المحال أن يحصل التقدم الصحيح إلا إذا صحبه الدين الصحيح الملازم للحق؛ فإن الباطل وإن كان له نوع صولة فآخره الزوال والاضمحلال، ومنتهاه الخسار والهلاك والتبار[1].

فعند هؤلاء الملحدين أن التجديد والرقي هو الاندماج في معنوية الأجانب أعداء الأديان كلها، وزوال شخصياتهم في شخصيات أولئك، والتشبه بهم في أخلاقهم ولباسهم وعوائدهم الدقيقة والجليلة، «ومن تشبه بقوم فهو منهم»[2]. فيرون البقاء على أخلاق دينهم وقومهم التي هي الأخلاق العالية - يرون البقاء عليها جمودا، والانحلال عنها هو الرقي؛ فاستبدلوا الأدنى الخسيس بالأعلى الكامل النفيس فصاروا مع أعدائهم في ظاهرهم وباطنهم، وصاروا بذلك أكبر سلاح للأعداء على دينهم وقومهم، وبهذه الحال تنحل معنوياتهم، ويندمجون في غيرهم في كل شيء وهذا أبلغ ما يريده الأعداء من المتسمين بالإسلام.

---

(١) التبار: (الهلاك). لسان العرب، مادة (ت ب ر).

(٢) أحمد (٥١١٤)، أبو داود (٤٠٣١).

فصل[1]

ومما يروج به المنحرفون باطلهم لهجهم الشديد بالثقافة العصرية زاعمين أن الأخلاق لا تتهذب ولا تتعدل إلا بها، ويطنبون في مدحها والثناء عليها ومدح المتصفين بها، وذم من لم تكن له هذه الثقافة، والسخرية منه وهم يفسرونها تفاسير متباينة منحرفة؛ كل يتكلم بما يخطر له، لأن العلوم إذا كانت فوضى والأخلاق تتبعها هكذا يكون أهلها لا يتفقون في نظرياتهم وأعمالهم وأخلاقهم، ولا يمكننا شرح ما يقولونه عن هذه الثقافة المنحرفة، ولكنه قد علم أهل العلم والحجا وأهل العقول الراقية أن الثقافة التي يلهجون بها هبوط أخلاق، وذهاب المعنويات الصحيحة والزهو والعجب والكبر الذي هو أكبر داء يبتلى به العبد، وإنما الثقافة الصحيحة والتهذيب النافع هو ما جاء به الدين الإسلامي، فإنه محال أن تتهذب النفوس وتكتسب الفضائل بعلوم المادة المحضة وأعمالها، والمشاهدة أكبر شاهد على ذلك، فإنها مع تطورها وتبحرها عجزت كل العجز عن إصلاح الأخلاق واكتسابها الفضائل، وعجزت عن ترفعها عن الرذائل، وإنما الذي يتكفل بهذا الإصلاح ويتولى هذا التهذيب الصحيح، ويوجه الأفكار إلى العلوم الصادقة والأعمال إلى الخير والهدى والصلاح، ويزجرها عن كل شر - هو ما جاء به الدين الإسلامي، فهو مصلح للظاهر والباطن، للعقائد والأخلاق والأعمال، حاث على كل فضيلة، زاجر عن كل رذيلة، فروح ما دعا إليه الدين الإسلامي الإيمان بالغيب؛ المتضمن للإيمان بالله العظيم، وما له من الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا، والأفعال الحميدة، والتصاريف السديدة، ويتضمن الإيمان بالجزاء العاجل والآجل عن الأعمال الصالحة، والأعمال السيئة التي لا يعرف تفاصيلها إلا من جهة الرسل،

(١) هذا الفصل موجود بنصه في كتاب (الدلائل القرآنية في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي).

وهي التي تزرع في القلوب الرغبة في فعل الفضائل والخيرات، والتنافس في اكتساب الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى الخلق، وتزرع فيها كراهة الشرور والرذائل، وهي التي يكون لها التأثير العظيم في إصلاح الأفراد والجماعة، قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

فهو الذي يوجه الأفكار والإرادات والأعمال إلى كل خير، ويزجرها عن كل ضرر، ويأمرها بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهاها عن الفحشاء والمنكر والبغي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم.

وأما علوم المادة المحضة فإنها جافة لا تنهض بأصحابها إلى مكرمة، ولا تزجرهم عن منكر وسوء، وإنما نفوسهم آلية محضة أخس من نفوس السباع الضارية، لا تسعى إلا إلى أغراضها مهما كانت - فكم بين قلب مملوء من الإيمان بالله ومن الرغبة في ثوابه ورضاه والخشية من سخطه وعقابه، وأخلاقه أكمل الأخلاق وأفضلها قد أثر هذا الإيمان وتوابعه في توجهه وتوجيهه وسعيه فكانت أعماله صالحة، وكان مخلصا لله ومؤديا لحقوق عباده يرعى العهود والأمانات، ويحترم الحقوق والمعاملات، قد اطمأن كل أحد في ثقته وأمانته وقيامه بما عليه من الحقوق - كم بين هذا وبين من هو بضده ليس في قلبه من الإيمان مثقال ذرة ولا رغبة في الخير ورهبة من الشر لا يرعى العهود والأمانات، ولا يطمئن إلى ثقته كل من علمه وخبر حاله، ولا عنده خشية لله تردعه عن المحرمات والخيانات، قد هبطت به أخلاقه إلى أسفل سافلين، ثقافته وهمته مصروفة إلى تنميق بدنه وشعره، وتجميل لباسه وهيئته وكلامه، وليس وراء هذا شيء إلا العار والدمار؛ لما هو عليه من الأخلاق الهدامة لأحواله ولمن يتصل به، فبين هذا وهذا كما بين السماء والأرض، وهذا الفرق العظيم عائد إلى الاتصاف بالثقافة العصرية الجافة، أو الثقافة الدينية التي روحها الرحمة والعدل والقسط والأمانة والوفاء بالحقوق.

فأعظم نعمة ينعم الله بها على العبد أن يكون عنده بصيرة يبصر بها الأشياء على ما هي عليه، فيعرف الحق ويعمل به، ويعرف الباطل فيدعه، والله هو الموفق وحده، ولا تنظر إلى من تسمى بالإسلام ونبذ أخلاقه وراء ظهره، وتحتج به على الإسلام والمسلمين في صفته وجموده وهبوط أخلاقه؛ فإن الإسلام والمسلمين الحقيقيين يتبرءون ممن هذه حاله وإن تسمى بالإسلام، وليس له منه إلا رسمه؛ فإن الدين الإسلامي دين الرفعة والعزة والرقي الصحيح، فتعاليمه وإرشاداته وأخلاقه وأعماله كلها في غاية الإحكام والانتظام، وهي الغاية في توجيه المتصفين بها إلى كل خير وصلاح وإصلاح؛ كما هو معروف عند كل أحد ما كان عليه المسلمون الأولون من الكمال والقيام بجميع المقومات الدينية والدنيوية، وبهم يضرب المثل في الكمال الإنساني الذي ليس له نظير، فمن أراد أن يعرف تأثيرات الدين الجميلة فلينظر إلى هؤلاء، وأما من أراد المكابرة والتغرير، فله نظر غير هذا، والله المستعان.

فصل

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

أخبر تعالى في هذه الآيات وغيرها أن المكذبين بالرسول والجاحدين لآيات الله إنما حملهم على ذلك الكبر الذي في صدورهم واحتقارهم واستهزاؤهم بما جاءتهم به الرسل وفرحهم بعلومهم المنافية لعلوم الرسل. ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

وهذا الذي ذكره الله هو أفظع وأشنع آثار الكبر الذي هو شر الأخلاق، الذي من في قلبه مثقال حبة منه لا يدخل الجنة[1]، وهكذا خلف هؤلاء السلف الطالح؛ فإنهم قد اتفقت كلمة سفهائهم ومعانديهم أنهم لا يؤمنون، ولا ينقادون إلا لما دخل تحت حواسهم وتجاربهم، ونظرياتهم وما سوى ذلك أنكروه وقالوا: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾[الأنعام: ١٢٤].

وقد علم عقلا وشرعا وفطرة أن العلوم والحقائق التي لا تدخل تحت الحواس، وتدرك بالعلوم التي جاءت بها الرسل، وبالعقول والفطر السليمة - قد علم أنها أكمل العلوم وأقواها وأنفعها، فهم جحدوها رأسا إلا ما أحاطت به معارفهم الضئيلة مما يدخل تحت الحواس؛ فلو فرض الفرض المحال أن جميع العلوم المدركة بالحواس قد أحاطوا بها لكانت ضئيلة جدا بالنسبة إلى علوم الرسل ومدركات العقول، فكيف وما أدركوه من علوم الطبيعة والكون قليل بالنسبة إلى ما لم يعرفوه وهم معترفون بذلك، ولا يزالون يحدثون نظريات وتجارب يحكمون عليها ثم بعد ذلك يتبن لهم أخطاؤها، ويستأنفون غيرها، وهكذا فإذا كان هذا قصورهم وتقصيرهم في علوم المادة التي إنما تكبروا وافتخروا بعلمها فكيف بالعلوم العظيمة التي لم يشموا رائحتها؛ علوم الشرع وأصوله وفروعه، وعلوم الغيب وتفاصيل ما أخبر الله به وأخبرت به رسله؟! قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ الآية [فصلت: ٥٣].

فقد أرى الله عباده في هذه الأوقات من مخترعاتهم، ومما عملته أيديهم من الخوارق والآيات ما يزداد به المؤمن إيمانا، وتقوم به الحجة على المعاند المكابر.

فهذه الكهرباء وما نتج عنها من الأعمال العظيمة المعروفة، وهي من أعمال البشر الذي علم الله الإنسان ما لم يعلم، فقبل أن يشاهدوها لو قيل لهم عن بعض أعمالها: إنها ستكون

(١) مسلم (٩١).

وتقع لبادروا بالإنكار كما بادر أسلافهم من المكذبين للنبي ﷺ حين حدثهم بالإسراء والمعراج، مع أنها من آيات الرسل وخوارقهم التي لا تزال يشاهد نظيرها أو ما يقاربها، فإذا كانوا يجحدون لما لم يحيطوا به علما، وقد حدث من المخترعات البشرية ما يكذبهم، ويبطل الأصل الذي به يحتجون مع أن هذه الخوارق من صنع الآدميين، والله هو الذي علمهم إياها، فكيف ينكرون ما أخبر الله به وأخبرت به الرسل من أمور الغيب؟ إذ لم تدخل تحت مداركهم ومعلوماتهم، وعجزت عقولهم عن إدراكها، وهذه الحالة هي دأب الأمم المكذبين للرسل إذا أخبرتهم الرسل بما لم يعرفوه أنكروه وجحدوه واستكبروا عنه. ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [يونس: ٣٩]. ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ [سبأ: ٧، ٨].

وهل أعظم شقاء وضلالا ممن ينكر قدرة الخلاق العليم، وهو يشاهد من آياته في الآفاق والأنفس أمورًا كثيرة تبطل حجته، وتزهق باطله: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

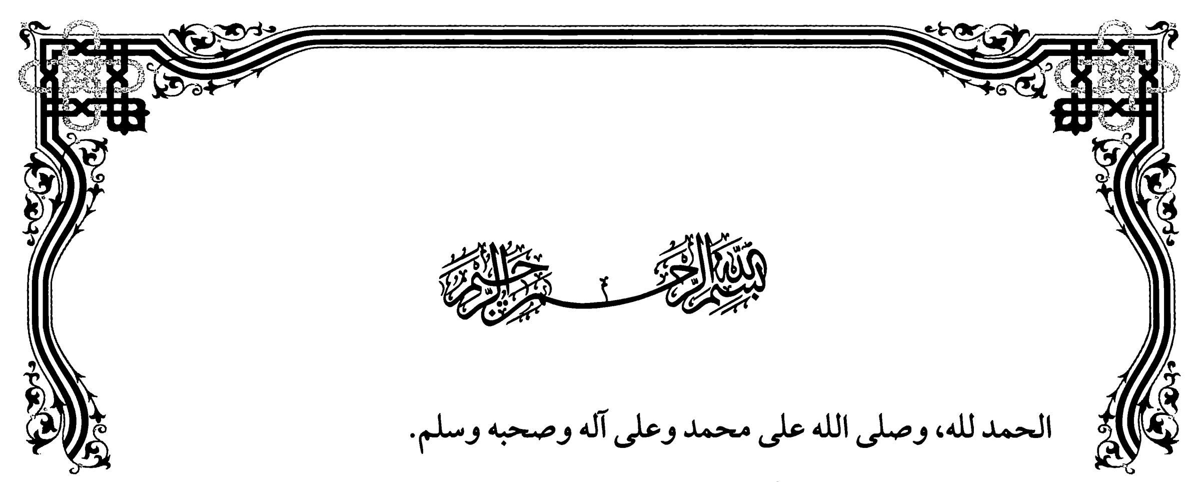
فطغيانهم الشنيع وكبرهم البليغ حملهم على هذا القول الفظيع وهم أحق بالجنون؛ إذ زعموا أن هذه الموجودات العظيمة التي هي في غاية الإتقان والانتظام في خلقها وتصريفها وتدبيرها، وغاياتها الحميدة، وحكمها البديعة - زعموا أنها وليدة المصادفة وآثار الطبيعة، من غير خالق خلقها، ولا مبدع أبدعها وأتقنها، مجرد ما ينظر العاقل ويتصور قولهم هذا يعلم أنهم قد ابتلوا ببلية هي أعظم البلايا، وكيف سولت لهم نفوسهم أن يتفوهوا بهذا القول الذي هو أكبر معبر عن ضلالهم وجهلهم وحماقتهم، بل هو من أقوال المجانين الذين يهذون بما لا يدرون، فمن تأمل بعض المخلوقات وما أودعها الله من الخلق العجيب، والنظام المحكم والتدابير العجيبة جزم جزما لا يمتري فيه بكذب هؤلاء وافترائهم في جحدهم، ومكابرتهم للمحسوسات، فضلا عن المعقولات وما جاءت به الرسل.

قال تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠]. وقال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]. ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٩ - ٥١]. أي: من الكبر الذي في صدورهم ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ الآيات [الإسراء: ٥١].

مجموع مؤلفات ابن سعدي (٣١)

شرح كتاب
أصول الإيمان
للشيخ محمد بن عبد الوهاب

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله



الحمد لله، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد: فهذا شرح كتاب **أصول الإيمان** لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قدس الله روحه، قال رحمه الله:

باب معرفة الله والإيمان به

معرفة الله والإيمان به أصل الأصول كلها، وكلها تتأسس على ذلك، ومعرفة الله تعالى هي معرفة ما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا وأفعاله الحكيمة، ولا بد مع معرفة الله من الإيمان به وهو الخضوع التام في الباطن والظاهر لله والقيام بعبوديته وإخلاص الدين لله تعالى، واعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على هذه المعارف الجليلة وفصلها تفصيلا عظيما، وهي أعظم مقاصد القرآن لكن المؤلف رحمه الله لم يذكر الآيات القرآنية وإنما ساق شيئا من الأحاديث النبوية؛ لعل ذلك اكتفاء بما هو معروف لكل أحد أن القرآن مشتمل على هذه المقاصد.

١- قال رحمه الله: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**». رواه مسلم[(١)].

هذا الحديث عظيم يشتمل على وجوب الإخلاص لله في كل عمل ديني؛ وهو أن يقصد العامل بعمله وجه الله وثوابه لا غير ذلك من الأغراض قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]. فأعظم الفروض على الإطلاق أن يقوم العبد بأصول الإيمان الستة وشرائع الدين الخمسة، ويقوم بالإحسان يقصد بذلك وجه الله والدار الآخرة، وهذا هو مقصود توحيد الإلهية وتوحيد العبادة؛ لأن الألوهية وصف الله الذي لا يشاركه فيه مشارك، فالله أعظم الأسماء الحسنى، معناه: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين. والعبودية حقه تعالى الذي لا يصرف شيء منها لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لغيرهما

(١) مسلم (٢٩٨٥).

من المخلوقات، فمن أشرك بالله شيئا فقد رفض هذا الإيمان الذي هو أوجب الواجبات وقد دخل في الشرك وعمله باطل؛ لأن الله أغنى الشركاء لا يقبل عملا أشرك فيه العبد.

ولكن الشرك في العمل نوعان:

- شرك أكبر يخرج العبد من الدين بالكلية؛ وهو أن يعمل العمل ويتعبد به لغير الله بأن يصرف نوعا من العبادة لغير الله؛ فمن صلى لغير الله أو سجد لغير الله أو دعا غير الله أو خافه أو رجاه أو تقرب إليه بشيء مما أمر الله به ورسوله - فهو مشرك كافر.

- **النوع الثاني**: أن يعمل العمل لله لكن يقصد به مع ذلك مراءاة الخلق وتعظيمهم، فهذا هو الرياء وهو من الشرك الأصغر، والعمل الذي يشاركه الرياء من أصله يدل عموم هذا الحديث أنه باطل مردود على صاحبه، ومع بطلانه فقد باء صاحبه بالإثم؛ لأنه ترك الإخلاص الواجب عليه، ولأنه وسيلة إلى الشرك الأكبر، وجميع الوسائل للشرك والذرائع التي توصل إليه من الشرك الأصغر، فالشرك الأكبر هو: صرف شيء من العبادات لغير الله، والأصغر هو: ارتكاب ما يوصل إلى ذلك؛ لكن لو عمل العبد العمل لله ثم طرأ عليه الرياء في أثناء عمله فإن دفعه ولم يساكنه لم يضره؛ بل هذا من جهاد الخواطر الردية التي تعرض لكثير من النفوس، فإن لم يدفعه بل ساكنه واطمأن إليه نقص العمل نقصا كبيرا، ويخشى من استمراره مع الإنسان أن يوصله إلى الرياء المحض المبطل للعمل بالكلية.

وقد دل على هذا الأصل العظيم الذي تضمنه هذا الحديث نصوص كثيرة جدا من الكتاب والسنة؛ لأنه الأصل الذي خلق الله له الخلق من الإنس والجن وأمرهم به، ودعت إليه جميع الرسل وجميع الكتب، وهو روح الدين الذي لا يقوم إلا به.

٢- وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل**

النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه». رواه مسلم[1].

وهذا أيضا حديث عظيم تضمن معنى الحي القيوم، العظيم، المقسط، فهذا الحديث فيه بعض التفصيل لمعاني هذه الأسماء الحسنى؛ فالقيوم هو الذي قام بنفسه وقامت به جميع الموجودات؛ به وجدت، وبه صلحت وحفظت، وبه قامت السماوات والأرض، ومن كمال حياته وقيوميته أنه لا ينام ولا ينبغي له أن ينام؛ لأنه جل جلاله كامل من جميع الوجوه لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه، والنوم فيه راحة من التعب، وفيه غيبة الأشياء عن النائم والله تعالى لا يمسه تعب ولا لغوب ولا يغيب عن علمه وبصره وسمعه وتدبيره مثقال ذرة في العالم العلوي والعالم السفلي، وهو القائم على كل نفس بما كسبت بعدله وقسطه وحكمته ولهذا قال: «**يخفض القسط ويرفعه**». يعني: أن تدبيره للموجودات التي تنزل من عنده والتي تصعد إليه كلها لا تتجاوز القسط والعدل؛ بل هي دائرة بين فضله وعدله فلا يظلم العباد مثقال ذرة ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]. وهو المجازي للمحسن بإحسانه وفضله، والمسيء بعدله وحكمته، فالخلق كلهم معترفون بحكمته وحمده؛ ولهذا بعدما يقضي بين العباد يوم القيامة بالقسط العظيم ينطق الكون كله بحمده والثناء عليه كما قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]. حتى المعذبون في النار يدخلون النار وقد اعترفوا بعدله وأنهم هم الظالمون كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٌ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨ - ١١].

ومن كمال قيوميته على كل نفس بما كسبت أن أعمال العاملين من خير وشر ترفع إليه بوقتها حتى إن عمل الليل الماضي يرفع إليه قبل عمل النهار الذي يليه، وعمل النهار الماضي

---

(١) مسلم (١٧٩).

إذا انتهى النهار يرفع إليه قبل عمل الليل الذي يليه، ترفعه الحفظة وترفعه الملائكة الذين يتعاقبون على الناس؛ ملائكة الليل وملائكة النهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الصبح، فتنزل ملائكة الليل عند الشروع في صلاة العصر، وتبقى ملائكة النهار حتى تفرغ صلاة العصر، وكذلك في الصبح كما ثبت بذلك الحديث الصحيح[1]. وهذا من نعمته على الآدميين أن نزول هؤلاء الملائكة وقت الصلاة الفاضلة وصعودهم بعد فراغها ولهذا إذا سألهم ربهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي قالوا: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون، وما فعل ذلك جل جلاله وعظم كرمه إلا تنويها بهم وإرادة لإكرامهم وصلاة منه عليهم قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الأحزاب: ٤٣]. ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٩]. ثم ختم الحديث بذكر كمال عظمته وجلاله ومجده وملكه وملكوته؛ فقال: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه** - أي: جماله وجلاله وبهاؤه - **ما انتهى إليه بصره من خلقه**». وذلك العوالم كلها لأنه تعالى لا يغيب عن بصره وسمعه وعلمه منها شيء، فلو كشف هذا الحجاب العظيم لاحترقت المخلوقات بأسرها؛ لأنها لا يمكن أن تثبت لعظمة العظيم؛ ولهذا لما سأل موسى ﷺ ربه أن ينظر إليه قال: ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. أي: لن تقدر ولا تثبت لرؤيتي ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف: ١٤٣] الآية. ولهذا كان أصح الأقوال أن النبي ﷺ لم ير ربه في الدنيا وإنما حال النور بينه وبينه كما في حديث أبي ذر[2] الذي في الصحيح قال: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال: «**نور أنَّى أراه**»[3]. ولولا أن الله تعالى ينشئ أهل الجنة نشأة عظيمة وحياة كاملة لما ثبتوا لرؤية ربهم، وقد ذكر في هذا الحديث النور المخلوق وهو نور الحجاب الذي بينه وبين خلقه، والنور الذي هو وصفه بقوله: «**لأحرقت سبحات وجهه**

(١) البخاري (٥٥٥)، مسلم (٦٣٢).

(٢) في المخطوط (ذكر). وهو خطأ محض.

(٣) مسلم (١٧٨).

ما انتهى إليه بصره من خلقه». أي: نوره وبهاؤه وجماله وجلاله الذي هو وصفه، فالله تعالى نور وحجابه نور، ومعرفته والإيمان به في القلوب نور، وكتابه نور ورسوله نور.

واعلم أنه لا تتم معرفة الله والإيمان به إلا بثلاثة أمور:

- **أحدها**: معرفة ما لله تعالى من الأسماء والصفات والأفعال الثابتة بالكتاب والسنة والتفقه في معانيها.
- **الثاني**: الاعتراف بها والإقرار بها على الوجه اللائق بعظمة الله تعالى وجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل، ومن غير نفي لشيء منها ولا تعطيل.
- **الثالث**: الانقياد ظاهرا وباطنا لله، وطاعة الله بتصديق خبره وامتثال أمره واجتناب نهيه.

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: «**يمين الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار؛ أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه، والقسط بيده الأخرى يرفع ويخفض**». أخرجاه في الصحيحين[١].

هذا الحديث دل على سعة فضله وكمال عدله وإثبات اليدين لله، وسبيلهما سبيل جميع الصفات أنه تعالى موصوف بكل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعظمها وأوسعها، وأنه كما لا يماثله أحد في ذاته لا يماثله أحد في شيء من صفاته، ومن نفى شيئا منها متوهما أن ظاهر ذلك التشبيه فقد غلط أفحش غلط؛ فإن الصفات تابعة للموصوف، ومن أثبت شيئا منها دون شيء فقد غلط فيما نفاه وتناقض تناقضا يدل على بطلان قوله، وقد وضح النبي ﷺ في هذا الحديث سعة غناه وسعة عطاياه، وأنه كما أن جميع الموجودات في فضله وكرمه منذ خلقها ولا يخلو آنٌ وحال من الأحوال إلا ولله عليها كلها نعم وإحسان لا تحصى أنواعه فضلا عن أفراده، ومع هذا العطاء الواسع الشامل لجميع المخلوقات في كل الآفاق لم يغض من فضله وكرمه مثقال ذرة؛ لأن فضله وكرمه وغناه من لوازم ذاته، وخزائن العوالم

(١) البخاري (٧٤١١)، مسلم (٩٩٣).

كلها بيده وتحت تصريفه وتدبيره، وإذا أراد شيئا قال له كن فيكون، فلا يتصور أن ينقص شيء من كمال غناه ومن سعة عطاياه مثقال ذرة، والله ذو الفضل العظيم وكذلك سائر صفاته؛ كعلمه وكلامه وقدرته وحكمته وغيرها، فلو نسب علم الخلائق كلهم من أولهم إلى آخرهم إلى علمه لم ينقص من علم الله إلا كما ينقص العصفور إذا نقر في البحر كما قال ذلك الخضر لموسى ﷺ[1]، ومن كمال غناه أنه قال على لسان نبيه ﷺ: **«يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ورطبكم ويابسكم قاموا في صعيد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر»**. رواه مسلم[2].

وإذا أخبرنا الله في كتابه أو على لسان نبيه عن غناه وسعة كرمه فذلك يتضمن أمرين:

- **أحدهما**: أن نعرف ربنا بهذا الوصف العظيم، فإن معرفة الله أجلّ المطالب وأعلى الرغائب.
- **والثاني**: حث منه لنا أن نزداد طمعا في فضله وكرمه وأن نسأله كل وقت جميع مطالبنا الدينية والدنيوية.

ولما بين في هذا الحديث سعة فضله ذكر فيه أيضا شمول عدله وأن القسط بيده الأخرى يخفض من يستحق الخفض ويرفع من يستحق الرفع، بحسب الأسباب التي جعلها الله موصلة إلى كل من الأمرين، وهو المحمود على رفعه وخفضه. وحكمته وضعه للأشياء مواضعها وتنزيله للأمور منازلها اللائقة بها؛ ولهذا كان المسلمون كلهم يقولون: إن تفضل وتكرم وأحسن إلى عباده فذلك من فضله، وإن عذب وعاقب فإن ذلك من عدله.

وما أحسن ما قاله بعضهم[3]:

---

(١) البخاري (١٢٢)، مسلم (٢٣٨٠). (٢) مسلم (٢٥٧٧).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٩٥.

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعي لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

وفي قول النبي ﷺ: «**وبيده الأخرى القسط**». ولم يقل: اليسرى ولا الشمال بيان أنه لا يوصف إلا بالكمال ولا يستعمل لذلك إلا أحسن الألفاظ، ولهذا في بعض ألفاظ هذا الحديث: «**وكلتا يدي الرحمن يمين**»[1].

٤- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان فقال: «**أتدري فيم ينتطحان يا أبا ذر؟**». قلت: لا. قال: «**لكن الله يدري وسيحكم بينهما**». رواه أحمد[2].

هذا الحديث مع الحديث الصحيح وهو قوله ﷺ: «**إن الله ليقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء**»[3]. مع قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]. على قول أكثر المفسرين تدل على أن الحيوانات غير المكلفين يحشرها الله ويقتص لبعضها من بعض؛ ليرى العباد كمال عدله حتى في الحيوانات العجم، ولا ينافي ذلك أن التكليف بالأمر والنهي والشرائع خاص بالثقلين الإنس والجن، لأن هذا نوع خاص من القصاص في ظلم بعضها بعضا، والله تعالى جعل لها معرفة لمنافعها ومضارها؛ فإنه أعطى كل شيء خلقه، ثم هدى كل مخلوق إلى ما خلق له، فهي تعرف ما ينفعها من مأكل ومشرب ووقاية من الإضرار، والقوي فيها إذا آذى الضعيف منها عرف ظلمه في ذلك، وكما أنه تعالى يجري عليها في الدنيا من التنعم والتألم وأسباب الإضرار ما يجري مما هو مقتضى طبيعتها ومقتضى حكمة الله - فأي مانع يمنع من بعثها، وأن يجري عليها من الجزاء المؤقت ما يوافق العدل والحكمة؛ ولهذا ورد

(١) الطبراني في المعجم الأوسط (٧٦٣٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٧٠٩).

(٢) أحمد (٢١٤٣٨). وأثبتنا الحديث كما ورد في أحمد وغيره، وقد ورد في المخطوط بلفظ: وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان فقال: «**أتدري ما ينتطحان يا أبا هريرة؟**». قلت: لا. قال: «**لكن الله يدري وسيقضي بينهما**».

(٣) مسلم (٢٥٨٢)، أحمد (٧٢٠٤)، الترمذي (٢٤٢٠).

أنه بعدما يقتص لبعضها من بعض يقول لها: كوني ترابا[1].

وأما الجزاء على التكاليف الشرعية التي جاءت بها الرسل ونزلت بها الكتب والانتهاء إلى دار القرار إما الجنة أو النار دائما أبدا - فذلك خاص بالمتقين كما تواترت به النصوص، وإذا كانت هذه الحيوانات في الدنيا قد تكون عند من يكرمها ويدفع عنها الأذى، وعند من هو بضد ذلك، وذلك راجع إلى حسن الملكة أو إلى سوئها، وهي لم تعمل من الظلم ما يوجب عقوبتها ولا من الإحسان ما يوجب إكرامها في كثير من الأوقات، بل إباحة الله للإنسان ذبحها الذي هو أعظم آلامها؛ تقديما لمصلحة الإنسان على مصلحتها، وأباح له استعمالها بالحمل والركوب والحرث وغيرها من الأعمال لهذا الغرض فكيف لا يجازي ظالمها على ظلمه.

هذا كله بيان أن ذلك موافق للحكمة وللواقع؛ ليعرف بذلك حكمة الشارع، مع أنه يجب على العبد أن يخضع لكل ما ثبتت به نصوص الكتاب والسنة سواء فهم حكمته أو فهم بعضها أو لم يفهمها، فإننا نعرف من حيث العموم أن لله الحكمة في كل شيء وفي كل تدبير قدري وشرعي وجزائي، وهو المحمود على ذلك وإنما قلت ذلك دفعا لقول من قال: إن مثل هذه النصوص يراد بها التمثيل لبيان عدله وأن الواقع بخلاف ذلك، وهذا قول ينافي صريح النصوص، ولكن بعض الناس إذا انعقد في قلبه بعض الشبه حمل على النصوص بالتأويل والتحريف الباطل، والواجب أن تكون العقول تابعة لما جاءت به الرسل مهتدية بشرائع الله وأحكامه التي هي غاية في الكمال والحسن ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]. والعقول لا تكمل ولا تهتدي بغير ما جاءت به الرسل؛ انظر إلى من طغوا بعقولهم وعلومهم واستكبروا بها عما جاءت به الرسل كيف كان حالهم وكيف كانت لهم العواقب الوخيمة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٣]. الآية. وقال تعالى:

(١) الغيلانيات (١١٢٥)، تفسير عبد الرزاق (٧٨٦).

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[الأحقاف: ٢٦]. ثم انظر إلى أئمة الهدى ومصابيح الدجى لما تم اهتداؤهم بما جاء به الرسول كيف فَضَلوا جميع الخلق في عقولهم وعلومهم وهدايتهم وأخلاقهم؟ وكيف كانت لهم العواقب الحميدة والآثار الجميلة والذكر الحسن مدى الأوقات؟ وفي هذا وهذا عبرة لأولي الألباب.

وفي هذا الحديث بيان إحاطة علم الباري بجميع المخلوقات جلائلها ودقائقها حتى إنه يعلم الأسباب التي دعت الحيوانات إلى تصرفاتها المتنوعة فهو يعلم السر وأخفى، ومن باب أولى وأحرى يعلم تعالى ما صدرت عنه أعمال المكلفين من النيات الصالحة وغيرها؛ ولهذا يخبر في كتابه عند ذكر الجزاء والثواب والعقاب باطلاعه وعلمه بذات الصدور وبنيات العباد ومقاصدهم وسيجازيهم على ذلك إن خيرا فخير وإن شرًّا فشر.

٥- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾[النساء: ٥٨]. إلى قوله: ﴿ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[النساء: ٥٨]. ويضع إبهاميه على أذنيه والتي تليهما على عينيه. رواه أبو داود وابن حبان وابن أبي حاتم[١].

إنما وضع رسول الله ﷺ إصبعيه على أذنيه وعلى عينيه تحقيقا لإثبات سمع الله وبصره، وذلك أن كل اسم من أسماء الله الحسنى يشتق له صفة من صفاته ويترتب على ذلك حكم تلك الصفة؛ فالسميع البصير من أسمائه الحسنى ويدلان على سمع الله وبصره، وعلى أنه تعالى يسمع جميع المسموعات؛ السر والإعلان والخفي والجلي، ويبصر تعالى جميع المبصرات وإن دقت وصغرت كما قال بعضهم[٢]:

يا من يرى مد البعوض جناحها   في ظلمة الليل البهيم الأليل

(١) أبو داود (٤٧٢٨)، ابن حبان (٢٦٥)، تفسير ابن أبي حاتم (٥٥٢٤).

(٢) الكشاف ١/ ٧٢، وفيات الأعيان ٥/ ١٧٣.

ويرى نياط عروقها في نحرهـــا   والمخ مــن بين العظــام النُّحل

امنن علــي بتوبة تمحو بهـــا   مــا كان مني فــي الزمان الأول

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]. يشمل هذا أمانات الولايات؛ فيجب ألا يولى الولاية كبيرة أو صغيرة إلا الأمناء أهل الكفاية والمعرفة بتلك الولاية، وكذلك أمانات الأموال؛ يجب على من هي بيده أن يحفظها وألا يسلمها إلا إلى صاحبها أو نائبه.

﴿ وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ [النساء: ٥٨]. وهذا يشمل القاضي والأمير وكل من يتولى الحكم بين اثنين أو جماعتين من الناس فعليه العدل في حكمه، وألا يراعي قريبا ولا صديقا ولا يحمله عداوة شخص على الحكم عليه بالهوى.

ولما أمر بأداء الأمانات إلى أهلها الذي هو وظيفة المؤتمنين، وبالحكم بالعدل الذي هو وظيفة الحاكمين، وكانت هذه الأحكام والأصول العظيمة قد بلغت نهاية الحسن والصلاح والإصلاح وأثمرت كل خير وبركة وفلاح - أثنى تعالى على أحكامه ومواعظه الجليلة فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ [النساء: ٥٨]. أي: نعم ما يعظكم به ويرشدكم إليه من أصول الرشد والخيرات المنافية للشرور والهلكات.

وختمها بهذين الاسمين الكريمين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ [النساء: ٥٨]. ليعرفنا بنفسه وليرغبنا في قبول مواعظه ونصائحه، ويرهبنا من الإعراض عنها، ويحثنا على إصلاح النية فيما نأتي ونذر؛ فإن النية الصالحة روح الأعمال وبها يتحقق كل خير وكمال.

٦- وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا متى تقوم الساعة إلا الله تبارك وتعالى**». رواه مسلم[1].

(١) البخاري (٤٦٩٧). وغير موجود في مسلم.

قال الله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩]. المفاتيح قيل: إنها الخزائن. وقيل: إنها المفاتيح التي تفتح بها الخزائن. والمعنى متقارب؛ فالباري جلت عظمته وتعالى مجده قد أحاط علمه بكل شيء بجميع وجوه الإحاطة، يعلم جميع ما مضى وجميع ما سيأتي وما هو حاضر، ويعلم العالم العلوي والعالم السفلي، ويعلم الظواهر والبواطن والخفيات والجليات، ويعلم الواجبات والمستحيلات والممكنات، ويعلم ما اطلع عليه الخلق وما لم يطلعوا عليه، ومع سعة علمه وإحاطته فلا يضل ربي ولا ينسى، ولا يغيب عنه مثقال ﴿ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١] . وقد أطلع عباده على كثير من المعلومات وأخفى عنهم أكثرها حيث لا سبيل لعلومهم إلى إدراكها، أو حيث لا مصلحة لهم في علمها، ومن ذلك مفاتيح الغيب الخمس المذكورة في هذا الحديث، وهذه المذكورات كلها مستقبلة خفية عن علم الخلائق كلهم كما هو نص الحديث، وغاية ما عندهم علم أسباب ومقدمات لما يقع في مستقبل الزمان، وما يحصل من المطر فعلم الأسباب غير علم المسببات؛ لأن الأسباب لا تكفي وحدها لوجود مسببها، بل لا بد من انضمام قضاء الله وقدره؛ ولهذا كم من أمور يعزم عليها الخلق ويجزمون بوقوعها لتوفر أسبابها ثم تخفق الأسباب؛ ليري عباده أن الأمر أمره والحكم حكمه والقضاء قضاؤه ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]. فإن ما شاء الله كان ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده، فالأمر بفعل الأسباب النافعة لوجود مسبباتها الدينية والدنيوية لا ينافي أن الله مختص بعلم الغيوب المستقبلة، وكذلك علم الملك بوجود الجنين في بطن أمه إذا أرسله الله لنفخ الروح فيه، وكذلك الكشف الطبي عما في أرحام النساء من الأجنة كله لا ينافي أن الله مختص بعلم ما في الأرحام، فإن الماء الذي يتولد منه الولد لا سبيل لعلم أحد من الخلائق إليه، وأما انتقاله بعد ذلك في أطوار التخليق فقد

يعلمونه من وجه دون وجه آخر، والأطوار الأولة علمهم فيها قاصر جدًّا لا ينتهي إلى درجة العلم بل نهايته الظن، ثم ما تغيض الأرحام وما تزداده من إلقاء الجنين أو إبقائه أو زيادته أو نقصه أو موته أو حياته - كل ذلك لا علم لأحد من الخلق به، وكذلك معرفة الطبيعيين لبعض حوادث الجو وانعقاد السحاب وعدمه علم ظني بعلم بعض الأسباب التي قد يتولد عنها سحاب وقد لا يتولد، وإذا تولد سحاب قد يكون فيه مطر وقد لا يكون؛ فعلم ذلك على الحقيقة يختص الله به ولهذا لما سأل جبريل النبي ﷺ عن الساعة قال: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**»[1]. أي: أنا وأنت كلنا لا نعلمها، ولما سأله عن أشراطها وعلاماتها أخبره بها، فالعلم بالمقدمات غير العلم بالمقصود.

وهذه الخمس المذكورة في حديث ابن عمر رضي الله عنه نص الله عليها في كتابه في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤]. وسعة علم الرب وإحاطته بكل شيء أكبر دليل على عظمة الله وعظمة سلطانه وحكمته وعلى كمال قدرته، وأنه سيبعث العباد الأولين منهم والآخرين؛ ولهذا يستدل على البعث بالعلم مثل قوله: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ [ق: ٤]. ويستدل به على إيصال جزاء المحسنين والمسيئين إليهم، وأنه يعلم ما عملوه من خير وشر وما يترتب على أعمالهم من الجزاء والثواب والعقاب ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة: ٦].

ومن نعمة الله وحكمته طيه عن خلقه علم هذه الأشياء، وخصوصا علم الآجال ومتى تقوم الساعة، فإنهم لو علم كل إنسان إلى أين ينتهي أجله لحضره الهم والغم الذي ربما يقضي عليه، ولحصل التفريط والتجرؤ على المحارم، إذا علم أجله يقول المسرف: سوف أقضي لذاتي المحرمة ثم إذا دنا أجلي تبت وأنبت. ولم يعلم أن الذنوب والجرائم إذا رانت

---

(١) البخاري (٥٠)، مسلم (٨).

على القلوب فبعيد عليه جدًّا أن يتخلص منها، بل وكذلك إذا دنا أجله ربما وزع ماله على شهوته وإرادته وحرم ورثته المستحقين، وكذلك لو علم الناس ما يكون وما يجري في غد وفي مستقبل أمورهم من خير وشر ونفع وضرر - لتكدرت معيشتهم بل لتعطلت معائشهم، ولكن الأمور المستقبلة في الأرزاق والأسباب والخير والشر جعلها الله مجهولة لهم؛ لينشطوا على الأسباب النافعة ويحذروا من كل ما يخشى منه الضرر، وإبهام الله هذه الأمور وما أشبهها نافع للناس في أمور دينهم ودنياهم كما هو ظاهر لكل متأمل، مع أنه أيضا يضعف بذلك قوة توكل العباد على ربهم في حصول المنافع ودفع المضار فالتوكل يضعف، والنشاط في عمل الأسباب يضعف، وفي ذلك الضرر العظيم، فالحمد لله الذي علم العباد من شرعه وقدره ما به ينتفعون، وطوى عنهم ما ليس لهم به مصلحة، وما ليس لعقولهم سبيل إلى إدراكه.

٧- عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده حيث يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها فقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح» أخرجاه[1].

هذا الحديث عظيم يدل على سعة رحمة الله وجوده، وعلى رحمته ورأفته الخاصة بالآدمي، وأنه من إحسانه ومحبته تعالى لاستقامة عبده يفرح إذا تاب ورجع إليه هذا الفرح الذي ضرب له النبي ﷺ هذا المثل الذي لا يمكن أن يوجد فرح يتصور أبلغ منه؛ حيث فقد هذا الرجل الذي انفلتت منه راحلته أسباب حياته والأرض فلاة مهلكة لا يرجو من يستنقذه مما هو فيه فاضطجع ينتظر الموت ولا يشك فيه؛ لفقد أسباب الحياة كلها، فبينما هو كذلك إذ راحلته قائمة عند رأسه فأخذ بخطامها وأيقن بالحياة والنجاة دفعة واحدة؛ فانتقل من

(١) مسلم (٢٧٤٧). وغير موجود في البخاري.

اليأس الكامل إلى الأمن التام، فلا يتصور فرح أعلى من هذا، ومع هذا فالرب فرحه بتوبة عبده أشد من هذا الفرح، وهو جل جلاله لا ينتفع بطاعة الطائعين وإنما نفعها عائد إليهم، فهذا برهان على أنه تبارك وتعالى لم يخلق الخلق إلا ليتم عليهم نعمته بقيامهم بعبوديته أولا، ثم بنيلهم لغاية كرامته آخرا، فإنه يحب التوابين ويحب القائمين بعبوديته ظاهرا وباطنا، فإذا رجع عبده من ولاية الشيطان إلى ولايته ومن خروجه إلى مساخطه إلى رجوعه إلى محابه - أحب الله ذلك منه محبة شديدة مع غناه التام عنه، وفي هذا من البشارة والرجاء ما لا يمكن التعبير عنه، وفيه حث للعباد إلى رجوعهم إلى ربهم كل وقت، فإن في ذلك صلاحهم وفلاحهم وسعادتهم العاجلة والآجلة.

وفي هذا الحديث إثبات محبة الله لعباده المؤمنين وفرحه بتوبة التائبين، وسواء كان لتوبةٍ من الكفر إلى الإسلام أو من المعصية إلى الطاعة فإنه الرحمن الرحيم الرءوف الكريم، وهذا من آثار رحمته ورأفته وكرمه الخاص، اللهم أدخلنا برحمتك الخاصة في جملة عبادك الصالحين.

وفيه دليل أن الكلام الذي يصدر من الإنسان بلا قصد، بل خطأ لا إثم عليه، فهذا الرجل أراد أن يشكر ربه ويثني عليه بهذه النعمة العظمى، ويريد أن يقول: اللهم أنت ربي وأنا عبدك فأخطأ الصواب في لفظه فلم يؤاخذ بما قال، وفي تشبيه النبي ﷺ بصاحب الراحلة الموصوفة بتلك الصفات فائدة جليلة، وهو أن الطعام والشراب وتوابعها والركوب هي زاد السفر الحسي فكذلك التقوى والقيام بعبودية الله زاد السفر المعنوي، زاد الآخرة، وكما أن فقد الطعام والشراب وتوابعها يؤدي إلى التلف والهلاك، ووجودها به تحصل الحياة؛ فكذلك فقد التقوى بالإصرار على المعاصي يؤدي إلى الهلاك والشقاء، والتوبة منها والرجوع إلى الله هو طريق حياة القلب وحياة الدنيا والآخرة.

وفي هذا الحديث أيضا أكبر دليل على أن الله أرحم بعباده من الوالدين؛ بل أرحم بهم من أنفسهم، وعلى أن محبة الله غير مشيئته فالله تعالى يحب التوابين والمؤمنين والصالحين،

ومشيئته متعلقة بكل شيء، وعلى أنه تعالى بيّن لعباده طريق الخير وطريق الشر، ورغبهم في الخير ورهبهم من الشر، وجعل أفعالهم تابعة لإرادتهم واختيارهم فليس لأحد على الله حجة؛ لكنه تعالى جعل لهدايته أسبابا من سلكها هداه وزاده هدى وإيمانا، ولإضلاله أسبابا من اختارها لنفسه ولاه ما تولى لنفسه، ولم يوفقه للهداية لكمال حكمته تعالى، قال تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة: ١٦]. وقال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠]. ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥].

٨- عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**». رواه مسلم[(١)].

وهذا من آثار جوده وكرمه ورحمته أن العاصين لا يعاجلهم بالعقوبات، بل يحلم عليهم ويمهلهم، بل يستدعيهم إلى التوبة عاجلا وعدم الإصرار عليها، ويرغبهم في رحمته ومغفرته وثوابه، وييسر لهم كل طريق يوصلهم إلى التوبة والإنابة، وأن هذا الاستدعاء والترغيب والتشويق لهم إلى التوبة مستمر لا ينقطع حتى تأتي مقدمات القيامة وتطلع الشمس من مغربها فيسد باب التوبة قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. وقد فسر ذلك النبي ﷺ بطلوع الشمس من مغربها، فكل من أسلم بعد ذلك أو تاب من ذنوبه أو ازداد عملا غير الذي كان يعمل لم ينفعه؛ لأن الأمر صار شاهدا والإيمان وتوابعه إنما ينفع إذا كان غيبا، ومفهوم الآية الكريمة أن المؤمن الذي كانت له أعمال يعملها قبل هذه الآيات أنه ينتفع بإيمانه السابق وأعماله السابقة، ويقارب هذا المعنى ما ثبت في صحيح مسلم مرفوعا: «**من مرض أو سافر كتب له ما كان يعمل**

(١) مسلم (٢٧٥٩).

صحيحا مقيما»[1]. ويدخل في المرض: الجنون والإغماء وكذلك بلوغ العبد سن التخريف إذا ترك ما كان يعمله وعقله معه يرجى أن يكتب له ما كان يعمله ومن نيته الاستمرار عليه، ولا يستغرب ذلك على كرم الكريم.

وفي هذا الحديث إثبات اليدين لله وقد ثبت بهما الكتاب والسنة، وطريقها عند أهل السنة طريق باقي الصفات أنه يجب إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته رسوله على الوجه اللائق بعظمة الباري من غير تعطيل ولا تمثيل، ومن الانحراف عن الصراط المستقيم أن نستدرك على الله وعلى رسوله فنحرف شيئا من صفاته ونقول: إن المراد بها كذا وكذا. مما هو مخالف لصريح النصوص؛ بل نقول ما قاله الله عن نفسه أو قاله رسوله متيقنين أنه الحق وما سواه باطل، ونسأل الله العافية من داء التعطيل لشيء منها وداء التمثيل.

وهذا الحديث الدال على كمال رحمة الله وسعة كرمه ومغفرته المقصود به أمران: أن نعرف الله تعالى بما عرفنا به نبينا ﷺ، وأن نسلك كل طريق يوصلنا إلى رحمته وكرمه ومغفرته نسأل الله أن يحقق لنا ذلك بمنه وكرمه.

٩- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قدم على النبي ﷺ بسبي هوازن فإذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبيا في السبي فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته فقال النبي ﷺ: **«أترون هذه طارحة ولدها في النار»**. قلنا: لا والله. فقال: **«الله أرحم بعباده من هذه بولدها»**. متفق عليه[2].

وهذا الحديث أيضا يدل على سعة رحمة الله وغلبتها وتقدمها على رحمة كل راحم، والنبي ﷺ أحب أن يفهم المسلمون عنه شدة رحمة الله ورأفته؛ حيث مثل بهذه الأم الحنون التي ذهلت نفسها وذهلت غيرها عند فقدها لولدها، ثم لما وجدته ألزقته في بطنها

---

(١) البخاري (٢٩٩٦). وهو غير موجود في مسلم كما قال الشيخ.

(٢) البخاري (٥٩٩٩)، مسلم (٢٧٥٤).

وأرضعته فالله أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وكيف تقارب رحمة الأم - وإن بلغت في الحنان ما بلغت - رحمة أرحم الراحمين الذي رحمة الوالدين ورحمة غيرهم لا تنسب إلى رحمة الله بوجه من الوجوه، فالله تعالى هو الذي برحمته أوجدهم، وبرحمته أحسن خلقهم وقوى أسرهم، وبرحمته جعل لهم القوى الظاهرة والباطنة، وبرحمته سبب لهم أسباب المعائش والأرزاق المتنوعة، وبرحمته أسبغ عليهم النعم الظاهرة والباطنة فما بالعباد من نعمة فمن الله، وبرحمته أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب وبين لهم طريق النجدين؛ طريق الخير والشر، وبرحمته حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين فضلا منه ونعمة، وبفضله ورحمته ألقى في قلوبهم التوبة فتابوا ثم قبلها منهم، وهو الذي برحمته أتاهم من كل ما سألوه بلسان المقال أو بلسان الحال، وبرحمته أعد للطائعين - الذين طاعتهم من رحمته - أعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر إلى غير ذلك من أجناس رحمته وأنواعها فضلا عن أفرادها، فمن هذه رحمته وهذا شأنه يستحيل أن تكون رحمة أحد تقارب أو تنسب إلى رحمة أرحم الراحمين.

وفي هذا الحديث الحث على السعي في طلب رحمته بسلوك كل سبب يوصل إلى الرحمة، وهي مذكورة في الكتاب والسنة، وفيه إثبات رحمة الله وأنها من جملة أوصافه والقائمة به التي لا تزال آثارها في كل اللحظات تترى على العباد، ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ ﴾ [الروم: ٥٠].

١٠- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي». رواه البخاري[١]، ولهما عنه[٢] أن رسول الله ﷺ قال: **«جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا ونزل في الأرض جزءا واحدا**

(١) البخاري (٣١٩٤)، وهو في مسلم (٢٧١٥).

(٢) أي: للبخاري ومسلم عن أبي هريرة.

فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»[1]. ولمسلم من حديث سلمان معناه وفيه: **«كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض فإذا كان يوم القيامة كملها بهذه الرحمة»**[2].

هذان الحديثان كما سبق يدلان على سعة رحمة الله وأنها وسعت كل شيء، وكمال ذلك أن الله كتب على نفسه أن رحمتي تغلب أو تسبق غضبي، فهذا فيه بشرى عظيمة أنه إذا وجد موجبان؛ موجب للرحمة وموجب للغضب فإن رحمة الله تغلب غضبه، وقد ظهر ذلك في شرعه وفي قدره؛ حيث إن العامل للسيئات تكتب له السيئة واحدة، وهي على رجاء الغفران، وتكتب له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، والكون كله مملوء من رحمة الله، وهذه الرحمة التي في قلوب الخلق، والحنان فيما بينهم - خصوصا الأمهات على أولادها - جزء من مائة جزء من رحمة الله، وسيضم هذا الجزء إلى تسعة وتسعين جزءا؛ كل جزء يملأ ما بين السماوات والأرض فيرحم بها عباده، ويظهر في موقف القيامة للخلائق من رحمة الله وجزائه للطائعين وعفوه عن العاصين ما لا تعبر عنه الألسن، ولعل هذا سر ذكر الرحمن مقرونا بيوم الدين في عدة مواضع من القرآن؛ مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الفرقان: ٢٦]. وقوله: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ [طه: ١٠٨]. والعبد في هذه الدنيا إذا استحضر كثيرا من نعم الله عليه وعلى غيره وآثار رحمته أوجب له ذلك أن يمتلئ قلبه من محبة الله، وأن يسعى في كل سبب جعله الله موصلا إلى رحمته، وهذا من أعظم مقاصد نصوص الكتاب والسنة، فإنها كما أنها خبر عن الله فإنها حث للعباد على تعلق قلوبهم وأعمالهم بالله وبرحمته وجوده.

واعلم أن الرحمة صفة من صفات الله الذاتية الفعلية فإنه لم يزل ولا يزال رحيما متصفا بالرحمة، ومن آثارها جميع خيرات الدنيا والآخرة؛ ولهذا لما كانت الجنة جامعة من أصناف

---

(١) البخاري (٦٠٠٠)، مسلم (٢٧٥٢).

(٢) مسلم (٢٧٥٣).

النعيم وفنونه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من نعيم القلوب والأرواح والأبدان سماها الله رحمته فقال: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِى رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٧]. وفي الحديث الصحيح حين تحاجت الجنة والنار وفيه: «**فقال الله للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي. وقال للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها**»[1].

١١- وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة في الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له في الآخرة ويعقبه رزقا في الدنيا على طاعته**». رواه مسلم[2].

هذا الحديث يدل على خلاف ما يقوله كثير من أهل العلم من أن عمل الكافر مهدر غير مقبول، ويطلقون الكلام إطلاقا، والتحقيق أن في ذلك تفصيلا تدل عليه النصوص، وهو أن الحسنات التي يستحق بها دخول الجنة أو النجاة من النار أو الخروج منها لا يستثنى منها شيء، فليس شيء من أعمال الكفار - وإن كثرت - توجب دخول الجنة أو توجب النجاة أو توجب الخروج من النار؛ لأن النصوص من الكتاب والسنة تواترت في تحريم الجنة على كل كافر، وأنه لا يدخلها إلا المؤمنون كذلك تواترت في خلود جميع أصناف الكفار في النار، وأنه لا يخرج منها أحد لا بعمل عملوه ولا بشفاعة ولا غيرها، وأما الحسنات التي يعملها الكافر في الدنيا لله - وخصوصا الإحسان المالي أو غيره إلى الخلق - إذا كان قصده وجه الله فإن الله يطعمه في الدنيا ويجازيه فيها على ذلك العمل؛ إما بعافية بدنه أو سلامته من أخطار أو زيادة رزق أو حصول ولد أو غير ذلك مما يتنعم به في الدنيا كما دل عليه هذا الحديث، بل وكذلك في تخفيف عقوبات الدنيا وعقوبات الآخرة فإن الكفار في النار دركات بحسب غلظ كفرهم وخفته ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ [الأنعام: ١٣٢]. ولهذا

---

(١) البخاري (٤٨٥٠)، مسلم (٢٨٤٦).

(٢) مسلم (٢٨٠٨).

لما كان أبو طالب عم النبي ﷺ له من نصرة النبي ﷺ، والقيام معه ما هو معروف؛ خفف الله عنه عذاب النار فكان في ضحضاح من نار عليه نعلان يغلي منهما دماغه[1]. ولولا ذلك لكان في الدرك الأسفل من النار،لأن كفره كفر معرفة وعناد؛ لأنه تحقق أن محمدا رسول الله واعترف بذلك ولكن دين قومه وأجداده اختاره على دين الله، بل وكذلك العقوبات الدنيوية من تأمل عقوبات الله للطاغين رآها بحسب ما هم عليه من الطغيان؛ كما جرى للأقوام الذين كذبوا الأنبياء فعاقبهم عقوبات مناسبة لجرائمهم، وانظر لقضية الأحزاب الذين تحزبوا على النبي ﷺ وأصحابه يوم الخندق لما كان اليهود هم الأصل والسبب الذي جيشوا وحزبوا الأحزاب؛ صارت العاقبة السيئة على رءوسهم، ومن نظر في أحوال وقته وما قبله بيسير رأى معظم الشرور وفظائعها عمل أهل البغي والطغيان، وإن كان لغيرهم نصيب منها، هذه حالة الله في أعدائه وكلها موافقة للعدل والحكمة، وأما المؤمنون فإن الله يجمع لهم بين خير الدنيا والآخرة، فإذا عملوا الحسنات حصل لهم جزاء في الدنيا ورزق وحياة طيبة، وجزاء أخروي بحسب أعمالهم وفضل الله عليهم كما في هذا الحديث وكما في قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧]. ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾ [الطلاق: ٤].

١٢- وله عنه مرفوعا: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها»[2].

هذا الحديث فيه أن الله يرضى عن عبده إذا عمل ما يحبه: إما عبادات مستقلة كالصلاة والصيام والصدقة ونحوها وبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الخلق وتوابع ذلك،

(١) البخاري (٣٨٨٥)، مسلم (٢١٠).

(٢) مسلم (٢٧٣٤).

فإن الأعمال الصالحة هي موضوع مراضيه، فمن فعل منها ما يرضيه؛ رضي الله عنه؛ ولهذا لما كمل المؤمنون مراتب الخير كلها أخبر عنهم بالرضا المطلق منه ومنهم فقال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]. وقال: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] الآية. وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] الآية.

فقد أخبر عن جميع طبقات المؤمنين أنهم نالوا رضا ربهم لما قاموا بما يحبه ويرضاه، هذا النوع أشرف أنواع ما ينال به رضا الله.

النوع الثاني: العادات وتناول الطيبات من أكل وشرب وتوابعها، إذا تناولها العبد لقصد الاستعانة بها على طاعة الله وإقامة البنية والقيام بالواجب والمستحب له ولعائلته، ثم حمد الله عند تمامها - فإن الله يرضى عنه وتنقلب عاداته عبادات، وتكون الطيبات له خالصة يوم القيامة، فيجمع الله له بين نعيم الدنيا وطيبها وبين نعيم الآخرة، فسبحان من لا يحصي أحد ثناء عليه ولا تعد نعمه وآلاؤه.

وفي هذا الحديث إثبات الرضا لله كما في بقية النصوص من الكتاب والسنة، وهو صفة من صفات الله، وفيه إثبات الأفعال الاختيارية المتعلقة بمشيئة الله وقدرته، وأنها لا تزال في كل وقت، فالله في كل وقت ويوم له شأن من الشئون يبديها ويبتديها ولم يزل ولا يزال فعالا لما يريد مما تقتضيه حكمته وحمده تبارك وتعالى.

١٣- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا فيه ملك ساجد لله تعالى، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم الى الصعدات تجئرون إلى الله**». رواه الترمذي، وقال حديث حسن[1].

(١) الترمذي (٢٣١٢).

قوله: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتكم قليلا ولبكيتم كثيرا»** في الصحيحين من حديث أنس[(١)].

هذا الحديث دليل على عظمة الله وعظمة سلطانه وكثرة الملائكة، واشتغالهم في كل أوقاتهم بالعبادات والخضوع لله تعالى فهم على سعة السماوات وعظمها قد ملئوها حتى لم يبق فيه موضع إلا هو معمور بهم، والأطيط: صوت الرحل إذا ثقل عليه الراكب أو الحمل. فالسماوات من كثرة الملائكة الذين عليها أطت ويحق لها أن تئط، وقال تعالى عن الملائكة: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

ثم خوفهم ﷺ هذا التخويف العظيم فقال: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجئرون إلى الله»**. فأبهم ﷺ الشرط فدل على أنها المعلومات التي توجب هذه الآثار؛ وذلك كالعلم بعظمة الله وكبريائه وشدة عقابه وما أعد للعاصين من العذاب والنكال، والنبي ﷺ وإن كان يعلم هذه الأمور لكن لقوته وكماله وقدرته على أداء الحقوق لا يمنعه هذا العلم من القيام بحقوق الخلق والتلذذ بالنساء، أما أمته فلضعفهم وعجزهم عن تحمل هذا المعلوم الذي أشار إليه ﷺ، فمن رحمة الله بهم أنه لم يظهر لهم من عظمته وشدة عقابه إلا بقدر ما يتحملون، وبقدر ما يحصل به المقصود منهم بحيث لا يشغلهم عن القيام بمصالح دينهم ودنياهم، وهذا من نعمته وحكمته، ويقارب هذا أنه ﷺ كان يواصل وينهي أمته عن الوصال ويقول: **«أيكم مثلي إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»**[(٢)].

١٣- ولمسلم عن جندب مرفوعا: **«قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان فقال الله تعالى: من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان؛ إني قد غفرت له وأحبطت عملك»**[(٣)].

(١) البخاري (٤٦٢١)، مسلم (٢٣٥٩).

(٢) البخاري (٧٢٩٩)، مسلم (١١٠٣).

(٣) مسلم (٢٦٢١).

وهذا أيضا فيه بيان سعة فضل الله ومغفرته، فإن هذا الرجل الذي غفر الله له قد كان مسرفا على نفسه وكان هذا القائل يراه على الذنب المرة بعد المرة فينهاه، فحمله ما حمله حتى قال هذه المقالة التي فيها التألي على الله والحجر على رحمته، وفيها شوب ترفع ونوع كبر لعل هذا هو السبب الذي أحبط الله به عمله بهذه المقالة؛ فليحذر العبد من المقالات التي فيها نوع تألٍّ على الله وإدلال وترفع، وليعلم أن الله فوق ما يظن الظانون؛ فإنه الحليم الرحيم الذي يمهل عباده ويعفو عنهم ويفتح لهم أبواب الخير، ولا يمنعه معاودتهم للذنوب إذا رجعوا إليه وأنابوا.

١٤- وله عن أبي هريرة مرفوعا: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد**»[1]. وللبخاري عن ابن مسعود مرفوعا: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك**»[2].

هذان الحديثان يوجبان للعبد أن يكون بين الخوف والرجاء إن نظر إلى رحمة الله العامة والخاصة رجا وطمع، وإن نظر إلى عدل الله وعقوبته للعاصين خاف وخشي، وكذلك في حديث ابن مسعود أن الجنة والنار أقرب إلى العبد من شراك نعله؛ لأن مدار ذلك على صحة الإيمان والتوحيد أو عدمه، فمن كان مؤمنا لا يشرك بالله شيئا فهو من أهل الجنة، ومن كان مشركا فهو من أهل النار، ومن قرب الجنة والنار أن العبد قد يعمل بطاعة الله في كل عمره ثم يزيغ عن الحق في آخر حياته فيكون من أهل النار، وقد يعمل بعمل أهل النار ثم يوفقه الله آخر حياته للإنابة إليه فيختم له بعمل أهل الجنة.

ومن ذلك: «**إن العبد يتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له رضوانا، ويتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له سخطه**»[3].

---

(١) مسلم (٢٧٥٥).

(٢) البخاري (٦٤٨٨).

(٣) الترمذي (٢٣١٩)، ابن ماجه (٣٩٦٩)، وأصله في الصحيحين بلفظ آخر، البخاري (٦٤٧٨)، مسلم (٢٩٨٨).

ومن ذلك أن بَغِيًّا سقت كلبا يلهث من العطش ورحمته فرحمها الله وغفر لها، وأن امرأة عُذبت في هرة ربطتها حتى ماتت جوعا وعطشا. ومن ذلك أن من وصل رحمه وصله الله ومن قطعها قطعه الله. ومن ذلك أن من علم الله من نيته وقصده اتباع الهدى وفقه الله إليه وحبب إليه الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، ومن رد الحق ورأى طريقه فزهد فيه ولاه الله ما تولى وخذله وضل عن الصراط المستقيم، ومن أقبل على الله أقبل الله عليه، ومن أعرض عن الله أعرض عنه، وهكذا ما أشبه هذا من الأمثلة، وكذلك الأعمال تابعة لنياتها وإنما لكل امرئ ما نوى؛ ولهذا ذكر الشيخ بعده هذا الحديث.

١٥- وعن أبي هريرة مرفوعا: «**إن امرأة بغيا رأت كلبا في يوم حار يطيف ببئر قد اندلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فسقته فغفر الله لها به**»[1]. وقال: «**دخلت النار امرأة في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا أرسلتها تأكل من خشاش الأرض**». قال الزهري: لئلا يتكل أحد ولا ييأس. أخرجاه[2].

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ يجعلون له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم**». رواه البخاري[3].

وذلك أن من أسمائه الحسنى الذاتية الحليم الصبور، فحلمه تعالى وصبره لا يمكن أن يماثله فيه أحد كبقية صفاته، وحلمه وصبره عن كمال قدرة وعن سعة رحمة، فالخلق يؤذونه بتكذيبه ومحاربته ومحاربة رسله، وهو تعالى يمهلهم ويمدهم بالعافية والأرزاق والنعم السابغة، خيره إليهم نازل وشرهم إليه صاعد، يتحبب إليهم بالنعم مع كمال غناه عنهم ويتمقتون إليه بالمعاصي مع شدة فقرهم إليه، وهذا الحلم والصبر العظيم الذي لا يشبهه شيء مما يجذب قلوب العباد إليه وإلى الإنابة إليه والحياء منه، ولما كانت هكذا معاملته

---

(١) مسلم (٢٢٤٥).

(٢) البخاري (٣٣١٨)، مسلم (٢٦١٩). وقول الزهري رواه مسلم.

(٣) البخاري (٧٣٧٨)، وهو في مسلم كذلك (٢٨٠٤).

للعاصين فكيف معاملته للطائعين، ومع هذا الحلم والصبر إذا تاب العبد إليه محي عنه ما سلف من الجنايات فكأنه ما كان منه شيء، فنسأله تعالى أن يعرفنا به وبأسمائه وصفاته معرفة صحيحة إنه جواد كريم.

١٦- وله عن أبي هريرة مرفوعا: «**إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض**»[١].

وهذا من آثار رحمته ولطفه بأصفيائه وأحبائه الذين قاموا بمحابه أن الله يحبهم ويحببهم إلى ملائكته وإلى أهل الأرض، وهو من البشارات العاجلة، ولا ريب أن محبة الملائكة لهم ومحبة المؤمنين ينالهم فيها خيرات كثيرة فنفس محبتهم لهم نافعة لهم حيث كانت لله متصلة به وما يتأثر عنها من الدعاء والثناء والصلاة عليهم، وإذا أحبه المؤمنون ووضع له القبول بين الناس كان كلامه معتبرا ونصائحه مقبولة وآثاره مأثورة وأقواله وأفعاله مؤتما بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وفي هذا الحديث كغيره من النصوص في الكتاب والسنة إثبات محبة الله لأحبابه ولخيار خلقه، وأن ثمراتها أجلّ الثمرات، فإذا كانت هذه الثمرات الخارجية محبة خيار الخلق له من الملائكة والآدميين فما ظنك بما يوفقه الله له من الأعمال الداخلة في كسبه وأن الله سينميها له أضعافا مضاعفة وما ذلك على كرم الودود بعزيز.

١٧- وعنه رضي الله عنه مرفوعا: «**عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل**». رواه أحمد والبخاري[٢].

وهؤلاء هم الذين كانوا راضين بما هم عليه من الكفر وترك الإيمان بالله المفضي

(١) البخاري (٣٢٠٩)، مسلم (٢٦٣٧).

(٢) البخاري (٣٠١٠)، أحمد (٨٠١٣).

بصاحبه إلى الهلاك الأبدي، فيقيض الله لهم من يلزمهم أن يهتدوا إلزاما؛ إما بجهاد المجاهدين الذين يجاهدون في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا؛ فيقاومونهم هؤلاء الكفار فينصر الله المسلمين عليهم ويذعنون إلى الحق ويدخلون في الدين كرها وخوفا، وبعد ذلك يكون الدين أحب إليهم من كل شيء كما هو حال أكثر من يدخل في الإسلام رهبة أو رغبة، وكذلك من يلتزم التوبة من العصاة، أو يسلك طريقا من الخير بغير اختياره ثم بعد ذلك يحسن نيته وقد ورد في الحديث: إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن[1].

وعن جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**» - وتلا قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[ق: ٣٩]. رواه الجماعة[2].

هذا الحديث من جملة الأدلة الكثيرة الدالة على أن المؤمنين يرون ربهم تعالى في الجنة ويتنعمون برؤيته، وذكر لهم هذا المثال الذي هو أوضح الأمثلة، وهذا تمثيل للرؤية بالرؤية لا للمرئي - وهو القمر - بالمرئي وهو الله؛ لأنه ليس كمثله شيء. وبعدما ذكر النبي ﷺ رؤيتهم لله تعالى حضهم على المحافظة على صلاة الفجر وصلاة العصر؛ لأنه ثبت في الصحيحين: «**من حافظ على البردين دخل الجنة**»[3]. أي: ومن دخل الجنة رأى ربه تبارك وتعالى.

وقد ثبت في الصحيح أن خواص الخلق ينظرون إلى ربهم بكرة وعشيا[4]، فلعل الحديث أشار إلى أن من حافظ على الفجر والعصر وافتتح نهاره وختمه بذكر الله - رجي أن يكون من الذين ينظرون إلى الله بكرة وعشيا.

---

(١) قول مأثور عن عمر بن الخطاب، أورده الخطيب في تاريخ بغداد ١/ ١٠٧.

(٢) البخاري (٥٧٣)، مسلم (٦٣٣)، أبو داود (٤٧٢٩)، الترمذي (٢٥٥١).

(٣) البخاري (٥٧٤)، مسلم (٦٣٥). بلفظ مقارب.

(٤) الترمذي (٢٥٥٣).

١٨- وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه**». رواه البخاري[1].

هذا أشرف حديث في فضل الأولياء أو كرامتهم على الله؛ فمن ذلك أن الله جعل معاداتهم محاربة له لمحبته لهم وعلو مقامهم وأن الله تعالى يسددهم في جميع حركاتهم وسكناتهم ويكون معهم في كل أحواله إذا قاموا بولايته، وأن ولاية الله مدارها على أداء فرائض الله والقيام بحقوقه وحقوق عباده، ثم الازدياد من نوافل العبادات كلها من صلاة وصيام وصدقة وحج وذكر وقراءة وتعلم علم وتعليمه، وذلك من العبادات ومن الإحسان المتعلق بمن لهم حق خاص من أقارب وجيران ومماليك ومعاملين وأصحاب، ومن لهم حق عام من جميع الخلق فمن أدى الفرائض وتقرب إلى الله بالنوافل - أحبه الله وسدده وكان الله معه وأجاب الله دعوته وأحب الله كرامته وكره الله مساءته حتى في الأمر الذي لا بد منه وهو الموت، فإن الله قضى قضاء محتما أن كل نفس ذائقة الموت، ولما كان وليه عنده في غاية الكرامة والله أرحم به من والديه ومن نفسه - صارت كراهة الولي للموت يكرهها الله لمشقتها على عبده المؤمن، ولكن الله منفذ أمره، ومع ذلك فهذه المشقة العظيمة التي يجدها المؤمن عند الموت يثيبه الله عليها، فإنه تعالى قضى أنه لا يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه[2]. وكذلك مع ثوابه يلطف به في هذا المصرع ويتحمل عنه ويسهل عليه، فإنه من تعرف إلى الله في الرخاء عرفه في الشدة وأعانه على كل مشقة.

---

(١) البخاري (٦٥٠٢).

(٢) البخاري (٥٦٤٢)، مسلم (٢٥٧٢).

وفي هذا الحديث إثبات محبة الله لعباده المؤمنين وأنها تتفاوت بتفاوت ما منّ الله به على أوليائه من طاعته وطاعة رسوله قلةً وكثرة وحسنا وضده، وفيه أن الفرائض أفضل من النوافل وأنها مقدمة عليها فمتى تزاحمت الفرائض والسنن فالفرائض هي المقدمة. اللهم إنا نسألك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يقربنا إلى حبك.

وفي الحديث برهان على أن محبة الله غير مشيئته، فإن مشيئته تتعلق بكل كائن موجود فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأما محبة الله فإنها تتعلق بما يحبه الله من الأشخاص والأعمال فمحبته خاصة ومشيئته عامة.

واعلم أن معاداة أولياء الله نوعان:

- **أحدهما**: أن يعاديهم لأجل ولايتهم لله وقيامهم بدينه، فهذا كفر وردة ومحاربة تامة لله ورسوله.
- **والنوع الثاني**: أن يعاديهم لأغراض دنيوية ولعصبية جاهلية ولتأويل يحسبه المتأول حقًّا، فهذا لا يلحق بالأول، وهذا النوع مراتب بحسب الدواعي إلى هذه المعاداة، وبحسب ما يقوم في القلوب من الشبه حتى قد يشتبه الأمر على طائفتين أو شخصين كل منهم يرى أن الحق معه، وكلهم يريد الحق، فهذا النوع لا يدخل في هذا الحديث فلا بد من هذا النظر وهذا التفصيل، وتفصيل القضايا في هذا يطول. والله أعلم.

١٩- وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يـنـزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من ما يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له». متفق عليه[1].

أحاديث نزول الرب إلى السماء الدنيا تواترت واعتقدها أهل السنة على حقيقتها وتبرءوا من تحريفات أهل البدع، وعلموا مع ذلك أن الله لم يزل ولا يزال عليًّا، وأنه ينزل كيف يشاء

(١) البخاري (١١٤٥)، مسلم (٧٨٥).

ليس كمثله شيء، وهذا يدل على كمال رحمته وعنايته العظيمة بعباده ولهذا في بعض ألفاظ هذا الحديث أن الله يقول: «**لا أسأل عن عبادي غيري**»(١). وهذا من رحمته الخاصة حيث يدعو عباده إلى دعائه وسؤاله واستغفاره ووعده أن يستجيب لهم، وحث لهم على القيام في آخر الليل والتهجد والتضرع إليه، وهذا أخص من قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ﴾ [غافر: ٦٠]. فتبارك من كثرت خيراته وتوالت على عباده مبراته وبركاته.

٢٠- وعن أبي موسى مرفوعا: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**». رواه البخاري(٢).

الظاهر أن هاتين الجنتين الذهبيتين والجنتين الفضيتين هما المذكورتان في قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]. وهما الذهبيتان، ثم وصفهما بتلك الأوصاف العظيمة ثم قال: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٢]. وهما الفضيتان، ثم وصفهما، وفي كلتا الجنتين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وفي هذا الحديث بيان لكمال قربهم من ربهم وابتهاجهم برضوانه والنظر إليه، وأهل الجنة درجات متفاوتة جدًّا بحسب ما قاموا به من الإيمان وشرائعه؛ فأعلاهم المقربون وهم السابقون في الدنيا إلى كل خير، ثم المقتصدون، ثم من دونهم وما فيهم دني، بل كل واحد عنده من النعيم الكامل والسرور التام وأصناف الخيرات ما لا يريد له بدلا ولا يطلب عنه حولا، نسأل الله من فضله وكرمه.



(١) أحمد (١٦٢١٥)، الدارمي (١٥٢٢).

(٢) البخاري (٤٨٧٨)، مسلم (١٨٠).

مجموع مؤلفات ابن سعدي (٣٢)



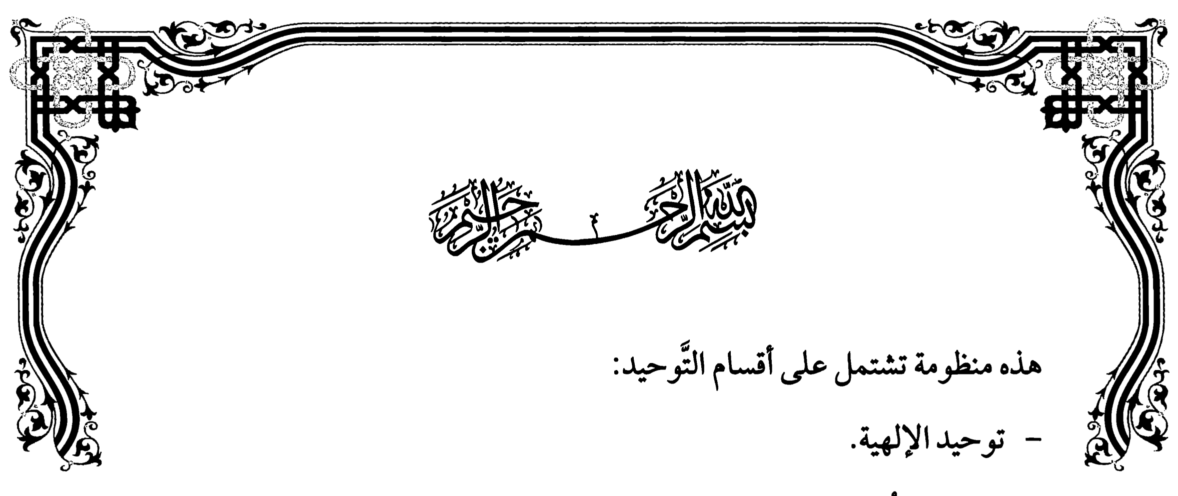
منظومة في العقيدة والأخلاق

تأليف

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله



هذه منظومة تشتمل على أقسام التَّوحيد:

- توحيد الإلهية.
- وتوحيد الرُّبوبية.
- وتوحيد الأسماء والصِّفات.
- وعلى أمَّهات عقائد أهل السُّنَّة والجماعة التي اتَّفقوا عليها.
- وعلى التَّفكُّر في مخلوقات الله، وآياته الدَّالة عليه.
- وعلى أسمائه وصفاته.

ومشتملة على:

- التَّخلُّق بالأخلاق الجميلة.
- والتنزُّه من الأخلاق الرَّذيلة.

إذ هذه الأمور أصول العلوم وأمَّهاتها، وهي للشَّيخ: عبد الرَّحمن بن ناصر السَّعدي، جزاه الله خيرًا، آمين، وهي هذه

مقدمة

١- فَيَا سَائِلًا عَنْ مَنْهَجِ الْـحَقِّ يَبْتَغِي سُلُوكَ طَرِيقِ الْقَوْمِ[1] حَقًّا وَيَسْعَدُ

٢- تَأَمَّلْ هَدَاكَ اللهُ مَا قَدْ نَظَمْتُهُ تَأَمُّلَ مَنْ قَدْ كَانَ لِلْحَقِّ يَقْصِدُ

[في التوحيد]

٣- نُقِرُّ بِأَنَّ اللهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ إِلَـهٌ عَلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ مُمجَّدُ

٤- وَنَشْهَدُ أَنَّ اللهَ مَعْبُودُنَا الَّذِي نُخَصِّصُهُ بِالحُبِّ ذُلًّا وَنُفـرِدُ

٥- فلِلَّهِ كُلُّ الْـحَمْدِ وَالْـمَجْدِ وَالثَّنَا فَمِنْ أَجْلِ ذَا كُلٌّ إِلَى اللهِ يَقْصُدُ

٦- تُسبِّحهُ الْأَمْلَاكُ وَالْأَرْضُ وَالسَّمَا وَكُلُّ جَمِيعِ الْـخَلْقِ حَقًّا وَتَحْمَدُ[2]

[في التنزيه وصفات الرب الكريم]

٧- تَنَزَّهَ عَنْ نِدٍّ وَكُفْءٍ مُمَاثِلٍ وَعَنْ وَصْفِ ذِي النُّقْصَانِ جَلَّ الْـمُوَحَّدُ

٨- وَنُثْبِتُ أَخْبَارَ الصِّفَاتِ جَمِيعَهَا وَنَبْرَأُ مِنْ تَأْوِيلِ مَنْ كَانَ يَجْحَدُ

٩- فَلَيْسَ يُطِيقُ الْعَقْلُ كُنْهَ صِفَاتِهِ فسَلِّمْ لِـمَا قَالَ الرَّسُولُ مُحَمَّدُ

١٠- هُوَ الصَّمَدُ الْعَالِي لِعِظَمِ صِفَاتِهِ وَكُلُّ جَمِيعِ الْـخَلْقِ للهِ يَصْمُدُ

١١- عَلِيٌّ عَلَا ذَاتًا وَقَدْرًا وَقَهْرُهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ بِالوَرَى مُتَوَدِّدُ

---

(١) يريد بالقوم الصحابة والتابعين وتابعيهم من السلف الصالح رضوان الله عليهم جميعا.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

١٢- هُوَ الحَيُّ وَالقَيُّومُ ذُو الْجُودِ وَالْغِنَى وَكُلُّ صِفَاتِ الْحَمْدِ للهِ تُسْنَدُ

١٣- أَحَاطَ بِكُلِّ الْخَلْقِ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَبِـرًّا وَإِحْـسَـانًـا فَـإِيَّـاهُ نَعْبُدُ

١٤- وَيُبْصِـرُ ذَرَّاتِ الْعَوَالِمِ كُلِّهَا وَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ الْعِبَادِ وَيَشْهَدُ

١٥- لَهُ الْـمُلْكُ وَالْحَمْدُ الْـمُحِيطُ بِمُلْكِهِ وَحِكْمَتُهُ الْعُظْمَى بِهَا الْخَلْقُ تَشْهَدُ

١٦- وَنَشْهَدُ أَنَّ اللهَ يَنْزِلُ فِي الدُّجَى كَمَا قَالَهُ الْـمَبْعُوثُ بِالحَقِّ أَحْمَدُ[١]

[الإيمان بالرسل]

١٧- وَنَشْهَدُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَ رُسْلَهُ بِآيَاتِهِ لِلْخَلْقِ تَهْدِي وَتُرْشِدُ[٢]

١٨- وَفَاضَلَ بَيْنَ الرُّسْلِ وَالْخَلْقِ كُلِّهِمْ بِحِكْمَتِهِ جَلَّ العَظِيمُ الْـمُوَحَّدُ[٣]

١٩- فَأَفْضَلُ خَلْقِ اللهِ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَا نَبِيُّ الْهُدَى وَالعَالَـمِينَ مُحَمَّدُ[٤]

[في الصحابة وآل البيت]

٢٠- وَخَصَّ لَهُ الرَّحمنُ أَصْحَابَهُ الأُلَى أَقَامُوا الْهُدَى وَالدِّينَ حَقًّا وَمَهَّدُوا

٢١- فَحُبُّ جَمِيعِ الآلِ وَالصَّحْبِ عِنْدَنَا مَعَاشِرَ أَهْلِ الْحَقِّ فَرْضٌ مُؤَكَّدُ

---

(١) يشير إلى قول النبي ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ». البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

(٢) كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

(٣) كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

(٤) كما قال النبي ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ». الترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨) وغيرهما.

[القرآن كلام الله ليس بمخلوق]

٢٢- وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ الْحَقِّ أَنَّ كَلَامَهُ هُوَ اللَّفْظُ وَالمَعْنَى جَمِيعًا مُجَوَّدُ

٢٣- وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ وَأَنَّى لِخَلْقِهِ بِقَوْلٍ كَقَوْلِ اللهِ إِذْ هُوَ أَمْجَدُ

[كل الأمور بتقدير الله]

٢٤- وَنَشْهَدُ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّـرَّ كُلَّهُ بِتَقْدِيرِهِ وَالْعَبْدُ يَسْعَى وَيَجْهَدُ

[في الإيمان]

٢٥- وَإِيمَانُنَا قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَنِيَّةٌ[1] مِنَ الْخَيْرِ وَالطَّاعَاتِ فِيهَا نُقَيِّدُ

٢٦- وَيَزْدَادُ بِالطَّاعَاتِ مَعْ تَرْكِ مَا نَهَى وَيَنْقُصُ بِالعِصْيَانِ جَزْمًا وَيَفْسُدُ[2]

[أحوال القيامة]

٢٧- نُقِرُّ بِأَحْوَالِ القِيَامَةِ كُلِّهَا وَمَا اشْتَمَلَتْهُ الدَّارُ حَقًّا وَنَشْهَدُ

---

(١) يشير إلى قول أهل السنة: الإيمان قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان. على أن عبارات السلف تختلف فى التعبير عن هذا المعنى . فتارة يقولون: هو قول وعمل، وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية، وتارة يقولون: قول وعمل ونية واتباع سنة، وتارة يقولون: قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح . وكل هذا صحيح . وقد بينه ابن تيمية فى مجموع الفتاوى ٧/ ١٧٠، والإيمان ص١٢٢ . ويمكن الرجوع إلى ابن أبى شيبة: الإيمان ص ٥٠، والبغوي: شرح السنة ١/ ٣٨، ٣٩، والنووي: شرح صحيح مسلم ١/ ١٤٦، واللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٤/ ٨٣٢، وابن عبد البر: التمهيد ٩/ ٢٣٨، وابن حزم: الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٤/ ١٩٤، ١٩٥، وابن تيمية: مجموع الفتاوي ٧/ ١٧٠، وابن حجر: فتح الباري ١/ ٤٧، وابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٤٥٩، والسفاريني: لوامع الأنوار ١/ ٤٠٣ .

(٢) وهو مذهب أهل السنة خلافا للأشاعرة، ينظر اعتقاد الإمام المنبل أبي عبد الله أحمد بن حنبل ص ٣٧، وشرح النووي على صحيح مسلم ١/ ١٤٦، وشرح السنة للبغوي ١/ ٣٨، وشعب الإيمان للبيهقي ١/ ٧٧، والتمهيد لابن عبد البر ٩/ ٢٣٨، ولوامع الأنوار للسفاريني ١/ ٤٣١.

[آثار الخالق]

٢٨- تَفَكَّرْ بِآثَارِ العَظِيمِ وَمَا حَوَتْ ... مَمَالِكُهُ العُظْمَى لَعَلَّكَ تَرْشُدُ

٢٩- أَلَمْ تَرَ هَذَا اللَّيْلَ إِذْ جَاءَ مُظْلِمًا ... فَأَعْقَبَهُ جَيْشٌ مِنَ الصُّبْحِ يَطْرُدُ

٣٠- تَأَمَّلْ بِأَرْجَاءِ السَّمَاءِ جَمِيعِهَا ... كَـوَاكِـبُـهَـا وَقَّـادَةٌ تَـتَـرَدَّدُ

٣١- أَلَيْسَ لِهَذَا مُحدِثٌ مُتَصَرِّفٌ ... حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَاحِدٌ مُتَفَرِّدُ

٣٢- بَلَى وَالَّذِي بِالحقِّ أَتْقَنَ صُنْعَهَا ... وَأَوْدَعَـهَـا الأَسْـرَارَ للهِ تَشْهَدُ

[آيات الله في الكون]

٣٣- وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِـمَنْ كَانَ مُوقِنًا ... وَمَا تَنْفَعُ الْآيَاتُ مَنْ كَانَ يَجْحَدُ

٣٤- وَفِي النَّفْسِ آيَاتٌ وَفِيهَا عَجَائِبٌ ... بِهَا يُعْرَفُ اللهُ العَظِيمُ وَيُعْبَدُ

٣٥- لَقَدْ قَامَتِ الْآيَاتُ تَشْهَدُ أَنَّهُ ... إِلَـهٌ عَظِيمٌ فَضْلُهُ لَيْسَ يَنْفَدُ

٣٦- فَمَنْ كَانَ مِنْ غَرْسِ الْإِلَهِ أَجَابَهُ ... وَلَيْسَ لِـمَـنْ وَلَّـى وَأَدْبَـرَ مُسْعِـدُ

[الأمر بالتقوى والإخلاص والتوكل]

٣٧- عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ فِي فِعْلِ أَمْرِهِ ... وَتَجْتَنِبُ الْـمَنْـهِيَّ عَنْهُ وَتُبْعِدُ

٣٨- وَكُنْ مُخْلِصًا للهِ وَاحْذَرْ مِنَ الرِّيَا ... وَتَابِعْ رَسُولَ اللهِ إِنْ كُنْتَ تَعْبُدُ

٣٩- تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحمنِ حَقًّا وَثِقْ بِهِ ... لِيَكْفِيكَ مَا يُغْنِيكَ حَقًّا وَتَرْشُدُ

[في الصبر وتطهير القلب من الآفات]

٤٠- تَصَبَّرْ عَنِ العِصْيَانِ وَاصْبِرْ لِـحُكْمِهِ ... وَصَابِرْ عَلَى الطَّاعَاتِ عَلَّكَ تَسْعَدُ

٤١- وَكُنْ سَائِرًا بَيْنَ الْـمَخَافَةِ وَالرَّجَا ... هُمَا كَجَنَاحَيْ طَائِرٍ حِينَ تَقْصِدُ

٤٢- وَقَلْبَكَ طَهِّرْهُ وَمِنْ كُلِّ آفَةٍ ... وَكُـنْ أَبَـدًا عَـنْ عَيْبِهِ تَتَفَقَّدُ

[إسداء النصح للخلق]

٤٣- وَجَمِّلْ بِنُصْحِ الْخَلْقِ قَلْبَكَ إِنَّهُ   لَأَغْلَى جَمَالٍ لِلْقُلُوبِ وَأَجْـوَدُ

[في الصاحب]

٤٤- وَصَاحِبْ إِذَا صَاحَبْتَ كُلَّ مُوَفَّقٍ   يَقُودُكَ لِلْخَيْرَاتِ نُصْحًا وَيُرْشِدُ

٤٥- وَإِيَّاكَ وَالْـمَرْءَ الَّذِي إِنْ صَحِبْتَهُ   خَسِـرْتَ خَسَارًا لَيْسَ فِيهِ تَرَدُّدُ

[التحلي بمكارم الإخلاق]

٤٦- خُذِ العَفْوَ مِنَ أَخْلَاقِ مَنْ قَدْ صَحِبْتَهُ   كَمَا يَأْمُرُ الرَّحْمَنُ فِيهِ وَيُرْشِدُ

٤٧- تَرَحَّلْ عَنِ الدُّنْيَا فَلَيْسَتْ إِقَامَةً   وَلَـكِـنَّـهَـا زَادٌ لِـمَـنْ يَـتَـزَوَّدُ

٤٨- وَكُنْ سَالِكًا طُرْقَ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا   إِلَى المَنْزِلِ البَاقِي الَّذِي لَيْسَ يَنْفَدُ

[في الذكر]

٤٩- وَكُنْ ذَاكِرًا للهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ   فَلَيْسَ لِذِكْرِ اللهِ وَقْتٌ مُقَيَّدُ

٥٠- فَذِكْرُ إِلهِ الْعَرْشِ سِرًّا وَمُعْلَنًا   يُزِيلُ الشَّقَا وَالهَمَّ عَنْكَ وَيَطْرُدُ

٥١- وَيَجْلِبُ لِلْخَيْرَاتِ دُنْيَا وَآجِلًا   وَإِنْ يَأْتِكَ الْوَسْوَاسُ يَوْمًا يُشَـرِّدُ

٥٢- فَقَدْ أَخْبَرَ الْمُخْتَارُ يَوْمًا لِصَحْبِهِ   بِأَنَّ كَثِيرَ الذِّكْرِ فِي السَّبْقِ مُفْرِدُ

٥٣- وَوَصَّى مُعَاذًا يَسْتَعِينُ إِلهَهُ   عَلَى ذِكْرِهِ وَالشُّكْرِ بِالْحُسْنِ يَعْبُدُ

٥٤- وَأَوْصَى لِشَخْصٍ قَدْ أَتَى لِنَصِيحَةٍ   وَقَدْ كَانَ فِي حَمْلِ الشَّـرَائِعِ يَجْهَدُ

٥٥- بِأَنْ لَا يَزَلْ رَطْبًا لِسَانُكَ هذِهِ   تُعِينُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ وَتُسْعِدُ

٥٦- وَأَخْبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ غَرْسٌ لِأَهْلِهِ   بِجَنَّاتِ عَدْنٍ وَالمَسَاكِنُ تُمْهَدُ

٥٧- وَأَخْبَرَ أَنَّ اللهَ يَذْكُرُ عَبْدَهُ   وَمَعْهُ عَلَى كُلِّ الْأُمُـورِ يُسَدِّدُ

٥٨- وَأَخْبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ يَبْقَى بِجَنَّةٍ   وَيَنْقَطِعُ التَّكْلِيفُ حِينَ يُخَلَّدُوا

٥٩- وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذِكْرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ   طَرِيقٌ إِلَى حُبِّ الْإِلَـهِ وَمُرْشِدُ

[النهي عن مساوئ الأخلاق]

٦٠- وَيَنْهَى الفَتَى عَنْ غِيبَةٍ وَنَمِيمَةٍ   وَعَنْ كُلِّ قَوْلٍ لِلدِّيَانَةِ مُفْسِدُ

٦١- لَكَانَ لَنَا حَظٌّ عَظِيمٌ وَرَغْبَةٌ   بِكَثْرَةِ ذِكْرِ اللهِ نِعْمَ المُوَحَّدُ

٦٢- وَلَكِنَّنَا مِنْ جَهْلِنَا قَلَّ ذِكْرُنَا   كَمَا قَلَّ مِنَّا لِلْإِلَـهِ التَّعَبُّدُ

[الخاتمة]

٦٣- وَسَلْ رَبَّكَ التَّوْفِيقَ وَالفَوْزَ دَائِمًا   خَابَ عَبْدٌ لِلْمُهَيْمِنِ يَقْصِدُ

٦٤- وَصَلِّ إِلهِي مَعْ سَلَامٍ وَرَحْمَةٍ   عَلَى خَيْرِ مَنْ قَدْ كَانَ لِلْخَلْقِ يُرْشِدُ

٦٥- وَآلٍ وَأَصْحَابٍ وَمَنْ كَانَ تَابِعًا   صَلَاةً وَتَسْلِيمًا يَدُومُ وَيَخْلُدُ

تَمَّت، غفر الله لكاتبها وناظمها وقارئها ومن قال: آمين، وجميع المسلمين.

وصلَّى اللهُ على محمدٍ ١٣٤٥هـ.

رسالة في خروج الدابة وحقيقتها

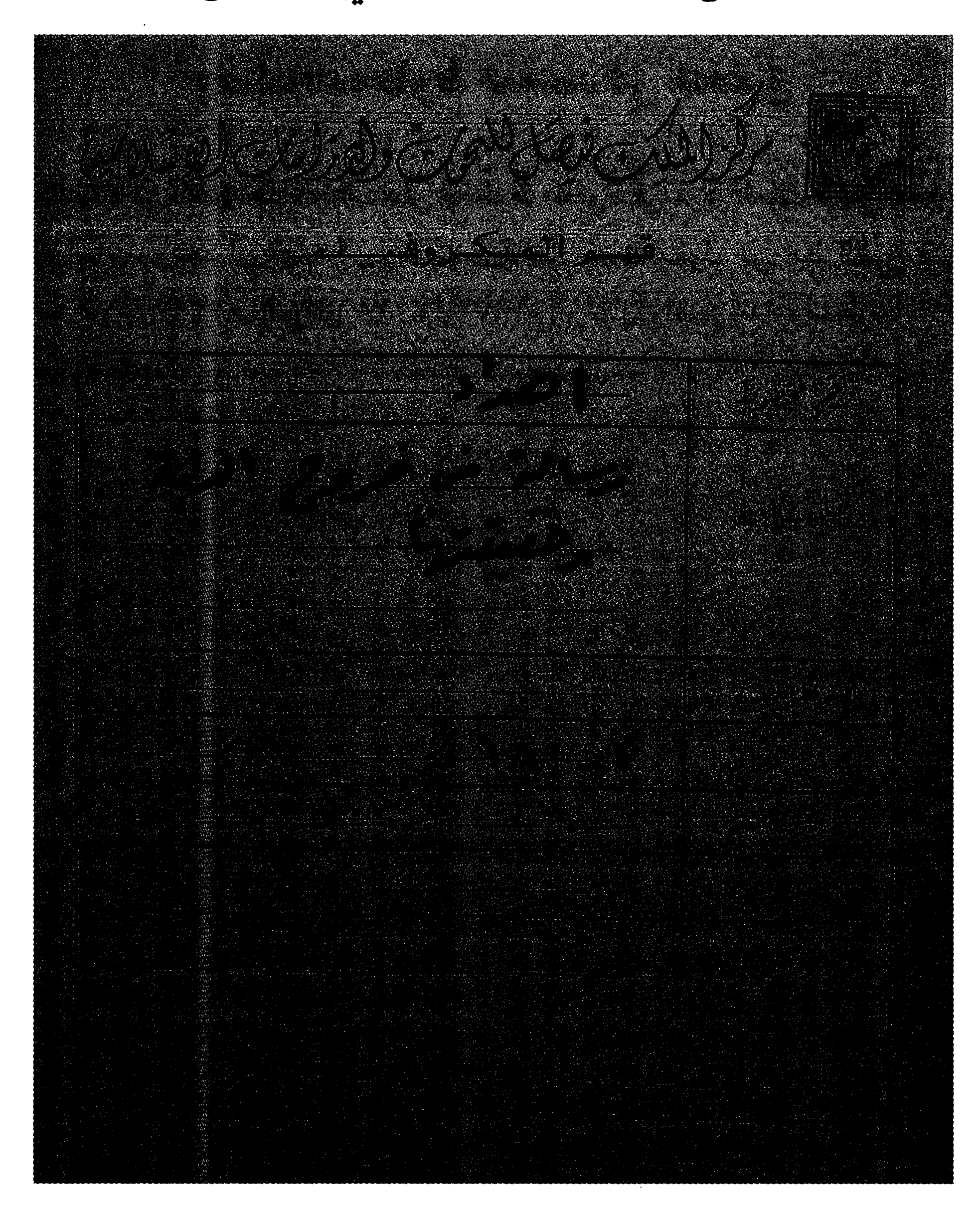
تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

وصف المخطوط المعتمد في التحقيق

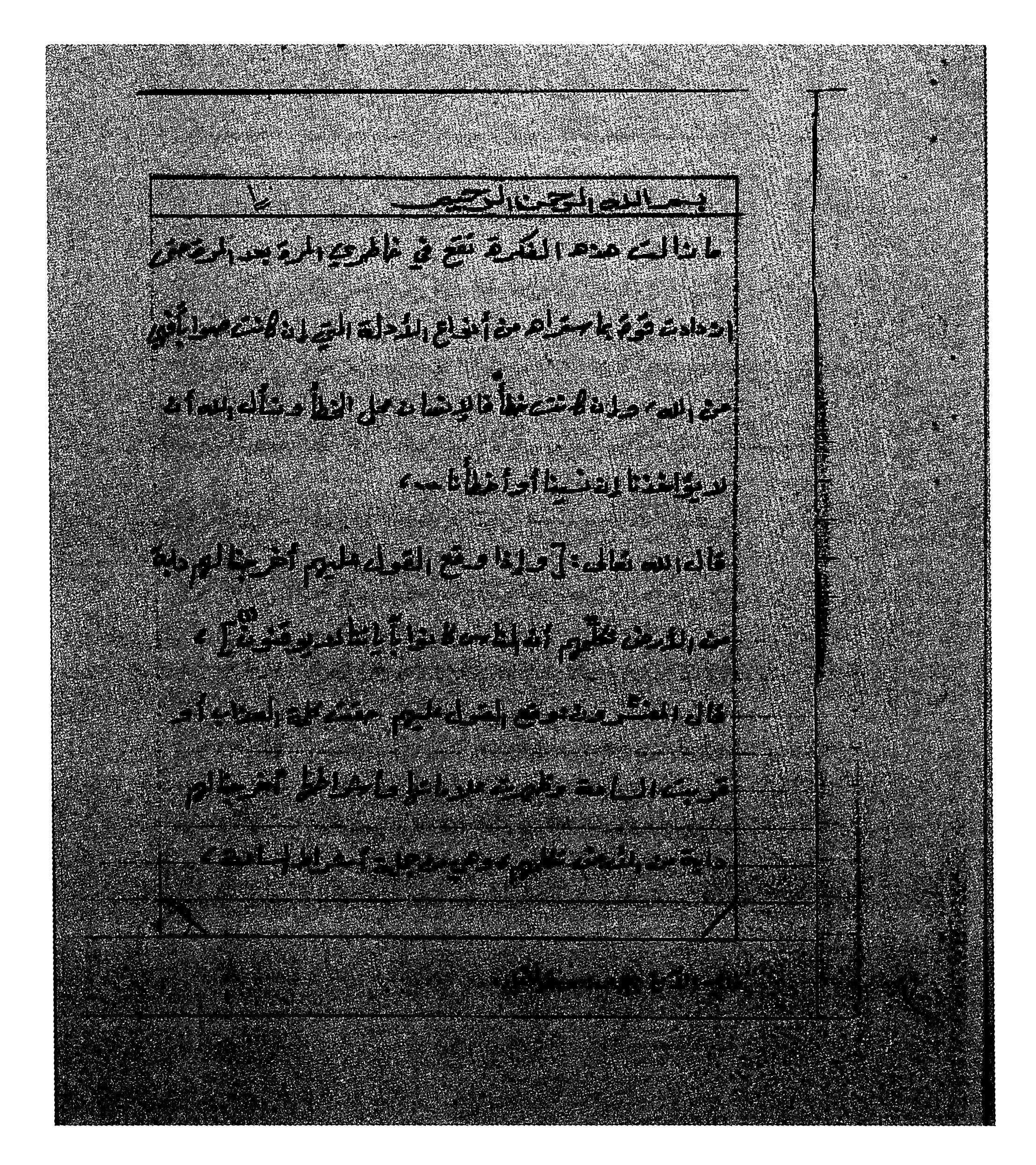
اعتمدنا في تحقيق هذا الكتاب على مخطوط محفوظ في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، وعدد أوراقها ١٨ ورقة كتبت بخط حديث منقول عن خط الشيخ صباح الأحد ٧/ ٥/ ١٣٩٢هـ الموافق ١٨/ ٦/ ١٩٧٢م، وخطها واضح جدا، ومسطرتها ١٠ في الأعم الأغلب.



نماذج المخطوط المعتمد في التحقيق



صورة اللوحة الأولى



بسم الله الرحمن الرحيم

ما زالت هذه الفكرة تقع في خاطري المرة بعد المرة حتى

ازدادت قوة بما استقر من أنواع الأدلة التي إن كانت صوابا فمن

من الله، وإن كانت خطأ فإني شاك من حمل الخطأ وسائل الله أن

لا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ...

قال الله تعالى: [وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة

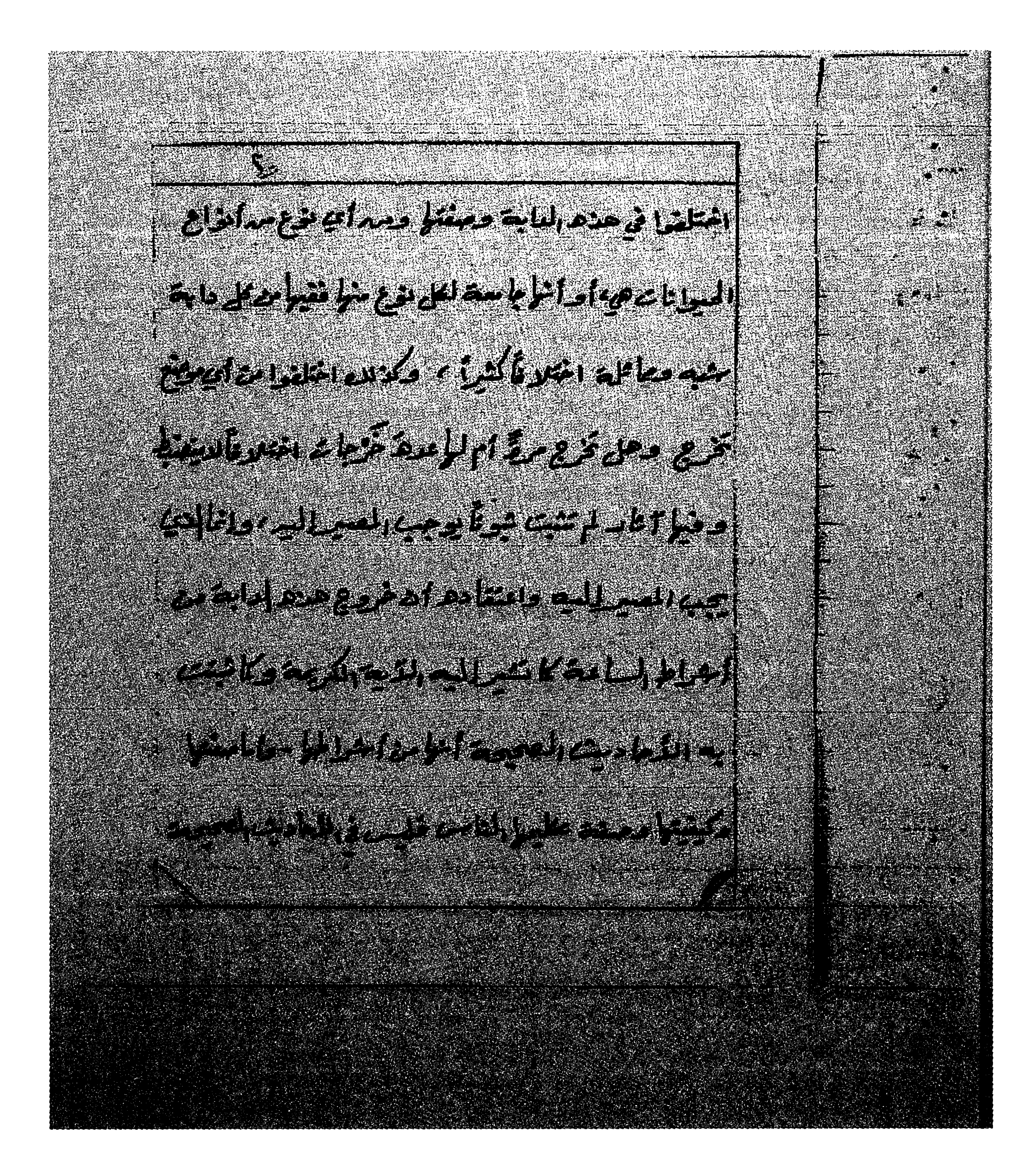
من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون]،

قال المفسرون ومعنى وقع القول عليهم حقت كلمة العذاب أو

قربت الساعة وظهرت علاماتها وأشراطها أخرج لهم

دابة من الأرض تكلمهم وهي من جملة أشراط [illegible]

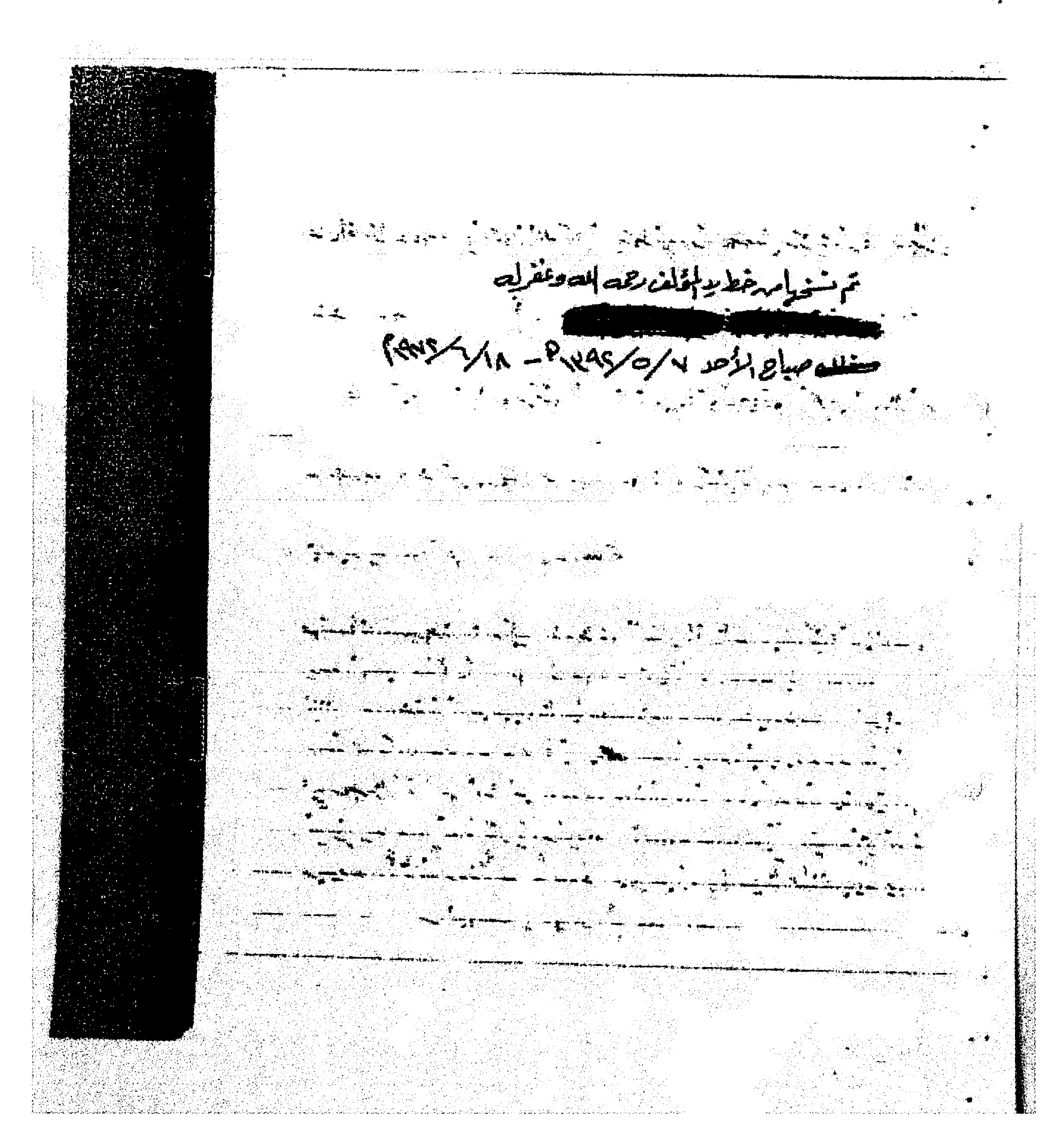
صورة اللوحة الثانية



اختلفوا في هذه الدابة وصفتها ومن أي نوع من أنواع
الحيوانات هي أو أنها جامعة لكل نوع منها ففيها من كل دابة
شبه ومماثلة اختلافاً كثيراً، وكذلك اختلفوا من أي موضع
تخرج وهل تخرج مرة أم لها عدة خرجات اختلافاً لا ينضبط
وفيها آثار لم تثبت ثبوتاً يوجب المصير إليه، وإنما الذي
يجب المصير إليه واعتقاده أن خروج هذه الدابة من
أشراط الساعة كما تشير إليه الآية الكريمة وكما ثبتت
به الأحاديث الصحيحة أنها من أشراطها العظام وأما صفتها
وكيفيتها وصفة تكليمها الناس فليس في الأحاديث الصحيحة

صورة اللوحة الثالثة

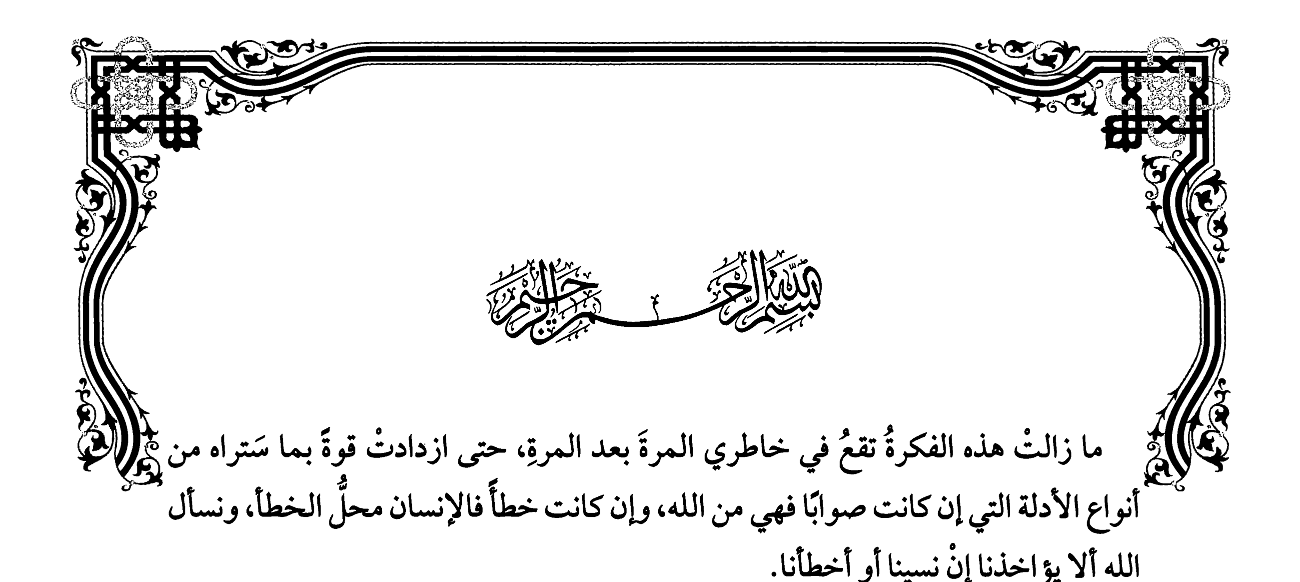
صورة اللوحة الرابعة



تم نسخها من خط يد المؤلف رحمه الله وغفر له

صباح الأحد ٧/٥/١٣٩٢هـ - ١٨/٦/١٩٧٢م

صورة اللوحة الأخيرة



ما زالتْ هذه الفكرةُ تقعُ في خاطري المرةَ بعد المرةِ، حتى ازدادتْ قوةً بما سَتراه من أنواع الأدلة التي إن كانت صوابًا فهي من الله، وإن كانت خطأً فالإنسان محلُّ الخطأ، ونسأل الله ألا يؤاخذنا إنْ نسينا أو أخطأنا.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾[1].

قال المفسرون[2]:

- ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾: حقت كلمة العذاب، أو قربت الساعة وظهرت علاماتها وأشراطها.
- ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾. وهي من جملة أشراط الساعة؛ اختلفوا في هذه الدابّة - وصفتِها ومن أي نوع من أنواع الحيوانات هي، أو أنها جامعةٌ لكل نوعٍ منها ففيها من كل دابة شبه ومماثلة- اختلافًا كثيرًا، وكذلك اختلفوا من أي موضَع تخرج، وهل تخرج مرة أم لها عدة خَرْجات؟ اختلافًا لا ينضبط، وفيها آثار لم تثبت ثبوتًا يوجب المصير إليه[3]، وإنما الذي يجب المصير إليه واعتقاده

---

(١) سورة النمل، الآية: ٨٢.

(٢) انظر: المحرر الوجيز٤/ ٢٧٠، والبحر المحيط٨/ ٢٦٨، والجواهر الحسان للثعالبي٤/ ٢٥٨.

(٣) منها ما أخرجه أحمد(٢٣٠٢٣)، وابن ماجه(٤٠٦٧) ولفظه عن بريدة قال: ذهب بي رسول الله ﷺ إلى موضع بالبادية قريبا من مكة، فإذا أرض يابسة حولها رمل، فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الدابة =

أن خروج هذه الدابة من أشـراط السـاعة؛ كما تشير إليه الآية الكريمة، وكما ثبتت به الأحاديث الصحيحة أنها من أشراطها[1].

وأما صفتها وكيفيتها وصفة تكليمها الناس: فليس في الأحاديث الصحيحة منه شيء، وإنما في الأحاديث ذكر الدابّة مطلقًا، والآية الكريمة تدل على أنها اسم جنس؛ ولهذا قال: ﴿دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ والدابة: تطلق على كل ما دَبَّ وَدَرَجَ من أي نوع من أنواع الحيوانات والأرواح[2]؛ فحيث لم يثبت في النص أن المراد به نوع معين لم يجز دعوى شيء من المعينات بغير دليل، ولكن بعدما ظهرت في هذه الأوقات الآلات الكهربائية الحاملة للأصوات من كل مكان قريب وبعيد، وتنوعت؛ من برقيات سلكية وبرقيات هوائية وتلفونية، وإذاعات بآلات كهربائية تجذبها الآلات المغناطيسية، فيتكلم الذي هو في مكان مفرط في البعد، فيُسمع كأنه حاضر يخاطب الحاضرين؛ بسبب هذه الآلات، فلا يستبعد أن هذا الكلام الخارق للعادة بهذه الآلات، الصادر من الآدميين المتكلمين بواسطة الكهربائية المستخرجة من أجزاء الأرض، والمتكلم بها من دواب الأرض أنه هو المراد بهذه الآية والأحاديث الصحيحة؛ لوجوه متعددة يرجع بعضها إلى احتمال اللفظ لهذا المعنى، ويرجع بعضها لاحتمال المعنى، ويرجع بعضها إلى عدم المعارض الذي يوجب المصير إليه أحد الوجوه فيها وهو:

= من هذا الموضع». فإذا فتر في شبر. ومنها في عدد الخرجات ما أخرجه الطيالسي (١١٦٥)، ونعيم بن حماد في الفتن(١٨٥١) والطبراني(٣٠٣٥)، والحاكم(٨٧٠٠) وفيه: «**يكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر...**».

(١) منها ما أخرجه أحمد(١٦١٤١)، ومسلم(٢٩٠١)، والترمذي(٢١٨٣)، وابن ماجه(٤٠٥٥) وفيه عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «**ما تذاكرون؟**». قالوا: نذكر الساعة، قال: «**إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات - فذكر - الدخان، والدجال، والدابة...**».

(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٥/ ٣٣٥٠، وتفسير الماوردي ٤/ ٤٧٩، والمنتقى شرح الموطأ١/ ٢٠١، وتفسير القرطبي١٤/ ٣٦١.

الوجه الأول:

أنه لم يتفق العلماء على أمر معين فيها ولا جنس معين؛ فمنهم من قال: إنها تشبه الحية. وقائل: إنها تشبه الفرس أو البغل أو الحمار. ومن قائل: إن فيها شبهًا من كل حيوان، ومن قائل: إنها إنسان عالم يكلم الناس ويردُّ على المبطلين. ونحو ذلك من الأقوال التي توجب التوقف فيها، وأحسن أحوالها الوقف وعدم الجزم بعينها وجنسها، فإذا نظرت إلى هذه الأقوال ونزّلتها على المعنى الذي ذكرناه رأيته أولى منها للوجوه التي نذكرها إن شاء الله.

الوجه الثاني:

أن وقوع القول على قول أكثر المفسرين؛ أنه قرب الساعة وظهور علاماتها، وقد صرحت الأحاديث أنها من أشراط الساعة وأماراتها، وهذا إنما وقع وانتشر في هذه الأوقات التي قرب فيها الوقت الذي تقوم بها الساعة؛ لكثرة العلامات الأخر الواقعة.

الوجه الثالث:

أن الدابة اسم جنس لا يراد به شيء معين، بل يراد به ما كان من نوع واحد وجنس واحد، وإذا كانت اسم جنس كان دخول ما ذكرناه من الكلام بالآلات المستخرجة من الأرض، من الآدمي الذي هو أحد دواب الأرض مع حدوثه وغرابته وخرقه للعوائد أولى بالدخول من غيره.

الوجه الرابع:

وهو أوضحها وأبينها أن قوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾. هو إخراج وتكليم خارق للعادة ومخالف للمعهود، فنفس تكليم هذه الدابة أمر عجيب، ولم يأت دليل صحيح على أنها دابة غير ناطقة حتى يقال: إن وجود النطق منها بعدما كانت لا تتكلم أمر عجيب؛ فإن احتمال تناولها للآدمي وغيره من الدواب الموجودة، والدواب المفقودة على السواء، وإذا كان ذلك كذلك فوجود هذا التكليم بهذه الآلات، بواسطة الآدمي لا ينكر

أنه هو المراد من النص؛ وذلك لحدوثه في هذا الزمان القريب، وغرابته العجيبة، وأنه من آيات الله؛ حيث علَّم الإنسان ما لم يعلم، وجعل من جواهر الأرض ومعادنها ما وصل به الإنسان إلى هذه الحال.

والدليل على أنه المراد بذلك، وأنه التكليم الخارق للعادة، أنه لو لم يكن كذلك لم يكن في ذكر التكليم، وعدم تقييده في شيء متكلم به فائدة، وكلام الله منزَّه عما لا فائدة فيه.

وأما قول من قال: إنها تكلمهم وتقول لهم: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾. فهذا ضعيف، بل هذا تعليل للكلام السابق، سواء قرئت بفتح الهمزة أو كسرها[1]؛ كما هو بيِّن للمتدبر، وعلى تقدير صحته فلا ينافي ما قلنا، ويدل على هذا قوله تعالى عن عيسى: ﴿وَيُكَلِّمُ[2] ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾[3]. كان المراد بتكليمه في المهد هو الكلام الخارق للعادة؛ لأنه كلام في تلك الحال من آيات الله وعجائبه، وكذلك كلامه كهلًا، فإنه كلام وحي ورسالة من الله خارج عن كلام البشر.

الوجه الخامس:

قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾. فيه تعليل لما تقدم من كلام الدابة، وتكليمها للناس، فكأن فيه إشارة إلى أن ظهور هذه الأمور العجيبة من الآدميين من أكبر الأدلة على آيات الله وقدرته، وعظمة سلطانه، وأن الذي قدَّر الآدمي على هذه الأمور الهائلة التي لا تكاد العقول تصدق بها، لولا مشاهدتها، لعظيم[4] القدرة وكامل العزة.

---

(١) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ كسرا، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ فتحا. انظر: السبعة لابن مجاهد ص ٤٨٧، والمبسوط في القراءات العشر لأبي بكر النيسابوري ص٣٣٥، والتيسير ص١٦٩، والنشر ٢/ ٣٣٨.

(٢) في المخطوط: وتكلم، ولم أجده في كتب القراءات المتواترة فلعلها خطأ.

(٣) سورة آل عمران، الآية:٤٦.

(٤) خبر أن في قوله: وأن الذي قدَّر الآدمي......إلخ.

فهذا الآدمي الضعيف في علمه وإرادته، وقدرته، وسائر صفاته أوصله الله إلى هذه الصنائع العجيبة، والأحوال الباهرة، فكيف يتنكر المنكرون قدرة الله على إحياء الموتى، ومجازاتهم بأعمالهم؛ خيرها وشرها، وهل هذا الإنكار إلا مجرد محض؟!

الوجه السادس:

أن القرآن تبيان لكل شيء، وقد احتوى على ما يحتاج الناس إلى معرفته من الشرائع والوقائع العامة وأمور الدين والدنيا.

فهذا الأمر الذي شاع، وذاع وعمَّ البسيطة بأسرها يبعد كل البعد ألا يكون في القرآن ما يدل عليه دلالة عامة ودلالة خاصة؛ ولهذا قال: ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾[1]، فعمَّ الناس، فهذا مطابق لهذا الواقع في إيصال الأصوات والمحال البعيدة بالآلات الموصلة والجاذبة الموجبة والسالبة.

الوجه السابع:

أن سياق الآيات التي قبلها والتي بعدها في تقرير الجزاء، وإقامة الحجة على من أنكر ذلك؛ فكان ذكر الدابة على الوجه الذي ذكرناه من أعظم الأدلة على إحياء الموتى، وأن استبعاد المكذبين لذلك بحسب ما ألفوه وعهدوه من قُدَرِ الخلق لا معنى له ولا شبهة فيه؛ للفرق العظيم بين قدرة من هو على كل شيء قدير، وقدرة العبد العاجز الضعيف، ثم يعارَضُون بهذه الأمور العجيبة المشاهدة التي أقدر الله الآدميَّ عليها مع ضعفه في علمه، وقدرته وسائر شئونه، فقد رأوا من الآدمي ما لو حُدِّثوا ببعضه قبل وقوعه لأنكروا ذلك أسوأ الإنكار، ونسبوا إلى الجنون من قاله، فها قد رأوا من أنفسهم ما ينكرون ويستبعدون على الله، فهلا صدَّقوا الله ورسله فيما أخبروا به من البعث والجزاء، الذي هو أهون من هذا بالنسبة إلى الحسيات والماديات، فكيف بالنسبة إلى عظمة الخالق، وكمال قدرته؟!

---

(١) في المخطوط: تكلم الناس، وما أثبت الصواب.

الوجه الثامن:

أنه قال قبلها: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾[١]. ثم ذكر ما يكون في آخر الزمان؛ ففيه أن القرآن فيه بيان الأمور السابقة والأمور اللاحقة، وأن كل أمر عظيم يقع فلا بد أن يوجد بيانه في القرآن.

يوضح هذه الأوجه: الوجه التاسع:

أن مخترعات الكهرباء الموصلة للأصوات للمحال البعيدة بأسرع من لمح البصر، هي دليل عقلي وحسي على أمور الغيب التي أخبر الله بها، وأخبر بها رسوله؛ فقد كان المنكرون لهذه الغيوب أبلغ شبههم في إنكارها مخالفتها للحس الذي اعتادوه، والمواد التي ألفوها، فإذا وقع القول عليهم، وقربت الساعة أخرج الله لهم هذه المخترعات العجيبة الناطقة بنطق خارق للعوائد، والناطقة بصدق ما أخبر الله به ورسوله، وقامت الحجة على المنكرين المكابرين من الدهريين[٢] والماديين، فلم تبق هذه الآية العظيمة لمنكري الغيوب أدنى شبهة وشك، لو كانوا يوقنون.

فقد أراهم الله حسًّا ما لو حدَّثت[٣] به الرسل قبل وقوعه على التفصيل لتوجه الإنكار

---

(١) سورة النمل، الآية: ٧٦.

(٢) طائفة من الأقدمين الذين جحدوا الصانع المدبر العالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه لا بصانع، ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان، كذلك كان وكذلك يكون أبدًا، وحكى الله عنهم في القرآن الكريم أنهم قالوا: ﴿ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤]. كما جحدوا الله سبحانه وتعالى، واعتقدوا جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها فرد الله تعالى عليهم باطلهم، فقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يس: ٣١]. الخوارزمي: مفيد العلوم ومبيد الهموم ص١٠٦، الغزالي: المنقذ من الضلال ص٤٧، التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ٢٧٤، ٢٧٥.

(٣) في المخطوط: أحدثت.

عليهم من أمثال هؤلاء المكذبين، فمعطي المخلوق الضعيف الناقص في علمه وقدرته أمثال هذه الأمور الهائلة، ووصوله إليها أكبر آية وبرهان لقوم يوقنون، ولعل هذا هو الفائدة بالتعليل بقوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾، أي لعدم مشاهدتهم ما يدل عليها من الحسيات عندهم؛ فأظهر الله هذه الآية؛ ليحصل اليقين وتقوم الحجة.

فإن قلت: فلأي شيءٍ لم يصرح الباري بذكرها على هذا الوجه المعروف بين الناس، بل قال على وجه الإجمال: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؟

فجوابه: أن هذا من أدلة كمال رحمته بعباده، وتمام حكمته، وسعة علمه، فإنه لو صرح بها على هذا الوجه الذي يعرفه الناس الآن؛ لكان في ذلك أعظم فتنة لأعداء الدين وأوليائه؛ لأن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تشاهد له نظيرًا، خصوصًا إذا بلغ في الاستغراب مبلغًا كبيرًا، فمن لطف الله تعالى أن ذكر هذه المخترعات بألفاظ عامة عند ظهورها، يتمكن البصير من تطبيقها عليها؛ إذ لو صرَّح بها في ذلك الوقت؛ لكان فتنة للناس؛ كما ذكرنا هذا المعنى على قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾[1]. من التفسير[2]، فلو أن الشارع أخبر في ذلك الزمان أن الناس سيتخاطبون من مشارق الأرض ومغاربها، وأنهم يطيرون في الهواء، ويخترعون الأمور الهائلة؛ لوقعت الفتنة، ولكن الله سلَّم، إنه عليم حكيم.

الوجه العاشر:

نسوق نموذجًا من الأدلة والبراهين على صدق ما أخبر الله به ورسوله؛ يحصل به اليقين ودفع شبه المكذبين، مستفاد من هذه الآية الكبرى؛ وذلك أن مبنى تكذيب المكذبين لله ورسوله فيما أخبر به من كمال قدرته، وسعة علمه، وأنه يبعث الأموات ويجازيهم بما

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٠.

(٢) مجموع المؤلفات ٢/ ٥٧٣.

عملوا - مبنى ذلك على مجرد استبعادات منهم، وأنهم يرون ذلك محالًا ممتنعًا بالنسبة إلى قدرة المخلوقين، وتعجيز خالقهم؛ كما بسط شبههم في كتابه، فيقال لهؤلاء المكذبين وأمثالهم: قد شاهدتم بأعينكم كيف يتكلم المذيع؛ فيسمع صوته مَن في المشارق والمغارب في لحظة واحدة على السواء؟! وهو ما هو؛ عبد ضعيف خرج من بطن أمه لا يعلم شيئًا، فلم يزل الله يعلمه ويرقيه في العلوم الكاشفة، والعلوم المؤثرة حتى وصل إلى هذه الحال.

أليس الذي أعطاه هذا وغيره أولى وأعظم، وأقدر على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم؟! أليس من عنده أدنى إنصاف، فضلًا عن الإيمان أنه ينتقل ذهنه لأول وهلة إلى الاعتراف بكمال قدرة الله، وأن كل ما أخبر به وأخبرت رسله مما كان وسيكون ليس بغريب، وليس محلًّا للاستبعاد بعدما شاهد صدور المستبعدات، بل المستحيلات من الآدمي الناقص الضعيف؟! أليس الذي أعطى الآدمي هذا العلم والقدرة أولى بذلك، وله المثل الأعلى؟! أليس الذي جعل عناصر العالم ومواد الكهرباء منقادة للآدمي ومسخَّرة له، يستعملها فيما شاء؛ من إيصال الأصوات والأنوار، وحمل الأثقال، وتسهيل الصعاب، وما ماثل ذلك، ألا يدل ذلك أنه على كل شيءٍ قدير، وبكل شيءٍ محيط، وأنه واسع الرحمة؛ بحيث إن رحمته وسعت كل شيء، وتنوعت للآدمي في جميع مطالبه ومآربه، وأن خلق العباد وبعثهم عنده كنفسٍ واحدة، وأنه يحاسب العباد الأولين والآخرين في ساعة واحدة، كما يرزقهم ويدبرهم بأنواع التدابير في ساعة واحدة، وأنه لا يشغله علم بعض العوالم عن علم بعضها، ولا يغيب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وَأنه ما ﴿تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾[1]، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾[2].

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

(٢) سورة لقمان، الآية:٢٧.

وأن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، وأن له من العظمة والكمال، والمجد والجلال ما لم يصل الأولون والآخرون منه إلا إلى أقل القليل، وأن الخلق مهما ارتقت معارفهم، واتسعت علومهم، فإنهم لا يحيطون بشيءٍ من صفاته، وأن الذي أوصل الآدمي إلى هذه الأحوال العجيبة هو الإله الذي لا تنبغي العبادة والتوجه والتأله[1] إلا له؛ لأنه ليس بالعباد نعمة إلا منه، ولا يكشف الشر إلا هو، وهو الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾[2]، وهي أيضًا من أكبر الحجج حين طغى الإلحاد وزخر[3] الماديون المنكرون لغير المحسوسات التي يعرفون موادها وكنهها، وما سوى ذلك من أمور الغيب التي أخبرت بها جميع الرسل فكابروا في إنكاره وتكذيبه، فهلا جعلوا ما مضى من الأزمنة السابقة نصب أعينهم، ثم فرضوا في تلك الأزمان بوجود آثار الكهربائية في هذا الزمان من صنع الآدمي الضعيف، فإنها إذا مرت أو بعضها بخواطرهم اعتبروها خيالات جنون، وفرض أمور محالة.

ورأوا الحديث عنها من ألاعيب الصبيان والسفهاء، ثم لم يفتأ الليل والنهار حتى جاءهم ما أرهقهم إلى الإذعان، وطفقوا يسعون لترقية هذه الأمور، وأنه في الإمكان مضاعفتها أضعافًا كثيرة، وابتكار أعمال مثلها، أو دونها، أو فوقها هم لها عاملون، فهلا أذعنوا لملك الملوك وكامل القدرة وعظيم السلطان، الذي إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، وهل أذعنوا لرسل الله وكُمَّلِ خلقه الذين ارتقوا في علية الأخلاق، وكمال الأرواح، وتزكية القلوب، وصدق الأقوال والأعمال والأحوال – مرتقًى أعظم وأعلى مما بين العالم العلوي والسفلي، وأعظم من نسبة الصناعات القديمة الساذجة إلى المخترعات الحديثة الهائلة؟! فالفرق بين أخلاقهم وأخلاق غيرهم أبلغ من هذا الفرق؛ لأن الأمور الحسية لا تنسب بوجه إلى الأمور

---

(١) التأله: التنسك والتعبد. لسان العرب، والقاموس المحيط، وتاج العروس مادة (أ ل هـ).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦.

(٣) زخر: امتلأ، وفاض. الوسيط مادة (ز خ ر).

الروحية المعنوية، ولكن الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ، وَلَيَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ، والله أعلم، وصلَّى الله على محمد وسلَّم.

والقصد أنه لقصور الأذهان عن تطبيق هذه الآية العظيمة على ما ذكرنا، واستعجال كثير منهم بإنكار ما لم يروه في الكتب مسطَّرًا؛ رأيت من المصلحة عدم التصريح بأنها هي المراد من الآية، مع حصول المقصود، فإننا ولله الحمد لا زلنا نقرر بحسب المناسبات: أن هذه المخترعات من أكبر الأدلة على توحيد الله وعظمته، وكمال قدرته، وصدق ما أخبر به من أمور الغيب، وأخبرت به الرسل، ومن أبلغ الحجج والإلزامات للملحدين والماديين، من دون أن نقول: إنها هي دابة الأرض؛ وبذلك يحصل خير كثير من دون مفسدة كتشويش ونحوه.

ونسأل الله تعالى أن يفتح علينا من خزائن رحمته وجوده علمًا نافعًا، ورزقًا واسعًا، وعملًا متقبلًا، وبركة في أحوالنا كلها، إنه جواد كريم، وصلَّى الله على محمد وسلَّم.

تم نسخها من خط يد المؤلف رحمه الله وغفر له، صباح الأحد ٧/ ٥/ ١٣٩٢هـ - ١٨/ ٦/ ١٩٧٢م.



مجموع مؤلفات ابن سعدي (٣٤)

التعليقات السعدية

على قطعة من نونية ابن القيم

تأليف

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

قيده عنه وزاد عليها من الفوائد تلميذه

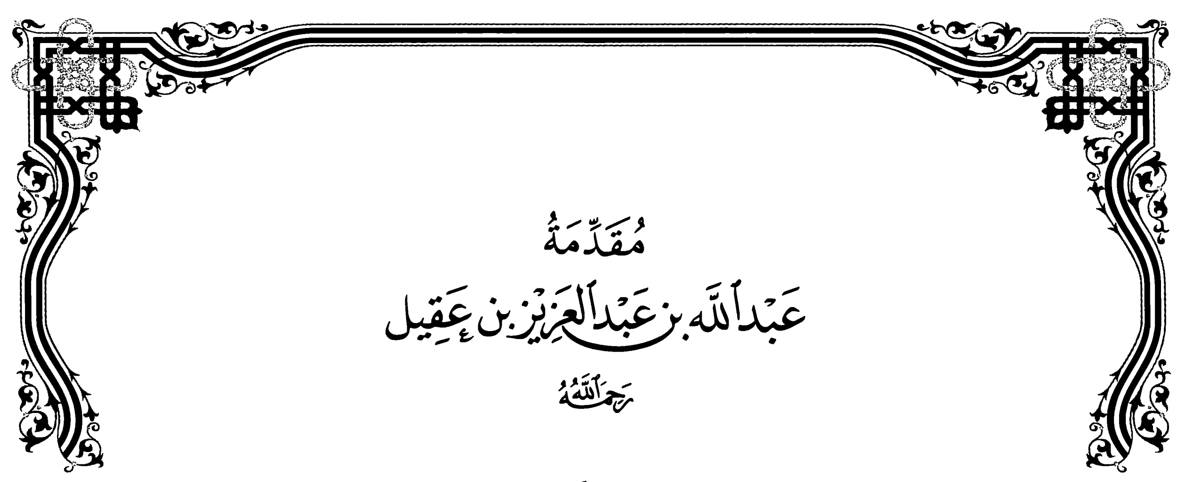
الشيخ العلامة

عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل

رحمه الله

اعتنى بإخراجه

أبو عبد الله بلال بن محمود عدار الجزائري



مُقَدِّمَةُ
عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل
رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستمنحُ ونستعينُ، والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى الله على عبدِه ورسولِه، وسيدِنا محمدٍ خاتَمِ الأنبياءِ والمرسلين، وعلى آله وصحبِه أجمعين.

أما بعد:

فلمّا منّ الله عليّ -وله الحمدُ- بقراءةِ النونيةِ على شيخِنا وأستاذِنا: أبي عبدِ اللهِ عبدِ الرحمن بنِ ناصرِ السعديِّ، وذلك في: ٢٨ محرم ١٣٥٨، وكان -حفظه الله- يُلقي علينا في الدرس: تقريرات مفيدة، وفوائد عديدة، وضوابط نفيسة، ومسائل لطيفة، حقيق بطالب العلم الموفّق أن يعتني بها، ويُحلَّها من قلبه محلةً عاليةً؛ لأن غالبَها مأخوذٌ من كلام المصنف في سائر كتبه، إما بالمنطوق أو المفهوم، إذ أحسن ما يُفَسَّر به هذا الكتاب كلام مصنفه وكتبه التي على هذا الأسلوب، وكان شيخُنا ممن له الحظُّ الأوفر من الاطلاع على كتب المصنف وكتب شيخه شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية في سائر الفنون، وتحقيق مسائلها، والأخذ بأقوالهما، من أصول الدين وفروعه.

وضممتُ إلى تقريراته ما استحسنتُه من شرح الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى على هذا الكتاب، المسمى: «**توضيح المقاصد**». فما كان مطلقًا غير معزوٍّ إلى أحد فهو مقتبَسٌ من مشكاة شيخِنا، وعلى الله اعتمادي، وإليه تفويضي واستنادي، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكَّلتُ وإليه أنيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهو حسبُنا، ونعم الوكيل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ [١]

الحمدُ لله الذي شهدتْ له بربوبيتِه جميعُ مخلوقاتِه، وأقرَّت له بالعبوديةِ جميعُ مصنوعاته[٢]، وأدَّت له الشهادة جميعُ الكائنات[٣]، أنه الله الذي لا إله إلا هو، بما أودَعها من لطيفِ صُنعِه وبديعِ آياتِه، وسبحان الله وبحمده؛ عدد خلقه[٤]، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، ولا إله إلا الله، الأحد الصمد، الذي لا شريك له في ربوبيته، ولا شبيه له في أفعاله ولا في صفاته ولا في ذاته، والله أكبر؛ عدد ما أحاط به علمُه، وجرى به قلمُه، ونفذ فيه حكمُه، من جميع بريَّاته، ولا حول ولا قوة إلا بالله، تفويض عبدٍ لا يملك لنفسِه ضَرًّا ولا نفعًا

---

[١] **فائدة:** عدد أبياتها: ستة آلاف وثلاثمائة وثلاثون أو أربعون بيتا تقريبًا(١)، وأما فصولها فهي: مائة وإحدى وتسعون فصلًا، وليس فيها أبواب.

قوله: «بسم الله» الاسم في المخلوق غير المسمَّى، وفي حق الخالق لا غير ولا عين، خلافا للمعتزلة الذين يقولون: أسماؤه غيره، وهي مخلوقة، كما في البدائع. اهـ توضيح(٢).

[٢] **قوله: «مخلوقاته... مصنوعاته»** المخلوق هو المصنوع. توضيح(٣).

[٣] **قوله: «وأدت له الشهادة»** في هذه البراعة الإشارة إلى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

[٤] **قوله: «عدد خلقه»** هو وما عطف عليه منصوب على أنه نعت سبحانه، ويحتمل أن يكون على المفعولية المطلقة، ويمكن أن يكون منصوبا، سبحانه. اهـ من رسائل الشيخ عبد اللطيف(٤).

---

(١) نسخة آثار الإمام ابن القيم وما لحقها من أعمال عدد أبياتها: (٥٨٤٢) بيتا.

(٢) انظر: توضيح المقاصد (١/ ١١).

(٣) انظر: توضيح المقاصد (١/ ١٧).

(٤) انظر: عيون الرسائل والأجوبة على المسائل (٢/ ٨٦٣).

ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، بل هو الله وإلى الله في مبادئ أمره ونهاياته. وأشهد أن لا اله إلا الله، وحده لا شريك له، ولا صاحبة، ولا ولد، ولا والد له، ولا كفؤ له، الذي هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه أحد من جميع برياته. وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وأمينه على وحيه، وخيرته من بريته، وسفيره بينه وبين عباده، وحجته على خلقه، أرسله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، أرسله على حين فترة من الرسل وطموس من السبل، ودروس من الكتب[١]، والكفر قد اضطرمت ناره[٢]، وتطايرت في الآفاق شراره، وقد استوجب أهل الأرض أن يحل بهم العقاب، وقد نظر الجبار تبارك وتعالى إليهم فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب[٣].

وقد استند كلّ قوم إلى ظلمات آرائهم[٤]، وحكموا على الله سبحانه وتعالى بمقالاتهم الباطلة وأهوائهم، وليل الكفر مدلهمّ ظلامه، شديد قتامه، وسبل الحق عافية آثارها، مطموسةٌ أعلامها، ففلق الله سبحانه بمحمد ﷺ صبح الإيمان، فأضاء حتى ملأ الآفاق نورًا، وأطلع به شمس الرسالة في حنادس الظلم سراجًا منيرًا، فهدى الله به من الضلالة، وعلّم به من الجهالة، وبصّر به من العمى، وأرشد به من الغيّ، وكثر به بعد القلة، وأعزّ به بعد الذلة[٥]،

---

[١] **قوله: «طموس... ودروس» هما بمعنى واحد.**

[٢] **قوله: «اضطرمت ناره»** أي: تأججت.

[٣] يشير إلى حديث عياش بن حمار المجاشعي، الذي رواه مسلم في صحيحه، أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني**». الحديث(١). توضيح(٢).

[٤] **قوله: «إلى ظلَم آرائهم»** جمع ظلمة، ضد النور.

[٥] **قوله: «بعد القلة»** بالكسر، و«**الذلة**» بالضم.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٣-٢٨٦٥).

(٢) انظر: توضيح المقاصد (١/ ٢٢).

وأغنى به بعد العَيلة، واستنقذ به من الهلكة، وفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا، فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمّة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبَدَ الله حتى أتاه اليقين من ربه، وشرح الله له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، وأقسم بحياته في كتابه المبين، وقرن اسمه باسمه[١]، فإذا ذُكر ذُكر معه، كما في الخطب والتشهد والتأذين، فلا يصحّ لأحد خطبة ولا تشهد ولا أذان ولا صلاة حتى يشهد أنه عبده ورسوله شهادة اليقين، وصلى الله وملائكته وأنبياؤه ورسله وجميع خلقه عليه، كما عرفناه بالله وهدانا إليه، وسلم تسليما كثيرا[٢].

أمّا بعد:

فإن الله جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه إذا أراد أن يكرم عبدًا بمعرفته، ويجمع قلبه على محبته، شرح صدره لقبول صفاته العلى، وتلقيها من مشكاة الوحي، فإذا ورد عليه شيءٌ منها؛ قابله بالقبول، وتلقاه بالرضا والتسليم، وأذعن له بالانقياد، فاستنار به قلبه، واتسع له صدره، وامتلأ به سرورا ومحبة، فعلم أنه تعريف من تعريفات الله تعالى[٣]، ....

---

[١] قوله: «وقرن اسمه» هذا كما قال حسان بن ثابت، رضي الله عنه:

أغر عليه للنبوة خاتم ... من الله ميمون يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذ قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

توضيح(١).

[٢] السلام: بمعنى التحية، والسلامة من النقائص والرذائل. توضيح(٢).

[٣] التعريفات: هي البشائر المذكورة في قوله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾(٣).

---

(١) انظر: توضيح المقاصد (١/ ٢٠). (٢) انظر: توضيح المقاصد (١/ ٢٢).

(٣) سورة يونس، الآية: ٦٤.

تعرف به على لسان رسوله، فأنزل تلك الصفة من قلبه منزلة الغذاء، أعظم ما كان إليه فاقة، ومنزلة الشفاء أشد ما كان إليه حاجة، وسكن إليها قلبه، فجال من المعرفة في ميادينها، وأسام عين بصيرته في رياضها وبساتينها[١]، لتيقنه بأن شرف العلم تابع لشرف معلومه، ولا معلوم أعظم وأجل ممن هذه صفته، وهو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأن شرفه أيضا بحسب الحاجة إليه، وليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة باريها وفاطرها، ومحبته وذكره، والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه والزلفى عنده، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبد بها أعلم؛ كان بالله أعرف، وله أطلب، وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر؛ كان بالله أجهل، وإليه أكره، ومنه أبعد. والله تعالى ينزل العبد من نفسه حيث ينزله العبد من نفسه، فمن كان لذكر أسمائه وصفاته مبغضا، وعنها نافرا منفرا، فالله له أشد بغضا، وعنه أعظم إعراضا، وله أكبر مقتا، حتى تعود القلوب إلى قلبين: قلب ذكر الأسماء والصفات قوته وحياته ونعيمه وقرة عينه، لو فارقه ذكرها ومحبتها لحظة لاستغاث: يا مقلب القلوب! ثبت قلبي على دينك، فلسان حاله يقول:

يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل[٢]

ويقول:

وإذا تقاضيت الفؤاد تناسيا ... ألفيت أحشائي بذاك شحاحا[٣]

ويقول:

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ... فنترك الذكر أحيانا فننتكس

---

[١] قوله: «وأسام، إلخ» من السوم، وهو الرعي، وهذه استعارة وتشبيه.

[٢] هذا البيت للمتنبي من قصيدة.

«الطباع» بالكسر، السجية جبل عليها الإنسان.

[٣] قوله: «وإذا تقاضيت، البيت» أي: طلب من الفؤاد.

ومن المحال أن يذكر القلب من هو محارب لصفاته، نافر عن سماعها، معرض بكليّته عنها، زاعم أن السلامة في ذلك. كلا -والله- إن هو إلا الجهالة والخذلان، والإعراض عن العزيز الرحيم، فليس القلب الصحيح قط إلى شيء أشوق منه إلى معرفة ربه تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه، ولا أفرح بشيء قط كفرحه بذلك، وكفى بالعبد عمى وخذلانا أن يضرب على قلبه سرادق الإعراض عنها والنفرة[١] والتنفير والاشتغال بما لو كان حقا لم ينفع إلا بعد معرفة الله والإيمان به وبصفاته وأسمائه.

والقلب الثاني: قلب مضروب بسياط الجهالة، فهو عن معرفة ربه ومحبته مصدود، وطريق معرفة أسمائه وصفاته كما أنزلت عليه مسدود، قد قمش شبها من الكلام الباطل[٢]، وارتوى من ماء آجن غير طائل[٣]، تعج منه آيات الصفات وأحاديثها إلى الله عجيجا، وتضج منه إلى منزلها ضجيجا، بما يسومها تحريفا وتعطيلا، ويؤول معانيها تغييرا وتبديلا[٤]، وقد أعد لدفعها أنواعا من العدد، وهيأ لردها ضروبا من القوانين[٥]، وإذا دعي إلى تحكيمها؛ أبى واستكبر، وقال: تلك أدلة لفظية، لا تفيد شيئا من اليقين، قد أعد التأويل جنة يتترس بها من مواقع سهام السنة والقرآن، وجعل إثبات صفات ذي الجلال تجسيما وتشبيها يصد به القلوب عن طريق العلم والإيمان، مزجي البضاعة من العلم النافع الموروث عن خاتم الرسل والأنبياء، ولكنه مليء بالشكوك والشبه، والجدال والمراء[٦]، ....

---

[١] **قوله: «يضرب»** بالبناء للمفعول، و«سرادق» بالضم. و«النفرة» بضم النون.

[٢] **قوله: «قمش شبها»** أي: جمع.

[٣] **قوله: «غير طائل»** أي: غير نافع.

[٤] **قوله: «يؤل»** يصح أن يكون: يولي، أو يؤل. وأما: يؤلي بالهمز والياء فلا مناسبة له هنا لأنه الحلف.

[٥] **قوله: «من القوانين»** القانون مقياس كل شيء، وجمعه: قوانين.

[٦] **قوله: «الجدال والمراء»** هما مترادفان.

خلع عليه كلام الباطل خلعة الجهل والتجهيل، فهو يتعثر بأذيال التكفير لأهل الحديث، والتبديع لهم والتضليل، قد طاف على أبواب الآراء والمذاهب يتكفف أربابها، فانثنى بأخسر المواهب والمطالب، عدل عن الأبواب العالية الكفيلة بنهاية المراد وغاية الإحسان، فابتلي بالوقوف على الأبواب السافلة الملآنة بالخيبة والحرمان، وقد لبس حلة منسوجة من الجهل والتقليد والشبهة والعناد، فإذا بذلت له النصيحة ودعي إلى الحق؛ أخذته العزة بالإثم، فحسبه جهنم ولبئس المهاد.

فما أعظم المصيبة بهذا وأمثاله على الإيمان، وما أشد الجناية به على السنة والقرآن، وما أحب جهاده بالقلب واليد واللسان إلى الرحمن، وما أثقل أجر ذلك الجهاد في الميزان، والجهاد بالحجة واللسان مقدم على الجهاد بالسيف والسنان، ولهذا أمر الله في السور المكية، حيث لا جهاد باليد إنذارا وتعذيرا، فقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[1]. **وأمر تعالى بجهاد المنافقين والغلظة عليهم، كونهم بين أظهر المسلمين في المقام والمسير، فقال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾[2].

فالجهاد بالعلم والحجة جهاد أنبيائه ورسله وخاصته من عباده المخصومين بالهداية والتوفيق والاتفاق، ومن مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو؛ مات على شعبة من النفاق، وكفى بالعبد عمى وخذلانا أن يرى عساكر الإيمان وجنود السنة والقرآن، وقد لبسوا للحرب لأمته، وأعدوا له عدته، وأخذوا مصافهم، ووقفوا مواقفهم، وقد حمي الوطيس، ودارت رحى الحرب، واشتد القتال، وتنادت الأقران: النزال النزال، وهو في الملجأ والمغارات، والمدخل مع الخوالف كمين، وإذا ساعد القدر وعزم على الخروج، قعد فوق التل مع الناظرين، ينظر لمن الدائرة ليكون إليهم من المتحيزين، ثم يأتيهم وهو يقسم بالله جهد أيمانه إني معكم، وكنت أتمنى أن تكونوا أنتم الغالبين، فحقيق بمن لنفسه عنده قدر وقيمة أن لا يبيعها بأبخس

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥٢.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٩.

الأثمان، وأن لا يعرضها غدا بين يدي الله ورسوله لمواقف الخزي والهوان، وأن يثبت قدميه في صفوف أهل العلم والإيمان، وأن لا يتحيز إلى مقالة سوى ما جاء في السنة والقرآن، فكأن قد كشف الغطاء، وانجلى الغبار، وأبان عن وجوه أهل السنة مسفرة ضاحكة مستبشرة، وعن وجوه أهل البدعة عليها غبرة ترهقها قترة، ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾(1).

قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة[1] والضلالة، فوالله لمفارقة أهل الأهواء والبدع في هذه الدار أسهل من موافقتهم[2] إذا قيل: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾(2).

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وبعده الإمام أحمد: أزواجهم: أشباههم ونظراؤهم، وقد قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾(3)**. قالوا: فيجعل صاحب الحق مع نظيره في درجته، وصاحب الباطل مع نظيره في درجته، هنالك -والله-** ﴿ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ **إذا حصلت له حقيقة ما كان في هذه الدار عليه** ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾(4).

---

[١] **قوله: «أهل الفرقة»** بضم الفاء الافتراق، وأما بكسر الفاء فهي الجماعة.

[٢] **قوله: «لمفارقة أهل الأهواء.... أسهل من مرافقتهم»** فرع من الجناس.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٦.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٢٢.

(٣) سورة التكوير، الآية: ٧.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢٧-٢٩.

فصل

وكان من قدر الله وقضائه أن جمع مجلس المذاكرة بين مثبت للصفات والعلو[١] وبين معطل لذلك، فاستطعم المعطل المثبت الحديث استطعام غير جائع إليه، ولكن غرضه عرض بضاعته عليه[٢]، فقال له:

ما تقول في القرآن ومسألة الاستواء؟ فقال المثبت: نقول فيها ما قاله ربنا وتعالى وما قاله نبينا ﷺ، نَصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل[٣]، ومن غير تشبيه ولا تمثيل[٤]، بل نثبت له سبحانه ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات[٥]، وننفي عنه النقائص والعيوب ومشابهة المخلوقات[٦]، ....

[١] **قوله: «بين مثبت للصفات»** هو المؤلف.

[٢] **قوله: «استطعام غير جائع»** هو الذي ليس له رغبة في الشيء، وليس له أهمية لديه، وإنما مراده «عرض بضاعته عليه» فطالب العلم الموفق هو الذي يستطعم العلم برغبة تامة، كرغبة الجائع للطعام أحوج ما كان إليه.

[٣] **قوله: «من غير تحريف ولا تعطيل»** التحريف: تأويل المعنى، وصرفه عن معناه إلى معنى آخر، والتعطيل: هو نفيه بالكلية.

مثاله: الاستواء؛ فنفيه تعطيل، وتأويله باستولى تحريف.

[٤] **قوله: «ومن غير تشبيه ولا تمثيل»** التشبيه: تشبيه الله بخلقه أو العكس. وأما التمثيل: فهو مرادف للتكييف، فهو تمثيل صفات الله بصفات خلقه.

[٥] **قوله: «بل نثبت، إلخ»** هذا هو ملخص معتقد أهل السنة والجماعة.

[٦] **قوله: «وننفي عنه النقائص والعيوب»** هذا أحد نوعي تنزيه الله. وقوله: **«ومشابهة المخلوقات»**

إثباتا بلا تمثيل، وتنزيها بلا تعطيل، فمن شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه، أو ما وصفه به رسوله تشبيها، فالمشبّه يعبد صنما، والمعطل يعبد عدما، والموحد يعبد إلها واحد صمدا، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(1).

والكلام في الصفات كالكلام في الذات[1]، فكما أنا نثبت ذاتا لا تشبه الذوات، فكذلك نقول في صفاته أنها لا تشبه الصفات، فليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فلا نشبه صفات الله بصفات المخلوقين، ولا نزيل عنه سبحانه صفة من صفاته لأجل تشنيع المشنعين، وتلقيب المفترين، كما أنا لا نبغض أصحاب رسول الله ﷺ لتسمية الراوفض لنا نواصب[2]، ولا نكذب بقدر الله ولا نجحد كمال مشيئته وقدرته لتسمية القدرية لنا مجبرة. ولا نجحد صفات ربنا تبارك وتعالى لتسمية الجهمية والمعتزلة لنا مجسمة مشبهة حشوية[3]، ورحمة الله على القائل:

هذا هو النوع الثاني.

[1] هذه قاعدة نافعة.

[2] قوله: «**الروافض**» سُمّوا بذلك لأنهم رفضوا زيد بن علي، لما أثنى على أبي بكر وعمر.

قوله: «**نواصب**» سموا بذلك لنصبهم العداوة لآل البيت، والظاهر أن مذهبهم انقرض؛ لأنه مبني على المُلك، وهو المقصود منه، ولم يُقصد منه الدين.

[3] قوله: «**حشوية**» يعني أنهم كالحشو والقشور التي لا حاصل لها، وغيرهم اللب والثمر.

وحاصل ذلك: أن مذهب السلف في أصحاب رسول الله ﷺ: وسط بين النواصب والروافض. وفي أفعال العباد: وسط بين القدرية والمجبرة. وفي الصفات: وسط بين الجهمية والمشبهة. وفي الإيمان: وسط بين الخوارج والمرجئة.

---

(1) سورة الشورى، الآية: 11.

فإن كان تجسيما ثبوت صفاته ... فإني بحمد الله لها مثبت

إلى:

فإن كان تجسيما ثبوت صفاته ... لديكم فإني اليوم عبد مجسم

ورضي الله عن الشافعي حيث يقول:

إن كان رفضا حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي

وقدّس الله روح القائل، وهو شيخ الإسلام ابن تيمية إذ يقول:

إن كان نصبا حب صحب محمد ... فليشهد الثقلان أني ناصبي

فصل

وأما القرآن فإني أقول: إنه كلام الله، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، تكلم الله به صدقا، وسمعه جبريل حقا، وبلغه محمدا ﷺ وحيا، وإن: ﴿ كهيعص ۝١ ﴾[1]، ﴿ حم ۝١ عسق ۝٢ ﴾، و﴿ الر ﴾، و﴿ ق ﴾، و﴿ ن ﴾.

عين كلام الله حقيقة، وأن الله تعالى تكلم بالقرآن العربي الذي سمعه الصحابة من النبي ﷺ، وأن جميعه كلام الله، وليس قول البشر، ومن قال: إنه قول البشر فقد كفر. والله يصليه سقر. ومن قال: ليس لله بيننا في الأرض كلام فقد جحد رسالة محمد ﷺ، فإن الله بعثه يبلغ عنه كلامه، والرسول إنما يبلغ كلام مرسله، فإذا انتفى كلام المرسل انتفت رسالة الرسول[2].

ونقول: إن الله فوق سمواته، مستو على عرشه، بائن من خلقه[3]، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وأنه تعالى إليه يصعد الكلم الطيب، وتعرج الملائكة والروح إليه، وإنه يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه، وأن المسيح رفع بذاته

---

[١] **قوله: «وإن ﴿ كهيعص ۝١ ﴾»** إنما ذكر الحروف المقطعة تنبيها على غيرها، لأنه إذا ثبت أن الحروف الذي لم يظهر لنا معناها من كلام الله، فالكلام الذي معناه واضح داخل في مفهوم الموافقة، فهو من باب أولى وأحرى.

[٢] **قوله: «ومن قال ليس لله بيننا كلام» إلى قوله: «انتفت رسالة الرسول»** هذا قد عقد له فصلا مستقلا في النونية، كما سيأتي، إن شاء الله تعالى(1).

[٣] **قوله: «بائن من خلقه»** ومعنى بائن من خلقه هو ما ذكره بعده بقوله: **«ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته»**.

---

(١) انظر: ص٦٨٣.

إلى الله[١]، وأن رسول الله ﷺ عرج به إلى الله حقيقة[٢]، وأن أرواح المؤمنين تصعد إلى الله عند الوفاة، فتعرض عليه، وتقف بين يديه، وأنه تعالى هو القاهر فوق عباده، وهو العلي الأعلى، وأن المؤمنين والملائكة المقربين يخافون ربهم من فوقهم، وأن أيدي السائلين ترفع إليه، وحوائجهم تعرض عليه، فإنه سبحانه هو العلي الأعلى بكل اعتبار[٣].

فلما سمع المعطل منه ذلك أمسك، ثم أسرّها في نفسه، وخلي بشياطينه وبني جنسه، وأوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا وأصناف المكر والاحتيال، وراموا أمرا يستحمدون به إلى نظرائهم من أهل البدع والضلال[٤]، وعقدوا مجلسا يبيتون في مساء يومه ما لا يرضاه الله من القول، والله بما يعملون محيط، وأتوا على مجلسهم ذلك بما قدروا عليه من الهذيان واللغظ والتخليط، وراموا استدعاء المثبت إلى مجلسهم الذي عقدوه ليجعلوا نزله عند قدومه عليهم ما لفقوه من المكر وتمموه، فحبس الله سبحانه عنهم أيديهم وألسنتهم فلم يتجاسروا عليه، ورد الله كيدهم قي نحورهم، فلم يصلوا بالسوء إليه، وخذلهم المطاع[٥]، فمزقوا ما كتبوه من المحاضر، وقلب الله قلوب أوليائه وجنده عليهم من كل باد وحاضر[٦]، وأخرج الناس لهم من المخبآت كمائنها، ومن الجوائف والمنقلات دفائنها، وقوى الله جأش عقد المثبت، وثبت قلبه ولسانه، وشيد بالسنة المحمدية بنيانه، فسعى إلى

---

[١] قوله: «**وإن المسيح رفع بذاته إلى الله**» أي: لأنه حي، فرفع بدنه وروحه، بخلاف سائر الأنبياء الذين قد ماتوا، فإنما رفعت أرواحهم فقط، لأن النبي ﷺ صلى بهم ببيت المقدس، ورأى أرواحهم في السماوات على اختلاف منازلهم، ولم يصل بأبدانهم، ولم يرها، فتنبه.

[٢] وأما النبي ﷺ: فالصواب أنه عرج بروحه وبدنه.

[٣] قوله: «**بكل اعتبار**» أي: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات.

[٤] قوله: «**يستحمدون به، إلخ**» أي: يطلبون به أن يحمدهم نظراؤهم.

[٥] قوله: «**فخذ لهم المطاع**» أي: كبيرهم ورئيسهم.

[٦] قوله: «**وقلب الله قلوب، إلخ**» أي: صرفها.

عقد مجلس بينه وبين خصومه عند السلطان، وحكم على نفسه كتب شيوخ القوم السالفين وأئمتهم المتقدمين، وأنه لا يستنصر من أهل مذهبه بكتاب ولا إنسان، وأنه جعل بينه وبينكم أقوال من قلدتموه، ونصوص من على غيره من الأئمة قدمتوه، وصرخ المثبت بذلك بين ظهرانيهم، حتى بلغه دانيهم لقاصيهم، فلم يذعنوا لذلك، واستعفوا من عقدة مطالبهم المثبت بواحدة من خلال ثلاث مناظر في مجلي عالم على شريطة العلم والإنصاف، تحضر فيه النصوص النبوية والآثار السلفية وكتب أئمتكم المتقدمين من أهل العلم والدين، فقيل لهم: لا مراكب لكم تسابقون بها في هذا الميدان، ومالكم بمقاومة فرسانه يدان، فدعاهم إلى مكاتبة ما يدعون إليه، فإن كان حقا قبله وشكركم عليه، وإن كان غير ذلك سمعتم جواب المثبت، وتبين لكم حقيقة ما لديه، فأبوا ذلك أشد الإباء، واستعفوا غاية الاستعفاء، فدعاهم إلى القيام بين الركن والمقام قياما في مواقف الابتهال حاسري الرؤوس، نسأل الله أن ينزل بأسه بأهل البدع والضلال. وظن المثبت -والله- أن القوم يجيبونه إلى هذا[1]، فوطن نفسه عليه غاية التوطين، وبات يحاسب نفسه، ويعرض ما يثبته وينفيه على كلام رب العالمين، وعلى سنة خاتم الأنبياء والمرسلين، وينجرد من كل هوى يخالف الوحي المبين، ويهوي بصاحبه إلى أسفل السافلين، فلم يجيبوا إلى ذلك أيضا الجهمية يقولون: إن النبي عُرج به إلى محل رحمة الله، لا إلى الله، وهم كفار، كما قال المؤلف في هذا الكتاب:

وأتوا من الأعذار بما دله على أن القوم ليسوا من أولي الأيدي والأبصار، فحينئذ شمر المثبت عن ساق عزمه، وعقد لله مجلسا بينه وبين خصمه، يشهده القريب والبعيد، ويقف على مضمونه الذكي والبليد، وجعله عقد مجلس التحكيم بين المعطل الجاحد والمثبت المرمي بالتجسيم. وقد خاصم في هذا المجلس بالله، وحاكم إليه، بريء إلى الله من كل هوى وبدعة وضلالة، وتحيز إلى فئة رسول الله ﷺ، وما كان أصحابه عليه. والله سبحانه هو المسؤول أن لا يكله إلى نفسه ولا إلى شيء مما لديه، وأن يوفقه في جميع حالاته لما يحبه

[١] قوله: «وظن المثبت، إلخ» إنما ظن ذلك لأن أكثرهم أصحاب ديانة، فلا يجادلون إلا على شيء يعتقدون صوابه، فظن المثبت أن اعتقادهم يجريهم على المباهلة.

ويرضاه، فإن أزمة الأمور بيديه، وهو يرغب إلى من يقف على هذه الحكومة أن يقوم لله قيام متجرد عن هواه قاصد لرضاء مولاه، ثم يقرؤها متفكرا، ويعيدها ويبديها متدبرا، ثم يحكم فيها بما يرضي الله ورسوله وعباده المؤمنين، ولا يقابلها بالسب والشتم كفعل الجاهلين والمعاندين، فإن رأى حقا تبعه وشكر عليه، وإن رأى باطلا رده على قائله وأهدى الصواب إليه، فإن الحق لله ورسوله، والقصد أن تكون كلمة السنة هي العليا جهادا في الله وفي سبيله، والله عند لسان كل قائل وقلبه، وهو المطلع على نيته وكسبه، وما كان أهل التعطيل أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون، المؤمنون المصدقون: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

و لقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان[2]

وقد عقد المؤلف في هذا الكتاب فصلا مستقلا في حكم تكفير أهل البدع، كما ستقف عليه، إن شاء الله تعالى، ولا يوجد في غير هذا الكتاب من سائر كتبه التي اطلعنا عليها.

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

(٢) انظر: ص٦٧٥.

فصل

وهذه أمثال حسان مضروبة للمعطل والمشبه والموحد، ذكرناها قبل الشروع في المقصود، فإن ضرب الأمثال مما يأنس به العقل، لتقريبها المعقول من المشهود[١]، وقد قال تعالى، وكلامه المشتمل على أعظم الحجج وقواطع البراهين: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ۝٤٣﴾(١).

وقد اشتمل منها على بضعة وأربعين مثلا[٢]، وكان بعض السلف إذا قرأ مثلا لم يفهمه يشتد بكاؤه ويقول: لست من العالمين، وسنفرد لها -إن شاء الله- كتابا مستقلا، متضمنا لأسرارها ومعانيها، وما تضمنته من كنوز العلم وحقائق الإيمان[٣]، والله المستعان، وعليه التكلان.

المثل الأول: ثياب المعطل ملطخة بعذرة التحريف، وشرابه متغير بنجاسة التعطيل. وثياب المشبه متضمخة بدم التشبيه، وشرابه متغير بدم التمثيل[٤]، والموحد طاهر الثوب والقلب والبدن، يخرج شرابه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين.

---

[١] قوله: «**لتقريبها المعقول من المشهود**» هذا هو فائدة ضرب الأمثلة.

[٢] قوله: «**وقد اشتمل منها على بضعة وأربعين مثلا**» أي: القرآن.

[٣] الظاهر أن المؤلف لم يفعل، ولكنه ذكر نبذة مفيدة في إعلام الموقعين على ذكر القياس.

[٤] قوله: «**التحريف والتعطيل والتشبيه والتمثيل**» كلها قد تقدم بيان معناها، ولما كان المعطل شر من المشبه -وكلاهما على ضلال- أتى بوصف المعطل «بالعذرة»، وبوصف المشبه «بالدم»، فرحمه الله، ما أدق فهمه، ومن المعلوم أنها كلها نجسة، ولكن العذرة أشد نجاسة.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

المثل الثاني: شجرة المعطل مغروسة على شفا جرف هار. وشجرة المشبه قد اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. وشجرة الموحد أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون.

المثل الثالث: شجرة المعطل شجرة الزقوم، فالحلوق السليمة لا تبلعها. وشجرة المشبه شجرة الحنظل، فالنفوس المستقيمة لا تتبعها. وشجرة الموحد طوبى يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها.

المثل الرابع: المعطل قد أعد قلبه لوقاية الحر والبرد كبيت العنكبوت، والمشبه قد خسف بعقله، فهو يتجلجل في أرض التشبيه إلى البهموت، وقلب الموحد يطوف حول العرش ناظرا إلى الحي الذي لا يموت.

المثل الخامس: مصباح المعطل قد عصفت عليه أهوية التعطيل، فطفىء وما أنار، ومصباح الشبه قد غرقت فتيلته في عسكر التشبيه فلا تقتبس منه الأنوار، ومصباح الموحد يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار.

وتأمل قوله في المثال الخامس: كيف جعل مصباح المعطل لم يُنر من أصله، ومصباح المشبه أنار، ولكن غرقت فتيلته في عكر التشبيه، وهي حثالة الزيت وخثارته، فطفئت بعد أن أنارت، وهذا لأن المعطل شر من المشبه، كما تقدم.

ومثله ما يأتي في المثل التاسع، حيث جعل المعطل لم يركب في سفينة

المثل السادس: قلب المعطل متعلق بالعدم، فهو أحقر الحقير، وقلب المشبه عابد للصنم الذي نحت بالتصوير والتقدير، والموحد قلبه متعبد لمن ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

المثل السابع: نقود المعطل كلها زيوف فلا تروج علينا، وبضاعة المشبه كاسدة لا تنفق لدينا، وتجارة الموحد ينادي عليها يوم العرض على رؤوس الأشهاد هذه بضاعتنا ردت إلينا.

المثل الثامن: المعطل كنافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن ينجسك، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة، والمشبه كبائع الخمر، إما أن يسكرك، وإما أن ينجسك، والموحد كبائع المسك، إما أن يحذيك، وإما أن يبيعك، وإما أن تجد منه ريحا طيبة.

المثل التاسع: المعطل قد تخلف عن سفينة النجاة ولم يركبها، فأركه الطوفان، والمشبه قد انكسرت به اللجة، فهو يشاهد الغرق بالعيان، والموحد قد ركب سفينة نوح، وقد صاح به الربان: اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم.

المثل العاشر: منهل المعطل كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا فرجع خاسئا حسيرا. ومشرب المشبه من ماء قد تغير طعمه النجاة أصلا، والمشبه بعد أن ركب؛ انكسرت به، فصار يشاهد الغرق بالعيان، وهو بكسر العين، كما قرره الشيخ عبد الرحمن بن حسن.

ومثله: العاشر، حيث جعل منهل المعطل كالسراب الذي هو عدم، ومنهل المشبه ماء حقيقي ولكنه متغير، والمنهل هو المورد والمشرب.

ولونه وريحه بالنجاسة تغييرا، ومشرب الموحد من كأس كان مزاجها كافورا، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا.

وقد سميتها بـ: «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية».

وهذا حين الشروع في المحاكمة، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



١- حكم المحبة ثابت الأركان ما للصدود بفسخ ذاك يدان[١]

[١] قوله: «**حكم المحبة**» هذا أول الشروع في النظم، وهو من بحر الكامل، متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن.

وافتتح الناظم هذه المنظومة بشيء من النسيب، وهو التغزل والتشبيب، كلها بمعنى واحد. وأما الغزل: فهو إلف النساء، والتخلق بما وافقهن، وليس مما ذكر في شيء، فمن جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ، وقد نبه على ذلك قدامة، وأوضحه في كتابه: «نقد الشعر»(١).

وفي قوله: «**حكم المحبة، إلخ**» براعة الاستهلال، وهو قد يكون الابتداء مناسبا للمقصود، لأن هذا الكتاب في المحاكمة بين الطوائف. اهـ. توضيح (٢).

واعلم أن المؤلف ذكر بهذه المقدمة إشارات خفية، قد تخفى على أكثر الطلبة، ومراده بالمحبة: محبة الخالق، وإنما ذكر كلاما مجملا في المحبة المطلقة، وذكر التشبيب، جريا على قاعدة الشعراء، إذا أراد أحدهم مدحا أو هجاء ونحوه، ذكر بين يدي ذلك التشبيب بمحبوبته، وذكر محاسن أوصافها، ثم يخلص إلى مقصوده بأسلوب حسن، وهذا مناسب جدا، لأنه: إن كان المقصود مدحا؛ فكأنه قال: إن هذا الممدوح أحسن مِن وَصل هذه المحبوبة التي هذه صفاتها. وإن كان هجاء؛ فكأنه قال: إن هذا المهجو أقبح من صد هذه المحبوبة التي هذه صفاتها.

قوله: «**ثابت الأركان**» وإنما يثبت كل حكم بتوفر شروطه وانتفاء موانعه. فشروط المحبة قسمان:

قسم يتعلق بالمحبوب: وهو أن يكون حسنا ومحسنا، فإذا اجتمعا زادت المحبة وقويت، وهنا قد اجتمعا، لأن الله تعالى له الكمال المطلق، وهو المحسن العظيم إحسانه.

وقد أشار الناظم بقوله: «**أنى وقاضي الحسن**» إلى الأمر الأول. وقوله: «**في مجلس الإحسان**» إلى الأمر الثاني.

---

(١) انظر: نقد الشعر، لقدامة بن جعفر، ص٢١.

(٢) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٣٩.

٢- أنى وقاضي الحسن نفذ حكمها فلذا أقر بذلك الخصمان[١]

القسم الثاني: يتعلق بالمحب: وهو توفر الدواعي للمحبة، وهي: العقل، والفطرة السليمة، والشرع، أي: الرسل وما جاؤوا به.

قوله: «**ما للصدود**» بفتح الصاد، اسم فاعل.

قوله: «**بفسخ ذاك**» الحكم «**يدان**» أي: قوة وقدرة وطاقة. المراد باليد هنا: القدرة، تسمية للشيء بسببه، لأن القدرة هي تحرك اليد، يقال: فلان له يد في كذا وكذا، ومنه قول زياد لمعاوية: إني قد أمسكت العراق بإحدى يدي، والأخرى فارغة. اهـ توضيح(١)

أي: ولثبوت أركان هذا الحكم لا يطيق الصدود فسخه.

[١] قوله: «**أنى**» كيف «**وقاضي الحسن**» الحسن هو الجمال، واستعار له «قاضي»، فشبهه في قوته وسلطته على المحبوب بقاضي الحسن في قوة الخصوم ونفاذ حكمه، فكذلك حسن هذا المحبوب حكم على محبها بثوب المحبة. اهـ شيخنا. ومثله: توضيح(٢) ومَن زعم قاضي الحسن هو العقل -لأنه هو أهل التحسين والتقبيح- فقد أخطأ مراد المصنف.

قوله: «**نفذ حكمها**» أي: حكم المحبة. أي: كيف يقدر الصدود على فسخه، وقد ثبتت أركانه، ونفذه قاضي الحسن، وأقر به الخصمان، وشهدت به شهود الوصل؟!

قوله: «**فلذا**» لك التنفيذ «**أقر بذلك**» الحكم «**الخصمان**» أي: المدعي والمنكر. ومراد المؤلف بالخصم: المنكر للصفات؛ كالجهمية ونحوهم، يعني أنهم وإن أنكروا مكابرة فلا دليل معهم على قولهم، فيلزمهم الإقرار؛ إما طوعا أو كرها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾(٣).

---

(١) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٤٠.

(٢) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٣٨.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٥.

٣- وأتت شهود الوصل تشهد أنه	حق جرى في مجلس الإحسان[١]
٤- فتأكد الحكم العزيز فلم يجد	فسخ الوشاة إليه من سلطان[٢]
٥- ولأجل ذا حكم العذول تداعت الـ	أركان منه فخرّ للأذقان[٣]
٦- وأتى الوشاة فصادفوا الحكم الذي	حكموا به متيقن البطلان[٤]
٧- ما صادف الحكم المحل ولا هو اسـ	ـتوفى الشروط فصار ذا بطلان[٥]
٨- فلذاك قاضي الحسن أثبت محضرا	بفساد حكم الهجر والسلوان[٦]

[١] قوله: «**وأتت شهود الوصل**» وهي: العقل، والفطرة، والرسل وما جاءوا به من الكتاب والسنة، سماها شهود الوصل، لأن من تمسك بالكتاب والسنة؛ اتصل بالله اتصالا دائما لا انقطاع معه، ومن أعرض عنهما؛ انقطع عن ربه انقطاعا باتا لا اتصال معه، حتى يعود إليهما ويراجعهما.

قوله: «**تشهد أنه**» أي: هذا الحكم «**حقا جرى في مجلس الإحسان**» وقد تقدم أنه أحد شروط المحبة.

[٢] أي: لما ثبت حكم المحبة، ونفذه قاضي الحسن، وأقر به الخصمان، وشهد به الشهود؛ تأكد تأكدا لا تستطيع الوشاة أن تفسخه.

[٣] قوله: «**ولأجل ذا**» أي: ما تقدم من ثبوت حكم المحبة الخ «**حُكْمُ العذول تداعت**» أي: تجاذبت «**الأركان منه**» أي: حيطانه وأساساته «**فخر للأذقان**» أي: سقط من أصله.

[٤] وقوله: «**وأتى الوشاة فصادفوا الحكم الذي حكموا به**» وهو ما يأتي بقول المصنف: «**حكم الوشاة بغير ما برهان**».

[٥] وقوله: «**متيقن البطلان**» وسبب بطلانه هو ما ذكره بالبيت بعده، وهو قوله: «**ما صادف الحكم المحل، البيت**» وسبب بطلان حكمهم أنه لم يصادف محله، ولم تتم شروطه، فحينئذ تيقن بطلانه.

[٦] قوله: «**فلذلك**» أي: اجتماع شروط حكم المحبة، وبطلان حكم الوشاة «**قاضي الحسن**

٩- وحكى لك الحكم المحال ونقضه	فاسمع إذا يا من له أذنان[١]
١٠- حكم الوشاة بغير ما برهان	أن المحبة والصدود لدان[٢]
١١- والله ما هذا بحكم مقسط	أين الغرام وصد ذي هجران[٣]
١٢- شتان بين الحالتين فإن ترد	جمعا فما الضدان يجتمعان[٤]

أثبت محضرا» والمحضر: السجل والمشهد. قاله في القاموس[١] أي: ما يتضمن؛ دعوى المدعي، وإنكار المنكر، وصورة الحكم بين الخصمين، فهذا المحضر الذي أثبته قاضي الحسن يتضمن «**فساد حكم الهجر والسلوان**».

[١] قوله: «**وحكى لك الحكم المحال**» أي: شرحه قاضي الحسن، وبينه، «**و**» حكى لك «**نقضه فاسمع إذا يا من له أذنان**» وهو ما ذكره بقوله:

[٢] «**حكم الوشاة بغير ما برهان**» الوشاة: جمع واش، يقال: وشى كلامه؛ أي: كذب، ووشى به إلى السلطان وشاية؛ أي: سعى. توضيح[٢]

قوله: «**أن المحبة**» وضدها الذي هو: «**الصدود لدان**» أي: سواء. كما في القاموس[٣]

[٣] قوله: «**والله ما هذا بحكم مقسط**» القسط: بالكسر؛ العدل. توضيح[٤]

قوله: «**أين الغرام وصد ذي هجران**» الغرام: هو الحب اللازم للقلب، الذي لا يفارقه، بل يلازمه كملازمة الغريم لغريمه، ومنه سمي عذاب النار «غراما» للزومه لأهله وعدم مفارقته لهم. وهذا البيت جاء به الناظم إبطالا لحكم الوشاة، وتأكيدا لحكم قاضي الحسن.

[٤] قوله: «**فما الضدان يجتمعان**» الضدان: هما اللذان لا يجتمعان، وقد يرتفعان؛ كالسواد والبياض.

---

(١) انظر: القاموس المحيط، ص ٢٩٢، وتوضيح المقاصد ١/ ٣٩.
(٢) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٤٠.
(٣) انظر: القاموس المحيط، ص ١٣٣٠، وتوضيح المقاصد ١/ ٤٠.
(٤) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٤٠.

١٣- يا والها هانت عليه نفسه ... إذ باعها غبنا بكل هوان

١٤- أتبيع من تهواه نفسك طائعا ... بالصد والتعذيب والهجران

١٥- أجهلت أوصاف المبيع وقدره ... أم كنت ذا جهل بذي الأثمان[١]

١٦- واها لقلب لا يفارق طيره الأغـ ... ـصان قائمة على الكثبان[٢]

والحاصل: أنه لما ثبت حكم المحبة؛ وجب العمل به، وهو محبة المحبوب الذي اجتمعت فيه الشروط من الحسن والإحسان، وكذلك الدواعي متوفرة في المحب، كما ذكر المؤلف في كتاب مفتاح دار السعادة وجوب محبة الباري من نحو ثمانين وجها.

فانقسمت قلوب الناس ثلاثة أقسام:

أحدها: الذي عمل به، وأحب ربه وباريه والمحسن إليه، وتعلقت به رغبته ومحبته، وحده دون من سواه، فهؤلاء سعداء الدارين، أئمة أهل العلم.

الثاني: ما ذكره بقوله: «**يا والها**» الثلاثة الأبيات. الواله: المحب الذي قد حيرته المحبة(١)

[١] قوله: «**أجهلت أوصاف المبيع وقدره**» أي: ما أعد الله لمحبيه من الثواب العاجل والآجل. أو: أجهلت الدنيا وخساستها وحقرها، كيف تبيع نفسك بها؟! قلت: وهو عندي أقرب، لقوله: «المبيع» وأل للعهد الذكري.

قوله: «**أم كنت ذا جهل بذي الأثمان**» الذي هو عمرك ونفسك.

والمقصود: أن هذا القلب واله، وله محبة، ولكن صده الجهل والإعراض عن محبة المحبوب الأعظم، وهم أكثر الناس الذين اشتغلوا بحطام الدنيا، أو بعشق الصور، أو المناصب والولايات، فناداه أولا بقوله: «**يا والها**» ثم وبخه بقوله: «**أتبيع ما تهواه، إلخ**».

القلب الثالث: ما ذكره بقوله:

[٢] «**واها لقلب**» الأربعة الأبيات. «**واها**» كلمة يقولها المتعجب من طيب الشيء، وكذلك في

---

(١) سيأتي ذكر القسم الثالث في الصفحة التالية.

١٧- ويظل يسجع فوقها ولغيره ... منها الثمار وكل قطيف دان[١]

١٨- ويبيت يبكي والمواصل ضاحك ... ويظل يشكو وهو ذو شكران[٢]

١٩- هذا ولو أن الجمال معلق ... بالنجم همّ إليه بالطيران[٣]

التفجع. توضيح(١)

قوله: «**لا يفارق طيره الأغصان**» المراد بها القدود، كقوله:

أأغصان بان ما أرى أم شمائل

قوله: «**قائمة على الكثبان**» أي: الأرداف، لأن ذلك يسمى: الكثيب والنقا.

واعلم أن للشعراء ألفاظا صارت بينهم حقائق عرفية، وإن كانت في الأصل مجازا؛ لكثرة دورانها في كلامهم، وتعاطيهم استعمالاتها، لأنهم ألفوا ذلك من تداولها وتكرارها على مسامعهم، فمن ذلك: الغصن: إذا أطلقوه فهموا منه القوام. والكثيب: يفهمون منه الردف. والورد: يفهم منه الوجه. والإقاح: يفهم منه الثغر. والراح: إذا أطلقوه فهموا منه الريق. والنرجس: يفهمون منه العيون. وكذا: السيف، والسهم، والسحر والبنفسج، والريحان، والعذار؛ كل هذه انتقلت عن وصفها الأصلي، وصارت حقائق عرفية، نقلها الاصطلاح. توضيح(٢)

[١] قوله: «**ويظل يسجع فوقها ولغيره**» السجع: الكلام المقفى.

قوله: «**منها الثمار وكل قطيف دان**» إشارة إلى أن الكتاب والسنة قطف دان، لا يحتاج إلى تعب ومشقة، وإنما يحتاج الاعتصام بهما دون ما سواها.

[٢] قوله: «**ويبيت يبكي**» أي: من الصد والهجر والإعراض «**والمواصل ضاحك**» أي: السني «**ويظل يشكو وهو ذو شكران**» أي: ذو شبع، يقال: شكرت الدابة إذا شبعت.

[٣] قوله: «**هذا ولو أن الجمال، البيت**» فيه دليل على قوة همته وإرادته.

---

(١) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٤٢.

(٢) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٤٢.

٢٠- لـلـه زائـرة بليـل لـم تخـف   عسـس الأمير ومرصد السّـجّان[١]

٢١- قطعـت بـلاد الشـام ثـم تيممت   مـن أرض طيبـة مطلـع الإيمان[٢]

٢٢- وأتت علـى وادي العقيق فجاوزت   ميـقـاتـه حـلا بـلا نـكـران[٣]

وحاصل الأبيات الأربعة: أن هذا القلب له همة قوية ورغبة تامة بما عند الله، ومحبته صادقة، وعنده معرفة وعلم، ولكن حجبه عن المقصود وتقديمه آراء الرجال على الكتاب والسنة، فحكّمها، ورضي بها، فاعتقد في الله أشياء باطلة، فحجبه خبث عقيدته وصده عن إدراك المقصود الأعظم، فهو لا يزال يسجع فوق هذا الغصن، وقطوفه دانية إليه قريبة منه، لا تحتاج لكلفة، بل لو مد يده إليها لتناولها، ويظل يشكو، ويبكي، ويتوجع، وكل خير قريب منه لو أراده وقصده، ولكن حجته تقديمه آراء الرجال على الوحيين، ولو رفض كل ما عداهما، وتمسك بهما؛ لتناول هذه القطوف الدانية. وهم: الجهمية ونحوهم، لأن فيهم علما وعقلا، أصحاب ديانة وزهد ومحبة في الخير، ويتوخون الحق، ولو يظنون أحدا أحسن حالة منهم لزاحموه على تلك الحالة، ولكن حجبهم ما تقدم، نعوذ بالله من الخذلان.

[١] قوله: «**لله زائرة**» فقولهم: لله فلان، أصله: لله درُّه، بفتح الدال، وهو اللبن الذي ارتضعه، أي: ما أعجب هذا اللبن الذي نشأ به هذا المولود. وإضافته لله للتعظيم، لأنه منشىء العجائب.

قوله: «**بليل**» فيه دليل أنها زارته بالطيف، كما سيأتي التصريح به في كلامه، -إن شاء الله تعالى- قريبا، وفيه إشارة إلى أن الليل هو خلوة المحبين بأحبتهم.

قوله: «**لم تخف عسعس الأمير ومرصد السجان**» عس: من باب: ردّ، طاف الليل.

[٢] قوله: «**قطعت بلاد الشام ثم تيممت**» يعني أن هذه المحبوبة جاءت «**من**» الشام إلى «**أرض طيبة**» وهي: المدينة المنورة «**مطلع الإيمان**».

[٣] قوله: «**وأتت على وادي العقيق**» هو: ذو الحليفة «**فجاوزت ميقاته حلّا**» أي: لم تحرم، لأنها لا قصد لها سوى محبوبها «**بلا نكران**» إما لأنها صاحبة حاجة تتكرر، ومن له حاجة تتكرر قد جوزوا له تجاوز الميقات بلا إحرام، أو لأنها شبيهة بالمجاهدين، وقد رخص لهم ذلك.

٢٣- وأتت علـى وادي الأراك ولم يكن	قـصدا لـهـا فـألا بـأن سـترانـي[١]
٢٤- وأتــت علـى عرفـات ثم محسـر	ومنى فكـم نحرتـه مـن قربان[٢]
٢٥- وأتت على الجمرات ثـم تيممت	ذات السـتور وربـة الأركان[٣]
٢٦- هـذا ومـا طافت ولا اسـتلمت ولا	رمت الجمـار ولا سـعت لقران[٤]
٢٧- ورقـت إلى أعلى الصفـا فتيممت	دارا هنالـك للمحـبّ العانـي[٥]

[١] قوله: «**وأتت على وادي الأراك ولم يكن قصدا لها**» أي: قصدت طريق وادي الأراك، فأخذت على يسارها، وتركت مكة عن يمينها، وليس ذلك طريق من قصد مكة، وإنما فعلت ذلك «**فألا بأن ستراني**».

[٢] قوله: «**فكم نحرته من قربان**» لأن علامات المحبة الصادقة بذل أغلا ما يحب المحبوب، كما قيل: وليس عجيب بذل الغالي للغالي.

[٣] قوله: «**وأتت على الجمرات، البيت**» تأمل كيف رتب المصنف مناسك الحج، فبدأ بعرفة، ثم وادي محسر، ثم منى ثم الجمرات، ثم الكعبة، وهي المراد بقوله: «**ثم تيممت ذات الستور وربة الأركان**».

[٤] قوله: «**هذا وما طافت، البيت**» لأنها لم تأت للنسك، وإنما أتت لزيارة محبها ومحبوبها.

واعلم أن المؤلف كثيرا ما يذكر مناسك الحج، ويشبب بها في غير موضع، كما هنا، وفي أول صفة الجنة وغيرهما، وقد صرح في موضع آخر أن الحج من أعلا أنواع المحبة، لأنه رضا للمحبوب.

[٥] قوله: «**ورقت إلى أعلا الصفا، البيت**» كأنه في دار الأرقم بن أبي الرقم. وفي قوله: «**الصفا**» إشارة إلى أن المحبة صافية من الطرفين، ليس فيها ما يشوبها.

ثم تعجب المؤلف من سرعة سيرها، كيف قطعت مسافة نحو شهر ونصف من أرض الشام إلى مكة في ليلة واحدة، وكيف دلت الطريق؟! فقال:

٢٨- أتـرى الدليـل أعارهـا أثوابـه	والريـح أعطتهـا مـن الخفقان[١]
٢٩- واللـه لـو أن الدليـل مكانهـا	مـا كـان ذلـك منـه فـي إمكـان[٢]
٣٠- هـذا ولو سـارت مسـير الريح مـ	ـا وصلت بـه ليلا إلـى نعمان[٣]
٣١- سـارت وكان دليلهـا فـي سـيرها	سـعد السـعود وليـس بالدبران[٤]
٣٢- وردت جفـار الدمـع وهـي غزيرة	فلذاك مـا احتاجـت ورود الضان[٥]

[١] «**أَتُرَى الدليل**» أي: أتظنه «**أعارها أثوابه**» حتى صارت بمنزلته «**والريح أعطتها من الخفقان**» في سرعته وخفتها. ثم رجع عن كلامه السابق فقال:

[٢] «**والله لو أن الدليل، إلخ**» أي: أن الدليل لا يستطيع ولا يتمكن أن يفعل مثل ما فعلت.

[٣] قوله: «**هذا ولو سارت مسير الريح ما وصلت به**» أي: بهذا السير «**ليلا إلى نَعمان**» بفتح النون، واد وراء عرفة، وهو: نعمان الأراك. قاله في القاموس. يعني: أنها لو مشت كمشي الريح، ما تمكنت أن تصل في ليلة واحدة إلى نعمان الأراك، وذلك لأن الريح الشمالية لا تهب بالليل، كما قيل: الحرة لا تسري بليل، وأيضا لو هبت ما استمرت في هبوبها كل الليل، ولو قدر ذلك ما تمكنت أن تقطع هذه المسافة البعيدة بليلة واحدة.

[٤] قوله: «**سارت وكان دليلها في سيرها، البيت**» لأن الذي يجيء من الشام قاصدا مكة، يتيمم جهة مطلع سعد السعود، لأنه في جهة الجنوب، ولو استدل بالدبران لما اهتدى.

ويحتمل أن مراده التفاؤل باسم: سعد السعود، لأن النبي ﷺ يعجبه الفأل، وكان يقول: «**إذا بعثتم إليّ بريدا، فابعثوه حسن الاسم، حسن الوجه**»(١) توضيح(٢) وكل من: سعد السعود والدبران، من منازل القمر الثمانية والعشرين المعروفة.

[٥] قوله: «**وردت جفار الدمع وهي غزيرة**» الجفار مورد من الموارد في طريق مكة، قريب من

(١) أخرجه البزار في مسنده ٨٦٣٠، عن أبي هريرة، وصححه الألباني في الصحيحة ١١٨٦.

(٢) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٤٤.

٣٣- وعلت علــى مين الهوى وتزودت ذكـــر الحبيـــب ووصلـــه المتداني[١]

٣٤- وَعَـــدتْ بزورتهـــا فأوفـــت بالـــذي وعـــدت وكان بملتقـــى الأجفـــان[٢]

صفينة والسويرقية، فاستعار لها من دموعها موردا غزيرا.

قوله: «**فلذاك**» أي: لورودها جفار الدمع «**ما احتاجت ورود الضان**» يحتمل أنه موضع مثل الجفار.

والمعنى: أنها لما وردت هذا المورد الغوير الذي هو جفار الدمع، لم تحتج للماء حتى ترد الضأن. ويحتمل أنها لم تحتج ورود الضأن الذي هو أشد البهائم عطشا، بحيث لو تلبث يوما واحدا ما وردت ما استطاعت أن تعيش.

[١] قوله: «**وعلت على مين الهوى**» لأنه من أسرع الأشياء في السير، ولو وجدت أسرع منه لركبته.

قوله: «**وتزودت ذكر الحبيب ووصله المتداني**» إشارة إلى أن المسافر إذا حدث نفسه بدنو سفره وحصول مقصوده؛ هانت عليه مشقة السفر ومواصلة السير.

واعلم أن المؤلف ذكر لهذه الزائرة: دليلا يدلها في سفرها، وموردا تشرب منه، ومركوبا وطعاما تزوده، لأن كل مسافر لابد له من هذه الأشياء. فذكر أن دليلها: سعد السعود، الذي يضرب به المثل في الفأل الحسن. وموردها: من دموعها الغزيرة، شوقا إلى محبوبها، وخوفا من فواتها. ومركوبها: متن الهوى، الذي هو أسرع الأشياء قطعا للمسافة. وطعامها: ذكر الحبيب ووصله، الذي ليس على قلب المحب ألذ منه.

[٢] قوله: «**وعدت بزورتها**» أي: أنها وعدت بالزيارة «**فأوفت بالذي وعدت**» به في المنام، ولهذا قال: «**وكان بملتقى الأجفان**» وكما قال قبل ذلك: «**لله زائرة بليل، إلخ**». توضيح[١] وفي نسخة: «**بمقلة الأجفان**» أي: مجيئها كان بمقلته، كقولهم: أحملك على رأسي، وإنك في عيني، ونحوه.

---

(١) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٤٥.

٣٥- لـم يفجـأ المشـتاق إلا وهـي دا | خلـة السـتور بغير ما اسـتئذان[١]
٣٦- قالت وقد كشـفت نقاب الحسن ما | بالصبر لـي عـن أن أراك يـدان[٢]
٣٧- وتحدثـت عنـدي حديثـا خلتـه | صـدقا وقـد كـذبت بـه العـينـان
٣٨- فعجبـت منـه وقلت مـن فرحي به | طـمـعـا ولـكـن الـمـنـام دهـانـي
٣٩ - إن كنـت كاذبـة الـذي حدثتنـي | فعليك إثـم الـكـاذب الـفـتـان[٣]
٤٠- جهـم بن صفـوان وشـيعته الألى | جحدوا صفـات الخالـق الديان[٤]

[١] قوله: «**لم يفجأ المشتاق**» إشارة إلى أن شوقه إليها كشوقه إليه أو أبلغ.

قوله: «**إلا وهي داخلة الستور بغير ما استئذان**» لأن الصبر على المحبوب -ولو بقدر الاستئذان- يُعدّ من الجفاء، أو لأن مشروعية الاستئذان إذا كان ما ثم حاجة متكررة فهي داخلة في قوله تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾(١).

[٢] قوله: «**قالت وقد كشفت نقاب الحسن**» هو ما تنقبت به المرأة، وفيه إشارة أنها عفيفة بحيث أنها متنقبة، وإلى أنها غاية في الحسن.

قوله: «**ما بالصبر لي عن أن أراك يدان**» يدان: قوة وقدرة.

[٣] قوله: «**إن كنت كاذبة الذي حدثتني**» هذا يسمى: «حسن التخلص» عند أهل البديع، وقد سبقه إلى هذا حسان بن ثابت، رضي الله عنه، حيث يقول من قصيدة يذكر فيها غزوة بدر، وكيف فرّ المشركون، فقال يهجو الحارث بن هشام(٢):

إن كنـت كـاذبـة الـذي حدثتني | فنجـوت منجـا الحـارث بن هشـام
تـرك الأحبـة أن يـناضـل دونـهـم | ونـجـا بـرأس طـمـرة ولـجـام

[٤] قوله: «**جهم بن صفوان**» هو جهم بن صفوان الراسبي، أبو محرز السمرقندي، الضال

(١) سورة النور، الآية: ٥٨.
(٢) انظر: البداية والنهاية ٥/ ٢٨٣.

٤١- بـل عطلوا منـه السـموات العلى ... والـعـرش أخـلـوه مـن الـرحـمـن

٤٢- ونفـوا كلام الـرب جـل جلالـه ... وقـضـوا لـه بالخلق والـحـدثـان[١]

٤٣- قالـوا وليـس لربنـا سـمع ولا ... بـصـر ولا وجـه فـكـيـف يـدان[٢]

٤٤- وكـذاك ليـس لربنـا مـن قـدرة ... وإرادة أو رحمـة وحنـان

٤٥- كلا ولا وصـف يقـوم بـه سـوى ... ذات مـجـردة بـغـيـر مـعـان[٣]

المبتدع، رأس الجهمية، كان كاتبا للحارث بن شريح، فلما طرده تعبّد، وكان يغشى مجلس أبي حنيفة، ثم أحدث مقالته الخبيثة من التعطيل لصفات الرب تعالى، وزعمه أن القرآن مخلوق، ونفى الرؤية وجميع الصفات، وقتله سالم بن أحوز المازني، وكان على شرطة خراسان، بأمر نصر بن سيار سنة ١٢٨، وسالم هذا هو مقدم عساكر بني أمية على خراسان.

قوله: «**وشيعته الألى**» أي: الذين «**جحدوا صفات الخالق الديان**» والجهم هو أعظم الناس نفيا للصفات، بل وللأسماء الحسنى، قوله من جنس قول الباطنية القرامطة، حتى ذكروا عنه أنه لا يسمي الله شيئا، ولا غير ذلك من الأسماء التي يسمي بها المخلوق، لأن ذلك بزعمه من التشبيه الممتنع، وهذا قول القرامطة الباطنية، وحكي عنه أنه لا يسميه إلا قادرا فاعلا، لأن العبد عنده ليس بقادر ولا فاعل، إذ هو رأس المجبرة. توضيح(١).

[١] قوله: «**ونفوا كلام الرب جلاله وقضوا له**» أي: لكلامه «**بالخلق والحدثان**».

[٢] هذا من باب الأولى والأحرى، فإنهم إذا نفوا السمع والبصر الذي قد أقر غيرهم من المبتدعة، فنفيهم ما نفاه غيرهم من باب أولى وأحرى، والوجه كاليدين.

[٣] قوله: «**كلا ولا وصف يقوم به**» هذا تعميم بعد تخصيص، ومعنى «**يقوم به**» أي: يتصف به.

قوله: «**سوى ذات مجردة**» أي: مفردة، خالية من الصفات «**بغير معان**» أي: صفات.

وقوله: «**كلا ولا وصف يقوم به، إلخ**» أي: أن الباري تعالى عندهم لا يوصف إلا بأنه الوجود

(١) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٥٠.

٤٦- وحياتـه هـي نفسـه وكلامـه	هـو غيره فاعجـب لـذا البهتان[١]
٤٧- وكـذاك قالـوا مـا لـه مـن خلقه	أحـد يكـون خليلـه النفسـاني
٤٨- وخليلـه المحتـاج عندهـم وفـي	ذا الـوصـف يـدخـل عـابـد الأوثـان
٤٩- فالـكل مفتقـر إليـه لذاتـه	فـي أسـر قـبـضـتـه ذلـيـل عـان
٥٠- ولأجـل ذا ضحى بجعـد خالد الـ	ـقـسـري يـوم ذبـائـح الـقـربـان[٢]
٥١- إذ قـال إبراهيـم لـيـس خليلـه	كـلا ولا مـوسـى الـكـلـيـم الـدانـي
٥٢- شـكـر الضحيـة كل صاحب سـنة	لـلـه درك مـن أخـي قـربـان

المطلق، والوجود المطلق إنما يكون في الأذهان، لا في الأعيان. اهـ توضيح(١)

[١] قوله: «**وحياته هي نفسه**» أي: أن الصفات ترجع إلى مجرد الذات المقدسة.

قوله: «**وكلامه هو غيره**» أي: أن كلامه مخلوق من جهة المخلوقات، لأنه غيره، وما كان غيره فهو مخلوق. توضيح(٢) «**فاعجب لذا البهتان**».

[٢] قوله: «**ولأجل ذا**» أي: إنكار الخلّة والكلام «**ضحى بجعد خالد القسري يوم ذبائح القربان**» أي: يوم عيد الأضحى.

وخالد: هو ابن عبد الله القسري -بفتح القاف- البجلي اليماني، أمير مكة للوليد وسليمان ابني عبد الملك، وأمير العراقين لهشام بن عبد الملك، كان

بواسط، ثم قتل بالكوفة سنة ١٢٦ وهو ابن ستين سنة.

وأما الجعد بن درهم: فيقال: إنه من موالي بني مروان، أصله من حران، وسكن دمشق، وأخذ بدعته عن بيان بن سمعان، وأخذها بينا عن طالوت ابن أخت لبيد ابن الأعصم وزوج ابنته، عن لبيد بن الأعصم الساحر، لعنه الله، وأقام الجعد بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن، فتطلبه

(١) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٥١.

(٢) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٥١.

....

بنو أمية، فهرب منهم، فسكن الكوفة، فلقيه بها الجهم بن صفوان، فتقلد عنه هذا القول، وأخذ عن الجهم الجريري ثم الترمذي بشر المريسي، وأخذ عن بشر أحمد بن دُواد.

فصل

في مذهب الجهمية في أفعال العباد

٥٣- والعبد عندهم فليس بفاعل	بل فعله كتحرك الرجفان[١]
٥٤- وهبوب ريح أو تحرك نائم	وتحرك الأشجار للميلان
٥٥- والله يصليه على ما ليس مِن	أفعاله حر الحميم الآن[٢]
٥٦- لكن يعاقبه على أفعاله	فيه تعالى الله ذو الإحسان[٣]

[١] قوله: «**والعبد عندهم**» أي: عند الجهمية «**فليس بفاعل**» بل هو مجبور على أفعاله، ولذاك قال: «**بل فعله كتحرك الرجفان**» أي: أن حركته حركة قسرية، لا حركة اختيارية، وهذا فرع من السفسطة والمكابرة، لأن الإنسان العاقل يعرف ببديهته وعقله، ويفرق بين الحركة القسرية والحركة الاختيارية.

[٢] قوله: «**حر الحميم الآن**» أي: شديد الحرارة.

[٣] قوله: «**لكن يعاقبه على أفعاله فيه**» أي: أفعال الله في العبد، فكان الله هو الذي يفعل بالعبد أفعالا يعاقبه عليها، ولذا قال: «**تعالى الله ذو الإحسان**» أي: أن إحسانه لا يقتضي هذا، بل يأباه ويمنعه.

هذا تحقيق مذهبهم.

وأما مذهب السلف: فهو أن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق العباد، وأرواحهم، وأبدانهم، وأفعالهم، وصفاتهم، وهم الذين فعلوا الأفعال بكسبهم وقدرتهم ومشيئتهم، فهم المختارون لها حقيقة، فهي خلق لله، وكسب للعباد. وإذا أردت الذي يبين هذا: فاعلم أن العبد يفعل بقدرته

٥٧- والظلم عندهم المحال لذاته ... أنّى يُنزَّه عنه ذو السلطان[١]
٥٨- ويكون مدحا ذلك التنزيه ما ... هذا بمعقول لدى الأذهان

ومشيئته، والله هو الذي خلق العبد وقدرته ومشيئته، فالذي خلق السبب هو خالق المسبب، والعبد فاعل حقيقة، فصارت أفعالهم كسبا لهم، وقد خلقها الله، فتأمل البحث فإنه مهم.

[١] قوله: «**والظلم عندهم المحال لذاته**» وذلك كالجمع بين الضدين، وجعل الجسم الواحد في مكانين. وأما المحال لغيره: فكإيمان من علم الله تعالى أنه لا يؤمن، وذلك أن الله أرسل الرسل بطلب الإيمان من كل واحد، وكلفهم ذلك، وعلم أن بعضهم لا يؤمن. اهـ. توضيح(١)

وقوله: «**والظلم عندهم، إلخ**» أي: أن الظلم الذي نزه الله عنه نفسه مستحيل عليه، فلا يمكن أن يفعله، ولا يقدر عليه، وهذا مما يعلم بطلانه بالعقل، فكيف ينزه أحكم الحاكمين نفسه ويتمدح بترك شيء وهو لا يقدر عليه، ولا يمكن صدوره منه. وهذا مذهبهم.

وأما مذهب أهل السنة والجماعة: فهو أن الظلم الذي نزه الله عنه نفسه: هو الزيادة في السيئات، أو النقص من الحسنات، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾(٢). فقوله: ﴿ظُلْمًا﴾. أي: زيادة في سيئاته، و﴿هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾: نقصا من حسناته، وهو تعالى يقدر عليه، ولكنه نزه نفسه عنه.

---

(١) انظر: توضيح المقاصد ١/٥٨.
(٢) سورة طه، الآية: ١١٢.

فصل

في مذهبهم في الحكمة والإيمان[1]

٥٩- وكذلك قالوا ماله من حكمة ... هي غاية للأمر والإتقان[٢]

٦٠- ما ثمّ غير مشيئة قد رجَّحت ... مِثلا على مِثل بلا رجحان

٦١- هذا وما تلك المشيئة وصفه ... بل ذاته أو فعله قولان[٣]

٦٢- وكلامه مذ كان غيرا كان مخـ ... ـلوقا له من جملة الأكوان[٤]

---

[١] هذا الفصل فيه مبحثان جليلان: **أحدهما: في الكلام على الحكمة**، وهو قوله:

[٢] «**وكذلك قالوا ماله من حكمة هي غاية**» أي: مقصودة «**للأمر**» أي: الشرع «**والإتقان**» أي: الخلق.

يعني: أنهم نفوا الحكمة في خلقه وشرعه تعالى، فعندهم أن لا حكمة في الخلق والأمر والنهي، بل ما ثم إلا الترجيح بمجرد المشيئة، بل خلق للمخلوقات وأمر بالمأمورات لمحض المشيئة وصرف الإرادة، لا لحكمة اقتضته، وصفات اختص بها هذا المرجح على المرجح عليه، فتفضيله جبريل على إبليس ومحمد على أبي جهل لمحض المشيئة لا لحكمة، وذلك معنى قوله: «**بلا رجحان**» أي: بلا مرجح ظاهر.

[٣] قوله: «**هذا وما تلك المشيئة وصفه، البيت**» أي: ومع قولهم هذا المعلوم بطلانه عقلا وشرعا، لم يثبتوا أن مشيئته وصف له «**بل**» هي «**ذاته**» كما تقدم أنهم يجعلون الصفات ترجع إلى مجرد الذات «**أو فعله قولان**» أي: مفعوله، فعندهم أن الخلق هو المخلوق، والفعل هو المفعول.

[٤] قوله: «**وكلامه مذ كان غيرا، إلخ**» أي: أن كلامه عندهم غيره، ليس صفة له، وما كان غيره

٦٣- قالوا وإقرار العباد بأنه خلّاقهم هو منتهى الإيمان[١]

فهو مخلوق بائن عنه، خلقه الله في بعض الأجسام، فبدا من ذلك الجسم، لا من الله، ولا يقوم بالله كلام، بل ولا إرادة، كما حقق المؤلف ذلك في البدائع(١)

ومناسبة ذكر الكلام هنا: أن الحكمة ثابتة عند السلف بالخلق والأمر، فحقق المؤلف الأمرين هنا بيان مذهبهم، وهو مما يعلم بطلانه في الشرع والعقل والفطرة، وقد أبطله المؤلف في مفتاح دار السعادة بما يزيد على مئة وستين وجها(٢)

وأما مذهب السلف: فهو أن الله حَكَمٌ في شرعه وقدره، في أقواله وأفعاله، ودليل حكمته في الشرع: قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا ﴾(٣). وفي القدر: قوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾(٤). والتي تعم الأمرين: قوله تعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾(٥). أي: شرعا وقدرا. فالله أحكم الحاكمين، والحكمة: هي وضع الأشياء مواضعها. والجهمية ينفون وصفه بالحكمة.

المبحث الثاني: في الكلام على الإيمان، وهو قوله:

[١] «**قالوا وإقرار العباد، إلخ**» فعندهم: أن الإيمان هو المعرفة والتصديق، أي: الإقرار بأن الله هو خالق العالم، فلا تدخل الأقوال والأعمال في مسمى الإيمان وعندهم أن إيمان الناس سواء، وأن الإيمان لا يتفاضل، بل إيمان أصدق الناس وأبرهم كإيمان أفسقهم وأفجرهم. قالوا: ولا يفضل إيمان محمد وجبريل على إيمان أفسق الناس، وإنما يفضله بالطاعات، وهي أمر خارج عن الإيمان، ولهذا قال:

---

(١) انظر: بدائع الفوائد ١/ ١٨.

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة ٢/ ٦٢.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

(٤) سورة السجدة، الآية: ٧.

(٥) سورة النمل، الآية: ٨٨.

٦٤- والنـــاس فـــي الإيمان شـــيء واحد	كالمشـــط عنـــد تماثل الأســـنان[١]
٦٥- فاســـأل أبـــا جهـــل وشـــيعته ومن	والاهـــمُ مـــن عـــابـــدي الأوثـــان
٦٦- وســـل اليهـــود وكل أقلف مشـــرك	عبَـــد المســـيحَ مُقبّـــلَ الصلبان[٢]
٦٧- واســـأل ثمـــود وعاد بل ســـل قبلهم	أعـــداء نـــوح أمـــة الـــطـــوفـــان
٦٨- واســـأل أبا الجن اللعين أتعرف الـ	ـــخلاق أم أصبحـــتَ ذا نكـــران[٣]

[١] «**والناس في الإيمان شيء واحد كالمشط عند تماثل الأسنان**» أي: استوائها في الطول والقصر، وأما إذا اختلفت فلا يطابق التشبيه.

ثم قال المؤلف على سبيل الإلزام: «**فاسأل أبا جهم، إلخ**».

[٢] قوله: «**وسل اليهود وكل أقلف مشرك**» الأقلف: الذي لم يختتن.

[٣] قوله: «**واسأل أبا الجن، البيت**» كما قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ٥٠﴾(١).

هذا ليس مذهبا للجهم، ولا يقول به، وإنما هو من لازم مذهبه، لأن هؤلاء معترفون بالخالق، مصدقون به، فإذا كان الإيمان والتصديق -كما زعمت الجهمية- فليبشروا أن ما فيهم من كافر، لأنهم مصدقون بالله، معترفون به.

هذا تفصيل مذهبهم في الإيمان، وقد تضمن عدة مسائل منكرة مصادمة للنصوص.

منها: أن أخرجوا جميع الأقوال والأعمال من الإيمان، وقد تكاثرت النصوص في دخولها فيه.

ومنها: أنهم جعلوا إيمان أبر الناس كإيمان أفسقهم.

ومنها: أنهم أنكروا أن الإيمان يزيد وينقص، وقد دل الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة على أنه يزيد وينقص.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

٦٩- واسأل شرار الخلق أعني أمة	لوطية هم ناكحو الذكران
٧٠- واسأل كذاك إمام كل معطل	فرعون مع قارون مع هامان
٧١- هل كان فيهم منكر للخالق الـ	ـرّبّ العظيم مكوّن الأكوان
٧٢- فليبشروا ما فيهم من كافر	هم عند جهم كاملو الإيمان

ومنها: أن ما ألزمهم به المصنف من قوله: «**فاسأل أبا جهم، إلخ**» وارد عليهم، فقد ثبت في الكتاب والسنة أن هؤلاء يعرفون ربهم، ويقرون به، ولا ينكرونه، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[1]. إلى غيرها من الآيات، وقال عن فرعون وملئه: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[2]. إلى غير ذلك، وهم يدفعون هذا الإيراد بقولهم: إن كل من حكم الله أو رسوله بكفره فليس في قلبه أدنى معرفة لله، وهذا مكابرة للنصوص.

وأما مذهب أهل الحديث: فهو أن الإيمان يدخل فيه أربعة أشياء: أقوال اللسان، وأعمال الجوارح، واعتقادات القلوب، وهي أقوالها؛ كالتصديق، وأعمال القلوب؛ كالمحبة والتوكل.

والفرق بين اعتقادات القلوب وأعمالها: أن اعتقاداتها هي تصديقها، فهي مترتبة على العلم، وأعمالها مترتبة على الإرادة والمحبة، والجامع لها: الإنابة، فكل أعمال القلوب داخلة فيها، فليس كل من صدق بشيء عمل به؛ كالمنافقين وأهل الكتاب ونحوهم، فإنهم يعتقدون أن الرسول حق، ومع ذلك لم يطيعوه. والإيمان عند أهل الحديث يزيد وينقص.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٨٦ - ٨٧.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.

فصل

في مذهبهم في إنكار تسلسل الأفعال الاختيارية في الماضي والمستقبل

٧٣- وقضى بأن الله كان معطلا ... والفعل ممتنع بلا إمكان[١]

٧٤- ثم استحال وصار مقدورا له ... من غير أمر قام بالديان[٢]

٧٥- بل حاله سبحانه في ذاته ... قبل الحدوث وبعدها سيان[٣]

٧٦- وقضى بأن النار لم تخلق ولا ... جنات عدن بل هما عدمان[٤]

[١] قوله: «وقضى» أي: حكم جهم «**بأن الله كان معطلا**» في الأزل عن أفعاله الاختيارية «**والفعل ممتنع بلا إمكان**» أي: أنه لا يمكن أن يفعل.

[٢] قوله: «**ثم استحال**» أي: انقلب «**وصار مقدورا له**» أي: يقدر عليه قبل أن لم يكن كذلك، وذلك فرارا من القول بدوام فاعلية الرب تعالى، وأيضا لما قدر عليه فليس القدرة وصفا له، بل هي أمر خارج، وهذا معنى قوله: «**من غير أمر قام بالديان**».

[٣] قوله: «**بل حاله، إلخ**» أي: أنه ليس متصفا بالقدرة، سواء كان يقدر على الفعل أم لا.

هذا بيان مذهبهم في تسلسلها في الماضي.

وأما مذهب أهل السنة والجماعة: فهو أن الله تعالى لم يزل متكلما إذا شاء، ولم يزل فعالا لما يريد، ولا يزال كذلك، وقد ذكر شيخ الإسلام على ذلك ما ينوف على ألف دليل.

[٤] أي: وحكم الجهم بأن النار والجنة لم تخلقا، وإنما يخلقان يوم المعاد، ثم إذا خلقتا

٧٧- فـإذا همـا خُلقـا ليـوم معادنـا ... فـهـمـا عـلـى الأوقـات فـانـيـتـان
٧٨- وتلطـف العـلّاف مِـن أتباعـه ... فأتـى بضحكـة جاهـل مجّـان[١]
٧٩ - قال الفناء يكون في الحركات لا ... في الـذات واعجبا لـذا الهذيان[٢]
٨٠- أيصيـر أهـل الخلد فـي جناتهم ... وجـحـيـمـهـم كـحـجـارة الـبـنـيـان
٨١- مـا حال من قـد كان يغشـى أهله ... عند انـقـضـاء تـحـرك الـحـيـوان[٣]
٨٢- وكـذاك ما حـال الـذي رَفعتْ يدا ... هُ أكـلـة مـن صـفـحـة وخـوان[٤]
٨٣- فتناهـت الحركات قبـل وصولها ... لـلـفـم عـنـد تـفـتـح الأسـنـان[٥]

يوم المعاد فهما لابد فانيتان. وإنما قال الجهم هذا طردا للدليل، وهو الدليل المسمى بـ: «دليل الأكوان»، إذ مبناه على قطع التسلسل، وهو منع حوادث لا أول لها، فكذا يمتنع حوادث لا آخر لها. اهـ توضيح(١)

[١] قوله: «**وتلطف العلاف من أتباعه**» أي: أتى بما يظن أنه مقارب لقول السلف، وفي الحقيقة أنه كما قال الناظم: «**فأتى بضحكة جاهل مجان**» أي: صاحب مجون.

[٢] قوله: «**قال الفناء، إلخ**» أي: أن ذوات أهل الجنة والنار لا تفنى، وإنما حركاتهم تنقطع، فيصيرون كالجمادات، وذلك لأجل التزام دليل الأكوان. ثم قال الناظم على طريق التهكم بمقالة أبي الهذيل:

[٣] «**أيصير أهل الخلد، إلخ**» أي: هل يكونون كالحجارة والجمادات؟ فكيف حال الذي يجامع زوجته، فصادف انقطاع حركاتهم، وهو على تلك الحال، هل يبقى دائما مجامعا، أم ماذا؟!

[٤] قوله: «**خوان**» كقراب وكتاب؛ ما يؤكل عليه.

[٥] قوله: «**للفم**» بتشديد الميم.

هذا مذهبهم.

(١) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٨٣.

٨٤- وكـذاك ما حـال الـذي امتدت يد	مـنـه إلـى قـنـو مـن الـقِـنـوان
٨٥- فتناهت الحـركات قبل الأخذ هل	يـبـقـى كـذلـك سـائـرَ الأزمـان
٨٦- تبـا لهاتيـك العقـول فإنهـا	والـلـهِ قـد مُـسـخـت عـلـى الأبـدان
٨٧- تبا لمن أضحـى يقدمها على الـ	آثـار والأخـبـار والـقـرآن[١]

وأما قول أهل السنة والجماعة: فهو أن الجنة والنار مخلوقان، الآن وقبله، ولا يزال كذلك، كما أخبر الله في غير ما آية بخلودهما ومن فيهما، وهو إجماع من يعتد بقوله من سلف الأمة وأئمتها.

وأما العلاف: فهو أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف البصري المعتزلي المتكلم، طال عمره ونيف على التسعين، ومات سنة ٢٢٦. توضيح(١)

تتمة: لازم المذهب هل هو مذهب أم لا؟

فيه تفصيل: التحقيق: أنه إن كان كلام الله ورسوله: فلازمه مراد قطعا؛ لأن الشريعة صادرة من علام الغيوب [....](٢)ما يلزم عليها وما لا يلزم، وأيضا الشارع معصوم، فلا ينطق عن الهوى.

وإن كان كلام مخلوق: فلازمه ليس مرادا؛ لأنه ليس بمعصوم، ولأنه لا يحيط علما بكلامه، في منطوقه ومفهومه، ولازمه وملزومه، وإنما يستدل بلازم المذهب على بطلانه أو صحته، فإذا ألزمت هذا المتكلم بلوازم، فإن كانت صحيحة؛ استدل بها على صحة كلامه، والاستدلال بها على بطلانه، كما هو فعل المصنف، يستدل بفساد لوازم مذهبهم على بطلانه، وسيأتي ذكر لازم المذهب في كلام الناظم، إن شاء الله تعالى(٣)

ثم قال الناظم:

[١] «**تبّا**» أي: هلاكا «**لمن أضحى يقدمها، إلخ**» أي: إن الذي حملهم على ذلك هو تقديمها

(١) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٨٤.

(٢) كلمة لم تتضح لي، لوجود خرم في الورقة.

(٣) انظر: ص٦١٣.

....

على الكتاب والسنة، وفي الحقيقة لو كانت عقول أزكى البشر وأئمتهم أذهانا ما ساغ أن تُقدّم على الوحيين، فكيف بعقول هؤلاء الذين كما ترى؟!

فصل

في مذهبه في المعاد، وتحقيق مذهب السلف[١]

٨٨- وقضى بأن الله يجعل خلقه ... عدما ويقلبه وجودا ثان[٢]

٨٩- العرش والكرسي والأرواح والـ ... أملاك والأفلاك والقمران[٣]

٩٠- والأرض والبحر المحيط وسائر الـ ... أكوان من عرض ومن جثمان[٤]

[١] اعلم أن المؤلف جمع بهذا الفصل من الأدلة والبراهين ما لم أظفر به مجموعا في غيره، لا له، ولا لشيخه شيخ الإسلام، فضلا عن غيرهما، وإنما يذكر في بعض المواضع بعضا مما ذكر هنا؛ كالكلام على الروح مفردة، والكلام على الأبدان وحدها.

[٢] قوله: «**وقضى بأن الله يجعل خلقه عدما**» هذا القول مبني على إثبات الجوهر الفرد. اهـ توضيح(١)

والعدم: الذي لا يبقى من أجزائه شيء، بل يعدم كله.

قوله: «**وبقلبه وجودا ثان**» أي: بعدما أعدمهم يقلبهم قلبا ثانيا، لا جمعا لأجزائهم المتفرقة المستحيلة المتلاشية.

[٣] قوله: «**العرش والكرسي، البيتين**» أن هذه وغيرها يعدمها عدما محضا.

[٤] قوله: «**والأرض والبحر المحيط وسائر الأكوان من عرض**» وهو الوصف «**ومن جثمان**» وهو الجوهر.

(١) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٨٥.

٩١- كلٌّ سيفنيه الفناءَ المحضَ لا	يبقى له أثر كظل فان[١]
٩٢- ويعيد ذا المعدوم أيضا ثانيا	محض الوجود إعادة بزمان[٢]
٩٣- هذا المعاد وذلك المبدا لدى	جهم وقد نسبوه للقرآن[٣]
٩٤- هذا الذي قاد ابنَ سينا والألى	قالوا مقالته إلى الكفران[٤]
٩٥- لم تقبل الأذهان ذا وتوهموا	أن الرسول عناه بالإيمان[٥]

وقد وردت النصوص أن من المخلوقات شيء خُلق للبقاء لا للفناء، كما سيأتي -إن شاء الله- في كلامه قريبا(١)، ومنها: العرش، والكرسي، والأرواح، وغيرها.

[١] قوله: «**كل**» من هذه المذكورات «**سيفنيه**» الله «**الفناء المحض**» أي: الخالص الذي «**لا يبقى له**» أي: جزء، ولا «**أثر كظل فان**» فإن الظل إذا زال وفنى لا يبقى له أثر البتة.

[٢] قوله: «**ويعيد ذا المعدوم أيضا ثانيا**» أي: بعدما يعدمهم إعداما محضا يعيدهم الله «**محض الوجود إعادة بزمان**» وهذا من باب إضافة الصفة للموصوف، أي: وجودا محضا، أي: خالصا، ليس له بذر أو أصل أو أثر، بل إنما أعادهم خلقا لا أصل له.

[٣] قوله: «**هذا المعاد**» وهو إعادتهم محض الوجود «**وذلك المبدا**» أي: ابتداء إعدامه إياهم، وهو قوله فيما تقدم: «**كل سيفنيه الفناء المحض**».

قوله: «**لدى جهم وقد نسبوه**» أي: أن الجهمية نسبوا هذا القول «**للقرآن**» فقالوا: إن القرآن يدل عليه.

[٤] قوله: «**هذا الذي قاد ابن سينا والألى**» أي: الذين «**قالوا مقالته**» من الفلاسفة المنتسبين للإسلام؛ كالفارابي، وابن سبعين، ونحوهم، لأنهم يزعمون أن العدم بين الوجودين محال، فقادهم اعتقاد الجهم «**إلى الكفران**» وهو إنكار المعاد، والسبب في ذلك ما ذكره بالبيت بعده، وهو قوله:

[٥] «**لم تقبل الأذهان ذا**» أي: قول جهم في أمر المعاد «**وتوهموا أن الرسول عناه بالإيمان**»

(١) انظر: ص٦٠٥.

٩٦- هـذا كتـاب اللـه أنـى قـال ذا	أو عبـده المبعـوث بالبرهـان[١]
٩٧- أو صحبـه مـن بعـده أو تابـع	لـهـم علـى الإيمـان والإحسـان
٩٨- بـل صـرّح الوحـي المبيـن بأنه	حـقـا مُـغـيّـر هـذه الأكـوان[٢]
٩٩- فيبـدل اللـه السموات العلـى	والأرض أيضـا ذان تبديـلان[٣]
١٠٠- وهما كتبديل الجلود لساكني النـ	ـيران عند النضج مِن نيران
١٠١- وكـذاك يقبـض أرضـه وسمـاءه	بيديـه مـا العدمـان مقبوضان[٤]
١٠٢- وتُحـدّث الأرض التـي كنّـا بهـا	أخبارهـا فـي الحشـر للرحمن[٥]

حيث أوجب الإيمان بالبعث، فلذلك كفروا بالمعاد، لأن هذا شيء لا تقبله العقول. هذا سياق مذهبهم وتفصيله.

ثم شرع المؤلف في رده وتزييفه، وبيان المعاد على ما جاء في الكتاب والسنة.

[١] فقوله: «**هذا كتاب الله، البيتين**» فيه نفي الدليل عن كلامهم.

[٢] قوله: «**بل صرح الوحي المبين بأنه**» فيه الاستدلال للسلف على بطلان كلام الجهمية.

قوله: «**حقا مغير هذه الأكوان**» أي: تغيير صفات، لا تغيير ذوات.

[٣] قوله: «**فيبدل الله السموات، إلخ**» والتبديل قد يكون في الذات، كما في: أبدلت الدراهم بالدنانير. وقد يكون في الصفات، كما في: أبدلت الحلقة خاتما، وهو المراد؛ لأن الذي ورد في الكتاب والسنة تغيير الأكوان من حالة إلى حالة، ومن صفة إلى صفة أخرى، لا إفناءها بالكلية. أما الإعدام والإفناء المحض لكل شيء فهو مذهب جهم، ولم يرد في كتاب ولا سنة ولا قول الأمة.

[٤] قوله: «**وكذلك يقبض أرضه، إلخ**» دليله ما في الصحيح عن ابن عمر. اهـ توضيح(١)

[٥] قوله: «**وتحدث الأرض**» دليله قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾(٢). بأن تشهد

(١) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٨٨. (٢) سورة الزلزلة، الآية: ٤.

١٠٣- وتظل تشهد وهي عدل بالذي ... من فوقها قد أحدث الثقلان

١٠٤- أفيشهد العدم الذي هو كاسمه ... لا شيء هذا ليس في الإمكان

١٠٥- لكن تُسوّى ثم تبسط ثم تشـ ... ـهد ثم تُبدل وهي ذات كيان[١]

١٠٦- وتمد أيضا مثل مد أديمنا ... من غير أودية ولا كثبان

١٠٧- وتقيء يوم العرض ذا أكبادها ... كالأسطوان نفائس الأثمان[٢]

١٠٨- كلٌّ يراه بعينه وعيانه ... ما لامرئ بالأخذ منه يدان[٣]

١٠٩- وكذا الجبال تُفتّ فتا محكما ... فتعود مثل الرمل ذي الكثبان[٤]

١١٠- وتكون كالعهن الذي ألوانه ... وصباغه من سائر الألوان

١١١- وتُبسّ بسا مثل ذاك فتنثني ... مثل الهباء لناظر الإنسان

على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها. اهـ توضيح(١)

[١] قوله: «**لكن تسوى، البيتين**» هذا هو تفسير تبديل الأرض وتغييرها، أي: أنها تغير من حالتها الأولى إلى صفة غيرها، فتكون غير ما يعهده الناس.

[٢] قوله: «**وتقيء يوم العرض من أكبادها**» هذا من جملة التبديل، كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾(٢). أي: ما في جوفها من الأموات والدفاين.

قوله: «**كالأسطوان**» وهي: العُمد.

[٣] قوله: «**ما لامرئ بالأخذ منه يدان**» أي: قدرة. وأيضا: قد أهمهم ما هو أكبر منه.

[٤] قوله: «**وكذا الجبال، الثلاثة الأبيات**» فلها ثلاث حالات: أوّلا: تفتّ حتى تكون ككثيب الرمل، ثم تكون كالعهن المنفوش، وهو الصوف المصبوغ، ثم تبسّ حتى تكون كالهباء المنثور.

---

(١) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٨٩.

(٢) سورة الزلزلة، الآية: ٢.

١١٢- وكـذا البحـار فإنهـا مسـجورة	قـد فجـرت تفجير ذي سـلطان[١]
١١٣- وكذلـك القمـران يـأذن ربنـا	لـهـمـا فـيـجـتـمـعـان يـلـتـقـيـان[٢]
١١٤- هـذي مكـوّرة وهـذا خاسـف	وكـلاهـمـا فـي الـنـار مـطـروحـان[٣]
١١٥- وكواكـب الأفـلاك تنثـر كلهـا	كـلآلـئ نـثـرت عـلـى مـيـدان
١١٦- وكذا السـماء تشـق شـقا ظاهرا	وتـمـور أيـضـا أيـمـا مـوران[٤]
١١٧- وتصير بعد الإنشـقاق كمثل ها	ذا المهل أو تـك وردة كـدهـان[٥]

[١] قوله: «**وكذا البحار فإنها مسجورة**» أي: موقدة بالنار «**قد فجرت تفجير ذي سلطان**» أي: ذي قدرة وقوة، فهي تُفجّر أولا، ثم تسجر ثانيا.

[٢] قوله: «**فيجتمعان يلتقيان**» ولم يجتمعا منذ خلقهما الله قبل هذا الاجتماع، ولكن قد ذهب سلطانهما، فلذا قال:

[٣] «**هذي**» أي: الشمس« **مكورة**» أي: مجموعة ملفوفة «**وهذا**» أي: القمر «**خاسف**» أي: ذاهب نوره «**وكلاهما في النار مطروحان**» ليراهما من كان يعبدهما في الدنيا، فهو كالتوبيخ لهم.

[٤] قوله: «**وكذا السماء تشق شقا ظاهرا**» قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾(١). أي: انصدعت وتفطرت، ومعنى انشقاقها: انفطارها بالغمام الأبيض، وقيل: تنشق من المجرة، وبه قال علي بن أبي طالب. والمجرة باب السماء. اهـ توضيح(٢)

قوله: «**وتمور أيضا أيما موران**» المور: الاضطراب والحركة، قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ٩ ﴾(٣).

[٥] قوله: «**وتصير بعد الإنشقاق كمثل هاذا المهل**» الرصاص المذاب «**أو تك وردة كدهان**»

---

(١) سورة الانشقاق، الآية: ١.

(٢) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٩٣.

(٣) سورة الطور، الآية: ٩.

١١٨- والعرش والكرسي لا يفنيهما	أيضا وإنهما لمخلوقان
١١٩- والحور لا تفنى كذلك جنة الـ	ـمأوى وما فيها من الولدان[١]
١٢٠- ولأجل هذا قال جهم إنها	عدم ولم تخلق إلى ذا الآن[٢]
١٢١- والأنبياء فإنهم تحت الثرى	أجسامهم حُفظت من الديدان[٣]

أي: لونها كلون الوردة في حمرتها. والدهان: ما يدهن به، نحو دردي الزيت وهو خثارته، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾(١).

[١] قوله: «**والعرش والكرسي، إلخ**» المستثنى من الهلاك في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾(٢). ثمانية، نظمها السيوطي فقال: والعرش غير الكرسي، فإن الكرسي كالمرقاة بين يدي العرش.

وقد زاد الناظم على ذلك: الحور، في قوله: «**والحور لا تفنى**» أي: لأنهن خلقن للبقاء لا للفناء. توضيح(٣)

ثمانية حكم البقاء يعمها	من الخلق والباقون في حيز العدم
هي العرش والكرسي نار وجنة	وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم

[٢] قوله: «**ولأجل هذا**» أي: لأجل النصوص الدالة على أن الجنة لا تفنى «**قال جهم إنها عدم ولم تخلق إلى ذا الآن**» وذلك بناء على مذهبه الخبيث، وهو قوله أول الفصل: «كل سيفنيه الفناء المحض» أي: لو كانت موجودة لفنيت، ولكنها الآن لم تخلق، وإنما يخلقها الله يوم المعاد.

[٣] قوله: «**والأنبياء فإنهم، إلخ**» أي: فكل الأنبياء لا تأكل الأرض لحومهم، وقد يشاركهم بعض الأولياء، كرامة لهم.

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٣٧.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٣) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٩٦.

١٢٢- مـا للبلى بلحومهم وجسـومهم	**أبـدا وهـم تحت الـتـراب يـدان[١]**
١٢٣- وكذلك عجـب الظهر لا يبلى بلى	**مـنـه تُـركّـب خـلـقـة الإنـسـان[٢]**
١٢٤- وكذلـك الأرواح لا تبلـى كمـا	**تبلى الجسـوم ولا بلـى اللحمان[٣]**
١٢٥- ولأجل ذلك لم يُقـر الجهم بالـ	**أرواح خارجـة عـن الأبـدان[٤]**
١٢٦- لكنهـا مِـن بعـض أَعـراض بها	**قـامـت وذا فـي غـايـة الـبـطـلان**
١٢٧- فالشـأن لـلأرواح بعـد فراقهـا	**أبـدانـنـا والـلـهِ أعـظـم شـان[٥]**
١٢٨- إمـا عـذاب أو نعيـم دائـم	**قـد نعمت بـالـروح والـريـحـان[٦]**

[١] قوله: «**يدان**» أي: قوة وطاقة.

[٢] قوله: «**وكذاك عجب الظهر، إلخ**» كما ورد: «**كل ابن آدم تأكله الأرض، إلا عجب الذنب، منه خلق، وفيه يركب**»(١) وهو العظم الذي في أسفل الصلب، وأصل الذنب من ذوات الأربع، مثل حبة الخردل، منه ينبتون.

توضيح(٢) فهو لا يفنى، ولو أحرق الميت، أو أكله سبع، ونحوه.

[٣] قوله: «**بلى اللحمان**» «بلى» مصدر، أي: كما يبلى اللحم.

[٤] قوله: «**ولأجل ذاك لم يقر الجهم، إلخ**» أي: أن الجهم يقول: إن الروح لا داخل البدن، ولا خارجه، ولا متصلة به، ولا منفصلة عنه. توضيح(٣) أي: لا يقر بأن الروح غير البدن، بل هي من بعض الصفات التي يتصف بها البدن؛ كالبياض، والسمع، والبصر، والطول، والقصر، ونحوها.

[٥] قوله: «**فالشان للأرواح بعد فراقها**» **لأنها في الدنيا محجوبة بالبدن، مقصورة على مصالحه، فإذا انفردت فيه صار لها «واللهِ أعظم شان».**

[٦] قوله: «**إما عذاب أو نعيم دائم**» تأمل كيف جعل النعيم دائما، والعذاب لم يطلق عليه أنه

---

(١) أخرجه البخاري ٤٩٣٥، ومسلم ١٤١-٢٩٥٥، عن أبي هريرة.

(٢) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٩٨. (٣) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٩٨.

١٢٩- وتصير طيرا سارحا مع شكلها ... تجني الثمار بجنة الحيوان[١]

١٣٠- وتظل واردة لأنهار بها ... حتى تعود لذلك الجثمان

١٣١- لكن أرواح الذين استشهدوا ... في جوف طير أخضر ريان[٢]

١٣٢- فلهم بذاك مزية في عيشهم ... ونعيمهم للروح والأبدان

١٣٣- بَذلوا الجسوم لربهم فأعاضهم ... أجسام تلك الطير بالإحسان

١٣٤- ولها قناديل إليها تنتهي ... مأوى لها كمساكن الإنسان

١٣٥- فالروح بعد الموت أكمل حالة ... منها بهذي الدار في جثمان[٣]

١٣٦- وعذاب أشقاها أشد من الذي ... قد عاينت أبصارنا بعيان

١٣٧- والقائلون بأنها عرض أبوا ... ذا كله تبا لذي نكران[٤]

دائم، وذلك إشارة أن مَن نُعِّم؛ فنعيمه دائم، ومَن عُذِّبَ؛ فقد يكون عذابه دائما، وقد لا يدوم، فالكافر يدوم عذابه، والمؤمن وإن عُذِّبَ ببعض ذنوبه فلا يدوم عذابه، وقد يلحظ منه الإيماء إلى القول بفناء النار، كما هو قول لبعض السلف.

[١] قوله: «**وتصير طيرا، إلخ**» أي: أرواح عموم المؤمنين ولو غير شهداء، كما نبّه عليه في كتاب الروح. لقوله ﷺ: «**نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة**». توضيح(١)

[٢] قوله: «**لكن أرواح الذين استشهدوا**» معنى أن الشهداء لهم خصوصية، بأن أرواحهم تجعل في أجواف طير خضر.

قوله: «**في جوف طير أخضر ريان**» أي: ناعم.

[٣] قوله: «**في جثمان**» هو الجسم، وهو الجسد، فهي ألفاظ مترادفة.

[٤] قوله: «**والقائلون بأنها**» أي: الروح «**عرض أبوا ذا كله**» أي: ما ورد من نعيم البرزخ وعذابه، لأنها عندهم تعدم وتتلاشى، فعندهم أنها عرض من أعراض البدن، فإذا مات الجسم؛ عدمت

---

(١) انظر: توضيح المقاصد ١/ ١٠٣.

١٣٨- وإذا أراد الله إخراج الورى بعد الممات إلى المعاد الثاني[١]

١٣٩- ألقى على الأرض التي هم تحتها والله مقتدر وذو سلطان

١٤٠- مطرا غليظا أبيضا متتابعا عشرا وعشرا بعدها عشران

١٤١- فتظل تنبت منه أجسام الورى ولحومهم كمنابت الريحان[٢]

١٤٢- حتى إذا ما الأم حان ولادها وتمخضت فنفاسها متدان

١٤٣ - أوحى لها رب السماء فتشققت فبدا الجنين كأكمل الشبان

١٤٤ - وتخلت الأم الولود وأخرجت أثقالها أنثى ومن ذكران[٣]

١٤٥ - والله ينشئ خلقه في نشأة أخرى كما قد قال في القرآن[٤]

روحه، كما تعدم سائر أعراضه المشروطة بالحياة، فإذا مات؛ فلا روح تصعد إلى السماء، وتعود إلى القبر، وتقبضها الملائكة، ويستفتحون لها أبواب السموات، ولا تنعم ولا تعذب، وإنما ينعم ويعذب الجسد، إذا شاء الله تنعيمه وتعذيبه رد عليه الحياة في وقت يريد نعيمه وعذابه، وإلا فلا روح هناك قائمة بنفسها البتة.

وقال بعض أرباب هذا القول: ترد الحياة إلى عجب الذنب، فهو الذي يعذب وينعم حسب. وهذا قول يرده الكتاب والسنة، وإجماع الصحابة، وأدلة العقول والفطرة، وهو قول من لم يعرف روحه فضلا عن روح غيره. اهـ توضيح ملخصا(١)

[١] قوله: «**وإذا أراد الله إخراج، إلخ**» هذا مبدأ المعاد الثاني، وأما المعاد الأول: فهو رجوع الروح إلى البدن في البرزخ، وتنعيمها أو تعذيبها.

[٢] قوله: «**كمنابت الريحان**» جميع البقولات والخضروات.

[٣] قوله: «**وتخلت الأم الولود**» كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾(٢).

[٤] قوله: «**والله ينشىء خلقه، إلخ**» أي: أن هذه النشأة غير نشأتهم في الدنيا، فإن تلك قابلة

---

(١) انظر: توضيح المقاصد ١٠٨/١.
(٢) سورة الانشقاق، الآية: ٤.

١٤٦ - هذا الذي جاء الكتاب وسنة الـ ــهادي به فاحرص على الإيمان

١٤٧ - ما قال إن الله يُعدم خلقه طرا كقول الجاهل الحيران[١]

للفناء والتغير والزوال، وهذه قابلة للسرمدي والبقاء.

[١] وقوله: «**ما قال إن الله يعدم خلقه طرا**» ختم به هذا الفصل كما ابتدأه به أوّلا[(١)]

قوله: «**كقول الجاهل الحيران**» ومراده بالجاهل: الجهم بن صفوان.

---

(١) في ص:٦٠٠، وهو قوله:

وقضى بأن الله يجعل خلقه عدما ويقلبه وجودا ثان

فصل [1]

١٤٨ - وقضى بأن الله ليس بفاعل فعلا يقوم به بلا برهان[٢]

١٤٩ - بل فعله المفعول خارج ذاته كالوصف غير الذات في الحسبان[٣]

١٥٠ - والجبر مذهبه الذي قرت به عين العصاة وشيعة الشيطان[٤]

[١] يذكر الناظم في هذا الفصل جملة من المسائل المتقدمة، وإنما كررها تبيانا لما فيها من المعاني الغوامض، وتفريعا عليها وجمعا لها.

[٢] قوله: «**وقضى بأن الله ليس بفاعل**» تضمن كلام المصنف مسألتين عظيمتين:

إحداهما: في أفعال الله: هل لله تعالى فعل يقوم به بمشيئته وقدرته، أم الفعل هو المفعول، والخلق هو المخلوق؟

فالأول: هو الذي ذكره الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة والشافعي وأحمد ومالك في كتبهم، وذهبت الجهمية والمعتزلة أو أكثرهم والكلابية والأشعرية إلى أن الخلق هو المخلوق، والفعل هو المفعول، وليس لهؤلاء عند الرب فعل يقوم به، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. توضيح[(١)]

قوله: «**فعلا يقوم به**» أي: يتصف به «**بلا برهان**» متعلق بقضى.

[٣] قوله: «**بل فعله**» هو «**المفعول**» وهو «**خارج ذاته**» «**كـ**» ما أن «**الوصف**» عنده «**غير الذات في الحسبان**».

[٤] قوله: «**والجبر مذهبه، إلخ**» أي: أن مذهب جهم هو الجبر. وهذه **المسألة الثانية**. ومعنى

(١) انظر: توضيح المقاصد ١/ ١١٢.

١٥١ - كانوا علـى وجل من العصيان ذا ... هـو فعلهـم والذنب للإنسـان[١]

١٥٢ - واللـوم لا يعـدوه إذ هـو فاعـل ... بـإرادة وبـقـدرة الـحـيـوان

١٥٣ - فأراحهم جهم وشـيعته من الـ ... ـلوم العنيـف وما قضـوا بأمان[٢]

الجبر: أن العباد مجبورون على أفعالهم، وليس لهم عليها قدرة، وليسوا هم الفاعلين لها، إلا على وجه المجاز، وإلا فهي أفعال الباري. اهـ. شيخنا.

وقد اختلف الناس في أفعال العباد، هل هي مقدورة للرب والعبد أم لا؟

فقال الجهم وأتباعه الجبرية: إن ذلك الفعل مقدور للرب لا للعبد، وكذلك قال الأشعري: إن المؤثر فيه قدرة الرب دون قدرة العبد. وقال جمهور المعتزلة: إن الرب لا يقدر على غير مقدور العبد. اهـ توضيح(١)

[١] قوله: «**كانوا على وجل، إلخ**» أي: أن أفعال العباد غير اختيارية، بل هم مجبورون عليها، كحركة المرتعش، وتحريك الهوى للأشجار، ونحو ذلك، فإذا كان أصل القدرية المجبرة أن إرادة الرب تعالى هي عين محبته ورضاه، فكلما شاءه فقد رضيه وأحبه، وكلما لم يشأه فهو مسخوط مبغوض، فالمسخوط المبغوض هو ما لم يشأ، والمحبوب المرضي هو ما شاءه. هذا أصل القدرية الجبرية المنكرين للحكم والتعليل والأسباب وتحسين العقل وتقبيحه. اهـ توضيح(٢)

قوله: «**كانوا على وجل، إلخ**» أي: أنهم إذا أذنبوا ذنبا؛ خافوا أن يعاقبهم الله على ذنوبهم، لأنهم الفاعلون لها، وهم الملومون عليها، لأنها ناشئة عن إرادتهم وقدرتهم.

[٢] قوله: «**فأراحهم جهم وشيعته من اللوم العنيف**» بأن قال: إن الله هو الذي أجبركم عليها، وليست أفعالا لكم حقيقة، «**و**» لكنهم «**ما قضوا بأمان**» لهم، أي: أنهم لم يُمنوهم من العذاب، فقالوا: إن العصيان ليست أفعالا لكم، ومع ذلك إن الله يعاقبكم عليها، ولو لم تكن أفعالا لكم، بل الله الذي فعلها فيكم، ويعاقبكم عليها.

---

(١) انظر: توضيح المقاصد ١/ ١١٢.

(٢) انظر: توضيح المقاصد ١/ ١١٤.

١٥٤ - لكنهم حملوا ذنوبهم عليص	رب العباد بعزة وأمان[١]
١٥٥ - وتبرؤوا منها وقالوا إنها	أفعاله ما حيلة الإنسان
١٥٦ - ما كلف الجبار نفسا وسعها	أنى وقد جبرت على العصيان[٢]
١٥٧ - وكذا على الطاعات أيضا قد غدت	مجبورة فلها إذا جبران[٣]
١٥٨ - والعبد في التحقيق شبه نعامة	قد كلفت بالحمل والطيران[٤]
١٥٩ - إذ كان صورتها تدل عليهما	هذا وليس لها بذاك يدان[٥]
١٦٠ - فلذاك قال بأن طاعات الورى	وكذاك ما فعلوه من عصيان

[١] قوله: «**بعزة وأمان**» أي: بجراءة عليه، وأمن من العقوبة على هذه الجراءة.

[٢] قوله: «**ما كلف الجبار نفسا وسعها**» هذا مصادم للآية: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾(١).

[٣] قوله: «**وكذا على الطاعات أيضا قد غدت مجبورة**» أي: أن الله جبرهم على المعاصي وعلى الطاعات.

قوله: «**فلها إذا جبران**» ومن هنا نعلم أن ما ذكره أكثر المفسرين على قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾(٢). فذكروا ما يدل على مذهب الجهمية ونحوهم، أن العبد مجبور على فعل المعاصي، لا على فعل الطاعات، فالصواب أن مذهبهم أن العبد مجبور على الطاعات والمعاصي، كما هو صريح عبارة الناظم، فتأمل.

[٤] قوله: «**والعبد في التحقيق شبه نعامة**» أي: لأجل أن لها أجنحة، فتشبه الطير من هذا الوجه، ولها أخفاف تشبه أخفاف الناقة، فلهذا قال: «**قد كلفت بالحمل والطيران**». اهـ توضيح(٣)

[٥] قوله: «**هذا وليس لها بذاك يدان**» المراد باليد هنا القوة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٢) سورة النساء، الآية: ٧٩.
(٣) انظر: توضيح المقاصد ١/ ١١٥.

١٦١ - هي عين فعل الرب لا أفعالهم	فيصح عنهم عند ذا نفيان[١]
١٦٢ - نفي لقدرتهم عليها أوّلا	وصدورها منهم بنفي ثان[٢]
١٦٣ - فيقال ما صاموا ولا صلوا ولا	زكوا ولا ذبحوا من القربان
١٦٤ - وكذاك ما شربوا وما قتلوا وما	سرقوا ولا فيهم غوي زان[٣]
١٦٥ - وكذاك لم يأتوا اختيارا منهم	بالكفر والإسلام والإيمان
١٦٦- إلا على وجه المجاز لأنها	قامت بهم كالطعم والألوان[٤]
١٦٧- جُبروا على ما شاءه خلّاقهم	ما ثم ذو عون وغير معان
١٦٨- الكل مجبور وغير ميسّر	كالميت أدرج داخل الأكفان[٥]

[١] قوله: «**فيصح عنهم عند ذا نفيان، إلخ**» هذا إلزام لهم.

[٢] قوله: «**نفي لقدرتهم عليها أولا**» وهذا يقرون به، ولا ينكرونه.

وقوله: «**وصدروها منهم بنفي ثان**» هذا من لازم مذهبهم، وإلا فلا يقولون به.

[٣] هذا إلزام لهم. ذكر أمور العبادات، وأمور العادات، وأمور المعاصي.

[٤] قوله: «**إلا على وجه المجاز، إلخ**» أي: لأنهم ليس لهم عليها قدرة، بل «**قامت بهم كالطعم والألوان**» فالإنسان كما لا يقدر أن يغير لونه عن حالته الأصلية من السواد والبياض، كذلك لا يقدر أن يفعل أو يترك بقدرته وإرادته، بل هو مجبور.

[٥] قوله: «**الكل مجبور**» قد أشبع الكلام فيه الناظم في مشهد أصحاب الجبر في شرح منازل السائرين. اهـ. توضيح(١)

قوله: «**وغير ميسر كالميت أدرج داخل الأكفان**» إشارة إلى أنهم خالفوا ما ثبت في الصحيحين: «**اعملوا، فكلكم ميسر لما خلق له**». الحديث(٢) توضيح(٣)

---

(١) انظر: توضيح المقاصد ١/ ١١٧.
(٢) أخرجه مسلم ٧-٢٦٤٧، عن علي.
(٣) انظر: توضيح المقاصد ١/ ١١٨.

١٦٩- وكـذاك أفعـال المهيمن لم تقم	أيـضـا بـه خـوفـا مـن الـحـدثـان[١]
١٧٠- فـإذا جمعـت مقالتيـه أنتجـا	كـذبـا وزورا واضـح الـبـهـتـان
١٧١- إذ ليسـت الأفعـال فعـل إلهنـا	والـرب لـيـس بـفـاعـل الـعـصـيـان
١٧٢- فـإذا انتفـت صفـة الإلـه وفعله	وكـلامـه وفـعـائـل الإنـسـان[٢]
١٧٣- فهنـاك لا خلـق ولا أمـر ولا	وحـي ولا تـكـلـيـف عـبـد فـان[٣]
١٧٤- وقضـى على أسـمائه بحدوثها	وبخلقهـا مـن جملـة الأكـوان[٤]

ولما فرغ الناظم من الكلام على القول بالجبر، وذكر بعض ما يلزم أهله، شرع -أيضا- ببيان ما يلزمهم من وجه آخر من الشناعات، فقال:

[١] «**وكذاك أفعال المهيمن، إلخ**» وذلك بزعمهم خوفا من قيام الحوادث بذات الرب، لأنهم إذا قالوا إنها قائمة به؛ لزم قيام الحوادث بذاته، فيلزم حدوثه، لأن ما قامت به الحوادث فهو حادث. اهـ توضيح(١) وقد تقدم هذا المعنى مرارا، وإنما ذكره ليبني قوله: «**فإذا جمعت مقالتيه، إلخ**» أي: إذا الفعل ليس فعلا للرب، والعبد مجبور لا فعل له حقيقة، بل تسمى أفعالا له مجازا، كان نسبة ذلك الفعل إلى الرب كذبا، لأنه ليس بفاعل للمعاصي، وصار نسبته منه أيضا كذبا، لأنه ليس بفاعل، وإنما هو مجبور.

[٢] قوله: «**فإذا انتفت صفة الإله وفعله وكلامه**» هذه الثلاثة هي التي فيها النزاع والجدال بين السلف والمبتدعة.

[٣] قوله: «**فهناك لا خلق ولا أمر ولا وحي**» كما ألزمهم به الناظم. توضيح(٢)

قوله: «**ولا تكليف عبد فان**» إشارة إلى أنه لا يقدر على الحركة، بل هو كالفاني الذي لا حركة له البتة، هذا على زعمهم.

[٤] قوله: «**وقضى على أسمائه بحدوثها، إلخ**» لأنها عندهم غيره، ولأنها من القرآن، والقرآن

---

(١) انظر: توضيح المقاصد ١/ ١١٦. (٢) انظر: توضيح المقاصد ١/ ١١٧.

١٧٥- فانظر إلى تعطيله الأوصاف والـ أفعال والأسماء للرحمن[١]
١٧٦- ماذا الذي في ضمن ذا التعطيل من نفي ومن جحد ومن كفران
١٧٧- لكنه أبدى المقالة هكذا في قالب التنزيه للرحمن[٢]
١٧٨- وأتى إلى الكفر العظيم فصاغه عجلا ليفتن أمة الثيران[٣]
١٧٩- وكساه أنواع الجواهر والحلي من لؤلؤ صاف ومن عقيان[٤]
١٨٠- فرآه ثيران الورى فأصابهم كمصاب إخوتهم قديمَ زمان
١٨١- عِجلان قد فتنا العباد بصوته إحداهما وبحرفه ذا الثاني[٥]
١٨٢- والناس أكثرهم فأهل ظواهر تبدو لهم ليسوا بأهل معان[٦]

غيره، وكل ما كان غيره فهو محدث مخلوق بائن عنه.

[١] هذه الثلاثة الإيمان بها هو أركان الإيمان بالأسماء والصفات. فتعطيله الأوصاف: نفيها، فالجهم ينفي صفات الباري. وتعطيله الأفعال: حيث يقول: إن فعله لم يقم به، بل الفعل هو المفعول، والخلق هو المخلوق. وتعطيله الأسماء: حيث يقول: إنها غير الله، حادثة، بائنة منه.

[٢] قوله: «**لكنه أبدى المقالة، إلخ**» ولو لم يفعل هكذا ما روّج بضاعته على بعض العقول الفاسدة.

[٣] قوله: «**وأتى إلى الكفر، إلخ**» أي: أنه شابه السامري، حيث صاغ العجل ليفتن بني إسرائيل، فهذا صاغ كلامه وزوّقه لفتن الناس فيه.

[٤] قوله: «**وكساه أنواع الجواهر، إلخ**» ولو لم يفعل ما راج قوله.

[٥] قوله: «**عجلان قد فتنا العباد بصوته إحداهما**» هو العجل الحقيقي الذي صاغ السامري «**وبحرفه ذا الثاني**» أي: بعباراته المزوّقة وكلامه الفصيح، ومراده: اعتقاد جهم.

[٦] قوله: «**والناس أكثرهم، إلخ**» أي: أنهم لا ينظرون بعين البصيرة إلى ما وراء هذه الظواهر.

١٨٣- فهم القشور وبالقشور قوامهم	واللب حظ خلاصة الإنسان[١]
١٨٤- ولذا تقسمت الطوائف قوله	وتوارثوه إرث ذي السهمان[٢]
١٨٥- لم ينج من أقواله طرا سوى	أهلِ الحديث وشيعة القرآن
١٨٦- فتبرؤوا منها براءة حيدر	وبراءة المولود من عمران[٣]
١٨٧- من كل شيعي خبيث وصفُه	وصفُ اليهود محللي الحيتان[٤]

[١] وأما «**خلاصة الإنسان**» فهم اللب والأصل، ولهم ما يناسبهم من اللب والأصل.

[٢] أي: كتقاسم الورثة للتركة بالأسهم. فأخذت الجبرية قوله في الجبر، وقالوا: إن العبد ليس بفاعل حقيقة. وأخذت المعطلة -من المعتزلة، والأشاعرة، والماتوريدية، ونحوهم- قوله في نفي الصفات، وتعطيل الرب، فقالوا: إنه لا يقوم به وصف ولا فعل، فعطلوا الأسماء الحسنى والصفات العليا. وأخذت المرجئة قوله في الإرجاء، فقالوا: إن الإيمان مجرد التصديق، وأخرجوا الأعمال والأقوال عن مسمى الإيمان.

وكل هذا قد تقدم تفصيله، وأن النصوص الصحيحة الصريحة ترده من غير وجه.

[٣] قوله: «**فتبرؤوا منها**» أي: تبرأ أهل الحديث من أقواله «**براءة حيدر**» هو لقب لعلي بن أبي طالب «**وبراءة المولود من عمران**» هو: موسى عليه السلام.

[٤] قوله: «**من كل شيعي خبيث وصفه**» هذا من باب اللف والنشر، أي: أن أهل الحديث تبرؤوا من قول جهم، كما تبرأ موسى من بني إسرائيل الذين عبدوا العجل، وتحيلوا على صيد الحيتان يوم السبت، وكما تبرأ علي من الشيعة الذين ادعوا فيه الإلهية، فلما لم يتوبوا من مقالتهم الشنيعة؛ اتفق الصحابة على قتلهم، فخدّ لهم عليّ الأخاديد، وأضرم فيها النار، وحرقهم، وجعل يقول:

إني إذا عاينت أمرا منكرا	أججت ناري ودعوت قنبرا(١)

وقوله: «**وصفه وصف اليهود محللي الحيتان**» أي: أن الشيعة يشابهون اليهود في كثير من

(١) انظر: تاريخ الإسلام، للذهبي ٣/ ٦٤٣.

....

صفاتهم، فهم غلوا في أشخاص حتى عبدوهم من دون الله، وجفوا في أشخاص حتى لم يقدروهم قدرهم، وكذلك الشيعة: غلوا بعليّ حتى عبدوه، وجفوا بحق أكابر الصحابة. واليهود أصحاب حيل على إبطال الحق واستحلال الحرام، وكذلك الشيعة فهم موافقون لهم في كثير من صفاتهم الشنيعة، وقد ذكر في المنهاج جملة من الصفات التي وافقت الشيعة فيها اليهود[1]

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية ١/ ٢١.

فصل

في مقدمة نافعة قبل التحكيم[١]

١٨٨- يا أيها الرجل المريد نجاته   اسمع مقالة ناصح مِعوان[٢]

١٨٩- كن في أمورك كلها متمسكا   بالوحي لا بزخارف الهذيان[٣]

[١] هذا شروع في مقدمة نافعة ووصية جامعة، يحتاج إليها كل طالب علم، سواء كان علم أصول أو فروع، بل ينبغي تقديمها على آداب العالم والمتعلم، لأن فيها من الوصايا ما يحتاج إليه كل من أراد سعادته في الدارين.

[٢] قوله: «**يا أيها الرجل المريد نجاته**» فخص هذا الذي قصده نجاة نفسه من عذاب الدنيا والآخرة.

قوله: «**اسمع نصيحة ناصح معوان**» اسم فاعل، بكسر الميم، بمعنى: معين، بل هو أبلغ منه، فكما أن الإعانة تكون بالأفعال كذلك تكون بالأقوال.

[٣] قوله: «**كن في أمورك كلها**» أي: الدينية والدنيوية «**متمسكا بالوحي**» فطالب العلم ينبغي له التمسك بالوحيين «**لا بزخارف الهذيان**» فكل ما عدا الوحيين فهو إما مأخوذ منهما، أو وسيلة إليهما، فهذا حكمه حكمها، وما عدا ذلك فهو زخارف الهذيان، فإما أن يكون ضارا غير نافع، وإما أن يكون لا ضرر فيه ولا نفع، فكيف يعدل المريد لنجاته عن ما يتحقق نفعه إلى ما لا نفع فيه، لأن العلم -كما قال شيخ الإسلام-: ما قام عليه الدليل، والنافع منه: ما جاء عن الرسول(١)

فالإنسان يطلب العلم -أولا- لتحصيل معرفته، ثم يعمل به، ثم يدعو إليه، سواء كانت دعوة

(١) انظر: مجموع الفتاوى ٦/ ٣٨٨.

١٩٠- وانصر كتاب الله والسنن التي جاءت عن المبعوث بالفرقان[١]

١٩١- واضرب بسيف الوحي كل معطل ضرب المجاهد فوق كل بنان[٢]

١٩٢- واحمل بعزم الصدق حملة مخلص متجرد لله غير جبان[٣]

جاهل يرشده، أو معاند يناظره حتى تقوم عليه الحجة، فإن رجع فذاك، وإلا فهو إعذار وذب عن الدين.

[١] قوله: «**وانصر كتاب الله، إلخ**» لأن نصرهما تارة يكون بالسيف والسنان، وتارة بالحجة واللسان، وهذا قد يكون أبلغ، كما في الحديث: «**أفضل الجهاد: كلمة حق عند سلطان جائر**»(١)

[٢] قوله: «**واضرب بسيف الوحي كل معطل**» استعار اسم السيف للوحي، إشارة إلى قطعه المنازع، لأن الوحي دليل قطعي سمعي عقلي. توضيح(٢) ولما كان المقام يقتضي التعطيل؛ نص عليه، وإلا فكل من خالف الكتاب والسنة يُضرب بسيف الوحي.

قوله: «**ضرب المجاهد فوق كل بنان**» البنان يطلق ويراد به الأنامل، وهي أطراف [الأصابع](٣)، ويطلق ويراد به المفاصل، وهو المراد هنا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢﴾(٤). أي: كل مفصل، لأنه أنكى في الضرب.

[٣] قوله: «**واحمل بعزم الصدق**» وذلك لأن الإنسان قد يؤتى من قلة عزمه؛ فأرشد إليه هنا، وقد يؤتى من قلة علمه؛ فأرشد إليه بقوله فيما تقدم: «**كن في أمورك كلها متمسكا، إلخ**»، وفيما يأتي: «**واجعل كتاب الله والسنن التي ثبتت سلاحك**»، فإذا اجتمعا؛ حصل المراد والكمال.

قوله: «**حملة مخلص**» فيه الإخلاص «**متجرد لله غير جبان**» فيه الشجاعة المحمودة.

---

(١) أخرجه أحمد ١٨٨٣٠، والنسائي ٤٢٠٩، عن طارق بن شهاب، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١١٠٠.

(٢) انظر: توضيح المقاصد ١/ ١٢٣.

(٣) خرم في الأصل.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ١٢.

١٩٣- واثبت بصبرك تحت ألوية الهدى	فإذا أصبت ففي رضا الرحمن[١]
١٩٤- واجعل كتاب الله والسنن التي	ثبتت سلاحك ثم صِح بجنان[٢]
١٩٥- من ذا يبارز فليقدم نفسه	أو من يسابق يَبدُ في الميدان
١٩٦- واصدع بما قال الرسول ولا تخف	من قلة الأنصار والأعوان
١٩٧- فالله ناصرُ دينه وكتابه	والله كاف عبده بأمان
١٩٨- لا تخش من كيد العدو ومكرهم	فقتالهم بالكِذب والبهتان
١٩٩- فجنود أتباع الرسول ملائك	وجنودهم فعساكر الشيطان[٣]
٢٠٠- شتان بين العسكرين فمن يكن	متحيرا فلينظر الفئتان[٤]

[١] قوله: «**واثبت بصبرك تحت ألوية الهدى**» لأن النصر مع الصبر، كما في الحديث(١) وقال شيخ الإسلام: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين(٢) فمن ليس معه صبر لا يدرك المقصود، بل ولا بعضه.

قوله: «**فإذا أصبت**» بقتل، فما دونه «**ففي رضا الرحمن**».

[٢] قوله: «**واجعل كتاب الله**» لما كان الكتاب ثابتا لم يُقيّده، ولما كانت الأحاديث: منها ما هو صحيح، ومنها ما هو غير ثابت فلا يحتج به؛ قيدها بقوله: «**والسنن التي ثبتت سلاحك ثم صح بجنان**» أي: بقلب حاضر قائلا: «**من ذا يبارز، إلخ**».

[٣] قوله: «**فجنود أتباع الرسول ملائك**» أي: فجندهم الداخلي: التمسك بالوحي والإخلاص والصبر، وجندهم الخارجي: ملائكة الرحمن.

«**و**» أما عداهم «**جنودهم فعساكر الشيطان**» فجندهم الداخلي: الكذب والبهتان، وجندهم الخارجي: عساكر الشيطان، ولذلك قال المصنف:

[٤] «**شتان بين العسكرين فمن يكن متحيرا**» بالراء المهملة، أي: شاكا في أيهم على الحق. وفي

(١) أخرجه أحمد ٢٨٠٣، عن ابن عباس. وصححه الألباني في الصحيحة ٢٣٨٢.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٣/ ٣٥٨.

٢٠١- واثبت وقاتل تحت رايات الهدى	واصبر فنصر الله ربك دان
٢٠٢- واذكر مَقاتلهم لفرسان الهدى	لله در مَقاتل الفرسان[١]
٢٠٣- وادرأ بلفظ النص في نحر العدا	وارجمهمُ بثواقب الشهبان[٢]
٢٠٤- لا تخش كثرتهم فهم همج الورى	وذبابه أتخاف مِن ذِبّان[٣]
٢٠٥- واشغلهم عند الجدال ببعضهم	بعضا فذاك الحزم للفرسان[٤]

نسخة: «متحيزا» بالزاي المعجمة، والأول أولى.

وقوله: «**فلينظر الفئتان**» هذا على مذهب من يجعل المثنى بالألف في أحواله الثلاث؛ رفعا، ونصبا، وجرا.

[١] قوله: «**واذكر مقاتلهم**» أي: مصارعهم، والمواقف التي حصلت بينهم وبين «**فرسان الهدى**» أي: اذكر مناظرات أهل السنة معهم، حيث علموهم، وأدحضوا حجتهم، مثل: مناظرة الشيخ عبد العزيز الكناني لبشر المريسي، ومناظرة الإمام أحمد للجهمية، فهي مما تعين على تبيين باطلهم وإيضاح الحق.

[٢] قوله: «**وادرأ بلفظ النص، إلخ**» الدرأ: الدفع، لأنك إذا أوردت عليهم النصوص؛ فإن جحدوها كفروا، فإن الجهم لما أنكر التكليم والخلة؛ حكموا بكفره، فقتل، وإن أقروا بها وهو الواقع، ولكن سيحرفونها ويؤولون معناها، فحينئذ يتبين لك ولغيرك مكابرتهم وسفسطتهم ومعاندتهم.

[٣] قوله: «**لا تخش كثرتهم فهم همج الورى**» الهمج: ذباب صغير كالبعوض، يسقط على وجوه الغنم والحمير وأعينها، ويقال للرعاع الحمقى أنهم همج.

قوله: «**وذبابة أتخاف من ذبان**» الذبان بالكسر، جمع ذباب بالضم، كغراب وغربان. توضيح(١)

[٤] فبذلك يحصل بينهم التنازع والتفرق والفشل، فيكفيك بعضهم كيد بعض، ويهون عليك مناظرتهم وتزييف قولهم ونصر مذهب السلف. فمثلا: تقول للخوارج: ما تجيبون الروافض في

(١) انظر: توضيح المقاصد ١/ ١٢٤.

٢٠٦- وإذا هم حملوا عليك فلا تكن فزعا لحملتهم ولا بجبان[١]

٢٠٧- واثبت ولا تحمل بلا جند فما هذا بمحمود لدى الشجعان[٢]

٢٠٨- فإذا رأيت عصابة الإسلام قد وافت عساكرها مع السلطان

٢٠٩- فهناك فاخترق الصفوف ولا تكن بالعاجز الواني ولا الفزعان

٢١٠- وتعرّ من ثوبين من يلبسهما يلقى الردى بمذمة وهوان[٣]

٢١١- ثوب من الجهل المركب فوقه ثوب التعصب بئست الثوبان[٤]

كذا؟ أو بالعكس. وتقول للقدرية: ما تقولون في قول المجبرة؟ وبالعكس. وللمجبرة: ما تقولون في قول الخوارج؟ وبالعكس. وقد ذكر المؤلف وشيخه مناظرات بين مقالات المبتدعة المتناقضة المتقابلة، ثم يذكر مذهب السلف بعدها، فحينئذ يسفر الصبح لذي عينين.

[١] فالفزع والجبن من أكبر ما يخل عليك، بل لو كان الصواب معك، وكان خصمك مبطلا؛ ما تمكنت من إظهار حجتك، ونصر قولك، مع الفزع والجبن.

[٢] قوله: «**واثبت ولا تحمل بلا جند**» فالإنسان لا يقدم على المناظرة إلا بأمرين:

أحدهما: أن يكون عالما بمذهبه ومذهب خصمه.

والثاني: أن يأمن التعدي عليه.

فهما الجند المذكور، وإن اختلا أو واحدهما؛ فلا يقدم عليها، فربما كان ضرره أكثر من نفعه، ولو كانت نيته صالحة وقصده حسنا.

[٣] قوله: «**وتعر من ثوبين، إلخ**» هذه وصية نافعة لكل طالب علم، بل لكل عاقل.

قوله: «**وتعر**» فعل أمر، من التعري.

[٤] قوله: «**ثوب من الجهل المركب**» ما تركب من شيئين: تصور الشيء على غير حقيقته، وادعاء العلم به وإصابته. وأما الجهل البسيط: فهو أن [لا] يعلم، ويعترف بجهله، وهذا أخف من الأول، لأن الأول: لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري، والثاني: يعلم أنه لا يدري، فينبغي لك إذا

٢١٢- وتحل بالإنصاف أفخر حلة زينت بها الأعطاف والكتفان[١]

٢١٣- واجعل شعارك خشية الرحمن مع نصح الرسول فحبذا الأمران[٢]

٢١٤- وتمسكنّ بحبله وبوحيه وتوكلنّ حقيقة التكلان[٣]

سئلت وأنت لا تعلم، فقل: لا أعلم، ولو كان مقامك عند الناس بأرفع المنازل، فقد قال بعضهم: إنك إذا قلت: لا أدري، علموك حتى تدري، وإذا قلت: أدري، وأنت لا تدري، امتحنوك حتى يعلموا أنك لا تدري.

قوله: «**فوقه ثوب التعصب بئست الثوبان**» فإذا اجتمعا في الشخص؛ اجتمع عليه ظلمات بعضها فوق بعض، بل أحدهما كاف في الذم. والتعصب: أن تعتقد أو تقول بقول أو فعل، سواء كان عن اجتهاد، أو تقليد لشيخك، أو مذهبك، أو أهل بلدك، ونحوه ثم يتبين لك الصواب في خلافه، فلا ترجع معه، فهذا مذموم شرعا وعقلا، بل الممدوح الرجوع للحق والتعصب معه حيث كان.

[١] قوله: «**وتحل بالإنصاف أفخر حلة**» والإنصاف أن تفعل بالناس ما تحب أن يفعلوه معك، فمن اتصف بهذا فقد تحلى بالإنصاف، وإلا فهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ①﴾(١). فهي عامة بالمعاملات والأقوال وغيرها.

قوله: «**زينت بها الأعطاف والكتفان**» الأعطاف: الجوانب، ومنه قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾(٢). أي: يلوي جانبه تكبرا وتبخترا.

[٢] قوله: «**واجعل شعارك خشية الرحمن**» هذا هو أساس العمل «**مع نصح الرسول فحبذا الأمران**» هذا أساس العلم، لأن كمال الإنسان بالعلم والعمل، والشعار ما يلي الجسد من الثياب.

[٣] قوله: «**وتمسكن بحبله وبوحيه**» العطف فيهما للترادف، «**و**» مع ذلك «**توكلن حقيقة التكلان**» والتوكل: هو صدق الاعتماد على الله؛ بجلب المنافع، ودفع المضار، وحسن الظن به في حصول ما توكلت به عليه.

---

(١) سورة المطففين، الآية: ١.

(٢) سورة الحج، الآية: ٩.

٢١٥- فالحق وصف الرب وهو صراطه الـ ... هـادي إليـه لـصاحـب الإيـمـان[١]

٢١٦- وهو الصـراط عليه رب العرش أيـ ... ـضـا وذا قـد جـاء فـي الـقـرآن[٢]

٢١٧- والحـق منصـور وممتحـن فـلا ... تـعـجـب فـهـذي سـنـة الـرحـمـن[٣]

٢١٨- وبـذاك يظهـر حزبـه مـن حربه ... ولأجـل ذاك الـنـاس طـائـفـتـان[٤]

٢١٩- ولأجل ذاك الحرب بين الرسل والـ ... كـفـار مـذ قـام الـورى سـجـلان[٥]

[١] قوله: «**فالحق وصف الرب**» أي: وصف لذاته، فمن أسمائه: الحق «**وهو صراطه الهادي إليه لصاحب الإيمان**» أي: صراط الله -الذي هو دينه وشرعه- موصوف بأنه الحق، فهو يهدي صاحب الإيمان إلى الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(١).

[٢] قوله: «**وهو الصراط عليه رب العرش**» وهذا كما قال هود: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾(٢). فهو دليل على إثبات الحكمة، أي: أن الله شرع الشرائع، وأمر بالأوامر، وخلق الخلائق، ورتب الثواب والعقاب؛ لحكمة باهرة، موصوفة بالحق المبين.

والصراط: هو الطريق، ولكن لا يسمى صراطا إلا إذا جمع خمسة أوصاف، وهو أن يكون: مستقيما، سهلا، مسلوكا، واسعا، موصلا إلى المقصود بقرب. فلا يسمى الطريق المعوج صراطا، ولا الصعب الشاق، ولا المسدود غير الموصل. ومن تأمل كلام العرب تبين له ذلك.

[٣] إذا فهمت هذا، وعلمت أن المتمسك به على الحق، فاعلم أن «**الحق منصور**» في العاقبة «**وممتحن**» في البداءة «**فلا تعجب فهذي سنة الرحمن**».

[٤] قوله: «**وبذاك**» الامتحان «**يظهر حزبه**» وأولياؤه «**من حربه**» وأعدائه «**ولأجل ذاك**» الامتحان «**الناس طائفتان**» فلولا الامتحان لما حصل التمييز بين المطيع والعاصي.

[٥] هذا كما قال أبو سفيان بن حرب لهرقل: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا، وننال منه.

---

(١) سورة الأنعام: ١٥٣. (٢) سورة هود، الآية: ٥٦.

٢٢٠- لكنما العقبى لأهل الحق إن ... فاتت هنا كانت لدى الديان[١]

٢٢١- واجعل لقلبك هجرتين ولا تنم ... فهما على كل امرئ فرضان[٢]

٢٢٢- فالهجرة الأولى إلى الرحمن بالـ ... إخلاص في سر وفي إعلان[٣]

٢٢٣- فالقصد وجه الله بالأقوال والـ ... أعمال والطاعات والشكران[٤]

٢٢٤- فبذاك ينجو العبد من إشراكه ... ويصير حقا عابد الرحمن

يعني: النبي ﷺ، وذلك قبل أن يسلم أبو سفيان(١).

[١] قوله: «**لكنما العقبى، إلخ**» فأهل الحق هم المنصورون يقينا، فإن حصل نصرهم في الدنيا، وإلا ففي الآخرة قطعا.

[٢] قوله: «**واجعل لقلبك هجرتين**» دائما وأبدا «**ولا تنم**» كل ليلة حتى تستحضرهما، وتوطن نفسك عليهما، ففي ذلك من المصالح والفوائد ما لا يحصى «**فهما على كل امرئ فرضان**» أي: هما فرض عين على كل مسلم، بخلاف هجرة البدن، فتجب وقتا دون وقت، وعلى شخص دون شخص، وذلك كالجهاد، فجهاد النفس والشيطان فرض عين كل وقت، وجهاد البدن فرض كفاية في بعض الأوقات.

ومن أراد تحقيق مسائل هاتين الهجرتين وتفصيلها فعليه بكتاب سفر الهجرتين للمصنف، فقد أبرز فيه ما لا مزيد عليه.

[٣] وتفسير الإخلاص ما ذكره بالبيت بعده، وهو قوله:

فالقصد وجه الله بالأقوال والـ ... أعمال والطاعات والشكران

[٤] أي: لا يقصد الإنسان غير وجه الله، لا رياء، ولا سمعة، ولا غرضا دنيويا؛ كمن يتصدق أو يزكي أو يبر والديه لدفع الأذى، وتنمية المال، ورجاء أن يبره أولاده، فهذا لم يقصد وجه الله، فعليه أن يقصد بذلك وجه الله، ويحصل له أضعاف ذلك تبعا.

---

(١) أخرجه البخاري (٧)، عن ابن عباس.

٢٢٥- والهجرة الأخرى إلى المبعوث بالـ ... ـحق المبين وواضح البرهان[١]

٢٢٦- فيدور مع قول الرسول وفعله ... نفيا وإثباتا بلا روغان

٢٢٧- ويحكّم الوحي المبين على الذي ... قال الشيوخ فعنده حَكَمان[٢]

٢٢٨- لا يحكمان بباطل أبدا وكل ... العدل قد جاءت به الحكمان

٢٢٩- وهما كتاب الله أعدل حاكم ... فيه الشفا وهداية الحيران

٢٣٠- والحاكم الثاني كلام رسوله ... ما ثم غيرهما لذي إيمان

٢٣١- فإذا دعوك لغير حكمهما فلا ... سَمعًا لداعي الكفر والعصيان

٢٣٢- قل: لا كرامة لا ولا نعمى ولا ... طوعا لمن يدعو إلى طغيان

٢٣٣- وإذا دعيت إلى الرسول فقل لهم ... سمعا وطوعا لستُ ذا عصيان

٢٣٤- وإذا تكاثرت الخصوم وصيّحوا ... فاثبت فصيحتهم كمثل دخان

٢٣٥- يرقى إلى الأوج الرفيع وبعده ... يهوي إلى قعر الحضيض الداني[٣]

٢٣٦- هذا وإن قتال حزب الله بالـ ... أعمال لا بكتائب الشجعان[٤]

---

[١] الهجرة الثانية إلى الرسول بالمتابعة، وتفسير المتابعة ما ذكره بالبيت بعده، وهو قوله: «**فيدور مع قول الرسول وفعله نفيا وإثباتا بلا روغان**»؛ أي: يجعله حكما، ويعرض عليه ما عداه، فما وافقه؛ قبله، وما خالفه؛ تركه.

[٢] أي: أن جميع الحوادث وما تحتاج الناس إليه، ففي القرآن ما يوضحه ويبينه أهم بيان وتوضيح، كما ذكره المصنف في إعلام الموقعين(١)

[٣] قوله: «**يرقى إلى الأوْج**» هو المرتفع العالي، وضده «**الحضيض**» فهو ما انخفض وسفل من الأرض.

[٤] أي: أن الإسلام بدأ غريبا، وما حصل لهم من النصرة والفتوحات ليس لكثرة عددهم ولا

---

(١) انظر: إعلام الموقعين ١/ ٢٦٣.

٢٣٧- والله ما فتحوا البلاد بكثرة ... أنى وأعداهُم بلا حسبان

٢٣٨- وكذاك ما فتحوا القلوب بهذه الـ ... آراء بل بالعلم والإيمان[١]

٢٣٩- وشجاعة الفرسان نفس الزهد في ... نفس وذا محذور كل جبان[٢]

٢٤٠- وشجاعة الحكام والعلماء زهـ ... ـد في الثنا من كل ذي بطلان[٣]

٢٤١- فإذا هما اجتمعا لقلب صادق ... شدت ركائبه إلى الرحمن[٤]

٢٤٢- واقصد إلى الأقران لا أطرافها ... فالعز تحت مقاتل الأقران[٥]

٢٤٣- واسمع نصيحة من له خبر بما ... عند الورى من كثرة الجولان[٦]

عُدَدِهم، وإنما هو لشيء وقر في قلوبهم وصدقته أعمالهم.

قوله: «**بكتائب**» جمع: كتيبة، وهي جماعة الخيل والجيش.

[١] القلب المغلق الذي لا يعرف الخير، ولو عرفه ما على به، وفتحه يكون بالعلم النافع والعمل الصالح، لا بآراء المبتدعة والمتحذلقين من الجهمية ونحوهم.

[٢] يعني: أن الشجاعة هي الزهد في النفس، وهذا فيه نظر، بل الشجاعة هي قوة القلب، ولكن من لوازمها الزهد في النفس، ففسرها الناظم بلازمها.

[٣] فشجاعته الزهد في ثناء الناس عليهم بالباطل، فبين الشجاعة الحربية والشجاعة العلمية. ثم قال:

[٤] «**فإذا هما اجتمعا لقلب صادق**» أي: إذا اجتمع لطالب العلم قوة قلبية وزهده في الثناء الباطل، فهذا هو الموفق الذي «**شدت ركائبه إلى الرحمن**» فما أسرع وصولها.

[٥] أي: إذا أردت المبارزة الفعلية أو القولية فعليك بقرنك وكفئك، فبارزه، فإذا غلبته؛ نلت العز، وأما أطراف الناس وهمجهم الذين ليسوا بأقرانك ولا أكفائك، فإن ظفرت بهم؛ فلا فخر ولا عز، لأنهم دونك، وإن ظفروا بك؛ انعكس عليك مطلوبك.

[٦] قد صدق في مقالته هذه، فما بعد شيخ الإسلام أخبر بمذاهبهم من المؤلف.

٢٤٤- ما عندهم والله خير غيرَ ما	أخذوه عمن جاء بالقرآن
٢٤٥- والكل بعد فبدعة أو فرية	أو بحث تشكيك ورأي فلان[١]
٢٤٦- فاصدع بأمر الله لا تخش الورى	في الله واخشاه تفز بأمان[٢]
٢٤٧- واهجر ولو كل الورى في ذاته	لا في هواك ونخوة الشيطان[٣]
٢٤٨- واصبر بغير تسخط وشكاية	واصفح بغير عتاب مَن هو جان[٤]
٢٤٩- واهجرهم الهجر الجميل بلا أذى	إن لم يكن بدّ من الهجران[٥]

[١] قوله: «**والكل بعد فبدعة**» البدعة: هي ما أحدث في الدين مما خالف ما جاء به الرسول، وقد يكون مبتدعا لا يعلم أنها تخالف الشريعة.

قوله: «**وفرية**» هي البدعة التي يعلم صاحبها أنه كذبها على الشرع.

قوله: «**أو بحث تشكيك**» وهو أن يعمد إلى القول الواضح البيّن، فيورد عليه إشكالات، أرأيت إن كان كذا؟ أرأيت إن كان كذا؟ فيوقع بحثه في الشك والإشكالات، فهذا منهي عنه، كما ورد النهي عن أغلوطات المسائل، وكما قال ابن عمر، وقد جاءه رجل من أهل اليمن، وجعل يقول له: أرأيت إن كان كذا وكذا؟ أرأيت إن كان كذا وكذا؟ فقال له ابن عمر: أترك «أرأيت» في اليمن، وسل عما قد وقع.

وأما البحث النافع: فهو ما يبين المعنى ويوضحه، ويفرع عليه التفريعات النافعة الواضحة، ويبين لوازمه ودلائله، ونحو ذلك، وكل ما عدى هذا فهو بحث تشكيك.

[٢] قوله: «**واخشاه**» بإثبات الألف، لأجل الوزن، وإلا فالقاعدة حذفها.

[٣] قوله: «**واهجر ولو كل الورى في ذاته**» فيه الإخلاص «**لا في هواك ونخوة الشيطان**» النخوة: الكبر والعظمة والافتخار.

[٤] هذه فائدة نفيسة، توضح ما ورد في القرآن من: الصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل، ففسرها المؤلف تفسيرا بالغا.

[٥] قوله: «**واهجرهم الهجر الجميل**» الذي ليس معه تسخط للمهجور، ولا شكاية للمخلوق،

٢٥٠- وانظــر إلى الأقــدار جاريــة بما قــد شــاء مِــن غــي ومِــن إيمــان[١]

٢٥١- واجعــل لقلبك مقلتيــن كلاهما بالحــق فــي ذا الخلــق ناظرتان[٢]

٢٥٢- فانظر بعيــن الحكم وارحمهم بها إذ لا تُــرد مشــيئة الــديــان[٣]

وأما الشكاية إلى الخالق فهذه لا تنافي الصبر الجميل، بل هي ممدوحة، كما قال يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(١). وكما قال أفضل الخلق: «**اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى**»(٢)

وأما الصفح الجميل: فهو الذي لا عتاب معه لمن أساء إليك.

وأما الهجر الجميل: فهو الذي لا أذى معه للمهجور.

ولما كان الأوليان ممدوحين مطلقا لم يقيدهما بشيء، بخلاف الهجر فإنه قيده بقوله: «**إن لم يكن بد من الهجران**» أي: لا تهجر أحدا إلا مترتب على هجره مصلحة راجحة على مفسدة هجره، وأما إن كان يترتب على هجره مفسدة أعظم من مصلحة هجره؛ فتركه أولى، فالنبي ﷺ راعى المصلحة، فهجر الثلاثة(٣)، وهجر [......](٤)، مع أن المنافقين أعظم منهم، ولكن لما كان في هجر المنافقين مفسدة؛ تركها.

[١] هذا بيان للحكم الكوني القدري من الحكم الديني الشرعي، لأن الحكم والقضاء والإرادة والأمر والإذن والكتاب والتحريم والكلمات؛ كل منها يكون كونيا قدريا، ويكون شرعيا دينيا. أي: انظر كيف انقسمت الخلائق إلى مطيع وعاصي، وسعيد وشقي، وبار وفاجر.

[٢] فإذا نظرت هذا النظر: «**فاجعل لقلبك مقلتين**» وهما معنويتان «**كلاهما بالحق في ذا الخلق ناظرتان**».

[٣] قوله: «**فانظر بعين الحكم**» القدري الكوني «**وارحمهم بها إذ لا ترد مشيئة الديان**» لأن

(١) يوسف، الآية: ٨٦.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ٣٣٩، عن ابن مسعود.

(٣) أخرجه البخاري ٤٤١٨، ومسلم ٥٣-٢٧٦٩، عن كعب بن مالك.

(٤) فراغ في الأصل.

٢٥٣- وانظر بعين الأمر واحملهم على أحكامه فهما إذا نظران[١]

٥٤- واجعل لوجهك مقلتين كلاهما من خشية الرحمن باكيتان[٢]

٢٥٥- لو شاء ربك كنت أيضا مثلهم فالقلب بين أصابع الرحمن[٣]

٢٥٦- واحذر كمائن نفسك اللاتي متى خرجت عليك كُسرت كسر مهان[٤]

الكون وما فيه، وجميع أفعال العباد من طاعة ومعصية؛ خلقها الله، وقدّرها، وشاءها، وكتبها.

[١] قوله: «**و**» مع ذلك «**انظر بعين الأمر**» الشرعي الديني «**واحملهم على أحكامه**» فاقتل القاتل، وحُدّ الزاني والسارق والشارب ونحوها، وألزمهم بفعل المأمورات وترك المنهيات «**فهما إذا نظران**» صحيحان، بهما تسلم من عور القدرية الذين يقولون: إن العبد هو الذي أوجد أفعاله بخلقها، وشاءها، فلم يخلقها الله ولم يشأها. ومن عور الجبرية الذين يقولون: إن الله هو الذي فعل أفعال العبد وخلقها فيه، وليست فعلا للعبد إلا على وجه المجاز، فهما في طرفي نقيض، وأهل السنة وسط بينهما.

[٢] قوله: «**واجعل لوجهك مقلتين**» وهما المقلتان الحسيتان «**كلاهما من خشية الرحمن باكيتان**» فأرشد المؤلف إلى الخشية والاعتبار بتقليب الله للقلوب، ولذا قال:

[٣] «**لو شاء ربك كنت أيضا مثلهم**» مراده: الجهمية «**فالقلب بين أصابع الرحمن**» كما ورد ذلك في الحديث(١)، وكان النبي ﷺ كثيرا ما يدعو بهذا الدعاء، وهو: «**يا مقلب القلوب! ثبّت قلبي على دينك**»(٢)

[٤] قوله: «**واحذر كمائن نفسك اللاتي متى خرجت عليك**» هذه الكمائن «**كسرت كسر مهان**» فكل إنسان في نفسه كمائن، وربما ظهرت، فإن غلبها داع العقل والشرع؛ فقد سعد، وإن غلبتهما؛ ضلّ وشقي، إن لم يتداركه الله برحمته.

---

(١) أخرجه مسلم ١٧-٢٦٥٤، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) أخرجه أحمد ١٢١٠٧، والترمذي ٢١٤٠، عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٧٩٨٧.

٢٥٧- وإذا انتصـــرت لها تكون كمن بغى ... طفي الـدخـان بـمـوقَـد الـنـيـران[١]

٢٥٨- والله أخبـر وهـو أصـدق قائل ... أن سـوف يـنـصـر عـبـده بـأمـان

٢٥٩- من يعمل السوأى سـيُجزى مثلها ... أو يعمـل الحسـنى يفـز بجنان[٢]

٢٦٠- هـذي وصيـة ناصـح ولنفسـه ... وصّـى وبـعـدُ لـسـائـر الإخـوان

[١] فهو كالمستجير من الرمضاء بالنار.

[٢] هذا مأخوذ من الآية الكريمة، وهو قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾(١).

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

فصل

وهذا أول عقد مجلس التحكيم[1]

٢٦١- فاجلس إذا في مجلس الحكمين للر حمن لا للنفس والشيطان[2]

٢٦٢- إحداهما النقل الصحيح وبعده الـ ـعقل الصريح وفطرة الرحمن[3]

[١] هذا مبتدأ المقصود من هذا الكتاب، وهو المحاكمة بين أهل السنة والجماعة وبين مخالفيهم ممن يدّعون الإسلام، وهم: الجهمية وفروعهم، بخلاف اليهود والنصارى والمشركين ونحوهم ممن لا يدعون الإسلام. وكل ما ذكره المؤلف من أهل البدع فهم فروع للجهمية، حتى الاتحادية من فروع الجهمية، لأن الذي حملهم على قولهم الباطل مذهب الجهمية، لأنهم لما سمعوا الجهمية يصفون الباري بأنه: لا فوق، ولا تحت، ولا أمام، ولا خلف، إلخ، وأيضا ينفون الصفات، فيقولون: لا يوصف بالسمع، ولا بالبصر، ولا بالعلم، ولا بالقدرة، والإرادة، ونحوها، فأخذوا مذهبهم من مذهبهم، وقالوا: إنه الوجود بعينه.

[٢] قوله: «**فاجلس إذا**» أي: إذا اتصفت بما ذكر في المقدمة، وتحليت به، فتمسكت بالوحيين، وتعريت من الثوبين، وجعلت لقلبك هجرتين، ولقلبك مقلتين، ولوجهك مقلتين، إلى آخر ما ذكر من الوصايا النافعة؛ فحينئذ «**اجلس إذا في مجلس الحكمين**».

وقوله: «**للرحمن**» فيه الإخلاص.

وقوله: «**لا للنفس والشيطان**» فيه الإنصاف.

[٣] قوله: «**الأول النقل الصحيح**» وهو ما جاء به محمد ﷺ، وضده: إما أن يكون عن غيره، أو عنه، ولكنه ضعيف، فهذا لا حكم له ولا عبرة به «**وبعده العقل الصريح وفطرة الرحمن**» فطرة الله

٢٦٣- واحكم إذا في رفقة قد سافروا ... يبغون فاطر هذه الأكوان[١]

٢٦٤- فترافقوا في سيرهم وتفارقوا ... عند افتراق الطرْق بالحيران[٢]

٢٦٥- فأتى فريق ثم قال وجدته ... هذا الوجود بعينه وعيان[٣]

التي فطر الناس عليها، اللذان يقبلان الحق، ويؤثرانه، ويميزان بينه وبين ضده. وضد العقل الصريح: العقل الفاسد المنعكس -عياذا بالله- الذي يخالف العقول الصريحة. وكل أمر ثبت بالنقل الصحيح فإن العقل الصريح يقبله، ويقره، ولا يحيله، لأن الرسل يأتون بمحارات العقول لا بمحالاتها، بل إما أن تهتدي العقول إلى تفصيله، وإلا أن تقبله وتحير فيه، ولكنها لا تحيله ولا تنكره. ولشيخ الإسلام كتاب: «العقل والنقل»، التزم به هذا الالتزام، وبينه ووضحه، وذكر فيه ما لا يوجد في غيره، كما قال فيه الناظم:

واقرأ كتاب العقل والنقل الذي ... ما في الوجود له نظير ثاني

فحسبك بهذه الشهادة.

[١] فهم رفقة، سافروا جميعا مترافقين، مقصودهم واحد، ووجه ترافقهم: أولا: أنهم متفقون في الدين، وهو الإسلام، وأن الله ربهم، ومحمدا نبيهم، وكلهم يدّعون متابعته والاقتداء به، ويرجون ثواب الله، وهذا معنى قوله: «**فترافقوا في سيرهم**».

[٢] قوله: «**وتفارقوا عند افتراق الطرق بالحيران**» أي: لما ساروا جميعا؛ حصل لهم طرق متعددة متشعبة، كل منها يفضي إلى غير ما يفضي إليه الآخر، وهذه يحار فيها من ليس عنده علم، فحينئذ تفارقوا، وأخذ كل منهم طريقا، وهو يظن أنه توصله إلى مطلوبه، فوفق الله السلف، فسلكوا أقرب الطرق الموصلة، وذلك عن علم ومعرفة واجتهاد، ومعهم هاد خرّيت، فليس عن مجرد مصادفة واتفاق.

[٣] قوله: «**فأتى فريق، البيتين**» هؤلاء فريق الاتحادية، الذين هم من أكفر أهل الأرض، وجملة مذهبهم وحاصله في هذين البيتين، وما بعدهما تفريع وتفصيل واختلاف.

ومعناه: أن الله عندهم هو هذا الوجود، فكل موجود فهو الله، ليس هنا موجود غير الله، وإن

٢٦٦- ما ثم موجود سواه وإنما غلط اللسان فقال موجودان

٢٦٧- فهو السماء بعينها ونجومها وكذلك الأفلاك والقمران

٢٦٨- وهو الغمام بعينه والثلج والـ أمطار مع برد ومع حسبان

٢٦٩- وهو الهواء بعينه والماء والتـ ـرب الثقيل ونفس ذي النيران

٢٧٠- هذي بسائطه ومنه تركبت هذي المظاهر ما هنا شيئان[١]

٢٧١- وهو الفقير لها لأجل ظهوره فيها كفقر الروح للأبدان[٢]

٢٧٢- وهي التي افتقرت إليه لأنه هو ذاتها ووجودها الحقاني

٢٧٣- وتظل تلبسه وتخلعه وذا الـ إيجاد والإعدام كل أوان[٣]

٢٧٤- ويظل يلبسها ويخلعها وذا حكم المظاهر كي تُرى بعيان[٤]

نطق اللسان وقال: خالق ومخلوق، ورب ومربوب، فهو غلط وتوهم، وإلا ففي الحقيقة أنه شيء واحد، وهو الله، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

[١] قوله: «**هذي**» المذكورات «**بسائطه**» أي: مفردات الوجود «**ومنه تركبت هذي المظاهر ما هنا شيئان**» أي: من هذه البسائط تركبت، أي: تألفت واجتمعت هذه المظاهر، فهي فاعل: تركبت، والمظاهر كل ما يظهر لك حتى تراه بعينك، من سماء وأرض وما بينهما، فكلها مظاهر.

[٢] قوله: «**وهو الفقير لها، إلخ**» لولاها لم يوجد ولم يظهر، كما أن الروح لولا البدن ما استقامت ولا ظهرت. فهذا وجه فقره لها. وأما فقرها إليه: فلأنه هو ذاتها ووجودها الحقيقي، فهو لها بمنزلة الروح للبدن، فلولا الروح ما استقام البدن ولا وجب.

[٣] قوله: «**وتظل**» هذه البسائط «**تلبسه**» أي: تلبس الوجود «**وتخلعه**» فما لبسته؛ فقد وجد وظهر، وما خلعته؛ فقد هلك وعدم «**وذا الإيجاد والإعدام كل أوان**».

[٤] قوله: «**ويظل**» الوجود «**يلبسها**» أي: يلبس هذه البسائط «**ويخلعها وذا حكم المظاهر كي يُرى**» الوجودُ الذي هو الله بزعمهم «**بعيان**» فلولا ظهوره فيها؛ ما رئي بالعيان، ولا ظهر، ولا وجد.

٢٧٥- وتكثر الموجـود كالأعضاء في الـ ـمحسوس من بشر ومـن حيـوان[١]

٢٧٦- أو كالقوى فـي النفس ذلك واحد متـكـثـر قـامـت بـه الأمـــران[٢]

٢٧٧- فـيـكـون كـلا هــذه أجــزاؤه هـذي مـقـالـة مـدعـي الـعـرفـان[٣]

٢٧٨- أو أنهـا كتكثـر الأنـواع فـي جـنـس كـمـا قـال الـفـريـق الثاني

٢٧٩- فـيـكـون كـلـيـا وجـزئـيـاتـه هــذا الــوجــود فـهـذه قـــولان[٤]

[١] أي: أن تكثر هذه وتعددها -وهي عندهم في الحقيقة شيء واحد- هو كتكثر الأعضاء للحيوان، فهو شيء واحد وأعضاؤه متعددة.

[٢] قوله: «**أو كالقوى**» المعنوية المتصفة بها النفس، كالعلم والبغض والإرادة ونحوها، فهي متعددة، وأصلها شيء واحد، هو النفس.

[٣] قوله: «**فيكون**» الباري عندهم «**كلًّا**» و«**هذه**» الموجودات «**أجزاؤه**» كالإنسان له أجزاء متعددة، وهي أعضاؤه المحسوسة وقواه المعنوية، وهو كلّ لها، أو كالسكنجبين ينقسم إلى خل وعسل، فهي أجزاء له، وهي كل لها، ومثل انقسام الكلام إلى اسم وفعل وحرف، فهو كل لها، وهي أجزاؤه.

قوله: «**هذي مقالة مدعي العرفان**» هو كبيرهم ورئيسهم، المسمى: ولي الله، الشيخ الأكبر، وهو ابن عربي الطائي، صاحب الفصوص. فهذا قول.

والقول الثاني: قول ابن سبعين، وهو ما ذكره بقوله:

[٤] أي: أن هذه البسائط له بمنزلة الأنواع بالنسبة إلى الجنس، فيكون كليا، وهي جزئياته، كما تقول: الحيوان جنس، ويتفرع عنه أنواع، فالإبل نوع، والبقر نوع، والغنم نوع، فهي جزئيات، والجنس الذي هو الحيوان كليّ لها.

والفرق بين الكل وأجزائه، وبين الكلي وجزئياته: فعلامة الثاني صدق المقسوم وهو الكلي على كل من أقسامه وهي جزئياته، فيصح أن تقول للإبل حيوان، وللبقر حيوان، وهكذا بخلاف الأول،

٢٨٠- أولاهما نص الفصوص وبعده	قول ابن سبعين وما القولان[١]
٢٨١- عند العفيف التلمساني الذي	هو غاية في الكفر والبهتان
٢٨٢- إلا من الأغلاط في حس وفي	وَهم وتلك طبيعة الإنسان[٢]
٢٨٣- والكل شيء واحد في نفسه	ما للتعدد فيه من سلطان
٢٨٤- فالضيف والمأكول شيء واحد	والوهم يحسب هاهنا شيئان
٢٨٥- وكذلك الموطوء عين الواط والـ	ـوهم البعيد يقول ذا اثنان
٢٨٦- ولربما قالا مقالته كما	قد قال قولهما بلا فرقان[٣]
٢٨٧- وأبى سواهم ذا وقال مظاهر	تجلوه ذات توحد ومثان[٤]

فإنك لا تقول الخل سكنجبين، أو العسل سكنجبين، بل مجموعهما، ولا تقول: الاسم كلام، أو الفعل كلام، أو الحرف كلام، بل مجموعها فيسمى كلاما. «**فهذه قولان**»:

[١] «**إحداهما نص الفصوص**» وهو القول الأول، والفصوص كتاب لابن عربي. والقول الثاني لابن سبعين.

[٢] أي: وكلاهما عند العفيف التلمساني من الأغلاط في الحس وفي الوهم، والحس: الأمور المحسوسة، والوهم: الأمور الخيالية ضد المحسوسة. فهذه ثلاثة أقوال، ولكنها تتناقض.

[٣] قوله: «**ولربما قالا**» أي: ابن عربي وابن سبعين «**مقالته**» أي: التلمساني «**كما قد قال**» هو «**قولها بلا فرقان**» بين أقوالهم. وعندهم قول رابع، وهو قوله:

[٤] «**وأبى سواهم ذا**» أي: وجاء قوم سوى هؤلاء المذكورين، فأبوا ذا القول، وقالوا: الموجودات «**مظاهر تجلوه**» أي: تظهره وتبرزه وتصفه، وهي «**ذات توحد ومثان**» فإذا نظرت، فلم تر إلا شيئا واحدا كأرض وسماء وحيوان؛ فهذا توحدها، وإذا نظرت شيئين؛ فهذه تثنيها، وهكذا كل ما كثرت المظاهر وتعددت فهو شيء واحد، وإن تعددت مظاهره وكثرت حتى صارت بلا حسبان أي: فلا عد ولا حصى.

٢٨٨- فالظاهر المجلوّ شيء واحد ... لكن مظاهره بلا حسبان

٢٨٩- هذي عبارات لهم مضمونها ... ما ثم غيرٌ قط في الأعيان[١]

٢٩٠- فالقوم ما صانوه عن إنس ولا ... جن ولا شجر ولا حيوان

٢٩١- كلا ولا علو ولا سفل ولا ... واد ولا جبل ولا كثبان

٢٩٢- كلا ولا طعم ولا ريح ولا ... صوت ولا لون من الألوان

٢٩٣- لكنه المطعوم والملموس والـ ... ـمشموم والمسموع بالآذان

٢٩٤- وكذاك قالوا إنه المنكوح والـ ... ـمذبوح بل عين الغوي الزاني

٢٩٥- والكفر عندهم هدى ولو انه ... دين المجوس وعابدي الأوثان

٢٩٦- قالوا وما عبدوا سواه وإنما ... ضلوا بما خصوا من الأعيان

٢٩٧- ولو انهم عمّوا وقالوا كلها ... معبودة ما كان من كفران

٢٩٨- فالكفر ستر حقيقة المعبود بالـ ... ـتخصيص عند محقق رباني[٢]

٢٩٩ - قالوا ولم يك كافرا في قوله ... أنا ربكم فرعون ذو الطغيان[٣]

---

[١] قوله: «**هذي عبارات لهم**» وإن اختلفت فـ«**مضمونها**» واحد: «**ما ثم غير قط في الأعيان**» وهو أنه ما ثمّ موجود سوى الله.

[٢] أي: لأن المشركين ما عبدوا غير الله، وإنما ضلوا وأخطئوا بتخصيصهم بعض الأشياء بالعبادة دون بعض، فلو عمموا بالعبادة كل الأشياء لأصابوا بزعمهم، لأن المفر عند محققيهم ستر حقيقة الله بتخصيص بعض الموجودات بالعبادة دون بعض، وهذا الذي ذكره الناظم صريح مذهبهم، وليس من باب اللازم، ولكنهم يشيرون إشارات خفية، تخفى على أكثرهم، فضلا عن غيرهم، ولو يصرحون تصريحا بينا بمثل هذا لظهر بطلان قولهم لأكثر أتباعهم وغيرهم، ولعرف الناس ذلك ورجعوا عنه، ولم تتبين حالتهم وحقيقة أمرهم للناس إلا بشيخ الإسلام، فإنه هو الذي أبرز كمائنهم، وأظهر دفائنهم.

[٣] لأنه في الحقيقة هو عين الحق المعبود، كما صرح بذلك في الفصوص.

٣٠٠ - بـل كان حقـا قولـه إذ كان عيـ	ـن الحق مضطلعا بهذا الشان[١]
٣٠١- ولذا غدا تطهيره في البحر تطـ	ـهيرا من الأوهام والحسبان
٣٠٢- قالـوا ولم يك منكرا موسـى لما	عبدوه من عجل لدى الخوران
٣٠٣- إلا علـى من كان ليس بعابـد	معهم وأصبح ضيق الأعطان
٣٠٤- ولذاك جـرّ بلحية الأخ حيث لم	يك واسعا في قومه لِبطان[٢]
٣٠٥ - بـل فـرّق الإنكار منه بينهم	لما سرى في وهمه غيران[٣]

[١] هي حين قال: أنا ربكم، فأثبت أن هنا رب ومربوب، فحينئذ صار تغريقه تطهيرا له، ولو أصاب بزعمهم لقال: أنا ربكم، وأنتم ربي، تعالى الله عن قول الزائغين علو كبيرا.

[٢] يعني: أن موسى لما عبد بنو إسرائيل العجل، لم ينكر عليهم، بل أنكر على أخيه هارون ومن تابعه ممن لم يعبدوا العجل، والدليل على ذلك أنه أخذ بلحية أخيه يجره إليه، لمّا لم يوسّع صدره لبني إسرائيل، ويعبد العجل معهم.

[٣] قوله: «**بل فرق الإنكار**» هارون «**بينهم**» بين بني إسرائيل «**لما سرى في وهمه**» وخياله «**غيران**» أن العجل غير الله. تعالى الله عن قولهم.

وأما صاحب الفصوص: فهو أبو بكر محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي، ولد بمرسية سنة ٥٦٠، ونشأ بها، وارتحل إلى إشبيلية، وتوفي في ٢٨ ربيع آخر سنة ٦٣٨ بدمشق، وهو صاحب المقالات الشنيعة والكفريات الفظيعة، صنف العلماء قديما وحديثا في الرد على الفصوص وصاحبه. ومذهبه في الجنة والنار: أنهما واحد في الذوق، وإنما التغاير في اللون، وأن الطائع والعاصي والمؤمن والكافر؛ الكل مرضيون، مستحقون الوعد، وما ثم وعيد أصلا.

وأما ابن سبعين: فهو عبد الحق بن إبراهيم، الشيخ الضال، أبو محمد المريسي الصوفي الفيلسوفي، له كلام في الحقيقة على طريقة الاتحاد، ومات بمكة سنة ٦٦٩، وسبب نزوله بمكة أنه ظهر منه كلام أوجب للعلماء الفتوى بقتله، فهرب إليها، وأظهر للشريف أبي نمي -صاحب مكة- أشياء من السيمياء والكيمياء، حتى صار عنده في الذروة، وكان يسجد للشمس وللقطب الشمالي.

وأما العفيف التلمسانى: فهو أبو الربيع سليمان بن علي بن عبد الله الكوفي، قال الذهبي: من فحول

٣٠٦ - ولقد رأى إبليس عارفهم فأهـ ـــوى بالســـجود هُويّ ذي خضعان
٣٠٧ - قـــال له مـــاذا صنعـــت؟ فقال هل غـيــر الإلـــه وأنـــتـــمـــا عَـــمـــيـــان
٣٠٨- ما ثــم غيرٌ فاســجدوا إن شــئتم لــلــشــمــس والأصــنـــام والــشــيــطـــان
٣٠٩- فالــكل عيــن اللــه عنــد محقق والــكــل مــعــبــود لـــذي الــعــرفــان
٣١٠- هــذا هــو المعبــود عندهــم فقل سبـحـانــك الــلــهــم ذا الـسبـحـان
٣١١- يـــا أمـــة معبودهـــا موطوؤهـــا أيـــن الإلـــه وثُـــغـــرة الــطــعـــان
٣١٢- يـــا أمـــة قـــد صـــار مـــن كفرانها جـــزءا يـــســـيـــرا جـــمـــلـــة الـــكـــفـــران

الشعراء، وكبار الاتحادية، وكان يتعانى الخمر، ويتلطخ بالمعايب، وله هيئة وحرمة، قدم القاهرة، فحضر مجلس أُنس، ومعهم مغن مليح، فشاع عنه أنه قبّل المغني، وقال: أنت الله، فرمى الصبي الطار من يده، ووجم لمقالة العفيف، وأصبح أهل المجلس يتحدثون بما قاله العفيف، فخاف على نفسه، وخرج فارا قبل الظهر إلى الشام، مات سنة ٦٠٩، وهو أخبث القوم، وأعمقهم في الكفر، فإنه لا يفرق بين الوجود والثبوت، كما يفرق ابن عربي، ولا يفرق بين المطلق والمعين، كما يفرق الصدر الرومي، ولكن عنده ما ثم غير ولا سوى بوجه من الوجوه، ولهذا كان يستحل جميع المحرمات، حتى حكى عنه الثقات أنه كان يقول: البنت والأم والأجنبية؛ ليس في ذلك حرام علينا، وشرح الأسماء الحسنى على هذا الأصل الفاسد. وله ديوان شعر، قد صنع فيه أشياء، وشعره في صناعة الشعر جيد، ولكنه كما قيل: لحم خنزير في طبق صيني. وصنف للنصيرية عقيدة، وحقيقة أمرهم: أن الحق بمنزلة البحر، وأجزاء الموجودات بمنزلة أمواجه. وممن يقول بوحدة الوجود: ابن الفارض في آخر نظم السلوك. وكان التلمساني قد تزوج بنت ابن سبعين، وأولدها ولدا يسمى محمدا، وكان شاعرا ظريفا، ولما حضر للقراءة على الشيخ شمس الدين محمد بن محمود الأصبهاني، سأله: من أنت؟ فقال: أنا ابن مملوكك: العفيف التلمساني، فتبسم، وقال: أنت عريق في الألوهية، أمك بنت ابن سبعين، وأبوك التلمساني.

انتهت التراجم الثلاث من التوضيح[1].

(١) انظر: توضيح المقاصد ١/ ١٨٤.

فصل

في قدوم الركب الحلولية[١]

٣١٣- وأتى فريق ثم قال وجدته ... بالذات موجودا بكل مكان[٢]

٣١٤- هو كالهواء بعينه لا عينه ... ملأ الخلاء ولا يرى بعيان[٣]

٣١٥- والقوم ما صانوه عن بئر ولا ... قبر ولا حشّ ولا أعطان

٣١٦- بل منهم من قد رأى تشبيهه ... بالروح داخل هذه الأبدان

٣١٧- ما فيهم من قال ليس بداخل ... أو خارج عن جملة الأكوان[٤]

٣١٨- لكنهم حاموا على هذا ولم ... يتجاسروا من عسكر الإيمان

[١] ويسمون: «النجارية»، وهم فرقة متقدمي الجهمية. لا حيّاهم الله، ولا بيّاهم.

[٢] قوله: «**وأتى فريق ثم قال وجدته بالذات**» أي: لا بعلمه، «**موجودا بكل مكان**» فإن مذهب السلف: أنه بعلمه في كل مكان، وبذاته فوق العرش.

[٣] قوله: «**هو كالهواء بعينه لا عينه**» أي: ليس الهواء هو الله، فإن هذا مذهب الاتحادية المتقدم ذكرهم.

قوله: «**ملأ الخلاء ولا يرى بعيان**» أي: أن مثاله مثال الهواء الراكد الذي قد ملأ كل شيء خالي، أي: مجوف، فكما أن الهواء لا يخلو منه شيء خالي، فكذلك الباري عندهم، فتشبيهه كالروح في البدن، فهو حال كل في كل جسم و.... كحلول الروح في البدن، تعالى الله.

[٤] قوله: «**ما فيهم من قال ليس بداخل، إلخ**» أي: أنهم لم يصرحوا بالقول أنه لا داخل العالم

٣١٩- وعليهم رد الأئمة أحمد وصحابه من كل ذي عرفان

٣٢٠- فهم الخصوم لكل صاحب سنة وهم الخصوم لمنزل القرآن

٣٢١- ولهم مقالات ذكرت أصولها لما ذكرت الجهم في الأوزان

ولا خارجه، كما صرح المتأخرون منهم، ولكنهم حاموا على هذا المعنى، ولم يتجاسروا عليه خوفا من علماء السنة، وذلك على كثرهم وتوفرهم في وقت التابعين، وهؤلاء الراكبين المتقدمون من الجهمية، الذين رد عليهم الإمام أحمد وغيره من العلماء.



فصل

في قدوم ركب آخر[١]

٣٢٢- وأتى فريق ثم قارب وصفه ... هذا ولكن جدّ في الكفران[٢]

٣٢٣- فأسرّ قول معطل ومكذب ... في قالب التنزيه للرحمن[٣]

٣٢٤- إذ قال ليس بداخل فينا ولا ... هو خارج عن جملة الأكوان

٣٢٥- بل قال ليس ببائن عنها ولا ... فيها ولا هو عينها ببيان

٣٢٦- كلا ولا فوق السموات العلى ... والعرش من رب ولا رحمن

٣٢٧- والعرش ليس عليه معبود سوى الـ ... ـعدم الذي لا شيء في الأعيان

٣٢٨- بل حظه من ربه حظ الثرى ... منه وحظ قواعد البنيان

٣٢٩- لو كان فوق العرش كان كهذه الـ ... أجسام سبحان العظيم الشان

٣٣٠- ولقد وجدت لفاضل منهم مقا ... ما قامه في الناس منذ زمان[٤]

---

[١] ركب المتأخرين من الجهمية والمعتزلة ونحوهم؛ كالرافضة، والأشاعرة، والماتوريدية، وأمثالهم، ممن ينفون العلو والاستواء، فهم ركب متجمع من هؤلاء الطوائف.

[٢] قوله: «**وأتى فريق ثم قارب وصفه**» أي: أن هذا الركب وصف الباري بوصف يقارب وصف الحلولية «**هذا ولكن**» ـه «**جد في الكفران**» صار أبلغ منهم في الجحدان والكفران.

[٣] قوله: «**فأسر**» في نفسه «**قول معطل**» للاستواء «**ومكذب**» للنصوص، ولكن أظهره للناس «**في قالب التنزيه للرحمن**».

[٤] قوله: «**ولقد وجدت لفاضل منهم، إلخ**» هو: أبو المعالي الجويني، عبد الملك ابن أبي

٣٣١- قال اسمعوا يا قوم إن نبيكم	**قد قال قولا واضح البرهان**
٣٣٢- لا تحكموا بالفضل لي أصلا على	**ذي النون يونس ذلك الغضبان**
٣٣٣- هذا يرد على المجسم قوله	**الله فوق العرش والأكوان**

محمد، مولده كما في الكامل سنة ٤١٠، وقيل سنة ٤١٩، سافر إلى بغداد، ثم الحجاز، وأقام بمكة والمدينة أربع سنين، يدرّس ويفتي ويصنف، وأمّ في الحرمين الشريفين، وبذلك لقّب، ثم رجع إلى نيسابور، وتوفي في ربيع الآخر سنة ٤٧٨.

وقصة مقامه المشهور: أنه سئل هل الباري في جهة؟ فقال: لا، هو يتعالى عن ذلك. قيل: فما الدليل عليه؟ قال: الدليل عليه قوله ﷺ: **«لا تفضلوني على يونس متى»**. فقيل له: ما وجه الدليل من هذا الخبر؟ فقال: لا أقوله حتى يأخذ ضيفي هذا ألف دينار، يقضي بها دينا. فقال واحد: هي عليّ. فقال: إن يونس بن متى رمى بنفسه في البحر، فالتقمه الحوت، وصار في قعر البحر في ظلمات ثلاث، ونادى: لا إله إلا أنت سبحانك، كما أخبر الله، ولم يكن محمد حين جلس على الرفرف الأخضر، وارتقى به صعدا، حتى انتهى به إلى موضع يسمع به صريف الأقلام، وناجاه ربه، وأوحى إليه ما أوحى، بأقرب إلى الله من يونس في ظلمة البحر. اهـ.

وقال الحافظ أبو جعفر بن علي: سألت أبا المعالي الجويني عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[1]. فقال: كان الله ولا عرش، وجعل يتخبط في الكلام. فقلت: قد علمنا ما أشرت إليه، فهل عندك للضرورات من حيلة، فإنه ما قال عارف قط: يا رباه! إلا قَبْل أن يتحرك لسانه، قام من باطنه قصد، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، يقصد الفوق، فهل لهذا القصد الضروري عندك من حيلة، فنبئنا نتخلص من الفوق والتحت؟ وبكيت، وبكى الخلق، فضرب الأستاذ بكمه على السرير، وصاح بالحيرة، وخرق ما كان عليه، وانخلع، وصارت قيامة في المسجد، ونزل، ولم يجبني، إلا: يا حبيبي! الحيرة الحيرة، والدهشة الدهشة، فسمعت بعد ذلك أصحابه يقولون: سمعناه يقول: حيرني الهمداني. اهـ توضيح[2]

(١) سورة طه، الآية: ٥.
(٢) انظر: توضيح المقاصد ١/ ١٩٢.

٣٣٤- ويدل أن إلهنا سبحانه	وبحمده يُلفى بكل مكان
٣٣٥- قالوا له بيّن لنا هذا فلم	يفعل فأعطوه من الأثمان
٣٣٦- ألفا من الذهب العتيق فقال في	تبيانه فاسمع لذا التبيان
٣٣٧- قد كان يونس في قرار البحر تحـ	ـت الماء في قبر من الحيتان
٣٣٨- ومحمد صعد السماء وجاوز السـ	ـبع الطباق وجاز كل عنان
٣٣٩- وكلاهما في قربه من ربه	سبحانه إذ ذاك مستويان

وقول الناظم في حكاية مذهبه: «**ويدل أن إلهنا، إلخ**» فيه نظر، فإن القول بأن الله تعالى في كل مكان قول النجارية، وأما الأشاعرة فقولهم: إنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا فوقه ولا تحته، ولا يوصف بأن له مكانا، فضلا عن أن يقال بأنه في كل مكان، كما ذكره الناظم في أول الأبيات، ولهذا ذكر الشيخ في التسعينية قال: لما نوظر ابن فورك قدّام محمود بن سبكتكين أمير المشرق، فقيل له: لو وُصف المعدوم لم يوصف إلا بما وصفت به الرب، من كونه لا داخل العالم ولا خارجه، كتب إلى أبي إسحاق الإسفرائيني في ذلك، ولم يكن جوابهما إلا أنه لو كان خارج العالم للزم أن يكون جسما. اهـ توضيح[١]

وأما ما يروى أن النبي ﷺ قال: «**لا تفضلوني على يونس بن متى**»، فإنه بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب التي يعتمد عليها، وإنما اللفظ الذي في الصحيح: «**لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس ابن متى**»[٢] وفي لفظ: «**من قال: أنا خير من يونس ابن متى؛ فقد كذب**»[٣] الخ ما ذكره في شرح الطحاوية[٤]

وقوله: «**ألفا من الذهب العتيق**» أي: الخالص.

---

(١) انظر: توضيح المقاصد ١/ ١٩٣.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤١٦، ومسلم ١٦٦-٢٣٧٦، عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري ٤٦٠٤، عن أبي هريرة.

(٤) انظر: شرح الطحاوية، ص ١٦٢.

٣٤٠- فالعلو والسفل اللذان كلاهما	في بعده من ضده طرفان
٣٤١- إن يُنسبا لله نُزّه عنهما	بالاختصاص بلى هما سيان
٣٤٢- في قُرب من أضحى مقيما فيهما	من ربه فكلاهما مِثلان
٣٤٣- فلأجل هذا خُص يونس دونهم	بالذكر تحقيقا لهذا الشان
٣٤٤- فأتى النثار عليه من أصحابه	من كل ناحية بلا حسبان
٣٤٥- فاحمد إلهك أيها السني إذ	عافاك من تحريف ذي بهتان
٣٤٦- والله ما يرضى بهذا خائف	من ربه أمسى على الإيمان
٣٤٧- هذا هو الإلحاد حقا بل هو التـ	ـحريف محضا أبرد الهذيان
٣٤٨- والله ما بلي المجسم قط ذي الـ	ـبلوى ولا أمسى بذي الخذلان
٣٤٩- أمثال ذا التأويل أفسد هذه الـ	أديان حين سرى إلى الأديان
٣٥٠- والله لولا الله حافظ دينه	لتهدمت منه قوى الأركان

قوله: «**هذا هو الإلحاد حقا**» الإلحاد: الميل عن الطريق المستقيم.

قوله: «**بل هو التحريف محضا أبرد الهذيان**» والتحريف: تأويل المعنى إلى غير المراد منه.



فصل

في قدوم ركب الفلاسفة المنتسبين للإسلام[1]

٣٥١- وأتى فريق ثم قارب وصفه ... هذا وزاد عليه في الميزان

٣٥٢- قال اسمعوا يا قوم لا تلهيكم ... هذي الأماني هن شر أماني

[١] كابن سينا، وابن سبعين، والفارابي، وأبي البركات؛ صاحب كتاب المعتبر.

وحقيقة مذهبهم وملخصه: أنهم أشد كفرا وجحدا من جميع طوائف المبتدعة، بل والمشركين، لأنهم ينكرون الباري، فشرك النصارى واليهود والمشركين أهون منهم.

وملخص هذا الفصل: أنهم فتشوا وأتعبوا أنفسهم في طلب الإله، وسبروا مذهب المبتدعة، فلم يجدوا عندهم دليلا، بل وجدوا الدليل عند أهل الحديث، فدلوهم على الله بأسمائه وصفاته وأفعاله من القرآن والسنة، ولكنهم -والعياذ بالله- انحرفوا عن الصراط المستقيم، بعد ما تبين لهم عيانا، لأنهم لما دلهم أهل الحديث على مطلوبهم، لم يقبلوا منهم، بل ذهبوا يسألون رفقتهم وجماعتهم من الجهمية والفلاسفة، فحذروهم عنهم، وقالوا: إن هؤلاء المجسمة المشبهة، فلا تسمع قولهم، والعنهم، واحكم بسفك دمائهم، وحذّر صحبتك عنهم، واحذر من مجادلتهم بالوحيين.

ثم وصوه إذا ابتلي بمجادلتهم أن يتمسك بالأصلين الفاسدين الذي أوصاهم بهما أشياخهم، وأنه إذا اجتمع بهم في مجلس؛ فليبدأ قبلهم بالكلام، لئلا يملكون عليه، فلا يتمكن من مقاومتهم، لأنه إذا سكت يقال: جاهل، وإن وافق يكون مثلهم، وإن عارض الوحيين يعد زنديقا كافرا، فلما لم يجد من يكشف له هذا اللبس الذي وقع فيه؛ رجع إلى أهله، وعزم على تعطيل الركاب، وإنكار الخلاق العظيم، وتيقن إنه لو كان هنا رب خالق للأكوان لكان أهل السنة الذي يسميهم المجسمة

٣٥٣- أتعبتُ راحلتي وكلت مهجتي	وبذلت مجهودي وقد أعياني[١]
٣٥٤- فتشت فوق وتحت ثم أمامنا	ووراء ثم يسار مع أيمان
٣٥٥- ما دلني أحد عليه هُناكُم	كلا ولا بشر إليه هداني
٣٥٦- إلا طوائف بالحديث تمسكت	تُعزى مذاهبها إلى القرآن
٣٥٧- قالوا الذي تبغيه فوق عباده	فوق السماء وفوق كل مكان

أولى بالدليل وأسعد، ولكن كل هؤلاء الطوائف -ومنهم السلف- ليس معهم حق، فلا صواب، وإنما الصواب -بزعمهم- معهم.

ثم أوصى صاحبه بأن يدع التكاليف والحلال والحرام إن أراد الحرية المطلقة، الذي يكون ليس عبد الله بوجه من الوجوه، وإن لم يفعل بأن زعم بأن الله فوق العرش الخ الأبيات فهو مجسم متعبد، وإن أثبت البعض ونفى البعض -كالجهمية- فهو متناقض، فليقم دليلا واضحا بين ما أثبته وبين ما نفاه، فالأولى أن تنفى الجميع كما نفوه هم، وخلعوا ربقة الإسلام، واستدلوا على صدق مذهبهم وصحته بأسلافهم من الملوك المتقدمين، مثل: مان، الذي تنسب إليه المانوية، وأمثاله من فرعون الخ، ومثل أئمة الفلاسفة المتقدمين؛ كأرسطو، وابن سينا، والطوسي، ولهم كتب فيها تقرير مذاهبهم وتفصيلها، كالإشارات لابن سينا، والشفا له، وكرسائل إخوان الصفا، فهي عندهم فوق النصوص، وإليها يتحاكمون، لا إلى القرآن.

ثم ذكر هذا الركب الاستهزاء والتهكم والتعجب من جهم بن صفوان، كيف يذكر أن الله يسمع ويبصر ويعلم، وهو مع ذلك ينفي الصفات مخافة التجسيم؟! هذا تناقض، لأن إثباته للسمع والبصر والعلم تجسيم، نعوذ بالله من الخذلان.

هذا ملخص هذا الفصل في الجملة.

أما الكلام على مفرداته بالجملة:

[١] قوله: «وكلت مهجتي» المهجة هي النفس.

٣٥٨- وهو الذي حقا على العرش استوى لكنه استولى على الأكوان
٣٥٩- وإليه يصعد كل قول طيب وإليه يُرفع سعي ذي الشكران
٣٦٠- والروح والأملاك منه تنزلت وإليه تعرج عند كل أوان
٣٦١- وإليه أيدي السائلين توجهت نحو العلو بفطرة الرحمن[١]
٣٦٢- وإليه قد عرج الرسول فقدّرت من قربه من ربه قوسان
٣٦٣- وإليه قد رُفع المسيح حقيقة ولسوف ينزل كي يُرى بعيان
٣٦٤- وإليه تصعد روح كل مصدق عند الممات فتنثني بأمان
٣٦٥- وإليه آمال العباد توجهت نحو العلو بلا تواص ثان[٢]
٣٦٦- بل فطرة الله التي لم يفطروا إلا عليها الخلق والثقلان[٣]

[١] قوله: «**وإليه أيدي السائلين، إلخ**» عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن ربكم حيي كريم، يستحيي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفرا، ليس فيهما شيء**»(١) اهـ توضيح(٢)

[٢] قوله: «**بلا تواص ثان**» أي: أن القلوب مجبولة عليه، متفقة عليه، ليس عن تواصي بينها، ولا عن إلقاء بعضهم ذلك إلى بعض، فهذا الدليل قطعي ضروري، لا يمكن رده، ولا يتصور كذبه، بخلاف الاتفاق والتواطؤ على مذهب من المذاهب الباطلة إذا كان بالتواصي والتعليم، فيشب عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ويلقيه عالمهم إلى جاهلهم، وكبيرهم إلى صغيرهم، فهذا قد يتواطأ على الكذب، كمذاهب اليهود والنصارى وأهل البدع المضلة.

[٣] قوله: «**لم يفطروا، إلخ**» هذا على لغة: أكلوني البراغيث(٣)

---

(١) أخرجه أبو داود ١٤٨٨، وابن ماجه ٣٨٦٥، عن سلمان، وصححه الألباني في صحيح أبي داود ١٣٣٧.

(٢) انظر: توضيح المقاصد ١/ ٢٠١.

(٣) وهي لغة حكاها البصريون عن طيء، وبعضهم عن أزد شنوءة، حيث تُلحق علامة الجمع والتأنيث والتثنية بالفعل. انظر تفصيل الكلام عليها في: أوضح المسالك ٢/ ٨٩.

٣٦٧- ونظيـر هــذا أنهـم فطـروا على   إقــرارهــم لا شــك بـالـديـان
٣٦٨- لكن أولـوا التعطيل منهم أصبحوا   مرضى بـداء الجهــل والخذلان[١]
٣٦٩- فســألت عنهــم رفقتــي وأحبتي   أصحاب جهم حـزب جنكيز خـان[٢]
٣٧٠- من هــؤلاء ومــن يقال لهــم فقد   جـــاءوا بـأمــر مــالـئ الآذان
٣٧١- ولهــم علينــا صولــة مــا صالها   ذو بـاطـل بـل صـاحـب الـبـرهـان
٣٧٢- أو مــا ســمعتم قولهــم وكلامهم   مـثـل الـصـواعـق لـيس ذا لجبان
٣٧٣- جاءوكــم مــن فوقكــم وأتيتــم   مــن تـحـتـهـم مــا أنـتـم سـيـان
٣٧٤- جاءوكــم بالوحــي لكــن جئتــم   بـنـحـاتـة الأفـكـار والأذهــان
٣٧٥- قالــوا مشــبهة ومجســمة فــلا   تـسـمـع مـقـال مـجـسـم حـيـوان[٣]
٣٧٦- والعنهــم لعنــا كثيــرا واغزهــم   بـعـسـاكـر الـتـعـطـيـل غـيـر جـبان
٣٧٧- واحكم بســفك دمائهم ويحبسهم   أو لا فـشـردهـم عـن الأوطـــان[٤]
٣٧٨- حذر صحابــك منهم فهم أضل   مــن الـيـهـود وعـابـدي الصلبان
٣٧٩- واحــذر تجادلهــم بقــال الله أو   قــال الـرسـول فـتـنـثـنـي بـهـوان
٣٨٠- أنــى وهــم أولى بــه قــد أنفذوا   فـيـه قــوى الأذهـــان والأبـــدان
٣٨١- فإذا ابتليــت بهم فغالطهم على التـ   ــأويـل لـلأخـبـار والـقـرآن
٣٨٢- وكذاك غالطهم علــى التكذيب للـ   آحـــاد ذان لـصـحـبـنـا أصـلان

[١] قوله: «**لكن أولوا التعطيل، إلخ**» كل هذا كلام أهل الحديث.

[٢] قال هذا الركب: «**فسألت عنهم**» أي: عن أهل الحديث «**رفقتي، إلخ**» وهم الجهمية، و«**جنكيز خان**» ملك من ملوك التتر.

[٣] قوله: «**قالوا مشبهة، إلخ**» أي: قال الجهمية: هؤلاء مشبهة.

[٤] قوله: «**أولا فشردهم، إلخ**» أي: وإن لم يحصل هذا فشردهم، إلخ.

٣٨٣- أوصى بها أشياخنا أشياخهم ... فاحفظهما بيديك والأسنان

٣٨٤- وإذا اجتمعت وهم بمشهد مجلس ... فابدر بإيراد وشغل زمان

٣٨٥- لا يملكوه عليك بالآثار والـ ... أخبار والتفسير للفرقان

٣٨٦- فتصير إن وافقت مثلهم وإن ... عارضت زنديقا أخا كفران[1]

٣٨٧- وإذا سكت يقال هذا جاهل ... فابدر ولو بالفَشر والهذيان

٣٨٨- هذا الذي واللهِ أوصانا به ... أشياخنا في سالف الأزمان

٣٨٩- فرجعت من سفري وقلت لصاحبي ... ومطيتي قد آذنتْ بحِران[2]

٣٩٠- عطل ركابك واسترح من سيرها ... ما ثم شيء غير ذي الأكوان

٣٩١- لو كان للأكوان رب خالق ... كان المجسم صاحب البرهان

٣٩٢- أو كان رب بائن عن ذا الورى ... كان المجسم صاحب الإيمان

٣٩٣- ولكان عند الناس أولى الخلق بالـ ... إسلام والإيمان والإحسان

٣٩٤- ولكان هذا الحزب فوق رؤوسهم ... لم يختلف منهم عليه اثنان

٣٩٥- فدع التكاليف التي حُملتها ... واخلع عذارك وارم بالأرسان

٣٩٦- ما ثم فوق العرش من رب ولم ... يتكلم الرحمن بالقرآن

٣٩٧- لو كان فوق العرش رب ناظر ... لزم التحيز وافتقار مكان

٣٩٨- أو كان ذا القرآن عين كلامه ... حرفا وصوتا كان ذا جثمان

---

[١] قوله: «فتصير، إلخ» أي: لا تخلو من ثلاث حالات: إما أن توافق، أو تعارض، أو تسكت.

[٢] قال هذا الفريق الضال: «فرجعت، إلخ» أي: ما هنا رب خالق للورى، ولو فرضوا أن ثم رب لكان المجسم الخ، فهذا صريح في إنكارهم للخالق، ولكان هذا الحزب -وهم أهل السنة- فوق رؤوس الناس.

٣٩٩- فـإذا انتفـى هـذا وهذا مـا الذي　　يبقـى علـى ذا النفي مـن إيمان[١]

٤٠٠- فـدع الحلال مـع الحـرام لأهله　　فهمـا السـياج لهم على البسـتان[٢]

٤٠١- فاخرقه ثم ادخـل ترى في ضمنه　　قـد هيـئت لـك سـائـر الألـوان

٤٠٢- وتـرى بهـا مـا لا يـراه محجّب　　مـن كـل مـا تـهـوى بـه زوجـان

٤٠٣- واقطـع علائقك التـي قد قيّدت　　هـذا الـورى مـن سـالـف الأزمـان

٤٠٤ لتصيـر حـرا لسـت تحـت أوامر　　كـلا ولا نـهـي ولا فـرقـان

٤٠٥- لكن جعلتَ حجاب نفسك إذ ترى　　فـوق الـسـمـا لـلـنـاس مـن ديـان

٤٠٦- لـو قلت ما فـوق السـماء مدبر　　والـعـرش تـخـلـيـه مـن الـرحـمـن

٤٠٧- واللـه ليـس مكلمـا لعبـاده　　كـلا ولا مـتـكـلـمـا بـقـران

٤٠٨- مـا قـال قـط ولا يقـول ولا لـه　　قـول بـدا مـنـه إلـى إنـسـان

٤٠٩- لحللـتَ طلسـمه وفـزتَ بكنـزه　　وعلمتَ أن الـنـاس فـي هـذيـان[٣]

[١] قوله: «فإذا انتفى هذا» وهو استواؤه على العرش «وهذا» وهو تكلمه بالقرآن. وهذا البيت معترض من كلام المصنف، بين كلام هؤلاء الركب، وليس من كلامهم، والذي قبله وبعده من كلامهم.

[٢] قوله: «**فهما السياج لهم على البستان**» أي: هما الحاجز والحائط الذي يمنعك من الحرية المطلقة ودخول بستانها.

[٣] قوله: «**لو قلت، إلخ**» الأبيات الثلاثة. جوابها: «**لحللت طلسمه**».

ومعنى: «**لحللت طلسمه، إلخ**» لأنهم عندهم يجعلون طلسمات، أي: صورا وهياكل وحروزا تمنع الداخل واللص والعين ونحوها، وذكروا أن كل كنز مجعول عنده [حرز][(١)] يحفظه ويحرزه. فهو يقول: لو فعلت ما قلت لحللت هذا الطلسم، أي: أزلته وأبعدته وفزت بكنزه. أو لحللته بمكانه، من الحلول.

(١) في الأصل: كنز، ولعل الصواب ما أثبت.

٤١٠- لكـن زعمـت بـأن ربـك بائـن ... مـن خـلـقـه إذ قـلـت مـوجـودان

٤١١- وزعمت أن الله فوق العرش والـ ... ـكـرسـي حـقـا فـوقـه الـقـدمـان

٤١٢- وزعمـت أن اللـه يسـمع خلقـه ... ويـراهـم مـن فـوق سـبـع ثـمـان

٤١٣- وزعمـت أن كلامـه منـه بـدا ... وإلـيـه يـرجـع آخـر الأزمـان[١]

٤١٤- ووصفتـه بالسـمع والبصـر الـذي ... لا يـنـبـغـي إلا لـذي الـجـثـمـان

٤١٥- ووصفتـه بـإرادة وبقـدرة ... وكـراهـة ومـحـبـة وحـنـان

٤١٦- وزعمـت أن اللـه يعلـم كل مـا ... فـي الـكـون مـن سـر ومـن إعـلان

٤١٧- والعلـم وصـف زائـد عـن ذاته ... عَـرض يـقـوم بـغـيـر ذي جثمان

٤١٨- وزعمـت أن اللـه كلـم عبـده ... مـوسـى فـأسـمـعـه نـدا الـرحـمـن

٤١٩- أفتسـمع الأذنان غير الحرف والـ ... ـصـوت الـذي خصت بـه الأذنـان

٤٢٠- وكـذا النـداء فانـه صـوت باجـ ... ـمـاع الـنـحـاة وأهـل كـل لسان

٤٢١- لكنـه صـوت رفيـع وهـو ضـد ... لـلـنـجـاء كـلاهـمـا صـوتـان

٤٢٢- فزعمـت أن اللـه نـاداه ونـا ... جـاه وفـي ذا الـزعـم مـحـذوران

٤٢٣- قرب المـكان وبعده والصوت بل ... نـوعـاه مـحـذوران مـمـتـنـعـان

٤٢٤- وزعمـت أن محمـدا أسـرى بـه ... لـيـلا إلـيـه فـهـو مـنـه دان

٤٢٥- وزعمـت أن محمـدا يـوم اللقـا ... يـدنـيـه رب الـعـرش بـالـرضـوان

٤٢٦- حتـى يُـرى المختار حقـا قاعدا ... معه على العـرش الرفيع الشـان[٢]

[١] قوله: «وزعمت أن كلامه منه بدا» أي: ظهر.

[٢] رواه ابن خزيمة وابن جرير، أعني: حديث إقعاده على العرش. وقالوا: هو الوسيلة، أو: منها(١)

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٤٧، عن مجاهد.

٤٢٧- وزعمت أن لعرشه أطّا به ... كالرحل أطّ براكب عجلان[١]

٤٢٨- وزعمت أن الله أبدى بعضه ... للطور حتى عاد كالكثبان

٤٢٩- لما تجلى يوم تكليم الرضا ... موسى الكليم مكلم الرحمن

٤٣٠- وزعمت للمعبود وجها باقيا ... وله يمين بل زعمت يدان

٤٣١- وزعمت أن يديه للسبع العلى ... والأرض يوم الحشر قابضتان

٤٣٢- وزعمت أن يمينه ملآى من الـ ... ـخيرات ما غاضت على الأزمان

٤٣٣- وزعمت أن العدل في الأخرى بها ... رفع وخفض وهو بالميزان

٤٣٤- وزعمت أن الخلق طرا عندما ... يهتز فوق أصابع الرحمن

٤٣٥- وزعمت أيضا أن قلب العبد ما ... بين اثنتين من الأصابع عان

٤٣٦- وزعمت أن الله يضحك عندما ... يتقابل الصفان يقتتلان

٤٣٧- من عبده يأتي فيبدي نحره ... لعدوه طلبا لنيل جنان

٤٣٨- وكذاك يضحك عندما يثب الفتى ... من فرشه لتلاوة القرآن

٤٣٩- وكذاك يضحك من قنوط عباده ... إذ أجدبوا والغيث منهم دان

٤٤٠- وزعمت أن الله يرضى عن أولي الـ ... ـحسنى ويغضب عن أولي العصيان

٤٤١- وزعمت أن الله يَسمع صوته ... يوم المعاد بعيدهم والداني

٤٤٢- لما يناديهم أنا الديان لا ... ظلم لدي فيسمع الثقلان

٤٤٣- وزعمت أن الله يشرق نوره ... في الأرض يوم الفصل والميزان

٤٤٤- وزعمت أن الله يكشف ساقه ... فيخر ذاك الجمع للأذقان

٤٤٥- وزعمت أن الله يبسط كفه ... لمسيئنا ليتوب من عصيان

٤٤٦- وزعمت أن يمينه تطوى السما ... طيّ السجل على كتاب بيان

---

[١] «الأط» صرير الرحل الجديد.

٤٤٧- وزعمت أن الله ينزل في الدجى في ثلث ليل آخر أو ثان
٤٤٨- فيقول هل من سائل فأجيبه فأنا القريب مجيب من ناداني
٤٤٩- وزعمت أن له نزولا ثانيا يوم القيامة للقضاء الثاني[١]
٤٥٠- وزعمت أن الله يبدو جهرة لعباده حتى يُرى بعيان
٤٥١- بل يسمعون كلامه ويرونه فالمقلتان إليه ناظرتان
٤٥٢- وزعمت أن لربنا قدما وأن الله واضعها على النيران
٤٥٣- فهناك يدنو بعضها من بعضها وتقول قط قط حاجتي وكفاني[٢]
٤٥٤- وزعمت أن الناس يوم مزيدهم كل يحاضر ربه ويداني
٤٥٥- بالحاء مع ضاد وجا مع صادها وجهان في ذا اللفظ محفوظان
٤٥٦- في الترمذي ومسند وسواهما من كتب تجسيم بلا كتمان
٤٥٧- ووصفته بصفات حي فاعل بالاختيار وذانك الأصلان[٣]
٤٥٨- أصلا التفرق بين هذا الخلق في الـ ـباري فكن في النفي غير جبان
٤٥٩- أو لا فلا تلعب بدينك ناقضا نفيا بإثبات بلا فرقان
٤٦٠- فالناس بين معطل أو مثبت أو ثالث متناقض صفعان

---

[١] القضاء الأول: ما قدّره وقضاه في الدنيا من الأمور الدينية والدنيوية. والقضاء الثاني: يوم القيامة المتضمن للجزاء.

[٢] قوله: «**قط قط**» بسكون الطاء، للوزن، وكما وردت به الرواية. ومعناه ما ذكره بقوله: «**حاجتي وكفاني**».

[٣] قوله: «**وذانك الأصلان**» هما: كونه فاعلا، وكون فعله بالاختيار.

قوله: «**فالناس بين معطل**» كهذا الركب، وهم الفلاسفة، «**أو مثبت**» كالسلف، «**أو ثالث**» كالجهمية وفروعهم «**صنفان**».

٤٦١- واللـهِ لسـت برابـع لهـم بلـى إمـا حـمـارا أو مـن الـثـيـران

٤٦٢- فاسـمع بإنكار الجميع ولا تكن مـتـنـاقـضـا رجـلا لـه وجـهـان

٤٦٣- أو لا ففـرق بيـن مـا أثبتـه ونـفـيـتـه بـالـنـص والـبـرهـان

٤٦٤- فالباب بـاب واحد في النفي والـ إثـبـات فـي عـقـل وفـي مـيـزان

٤٦٥- فمتـى أقـر ببعض ذلـك مثبت لـزم الجميـع أو ائـت بالفرقـان

٤٦٦- ومتـى نفـى شـيئا وأثبـت مثله فـمـجـسـم مـتـنـاقـض دِيـصـان

٤٦٧- فذروا المـراء وصرحوا بمذاهب الـ ـقـدمـاء وانـسـلـخـوا مـن الإيـمـان

٤٦٨- أو قاتلـوا مع أمة التشـبيه والتـ ـجسيم تـحـت لـواء ذي الـقـرآن

٤٦٩- أو لا فـلا تتلاعبـوا بعقولكـم وكـتـابـكـم وبـسـائـر الأديـان

٤٧٠- فجميعهـا قد صرحـت بصفاته وكـلامـه وعـلـوه بـبـيـان

٤٧١- والنـاس بيـن مصـدق أو جاحد أو بـيـن ذلـك أو شـبـيـه أتـان

٤٧٢- فاصنع من التنزيه ترسـا محكما وانـف الجمـيـع بصنعـة وبيان[١]

٤٧٣- وكذاك لَقِّـب مذهبَ الإثبات بالتّـ ـجسيم ثـم احمل علـى الأقران

٤٧٤- فمتى سـمحت لهم بوصف واحد حملـوا عليـك بحملـة الفرسـان

٤٧٥- فصرعـت صرعة من غـدا متلبطا وسـط العريـن ممـزق اللحمان[٢]

٤٧٦- فلذاك أنكرنـا الجميع مخافة التـ ـجسيم إن صـرنـا إلـى الـقـرآن

٤٧٧- ولـذا خلعنـا ربقـة الأديـان من أعـنـاقـنـا فـي سـالـف الأزمـان

---

[١] قوله: «بصنعة وبيان» أي بترويج على العوام، وتزويق، باسم أنك منزه.

[٢] قوله: «متلبطا» متشحطا «العرين» غابة الأسد.

٤٧٨- ولنا ملوك قاوموا الرسل الألى | جاءوا بإثبات الصفات كماني[١]

٤٧٩- في آل فرعون وقارون ونمـ | ـرود وهامان وجنكيز خان[٢]

٤٨٠- ولنا الأئمة كالفلاسفة الألى | لم يعبؤوا أصلا بذي الأديان

٤٨١- منهم أرسطو ثم شيعته الألى | هذا الأوان وعند كل أوان[٣]

٤٨٢- ما فيهم من قال إن الله فو | ق العرش خارج هذه الأكوان

٤٨٣- كلا ولا قالوا بأن إلهنا | متكلم بالوحي والقرآن

٤٨٤- ولأجل هذا رد فرعون على | موسى ولم يقدر على الإيمان

٤٨٥- إذ قال موسى ربنا متكلم | فوق السماء وإنه ناداني

٤٨٦- وكذا ابن سينا لم يكن منكم ولا | أتباعه بل صانَعوا بدهان[٤]

٤٨٧- وكذلك الطوسي لما أن غدا | ذا قدرة لم يخش من سلطان[٥]

٤٨٨- قتل الخليفة والقضاة وحاملي الـ | ـقرآن والفقهاء في البلدان[٦]

---

[١] قوله: «كمان» أحد ملوك [....][1]، وإليه تنسب المانوية، وهو قبل البعثة.

[٢] قوله: «في آل فرعون» أي: مع، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾[2].

[٣] قوله: «منهم أرسطو» هو إمامهم ورئيسهم.

[٤] قوله: «بل صانعوا بدهان» يصانع هذا وهذا.

[٥] قوله: «وكذلك الطوسي» هو الرافضي الزنديق، مشير هولاكو، ملك التتر.

[٦] قوله: «قتل الخليفة» أخر ملوك بني العباس، المستعصم.

---

(١) فراغ في الأصل.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.

٤٨٩- إذ هم مشبهة مجسمة وما ... دانوا بدين أكابر اليونان

٤٩٠- ولنا الملاحدة الفحول أئمة التـ ... ـعطيل والسكّين آل سنان[١]

٤٩١- ولنا تصانيف بها غالبتم ... مثل الشفا ورسائل الإخوان

٤٩٢- وكذا الإشارات التي هي عندكم ... قد ضمنت لقواطع البرهان[٢]

٤٩٣- قد صرحت بالضد مما جاء في التـ ... ـوراة والإنجيل والفرقان

٤٩٤- هي عندكم مثل النصوص وفوقها ... في حجة قطعية وبيان

٤٩٥- وإذا تحاكمنا فإن إليهم ... يقع التحاكم لا إلى القرآن

٤٩٦- إذ قد تَساعدْنا بأن نصوصه ... لفظية عزلت عن الإيقان

٤٩٧- فلذاك حكّمنا عليه وأنتم ... قول المعلم أولًا والثاني[٣]

٤٩٨- يا ويح جهم وابن درهم والألى ... قالوا بقولهما من الخوران[٤]

٤٩٩- بقيت من التشبه فيه بقية ... نقضت قواعده من الأركان

٥٠٠- بنفي الصفات مخافة التجسيم لا ... يلوي على خبر ولا قرآن

٥٠١- ويقول إن الله يسمع أو يرى ... وكذلك يعلم سر كل جنان

٥٠٢- ويقول إن الله قد شاء الذي ... هو كائن من هذه الأكوان

٥٠٣- ويقول إن الفعل مقدور له ... والكون ينسبه إلى الحدثان

---

[١] قوله: «آل سنان» فرقة من الزنادقة الفلاسفة بالشام.

[٢] الشفا والإشارات لابن سينا. ورسائل الإخوان: هي التي ألّفها جملة من الفلاسفة، سموها: رسائل إخوان الصفا.

قوله: «هي عندكم» يخاطب جماعته ورفقته الفلاسفة.

[٣] قوله: «قول المعلم أولًا والثاني» المعلم الأول: أرسطو. والثاني: الفارابي.

[٤] قوله: «يا ويح جهم وابن درهم» ابن درهم: هو الجعد الخبيث، شيخ الجهم.

٥٠٤- وينفيه التجسيم يصرخ في الورى والله ما هذان يتفقان

٥٠٥- لكننا قلنا محال كل ذا حذرا من التجسيم والإمكان

فصل

في قدوم ركب الإيمان

٥٠٦- وأتى فريق ثم قال ألا اسمعوا ... قد جئتكم من مطلع الإيمان

٥٠٧- من أرض طيبة من مهاجر أحمد ... بالحق والبرهان والتبيان[١]

٥٠٨- سافرت في طلب الإله فدلني الـ ... ـهادي عليه ومحكم القرآن

٥٠٩- مع فطرة الرحمن جل جلاله ... وصريح عقل فاعتلى بنياني[٢]

٥١٠- فتوافق العقل الصريح وفطرة الر ... حمن والمنقول في إيماني

٥١١- شهدوا بأن الله جل جلاله ... متفرد بالملك والسلطان[٣]

٥١٢- وهو الإله الحق لا معبود إلا ... وجهه الأعلى العظيم الشان

٥١٣- بل كل معبود سواه فباطل ... من عرشه حتى الحضيض الداني

٥١٤- وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان

٥١٥- وعليهما فلك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان[٤]

---

[١] قوله: «**بالحق**» المسائل «**والبرهان**» الدلائل «**والتبيان**» الواضح، فليس كل حق واضح، وليس كل واضح يقام عليه دليل.

[٢] الفرق بين العقل والفطرة: أن العقل يكون مع كل أحد؛ بر أو فاجر، إذا كان صحيحا، والفطرة ما تكون إلا مع من لم يغيرها بأدناس التعطيل والتمثيل والجحد ونحوه.

[٣] قوله: «**شهدوا**» هؤلاء الركب.

[٤] قوله: «**ما دار**» «**ما**» نافية، أي: لم يستقم هذا الفلك «**حتى قامت القطبان**» شبههما بالقطبين

٥١٦- ومداره بالأمر أمر رسوله	لا بالهوى والنفس والشيطان[١]
٥١٧- فقيام دين الله بالإخلاص والـ	إحسان إنهما له أصلان
٥١٨- لم ينج من غضب الإله وناره	إلا الذي قامت به الأصلان
٥١٩- والناس بعد فمشرك بإلهه	أو ذو ابتداع أو له الوصفان
٥٢٠- والله لا يرضى بكثرة فعلنا	لكن بأحسنه مع الإيمان
٥٢١- فالعارفون مرادهم إحسانه	والجاهلون عموا عن الإحسان
٥٢٢- وكذاك قد شهدوا بأن الله ذو	سمع وذو بصر هما صفتان
٥٢٣- وهو العلي يَرى ويَسمع خلقه	من فوق عرش فوق ست ثمان
٥٢٤- فيَرى دبيب النمل في غسق الدجى	ويرى كذاك تقلب الأجفان
٥٢٥- وضجيج أصوات العباد بسمعه	ولديه لا يتشابه الصوتان
٥٢٦- وهو العليم بما يوسوس عبده	في نفسه من غير نطق لسان
٥٢٧- بل يستوي في علمه الداني مع الـ	ـقاصي وذو الإسرار والإعلان
٥٢٨- وهو العليم بما يكون غدا وما	قد كان والمعلوم في ذا الآن
٥٢٩- وبكل شيء لم يكن لو كان كيـ	ـف يكون موجودا لدى الأعيان
٥٣٠- وهو القدير فكل شيء فهو مقـ	ـدور له طوعا بلا عصيان
٥٣١- وعموم قدرته يدل بأنه	هو خالق الأفعال للحيوان
٥٣٢- هي خلقه حقا وأفعال لهم	حقا ولا يتناقض الأمران

الراسيين، الجنوبي والشمالي.

[١] قوله: «ومداره» أي: مدار الفلك.

ذكر المصنف توحيد الربوبية بقوله: «**متفرد بالملك والسلطان**»: وتوحيد الألوهية بقوله: «**وهو الإله الحق، إلخ**». وتوحيد الأسماء والصفات بقوله: «**وكذاك قد شهدوا بأن الله ذو سمع، إلخ**».

٥٣٣- لكـن أهل الجبـر والتكذيب با ... لأقـدار مـا انفتحـت لهـم عينان

٥٣٤- نظـروا بعينـي أعـور إذ فاتهـم ... نـظـر الـبـصـيـر وغـرات العينان

٥٣٥- فحقيقـة القدر الذي حار الورى ... فـي شـأنـه هـو قـدرة الـرحـمـن

٥٣٦- واستحسـن ابن عقيل ذا من أحمد ... لـمـا حـكـاه عـن الـرضـا الـربـانـي

٥٣٧- قال الإمام شـفا القلـوب بلفظه ... ذات اخـتـصـار وهـي ذات بـيـان

فصل

٥٣٨- ولـه الحيـاة كمالهـا فلأجـل ذا ... مـا لـلـمـات عـلـيـه مـن سـلـطـان

٥٣٩- وكذلـك القيّـوم مـن أوصافـه ... مـا لـلـمـنـام لـديـه مـن غـشـيـان

٥٤٠- وكذاك أوصاف الكمـال جميعها ... ثبتت لـه ومـدارهـا الـوصـفـان[١]

٥٤١- فمصحـح الأوصاف والأفعال والـ ... أسـمـاء حـقـا ذانـك الـوصـفـان[٢]

٥٤٢- ولأجـل ذا جـاء الحديـث بأنـه ... فـي آيـة الـكـرسـي وذي عـمـران[٣]

٥٤٣- اسم الإله الأعظم اشتملا على اسـ ... ـم الـحـي والـقـيـوم مـقـتـرنـان[٤]

---

[١] قوله: «ومدارها الوصفان» هما: الحيّ القيّوم.

[٢] قوله: «فمصحح الأوصاف، إلخ» أي: أن مرجع الصفات، سواء كانت ذاتية أو فعلية، ومرجع الأسماء والأفعال، فكل هذه مرجعها: الحي والقيوم.

وبيان ذلك: أن الحي يستلزم لكل صفة ذاتية مما يتعلق بالحياة ويكملها، فكل صفة تضاد الحياة فهو متنزه عنها، وكل فعل كمال فمرجعه القيوم، فالصفات ترجع إلى الحي، والأفعال ترجع إلى القيّوم، والأسماء تدخل في ضمن الصفات.

[٣] قوله: «ولأجل ذا» أي: لأجل أن الحيّ والقيّوم.

قوله: «جاء الحديث بأنه» [أي] اسم الله الأعظم «في آية الكرسي وذي عمران» في أول سورة آل عمران، وهو: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾(١).

[٤] حالة كونهما -أي الآيتين- اشتملا على الحي والقيوم.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

٥٤٤- فالكل مرجعها إلى الاسمين يد ... ري ذاك ذو بصر بهذا الشان[١]

٥٤٥- وله الإرادة والكراهة والرضا ... وله المحبة وهو ذو الإحسان[٢]

٥٤٦- وله الكمال المطلق العاري عن التـ ... ـشبيه والتمثيل بالإنسان[٣]

[١] قوله: «**فالكل**» أي: كل الأسماء الحسنى والصفات العليا وأفعال الكمال «**مرجعها إلى الاسمين، إلخ**».

وهنا فائدة كثرت الأقوال فيها: وهي أن الاسم الأعظم هل هو معيّن، أو مبهم مخفي لحكمة اقتضت ذلك، كما أخفيت ليلة القدر، وساعة الإجابة يوم الجمعة؟

والذي يظهر لي بعد تتبع الأقوال: أنه اسم جنس، فكل اسم من أسماء الله يدل على عظمته فهو اسم أعظم، لأنه ورد في بعض الأحاديث: أنه هو الحي القيوم(١)، وفي بعضها: أنه الواحد الأحد الصمد الفرد(٢)، وفي بعضها: غير ذلك، فهذا مما يدل على ما ظهر لي، فمن أسماء الله تعالى ما ترجع إليه جميع الأسماء الحسنى والصفات العلى، فهو اسمه الأعظم، نحو: الله، الحي، القيوم، الحميد، المجيد، الصمد، ونحوها.

[٢] قوله: «**وله الإرادة، إلخ**» هذه الأفعال الاختيارية.

[٣] قوله: «**وله الكمال المطلق**» الكامل الذي لا يعروه نقص بوجه من الوجوه، ضدّ مطلق الكمال، فهو اسم الكمال الذي يكون ناقصا، سواء كان نقصه كثيرا أو قليلا، فكل كمال مطلق لا نقص معه اتصف به المخلوق فالله أولى به، ولله المثل الأعلى.

الكلي: كالجنس، والأعيان: كالنوع، وهي الجزئيات.

---

(١) أخرجه أحمد ١٢٦١١، وأبو داود ١٤٩٥، والنسائي ١٣٠٠، عن أنس. وصححه الألباني في صحيح أبي داود ٥/ ٢٣٣ .

(٢) أخرجه أحمد ٢٢٩٦٥، وأبو داود ١٤٩٣، والترمذي ٣٤٧٥، وابن ماجه ٣٨٥٧، عن بريدة الأسلمي. وصححه الألباني في صحيح أبي داود ٥/ ٢٢٩.

٥٤٧- وكمال من أعطى الكمال لنفسه ... أولى وأقدم وهو أعظم شان

٥٤٨- أيكون قد أعطى الكمال وما له ... ذاك الكمال أذاك ذو إمكان

٥٤٩- أيكون إنسان سميعا مبصرا ... متكلما بمشيئة وبيان

٥٥٠- وله الحياة وقدرة وإرادة ... والعلم بالكلي والأعيان

٥٥١- والله قد أعطاه ذاك ليس هـ ... ـذا وصفه فاعجب من البهتان

٥٥٢- بخلاف نوم العبد ثم جماعه ... والأكل منه وحاجة الأبدان

٥٥٣- إذ تلك ملزومات كون العبد محـ ... ـتاجا وتلك لوازم النقصان[1]

٥٥٤- وكذا لوازم كونه جسدا نعم ... ولوازم الإحداث والإمكان

٥٥٥- يتقدس الرحمن جل جلاله ... عنها وعن أعضاء ذي جسمان

٥٥٦- والله ربي لم يزل متكلما ... وكلامه المسموع بالآذان

٥٥٧- صدقا وعدلا أحكمت كلماته ... طلبا وإخبارا بلا نقصان[2]

---

[١] قوله: «**إذ تلك ملزومات، إلخ**» اللازم هو السبب، والملزوم هو المسبب، فمثلا: نقص العبد لازم لحاجته إلى الأكل فهو السبب، وأكله وهو المسبب ملزوم نقصه، فاللازم يرادف السبب والموجب والمقتضي، والملزوم يرادف المسبب والموجَب والمقتضَى، وهذه دلالة اللزوم المشهورة، لأن دلالة الكلام ثلاثة أنواع: دلالة المطابقة، ودلالة التضمن، ودلالة اللزوم، كما قال الناظم فيما يأتي إن شاء الله:

ودلالة الأسماء أنواع ثلا ... ث كلها معلومة ببيان، إلخ(١)

[٢] قوله: «**صدقا وعدلا**» ومثله قوله: «**طلبا وإخبارا**» فإخبارا راجع إلى «صدقا»، وطلبا راجع إلى «عدلا»، وهذا كما في الآية: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾(٢). وقوله: «**بلا نقصان**» هذا

---

(١) هذه الأبيات غير موجودة ضمن القدر المشروح.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

٥٥٨- ورسوله قد عاذ بالكلمات من ... لدغ ومن عين ومن شيطان

٥٥٩- أيعوذ بالمخلوق حاشاه من الـ ... إشراك وهو معلم الإيمان

٥٦٠- بل عاذ بالكلمات وهي صفاته ... سبحانه ليست من الأكوان[١]

٥٦١- وكذلك القرآن عين كلامه الـ ... ـمسموع منه حقيقة ببيان[٢]

٥٦٢- هو قول ربي كله لا بعضه ... لفظا ومعنى ما هما خلقان[٣]

٥٦٣- تنزيل رب العالمين وقوله ... اللفظ والمعنى بلا روغان

٥٦٤- لكن أصوات العباد وفعلهم ... كمدادهم والرق مخلوقان[٤]

معنى قوله: «**تمت**» والمعنى: صدقا بالأخبار، وعدلا في الأوامر والنواهي، لأن جميع الكلمات لا تخرج عن هذين المعنيين: الصدق والعدل.

[١] والدليل على أن كلام الله من صفاته أمور عديدة، منها قوله:

«**ورسوله قد عاذ بالكلمات، إلخ**» أي: أن الرسول قد تعوّذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة(١) فهل يتعوذ النبي بمخلوق، وهو يعلّم الناس الإيمان، ويعلّم أن الاستعاذة من أنواع العبادة، فلا تجوز بالمخلوق، بل هي محض حق الباري؟! حاشاه.

[٢] قوله: «**وكذلك القرآن، إلخ**» الكلام الأول في كلام الله مطلقا من حيث هو، وهذا في الكلام على القرآن.

[٣] قوله: «**كله لا بعضه**» معناه هو «**لفظا ومعنى**».

[٤] قوله: «**لكن أصوات العباد، إلخ**» الصوت هو المسموع، والفعل هو حركة الإنسان عند القراءة، وبهذه المسألة أنكر محمد بن يحيى الذهلي -شيخ مسلم- على الإمام البخاري، وكل منهما يستدل على كلامه بقول الإمام أحمد، لأنه باتفاق السلف قاطبة أنه الإمام الذي يُقتدى به في علم الصفات، خصوصا الكلام، لأنه امتحن الامتحان التام، ولم يتضعضع، ولم يرجع، ولم

(١) أخرجه البخاري ٣٣٧١، عن ابن عباس.

٥٦٥- فالصوت للقاري ولكن الكلا ... م كلام رب العرش ذي الإحسان

٥٦٦- هذا إذا ما كان ثم وساطة ... كقراءة المخلوق للقرآن

٥٦٧- فإذا انتفت تلك الوساطة مثلما ... قد كلم المولود من عمران

٥٦٨- فهنالك المخلوق نفس السمع لا ... شيء من المسموع فافهم ذان

٥٦٩- هذي مقالة أحمد ومحمد ... وخصومهم من بعد طائفتان[١]

٥٧٠- إحداهما زعمت بأن كلامه ... خلق له ألفاظه ومعاني

٥٧١- والآخرون أبوا وقالوا شطره ... خلق وشطر قام بالرحمن

٥٧٢- زعموا القران عبارة وحكاية ... قلنا كما زعموه قرآنان

٥٧٣- هذا الذي نتلوه مخلوق كما ... قال الوليد وبعده الفئتان[٢]

يُعرّض، بل صرح بمذهب السلف.

[١] قوله: «**هذي مقالة أحمد ومحمد**» أي: الإمام أحمد والبخاري، وهي: أن كلام الله صفة من صفاته الفعلية المتعلقة بذاته، وأن نوعه قديم، وآحاده تحدث بمشيئته وقدرته، وأنه كله قول الله وصفته اللفظ والمعنى ليس بمخلوق.

قوله: «**وخصومهم من بعد طائفتان**» أحدهما: الجهمية والمعتزلة، والطائفة الثانية: الأشاعرة والكلّابية.

فالطائفة الأولى: مذهبها مناقض لمذهب السلف من كل جهة، فقالوا: إن لفظه ومعناه مخلوق. وهم: الجهمية والمعتزلة.

والطائفة الثانية قالوا: إن هذا المقروء ليس كلام الله، وإنما هو عبارة وحكاية عن كلام الله، فهو مخلوق، وأما كلام الله فهو معنى قائم بنفسه، وليس بمخلوق، ولكنه لم يُسمَع منه، وإنما جبريل فهمه من المعنى القائم بذات الله، أو أن الله خلقه في اللوح المحفوظ، فأخذه جبريل منه، أو أن النبي أخذه من الله، فهما من المعنى القائم به.

[٢] قوله: «**كما قال الوليد وبعده الفئتان**» الوليد بن المغيرة الذي قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ

٥٧٤- والآخر المعنى القديم فقائم	بالنفس لم يسمع من الديان
٥٧٥- والأمر عين النهي واستفهامه	هو عين إخبار وذا وحداني
٥٧٦- وهو الزبور وعين توراة وإنـ	ـجيل وعين الذكر والفرقان
٥٧٧- الكل معنى واحد في نفسه	لا يقبل التبعيض في الأذهان
٥٧٨- ما إن له كلّ ولا بعض ولا	حرف ولا عربي ولا عبراني
٥٧٩- ودليلهم في ذاك بيت قاله	فيما يقال الأخطل النصراني
٥٨٠- يا قوم قد غلط النصارى قبل في	معنى الكلام وما اهتدوا لبيان
٥٨١- ولأجل ذا ظنوا المسيح إلههم	إذ قيل كلمة خالق رحمن
٥٨٢- ولأجل ذا جعلوه ناسوتا ولا	هوتا قديما بعد متحدان[١]

ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾[(١)]. و«**الفئتان**» هم المذكورون قبل، وهم أربع فرق، لأن كل فئة تفرق فرقتين، فالفرقة الأولى: الجهمية والمعتزلة. والثانية: الأشاعرة والكلابية.

وحاصل مذهب الأشاعرة والكلابية: أن هذا المقروء مخلوق، ليس بكلام الله، فهم موافقون للجهمية والمعتزلة، وأما كلام الله فهو المعنى القائم بنفسه، وهو قديم، ليس بمخلوق، ولم يسمعه أحد من الله؛ لا جبريل، ولا محمد، ولا موسى، وأيضا فهو نشئ واحد لا يتعدد، فالأمر والنهي والخبر والاستفهام ليس أنواعا، بل هي صفات له، وهو أيضا كلام واحد، فهو: القرآن، والإنجيل، والزبور، والتوراة، فإن عبّر عنه بالعربية كان قرآنا، وبالسريانية فإنجيل، وبالعبرانية فتوراة.

[١] ودليلهم على هذا: بيت ينسب إلى الأخطل[(٢)]، وإلا فليس من قوله، ولذلك قال: «**فيما يقال**»، وعلى تقدير ثبوته عنه؛ فالنصارى على بكرة أبيهم قد غلطوا في الكلام، فتوهموا أن عيسى

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٢٥.

(٢) وهو قوله:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وانظر: مجموع الفتاوى ٦/ ٢٩٦.

٥٨٣- ونظير هذا من يقول كلامه ... معنى قديم غير ذي حدثان

٥٨٤- والشطر مخلوق وتلك حروفه ... ناسوته لكن هما غيران

٥٨٥- فانظر إلى ذاك الاتفاق فإنه ... عجب وطالع سنة الرحمن[١]

٥٨٦- وتكايست أخرى وقالت إن ذا ... قول محال وهو خمس معان[٢]

٥٨٧- تلك التي ذُكرت ومعنى جامع ... لجميعها كالأس للبنيان[٣]

هو «كن» لا أنه خُلق بكن، وليس هو «كن»، فهل تجعلون غلط النصارى حجة على دين المسلمين، وحكما على كلام رب العالمين؟! ولأجل غلط النصارى جعلوا عيسى جزأين: جزءا من الله، وهو اللاهوت القديم، وجزءا من الإنسان، وهو الناسوت، وهو أمه، فاتحدا، واختلطا، وكانا شيئا واحدا، فهو على زعمهم: رب مربوب، خالق مخلوق، آلِهٌ إِلهٌ، تعالى الله عن قولهم.

وقول الأشاعرة والكلابية نظير قول النصارى، لأنهم شابهوهم في كون بعض كلام الله مخلوق، فهو عبارة عن الناسوت، وبعضه قديم، وهو العبارة عن اللاهوت.

[١] قوله: «**فانظر إلى ذاك الاتفاق، إلخ**» يشير إلى حديث: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»(١).

[٢] قوله: «**وتكايست أخرى**» من فرق الأشاعرة والكلابية «**وقالت إن ذا**» وهو القول المتقدم، أنه نوع واحد، وله صفات متعددة: الأمر والنهي الخ «**قول محال**» والصواب عندهم أنه خمسة معاني، كل معنى غير المعنى الثاني، وهي كلها نفسية قديمة، قائمة بالنفس، لم تسمع من الله.

[٣] قوله: «**تلك التي ذكرت**» وهي: الأمر، والنهي، والخبر، والاستفهام «**ومعنى جامع لجميعها، إلخ**» أي: فمجموعها معنى خامس، لأن القاعدة أن الطريق أو الدليل أو أي شيء صار له أنواع متعددة، فكل نوع منها مفرد يعد شيئا واحدا، والثاني ثانيا، وهكذا، فإذا خلصت فيعد مجموعها شيء زائد عنها، فإن كانت اثنان صار المجموع ثالثا لها، أو ثلاثة صار رابعا لها، أو أربعة -كما هنا- فالمجموع خامس لها، فيكون عند هذه الفرقة الكلام أنواعا خمسة، وأما عند الأولين فهي أوصاف له.

(١) أخرجه البخاري ٧٣٢٠، ومسلم ٦-٢٦٦٩، عن أبي سعيد.

٥٨٨- فتكـون أنواعـا وعنـد نظيرهـم أوصـافـه وهـمـا فـمـتـفـقـان
٥٨٩- أن الذي جاء الرسـول بـه فمخـ ـلـوق ولـم يُسمع من الـديـان[١]
٥٩٠- والخلـف بينهـم فقيـل محمـد أنـشـاه تـعـبـيـرا عـن الـقـرآن
٥٩١- والآخـرون أبـوا وقالـوا إنمـا جـبـريـل أنـشـاه عـن الـمـنـان
٥٩٢- وتكايسـت أخـرى وقالـت إنـه نـقـلٌ مـن الـلـوح الـرفـيـع الـشـان
٥٩٣- فاللـوح مبـداه ورب اللـوح قـد أنـشـاه خـلـقـا فـيـه ذا حِـدثـان
٥٩٤- هـذي مقـالات لهـم فانظر ترى فـي كـتـبـهـم يـا مـن لـه عـيـنـان
٥٩٥- لكـن أهـل الحـق قالـوا إنمـا جـبـريـل بـلّـغـه عـن الـرحـمـن
٥٩٦- ألقـاه مسـموعا لـه مـن ربـه لـلـصـادق الـمـصـدوق بـالـبـرهـان

[١] قوله: «وهما» أي: الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والكلابية «**فمتفقان أن الذي جاء الرسول به**» وهو هذا القرآن مخلوق، ولم يتكلم به الرحمن. ثم اختلفوا، فقال قوم: إن جبريل هو الذي أنشأه، وتكلم به، وعبّر به عن المعنى القائم بالله. وقال قوم: إنه محمد. وقال قوم: إنه منقول من اللوح المحفوظ، لأن الله خلقه في اللوح.



فصل

في مجامع طرق أهل الأرض واختلافهم في القرآن[1]

٥٩٧- وإذا أردت مجامع الطرق التي فيها افتراق الناس في القرآن

٥٩٨- فمدارها أصلان قام عليهما هذا الخلاف هما له ركنان

٥٩٩- هل قوله بمشيئة أم لا وهل في ذاته أم خارج هذان[2]

٦٠٠- أصلا اختلافِ جميع أهل الأرض في الـ ـقرآن فاطلب مقتضى البرهان

٦٠١- ثم الألى قالوا بغير مشيئة وإرادة منه فطائفتان[3]

٦٠٢- إحداهما جعلته معنى قائما بالنفس أو قالوا بخمس معان[4]

---

[١] رحم الله المؤلف رحمة واسعة، فقد جمع في هذا المقام من مقالاتهم وحصرها وبيانها واختصارها، ما لعلك لا تجده كله في غيره، بل إن وجدته فهو بعضٌ من هذا.

[٢] ومذهب السلف أنه بمشيئة، وأنه في ذاته، لأنه صفة له.

قوله: «**فاطلب مقتضى البرهان**» أي: اتبع ما دل عليه الدليل.

[٣] الطائفتان أحدهما: الأشاعرة والكلابية، والثانية: الاقترانية. والأشاعرة والكلابية مذهبهم متفق في أكثر المسائل، لأن ابن كلاب شيخ للأشعري، وكانت النسبة -أولا- لابن كلاب، ثم لما اشتهر الأشعري انتسبت له طائفته، وتقدم بيان مذهب الأشاعرة والكلابية قبل الفصل(1).

[٤] قوله: «**إحداهما**» وهما: الأشعرية والكلابية «**جعلته معنى قائما بالنفس أو قالوا بخمس**

---

(١) انظر: ص٦٦٦.

٦٠٣- والله أحدث هذه الألفاظ كي	تبديه معقولا إلى الأذهان
٦٠٤- وكذاك قالوا إنها ليست هي الـ	ـقرآن بل دلت على القرآن
٦٠٥- ولربما سمي بها القرآن تسـ	ـمية المجاز وذاك وضع ثان[١]
٦٠٦- ولذلك اختلفوا فقيل حكاية	عنه وقيل عبارة لبيان[٢]
٦٠٧- إذ كان ما يُحكى كمحكي وهـ	ـذا اللفظ والمعنى فمختلفان
٦٠٨- ولذا يقال حكى الحديث بعينه	إذ كان أوله نظير الثاني
٦٠٩- فلذاك قالوا لا نقول حكاية	ونقول ذاك عبارة الفرقان
٦١٠- والآخرون يرون هذا البحث لفـ	ـظيا وما فيه كبير معان

معان» تقدم الكلام عليه(١).

[١] لأن الحقيقة هي الوضع الأول، والمجاز هو الوضع الثاني، فالمعنى القائم بالله هو الموضوع في الأول لكلامه، وهذه الألفاظ وضعت ثانيا له مجازا، هذا على قولهم، تعالى الله عنه.

[٢] قوله: «**ولذلك اختلفوا، إلخ**» فبعضهم قال: إن هذه الألفاظ حكاية عن كلام الله، وهم الكلابية.

والطائفة الثانية تقول: عبارة عنه، لأنها لو قالت: «حكاية» لزم أن يكون المحكي -وهو اللفظ- هو نفس المحكي عنه وهو المعنى، وهي عندهم مختلفة، ولذلك يقال: حكى الكلام إذا أتى بنفس حروفه ومعانيه، ويقال: عبر عنه، إذا أتى بالمعنى.

والفرقة الثالثة يقولون: إن هذا البحث لفظي، والحكاية والعبارة شيء واحد.

---

(١) انظر: ص٦٦٧.

فصل

في مذهب الاقترانية[١]

٦١١- والفرقة الأخرى فقالت إنه لفظا ومعنى ليس ينفصلان[٢]

٦١٢- واللفظ كالمعنى قديم قائم بالنفس ليس بقابل الحِدثان[٣]

٦١٣- فالسين عند الباء لا مسبوقة لكن هما حرفان مقترنان

٦١٤- والقائلون بذا يقولوا إنما ترتيبها في السمع والآذان

٦١٥- ولها اقتران ثابت لذواتها فاعجب لذا التخليط والهذيان[٤]

---

[١] وهم الطائفة الثانية، ممن يقول: إنه بغير مشيئة، وهم فرقة من الحنابلة، وينسبون مقالتهم إلى مذهب أحمد، وهو بريء من قولهم.

[٢] فوافقوا الأشاعرة في قولهم: إن المعنى قديم، وزادوا عليهم اللفظ، وأنه لا يوجد هذا دون هذا، ولا بالعكس، واللفظ أيضا قديم متصفة به النفس.

[٣] قوله: «**ليس يقابل الحدثان**» أي: لا يحدث شيئا بعد شيء.

[٤] **وحاصل ذلك**: أن الحروف تكلم الله بها في الأزل دفعة واحدة، فلا يمكن أن تكون السين في «بسم» قبل الميم وبعد الباء، بل تكلم بها دفعة واحدة، وأن الله تكلم بجميع كلامه الذي لا ينفد دفعة واحدة، فلم يتقدم شيء قبل شيء، ولما أنزل على موسى التوراة وعلى محمد القرآن حدث سماعه لا تكلمه به، وهم أيضا يقولون: إن سامع كلام الله يحصل له الترتيب بين كلماته وحروفه في سمعه، وإلا فالله تكلم بها دفعة واحدة.

قوله: «**لكن زاغونيهم، إلخ**» هو من طبقة مشايخ القاضي، وهو حنبلي المذهب، وليس هو ابن

٦١٦- لكن زاغونيهم قد قال إن ... ذواتها ووجودها غيران

٦١٧- فترتبت بوجودها لا ذاتها ... يا للعقول وزيغة الأذهان

٦١٨- ليس الوجود سوى حقيقتها لدى الـ ... أذهان بل في هذه الأعيان

٦١٩- لكن إذا أخذ الحقيقة خارجا ... ووجودها ذهنا فمختلفان

٦٢٠- والعكس أيضا مثل ذا فإذا هما اتـ ... ـحدا اعتبارا لم يكن شيئان

٦٢١- وبذا تزول جميع إشكالاتهم ... في ذاته ووجوده الرحمن

الزاغوني الفقيه، الذي ينقل عنه الفقهاء، فإن هذا من طبقة تلاميذ القاضي، وليس مذهبه كمذهب ذاك، ومعنى كلامه لا يفهم، ومراده أن وجودها غير ذاتها، فوجودها مترتب، وذاتها بالعكس، ولذلك قال المؤلف:

«يا للعقول» والمستغاث محذوف، تقديره: يا قوم! ونحوه، واللام في للعقول مكسورة؛ لأنها لام المستغاث له، لا به، فهي مفتوحة.

والصواب: أن وجود الشيء هو حقيقته إذا اتحدا في الاعتبار، وأما إذا اختلفا بالاعتبار فيختلفان، لأن الوجود: نفسي، ولفظي، ورسمي، وشخصي، وخارجي، فإذا وقع في نفسك أن هنا كتاب فهذا الوجود النفسي، فإذا لفظت به فهو الوجود اللفظي، فإذا كتبته فهو رسمي، فإذا وجدت صورة الكتاب وبان شخصه فهو الشخصي، فإذا علم هذا زالت الإشكالات التي يوردها طوائف أهل البدع: هل ذاته هو وجوده أم لا؟ وهل الاسم عين المسمى أم لا؟ وهكذا.

فصل

في مذهب القائلين بأنه متعلق بالمشيئة والإرادة[1]

٦٢٢- والقائلــون بأنــه بمشــيئة	وإرادة أيضــا فهــم صنفــان
٦٢٣- إحداهمــا جعلتــه خــارج ذاتــه	كـمـشـيـئـة لـلـخـلـق والأكــوان
٦٢٤- قالوا وصار كلامــه بإضافة التـ	ـشريف مثــل البيــت ذي الأركان
٦٢٥- مــا قــال عندهــم ولا هــو قائل	والـقــول لـم يُـسـمـع مـن الـديـان
٦٢٦- فالقــول مفعــول لديهــم قائــم	بـالـغـيـر كـالأعــراض والألــوان
٦٢٧- هــذي مقالــة كل جهمــي وهــم	فيهــا الشــيوخ معلمــو الصبيان[2]

[١] وهم أربع فرق: الجهمية، والكلابية، وأهل الحديث، والاتحادية. وهذا الفصل في الجهمية، فهم جعلوا القرآن خارج ذات الله، ليس وصفا له، ولا قائما به، بل خلقه بمشيئته خارج ذاته، كما أن الفعل عندهم هو عين المفعول، والخلق عين المخلوق، كما تقدم عند قوله:

«وقضى بأن الله كان معطلا، إلخ»(1)

فالمشيئة والإرادة ليسا وصفين له، وإضافته إليه عندهم للتشريف، كما يقال: بيت الله، وناقة الله.

[٢] قوله: **«وهم فيها الشيوخ، إلخ»** أي: أنهم أصل لغيرهم، وسلف وشيوخ ومعلمون، وما عداهم تلاميذ وتبع لهم، كما تقدم في قوله:

«ولذا تقسمت الطوائف قوله»(2)

(١) انظر: ص٥٩٦.
(٢) انظر: ص٦١٦.

٦٢٨- لكــن أهــل الاعتــزال قديمهــم ... لم يذهبــوا ذا المذهب الشــيطاني
٦٢٩- وهم الألى اعتزلوا عن الحسن الرضا الـ ... ــبصري ذاك العالــم الربانــي
٦٣٠- وكــذاك أتبــاع علــى منهاجهــم ... من قبل جهــم صاحــب الحِدثان[١]
٦٣١- لكنمــا متأخروهـــم بعد ذ ... لــك وافقوا جهمــا علــى الكفران
٦٣٢- فهــم بــذا جهميــة أهــل اعتــزا ... ل ثوبهــم أضحــى لــه عَلَمــان[٢]
٦٣٣- ولقد تقلد كفرهم خمســون في ... عشــر مــن العلمــاء فــي البلــدان
٦٣٤- واللالكائــي الإمــام حــكاه عنــ ... ــهم بــل حكــاه قبله الطبرانــي

[١] وأما المعتزلة فهم صنفان: متقدمون، ولا يوافقون الجهمية على شيء من ذلك، وهم: عمرو بن عبيد، ومن تابعه، وسبب تسميتهم «معتزلة» أنهم اعتزلوا مجلس الحسن البصري، لما قرر مذهب السلف في الفاسق الملي؛ بأنه فاسق بذنبه، مؤمن بإيمانه، فقالوا: إنه لا كافر ولا مؤمن، بل هو بمنزلة بين المنزلتين، ومع ذلك هو مخلد بالنار، فقال لهم الحسن: اعتزلوا مجلسنا، فاعتزلوه، فحينئذ سموا: معتزلة.

وعمرو بن عبيد هذا من أجلّ الناس، وأعلمهم، وأزهدهم، حتى قال الحسن فيه: كأن الأنبياء أدبته، والملائكة ربته. وحتى قال له المنصور لما دخل عليه هو وغيره:

كلكــم يمشــي رويــد ... كلكــم يطلــب صيــد
غيــر عمــرو بــن عبيــد

[٢] وأما متأخرو المعتزلة: فوافقوا الجهمية، فصاروا جهمية في الصفات، معتزلة في الإيمان.



فصل

في مذهب الكرامية[1]

٦٣٥- والقائلون بأنه بمشيئة في ذاته أيضا فهم نوعان[٢]

٦٣٦- إحداهما جعلته مبدوءا به نوعا حذار تسلسل الأعيان[٣]

٦٣٧- فيسد ذاك عليهم في زعمهم إثبات خالق هذه الأكوان

[١] وهم أقرب الناس إلى مقالة السلف، لأن الناس انقسموا في تسلسل أفعال الباري في الماضي والمستقبل إلى أربعة أقسام:

السلف: يثبتونها أي: يثبتون نوعها، وأما أعيانها وأفرادها فهي متعلقة بالمشيئة والإرادة، في الماضي والمستقبل، ويرون أنها قائمة به، صفة له.

وضدهم: الجهمية: من كل وجه.

والأشعرية: وافقوا الجهمية في نفيها في الماضي، وكونه غير متصف بها، ووافقوا السلف في تسلسلها في المستقبل.

والكرّامية: وافقوا السلف في تسلسلها في المستقبل، وفي كونها صفة لله، قائمة به، ولكنهم خالفوهم، ووافقوا الجهمية في نفيها في الماضي.

[٢] قوله: «فهم نوعان» أحدهم: الكرامية، والثاني: أهل الحديث.

[٣] قوله: «إحداهما جعلته مبدوءا به نوعا» خلافا للسلف، فإنهم يقولون: إن نوعه قديم، وآحاده حادثة، متعلقة [بالمشيئة والإرادة.

٦٣٨- فلـــذاك قالوا إنـــه ذو أول ... مـــا للفنـــاء عليـــه من ســلطان[١]

٦٣٩- وكلامـــه كفعالـــه وكلاهما ... ذو مـبـدأ بـل لـيـس يـنـتـهـيـان

٦٤٠- قالوا ولـم ينصف خصوم جعجعوا ... وأتـــوا بـتـشـنـيـع بـلا بـرهـان[٢]

٦٤١- قلنـا كمـا قالـوه فـي أفعالـه ... بـل بـيـنـنـا بـون مـن الـفـرقـان

٦٤٢- بـل نحن أسـعد منهـم بالحق إذ ... قـلـنـا هـمـا بـالـلـه قـائـمـتـان

٦٤٣- وهـم فقالـوا لـم يقـم بالله لا ... فـعـل ولا قـول فـتـعـطـيـلان

٦٤٤- لفعالـــه ومـــقاله شـرّا وأبـــ ... ـطـل مـن حـلـول حـوادث ببيان

٦٤٥- تعطيلـه عـن فعلـه وكلامـه ... شـر مـن الـتـشـنـيـع بـالـهـذيـان

٦٤٦- هـذي مقـالات ابـن كـرّام ومـا ... ردوا عليـــه قـــط بالبرهـــان

٦٤٧- أنـى ومـا قد قـال أقـرب منهم ... لـلـعـقـل والآثـــار والـــقـرآن

٦٤٨- لكنهـم جـاؤوا لـه بجعاجـع ... وفـــراقـــع وقـــعـــاقـــع بـشـنـان

قوله: «**حذار تسلسل الأعيان**» أي: المخلوقات، فبزعمهم لو أثبتوا قدمه للزم تسلسل الأعيان، فإذا تسلسلت الأعيان سد عليهم إثبات خالق الأكوان. ونحن نقول: إن الله قديم، وصفاته وأسمائه وأفعاله، ولا يلزم من ذلك كون مخلوقاته وآثار صفاته وأفعاله قديمة.

[١] قوله: «**فلذلك قالوا إنه ذو أول**» أي: قالت الكرامية: إن كلامه مبدوء به، وله أول «**ما للفناء، إلخ**» هذا مما يوافقون السلف عليه، وهو تسلسله في المستقبل، والكلام كالفعال، فالحكم فيها واحد، فهي كلها ما تفنى ولا تبيد، ولا لها نهاية في المستقبل لا الماضي عندهم.

[٢] قوله: «**خصوم جعجعوا، إلخ**» هم الأشعرية، لأنهم ينكرون على السلف إثباتهم أن الله لم يزل متكلما، فعالا لما يريد، ولذلك قال ابن السبكي في رده على شيخ الإسلام:

يـرى حـوادث لا مـبـدي لأولـهـا ... في الـلـه سـبحانه عن مـا يظن به

ويشنعون على الكرامية -أيضا- وعلى السلف؛ إثباتهم أن الصفات والأفعال قائمة بالله صفة له.

....

وحاصل هذه الأبيات: أنهم يقولون: إننا معشر الكرامية موافقون للأشعرية في نفي تسلسل الأفعال في الماضي وإثباتها في المستقبل، ونحن -أيضا- أثبتنا أن الأفعال والكلام قائمان بالله، وهم نفوا ذلك، ونحن أسعدهم بالدليل العقلي والنقلي، لأنهم عطلوا الله من أفعال الكمال، ومن كلامه، فهذا شر من قولنا ولو زعموه حلولا للحوادث بالله، لأن تعطيله عن كلام وعن أفعاله الاختيارية شر من إثباتها، وما رد عليهم الأشعرية بدليل ولا برهان، فكيف يردون عليهم وهم الذين جاؤوا به أقرب إلى العقل والآثار والقرآن، وإنما أنكر الأشاعرة عليهم بجعاجع، وهي [أصوات الرحى][1].



(١) فراغ في الأصل، والزيادة من توضيح المقاصد ١/ ٣٠٢.

فصل

في مذهب أهل الحديث[1]

٦٤٩- والآخرون أولو الحديث كأحمد	ومحمد وأئمة الإيمان
٦٥٠- قالوا بأن الله حقا لم يزل	متكلما بمشيئة وبيان[٢]
٦٥١- إن الكلام هو الكمال فكيف يخـ	ـلو عنه في أزل بلا إمكان
٦٥٢- ويصير فيما لم يزل متكلما	ماذا اقتضاه له من الإمكان[٣]

[١] وهم النوع الثاني، القائلين إنه متعلق بالمشيئة والإرادة.

وهو أن الله لم يزل متكلما، ولا يزال كذلك، أن نوعه قديم، وآحاده محدثة تتعلق بقدرته ومشيئته، وأنه صفة قائمة به اللفظ والمعنى، وأنه من صفاته الفعلية.

فقوله: «**لم يزل متكلما**» رد على سائر الطوائف؛ من الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، والكلابية، والكرامية.

وقوله: «**ولا يزال كذلك**» رد على الجهمية، ومتأخري المعتزلة، وهو يوافق مذهب الأشاعرة والكلابية والكرامية.

وقوله: «**إن نوعه قديم وآحاده محدثة، إلخ**» رد على الاقترانية.

وقوله: «**صفة من صفاته، إلخ**» رد على الجهمية والأشاعرة والكلابية والمعتزلة.

[٢] قوله: «**لم يزل متكلما**» رد على سائر الطوائف.

[٣] قوله: «**إن الكلام، البيتين**» أي: أن في الكلام صفة كمال، فكيف يخلو الله في ما قضى من

٦٥٣- وتعاقب الكلمات أمر ثابت	للذات مثل تعاقب الأزمان[١]
٦٥٤- والله رب العرش قال حقيقة	«حم» مع «طه» بغير قران
٦٥٥- بل أحرف مترتبات مثلما	قد رتبت في مسمع الإنسان
٦٥٦- وقتان في وقت محال هكذا	حرفان أيضا يوجدا في آن
٦٥٧- مِن واحد متكلم بل يوجدا	بالرسم أو بتكلم الرجلان
٦٥٨- هذا هو المعقول أما الاقترا	ن فليس معقولا لدى الأذهان
٦٥٩- وكذا كلام مِن سوى متكلم	أيضا محال ليس في إمكان[٢]
٦٦٠- إلا لمن قام الكلام به فذا	ك كلامه المعقول في الأذهان
٦٦١- أيكون حيّ سامعا أو مبصرا	من غير ما سمع وغير عيان
٦٦٢- والسمع والإبصار قام بغيره	هذا المحال وواضح البهتان
٦٦٣- وكذا مريد والإرادة لم تكن	وصفا له هذا من الهذيان
٦٦٤- وكذا قدير ما له من قدرة	قامت به من واضح البطلان
٦٦٥- والله جل جلاله متكلم	بالنقل والمعقول والبرهان
٦٦٦- قد أجمعت رسل الإله عليه لم	ينكره من أتباعهم رجلان
٦٦٧- فكلامه حقا يقوم به وإلا	لم يكن متكلما بقران
٦٦٨- والله قال وقائل وكذا يقو	ل الحق ليس كلامه بالفاني

الأزل، ويصير فيما بعده متكلما؟! ولو قدرنا ذلك، ما السبب الذي اقتضى اتصافه به قبل إن لم يكن متصفا به.

[١] قوله: «**وتعاقب الكلمات، إلخ**» رد على الاقترانية.

[٢] قوله: «**وكذا كلام من سوى متكلم**» رد على الذين يقولون: إنه ليس قائما بالباري، ولا صفة من صفاته؛ كالجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، والكلابية.

٦٦٩- ويكلم الثقلين يوم معادهم   حقا فيسمع قوله الثقلان

٦٧٠- وكذا يكلم حزبه في جنة الـ   ـحيوان بالتسليم والرضوان

٦٧١- وكذا يكلم رسله يوم اللقا   حقا فيسألهم عن التبيان

٦٧٢- ويراجع التكليم جل جلاله   وقت الجدال له من الإنسان

٦٧٣- ويكلم الكفار في العرصات تو   بيخا وتقريعا بلا غفران

٦٧٤- ويكلم الكفار أيضا في الجحيـ   ـم أن اخسؤوا فيها بكل هوان

٦٧٥- والله قد نادى الكليم وقبله   سمع الندا في الجنة الأبوان

٦٧٦- وأتى الندا في تسع آيات له   وصفا فراجعها من القرآن[١]

٦٧٧- وكذا يكلم جبرئيل بأمره   حتى ينفذه بكل مكان

٦٧٨- واذكر حديثا في صحيح محمد   ذاك البخاري العظيم الشان

٦٧٩- فيه نداء الله يوم معادنا   بالصوت يبلغ قاصيا والداني

٦٨٠- هب أن هذا اللفظ ليس بثابت   بل ذكره مع حذفه سيان

٦٨١- ورواه عندكم البخاري المجسـ   ـم بل رواه مجسم فوقاني[٢]

٦٨٢- أيصح في عقل وفي نقل ندا   ء ليس مسموعا لنا بأذان

٦٨٣- أم أجمع العلماء والعقلاء من   أهل اللسان وأهل كل لسان

٦٨٤- أن الندا الصوت الرفيع وضده   فهو النجاء كلاهما صوتان

[١] قوله: «**في تسع آيات، إلخ**» بل أزود من التسع، كما في المنهاج(١).

[٢] قوله: «**بل رواه مجسم فوقاني**» أي: ما فوق البخاري من رواة الحديث، إلى الصحابي، إلى النبي عليه السلام.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وقد أخبر الله تعالى في القرآن بندائه لعباده في أكثر من عشرة مواضع». ثم ذكرها. انظر: منهاج السنة النبوية ٥/ ٤٢٣.

٦٨٥- والله موصوف بذاك حقيقة ... هذا الحديث ومحكم القرآن

٦٨٦- واذكر حديثا لابن مسعود صريـ ... ـحا أنه ذو أحرف ببيان

٦٨٧- للحرف منه في الجزا عشر من الـ ... ـحسنات ما فيهن من نقصان

٦٨٨- وانظر إلى السور التي افتتحت بأحـ ... ـرفها ترى سرا عظيم الشان[1]

٦٨٩- لم يأت قط بسورة إلا أتى ... في إثرها خبر عن القرآن

٦٩٠- إذ كان إخبارا به عنها وفي ... هذا الشفاء لطالب الإيمان

٦٩١- ويدل أن كلامه هو نفسها ... لا غيرها والحق ذو تبيان

٦٩٢- فانظر إلى مبدا الكتاب وبعدها الـ ... أعراف ثم كذا إلى لقمان

٦٩٣- مع تلوها أيضا ومع «حم» مع ... «يس» وافهم مقتضى القرآن

[١] قوله: «وانظر إلى السور، إلخ» حقّق المؤلف ذلك في أقسام القرآن، وفي البدائع(١).

(١) انظر: التبيان في أقسام القرآن، ص ٢٠٣، وبدائع الفوائد ٣/ ١٧٣.

فصل

في إلزامهم القول بنفي الرسالة إذا انتفت صفة الكلام

٦٩٤- والله عز وجل موص آمر   ناه منبٍّ مرسل لبيان

٦٩٥- ومخاطب ومحاسب ومنبّيء   ومحدّث ومخبّر بالشان[١]

٦٩٦- ومكلم متكلم بل قائل   ومحذر ومبشر بأمان

٦٩٧- هاد يقول الحق مرشد خلقه   بكلامه للحق والإيمان

٦٩٨- فإذا انتفت صفة الكلام فكل هـ   ـذا منتف متحقق البطلان

٦٩٩- وإذا انتفت صفة الكلام كذلك الـ   إرسال منفي بلا فرقان

٧٠٠- فرسالة المبعوث تبليغ كلا   م المرسِل الداعي بلا نقصان

٧٠١- وحقيقة الإرسال نفس خطابه   للمرسلين وإنه نوعان

٧٠٢- نوع بغير وساطة ككلامه   موسى وجبريل القريب الداني

٧٠٣- منه إليه من وراء حجابه   إذ لا تراه ههنا العينان

٧٠٤- والآخر التكليم منه بالوسا   طة وهو أيضا عنده ضربان

٧٠٥- وَحيٌ وإرسال إليه وذاك في الشـ   ـورى أتى في أحسن التبيان[٢]

---

[١] كرر الناظم «ومنبيء» مرتين، فيحتمل أن أحدهما: الأنبياء والمرسلين، والأخرى: للأخبار مطلقا.

[٢] قوله: «وذاك في الشورى، إلخ» قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن

....

وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾[1].

فالأول: الإلهام الذي يقذفه الله في قلب من شاء من عباده، وهو أخص من إلهام الرسل، كما في الحديث: «**إنّ روح القدس نفث في روعي**» الخ[2] فهو أخص من إلهام سائر الناس غير الأنبياء.

وقوله: ﴿ أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ ﴾ كموسى، وجبريل، ومحمد ليلة الإسراء.

وقوله: ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ كإرساله جبريل إلى الرسل.

---

(١) سورة الشورى، الآية:٥١.

(٢) عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته**». أخرجه أبو نعيم في الحلية، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢٠٨٥.

فصل

في إلزامهم التشبيه للرب بالجماد الناقص إذا انتفت صفة الكلام[1]

٧٠٦- وإذا انتفت صفة الكلام فضدها ... خرس وذلك غاية النقصان

٧٠٧- فلئن زعمتم أن ذلك في الذي ... هو قابل من أمة الحيوان

٧٠٨- والرب ليس بقابل صفة الكلا ... م فنفيها ما فيه من نقصان

٧٠٩- فيقال سلب كلامه وقبوله ... صفة الكلام أتم للنقصان

٧١٠- إذ أخرس الإنسان أكمل حالة ... من ذا الجماد بأوضح البرهان

٧١١- فجحدت أوصاف الكمال مخافة التـ ... التشـجسيم والتشبيه بالإنسان

٧١٢- ووقعت في تشبيهه بالجامدا ... ت الناقصات وذا من الخذلان

٧١٣- الله أكبر هُتِّكت أستاركم ... حتى غدوتم ضُحكة الصبيان

[١] وملخصه: أنكم إذا نفيتم صفة الكلام عن الله؛ لزم أن يكون أخرسا، وإن أجبتم بأن ثبوت الخرس إذا انتفى الكلام في الذي هو قابل للتكلم والخرس كالإنسان خاصة، وأما الرب فليس يقابل هذا ولا هذا، فليس في حقه صفة نقص؛ فنقول لكم: إن سلبكم إياه صفة الكلام وسلبكم أيضا قبوله للكلام أتم نقصانا وجحودا، لأن الحجر لا يقبل لا هذا ولا هذا، والإنسان الأخرس قابل للكلام، لكنه عرض له عارض فصار لا يتكلم، فمن المعلوم أن الأخرس أكمل من الجمادات، فجحدتم أوصاف الكمال مخافة تشبيهه بالإنسان، ثم شبهتموه بالجمادات.

فصل

في إلزامهم القول بأن كلام الخلق حقه وباطله هو عين كلام الله سبحانه[1]

٧١٤- أو ليس قد قام الدليل بأن أفـ ـعال العباد خليقة الرحمن

٧١٥- مِن ألف وجه أو قريب الألف يحـ ـصيها الذي يعنى بهذا الشان

٧١٦- فيكون كل كلام هذا الخلق عيـ ـن كلامه سبحان ذي السلطان

[١] **وحاصل هذا الفصل**: أنه إن أثبت أن أفعال العباد خلقها الله، فيدخل فيها أفعالهم وأقوالهم، وأنتم يا معشر الجهمية تزعمون أن كلام الله خلقه في بعض المخلوقات، فما الفرق بين قول الإنسان: قام زيد، وقراءته آية الكرسي، إذ كلاهما خلق لله، تكلم بهما هذا الرجل، فلإن زعمتم أن إضافة الله كلامه إليه في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾(١). إضافة تشريف، كإضافة بيته إليه، فنقول: إن تخصيصه البيت من سائر المخلوقات لا يمنع كونها كلها خلق له، كما أنكم تعترفون بذلك، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾(٢). و﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾(٣). فـ﴿هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ مخصص، و﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ عموم، ويلزم على هذا أن كل كلام الخلق كلام الله؛ لأنه خص كلامه بالإضافة، وشريف التخصيص لا يمنع كون كل جنس الكلام كلام لله، ولكنكم تناقضتم، وصرح أهل الاتحاد بلازم كلامكم، فطردوا المسألة حذار التناقض، فقال قائلهم(٤):

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦.

(٢) سورة النمل، الآية: ٢٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

(٤) وهو: ابن عربي. انظر: مجموع الفتاوى ٢/ ٣٥٢.

٧١٧- إذ كان منسـويا إليـه كلامـه   خـلـقـا كـبـيـت الـلـه ذي الأركـان
٧١٨- هـذا ولازم قولكـم قـد قالـه   ذو الاتـحـاد مـصـرّحـا بـبـيـان
٧١٩- حـذر التناقـض إذ تناقضتم ولـ   ـكـن طـرده فـي غـايـة الـكـفـران
٧٢٠- فلئن زعمتـم أن تخصيص القرا   ن كـبـيـتـه وكـلاهـمـا خـلـقـان
٧٢١- فيقـال ذا التخصيـص لا ينفي العمو   م كـــرب ذي الأكـــوان
٧٢٢- ويقـال رب العـرش أيضـا هكذا   تـخـصـيـصـه لإضـافـة الـقـرآن
٧٢٣- لا يمنـع التعميم في الباقي وذا   فـي غـايـة الإيـضـاح والـتـبـيـان

وكـل كـلام فـي الـوجـود كـلامـه   سـواء عـلـيـنـا نـثـره ونـظـامـه

ولكن على كلّ فأهل الاتحاد أكفر أهل الأرض المنتسبين للنبوات.

فصل

في التفريق بين الخلق والأمر

٧٢٤- ولقد أتى الفرقان بين الخلق والـ ... أمر الصريح وذاك في الفرقان[١]

٧٢٥- وكلاهما عند المنازع واحد ... والكل خلق ما هنا شيئان[٢]

٧٢٦- والعطف عندهم كعطف الفرد من ... نوع عليه وذاك في القرآن[٣]

[١] قوله: «ولقد أتى، إلخ» الفرقان الأول: الفرق، والثاني: القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾(١).

[٢] قوله: «المنازع» هم الجهمية والمعتزلة ونحوهم.

[٣] قوله: «والعطف عندهم، إلخ» أي: أن عطف الأمر على الخلق من عطف الخاص على العام، كما في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾(٢). فعطف جبريل على الملائكة من عطف الخاص على العام. فيقال لهم: هذا ممتنع؛ لأن الله أخبر -أولا- أنه خلقها، -أي: الشمس، والقمر، والنجوم-، ثم أخبر أنها مُسخّرة بأمره، وبين أن تسخيره لها بالأمر بعد أن خلقها، والأمر سواء كان مصدرًا متصفا به الباري، أو متعديا إلى المفعول، بمعنى: أن الأمر هو المأمور، فعلى كل: إن كان هو المصدر؛ فواضح، وإن كان هو المأمور؛ فلابد للمأمور من أمر، فإذا قيل: هذا مخلوق ومكتوب ومحمول ومصنوع، فلابد من خالق وكاتب وحامل وصانع، فإذا انتفى الأمر؛ انتفى المأمور، كما إذا انتفى الخلق؛ انتفى المخلوق. وهكذا الكتب والحُمل والصُّنع.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤. (٢) سورة البقرة، الآية: ٩٨.

٧٢٧- فيقال هذا ذو امتناع ظاهر	في آية التفريق ذو تبيان
٧٢٨- فالله بعد الخلق أخبر أنها	قد سخرت بالأمر للجريان
٧٢٩- وأبان عن تسخيرها سبحانه	بالأمر بعد الخلق بالتبيان
٧٣٠- والأمر إما مصدر أو كان مفـ	ـعولا هما في ذاك مستويان
٧٣١- مأموره هو قابل للأمر كالـ	ـمصنوع قابل صنعة الرحمن
٧٣٢- فإذا انتفى الأمر انتفى المأمور كالـ	ـمخلوق ينفى لانتفا الحدثان
٧٣٣- وانظر إلى نظم السياق تجد به	سرا عجيبا واضح البرهان
٧٣٤- ذكر الخصوص وبعده متقدما	والوصف والتعميم في ذا الثاني[١]
٧٣٥- فأتى بنوعي خلقه وبأمره	فعلا ووصفا موجزا ببيان
٧٣٦- فتدبر القرآن إن رمت الهدى	فالعلم تحت تدبر القرآن

[١] قوله: «**ذكر الخصوص وبعده، إلخ**» لفظة «بعده» غلط وخطأ ظاهر، وصوابها: «**وفعله**».

ومعنى ذلك: أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾(١). فذكر الخصوص الذي هو السموات والأرض، إذ ليست كل المخلوقات، بل هي بعضها، وذكر فعله، وهو قوله: ﴿خَلَقَ﴾، فذكر ذلك متقدما، أي: أولا، «و» ذكر «**الوصف والتعميم في ذا الثاني**» أي: آخرا، فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فالخلق صفة من صفاته، وهي عامة في كل مخلوق؛ السموات وغيرها، وكذلك ذكر الفعل والتخصيص والأمر في قوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾(٢).

فالتخصيص أن هذه وغيرها مسخر بأمره، ولكنه خصصها، وقوله: ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ فهو الفعل الصادر عن الأمر، وقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾. فالأمر صفة له، وهي عامة في كل مأمور مسخر، فهذا معنى قوله: «**فأتى بنوعي خلقه وبأمره، إلخ**».

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤. (٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

فصل

في التفريق بين ما يضاف إلى الرب تعالى من الأوصاف والأعيان

٧٣٧- والله أخبر في الكتاب بأنه ... منه ومجرور، بمِن نوعان[١]

٧٣٨- عين ووصف قائم بالغير فالـ ... أعيان خلق الخالق الرحمن

٧٣٩- والوصف بالمجرور قام لأنه ... أولى به في عرف كل لسان

[١] قوله: «بأنه» أي: الكتاب والقرآن «منه ومجرور بـ[من]، إلخ» المراد بالجر هنا المجرور المعنوي، الذي يصدق على ما بعد من وما قبلها الخ.

والمعنى: أن الذي يتعدى إلى الله ويضاف إليه بواسطة «من» نوعان: أعيان وأوصاف، فالأول مخلوق، ولا يدل على تشريف ولا اختصاص، فقد يكون كذلك، وقد لا يكون كذلك، فالأول: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾(١). والثاني: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾(٢). وأما الأوصاف فهي قائمة بالله، أي: متصف بها.

هذه قاعدة.

والقاعدة الثانية: أن ما يضاف إلى الله؛ إما أن يكون إضافة أعيان، أو أوصاف، فالأول: يدل على أنه مخلوق لله، مختص به، أي: على التخصيص والتشريف، كما في: بيت الله، وناقة الله، وعبد الله. والثاني: صفة قائمة به، متصف بها، ومن ذلك: كلامه، لأنه هو بيت القصيد.

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١. (٢) سورة الجاثية، الآية:١٣.

٧٤٠- ونظيـر ذا أيضـا سـواء مـا يضا ... ف إلـيـه مـن صـفـة ومـن أعـيـان
٧٤١- فإضافـة الأوصـاف ثابتـة لمـن ... قـامـت بـه كــإرادة الـرحـمـن
٧٤٢- وإضافـة الأعيـان ثابتـة لـه ... مِـلـكـا وخـلـقـا مـا هـمـا سـيـان
٧٤٣- فانظـر إلـى بيـت الإلـه وعلمه ... لـمّـا أضـيـفـا كـيـف يـفـتـرقـان
٧٤٤- وكلامــه كحياتــه وكعلمــه ... فـي ذي الإضـافـة إذ هما وصفان
٧٤٥- لكــن ناقتــه وبيــت إلهنا ... فـكـعـبـده أيـضـا هـمـا ذاتـان
٧٤٦- فانظر إلى الجهمـي لما فاته الـ ... ـحق المـبـيـن وواضـح الـفـرقـان
٧٤٧- كان الجميـع لديـه بابـا واحـدا ... والـصـبـح لاح لـمـن لـه عـيـنـان



فصل

في مذهب ابن حزم

٧٤٨- وأتى ابن حزم بعد ذلك فقال ما ... للناس قرآن ولا إثنان[١]

٧٤٩- بل أربع كل يسمى بالقرا ... ن وذاك قول بين البطلان

٧٥٠- هذا الذي يتلى وآخر ثابت ... في الرسم يدعى بالمصحف العثماني

٧٥١- والثالث المحفوظ بين صدورنا ... هذي الثلاث خليقة الرحمن

٧٥٢- والرابع المعنى القديم كعلمه ... كلٌّ يُعبر عنه بالقرآن

٧٥٣- وأظنه قد رام شيئا لم يجد ... عنه عبارةَ ناطق ببيان[٢]

٧٥٤- إن المُعيّن ذو مراتب أربع ... عُقلت فلا تخفى على إنسان

٧٥٥- في العَين ثم الذهن ثم اللفظ ثم ... الرسم حين تخطه ببنان

٧٥٦- وعلى الجميع الاسم يصدق لكن الـ ... أولى به الموجود في الأعيان

٧٥٧- بخلاف قول ابن الخطيب فإنه ... قد قال إن الوضع للأذهان[٣]

---

[١] قوله: «وأتى ابن حزم، إلخ» قد تقدم الكلام على مراتب وجود المعين في مذهب الاقترانية، فارجع إليه(١)، والأولى جعله في هذا المحل.

[٢] معناه: أنه أراد هذا المعنى، ولم يحسن يعبر عنه عبارة واضحة.

[٣] وأما وجوده الخارجي: فهو إن كان عينا؛ فوجود صورتها ظاهر، وإن كان صفة وقيامها

---

(١) انظر: ص٦٧٢.

٧٥٨- فالشـيء شـيء واحـد لا أربـع ... فـدهـى ابـنَ حـزم قـلـة الـفـرقـان

٧٥٩- والله أخبـر أنـه سـبحانه ... مـتـكـلـم بـالـوحـي والـفـرقـان[١]

٧٦٠- وكـذاك أخبرنـا بـأن كلامـه ... بـصـدور أهـل الـعـلـم والإيـمـان

٧٦١- وكـذاك أخبـر أنـه المكتوب في ... صـحـف مـطـهـرة مـن الـشـيـطـان

٧٦٢- وكـذاك أخبـر أنـه المتلـو والـ ... ـمـقـروء عـنـد تـلاوة الإنـسـان

٧٦٣- والـكل شـيء واحـد لا أنـه ... هـو أربـع وثـلاثـة واثـنـان

٧٦٤- وتـلاوة الـقـرآن أفعـال لنـا ... وكـذا الـكـتـابـة فـهـي خـط بـنـان

٧٦٥- لكنمـا المتلـو والمكتوب والـ ... ـمحفـوظ قـول الـواحـد المنان

٧٦٦- والعبـد يقـرؤه بصـوت طيـب ... وبـضـده فـهُـمـا لـه صـوتـان

٧٦٧- وكـذاك يكتبـه بخـط جيـد ... وبـضـده فـهـمـا لـه خـطـان

٧٦٨- أصواتنـا ومدادنـا وأداتنـا ... والـرق ثـم كـتـابـة الـقـرآن

٧٦٩- ولقـد أتـى في نظمه مـن قال قو ... ل الحـق والإنصاف غيـر جبان[٢]

بموصوفها هو وجودها الخارجي. ثم اختلفوا في أي هذه الأربع أولى وأقرب وأخص بالمسمى؟ فقال الجمهور ومنهم ابن حزم: إنه الوجود الخارجي، وخالف في ذلك الفخر الرازي، وهو «ابن الخطيب» فقال: إنه الوجود الذهني، لأنه أول الشيء ومبدأه.

[١] ثم ذكر المصنف الاستدلال من القرآن بأن كل الأربعة شيء واحد، فذكر -أولا- الوجود الخارجي، ثم الذهني، ثم الرسمي، ثم اللفظي، وقد تضمنت سورة القلم هذه المراتب الأربعة.

[٢] البيت منكسر بجميع النسخ التي وقفت عليها، وصواب وزنه ومعناه أن يقال:

ولـقـد أتـى فـي نظمه مـن قـال قو ... ل الحق أيضا وهـو غير جبان

أو يجعل بدل «أيضا»: «صدقا» ونحوها. ومراده بذلك: القحطاني، مع أن للصرصري كلاما هذا معناه، ولكن الأولى الأول.

٧٧٠- (إن الذي هو في المصاحف مثبت ... بأنامل الأشياخ والشبان
٧٧١- هو قول ربي آيه وحروفه ... ومدادنا والرق مخلوقان)
٧٧٢- فشفى وفرق بين متلو ومصـ ... ـنوع وذاك حقيقة العرفان
٧٧٣- الكل مخلوق وليس كلامه الـ ... ـمتلو مخلوقا هما شيئان
٧٧٤- فعليك بالتفصيل والتمييز فالإ ... طلاق والإجمال دون بيان
٧٧٥- قد أفسدا هذا الوجود وخبطا الـ ... أذهان والآراء كل زمان
٧٧٦- وتلاوة القرآن في تعريفها ... باللام قد يعنى بها شيئان
٧٧٧- يعنى به المتلو فهو كلامه ... هو غير مخلوق كذي الأكوان
٧٧٨- ويراد أفعال العباد كصوتهم ... وأدائهم وكلاهما خلقان
٧٧٩- هذا الذي نصت عليه أئمة الـ ... إسلام أهل العلم والعرفان
٧٨٠- وهو الذي قصد البخاري الرضا ... لكن تقاصر قاصر الأذهان
٧٨١- عن فهمه كتقاصر الأفهام عن ... قول الإمام الأعظم الشيباني
٧٨٢- في اللفظ لما أن نفى الضدين عنـ ... ـه واهتدى للنفي ذو عرفان
٧٨٣- فاللفظ يصلح مصدرا هو فعلنا ... كتلفظ بتلاوة القرآن
٧٨٤- وكذاك يصلح نفسَ ملفوظ به ... وهو القُران فذان محتمَلان
٧٨٥- فلذاك أنكر أحمد الإطلاق في ... نفي وإثبات بلا فرقان

ثم ذكر المؤلف مبحثا نفيسا جدا، أشكل على بعض السلف وكثير من المبتدعة، حتى صار فيه خوض كثير، وامتحن به جملة من علماء السلف، وذكرها هنا لمناسبة قريبة، وهي: مسألة التلاوة واللفظ، فقال:

«وتلاوة القرآن، إلخ» وحاصل ذلك: أن التلاوة واللفظ تحتمل معنيين: فإن أريد بها المتلو والملفوظ؛ فهو كلام الباري، غير مخلوق، بل هو صفة من صفاته، منه بدأ، وإليه يعود. وإن أريد:

....

المصدر، وهو نفس التلاوة ونفس اللفظ؛ فهي فعل للعبد، وصفة من صفاته، فهي مخلوقة، وكذلك الكتابة، والصوت، والمداد، وأدوات الكتب؛ من قلم ورق، فكل ذلك مخلوق.

قوله: «**عليك بالتفصيل، إلخ**» وهذا كلام نفيس، لأن أكثر الاختلاف الواقع بين المسلمين المريدين للحق والإنصاف، ما حصل بينهم التفرق والتخالف إلا بسبب إجمال بعض الألفاظ التي يفهم منها معنيان متناقضان، كما في التلاوة واللفظ، فإنه يحتمل أن المراد به المصدر وهو فعل القارئ، ويحتمل أن المراد به المتلو الذي هو كلام الباري، فإذا قيل: اللفظ مخلوق؛ كان خطأ، أو: غير مخلوق؛ كان خطأ أيضا، فالصواب التفصيل، فيقال: إن أريد باللفظ فعل العبد فهو مخلوق، وإن أريد به المتلو والملفوظ فهو كلام الله، وعلى ذلك نص الأئمة؛ كأحمد، والبخاري، فإن البخاري لما قدم نيسابور حصل له أخيرا امتحان من جهة اللفظ، ففصل هذا التفصيل، فأنكر عليه محمد بن يحيى الذهلي[1]، والصواب مع البخاري بلا شك، مع أن الذهلي من علماء السلف، وكل من الذهلي والبخاري يحتج ويستدل بقول الإمام أحمد، وللمسألة قصة وقعت بين الذهلي والبخاري مذكورة في مواضعها، منها: في آخر مقدمة فتح الباري[2] وغيرها. ولما حصل ما حصل؛ انحاز بعض العلماء إلى البخاري، وأخذ بقوله، كمسلم وغيره، حتى إنه رد على الذهلي أحاديث كثيرة كان قد رواها عن الذهلي، ولكن الإمام البخاري يروي عن الذهلي في صحيحه، فإذا قال: حدثنا محمد بن [عبد الله][3] فهو الذهلي، ينسبه لجده.

وكذلك قال الإمام أحمد: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق فهو مبتدع. لأن الأول طريق قريب إلى إدخال التجهم على الناس، والثاني لم يرد عن السلف فهو مبتدع، وكأنه رحمه الله أخذ ذلك من الآية، وهي قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

(١) انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢٧٣.

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر ١/ ٤٩٠.

(٣) فراغ في الأصل. وانظر: سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢٧٥.

....

لَا تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾[1]. فنهاهم الله من قول: ﴿ رَاعِنَا ﴾، لحيث إنها تحتمل معنيين: أحدهما: الرعونة، وهي الحماقة، والثانية: النظر. فأرشدهم إلى الأمر الظاهر الواضح، الذي لا يحتمل إلا الشيء الواضح.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٤.

فصل

في كلام الفلاسفة والقرامطة في كلام الرب جل جلاله[1]

٧٨٦- وأتى ابن سينا القرمطي مصانعا   للمسلمين بإفك ذي بهتان

٧٨٧- فرآه فيضا فاض من عقل هو الـ   ـفعال علة هذه الأكوان[2]

٧٨٨- حتى تلقاه زكي فاضل   حسن التخيل جيد التبيان

٧٨٩- فأتى به للعالمين خَطابة   ومواعظا عَريت عن البرهان[3]

---

[١] أصل الفلسفة: الحكمة، والفيلسوف: الحكيم، أو مدعي الحكمة. والقرمطة: نسبة لكبيرهم، ويسمى بذلك لأن وجهه مقروط، والقرمطة: تفريق العجين، يقال: قرمط العجين، أي: فرقه.

[٢] قوله: «**فرآه**» أي: الكلام أو القرآن. وذلك أن هذا الحزب الخبيث الملعون ينكرون الباري، ويدعون أن العالم قديم، وأن الفلك التاسع المحيط بالأفلاك هو الذي أوجد الثامن الذي تحته، وكل فلك منها أوجد ما بعده، حتى صار آخرها فلك القمر وهو السماء الدنيا، فكل ما تحت أديم السماء الدنيا فهو الذي أحدثه، وذلك معنى قوله: «**علة هذه الأكوان**» ويسمى عندهم: العقل الفعال.

ومعنى ذلك: أن القرآن فاض فيضا من فلك القمر «**حتى تلقاه**» وفهمه «**زكي فاضل حسن التخيل**» أي أن وهمه وفكره وخياله قوي، يدرك الأشياء، ويحسن أن يعبر عنها، وهذا معنى قوله: «**جيد التبيان**» وهو النبي ﷺ.

[٣] قوله: «**عريت عن البرهان**» أي: أنها دعاوى بلا دليل.

٧٩٠- ما صرحت أخباره بالحق بل ... رمزت إليه إشارة لمعان[١]

٧٩١- وخطاب هذا الخلق والجمهور بالـ ... ـحق الصريح فغير ذي إمكان

٧٩٢- لا يقبلون حقائق المعقول إلا ... في مثال الحس والأعيان

٧٩٣- ومشارب العقلاء لا يَرِدونها ... إلا إذا وُضعت لهم بأوان

٧٩٤- من جنس ما ألفت طباعهم من الـ ... ـمحسوس في ذا العالم الجثمان

٧٩٥- فأتوا بتشبيه وتمثيل وتجـ ... ـسيم وتخييل إلى الأذهان

٧٩٦- ولذاك يحرم عندهم تأويله ... لكنه حِل لذي العرفان

٧٩٧- فإذا تأولناه كان جناية ... منا وخرق سياج ذا البستان

٧٩٨- لكن حقيقة قولهم أن قد أتوا ... بالكذب فيه مصالح الإنسان[٢]

٧٩٩- والفيلسوف وذا الرسول لديهم ... متفاوتان وما هما عِدلان

٨٠٠- أما الرسول ففيلسوف عوامهم ... والفيلسوف نبي ذي البرهان[٣]

٨٠١- والحق عندهم ففيما قاله ... أتباع صاحب منطق اليونان

[١] قوله: «ما صرحت، إلخ» أي: أن الرسل ما صرحت أخبارهم بالحقيقة، وإنما يأتون بإشارات ورموز تدل على المعاني، لأن التصريح بالأمر على حقيقته لا يمكن أن يخاطب به العامة، ولو خوطبوا به ما فهموه، بل لابد لهم من ضرب الأمثال بالأمور الحسية، كما أن الماء لا يمكن أن يشرب منه أحد إلا وقد جعل بآنية ليتمكنوا منه، فلذلك جاء الرسل بتشبيه وتمثيل وتخييل، لأجل [أن] يفهم العامة بعض ذلك، ولذلك يحرم عند الفلاسفة تأويل القرآن لعامة الناس، وأما علماؤهم وأهل المعرفة فحلال لهم ذلك.

[٢] وحقيقة قولهم: أن الرسل قد جاؤوا بكذب، ولكنه جائز لأجل مصالح الناس.

[٣] والفيلسوف عندهم أخص من الرسول، لأن الرسول نبي عوام، والفيلسوف نبي الخواص أهل البرهان، والحق عندهم ما جاءت به اليونان، لا ما جاء به القرآن.

٨٠٢- ومضى على هذي المقالة أمة   خلف ابن سينا فاغتذوا بلبان

٨٠٣- منهم نصير الكفر في أصحابه   الناصرين لملة الشيطان

٨٠٤- فأسأل بهم ذا خبرة تلقاهم   أعداءَ كل موحد رباني

٨٠٥- وأسأل بهم ذا خبرة تلقاهم   أعداء رسل الله والقرآن

٨٠٦- صوفيهم عبْدُ الوجود المطلق الـ   ـمعدوم عند العقل في الأعيان[١]

٨٠٧- أو ملحد بالاتحاد يدين لا التـ   ـوحيد منسلخ من الأديان

٨٠٨- معبوده موطوؤه فيه يَرى   وصفَ الجمال ومَظهرَ الإحسان

٨٠٩- الله أكبر كم على ذا المذهب الـ   ـملعون بين الناس مِن شِيخان

٨١٠- يبغون منهم دعوة ويقبّلو   ن أياديا منهم رجا الغفران

٨١١- ولو انهم عرفوا حقيقة أمرهم   رجموهم لا شك بالصَّوَّان

٨١٢- فابذر لهم إن كنت تبغي كشفهم   وافرش لهم كفًّا من الأتبان

٨١٣- واظهر بمظهر قابل منهم ولا   تظهر بمظهر صاحب النكران

٨١٤- وانظر إلى أنهار كفر فُجِّرت   وتهمّ لولا السيف بالجريان

---

[١] قوله: «**الوجود المطلق**» وذلك لأن الوجود قسمان:

قسم واجب الوجود، وهو الله وأسماؤه وصفاته فقط، فهذا الذي يعبده معشر السلف.

والقسم الثاني: ممكن الوجود، فهو كل ما عدا الله من الموجودات، فهو كان معدوما، ثم حدث وجوده، فوجوده ممكن، وعدمه ممكن، فالاتحادية يجعلون الكل وجودا مطلقا، فليس عندهم واجب الوجود أو ممكنه، فهم يعبدون الوجود المطلق.

وينبغي أن يجعل هذا البيان عند أول فصل في قدوم ركب الاتحادية.



فصل

في مقالات طوائف الاتحادية في كلام الرب جل جلاله

٨١٥- وأتت طوائف الاتحاد بملة ... طمّت على ما قال كل لسان[١]

٨١٦- قالوا كلام الله كل كلام هـ ... ـذا الخلق من جن ومن إنسان

٨١٧- نظما ونثرا زُوره وصحيحُه ... صدقا وكذبا واضح البطلان

٨١٨- فالسب والشتم القبيح وقذفهم ... للمحصنات وكل نوع أغان

٨١٩- والنوح والتعزيم والسحر المبيـ ... ـن وسائر البهتان والهذيان[٢]

٨٢٠- هو عين قول الله جل جلاله ... وكلامه حقا بلا نكران

٨٢١- هذا الذي أدى إليه أصلهم ... وعليه قام مكسّح البنيان

٨٢٢- إذ أصلهم أن الإله حقيقة ... عينُ الوجود وعينُ ذي الأكوان

٨٢٣- فكلامها وصفاتها هو قوله ... وصفاته ما ههنا قولان

٨٢٤- ولذاك قالوا إنه الموصوف بالضـ ... ـدين من قبح ومن إحسان[٣]

---

[١] قوله: «طمت» طم الشيء: كثر، حتى علا وغلب.

[٢] «التعزيم» هو الذي يعزم به على الجن ونحوهم.

وحاصل قولهم يُعلم مما تقدم في مذهبهم في الباري أنه الوجود المطلق، فكل موجود عندهم فهو الله، فإذا عُلم هذا عُلم أن كل كلام في الوجود فهو كلام الله، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

[٣] قوله: «الموصوف بالضدين» وقد صرح بذلك ابن عربي في الفصوص، فلم يُعرّض أو يكنّ.

٨٢٥- ولذاك قد وصفوه أيضا بالكما ... ل وضده من سائر النقصان

٨٢٦- هذي مقالات الطوائف كلها ... حملت إليك رخيصة الأثمان[١]

٨٢٧- وأظن لو فتشت كتب الناس ما ... ألفيتها أبدا بذا التبيان

٨٢٨- زفت إليك فإن يكن لك ناظر ... أبصرت ذات الحسن والإحسان

٨٢٩- فاعطف على الجهمية المُغل الألى ... خرقوا سياج العقل والقرآن[٢]

٨٣٠- شرّد بهم من خلفهم واكسرهم ... بل ناد في ناديهم بأذان[٣]

[١] قوله: «**هذي مقالات الطوائف، إلخ**» فرحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عنّا على قيامه بنصرة دينه، ومكافحة أعدائه، وقيامه بنحورهم، وتبيينه لمقالاتهم الشنيعة ومذاهبهم القبيحة، أفضل ما جازى عباده الصالحين، فقد صدق وبرّ، فلو فتشت جميع كتب الدنيا ما ظفرت بما ذكر المؤلف؛ من جمع، وبسط، وتفصيل، وتوضيح.

[٢] قوله: «**فاعطف على الجهمية، إلخ**» لما كانوا هم المقصود في الرد والمصادمة، وذكر مذهبهم في الكلام؛ استطرد، فذكر مذاهب الناس فيه، ولما فرغ من ذلك عطف بالكلام على مقالاتهم الشنيعة.

قوله: «**المغل**» أي: صاحب الغل والخيانة على المسلمين، وهو معنى قول العامة: «النغل» فصحفوه.

قوله: «**خرقوا سياج العقل والقرآن**» والسياج: السور والحائط والحضار ونحوها. وتقدم في الفصل الثالث عشر، في قدوم ركب الفلاسفة(١).

[٣] قوله: «**شرد بهم من خلفهم**» أي: اجعلهم عبرة لمن يأتي بعدهم، فنكّل بهم غيرهم.

قوله: «**بل ناد في ناديهم بأذان**» والنادي: المجلس، والأذان: الإعلام.

---

(١) انظر: ص٦٤٦.

٨٣١- أفسدتم المعقول والمنقول والـ ـمسموع من لغة بكل لسان[١]

٨٣٢- أيصح وصف الشيء بالمشتق للـ ـمسلوب معناه لدى الأذهان

٨٣٣- أيصح صبّار ولا صبرٌ له ويصح شكّار بلا شكران

٨٣٤- ويصح علّام ولا علمٌ له ويصح غفّار بلا غفران

٨٣٥- ويقال هذا سامع أو مبصر والسمع والإبصار مفقودان

٨٣٦- هذا محال في العقول وفي النقو ل وفي اللغات وغير ذي إمكان

٨٣٧- فلئن زعمتم أنه متكلم لكن بقول قام بالإنسان

٨٣٨- أو غيره فيقال هذا باطل وعليكم في ذاك محذوران

٨٣٩- نفي اشتقاق اللفظ للموجود معـ ـناه به وثبوته للثاني

٨٤٠- أعني الذي ما قام معناه به قلب الحقائق أقبح البهتان

٨٤١- ونظير ذا أخوان هذا مبصر وأخوه معدود مِن العميان

٨٤٢- سميتم الأعمى بصيرا إذ أخو ه مبصر وبعكسه في الثاني

٨٤٣- فلئن زعمتم أن ذلك ثابت في فعله كالخلق للأكوان[٢]

---

[١] قوله: «**أفسدتم المعقول، إلخ**» قد التزم شيخ الإسلام أن ما من مبطل يستدل بآية من القرآن أو حديث صحيح على مذهبه، إلا وينقضه الشيخ بهذه الآية أو الحديث، وفعل ذلك مرارا، ثم التزم أن ما معقول صريح يستدل به على بدعة، إلا وينقضه الشيخ بهذا المعقول المستدل به، وبين ذلك في: «العقل والنقل»، وغيره من كتبه.

[٢] قوله: «**فلئن زعمتم أن ذلك ثابت، إلخ**» الإشارة تعود على قوله: «**أيصح وصف الشيء**» الخ البيت المتقدم، وهذا إيراد أورده المصنف على لسان الجهمية من هذا البيت إلى تمام ١٩ بيتا، آخرها قوله: «**وارفوا مذاهبكم، إلخ**».

وحاصل ذلك: أن عند الجهمية أن صفات الأفعال لا يتصف بها الباري، بل عندهم الفعل عين

٨٤٤- والفعل ليس بقائم بإلهنا	إذ لا يكون محل ذي حدثان
٨٤٥- ويصح أن يشتق منه خالق	فكذلك المتكلم الوحداني
٨٤٦- هو فاعل لكلامه وكتابه	ليس الكلام له بوصف معان
٨٤٧- ومخالف المعقول والمنقول والـ	ـفِطرات والمسموع للإنسان
٨٤٨- من قال إن كلامه سبحانه	وصف قديم أحرفا ومعاني
٨٤٩- والسين عند الباء ليست بعدها	لكن هما حرفان مقترنان
٨٥٠- أو قال إن كلامه سبحانه	معنى قديم قام بالرحمن
٨٥١- ما إن له كل ولا بعض ولا الـ	ـعربي حقيقته ولا العبراني

المفعول، والخلق عين المخلوق، فهم يؤمنون بالاسم كالخالق، وبالأثر كالمخلوق، ولا يؤمنون بالصفة، فلا يقولون: إنه متصف بالخلق، فهم يقولون: إن الكلام مثل صفات الأفعال، بل هو منها، فيؤمنون أن اسمه المتكلم، ولكن لا يتصف بالكلام، بل يقولون إنه خلق الكلام في غيره.

ثم إنهم أرادوا تحقيق مذهبهم بالرد على من خالفهم من المبتدعة، فذكروا مذهب الاقترانية ومذهب الأشاعرة والكلابية، وقالوا: إنه مخالف للعقل والنقل والفطرات. وأما نحن -يا معاشر الجهمية- فنحن أقرب إلى النقل والعقل والفطرة، فمذهبنا أن كلام الله «**ذو أحرف قد رتبت ببيان، وكلامه بمشيئة وإرادة كالفعل، إلخ**».

فقولهم: «ذو أحرف»، رد على الكلابية والأشاعرة، فإن مذهبهم أنه معنى قديم. وقولهم: «قد رتبت» رد على الاقترانية. وقولهم: «بمشيئة وإرادة» رد على الاقترانية وعلى الكلابية والأشاعرة. وأيضا قوله: «**فلأي شيء قلتم، إلخ**» الخطاب للاقترانية والأشاعرة.

قال الناظم رحمه الله: « **إحداهما، إلخ**» انظر كيف لم يذكر الأصل الثاني كما ذكره في الفصل السادس عشر، في مجامع طرق أهل الأرض واختلافهم في كلام الرب جل جلاله، فلعله اكتفاء بما هناك، أو سهوا.

٨٥٢- والأمـر عيـن النهي واستفهامه ... هـو عيـن أخبـار بـلا فـرقـان

٨٥٣- وكلامـه كحياتـه مـا ذاك مقـ ... ـدورا لـه بـل لازم الـرحـمـن

٨٥٤- هذا الذي قد خالف المعقول والـ ... ـمنقـول والـفِـطـرات لـلإنسـان

٨٥٥- أمـا الـذي قـد قـال إن كلامـه ... ذو أحـرف قـد رتـبـت بـبـيـان

٨٥٦- وكلامـه بمشـيئة وإرادة ... كـالـفـعـل مـنـه كـلاهـمـا سـيـان

٨٥٧- فهـو الذي قد قال قـولا يعلم الـ ... ـعـقـلاء صـحـتـه بـلا نـكـران

٨٥٨- فـلأي شـيء كان مـا قـد قلتم ... أولـى وأقـرب مـنـه لـلـبـرهـان

٨٥٩- ولأي شـيء دائـمـا كفّرتـم ... أصـحـابَ هـذا الـقـول بـالـعـدوان

٨٦٠- فدعوا الدعاويَ وابحثوا معنا بتحـ ... ـقـيـق وإنـصـاف بـلا عـدوان

٨٦١- وارفـوا مذاهبكم وسـدّوا خرقها ... إن كـان ذاك الـرّفـو فـي الإمـكـان

٨٦٢- فاحكـم هـداك الله بينهـم فقد ... أدلـوا إلـيـك بـحـجـة وبـيـان

٨٦٣- لا تنصـرن سـوى الحديث وأهله ... هـم عـسـكـر الـقـرآن والإيـمـان

٨٦٤- وتحيـزنّ إليهـم لا غيرهـم ... لـتـكـون مـنـصـورا لـدى الـرحـمـن

٨٦٥- فتقـول هـذا القدر قـد أعيا على ... أهـل الـكـلام وقـادَةُ أصـلان

٨٦٦- إحداهمـا هـل فِعلُـه مفعولُـه ... أو غـيـرُه فـهـمـا لـهـم قـولان

٨٦٧- والقائلـون بأنـه هـو عينُـه ... فـرّوا مـن الأوصـاف بـالـحِـدْثـان[1]

٨٦٨- لكـنْ حقيقـةُ قولهـم وصريحُـه ... تـعـطـيـل خـالـق هـذه الأكـوان

٨٦٩- عـن فِعلـه إذ فِعلـه مَفعولـه ... لـكـنـه مـا قـام بـالـرحـمـن

٨٧٠- فعلـى الحقيقة ما لـه فعل إذ الـ ... ـمـفـعـول مـنـفـصـل عـن الـدّيـان

[1] هم الجهمية، وكذلك الكلابية والأشاعرة في ما عدا السبع الصفات.

٨٧١- والقائلون بأنه غيرٌ له ... متنازعون وهُم فطائفتان[١]

٨٧٢- إحداهما قالت قديم قائم ... بالذات وهو كقدرة المنان

٨٧٣- سمّوه تكوينا قديما قاله ... أتباع شيخِ العالَم النّعمان

٨٧٤- وخصومهم لم ينصفوا في رده ... بل كابروهم ما أتوا ببيان[٢]

٨٧٥- والآخرون رأوه أمرا حادثا ... بالذات قام وإنهم نوعان[٣]

٨٧٦- إحداهما جعلته مفتتَحا به ... حذَرَ التسلسل ليس ذا إمكان

٨٧٧- هذا الذي قالته كرّامية ... ففعاله وكلامه سيّان

٨٧٨- والآخرون أولو الحديث كأحمد ... ذاك ابن حنبلِ الرّضا الشيباني[٤]

٨٧٩- قد قال إن الله حقا لم يزل ... متكلما إن شاء ذو إحسان

٨٨٠- جعل الكلام صفات فعل قائم ... بالذات لم يُفقد مِن الرحمن

---

[١] إحداهما الماتريدية، الذين يقولون: إنه قديم قائم بالذات، لم يتعلق بالقدرة والمشيئة، فهو نظير قول الأشعرية في الكلام. وقد أخطأ الماتريدية من وجه، وأصابوا من وجه آخر، فأصابوا في كونه متصف به، وأخطئوا بكونه لم يتعلق بالقدرة والمشيئة. والماتريدية: أتباع أبي منصور الماتريدي من علماء الحنفية، والغالب أن الأحناف ماتريدية.

[٢] قوله: «**وخصومهم، إلخ**» هم الأشاعرة والكلابية، لأنهم أنكروا عليهم ذلك، وهم قد قالوا مثل قولهم في الكلام سواء بسواء، فلذلك كابروهم.

[٣] قوله: «**والآخرون، إلخ**» أي: من القائلين بأن الفعل غير المفعول، وهم أيضا قسمان: الكرامية القائلون بأن نوعه حادث مفتتح به، والذي حملهم على هذا حذر التسلسل في الزمن الماضي، وهو عندهم «**ليس ذا إمكان**».

[٤] قوله: «**والآخرون**» أي: من القسم الثاني القائلين أنه أمر حادث.

٨٨١- وكذاك نص على دوام الفعل بالـ ... إحسان أيضا في مكان ثان[١]

٨٨٢- وكذا ابن عباس فراجِع قوله ... لما أجاب مسائل القرآن[٢]

٨٨٣- وكذاك جعفرٌ الإمام الصادق الـ ... ـمقبول عند الخلق ذو العرفان

٨٨٤- قد قال لم يزل المهيمن محسنا ... برّا جوادا عند كل أوان

٨٨٥- وكذا الإمام الدارمي فإنه ... قد قال ما فيه هدى الحيران[٣]

٨٨٦- قال الحياة مع الفعال كلاهما ... متلازمان فليس يفترقان

٨٨٧- صدق الإمام فكل حي فهو فعّـ ... ـال وذا في غاية التبيان

٨٨٨- إلا إذا ما كان ثَمّ موانع ... من آفة أو قاسر الحيوان[٤]

٨٨٩- والرب ليس لفعله من مانع ... ما شاء كان بقدرة الديان

٨٩٠- ومشيئة الرحمن لازمة له ... وكذاك قدرة ربنا الرحمن[٥]

٨٩١- هذا وقد فطر الإله عباده ... أن المهيمن دائم الإحسان

---

[١] أي: نص على دوام الكلام ودوام الفعل.

[٢] أي: لما سأله الرجل نافع بن الأزرق الخارجي، فقال: إني أجد في القرآن تناقضا، وإني أجد قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٩٦﴾[(١)]. مثلا، فكان تقتضي الحدوث. الخ[(٢)].

[٣] قوله: «**الدارمي**» هو: عثمان بن سعيد، صاحب الرد على المريسي[(٣)].

[٤] قوله: «**من آفة**» كالخرس، أو مرض، ونحوه «**أو قاسر الحيوان**» كما إذا كتّف، فلم يقدر على الحركة والفعل.

[٥] أي: فهما من صفات الذات التي لا ينفك عنها الباري.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير. وانظر: عمدة القاري، للعيني ١٩/ ١٥٠.

(٣) انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣١٩.

٨٩٢- أو لست تسمع قول كل موحد ... يا دائم المعروف والسلطان
٨٩٣- وقديم الاحسان الكثير ودائم الـ ... ـجود العظيم وصاحبَ الغفران
٨٩٤- من غير إنكار عليهم فطرة ... فطروا عليها لا تواص ثان[١]
٨٩٥- أو ليس فِعلُ الرب تابعَ وصفه ... وكماله أفذاك ذو حِدثان[٢]
٨٩٦- وكماله سبب الفعال وخلقه ... أفعالهم سبب الكمال الثاني[٣]
٨٩٧- أوَ ما فعال الرب عينَ كماله ... أفذاك ممتنع عن المنان
٨٩٨- أزلا إلى أن صار فيما لم يزل ... متمكنا والفعل ذو إمكان
٨٩٩- تالله قد ضلت عقول القوم إذ ... قالوا بهذا القول ذي البطلان
٩٠٠- ماذا الذي أضحى له متجددا ... حتى تمكن فانطقوا ببيان
٩٠١- والرب ليس معطَّلا عن فعله ... بل كل يوم ربنا في شان

[١] قوله: «**لا تواصي ثان**» قد تقدم لك تفسيره في الفصل الثالث عشر، في قدوم ركب الفلاسفة[(١)].

[٢] قوله: «**أو ليس فعل الرب تابع وصفه وكماله**» بخلاف العبد، فإن وصفه وكماله تابع لفعله. «**أفذاك ذو حدثان**» أي: فالكمال والوصف حادث؟

[٣] قوله: «**وكماله سبب الفعال**» أي: فالرب كمل ففعل، وغيره فعل فكمل.

«**وخلقه أفعالهم سبب الكمال الثاني**» أي: بدليل أنه خلقها محكمة مدبرة، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[(٢)]. فله الكمال القديم الذي ما زال متصفا به، ولا يزال كذلك، وله أيضا كمال ثاني، وهو خلقه الأشياء، وتدبيره صفتها، وخلقه أفعال الحيوانات على اختلاف أنواعها، وكونها بحكمة وإتقان، فسبحان الله.

(١) انظر ص
(٢) سورة النمل، الآية: ٨٨.

٩٠٢- والأمـر والتكويـن وصـفُ كماله ... مـا فَـقـدُ ذا ووجـوده سيـان

٩٠٣- وتخلـف التأثيـر بعـد تمـام مو ... جبه محال ليس في الإمكان

٩٠٤- والله ربي لم يزل ذا قدرة ... ومشيئة ويليهما وصفان[١]

٩٠٥- العلم معْ وصف الحياة وهذه ... أوصافُ ذات الخالق المنان

٩٠٦- وبها تمام الفعل ليس بدونها ... فعل يتم بواضح البرهان

٩٠٧- فلأي شيء قد تأخر فعله ... مع موجبٍ قد تمّ بالأركان

٩٠٨- ما كان ممتنعا عليه الفعل بل ... ما زال فعل الله ذا إمكان

٩٠٩- والله عاب المشركين بأنهم ... عبدوا الحجارة في رضا الشيطان

٩١٠- ونعى عليهم كونها ليست بخا ... لقة وليست ذات نطق بيان

٩١١- فأبان أن الفعل والتكليم من ... أوثانهم لا شك مفقودان

٩١٢- وإذا هما فقدا فما مسلوبها ... بإله حق وهو ذو بطلان

٩١٣- والله فهو إله حق دائما ... أفعنه ذا الوصفان مسلوبان

٩١٤- أزلا وليس لفقدها من غاية ... هذا المحال وأعظم البطلان

٩١٥- إن كان رب العرش حقا لم يزل ... أبدا إله الحق ذا سلطان

٩١٦- فكذاك أيضا لم يزل متكلما ... بل فاعلا ما شاء ذا إحسان

٩١٧- والله ما في العقل ما يقضي لذا ... بالرد والإبطال والنكران

٩١٨- بل ليس في المعقول غيرُ ثبوته ... للخالق الأزلي ذي الإحسان

٩١٩- هذا وما دون المهيمن حادث ... ليس القديم سواه في الأكوان

[١] قوله: «والله ربي لم يزل ذا قدرة، إلخ» أي: فالقدرة والمشيئة والعلم والحياة صفات ذات، لازمة للباري، لا ينفك عنها، فإذا أراد الفعل وهو قادر عليه مع اتصافه بالعلم والحياة، هل يمكن أن يتخلف التأثير بعد تمام موجبه وانتفاء موانعه؟ هذا محال غير ممكن.

٩٢٠- والله سابقُ كلِّ شيء غيره ... ما ربنا والخلق مقترنان
٩٢١- والله كان وليس شيء غيره ... سبحانه جلّ العظيم الشان
٩٢٢- لسنا نقول كما يقول الملحد الز ... نديق صاحب منطق اليونان[١]
٩٢٣- بدوام هذا العالم المشهود والـ ... أرواح في أزل وليس بفان
٩٢٤- هذي مقالات الملاحدة الألى ... كفروا بخالق هذه الأكوان
٩٢٥- وأتى ابن سينا بعد ذاك مصانعا ... للمسلمين فقال بالإمكان[٢]
٩٢٦- لكنه الأزلي ليس بمحدَث ... ما كان معدوما ولا هو فان
٩٢٧- وأتى بصلح بين طائفتين بيـ ... نهما الحروب وما هما سِلمان
٩٢٨- أنى يكون المسلمون وشيعة الـ ... يونان صلحا قط في الإيمان
٩٢٩- والسيف بين الأنبياء وبينهم ... والحرب بينهم فحرب عوان
٩٣٠- وكذا أتى الطوسي بالحرب الصر ... يح بصارمٍ منه وسلِّ لسان

[١] قوله: «**الملحد الزنديق، إلخ**» هو: أرسطو، الفيلسوف الخبيث، وزير الإسكندر، قبْل المسيح بمئين من السنين.

[٢] قوله: «**وأتى ابن سيناء، إلخ**» أي: فقال: إن العالم ممكن الوجود، ولا واجبه، ولا مستحيله، ولكنه أزلي، ليس بمحدث، فهو قديم في الماضي، لا يفنى في المستقبل. وهذا مما يعلم العقل تناقضه، ومراده أن يوافق ويصالح بين قول الرسل وبين قول الفلاسفة، وهذا محال.

وأما الطوسي: فهو بعد ابن سينا، وكان أبلغ منه، لأنه صار بلسانه وسنانه، لأنه وزير هولاكو مشير التتار، والتتار هم الجابان، ومحلاتهم بين الروس والصين في الشرق، وهم حين خرجوا على ما وراء النهر، على بخارى، على عراق العجم، على عراق العرب، وهذا ترتيب من كيسي ظنا، فعمد الخبيث الطوسي، فعمر المدارس، وأنفق عليها من أوقاف المسلمين، وأراد أن يجعل إشارات ابن سينا عوضا عن القرآن، وأراد تحويل شريعة محمد بالنواميس، أي: قواعد التتار.

٩٣١- وأتـى إلى الإسلام يهـدم أصله ... مِـن أسـه وقـواعـد الـبـنـيـان

٩٣٢- عَمـر المدارس للفلاسـفة الألى ... كـفـروا بـديـن الـلـه والـقـرآن

٩٣٣- وأتـى إلى أوقاف أهـل الدين يَنـ ... ـقلها إليـهـم فـعـل ذي أضـغـان

٩٣٤- وأراد تحويـل الإشـارات التـي ... هـي لابـن سينا موضـع الـفـرقـان

٩٣٥- وأراد تحويـل الشـريعة بالنـوا ... ميس الـتـي كـانـت لـذي الـيـونـان

٩٣٦- لكنـه علـم اللعيـنُ بـأن هـ ... ذا لـيـس فـي الـمـقـدور والإمـكـان

٩٣٧- إلا إذا قتـلَ الخليفـة والقُضـا ... ة وسـائـرَ الـفـقـهـاء فـي الـبـلـدان

٩٣٨- فسعى لذلك وساعد المقدور بالـ ... أمـر الـذي هـو حـكـمـة الـرحـمـن

٩٣٩- فأشـار أن يضـع التتارُ سـيوفهم ... فـي عـسـكـر الإيـمـان والـقـرآن

٩٤٠- لكنهـم يبقـون أهـل صنائع الد ... نـيـا لأجـل مـصـالـح الأبـدان

٩٤١- فغدا على سـيف التتار الألف في ... مِـثـلٍ لـهـا مـضـروبـة بـوِزان[1]

٩٤٢- وكـذا ثمـان مِئينهـا فـي ألفهـا ... مـضـروبـة بـالـعـد والـحـسـبـان

٩٤٣- حتى بكى الإسـلامَ أعـداهُ اليهو ... د كـذا المجوس وعابـدو الصلبان

٩٤٤- فشفى اللعين النفس من حزب الرسو ... ل وعـسـكـر الإيـمـان والـقـرآن

٩٤٥- وبـوُده لـو كان فـي أحـد وقـد ... شـهد الوقيعة مـعْ أبي سـفيان[2]

---

[١] قوله: «**فغدى على سيف التتار الألف، إلخ**» أي: ألف وثمان مائة، مضروبة في ألف، فيكون الكل: ثمانية عشر لك مليون وثمانية لكوك، لأننا إذا ضربنا ١٠٠٠ في ١٨٠٠ يكون الحاصل: ١٨٠٠٠٠٠، وهو ما ذكر أعلاه، فاللك: مائة ألف، والمليون: عشرة لكوك.

[٢] قوله: «**وبوده لو كان في أحد، إلخ**» أي: لو كان في غزوة أحد، حين قاتل أبو سفيان رسول الله ﷺ، لفعل بالنبي كما فعل بالمسلمين مع التتار، وأقر أعين المشركين، إلا أن يتمكن، فهو لا يترك ذلك حتى يرى ممزق اللحمان.

٩٤٦- لأقــر أعينهــم وأوفــى نــذره أو أن يُــرى متـمـزق الـلـحـمـان

٩٤٧- وشـــواهد الإحـــداث ظاهـــرة على ذا العالَـــم المخلـــوق بالبرهـــان

٩٤٨- وأدلــة التوحيــد تشــهد كلهــا بحدوث كل مــا ســوى الرحمن[١]

٩٤٩- لــو كان غيــر اللــه جــل جلاله مــعــه قــديــمــا كــان ربــا ثــان

٩٥٠- أو كان عــن رب العلى مســتغنيا فــيــكــون حــيــنــئــذ لــنــا ربــان

٩٥١- والــرب باســتقلاله متوحــد أفــمــمــكــن أن يــســتــقــل اثــنــان

٩٥٢- لــو كان ذاك تنافيــا وتســاقطا فــإذا هــمــا عــدمــان مــمــتــنــعــان[٢]

٩٥٣- والقهــر والتوحيــد يشــهد منهما كــل لــصــاحــبــه هــمــا عِــدلان[٣]

٩٥٤- ولذلــك اقترنــا جميعــا في صفا ت الــلــه فــانــظــر ذاك فــي الــقــرآن

٩٥٥- فالواحد القهــار حقا ليس في الــ إمــكــان أن تــحــظــى بــه ذاتــان

ثم عطف المؤلف الكلام على هذه المسألة العظيمة، التي هي في الحقيقة من أعظم المسائل، لأن فيها تحقيق توحيد الربوبية، وتقريره وتوضيحه بأتم برهان وأقوم دليل، فقال: «**وشواهد الأحداث، إلخ**».

[١] قوله: «**وأدلة التوحيد، إلخ**» هي على ما قال بعضهم: نحو ألف دليل. وهذا قريب إن أريد الأنواع، وإن أريد الأفراد فهي أكثر بكثير.

[٢] قوله: «**لو كان ذاك، إلخ**» هذا هو دليل التمانع، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾(١). فلو كان مستقلان لتساقطا، كما قيل: استقلالهما ينفي استقلالهما.

[٣] قوله: «**والقهر والتوحيد، إلخ**» أي: أسماء الله الواحد القهار شاهدان عدلان كل منهما بامتناع ذلك، ولذلك يأتيان في القرآن مقترنين، فالواحد

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

....

ينفي ما سواه، والقهار يقهر كل من عداه، فلا يمكن في الوجود الذهني ولا الخارجي أن يوجد واحد قهار متعدد، بل لا يكون إلا ذاتا واحدة، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فصل

في اعتراضهم على القول بدوام فاعلية الرب جل جلاله، وكلامه، والانفصال عنه[1]

٩٥٦- فلئن زعمتم أن ذاك تسلسل ... قلنا صدقتم وهو ذو إمكان[٢]

٩٥٧- كتسلسل التأثير في مستقبل ... هل بينَ ذينكَ قطّ مِن فرقان

٩٥٨- والله ما افترقا لذي عقل ولا ... نقل ولا نظر ولا برهان

٩٥٩- في سلب إمكان ولا في ضده ... هذي العقول ونحن ذو أذهان

٩٦٠- فليأت بالفرقان من هو فارق ... فرقا يَبين لصالح الأذهان[٣]

[١] معنى الانفصال عنه: أي: والجواب عنه، والتخلص من هذا الاعتراض، وكثيرا ما ترد هذه اللفظة.

[٢] قوله: «فلئن زعمتم» يا معشر الأشاعرة والكلابية! «أن ذاك» أي: دوام فاعلية الرب وكلامه «تسلسل» أي: في الماضي «قلنا»: إن تسلسلها في الأزل ممكن، كما أنه في المستقبل ممكن، وأنتم تقرون به، فما الفرق بينهما؟ فليس بينهما فرق؛ لا في العقل، ولا في النقل، ولا في النظر أو الفكر، ولا في البرهان وهو الدليل، فليس بينهما فرق في إمكانهما ولا في سلبه، بل حكمهما واحد، فإما أن يُثبتا جميعا، كما قاله السلف، أو يُنفيا جميعا، كما قالته الجهمية، وأما التفريق فتناقض.

[٣] قوله: «فرقا يبين لصالح الأذهان» أي: فالفرق الواضح الذي يبين ويظهر أن له فائدة واختلافا بين المفرق بينهما إما بالمعنى أو بأحد اللوازم، وأما الفرق اللفظي فهذا وجوده كعدمه، فلا يترتب عليه فائدة، ولا يحصل به إيضاح وبيان، ويكفي في رده مقابلته بضده، فإذا فرق أحد بين

٩٦١- ولذاك سوى الجهم بينهما كذا الـ ـعلاف في الإنكار والبطلان[١]

٩٦٢- ولأجل ذا حَكما بحكم باطل قطعا على الجنات والنيران[٢]

٩٦٣- فالجهم أفنى الذات والعلاف للـ ـحركات أفنى قاله الثوْران

٩٦٤- وأبو علي وابنه والأشعري وبعده ابن الطيب الرباني[٣]

٩٦٥- وجميع أرباب الكلام الباطل الـ مذموم عند أئمة الإيمان

٩٦٦- فرَقوا وقالوا ذاك فيما لم يزل حق وفي أزل بلا إمكان

٩٦٧- قالوا لأجل تناقض الأزلي والـ إحداث ما هذان يجتمعان

٩٦٨- لكن دوام الفعل في مستقبل ما فيه محذور من النكران

٩٦٩- فانظر إلى التلبيس في ذا الفرق تر ويجا على العُوران والعُميان

٩٧٠- ما قال ذو عقل بأن الفرد ذُو أزل لذي ذهن ولا أعيان

٩٧١- بل كل فرد فهو مسبوق بفر د قَبله أبدا بلا حسبان

شيئين متماثلين، وادعى أن بينهما فرقا، وعللهما بعلة، وهو يدعي أن هذا الفرق له معنى، فاعكس عليه القضية، وانف ما أثبته، وأثبت ما نفاه، وعلل ذلك بنفس ما علل به قوله، فهل يجد لذلك دليلا واضحا؟ فالصواب أنهما شيئا واحدا.

[١] قوله: «**ولذاك سوى الجهم، إلخ**» أي: لأجل تناقض قول هؤلاء، ولكن أطبقت الأمة، واتفقت وتواترت النصوص الصريحة الصحيحة على بطلان قوله؛ عقلا، ونقلا، وفطرة، وشرعا.

[٢] قوله: «**على الجنات والنيران، إلخ**» قد تقدم لك تحقيق مذهبهم وبيانه وتفصيله في الفصل، وهو قوله: «**وقضى بأن الله كان معطلا، إلخ**»، فراجعه إن شئت[١].

[٣] قوله: «**وأبو علي**» هو: الجبائي محمد بن عبد الوهاب[٢] وابنه هو: أبو هاشم بن محمد

(١) انظر: ص٥٩٦.

(٢) انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ١٤/ ١٨٣.

٩٧٢- ونظير هذا كل فرد فهو ملـ ـحوق بفرد بعده حُكمان

٩٧٣- للنوع والآحاد مسبوق وملـ ـحوق وكلٌّ فهو منها فان[١]

٩٧٤- والنوع لا يفنى أخيرا فهو لا يفنى كذلك أولًا ببيان[٢]

٩٧٥- وتعاقب الآنات أمر ثابت في الذهن وهو كذاك في الأعيان[٣]

٩٧٦- فإذا أبيتم ذا وقلتم أول الـ آنات مُفتَتَح بلا نكران[٤]

الجبائي، وأبو الحسن «**الأشعري وبعده ابن الطيب**» هو: أبو بكر ابن الباقلاني(١) كل هؤلاء وأمثالهم من أهل الكلام فرقوا بين التسلسل في الماضي والمستقبل، فأثبتوه في المستقبل، ونفوه في الماضي، لأجل التناقض بين الأولي والمحدث، أي: كيف يكون فعله أزليا وهو مع ذلك محدث؟ وهذا منهم مكابرة وترويج، فإن قصدهم إلزامنا بأن الفرد من أفعال الله أزلي قديم، ونحن لا نقول بذلك، بل نقول: إن نوع فعل الله وجنسه قديم أزلي، وأما أفراده وآحاده فهو حادث، فكما أن كل فرد من أفعال الله، فبعده فرد إلى ما لا نهاية له، فكذلك كل فرد منها، فقبله فرد، إلى ما لا بداية له.

[١] قوله: «**والنوع والآحاد، إلخ**» المراد بالنوع هنا رديف الآحاد، وقوله في البيت بعده:

[٢] «**والنوع لا يفنى**» مراده: النوع مرادف الجنس، فلا تناقض.

[٣] قوله: «**وتعاقب الآنات، إلخ**» أي: ومن جملة ما خلقه الله: الآنات، فخلقه لها جنس، فهو قديم أزلي، فلذاك لا يوجد في الخارج، ولا يتصور في الذهن أن ثم زمان إلا وقبله زمان، إلى ما لا بداية له، كما أنها كذلك إلى ما لا نهاية له، وأما أفراد خلقه للزمان فهو حادث.

[٤] قوله: «**فإذا أبيتم ذا، إلخ**» أي: فإذا أبيتم ومنعتم تعاقب الآنات، وقلتم: إن أول الآنات والأزمان التي هي الليل والنهار مفتتح به، أي: أنه حادث، والدليل على ذلك أن ذاك الآن إذا كان موجودا فذاك، فإذا سبقه آن آخر فقد سبقنا سلب وجوده وهو عدمه، فعدمه دليل على عدم قدمه، وأنه حادث. فيقال لهم: ما تعنون بالآنات، هل هي من وجود السموات والأرض إلى ما بعدها، وإما

---

(١) انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٩٠.

٩٧٧- ما كان ذاك الآنُ مسبوقا يُرى ... إلا بسلب وُجوده الحقاني
٩٧٨- فيقال ما تعنون بالآنات هل ... تعنون مدة هذه الأزمان
٩٧٩- من حين إحداث السموات العلى ... والأرض والأفلاك والقمران
٩٨٠- ونظنكم تعنون ذاك ولم يكن ... من قبلها شيء من الأكوان
٩٨١- هل جاءكم في ذاك من أثر ومن ... نص ومن نظر ومن برهان
٩٨٢- هذا الكتاب وهذه الآثار والـ ... ـمعقول في الفطرات والأذهان
٩٨٣- إنا نحاكمكم إلى ما شئتم ... منها فحكم الحق ذو تبيان
٩٨٤- أو ليس خلق الكون في الأيام كا ... ن وذاك مأخوذ من القرآن
٩٨٥- أو ليس ذلكم الزمان بمدة ... لحدوث شيء وهو عين زمان[١]
٩٨٦- فحقيقة الأزمان نسبة حادث ... لسواه تلك حقيقة الأزمان[٢]

ما قبلها؟ فلا هو ببالكم، ولا تعلمون، ولا تقولون: إن الله خلق قبل السموات والأرض وهذا الكون شيئا أبدا، ونظنكم تعنون هذا، فبأي وجه قلتم هذا القول؟ وبأي كتاب؟ أم بأي سنة؟ أم بأي أثر؟ أم بأي دليل وبرهان؟ أم بأي عقل وفطرة؟ بل الدليل على خلاف ذلك، فقد ثبت بغير آية أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، وهذه الأيام ظرفا ومدة لخلق السموات والأرض وغيرها، وما قبل ذلك لا يعلمه إلا الله.

[١] قوله: «**وهو عين زمان**» أي: وهو الزمان المعروف.

[٢] قوله: «**فحقيقة الأزمان، إلخ**» أي: فإن الزمان حقيقة هو نسبة بعض المحدثات إلى بعضها، هل كان قبلها أم بعدها؟ فالذي بينهما هو الزمان، بقطع النظر عن الليل والنهار، فإن الزمان موجود قبل وجودهما.

واعلم أن التسلسل ثلاثة أنواع: نوع إثباته حق، ونوعان إثباتهما باطل.

فالحق: التسلسل في الآثار، وهو أن أفعال الله كل فعل قبله فعل وبعده فعل.

٩٨٧- واذكر حديث السبق للتقدير والتـ	ـوقيت قبل جميع ذي الأعيان[١]
٩٨٨- خمسين ألفا مِن سنينٍ عدها الـ	ـمختار سابقة لذي الأكوان
٩٨٩- هذا وعرش الرب فوق الماء من	قَبلِ السنين بمدة وزمان
٩٩٠- والناس مختلفون في القلم الذي	كُتب القضاءُ به من الدّيان
٩٩١- هل كان قبل العرش أو هو بعده	قولان عند أبي العَلا الهمذاني
٩٩٢- والحق أن العرش قبلُ لأنه	قبل الكتابة كان ذا أركان
٩٩٣- وكتابة القلم الشريف تعقبت	إيجادَه من غير فصل زمان[٢]

وأما الباطلان: فالتسلسل في المؤثرين، وهو: من خلق هذا؟ ثم من خلق خالقه؟ من فعل هذا؟ ثم من فعل فاعله؟ فهذا باطل. والثاني: فالتسلسل في الشروط، نحو: مِن شرط وجود الابن الأب، فمن هو أب الأب؟ ومن أبوه؟ ومن أبو أبيه؟ وهكذا، فالتسلسل في الأخيرين باطل، وفي الأول حق، هذا في الماضي، وأما في المستقبل فكذلك.

وأما الجهمية فنفوا هذه الثلاثة مطلقا، في الماضي والمستقبل، والأشاعرة والكلابية نفوها في الماضي دون المستقبل، فأثبتوا فيه التسلسل في الآثار.

[١] قوله: «**واذكر حديث السبق، إلخ**» هو ما رواه عبد الله بن عمرو مرفوعا: «**إنّ الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»(١).

[٢] قوله: «**من غير فصل زمان**» أي: ووجهه أن قوله: «**لما خلق**» فـ«**لما**» شرط، وقوله: «**قال له: اكتب**» فهذا جواب الشرط، والجواب متعاقبان، ليس بينهما مهلة، وهذا مأخوذ من لفظ الحديث، أو من الحديث الآخر، وهو قوله: «**أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم ١٦-٢٦٥٣.

(٢) أخرجه أحمد ٢٢٧٠٥، وأبو داود ٤٧٠٠، والترمذي ٣٣١٩، عن عبادة بن الصامت، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢٠١٧.

٩٩٤- لما بَراه الله قال اكتب كذا	فغدا بأمر الله ذا جريان
٩٩٥- فجرى بما هو كائن أبدا إلى	يوم المعاد بقدرة الرحمن
٩٩٦- أفكان رب العرش جل جلاله	مِن قبل ذا عجز وذا نقصان
٩٩٧- أم لم يزل ذا قدرة والفعل مقـ	ـدور له أبدا وذو إمكان
٩٩٨ - فلئن سئلت وقلت ما هذا الذي	أداهم لخلاف ذا التبيان[١]
٩٩٩- ولأي شيء لم يقولوا إنه	سبحانه هو دائم الإحسان
١٠٠٠- فاعلم بأن القوم لما أسسوا	أصلَ الكلام عَمُوا عن القرآن
١٠٠١- وعن الحديث ومقتضى المعقول بل	عن فطرة الرحمن والبرهان
١٠٠٢- وبنوا قواعدهم عليه فقادهم	قسرا إلى التعطيل والبطلان
١٠٠٣- نفي القيام لكل أمر حادث	بالرب خوفَ تسلسل الأعيان
١٠٠٤- فيسد ذاك عليهم في زعمهم	إثبات صانع هذه الأكوان
١٠٠٥- إذ أثبتوه بكون ذي الأجساد حا	دثة فلا تنفك عن حِدثان
١٠٠٦- فإذا تسلسلت الحوادث لم يكن	لحدوثها إذ ذاك من برهان
١٠٠٧- فلأجل ذا قالوا التسلسل باطل	والجسم لا يخلو عن الحدثان
١٠٠٨- فيصح حينئذ حدوث الجسم من	هذا الدليل بواضح البرهان[٢]

[١] قوله: «**فلئن سألت، إلخ**» أي: لما كان الأمر واضحا، ثابتا بالكتاب والسنة والعقل والفطرة، فما الذي حملهم على خلافه؟

[٢] **فالجواب**: أنهم أسسوا قواعدهم وأصولهم ومعلوماتهم على علم الكلام المذموم، وتركوا نصوص الوحيين، فقادهم قسرا وقهرا إلى القول بأن كل أمر حادث بالرب فليس متصفا به ولا قائما به، وذلك خوف تسلسل الأعيان، أي: فإذا قالوا: إن أفعال الله قد قامت به أزلا، لزم أن تكون آثارها أزلية «**فيفسد ذلك عليهم في زعمهم إثبات صانع هذه الأكوان، إلخ**» أي: أن المتكلمين

١٠٠٩- هــذي نهايــات لأقــدام الــورى فــي ذا الـمقـام الـضيـق الأعـطـان

١٠١٠- فمــنِ الــذي يأتــي بفتــح بيّــن ينجــي الورى مــن غمــرة الحيران

١٠١١- فاللــه يجزيــه الــذي هــو أهله مــن جـنـة الـمـأوى مـع الـرضـوان

أثبتوا أن الله قديم، واستدلوا على ذلك بحدوث العالم والأجسام، فإذا قالوا بتسلسل أفعال الله في الأول؛ لزم تسلسل الأعيان، فيلزم من ذلك بطلان دليلهم على قدم الله وحدوث العالم، فإذا تسلسلت الحوادث؛ لم يجدوا دليلا يستدلون به على الفلاسفة القائلين بقدم العالم.



فصل

في تقرير دليلهم ونقضه[1]

١٠١٢- فاسمع إذا وافهم فذاك معطل	ومشبه وهداك ذو الغفران
١٠١٣- هذا الدليل هو الذي أرداهم	بل هد كل قواعد القرآن
١٠١٤- وهو الدليل الباطل المردود عنـ	ـد أئمة التحقيق والعرفان
١٠١٥- ما زال أمر الناس معتدلا إلى	أن دار في الأوراق والأذهان

[١] وهو المشهور بدليل الأكوان، أو: دليل الأعراض، ونحوها، وقد اختلفت عباراتهم فيه، فبعضهم أوجز، وبعضهم طوّل، وبعضهم ذكر ما لم يذكره غيره.

وحاصله وملخصه: أن ما ثبت قدمه استحال عدمه، ولكن الاختلاف في الذي يثبت قدمه وضده.

فعند السلف: أن الله وأسماءه وصفاته وأفعاله قديمة أزلية فقط، وما عداها فليس بقديم. وعند الفلاسفة: أن العالم قديم.

وأما الجهمية ونحوهم: فيوافقون السلف على أن العالم حادث، ولكن يستدلون على حدوثه بأن الله وحده قديم، وأما أفعاله فليست قديمة، بل حدثت بعد أن لم يكن متصفا بها، فالذي اضطرهم إلى ذلك قول الفلاسفة في قدم العالم. فهذا ملخص الدليل، وسيأتي له زيادة إيضاح وبيان، إن شاء الله تعالى، ولو كان متصفا بها في الأول لزم على كونها قديمة قدم آثارها، لأنه إذا كان متصفا بصفة الخلق، فيلزم أن يكون المخلوق الذي هو أثر خلقه تعالى قديما، هذا على زعمهم الباطل الفاسد. هذا ملخص دليلهم.

١٠١٦- وتمكنت أجزاؤه بقلوبهم — فأتت لوازمه إلى الإيمان
١٠١٧- رفعت قواعده نحّت أُسّه — فهوى البناء وخرّ للأركان
١٠١٨- وجنوا على الإسلام كل جناية — إذ سلطوا الأعداء بالعدوان[١]
١٠١٩- حملوا بأسلحة المِحال فخانهم — ذاك السلاح فما اشتفوا بطعان
١٠٢٠- وأتى العدو إلى سلاحهم فقا — تلهم به في غيبة الفرسان
١٠٢١- يا محنة الإسلام والقرآن مِن — جهل الصديق وبغي ذي طغيان
١٠٢٢- والله لولا الله ناصر دينه — وكتابه بالحق والبرهان
١٠٢٣- لتخطفت أعداؤه أرواحنا — ولقُطّعت منا عرى الإيمان
١٠٢٤- أيكون حقا ذا الدليل وما اهتدى — خير القرون له محال ذان
١٠٢٥- وفقتم للحق إذ حرموه في — أصل اليقين ومقعد العرفان
١٠٢٦- وهديتمونا للذي لم يهتدوا — أبدا به وا شدّة الحِرمان
١٠٢٧- ودخلتم للحق من باب وما — دخلوه واعجبًا لذا الخذلان
١٠٢٨- وسلكتم طرق الهدى والعلم دو — ن القوم واعجبًا لذا البهتان
١٠٢٩- وعرفتم الرحمن بالأجسام والـ — أعراض والحركات والألوان
١٠٣٠- وهم فما عرفوه منها بل من الـ — آيات وهي فغير ذي برهان

---

[١] قوله: «إذ سلطوا الأعداء، إلخ» وهم الفلاسفة، فإنهم لما سمعوهم يقولون: إنه لا داخل العالم ولا خارجه، وسمعوهم يقولون: إنه يوصف ببعض الصفات دون بعض، وإنه كان في الأزل معطلا عن أفعال الكمال، ثم حدثت له بعد ذلك؛ ظنوا أن هذا دين الإسلام، فعلموا أنه متناقض، فقادهم ذلك إلى إنكار الخالق بالكلية، والقول بقدم العالم، ولذلك يخضع الجهمية للفلاسفة، إذا أوردوا عليهم بعض الإيرادات، لا يتمكنون من مجادلتهم، ولا من مقاومتهم بالحجة، وسبب هذا الدليل وادعاؤهم أن الله كان معطلا في الأزل ما أورده عليهم الفلاسفة بقولهم: يلزم من كونه متصفا بالأفعال بالأول قدم العالم.

١٠٣١- اللـه أكبـر أنتـم أو هـم على　　حـق وفـي غـيّ وفـي خسـران
١٠٣٢- دع ذا أليـس اللـه قد أبـدى لنا　　حـق الأدلـة وهـي فـي القـرآن
١٠٣٣- متنوعـات صُرّفـت وتظاهـرت　　مـن كـل وجـه فـهـي ذو أفـنـان
١٠٣٤- معلومـة للعقـل أو مشـهودة　　لـلـحس أو فـي فـطـرة الـرحـمـن
١٠٣٥- أسـمعتم لدليلكـم فـي بعضها　　خـبـرا أو احـسـسـتـم لـه ببيـان
١٠٣٦- أيكون أصـل الدين ما تم الهدى　　إلا بـه وبـه قـوى الإيـمـان
١٠٣٧- وسواه ليس بموجب من لم يحط　　علـمـا بـه لـم ينـج مـن كـفـران
١٠٣٨- واللـه ثـم رسـوله قـد بيّنـا　　طـرق الـهـدى فـي غـايـة التبيان
١٠٣٩- فـلأي شـيء أعرضـا عنـه ولم　　نـسـمـعـه فـي أثـر ولا قـرآن
١٠٤٠- لكـن أتانـا بعـد خيـر قروننـا　　وظـهـور أحـداث مـن الـشـيـطـان
١٠٤١- وعلى لسـان الجهـم جاء وحزبه　　مـن كـل صـاحـب بـدعـة حـيـران
١٠٤٢- ولذلـك اشـتد النكيـر عليهـم　　مـن سـائـر الـعـلـمـاء فـي الـبـلـدان
١٠٤٣- صاحوا بهم من كل قطر بل رموا　　فـي إثـرهـم بـثـواقـب الـشـهـبـان
١٠٤٤- عرفـوا الذي يفضـي إليه قولهم　　ودلـيـلـهـم بـحـقـيـقـة الـعِـرفـان
١٠٤٥- وأخـو الجهالة فـي خُفارة جهله　　والجهل قـد يُنجي مـن الكفران[١]

[١] قوله: «وأخو الجهالة، إلخ» أي: من المسلمين الغافلين الجاهلين بحقيقة ما يفضي إليه قول الجهمية من هذا الدليل معنى غيره.

قوله: «**والجهل قد ينجي، إلخ**» إذا كان مرتكب البدعة المكفرة جاهلا بما تؤول إليه ومخالفتها لصريح الكتاب والسنة، فهذا لا يحكم بكفره، بخلاف من يعلم ذلك، وهو قد ارتكبها، فهو يحكم بكفره قطعا، وسيأتي لذلك زيادة مفصلة، إن شاء الله تعالى(١).

(١) انظر: ص٧٤٢.

فصل

في الرد على الجهمية المعطلة، القائلين بأنه ليس على العرش إله يعبد، ولا فوق السموات إله يصلى له ويسجد، وبيان فساد قولهم عقلا ونقلا ولغة وفطرة

١٠٤٦- والله كان وليس شيء غيره ... وبرى البرية وهي ذو حِدثان

١٠٤٧- فسل المعطل هل يراها خارجا ... عن ذاته أم فيه حلت ذان

١٠٤٨- لا بد من إحداهما أو أنها ... هي عينه ما ثم موجودان

١٠٤٩- ما ثم مخلوق وخالقه وما ... شيء مغاير هذه الأكوان

١٠٥٠- لا بد من إحدى ثلاث ما لها ... من رابع خلوا عن الروغان[١]

١٠٥١- ولذاك قال محقق القوم الذي ... رفع القواعد مدعي العرفان[٢]

١٠٥٢- هو عين هذا الكون ليس بغيره ... أنى وليس مباين الأكوان

١٠٥٣- كلا وليس محايثا أيضا لها ... فهو الوجود بعينه وعيان

١٠٥٤- إن لم يكن فوق الخلائق ربُّها ... فالقول هذا القول في الميزان

١٠٥٥- إذ ليس يعقل بعد إلا أنه ... قد حل فيها وهي كالأبدان

١٠٥٦- والروح ذات الحق جل جلاله ... حلت بها كمقالة النصراني

---

[١] قوله: «لا بد من إحدى ثلاث، إلخ» أي: وهذه القسمة العقلية.

[٢] قوله: «محقق القوم» أي: كابن عربي وأمثاله.

١٠٥٧- فاحكم على من قال ليس بخارج — عنها ولا فيها بحكم بيان[١]

١٠٥٨- بخلافه الوحيين والإجماع والـ — ـعقل الصريح وفطرة الرحمن

١٠٥٩- فعليه أوقع حد معدوم بلى — حد المحال بغير ما فرقان[٢]

١٠٦٠- يا للعقول إذا نفيتم مخبَرا — ونقيضه هل ذاك في إمكان[٣]

١٠٦١- إذ كان نفي دخوله وخروجه — لا يصدقان معا لدى الإمكان

١٠٦٢- إلا على عدم صريح نفيُه — متحقق ببداهة الإنسان

١٠٦٣- أيصح في المعقول يا أهل النهى — ذاتان لا بالغير قائمتان[٤]

١٠٦٤- ليست تُباين منهما ذات لأخـ — ـرى أو تحايثها فيجتمعان

١٠٦٥- إن كان في الدنيا محال فهو ذا — فارجع إلى المعقول والبرهان

---

[١] قوله: «**فاحكم على من قال ليس بخارج، إلخ**» هم: الجهمية، ومتأخرو المعتزلة، ومن شاكلهم.

[٢] قوله: «**فعليه أوقع حد معدوم، إلخ**» أي: فأوقع هذا القائل على الباري حد المعدوم «**وذا حد المحال**» أي: بل أوقع عليه حد المحال.

[٣] قوله: «**إذا نفيتم مخبرا ونقيضه**» أي: إذا نفيتم خبرا أو نفيتم كلاما مخبرا به، أي: نفيتم شيئا ونقيضه، وهو كونه خارج العالم، ونقيضه كونه داخل العالم، فإذا نفيتم النقيضين؛ فقد جئتم بالمحال، لأن نفي النقيضين محال، لأنكم إذا نفيتم أنه داخل العالم وأنه خارجه، فهذا النفي لا يصدق إلا على العدم.

[٤] قوله: «**أيصح في المعقول، إلخ**» أي: هل يصح أن يقال بوجود ذاتين، كل منهما قائمة بنفسها، بمعنى أنها ليس بعرض وصفة قائمة بغيرها، فهل يوجد ذاتان ليستا متباينتين ولا متحاذيتين، أي: مجتمعتين؟ فهذا محال.

١٠٦٦- فلئـن زعمتم أن ذلـك في الذي ... هو قابل من جسـم أو جسـمان[١]

١٠٦٧- والـرب ليس كذا فنفـي دخوله ... وخـروجـه مـا فيـه مـن بـطـلان

١٠٦٨- فيقـال هـذا أولا مـن قولكـم ... دعـوى مـجـردة بـلا بـرهـان

١٠٦٩- ذاك اصطلاح مـن فريق فارقوا الـ ... ـوحي المبين لحكمـة اليونان[٢]

١٠٧٠- والشـيء يصدق نفيـه عن قابل ... وسـواه في معـهـود كـل لـسـان

١٠٧١- أنسيت نفي الظلم عنه وقولك الـ ... ـظلم المحال وليـس ذا إمكان[٣]

١٠٧٢- ونسـيت نفي النوم والسـنة التي ... ليست لـرب الـعـرش في الإمـكـان

١٠٧٣- ونسيت نفي الطعم عنه وليس ذا ... مـقـبـولـه والـنـفـي فـي الـقـرآن

[١] قوله: «**فلئن زعمتم، إلخ**» أي: إن قلتم: إن وجود الذاتين اللتين ليستا متباينتين ولا متحاذيتين؛ محال في الذي يقبل الدخول والخروج والتباين والاجتماع من الأجسام والجواهر، وأما الرب فليس نفي ذلك في حقه محال، لأنه لا يقبل مباينة العالم، ولا مداخلته، ولا خروجه منه، ولا دخوله فيه، كما تقدم ذلك في قولكم: إن الذي لا يتكلم أخرس، هذا فيما يقبل الكلام، والرب ليس كذلك.

[٢] **فالجواب على ذلك من وجوه:**

أولا: إن هذا القول لم يقل به أحد قبلكم، بل هو منكم دعوى مجردة عن الدليل والبرهان، بل هو اصطلاح اصطلح عليه أئمة اليونان الذين فارقوا الكتاب والسنة.

[٣] **ثانيا**: إن الشيء يصح ويصدق نفيه عن ما يقبله وما لا يقبله، وذلك في الكتاب والسنة كثير، ومن ذلك أنكم -يا معشر الجهمية- نفيتم عن الله الظلم، وقلتم: إنه لا يقدر عليه، فهو لا يقبله، وليس ممكنا في حقه، وهذا إلزام لهم على قولهم، وإلا فتفسيرهم الظلم بأنه المحال باطل، كما تقدم التنبيه عليه في الفصل الرابع، على قوله: «**والظلم عندهم المحال لذاته**»(١).

(١) انظر: ص٥٩١.

١٠٧٤- ونسيت نفي ولادة أو زوجة ... وهما على الرحمن ممتنعان[١]

١٠٧٥- والله قد وصف الجماد بأنه ... ميت أصم وما له عينان

١٠٧٦- وكذا نفى عنه الشعور ونطقه ... والخلقَ نفيا واضح التبيان

١٠٧٧- هذا وليس لها قبول للذي ... ينفى ولا من جملة الحيوان[٢]

١٠٧٨- ويقال أيضا ثانيا لو صح هـ ... ـذا الشرط كان لما هما ضدان

١٠٧٩- لا في النقيضين اللذين كلاهما ... لا يثبتان وليس يرتفعان[٣]

١٠٨٠- ويقال أيضا نفيكم لقبوله ... لها يزيل حقيقة الإمكان

١٠٨١- بل ذا كنفي قيامه بالنفس أو ... بالغير في الفِطرات والأذهان

١٠٨٢- فإذا المعطل قال إن قيامه ... بالنفس أو بالغير ذو بطلان

١٠٨٣- إذ ليس يقبل واحد من ذينك الـ ... أمرين إلا وهو ذو إمكان

١٠٨٤- جسم يقوم بنفسه أيضا كذا ... عَرَض يقوم بغيره أخوان

١٠٨٥- في حكم إمكان وليس بواجب ... ما كان فيه حقيقة الإمكان[٤]

---

[١] **وأيضا**: قد نفى الله عنه السّنة والنوم، ونفى كونه يُطعَم، ونفى الزوجة والولادة، وكل هذه ممتنعة عليه، تعالى الله عن ذلك.

[٢] **وأيضا**: فقد وصف الله الجمادات بأنها ميتة، لا تسمع، ولا تبصر، ولا تنطق، ولا تشعر، ولا تخلق، ومع ذلك هي لا تقبل هذه الأشياء.

[٣] **وأيضا**: لو صح هذا الشرط الذي قلتم به وهو كون [.....][(١)]، فهو صادق في الضدين الذين لا يجتمعان وقد يرتفعان، كالسواد والبياض، لا في النقيضين الذين لا يجتمعان ولا يرتفعان؛ كالحركة والسكون والدخول والخروج.

[٤] **وأيضا**: فإذا نفيتم كون الباري يقبل أن يكون داخل العالم أو خارجه، يزيل حقيقة أن الله

---

(١) بياض بالأصل.

١٠٨٦- فكلاكما ينفي الإله حقيقة ... وكلاكما في نفيه سيان[١]

١٠٨٧- ماذا يردّ عليه من هو مثله ... في النفي صرفا إذ هما عِدلان

١٠٨٨- والفرق ليس بممكن لك بعدما ... ضاهيت هذا النفي في البطلان

١٠٨٩- فَوِزان هذا النفي ما قد قلته ... حرفا بحرف أنتما صنوان[٢]

١٠٩٠- والخصم يزعم أن ما هو قابل ... لكليهما فكقابل لمكان

١٠٩١- فافرق لنا فرقا يبين مواقع الـ ... إثبات والتعطيل بالبرهان

١٠٩٢- أو لا فأعط القوس باريها وخلـ ... ل الفشر عنك وكثرة الهذيان

ممكن الوجود، فضلا عن كونه واجب الوجود، بل قولكم هذا كقول الفلاسفة الدهريين أن الله لا يقوم بنفسه ولا بغيره، فإذا المعطل وهو الفلسفي الدهري المنكر لوجود رب العالمين قال: إن الله لا يقوم بنفسه، وكل عرض قائم بغيره، فهما إخوان في كونهما ممكني الوجود، وكل ما كان فيه حقيقة الإمكان فليس بواجب الوجود.

[١] أي: أنتم يا معشر الجهمية وأنتم يا معشر الدهرية إخوان في نفي حقيقة الإله، لأنك قولك يا أيها الجهمي مشابه لقول الدهري ومماثل له، وليس بينكما فرق.

[٢] قوله: «**فوزان هذا النفي**» وهو نفي الدهرية كون الله يقوم بنفسه أو بغيره «**ما قد قلته**» يا أيها الجهمي، وهو نفيك كونه داخل العالم أو خارجه.

فصل

في سياق هذا الدليل على وجه آخر

١٠٩٣- وسل المعطل عن مسائل خمسة ... تُردى قواعدَه من الأركان[١]

١٠٩٤- قل للمعطل هل تقول إلهنا الـ ... ـمعبود حقا خارج الأذهان

١٠٩٥- فإذا نفى هذا فذاك معطل ... للرب حقا بالغُ الكفران

١٠٩٦- وإذا أقر به فسله ثانيا ... أتراه غير جميع ذي الأكوان

١٠٩٧- فإذا نفى هذا وقال بأنه ... هو عينها ما هاهنا غيران

١٠٩٨- فقد ارتدى بالاتحاد مصرّحا ... بالكفر جاحد ربه الرحمن

١٠٩٩- حاشا النصارى أن يكونوا مثله ... وهم الحميرُ وعابدو الصلبان

١١٠٠- هم خصصوه بالمسيح وأمه ... وأولاء ما صانوه عن حيوان

١١٠١- وإذا أقر بأنه غيرُ الورى ... عبد ومعبود هما شيئان

١١٠٢- فاسأله هل هذا الورى في ذاته ... أم ذاته فيه هنا أمران

---

[١] أول هذه المسائل: هل الله موجود أم لا؟ فإن قالا: لا، فقد قال بقول الدهرية، وإن أقر به؛ فالسؤال الثاني: أن يقال له: هل تقول: إن الله هذه الأكوان والمخلوقات، أم غيرها؟ فإن قال الأول؛ فقد قال بقول الاتحادية، وصار قوله أكفر من قول النصارى وأعظم، لأنهم خصصوه بعيسى ابن مريم وأمه، وأما هؤلاء فقد قالوا: إنه جميع الحيوانات حتى أخسها، وإن قال: إنه غير هذه المخلوقات؛ فالسؤال الثالث: يقال له: هل هو حال في الورى، أم الورى حالون فيه؟ فإن قال بأحدهما فقد قال بقول الحلولية النجارية.

١١٠٣- فـإذا أقـر بواحد مـن ذينك الـ ... أمـريـن قـبّـلَ خـدّه الـنـصـرانـي
١١٠٤- ويقـول أهـلا بالـذي هـو مثلنا ... خُشداشـنا وحبيبنـا الحقانـي[١]
١١٠٥- وإذا نفـى الأمريـن فأسـأله إذا ... هـل ذاتـه استـغـنـت عـن الأكـوان
١١٠٦- فلـذاك قـام بنفسـه أم قـام بالـ ... أعـيـان كـالأعـراض والألـوان
١١٠٧- فـإذا أقـر وقـال بـل هـو قائم ... بـالـنـفـس فـاسـألـه وقُـل ذاتـان
١١٠٨- بالنفـس قائمتـان أخبِرنـي هما ... مـثـلان أو ضـدان أو غـيـران
١١٠٩- وعلـى التقاديـر الثـلاث فإنـه ... لـولا الـتـبـايـن لـم يـكـن شيئان
١١١٠- ضديـن أو مثليـن أو غيريـن كا ... نـا بـل هـمـا لا شـك مـتـحـدان[٢]
١١١١- فلـذاك قلنـا إنكـم بـاب لمن ... بـالاتـحـاد يـقـول بـل بـابـان[٣]

[١] قوله: «قبّل خَدَّهُ النصراني ويقول أهلا، إلخ» أي: أن النصراني يفرح به، وتقر عينه برؤيته، حتى إنه يقبل خده ويحييه، ويقول: إنك مثلنا، وخشداشنا، وحبيبنا الحقيقي. وأما لفظة «خشداشنا» فهي لفظة أعجمية، ومعناها [.....](١).

[٢] وأما إذا نفى الأمرين، وهما كونه حل في الورى، أو أن الورى حالون فيه، فالسؤال الرابع: أن يقال له هو: تقول أن الله مستغني عن غيره، وأنه قائم بنفسه، أم أنه قائم بغيره، فهو محتاج لذلك الغير؟ فإن قال: إنه قائم بغيره [......](٢) وأما إن قال: إنه قائم بنفسه؛ فالسؤال الخامس: أن يقال له: ما تقول في ذاتين موجودتين قائمتين بأنفسهما، أخبرني هل هما مثلان أو ضدان أو غيران؟ وعلى كل فلو قدرنا أنهما مثلان أو ضدان أو غيران، لولا أنهما متباينان لم يكونا شيئين، وهما ليسا ضدين، ولا مثلين، ولا غيرين، فلولا التباين لكانا متحدين شيئا واحدا.

[٣] فلذلك نقول: إنكم يا معشر الجهمية باب للاتحادية «بل بابان».

---

(١) بياض بالأصل. وقال ابن عيسى في توضيح المقاصد ١/ ٣٩٥: خشداشنا هذه كلمة تعظيم.
(٢) بياض بالأصل بقدر سطر.

١١١٢- نقّطتم لهم وهم خطّو على ... نُقط لكم كمعلم الصبيان[١]

[١] قوله: «**نقطتم لهم، إلخ**» أي: أن معلم الصبيان الذي يعلمهم الكتاب ينقط لهم لئلا تميل أسطرهم، فيجعل أول السطر نقطة، ووسطه نقطة، وآخرها نقطة، وما بين ذلك نقط، لأجل ما يميل سطر الكتاب.

فصل

في الإشارة إلى الطرق النقلية الدالة على أن الله تعالى فوق سماواته على عرشه

١١١٣- ولقــد أتانا عشــر أنــواع من الـ ــمنقــول فــي فــوقــيــة الــرحــمــن

١١١٤- مــع مثلهــا أيضــا تزيــد بواحد هــا نــحــن نــســردهــا بــلا كــتــمــان

١١١٥- منها استواء الرب فوق العرش في ســبع أتت فـــي محكم القـــرآن[١]

١١١٦- وكذلـــك اطـــردت بـــلا لام ولـــو كانـــت بمعنى اللام فـــي الأذهان[٢]

١١١٧- لأتت بها في موضع كي يحمل الـ ــــباقي عليها بالبيـــــان الثاني

١١١٨- ونظيـــر ذا إضمارهـــم في موضع حمـــلا علـــى المذكور فـــي التبيان

١١١٩- لا يضمـــرون مع اطـــراد دون ذكـ ـــر المضمر المحـــذوف دون بيان

١١٢٠- بل في محـــل الحذف يكثر ذكره فـــإذا هـــم ألِـــفـــوه إلـــف لـــســان

١١٢١- حذفـــوه تخفيفـــا وإيجـــازا فـــلا يخفى المـــراد به على الإنســـان[٣]

[١] قوله: «سبع» هي في: الأعراف، ويونس، والرعد، والفرقان، وألم السجدة، والحديد(١).

[٢] قوله: «وكذلك اطردت بلا لام» أي: لم تجئ في موضع واحد بلفظ «استولى» حتى يكون معناها: استولى، حملا للمطلق على المقيد.

[٣] كما أن عادة العرب إذا حذفوا ذكر شيء وقصدهم تقديره، فلابد من ذكره في موضع آخر،

(١) وقد نظمها شيخنا رحمه الله كما في كشكول ابن عقيل ص(٥٠) بقوله: =

١١٢٢- هذا ومن عشرين وجها يبطل التـ ـــفسير باستولى لـذي العرفان
١١٢٣- قد أفردت بمصنف لإمام هـ ـــذا الشأن بحر العالم الحراني[١]

وأما أنهم يضمرونه، ويقصدون تقديره ومعناه، ولا يذكرونه في موضع آخر، فليس هذا في كلامهم أصلا، وأما إن ذكروه في موضع، وحذفوه في مواضع، فلا مانع من كون المطلق يحمل على المقيد، كما في آية رقبة الكفارة، فإنها قيدت في الظهار بالإيمان، ولم يقيد في غيره، فيحمل المطلق على المقيد، وكما في ذكر الشهود، ففي موضع قيدوا العدالة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾(1). وفي موضع آخر بدونها، كما في قوله: ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾(2). فيحمل المطلق على المقيد.

[١] أفردها شيخ الإسلام ابن تيمية(3)، وذكرها المصنف في الصواعق المرسلة في نحو أربعين وجها(4).

= ولفظ استوى جاءت بأعراف يونس برعد بطه ثم جاءت بفرقان
كذا سجدة ثم الحديد فهذه مواضع سبع فاحفظنها بإتقان

(1) سورة الطلاق، الآية: ٢.
(2) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.
(3) وهي بعنوان: في الاستواء وإبطال قول من تأوله بالاستيلاء من نجو عشرين وجها. انظر: أسماء مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية، لصلاح الدين المنجد، ص: ٢٣، والجامع لسيرة شيخ الإسلام خلال سبعة قرون، ص ٣٩٢، وانظر كلام شيخ الإسلام عن المسألة في مجموع الفتاوى ٣٣/ ١٦٩.
(4) انظر: مختصر الصواعق المرسلة ٤/ ١٦٩.

ملاحظة: هذا الموضع الأول الذي فيه نقص في الأبيات المعلق عليها، وهي الأبيات من رقم: ١١٢٤ إلى رقم: ١٥٠٨، فيبتدئ في الصفحة التالية التعليق على البيت رقم: ١٥٠٩ وما بعده.

فصل

في الدليل السابع عشر

١٥٠٩- هـذا وسـابعَ عشـرها إخبـاره سبـحـانـه فـي مـحـكـم الـقـرآن
١٥١٠- عن عبده موسـى الكليم وحربه فرعـون ذي التكذيـب والطغيـان
١٥١١- تكذيبـه موسـى الكليـم بقوله الـلـه ربـي فـي الـسـمـا نـبّـانـي
١٥١٢- ومـن المصائـب قولهم إن اعتقا د الـفـوق من فـرعـون ذي الكفران
١٥١٣- فـإذا اعتقدتـم ذا فأشـياع لـه أنـتـم وذا مـن أعـظـم الـبـهـتـان
١٥١٤- فاسـمع إذا من ذا الذي أولى بفر عـون الـمـعـطـلِ جـاحـدِ الـرحـمـن
١٥١٥- وانظر إلى ما جاء في القصص التي تحكي مـقـال إمـامـهـم ببـيـان[١]
١٥١٦- واللـهِ قـد جعـل الضلالة قدوة بـأئـمـة تـدعـو إلـى الـنـيـران
١٥١٧- فإمـام كل معطـل فـي نفيـه فـرعـون مـعْ نـمـرود مـعْ هـامـان
١٥١٨- طلب الصعود إلى السماء مكذبا مـوسـى ورام الـصـرح بـالـبـنـيـان
١٥١٩- بـل قال موسـى كاذب في زعمه فـوق السماء الـرب ذو السلطان
١٥٢٠- فابنـوا ليَ الصـرحِ الرفيع لعلني أرقـى إلـيـه بـحـيـلـة الإنـسـان
١٥٢١- وأظـن موسـى كاذبا فـي قوله الـلـه فـوق الـعـرش ذو السلطان
١٥٢٢- وكـذاك كذّبَـه بـأن إلهه نـاداه بـالـتـكـلـيـم دون عِـيـان

[١] قوله: «في القصص التي، إلخ» أي: في سورة القصص.

١٥٢٣- هو أنكر التكليم والفوقية الـ ـعليا كقول الجهم ذي صفوان

١٥٢٤- فمَن الذي أولى بفرعون إذا منا ومنكم بعد ذا التبيان

١٥٢٥- يا قومنا والله إن لقولنا ألفا تدل عليه بل ألفان[١]

١٥٢٦- عقلا ونقلا مع صريح الفطرة الـ أولى وذوق حلاوة القرآن

١٥٢٧- كلٌّ يدل بأنه سبحانه فوق السماء مباين الأكوان

١٥٢٨- أترون أنا تاركوا ذا كله لجعاجع التعطيل والهذيان

١٥٢٩- يا قوم ما أنتم على شيء إلى أن ترجعوا للوحي بالإذعان

١٥٣٠- وتحكموه في الجليل ودقه تحكيمَ تسليم مع الرضوان

١٥٣١- قد أقسم الله العظيم بنفسه قسما يبين حقيقة الإيمان[٢]

١٥٣٢- أن ليس يؤمن من يكون محكما غير الرسول الواضح البرهان

١٥٣٣- بل ليس يؤمن غير من قد حكم الـ ـوحيين حسب فذاك ذو إيمان

١٥٣٤- هذا وما ذاك المحكم مؤمنا إن كان ذا حرج وضيق بِطان

---

[١] قوله: «**إن لقولنا ألفا، إلخ**» أي: باعتبار الأفراد، لأن كل نوع من هذه الأنواع تبلغ أفراده عددا كثيرا.

[٢] قوله: «**قد أقسم الله، إلخ**» أي: في قوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾(١). فذكر تعالى ثلاثة أمور: التحكيم، ونفي الحرج، والتسليم، وكل واحد منها أخص مما قبله، فالمسلم منتفٍ عنه الحرج، ومحكم للرسول، ومن انتفى عنه الحرج فهو محكم، ولا يلزم أن يكون مسلما، وقد ذكر الناظم الثلاثة، فأشار إلى التحكيم بقوله: «**بل ليس يؤمن غير من قد حكم الوحيين، إلخ**» وإلى نفي الحرج بالبيت بعده، وإلى التسليم بالبيت الثالث.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٥.

١٥٣٥- هــذا وليس بمؤمن حتى يسلـ ... ـــم لـلـذي يـقـضـي بـه الـوحـيـان

١٥٣٦- يا قــوم بالله العظيم نشــدتكم ... وبــحــرمــة الإيــمـــان والــقـــرآن

١٥٣٧- هــل حدثتكم قط أنفســكم بذا ... فــسـلـوا نـفـوسـكـم عـن الإيـمـان

١٥٣٨- لكــن رب العالميــن وجنـده ... ورســولــه الــمــبـعــوثَ بـالـقـرآن

١٥٣٩- هم يشــهدون بأنكــم أعداء من ... ذا شــأنـــه أبـــدا بـكــل زمـــان

١٥٤٠- ولأي شـــيء كان أحمد خصمكم ... أعنـــي ابن حنبــل الرضا الشــيباني

١٥٤١- ولأي شـــيء كان بعــد خصومكم ... أهــل الـحـديـث وعـسـكـر الـقـرآن

١٥٤٢- ولأي شـــيء كان أيضا خصمكم ... شـيـخ الـوجـود الـعـالـم الـحـرانـي

١٥٤٣- أعني أبا العباس ناصر ســنة الـ ... ـــمـخـتـار قـامـع سـنـة الـشـيـطـان

١٥٤٤- واللــهِ لم يك ذنبه شــيئا ســوى ... تــجـريــده لـحـقـيـقـة الإيـمـــان

١٥٤٥- إذ جــرّد التوحيد عن شــرك كذا ... تــجـريـده لـلـوحـي عــن بـهـتـان

١٥٤٦- فتجــرّد المقصــود مــع قصد له ... فـلـذاك لـم ينضف إلـى إنـسـان[١]

١٥٤٧- مــا منهــم أحــد دعــا لمقالــة ... غيـــر الحديـــث ومقتضـــى الفرقان

١٥٤٨- فالقوم لــم يدعو إلى غير الهدى ... ودعـــوتـــم أنـــتـــم لـــرأي فــلان

١٥٤٩- شــتان بين الدعوتين فحســبكم ... يــا قـــوم مــا بـكـم مِــن الـخـذلان

١٥٥٠- قالــوا لنــا لمــا دعوناهــم إلى ... هـــذا مـقـالـة ذي هـــوًى مـلآن

١٥٥١- ذهبت مقادير الشيوخ وحرمة الـ ... ـعـلـمـاء بـل عـبـرتـهـم الـعـيـنـان

١٥٥٢- وتركتــم أقوالهــم هــدرا ومــا ... أصـغــت إلـيـهـا مـنـكـم أذنـــان

١٥٥٣- لكن حفظنا نحــن حرمتهم ولم ... نَـغْـدُ الــذي قـالـوه قـدر بـنـان

---

[١] قوله: «فلذلك لم ينضف إلى إنسان» أي: أن شيخ الإسلام لم يتابع ولم ينضم وينضف إلى أي شخص جاء بما خالف الرسول.

١٥٥٤- يا قوم والله العظيم كذبتم ... وأتيتم بالزور والبهتان

١٥٥٥- ونسبتم العلماء للأمر الذي ... هم منه أهل براءة وأمان

١٥٥٦- واللهِ ما أوصوكم أن تتركوا ... قول الرسول لقولهم بلسان

١٥٥٧- كلا ولا في كتبهم هذا بلى ... بالعكس أوصوكم بلا كتمان

١٥٥٨- إذ قد أحاط العلمُ منهم أنهم ... ليسوا بمعصومين بالبرهان

١٥٥٩- كلا وما منهم أحاط بكل ما ... قد قاله المبعوث بالقرآن

١٥٦٠- فلذاك أوصوكم بأن لا تجعلوا ... أقوالهم كالنص في الميزان

١٥٦١- لكن زِنوها بالنصوص فإن تُوا ... فقها فتلك صحيحة الأوزان

١٥٦٢- لكنكم قدمتم أقوالهم ... أبدا على النص العظيم الشان

١٥٦٣- واللهِ لا لوصية العلماء نفـ ... ـذتم ولا لوصية الرحمن

١٥٦٤- وركبتم الجهلين ثم تركتم النـ ... ـصين مع ظلم ومع عدوان[1]

١٥٦٥- قلنا لكم فتعلموا قلتم أما ... نحن الأئمة فاضلوا الأزمان

١٥٦٦- مِن أين والعلماءُ أنتم فاستحوا ... أين النجوم من الثرى التحتاني

١٥٦٧- لَمْ يُشبه العلماء إلا أنتم ... أشبهتم العلماء في الأذقان

١٥٦٨- واللهِ لا علمٌ ولا دينٌ ولا ... عقل ولا بمروءة الإنسان

١٥٦٩- عاملتم العلماء حين دعوكم ... للحق بل بالبغي والعدوان

١٥٧٠- إن أنتم إلا الذباب إذا رأى ... طُعما فيا لِمساقط الذبّان

١٥٧١- وإذا رأى فزعا تطاير قلبه ... مثل البغاث يساق بالعِقبان

[١] قوله: «وركبتم الجهلين، إلخ» أي: الجهل بما قال الله ورسوله، وبما قال العلماء، والنصين: نص الشارع المحكم، ونص العلماء بقولهم: إذا استبان قول الرسول؛ فخذوا به، ودعوا قولنا.

١٥٧٢- وإذا دعوناكم إلى البرهان كا ... ن جوابكم جهلا بلا برهان

١٥٧٣- نحن المقلدة الألى ألفَوْا كذا ... آباءهم في سالف الأزمان

١٥٧٤- قلنا فكيف تكفرون وما لكم ... علم بتكفيرٍ ولا إيمان

١٥٧٥- إذ أجمع العلماء أن مقلدا ... للناس والأعمى هما أخوان

١٥٧٦- والعلم معرفة الهدى بدليله ... ما ذاك والتقليد مستويان[١]

١٥٧٧- حِرنا بكم والله لا أنتم مع الـ ... ـعلماء تنقادون للبرهان

١٥٧٨- كلا ولا متعلمون فمن تُرى ... تُدعَون نحسبكم من الثيران

١٥٧٩- لكنها واللهِ أنفع منكم ... للأرض في حرث وفي دوران

١٥٨٠- نالت بهم خيرا ونالت منكم الـ ... ـمعهود مِن بغي ومن عُدوان

١٥٨١- فمن الذي خير وأنفع للورى ... أنتم أمِ الثيران بالبرهان

[١] هذا بيت نفيس، ينبغي أن يحفظه كل طالب علم(١).

(١) في هذا الموضع الأبيات الناقصة.

فصل

في بيان هدمهم لقواعد الإسلام والإيمان بعزلهم نصوص السنة والقرآن

٢٣٨٩- يا قوم بالله انظروا وتفكروا ... في هذه الأخبار والقرآن[١]

٢٣٩٠- مِثلَ التدبر والتفكر للذي ... قد قاله ذو الرأي والحسبان

٢٣٩١- فأقل شيء أن يكونا عندكم ... حدًّا سواءً يا أولي العدوان

٢٣٩٢- والله ما استويا لدى زعمائكم ... في العلم والتحقيق والعرفان

٢٣٩٣- عزلوهما بل صرحوا بالعزل عن ... نيل اليقين ورتبة البرهان

٢٣٩٤- قالوا وتلك أدلة لفظية ... لسنا نحكمها على الإيقان

٢٣٩٥- ما أنزلت لينال منها العلم بالـ ... إثبات للأوصاف للرحمن

٢٣٩٦- بل بالعقول ينال ذاك وهذه ... عنه بمعزل غير ذي السلطان

٢٣٩٧- فبجهدنا تأويلها والدفع في ... أكتافها دفعا لذي الصولان[٢]

---

[١] قوله: «يا قوم، إلخ» أي: تدبروا الكتاب والسنة مثل ما تدبرون أقوال شيوخكم، وهذا على أقل الأحوال، وإلا فالواجب تدبر الكتاب والسنة، وترك ما خالفهما.

[٢] قوله: «والدفع في أكتافها دفعا لذي الصولان» أغلب النسخ بالنون، وقراءة شيخنا بالتاء، أي: أكتافها، ولعله أحسن.

٢٣٩٨- ككبير قوم جاء يشهد عند ذي ... حُكم يريد دفاعه بِلَيان[1]

٢٣٩٩- فيقول قدرك فوق ذا وشهادةٌ ... لسواك تصلح فاذهبن بأمان

٢٤٠٠- ويوده لو كان شيء غير ذا ... لكن مخافة صاحب السلطان

٢٤٠١- فلقد أتانا عن كبير فيهم ... وهو الحقير مقالةُ الكفران[2]

٢٤٠٢- لو كان يمكنني وليس بممكن ... لحككت من ذا المصحف العثماني

٢٤٠٣- ذكر استواء الرب فوق العرش لـ ... ـكن ذاك ممتنع على الإنسان

٢٤٠٤- واللهِ لولا هيبة الإسلام والـ ... ـقرآن والأمراء والسلطان

٢٤٠٥- لأتوا بكل مصيبة ولدكدكوا الـ ... إسلام فوق قواعد الأركان

٢٤٠٦- فلقد رأيتم ما جرى لأئمة الـ ... إسلام مِن محن على الأزمان

[١] قوله: «ككبير قوم، إلخ» إشارة إلى قصة وقعت على بعض خلفاء بني أمية، جاء عنده كبير قوم ليشهد، فقال: أنت في مقام كبير، وشهادتك في هذه المسألة تضع من مقامك، فخل من يشهد غيرك؛ فانصرف.

ووقعت أيضا على الفرزدق، جاء ليشهد عند إياس بن معاوية، فقال له: قد قبلنا شهادتك يا أبا فراس، ولكن زيدوني بالشهود. فلما انصرف، قيل له: إنه قد رد شهادتك. فقال: لم أسمع منه إلا خيرا[1].

[٢] قوله: «فلقد أتانا عن كبير فيهم» هو: الجهم بن صفوان، وتقدمت قصته[2].

وتأمل كيف قال المصنف: «كبير فيهم» ولم يقل: «كبير» ويطلق، فلو أطلق ولم يقيده بأنه كبير عندهم لحصل اللبس، ولكن قيّد ذلك بأنه كبير فيهم، وإلا فعند السلف أنه الحقير، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾[3]. فتأمل، فإن السلف لا يطلقون مدح أهل الضلال، إلا بما يخص أنه في قومهم فقط.

(١) انظر: أخبار القضاة ١/ ٣٣٣. (٢) انظر: ص٥٨٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٥٨.

٢٤٠٧- لا سيما لما استمالوا جاهلا ذا قدرة في الناس مع سلطان[١]

٢٤٠٨- وسعوا إليه بكل إفك بين بل قاسموه بأغلظ الأيمان

٢٤٠٩- أن النصيحة قصدهم كنصيحة الشـ ـيطان حين خلا به الأبوان

٢٤١٠- فيرى عمائم ذات أذناب على تلك القشور طويلة الأردان

٢٤١١- ويرى هيولى لا تهول لمبصر وتهول أعمى في ثياب جبان

٢٤١٢- فإذا أصاخ بسمعه ملؤوه مِن كذب وتلبيس ومِن بهتان

٢٤١٣- فيرى ويسمع فشرهم وفشارهم يا محنة العينين والأذنان[٢]

٢٤١٤- فتحوا جراب الجهل مع كذب فخذ واحمل بلا كيل ولا ميزان

٢٤١٥- وأتوا إلى قلب المطاع ففتشوا عما هناك ليدخلوا بأمان[٣]

٢٤١٦- فإذا بدا غرض لهم دخلوا به منه إليه كحيلة الشيطان

٢٤١٧- فإذا رأوه هش نحو حديثهم ظفروا وقالوا ويح آل فلان[٤]

---

[١] قوله: «**لاسيما لما استمالوا جاهلا**» هو: المأمون بن هارون الرشيد، لما استماله رؤساء الجهمية، وأظهروا القول بخلق القرآن ونفي الصفات، وقام بامتحان الناس بذلك، حصل للأئمة من الامتحان والكروب ما هو معروف في التواريخ، ولكن أعجلته المنية، فأوصى إلى أخيه المعتصم، وحصل من المحن ما حصل، وحبسوا الإمام، وضربوه، والقصة مشهورة، وكانوا لا يولون قاضيا ولا غيره إلا أن يقول بخلق القرآن، ولما وقع أناس من المسلمين أسارى عند عدوهم، جعل القاضي أحمد بن أبي دؤاد لا يفدي إلا من قال بخلق القرآن، ولكن المأمون كان يداري أوّلا بهذه المسألة، ثم صدع بذلك.

[٢] قوله: «**فشرهم وفشارهم**» هو الكلام الساقط.

[٣] قوله: «**المطاع**» هو الجاهل المتقدم، أي: المأمون.

[٤] قوله: «**هش**» أي: طرب وانبسط.

٢٤١٨- هو في الطريق يعوق مولانا عن الـ ـــمقصود وهو عـدو هذه الشـان
٢٤١٩- فإذا هم غرسوا العـداوة واظبوا سـقي الغراس كفعل ذي البسـتان
٢٤٢٠- حتـى إذا مـا أثمرت وَدَنـا لهم وقـتُ الـجـذاذ وصـار ذا إمـكان
٢٤٢١- ركبوا علـى حرد لهـم وحمية واسـتنجدوا بعسـاكر الشـيطان[١]
٢٤٢٢- فهنالـك ابتليت جنـود الله من جـنـد اللـعـين بسـائر الألـوان
٢٤٢٣- ضربـا وحبسـا ثم تكفيـرا وتبـ ـديعـا وشـتمـا ظـاهـر البـهتـان
٢٤٢٤- فلقـد رأينـا مـن فريـق منهـم أمـرا تُـهـد لـه قـوى الإيـمـان
٢٤٢٥- من سـبهم أهل الحديث وذنبُهم أَخـذُ الـحـديـث وتـركُ قـول فلان
٢٤٢٦- يـا أمّـة غضـب الإلـه عليهم ألأجـل هـذا تـشـتـمـوا بـهـوان
٢٤٢٧- تبا لكـم إذ تشـتمون زوامل الـ إسـلام حـزب الـلـه والـقـرآن
٢٤٢٨- وسـببتموهم ثـم لسـتم كفأهم فـرأوا مـسـبـتـكـم مـن الـنـقـصـان
٢٤٢٩- هـذا وهـم قبلـوا وصيـة ربهم فـي تـركـهـم لـمـسـبـة الأوثـان
٢٤٣٠- حـذر المقابلـة القبيحـة منهم بـمـسـبـة الـقـرآن والـرحـمـن
٢٤٣١- وكذاك أصحـاب الحديث فإنهم ضـربـت لـهـم ولـكـم بـذا مـثـلان
٢٤٣٢- سـبّوكم جُهالُهـم فسـببتم سـنـن الـرسـول وعـسـكـر الإيـمـان
٢٤٣٣- وصددتم سـفهاءكم عنهم وعن قـول الرسـول وذا مـن الطغيـان
٢٤٣٤- ودعـوتموهم للذي قالته أشـ ـياخ لكـم بالخرص والحسـبان
٢٤٣٥- فأبـوا إجابتكـم ولـم يتحيّـزوا إلا إلـى الآثـار والـقـرآن

---

[١] قوله: «حرد لهم وحمية، إلخ» أغلب النسخ بالجيم، ووجّه شيخنا أنه بالحاء المهملة، أي: حرد، وهو البغض والشح والحرص، قال: ولعله أولى، بدليل عطف الحمية عليه، وكلاهما من صفات القلوب.

٢٤٣٦- وإلى أولي العرفان من أهل الحديـ ـث خلاصة الأكوان والإنسان

٢٤٣٧- قوم أقامهم الإله لحفظ هـ ـذا الدين من ذي بدعة شيطان

٢٤٣٨- وأقامهم حرسا من التبديل والتـ ـحريف والتتميم والنقصان

٢٤٣٩- يزَك على الإسلام بل حصن له يأوي أليه عساكر الفرقان

٢٤٤٠- فَهُم المحك فمن يرى متنقِّصا لهم فزنديق خبيثٌ جان

٢٤٤١- إن تتهمه فقبلك السلف الألى كانوا على الإيمان والإحسان

٢٤٤٢- أيضا قد اتهموا الخبيث على الهدى والعلم والإيمان والقرآن

٢٤٤٣- وهو الحقيق بذاك إذ عادى روا ة الدين وهي عداوة الديان

٢٤٤٤- فإذا ذكرت الناصحين لربهم وكتابه ورسوله بلسان

٢٤٤٥- فاغسله ويلك من دم التعطيل والتـ ـكذيب والكفران والبهتان

٢٤٤٦- أتسبهم عَدْوا ولست بكفئهم فالله يفدي حزبه بالجاني

٢٤٤٧- قوم هم بالله ثم رسوله أولى وأقرب منك للإيمان

٢٤٤٨- شتان بين التاركين نصوصه حقا لأجل زبالة الأذهان

٢٤٤٩- والتاركين لأجلها آراء من آراؤهم ضرب من البهتان

٢٤٥٠- لما فسا الشيطان في آذانهم ثقلت رؤوسهم عن القرآن[١]

٢٤٥١- فلذاك ناموا عنه حتى أصبحوا يتلاعبون تلاعب الصبيان

٢٤٥٢- والركب قد وصل العلى وتيمموا من أرض طيبة مطلع الإيمان

٢٤٥٣- وأتوا إلى روضاتها وتيمموا من أرض مكة مطلع القرآن

---

[١] قوله: «**لما فسا الشيطان، إلخ**» انظر: هل هو فساء حقيقي، أو مجاز؟ ميل شيخنا إلى الثاني. ومثله قوله ﷺ: «**ذلك رجل بال الشيطان في أذنه**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري ١١٤٤، ومسلم ٢٠٥-٧٧٤، عن ابن مسعود.

٢٤٥٤- قوم إذا ما ناجذا نص بدا ... طاروا له بالجمع والوُحدان

٢٤٥٥- وإذا بدا علم الهدى استبقوا له ... كتسابق الفرسان يوم رهان

٢٤٥٦- وإذا هم سمعوا بمبتدع هذى ... صاحوا به طرا بكل مكان

٢٤٥٧- ورثوا رسول الله لكن غيرُهم ... قد راح بالنقصان والحرمان

٢٤٥٨- وإذا استهان سواهم بالنص لم ... يرفع به رأسا من الخسران

٢٤٥٩- عضوا عليه بالنواجذ رغبة ... فيه وليس لديهم بمهان

٢٤٦٠- ليسوا كمن نبذ الكتاب حقيقة ... وتلاه قصد تبرك وفلان

٢٤٦١- عزلوه في المعنى وولوا غيره ... كأبي الربيع خليفة السلطان

٢٤٦٢- ذكروه فوق منابر وبسكة ... رقموا اسمه في ظاهر الأثمان

٢٤٦٣- والأمر والنهي المطاع لغيره ... ولمهتد ضربت بذا مثلان

٢٤٦٤- يا للعقول أيستوي من قال بالـ ... ـقرآن والآثار والبرهان[١]

٢٤٦٥- ومخالف هذا وفطرة ربه ... الله أكبر كيف يستويان

٢٤٦٦- بل فطرة الله التي فطروا على ... مضمونها والعقل مقبولان

٢٤٦٧- والوحي جاء مصدقا لهما فلا ... تُلق العداوة ما هما حربان

٢٤٦٨- سِلمان عند موفَّق ومصدِّق ... والله يشهد إن هما سِلمان

---

[١] قوله: «يا للعقول، إلخ» مضمون هذه الأبيات: أن العقل الصريح موافق للنقل الصحيح، فلا يوجد عقل صريح يخالف نقلا صحيحا، وإن وجد؛ فإما أن يكون العقل فاسدا، أو النقل غير صحيح، وقد فصل ذلك شيخ الإسلام في كتاب «العقل والنقل» بما لا مزيد عليه. وإذا وجد نصان يظن أن بينهما معارضة؛ فذلك من سوء الفهم، وإلا فلا بد من الجمع بينهما، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[١].

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

٢٤٦٩- فإذا تعارض نصٌّ لفظٍ واردٍ ... والعقلُ حتى ليس يلتقيان

٢٤٧٠- فالعقل إما فاسد ويظنه الرّ ... ائي صحيحا وهو ذو بطلان

٢٤٧١- أو أن ذاك النص ليس بثابت ... ما قاله المعصوم بالبرهان

٢٤٧٢- ونصوصه ليست يُعارض بعضُها ... بعضا فسل عنها عليم زمان

٢٤٧٣- وإذا ظننت تعارضا فيها فذا ... من آفة الأفهام والأذهان

٢٤٧٤- أو أن يكون البعض ليس بثابت ... ما قاله المبعوث بالقرآن

٢٤٧٥- لكنّ قولَ محمدٍ والجهمِ في ... قلب الموحد ليس يجتمعان[١]

٢٤٧٦- إلا ويطرد كلٌّ قول ضده ... فإذا هما اجتمعا فمقتتلان

٢٤٧٧- والناس بعد على ثلاث حزبُه ... أو حربُه أو فارغ مُتوان

٢٤٧٨- فاختر لنفسك أين تجعلُها فلا ... واللهِ لست برابع الأعيان

٢٤٧٩- من قال بالتعطيل فهو مكذب ... لجميع رسل الله والفرقان

٢٤٨٠- إن المعطل لا إله له سوى الـ ... ـمنحوت بالأفكار في الأذهان

٢٤٨١- وكذا إله المشركين نحيتة الـ ... أيدي هما في نحتهم سيان

٢٤٨٢- لكن إله المرسلين هو الذي ... فوق السماء مُكوّن الأكوان

٢٤٨٣- واللهِ قد نسب المعطل كلَّ من ... بالبينات أتى إلى الكتمان

٢٤٨٤- واللهِ ما في المرسلين مُعطِّل ... نافِ صفات الواحد الرحمن

٢٤٨٥- كلا ولا في المرسلين مشبه ... حاشاهم من إفك ذي بهتان

٢٤٨٦- فخذ الهدى من عبده وكتابه ... فهما إلى سبل الهدى سببان

---

[٤٦١] قوله: «لكن قول محمد والجهم، إلخ» لما ذكر أن العقل لا يخالف النقل، صرّح بأن مراده العقل الصريح، وأما أقوال الجهمية وادعاؤهم أنهم أهل العقليات؛ فهذا كذب، بل هي جهليات، ولا أضل وأسفه ممن نبذ الكتاب والسنة، وأخذ بأقوال علماء اليونان والفلاسفة الملاحدة.

فصل

في إبطال قول الملحدين: إن الاستدلال بكلام الله ورسوله لا يفيد العلم واليقين

٢٤٨٧- واحـذر مقـالات الذيـن تفرقوا ... شيـعـا وكـانـوا شيـعـة الـشـيـطـان

٢٤٨٨- واسـأل خبيرا عنهـم ينبيك عن ... أسـرارهـم بـنـصـيـحـة وبـيـان

٢٤٨٩- قالـوا الهدى لا يسـتفاد بسـنة ... كلا ولا أثـر ولا قـرآن

٢٤٩٠- إذ كل ذاك أدلـة لفظيـة ... لـم تـبـد عـن عـلـم ولا إيـقـان

٢٤٩١- فيهـا اشـتراكٌ ثم إجمـال يُرى ... وتـجـوّزٌ بـالـزّيـد والـنـقـصـان

٢٤٩٢- وكذلك الإضمار والتخصيص والـ ... ـحذف الـذي لـم يُـبـد عـن تبيان

٢٤٩٣- والنقـل آحـاد فموقـوف علـى ... صـدق الـرواة ولـيـس ذا بـرهـان

٢٤٩٤- إذ بعضهم في البعض يقدح دائما ... والـقـدح فـيـهـم فـهـو ذو إمـكـان

٢٤٩٥- وتواتـر وهـو القليـل ونـادر ... جـدا فـأيـن الـقـطـع بـالـبـرهـان[١]

---

[١] ذكر الناظم رحمه الله أنهم يقولون: الهدى لا يستفاد بالكتاب ولا بالسنة ولا بالأثر، لأنها أدلة لفظية، وفيها الاشتراك والإجمال والمجاز، وكذلك الإضمار والتخصيص والحذف. هذا في الكتاب. وأما السنة: فبعضها آحاد، وهو موقوف على صدق الرواة، وليس صدقهم بمتيقن، لأن بعضهم يقدح في بعض، فمن أين لنا صدقهم؟ وبعضها متواتر، ولكنه قليل نادر.

هذا من جهة توفر الشروط. وأما السلامة من الموانع فذكره بقوله:

٢٤٩٦- هـذا ويحتـاج السـلامة بَعدُ مِن ذاك المعارض صاحب السـلطان[١]

٢٤٩٧- وهو الذي بالعقـل يُعرف صدقه والـنـفـي مـظـنـون لـدى الإنـسـان

٢٤٩٨- فلأجـل هذا قـد عزلناهـا ولّـ يـنـا الـعـقـول ومـنـطـق الـيـونـان

٢٤٩٩- فانظر إلى الاسـتلام كيف بقاؤه مـن بعد هـذا الـقـول ذي البطلان

٢٥٠٠- وانظـر إلى القرآن معـزولا لديـ ـهـم عــن نـفـوذ ولايــة الإيـقـان

٢٥٠١- وانظر إلى قول الرسول كذاك معـ ـزولا لـديـهـم لـيـس ذا سلطان

٢٥٠٢- واللـهِ مـا عزلـوه تعظيمـا لـه أيـظـن ذلـك قـط ذو عـرفـان

٢٥٠٣- يـا ليتهـم إذ يَحكمـون بعزلـه لـم يـرفـعـوا رايــات جنكسخان

٢٥٠٤- يـا ويحهمم ولّـوا نتائج فكرهم وقـضـوا بـهـا قطعا عـلـى الـقـرآن

٢٥٠٥- ورُذالهم ولوا إشـارات ابن سـيـ ـنـا حـيـن ولّـوا منطق الـيـونـان

٢٥٠٦- وانظـر إلى نـص الكتاب مجدّلا وسـط الـعـريـن مـمـزّق اللحمان

٢٥٠٧- بالطعن بالإجمال والإضمار والتّـ ـخـصـيـص والـتـأويـل بالبهتان

٢٥٠٨- وبالاشـتراك وبالمجاز وحذف ما شــاؤوا بـدعــواهــم بــلا بـرهــان

٢٥٠٩- وانظـر إليـه ليس ينفـذ حكمُه بـيـن الـخـصـوم ومــا لـه مـن شـان

٢٥١٠- وانظـر إليـه ليـس يُقبـل قوله فـي الـعـلـم بـالأوصـاف للرحمن

٢٥١١- لكنمـا المقبـول حكم العقل لا أحـكـامـه لا يـسـتـوي الـحُـكـمـان

٢٥١٢- يبكـي عليـه أهلـه وجنـوده بـدمـائـهـم ومـدامـع الأجـفـان

٢٥١٣- عهـدوه قدما ليـس يحكم غيرُه وســواه مـعـزول عــن الـسـلـطـان

٢٥١٤- إن غاب نابت عنه أقوال الرسو ل هما لهم دون الـورى حَكمان

---

[١] «هذا ويحتاج السلامة، إلخ» وهو أن العقل لا يوافق ولا يسلم لما ورد بالكتاب والسنة، والقاعدة عندهم: أن العقل يُقدم على النقل.

٢٥١٥- فأتاهـم مـا لم يكن فـي ظنهم ... مِن حكم جنكسخان ذي الطغيان

٢٥١٦- بجنـود تعطيـل وكفـران من الـ ... ـمغـول ثـم الـلاص والـعَـلّان[1]

٢٥١٧- فعلـوا بملتـه وسـنته كمـا ... فـعـلـوا بـأمـتـه مـن الـعـدوان

٢٥١٨- والله ما انقادوا لجنكسـخان حتـ ... ـى أعـرضـوا عـن محكم الـقـرآن

٢٥١٩- والله مـا ولـوه إلا بعـد عـز ... ل الـوحـي عـن علـم وعـن إيقـان

٢٥٢٠- عزلوه عن سـلطانه وهـو اليقيـ ... ـن المسـتفاد لنـا من السـلطان

٢٥٢١- هذا ولم يكف الـذي فعلوه حتـ ... ـى تـمـمـوا الـكـفـران بالبهتان

٢٥٢٢- جعلوا القرآن عضين إذ عضوه أنـ ... ـواعـا مـعـددة مـن الـنـقـصـان[2]

٢٥٢٣- منهـا انتفـاء خروجـه مـن ربنا ... لـم يَـبـدُ مِـن رب ولا رحـمـن

٢٥٢٤- لكنـه خلـق مـن اللـوح ابتـدا ... أو جبرئيـل أو الرسـول الثانـي[3]

٢٥٢٥- مـا قالـه رب السـموات العلى ... ليـس الـكلام بوصـف ذي الغفران

٢٥٢٦- تبـا لهم سـلبوه أكمـل وصفه ... عضهـوه عضـه الرّيـب والكفران

٢٥٢٧- هـل يسـتوي بالله نسـبته إلى ... بـشـر ونـسـبـتـه إلـى الـرحـمـن

٢٥٢٨- مـن أيـن للمخلوق عـزّ صفاته ... الـلـه أكـبـر لـيـس يـسـتـويـان

٢٥٢٩- بين الصفـات وبين مخلوق كما ... بـيـن الإلـه وهـذه الأكـوان

٢٥٣٠- هـذا وقـد عضهـوه أن نصوصه ... مـعـزولـة عـن إمـرة الإيـقـان

---

[١] قوله: «**من المغول ثم اللاص والعلان**» هذه أسماء طوائف من التتر، والظاهر أنها اللان، بالنون لا بالصاد.

[٢] قوله: «**جعلوا القرآن عضين، إلخ**» أي: فرقوه أنواعا، فمنها: أنهم جعلوه مخلوقا. ومنها: أنهم جعلوه معزولا عن اليقين.

[٣] قوله: «**والرسول الثاني**» هو محمد ﷺ، وأما الرسول الأول فهو جبريل.

٢٥٣١- لكـن غايتهـا الظنـون وليتـه ظـنـا يـكـون مـطـابـقـا بـبـيـان
٢٥٣٢- لكـن ظواهـرُ لا يطابـق ظنُّهـا مـا فـي الـحـقـيـقـة عـنـدنـا بـوِزان
٢٥٣٣- إلا إذا مـا أوّلـت فمجازهـا بـزيـادة فـيـهـا أو الـنـقـصـان
٢٥٣٤- أو بالكنايـة واسـتعارات وتشـ ـبيـه وأنـواع الـمـجـاز الـثـانـي
٢٥٣٥- فالقطـع ليس يفيـده والظن منـ ـفـي كـذلـك فـانـتـفـى الأمـران
٢٥٣٦- فلـم الملامـة إذ عزلناهـا ولـ ـينـا الـعـقـول وفـكـرة الأذهـان
٢٥٣٧- فالله يُعظم في النصوص أجورَكم يـا أمـة الآثـار والـقـرآن
٢٥٣٨- ماتـت لدى الأقـوام لا يحيونها أبـدا ولا تـحـيـيـهـم لـهـوان
٢٥٣٩- هذا وقولهم خـلاف الحس والـ ـمـعـقـول والـمـنـقـول والـبـرهـان
٢٥٤٠- مع كونه أيضـا خلاف الفطرة الـ أولـى وسـنـة ربـنـا الـرحـمـن[١]
٢٥٤١- فاللـه قد فطر العبـاد على التفا هـم بالخطـاب لمقصـد التبيـان
٢٥٤٢- كل يـدل على الذي في نفسـه بـكـلامـه مـن أهـل كـل لـسـان
٢٥٤٣- فتـرى المخاطَـب قاطعا بمراده هـذا مـع التقصير فـي الإنـسـان[٢]

---

[١] قوله: «**خلاف الفطرة الأولى**» أي: التي لم تدنس بشبهات الشكوك والتلبيس والتحريف والتعطيل، بخلاف الفطرة الثانية المتغيرة بذلك.

[٢] قوله: «**فترى المخاطَب قاطعا بمراده**» أي: أن السامع -وهو المخاطب، بفتح الطاء- قاطع بمراد المتكلم. **ومعنى ذلك**: أن الله قد فطر العباد على أن كل إنسان إذا أراد أن يعبر عما في ضميره تكلم بما يفهم غيره ذلك بلغته، هذا مع أن الإنسان قاصر عن رتبة النبي ﷺ في البيان، وأما كلام الباري جل ذكره فهو في الذروة العليا من التبيان، ولذلك لا تجد في كلام الناس -أولهم وآخرهم- بل ولا في الصحف المتقدمة من فصاحة الألفاظ وجزالة المعاني وكثرة النفع للناس مثل ما تجد في القرآن.

٢٥٤٤- إذ كل لفظ غير لفظ نبينا ... هو دونه في ذا بلا نكران

٢٥٤٥- حاشا كلام الله فهو الغاية الـ ... ـقصوى له أعلى ذُرى التبيان

٢٥٤٦- لم يفهم الثقلان من لفظ كما ... فهموا من الأخبار والقرآن

٢٥٤٧- فهو الذي استولى على التبيان كاسـ ... ـتيلائه حقا على الإحسان

٢٥٤٨- ما بعد تبيان الرسول لناظر ... إلا العمى والعيبُ في العميان

٢٥٤٩- فانظر إلى قول الرسول لسائل ... من صحبه عن رؤية الرحمن

٢٥٥٠- حقا ترون إلهكم يوم اللقا ... رؤيا العِيان كما يُرى القمران

٢٥٥١- كالبدر ليل تمامه والشمس في ... نحر الظهيرة ما هما مثلان

٢٥٥٢- بل قصده تحقيق رؤيتنا له ... فأتى بأظهر ما يُرى بعيان[١]

٢٥٥٣- ونفى السحاب وذاك أمر مانع ... من رؤية القمرين في ذا الآن

٢٥٥٤- فأتى إذا بالمقتضي ونفى الموا ... نع خشية التقصير في التبيان[٢]

---

[١] أي: أنه تشبيه لرؤية بالرؤية، لا تشبيها للمرئي بالمرئي.

[٢] قوله: «**فأتى إذا بالمقتضي، إلخ**» أي: أنه أتى بالمقتضي، وهو السبب الذي يوجد معه المسبب وهو المقتضَى، وهو تمثيله للرؤية بالشمس في نحر الظهيرة.

قوله: «**ونفى الموانع**» وهي الغيم.

وهذه القاعدة: أن الحكم لا يتم إلا بتمام شروطه وهو المقتضي، وانتفاء موانعه، وأما إذا تعارض المانع والمقتضي فإنه يقدم المانع، كما قيل(١):

قالوا فلان عالم فاضل ... فأكرموه مثل ما ينبغي

فقلت لمّا لم يكن ذا تقى ... تعارض المانع والمقتضي

---

(١) قالهما: ابن دقيق العيد. انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد ٨/ ١٣.

٢٥٥٥- صلى عليه الله ما هذا الذي ... يأتي به من بعد ذا ببيان

٢٥٥٦- ماذا يقول القاصد التبيان يا ... أهل العمى مِن بعد ذا التبيان

٢٥٥٧- فبأي لفظ جاءكم قلتم له ... ذا اللفظ معزول عن الإيقان

٢٥٥٨- وضربتم في وجهه بعساكر التـ ... ـأويل دفعا منكم بلِيان

٢٥٥٩- لو أنكم والله عاملتم بذا ... أهلَ العلوم وكتبهم بوِزان

٢٥٦٠- فسدت تصانيف الوجود بأسرها ... وغدت علومُ الناس ذاتَ هوان

٢٥٦١- هذا وليسوا في بيان علومهم ... مثلَ الرسول ومنزلِ القرآن

٢٥٦٢- واللهِ لو صح الذي قد قلتم ... قطعت سبيلُ العلم والإيمان

٢٥٦٣- فالعقل لا يهدي إلى تفصيلها ... لكنّ ما جاءت به الوحيان

٢٥٦٤- فإذا غدا التفصيل لفظيا ومعـ ... ـزولا عن الإيقان والرجحان

٢٥٦٥- فهناك لا عِلما أفادت لا ولا ... ظنا وهذا غاية الحرمان

٢٥٦٦- لو صح ذاك القول لم يحصل لنا ... قطعٌ بقول قط مِن إنسان

٢٥٦٧- وغدا التخاطب فاسدا وفساده ... أصل الفساد لنوع ذا الإنسان

٢٥٦٨- ما كان يحصل علمنا بشهادة ... ووصية كلا ولا إيمان

٢٥٦٩- وكذلك الإقرار يصبح فاسدا ... إذ كان محتملا لسبع معان

٢٥٧٠- وكذا عقود العالمين بأسرها ... باللفظ إذ يتخاطب الرّجلان

٢٥٧١- أيسوغ للشهدا شهادَتهم بها ... من غير علم منهم ببيان

٢٥٧٢- إذ تِكلم الألفاظُ غيرُ مفيدة ... للعلم بل للظن ذي الرجحان

٢٥٧٣- بل لا يسوغ لشاهد أبدا شها ... دته على مدلولِ نطق لسان

٢٥٧٤- بل لا يراق دمٌ بلفظ الكفر من ... متكلم بالظن والحسبان

٢٥٧٥- بل لا يباح الفرج بالإذن الذي ... هو شرط صحته من النسوان

٢٥٧٦- أيســوغ للشــهداء جزمهــم بأن رضـيَــت بـلـفـظ قـابـل لـمـعـان

٢٥٧٧- هــذا وجملــة مــا يقــال بأنــه فــي ذا فــسـادُ الـعـقـل والأديــان

٢٥٧٨- هــذا ومــن بهتانهــم أن اللغــا ت أتت بنقــل الفــرد والوحدان[١]

[١] قوله: «**هذا ومن بهتانهم أن اللغات، إلخ**» هذا مبني على قاعدة فيها خلاف، وهي: هل اللغة العربية وغيرها من اللغات منقولة نقلا، بحيث إنها توقيفية، فلا يعلم الناس أن هذا جملا، وهذه نخلة، وهذا حصان، وهذا سماء، وهذه أرض، إلا بالنقل؟ أو أنها أمر جاري مجرى الضروريات التي فطر عليها الناس؟

مذهب الجهمية وأكثر الأشاعرة: الأول. والصحيح مذهب السلف: الثاني.

فعلى الأول قال الجهمية: إنها تحتاج نقلا، لنعلم أنها دالة على معانيها، وإلا فنهاية دلالتها ظنون، فلا تعارض العقل الصريح عندهم الذي يزنون به الأشياء من نص أو غيره.

وأما الصواب: فإنه تدل على ذلك أتم دلالة، ولا تحتاج إلى نقل «**إلا الأقل فإنه يحتاج إلى نقل**» وهو المسمى بغريب اللغة.

قالت الجهمية: إذا كان لفظ «الله» قد اختلف الناس فيها: هل وضعها عربي، أم سرياني؟ والقائلون بأنه عربي اختلفوا: هل هو مشتق أو جامد؟ والقائلون بأنه مشتق اختلفوا: من أي شيء مشتقة، هل من أَلِهَ، أو تأله؟ فكيف يكون الاختلاف في غيرها من الألفاظ، فرد عليهم الناظم بقوله:

«**فانظر بحق الله، إلخ**» أي: أنهم لم يختلفوا أن الله هو رب العالمين ومدبرهم وخالقهم، وإنما الخلاف في أحوال هذه اللفظة: هل مشتقة الخ.

ومثل ذلك قولهم: إن لفظ «مكة» فيها خلاف بينهم، هل مشتقة أم جامدة؟ وإذا كانت مشتقة، من أي: معنى اشتق منها؟ فيقال: إن اختلافهم في أحوالها، لا في وضعها، بل هو باتفاق الناس أن «مكة» موضوعة للبلد المعروف الذي فيه الكعبة.

ومثل ذلك: «أحمد»، إذا اختلفوا فيه، فاختلافهم في اشتقاقه، ومن أين اشتقاقه، لا في وضعه.

٢٥٧٩- فانظر إلى الألفاظ في جريانها ... في هذه الأخبار والقرآن
٢٥٨٠- أتظنها تحتاج نقلا مسندا ... متواترا أو نقل ذي وحدان
٢٥٨١- أم قد جرت مجرى الضرورات لا ... تحتاج نقلا وهي ذات بيان
٢٥٨٢- إلا الأقل فإنه يحتاج للنـ ... ـقل الصحيح وذاك ذو تبيان
٢٥٨٣- ومن المصائب قول قائلهم بأن ... الله أظهر لفظة بلسان
٢٥٨٤- وخلافهم فيه كثير ظاهر ... عربيٌّ وضعٍ ذاك أم سرياني
٢٥٨٥- وكذا اختلافهم أمشتقا يُرى ... أم جامدا قولان مشهوران
٢٥٨٦- والأصل ماذا فيه خُلف ثابت ... عند النحاة وذاك ذو ألوان
٢٥٨٧- هذا ولفظ «الله» أظهر لفظة ... نطق اللسان بها مدى الأزمان
٢٥٨٨- فانظر بحق الله ماذا في الذي ... قالوه مِن لَبس ومن بهتان
٢٥٨٩- هل خالف العقلاء أن الله ر ... ب العالمين مدبر الأكوان
٢٥٩٠- ما فيه إجمال ولا هو موهم ... نقلَ المجاز ولا له وَضعان
٢٥٩١- والخلف في أحوال ذاك اللفظ لا ... في وضعه لم يختلف رجلان
٢٥٩٢- وإذا هم اختلفوا بلفظة مكة ... فيه لهم قولان معروفان
٢٥٩٣- أفبينهم خُلف بأن مرادهم ... حرمُ الإله وقبلةُ البلدان
٢٥٩٤- وإذا هم اختلفوا بلفظة أحمد ... فيه لهم قولان مذكوران
٢٥٩٥- أفبينهم خلف بأن مرادهم ... منه رسول الله ذو البرهان
٢٥٩٦- ونظير هذا ليس يُحصر كثرة ... يا قوم فاستحيوا من الرحمن
٢٥٩٧- أبمثل ذا الهذيان قد عزلت نصو ... ص الوحي عن علم وعن إيقان
٢٥٩٨- فالحمد لله المعافي عبده ... مما بلاكم يا ذوي العرفان
٢٥٩٩- فلأجل ذا نبذوا الكتاب وراءهم ... ومضوا على آثار كل مُهان

٢٦٠٠- ولأجل ذاك غدوا على السنن التي   جـــاءت وأهــلــيــهــا ذوي أضــغــان

٢٦٠١- يرمونهــم بَهتــا بــكل عظيمــة   حــاشــاهــم مــن إفــك ذي بــهــتــان

فصل

في تنزيه أهل الحديث والشريعة عن الألقاب القبيحة الشنيعة[1]

٢٦٠٢- فرموهم بغيا بما الرامي به أولى ليدفع عنه فعلَ الجاني

٢٦٠٣- يرمي البريء بما جناه مُباهتا ولذاك عند الغر يشتبهان

٢٦٠٤- سموهم حشوية ونوابتا ومجسمين وعابدي أوثان

٢٦٠٥- وكذاك أعداء الرسول وصحبه وهم الروافض أخبث الحيوان

٢٦٠٦- نصبوا العداوة للصحابة ثم سمـ ـوا بالنواصب شيعة الرحمن

٢٦٠٧- وكذا المعطل شبه الرحمن بالـ ـمعدوم فاجتمعت له الوصفان

٢٦٠٨- وكذاك شبّه قولَه بكلامنا حتى نفاه وذان تشبيهان

٢٦٠٨- وكذاك شبه وصفه بصفاتنا حتى نفاها عنه بالبهتان

٢٦١٠- وأتى إلى وصف الرسول لربه سمّاه تشبيها فيا إخواني

٢٦١١- بالله مَن أولى بهذا الاسم من هذا الخبيث المخبث الشيطان

---

[١] وملخص هذا الفصل: أنهم اتصفوا بأشياء قبيحة، فرموا بها أهل الحديث، نظير ما فعلت الروافض لما نصبوا العداوة للصحابة، سموهم: نواصب، وأما هؤلاء فإنهم لما سمعوا صفات الله؛ شبهوه بالحيوانات، ثم نفوها عنه مخافة التشبيه، فشبهوه بالمعدومات، فحصل لهم تشبيهان.

٢٦١٢- إن كان تشـبيها ثبـوتُ صفاتـه سبـحـانـه أكـمـل بـه ذي شـان[١]

٢٦١٣- لكـن نفـي صفاتـه تشـبيهُه بالجامـدات وكلِّ ذي نقصـان

٢٦١٤- بل بالذي هو غير شيء وهو معـ ـدوم وإن يُـفـرض فـفـي الأذهـان

٢٦١٥- فمـن المشـبِّه بالحقيقـة أنتم أم مـثـبـتُ الأوصـاف لـلـرحـمـن

[١] قوله: «أكمل به ذي شان» أي: إن كان إثبات صفاته تشبيها فشبهوه بما هو أكمل شأنا وأعظم قدرا، وهو الحيوانات، لأنها أكمل من الجمادات، وهي أكمل من المعدومات(١).

(١) وهذا آخر ما وقفت عليه من التعليقات. أسأل الله جل وعلا أن ينفع بها الجميع، وأن يغفر للشيخين: عبد الرحمن السعدي، وعبد الله ابن عقيل، وأن يجزيهما عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.
وكان الفراغ من الاعتناء بها بتاريخ: الجمعة، ٩/ ١٢/ ١٤٣٥هـ.
وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

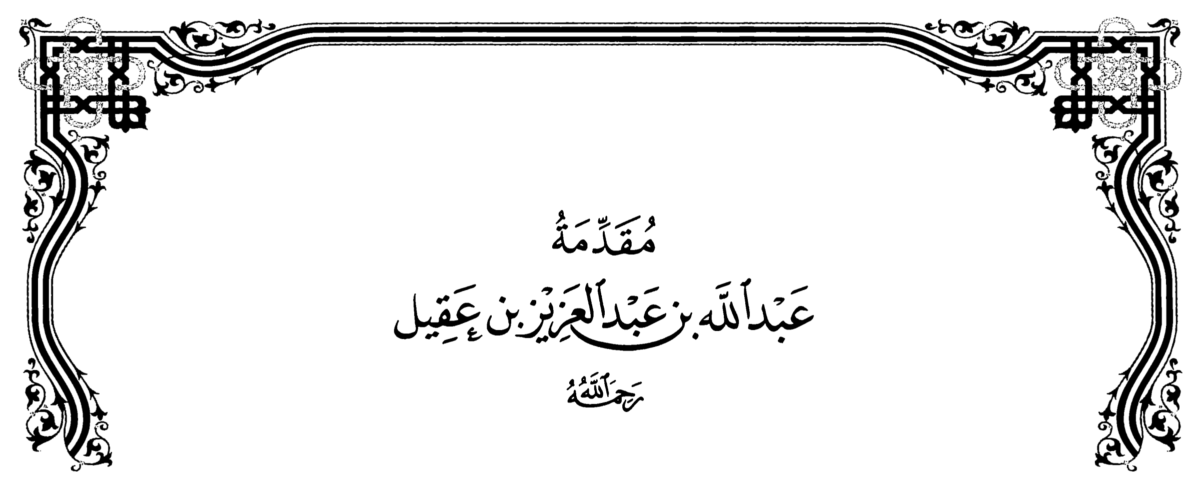
مجموع مؤلفات ابن سعدي (٣٥)

التعليقات السعدية
على قطعة من العقيدة السفارينية

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

قيده عنه وزاد عليها من الفوائد تلميذه
الشيخ العلامة
عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل
رحمه الله

اعتنى بإخراجه
أبو عبد الله بلال بن محمود عدار الجزائري



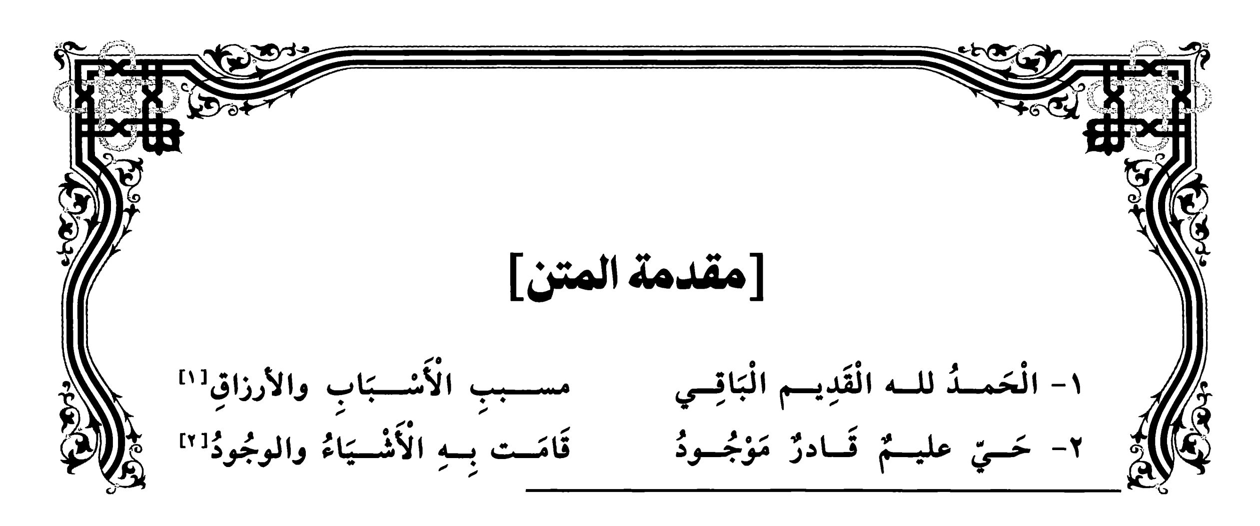
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وإياه نستعين

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُه ونستعينه، ونعوذُ باللهِ مِن شرورِ أنفسِنا ومِن سيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضللْ فلا هاديَ له.

أما بعد:

فهذه فوائد لطيفة وتعليقات نفيسة على متن عقيدة الشيخ الإمام العلامة: محمد بن أحمد السفاريني؛ صاحب التصانيف الشهيرة، المولود سنة ١١١٣ بقرية سفارين، المتوفَّى سنة ١١٨٨، أو سنة ١١٨٩، علّقتُ عليها وقتَ قراءتِنا إيَّاها على شيخِنا، حفظه الله، من تقريراته وغيرها.



[مقدمة المتن]

١- الْحَمدُ لله الْقَدِيم الْبَاقِي مسببِ الْأَسْبَابِ والأرزاقِ[١]

٢- حَيّ عليمٌ قَادرٌ مَوْجُودُ قَامَت بِهِ الْأَشْيَاءُ والوجُودُ[٢]

[١] فائدة:

تعريف هذا العلم: هو: علم أصول الدين؛ مسائله ودلائله.

وحكمه: الوجوب.

وفائدته: الفوز بسعادة الدنيا والآخرة.

واستمداده: من الكتاب والسنة والإجماع، وهذه الثلاثة -مع القياس- هي الأصول التي يَبني عليها الأصوليون والفروعيّون.

قوله: «الحمد لله القديم» هذا ليس من الأسماء الحسنى، بل من باب الخبر عن الله، وبابُ الخبرِ أوسعُ من بابِ الإنشاءِ، فيُخبَر عن الله تعالى بألفاظ لا يصحّ أن يُسمَّى بها إنشاءً. وكذلك قوله: «موجود».

وأما قوله: «الباقي» فرواها الترمذي من الأسماء الحسنى(١).

قوله: «مسبب الأسباب» وفي نسخة: «مقدّر الآجال والأرزاق»؛الأرزاق داخلة في جملة الأسباب، فهو تخصيص بعد تعميم.

[٢] قوله: «قامت به الأشياء والوجود» هذا أحد معنى: القيّوم، فإنه الذي قام بنفسه، وقام به غيره.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٩٤٥).

٣- دلّت على وجوده الْحَوَادِثُ	سُبْحَانَهُ فَهُوَ الْحَكِيم الْوَارِثُ[١]
٤- ثمَّ الصَّلَاة وَالسَّلام سرمدًا	على النَّبِي الْمُصْطَفى كنز الْهدى[٢]
٥- وَآلِه وَصَحبه الْأَبْرَار	معادن التَّقْوَى مَعَ الْأَسْرَار[٣]
٦- وَبعد فَاعْلَم أَن كل الْعلم	كالفرع للتوحيد فاسمع نظمي[٤]

[١] **قوله: «دلَّت على وجوده الحوادث»** كما قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾(١).

قوله: «فهو الحكيم» الذي يضع الأشياء مواضعها. «الوارث»، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾(٢).

[٢] **قوله: «سرمدا»** أي: دائما.

قوله: «كنز الهدى» معدنه ومقره.

[٣] **قوله: «معادن»** المعادن التي يُستخرج منها الجواهر؛ كالذهب والفضة، ومنه حديث: **«فعن معادن العرب تسألوني؟»**(٣).

قوله: «التقوى» والتقوى كما فسرها طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور مِن الله، تخشى عقاب الله(٤).

و**«الأسرار»** جميع ما استودعته لأخيك.

[٤] **قوله: «وبعد فاعلم أن كل العلم»** أي: مطلقًا؛ سواء كان شرعيًّا أو عقليًّا، فرعيًّا أو أصليًّا.

قوله: «كالفرع للتوحيد»،فكلها فرع لعلم التوحيد، وهو الأصل «فاسمع نظمي» سماع تدبُّر وتفهُّم.

---

(١) سورة الطور، الآية: ٣٥. (٢) سورة الحجر، الآية: ٢٣.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (١٦٨-٢٣٧٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٣٥٦).وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٦٤).

٧- لِأَنَّـهُ الْعلـم الَّـذِي لَا يَنْبَغِـي	لـعـاقـل لـفـهـمـه لـم يـبـتـغِ
٨- وَيعلـم الْوَاجِـب والمحالا	كجَائِـز فِي حَقـه تَعَالَى[١]
٩- وصَـار من عَـادَة أهـل الْعلم	أَن يعتنـوا فِي سـبر ذَا بالنظم[٢]

فائدة:

تعريف التوحيد: هو اعتقاد انفراد الله بصفات الكمال الذاتية والفعلية والخبرية، وإفراده بالعبادة. اهـ.

فقولنا: «اعتقاد انفراد الله بصفات الكمال»: هذا هو التوحيد العلمي الاعتقادي، وهو يشمل: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وقولنا: «وإفراده بالعبادة»: هذا هو توحيد الألوهية، وبعضهم يقول: العبودية؛ وهو التوحيد القصدي الطلبي.

فائدة:

كتب العقائد يُبحث فيها عن أركان الإيمان الستة، وهي: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وهي المذكورة في حديث جبريل الشهير.

[١] قوله: «فيعلم الواجب» كانفراده وتدبيره **«والمحالا»** كالولد والشريك.

قوله: «كجائز في حقه تعالى» كإنزال الكتب، وشرع الشرائع، ونسخ بعضها ببعض. ويعلم مثل ذلك في حق الرسل، مما يجب في حقِّهم، ويستحيل، ويجوز، كما يأتي تفصيله، إن شاء الله تعالى(١).

[٢] قوله: «أن يعتنوا في سبر ذا» أي: يهتموا في تتبع مسائل هذا العلم الذي هو علم التوحيد **«بالنظم»** لما وصفه بقوله:

---

(١) انظر: ص٨١٧.

١٠- لِأَنَّـه يسـهل للْحِفْـظ كَمَـا	يروق للسـمع ويشفي من ظما[١]
١١- فمـن هُنَـا نظمت لـي عقيده	أرجـوزة وجـيـزة مـفـيـده[٢]
١٢- نظمتهـا فِـي سـلكها مقدمه	وسـت أَبْـوَاب كَـذَاك خَاتمه[٣]
١٣- وسـمتها بالـدرة المضيـه	فِي عقد أهـل الْفرْقَة المرضيه[٤]
١٤- على اعْتِقَاد ذِي السداد الْحَنْبَلِيّ	إِمَام أهل الْحق ذِي الْقدر الْعلي[٥]
١٥- حبر الملا فَرد العلى الرباني	رب الحجى ماحي الدجى الشَّيْبَانِيّ[٦]

[١] قوله: «يروق» أي: يجمل ويحسن «ويشفي من ظما» الجهل، ولكن هذا ليس خاصًّا بالنظم، بل النثر يشفي من ظما الجهل، إلا أن يقال: إن النظم أبلغ من غيره.

[٢] قوله: «فمن هنا» أي: من هذا السبب «نظمت لي عقيدة».

قوله: «أرجوزة» على وزن أفحوصة «وجيزة» أي: مختصرة اللفظ، كثيرة المعنى. قال علي رضي الله عنه: خير الكلام ما قل ودل، ولم يطل؛ فيُملّ.

[٣] قوله: «نظمتها في سلكها» أي: نظمت في سلك هذه الأرجوزة «مقدمة» فهي مفعول: نظمت، «وست أبواب» معطوف على «مقدمة»،«كذاك خاتمة» شبه الأرجوزة بالخيط، ثم نظم به هذه المقدمة وستة الأبواب والخاتمة.

[٤] قوله: «وسمتها» أي: سميتها «بالدرة» أي: اللؤلؤة «المضية» أي: المنيرة

«في عقد» أي: اعتقاد «أهل الفرقة المرضية» وهم أهل الحديث، ويأتي ذكرهم، إن شاء الله تعالى(١).

[٥] قوله: «ذي السداد» أي: الاستقامة.

[٦] قوله: «حبر الملا» الحبر؛ العالم المتقن، والملا؛ أشراف الناس.

(١) انظر: ص٧٦٦.

١٦- فَإِنَّــهُ إِمَــام أهــل الْأَثــر | فَمن نحــا منحــاه فَهُوَ الأثري[١]
١٧- سقى ضريحا حلّه صوب الرِّضَا | وَالْعَفــو والغفران مَا نجم أضا[٢]
١٨- وحــلــه وَسَــائِــر الأئـمــه | منَــازِل الرضْوَان أَعلَــى الجنه[٣]

قوله: «الرباني» قال في مفتاح دار السعادة(١): الرباني؛ الرفيع الدرجة في العلم.

قوله: «رب الحجى» أي: صاحب العقل **«ماحي الدجى»** أي: ظلمة البدع **«الشيباني»** نسبة إلى أحد أجداده.

[١] قوله: «فإنه إمام أهل الأثر» أي: أهل الحديث،**«فمن نحا منحاه»** أي: قصد مقصده، **«فهو الأثري»** أي: المنسوب إلى العقيدة الأثرية.

[٢] قوله: «سقاضريحا» الضريح: القبر **«حله صوبالرضا»** الصوب والصيب بمعنى واحد، وهو في البيت فاعل: **«سقا»** **«والعفووالغفران»** مجروران بالعطف على **«الرضا»**، **«مانجمأضا»** أي: استنار.

[٣] قوله: «وحلّه» أي: أحلّه الله.

---

(١) (١/ ١٢٤).

المُقَدّمَة
فِي تَرْجِيح مَذْهَب السّلف
على غيره من سائر المَذاهب[١]

١٩- اعْلَـم هُديت أَنه جَـاءَ الْخَبَر   عَن النَّبِي المقتفى خير الْبشـر[٢]

[١] يذكر في هذه المقدمة ترجيح مذهب السلف على سائر المذاهب.

[٢] **قوله: «اعلم هديت أنه جاء الخبر»** أي: الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن معاوية رضي الله عنه، قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: **«ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين؛ ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة»**. ورواه أبو داود(١).

وقد سرد هذه الفرق بعض العلماء، فبلغت كما ذكر في الحديث، منهم: الشيخ عبد القادر الجيلاني في الغنية، ومنهم: الشارح، وغيرهم(٢).

والمشهور أن أصول الفرق الضالة سبعة: أولها المعتزلة؛ وهم: (٢٢) فرقة، ثم الشيعة؛ وهم: (٢٢) أيضًا، فالخوارج: (١٢)، فالمرجئة: (٥)، فالنجارية: (٣)، فالجبرية: (٢)، فالمشبهة: (٣)، فمجموع الكل: (٦٨).

قوله: «عن النبي المقتفي» يجوز أن يكون اسم فاعل؛ أي أنه اقتفى من قبله من الرسل، ويجوز أن يكون اسم مفعول؛ أي أن أمّته تقتفيه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٤).

(٢) انظر: الغنية (١/ ٨٣-٩٥)، ولوامع الأنوار البهية (١/ ٧٦).

٢٠- بِـأَن ذِي الْأمة سَـوف تفترق بضعًا وَسـبعين اعتقادًا والمحق[١]
٢١- مَا كانَ فِي نهج النَّبِي الْمُصْطَفى وَصَحبـه مــن غير زيــغ وجفا[٢]
٢٢- وَلَيْسَ هَذَا النَّص جزمًــا يعْتَبر فِي فرقــة إِلَّا على أهــل الْأَثر[٣]
٢٣- فأثبتــوا النُّصُــوص بالتَّنْزِيــه من غيــر تَعْطِيــل وَلَا تَشْــبِيه[٤]

[١] **قوله: «بضعًا»** منصوب بنزع الخافض، أي: إلى بضع وسبعين فرقة، والبضع بكسر الباء، وقد تُفتح، ما بين الثلاثة إلى التسعة.

قوله: «اعتقادًا» مفعول من أجله؛ أي: لأجل الاعتقاد.

[٢] **قوله: «ما كان في نهج»** أي: طريق **«النبي المصطفى»**.

قوله: «وصحبه من غير زيغ وجفا» الزيغ الميل، والجفا بالجيم ضد الصلة، أي: من غير تجافٍ عن هديهم، وبالخاء المعجمة ضد العلانية، أي: من غير ميل ولا كتم.

[٣] **قوله: «أهل الأثر»** هم: أهل الحديث المتقدم ذكرهم.

ثم استدل على ترجيح مذهبهم بدليلين: أحدهما ما ذكره في البيت بعده، وهو قوله:

[٤] والثاني بقوله:

ألــم تــر اخــتـلاف أصــحــاب النظر فيه وحــســن مــا نــحــاه ذو الأثــر

إلخ.

قوله: «فأثبتوا النصوص» الكلام المفيد ينقسم ثلاثة أقسام: نص، وظاهر، ومجمل. وموضع بسطها كتب أصول الفقه.

قوله: «بالتنزيه» تنزيه الله قسمان:

الأول: تنزيهه عن ما يُضاد الأسماء الحسنى والصفات العلى.

والثاني: تنزيهه عن مشابهة خلقه.

٢٤- فَكل مَا جَاءَ من الْآيَات	أَو صَحَّ فِي الْأَخْبَار عَن ثِقَات[١]
٢٥- من الْأَحَادِيث نمره كَمَا	قد جَاءَ فاسمع من نظامي واعلما[٢]
٢٦- وَلَا نرد ذَاك بالْعُقُول	لقَوْل مفتر بِهِ جهول
٢٧- فعقدنا الْإِثْبَات يَا خليلي	من غير تَعْطِيل وَلَا تَمْثِيل[٣]
٢٨- فَكل من أوّل فِي الصِّفَات	كذاته من غير مَا إِثْبَات
٢٩- فقد تعدَّى واستطال واجترى	وخاض فِي بَحر الْهَلَاك وافترى
٣٠- ألم تَرَ اخْتِلَاف أَصْحَاب النّظر	فِيهِ وَحسن مَا نحاه ذُو الْأَثر
٣١- فَإِنَّهُم قد اقتدوا بالمصطفى	وَصَحبه فاقنع بِهَذَا وَكفى[٤]

قوله: «من غير تعطيل ولا تشبيه» دليلٌ على ترجيح مذهبِ السلفِ على غيره. ودليله قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١). فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ردّ على المشبهة، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ردّ على المعطلة.

وقال ابن القيم في النونية:

من مثَّل اللهَ العظيمَ بخلقِه	فهو النسيب لمشرك نصراني
أو عطل الرحمن عن أوصافه	فهو الكفور وليس ذا إيماني

[١] قوله: «أو صح في الأخبار عن ثقات» هذا قيدٌ حسنٌ، وهو مُخرج للأخبار الضعيفة، لأنها لا يثبت بها شيء من الأحكام.

[٢] قوله: «نُمرّه» أي: نثبت لفظه ومعناه، ولا نمثل ولا نكيف، خلافًا للذين لا يُثبتون المعاني، بل يُمرّونه من دون اعتقاد معانيه.

[٣] قوله: «فعقدُنا» أي: اعتقادنا.

[٤] هذا هو الدليل الثاني الذي استدلَّ به المؤلف في هذه المقدمة على ترجيح مذهب السلف،

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

....

كما تقدم.

يعني: يكفيك أن النّظّار -وهم المتكلمون- قد تنازعوا، وكل فرقة تضلل الفرقة الأخرى وتُبدِّعها، وأما أهل السنة فهم متفقُّون على أصلهم واعتقادهم، لا يبالون بتأويل الغالين ولا تحريف المبطلين، مقتدين بنبيهم وصحابته رضي الله عنهم أجمعين.

الْبَاب الأول
فِي معرفَة الله تَعَالَى

٣٢- أول وَاجِـب علـى العبيـد ... مـعـرفَـة الْإِلَـه بِـالـتَّـسـدِيـدِ[١]

٣٣- بِـأَنَّـهُ وَاحِـد لَا نَـظِـيـر ... لَـهُ وَلَا شـبـه وَلَا وَزِيـر[٢]

[١] قوله: «أولواجب» أي: شرعًا، لا عقلًا، خلافًا لمن قال بذلك.

قوله: «بالتسديد» أي: بالنظر الصائب، بأن ينظر في الكون وما فيه.

هذا معنى كلام المؤلف، فقد وافق من يقول: إن معرفة الله نظرية. والصحيح الذي تدل عليه النصوص من الآيات والأحاديث وكلام أئمة السلف: أنها فطرية ضرورية، واختاره شيخ الإسلام، إلا من فسدت فطرته، واحتاج إلى النظر، وأما من لم تفسد فطرته، وحصلت له المعرفة من دون نظر؛ فلا يجب عليه، وهو الصواب، إن شاء الله، ومن أراد تحقيق هذه المسألة فعليه بشرح الأصفهانية لشيخ الإسلام ابن تيمية.

والدليل: قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[١]. إلى غير ذلك من الآيات.

[٢] قوله: «ولاوزير» لأن ملوك الدنيا يتخذون الوزراء؛ لأمرين: إما ليبلغوهم ما خفي عنهم من أحوال رعاياهم، لأن الملك لا يحيط علما بجميع أصول رعيته، أو ليعينوهم على أفعالهم الشاقة، لأن الملك لا يتمكن من مباشرة جميع أفعال رعيته بنفسه، وهو سبحانه يعلم السر وأخفى، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ ﴾[٢]، وهو أيضا: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾[٣].

(١) سورة محمد، الآية: ١٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٦.

٣٤- صِفَاتُه كَذَاتِه قَدِيمَهْ   أَسْمَاؤُه ثَابِتَةٌ عَظِيمَهْ[١]

[١] قوله: «صفاته» أي: الذاتية، والفعلية، والخبرية «كذاته قديمهْ»، وهذا مأخوذ من القاعدة المشهورة عند أهل السنة والجماعة، وهي: (أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات)، فكما أننا نثبت لله ذاتًا لا تشبه الذوات، فكذلك نثبت له صفات لا تشبه الصفات.

قوله: «أسماؤه ثابتة» أي: بالكتاب والسنة والإجماع.

وقوله: «عظيمهْ».

فمِن عظمها: أنها كلُّها حُسنى، فليس فيها اسمٌ قبيحٌ، أو ليس حسنًا ولا قبيحًا.

ومن عظمها: أنها أسماء ونعوت، فيستحق سبحانه من الصفات كمالها وغايتها، فهو رحيم، وهو أرحم الراحمين، وهكذا.

وينبغي أن يُعلم أن الأسماء الحسنى لها اعتباران: اعتبار من حيث الأسماء، واعتبار من حيث الصفات، فبالاعتبار الأول؛ مترادفة، وبالاعتبار الثاني؛ متباينة.

فائدة:

الاسم من أسمائه تعالى له ثلاث دلالات: دلالة على الذات والصفة بالمطابقة، ودلالة على أحدهما بالتضمن، ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم. كما حقق ذلك الإمام ابن القيم في النونية، في فصل عقده بعد الأسماء الحسنى، فقال[١]:

ودلالة الأسماء أنواع ثلا   ث كلها معلومة ببيان
دلت مطابقة كذاك تضمنا   وكذا التزاما واضح البرهان
أما مطابقة الدلالة فهي أن   الاسم يفهم منه مفهومان
ذات الإله وذلك الوصف الذي   يشتق منه الاسم بالميزان

(١) ص ١٨٥.

....

لـكـن دلالـتـه عـلـى إحـداهـمـا	بـتـضـمّـن فـافـهـم فـهـم بـيـان
وكـذا دلالـتـه عـلـى الـصـفـة الـتي	مـا اشـتـق مـنـهـا فـالـتـزامٌ دان
وإذا أردت لـهـذا مـثـالا بيّنـا	فـمـثـال ذلـك لـفـظـة الـرحـمـن
ذات الإلـه ورحمـة مدلولهـا	فـهـمـا لـهـذا الـلـفـظ مـدلـولان
إحداهمـا بعض لـذا الموضـوع فهـ	ـيَ تضمّـن ذا واضـح التبيـان
لكن وصـف الـحـي لازم ذلـك الـ	ـمعنى لـزوم العلـم للرحمـن
فـلـذا دلالـتـه عـلـيـه بـالـتـزا	م بـيـن والـحـق ذو تـبـيـان

فائدة:

صفات الباري -تبارك وتعالى- تنقسم إلى قسمين: صفات الذات، وصفات الأفعال.

فصفات الذات: هي المتعلقة بذاته، فلا ينفك عنها، وهي أيضًا قسمان: ذاتية، وخبرية. فالذاتية: كالحياة، والسمع، والعلم، والكلام، ونحوها. والخبرية: كالوجه، والعينين، والقدم، واليدين، ولكن الخبرية داخلة في مسمى الذاتية، وإنما فصلت عنها لأن طريقها الخبر عن الشارع، فلا مدخل للعقل بها.

وأما صفات الأفعال: فضابطها: هي التي تتعلق بالمشيئة والقدرة، وهي قسمان أيضا: قسم يتعلق بذات الباري، مثل؛ الاستواء، والنزول، والمجيء، ونحوها. وقسم يتعلق بالخلق، مثل؛ الخالق، البارئ، المصور.

فائدة أخرى:

أركان الإيمان بالأسماء والصفات ثلاثة:

الأول: الإيمان بالاسم.

والثاني: الإيمان بالصفة الناشئة عن الاسم.

....

الثالث: الإيمان بالحكم الناشئ عن الصفة.

مثاله: العليم، فهذا اسمه، وصفته: العلم، فنؤمن أنه عليم بذات الصدور، أي: ذو علم. **والحكم**: أن نؤمن بأنه بكل شيء عليم. هذا إن كان الفعل متعديًا، فإن كان لازمًا؛ لم يخبر عنه به، نحو: الحي؛ يطلق الاسم والمصدر دون الفعل، فلا يقال: حيي.

وقد حقّق ذلك ابن القيم في النونية بقوله[1]:

واشهد عليهم أنهم قد أثبتوا الـ ... أسماء والأوصاف للديان

وكذاك الأحكام أحكام الصفا ... ت وهذه الأركان للإيمان

قالوا عليهم وهم ذو علم ويعـ ... ـلم غاية الإسرار والإعلان

وكذا بصير وهو ذو بصر ويبـ ... ـصر كل مرئي وذي الألوان

وكذا سميع وهو ذو سمع ويسـ ... ـمع كل مسموع من الأكوان

والوصف معنى قائم بالذات ... والأسماء أعلام له بوزان

أسماؤه دلت على أوصافه ... مشتقة منه اشتقاق معان

وصفاته دلت على أسمائه ... والفعل مرتبط به الأمران

والحكم نسبتها إلى متعلّقا ... ت تقتضي آثارها ببيان

ولربما يُعنى به الأخبار عن ... آثارها يُعنى به الأمران

والفعل إعطاء الإرادة حكمها ... مع قدرة الفعّال والإمكان

فائدة:

أقسام التوحيد ثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

---

(١) ص ١٥٢.

٣٥- لَكِنَّهَا فِي الْحق توقيفيه لنا بذا أَدِلَّة وَفِيه[١]

٣٦- لَهُ الْحَيَاة وَالْكَلَام وَالْبَصَر سمع إِرَادَة وَعلم واقتدر[٢]

فالأول: هو الذي أقر به المشركون، وهو اعتقاد أن لا خالق ولا محيي ولا مميت إلا الله.

الثاني: إفراده تعالى بالعبادة، والذل، والحب، والافتقار، والتوجه إليه وحده.

والثالث: أن يوصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، إثباتا بلا تمثيل، وتنزيها بلا تعطيل.

[١] **قوله: «لكنها»** أي: أسماؤه **«في الحق»** أي: بالقول الصواب المعتمد **«توقيفية»** أي: متوقفة على الشارع، فلا يطلق على الله إلا ما أطلقه على نفسه، أو أطلقه عليه رسوله، فالأصل المنع حتى يقوم دليل الإذن، فإذا ثبت كان توقيفيًّا.

قال في بدائع الفوائد: ما يطلق عليه سبحانه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق في باب الإخبار لا يجب أن يكون توقيفيا؛ كالقديم والشيء، فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه: هل هي توقيفية، أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع(١).

ولما كانت أسماؤه الحسنى يثبتها له أهل السنة وغيرهم من المعتزلة ونحوهم؛ قدّم الكلام عليها. وأما الصفات: ففيها خلاف بين أهل السنة وغيرهم، فالجهمية والمعتزلة ينفون جميع الصفات.

[٢] هذه الصفات السبع الثبوتية، التي لا يثبت المتكلمة الصفاتية سواها.

أما الجهمية والمعتزلة: فلا يثبتون لله شيئا من الصفات، بل الاسم والحكم فقط. وأما الأشعرية: فلا يثبتون له غير السبع المذكورة في البيت. والماتريدية: يزيدون على الأشعرية صفة واحدة، وهي: صفة الخلق، وستأتي في الفصل بعده، إن شاء الله(٢).

---

(١) (١/ ١٦٢)، والنقل هنا من شرح السفاريني (١/ ١٢٥)، وقد اختصر كلام ابن القيم.

(٢) انظر: ص٧٧٧.

٣٧- بقــدرَة تعلّقــت بممكــن كَــذَا إِرَادَة فعــي واســتبن[١]
٣٨- وَالْعلــم وَالْــكَلَام قــد تعلقا بِكُل شَــيْء يَــا خليلــي مُطلقًا[٢]
٣٩- وَسُــمْعَة سُــبْحَانَهُ ك الْبَصَــر بِــكُل مســموع وكل مبصــر[٣]

[١] **قوله:** «**بقدرة**» هو متعلق باقتدر في البيت قبله، أي: أنه اقتدر بقدرة، الخ. ومعنى البيت: أن قدرته وإرادته يتعلقان بالممكن فقط. والإرادة هي المرادفة للمشيئة، وهي الإرادة الكونية القدرية، لا الإرادة الشرعية الدينية، فهي شيء آخر، ولكن الصواب أن الإرادة تتعلق بالموجود ومن الممكن فقط، وأما القدرة فهي التي تتعلق بجميع الممكنات مطلقا؛ سواء كانت موجودة أو معدومة.

[٢] أي: سواء كان واجبا، أو ممكنا، أو مستحيلا. أما الواجب: فهو الذي لا يمكن عدمه، وهو: الله وأسماؤه وصفاته. والممكن: هو الذي يجوز، أي : يمكن وجوده وعدمه. والمستحيل: هو الذي لا يمكن وجوده، كما يأتي ذكره -إن شاء الله تعالى- عند قول الناظم في الخاتمة: «ومستحيل الذات غير ممكن، الخ»(١).

[٣] يعني: أن متعلقهما واحد، وهو الموجود مطلقا، سواء كان واجبا، أو ممكنا عينا أو وصفا.

قوله: «**بكل مسموع**» أي: يتعلقان بكل مسموع «**وكل مبصر**».

---

(١) انظر: ص٨٢٥.

فصل
فِي مَبْحَث الْقُرْآن الْعَظِيم وَالْكَلَام الْمنزل الْقَدِيم

٤٠- وَأَن مَا جَاءَ مَعَ جِبْرِيل	من مُحكم الْقُرْآن والتنزيل[١]
٤١- كَلَامه سُبْحَانَهُ قديم	أعيا الورى بِالنَّصِّ يَا عليم[٢]
٤٢- وَلَيْسَ فِي طوق الورى من أَصله	أَن يستطيعوا سُورَة من مثله[٣]

[١] **قوله: «وأن ما جاء مع جبريل»** الخ الثلاثة الأبيات. هذا داخل في ما تقدم من صفة الكلام، وإنما أفرده بالبحث لأن المعتزلة والجهمية كثر امتحانهم لأهل السنة في القرآن، وأشد ما امتحن بذلك: الإمام أحمد.

[٢] **قوله: «كلامه سبحانه قديم»** أما لفظة «قديم» فهي مبتدعة، لم ترد عن السلف الصالح، والصواب أن نوع كلام الله قديم، وأما أفراده فهي متعلقة بالمشيئة، فكما أنه يفعل ما يشاء متى شاء كذلك، فكذلك يتكلَّم بما شاء، متى شاء. وقد نبَّه على ذلك الشيخ سليمان بن سحمان في كتاب: تنبيه ذوي الألباب السليمة(١).

قوله: «أعيا الورى» أي: أعجز جميع الخلق **«بالنص»** القرآني، كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾(٢).

[٣] **قوله: «وليس في طوق من أصله»** أي: ليس في وسعهم وطاقتهم من أصل خلقتهم وجبلتهم **«أن يستطيعوا سُورَة من مثله»** كما قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ

---

(١) انظر: تنبيه ذوي الألباب السليمة عن الوقوع في الألفاظ المبتدعة الوخيمة، ص ٢٠.

(٢) سورة الطور، الآية: ٣٤.

فصل
فِي ذكر الصِّفَات الَّتِي يثبتها لله أَئِمَّة السّلف دون غَيرهم من الْخلف[١]

٤٣- وَلَيْسَ رَبنَا بجَوْهَر وَلَا عرض وَلَا جسم تَعَالَى ذُو الْعلَا[٢]

٤٤- سُبْحَانَهُ قد اسْتَوَى كَمَا ورد من غير كَيفَ قد تَعَالَى أَن يحد[٣]

مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ الآية(١).

[١] يذكر المصنف في هذا الفصل سائر صفات الكمال التي يثبتها أهل الأثر دون غيرهم من أصحاب المذاهب وأرباب الطوائف على اختلاف مللهم ونحلهم.

[٢] اعلم أن هذه الألفاظ الثلاثة، التي هي: الجوهر والعرض والجسم، لم يرِد نفيها ولا إثباتها في الكتاب، ولا في السنة، ولا عن أحد من الصحابة والتابعين، ولا أئمة السلف، فلا تُطلق نفيًا ولا إثباتًا حتى يعلم مراد قائلها، فإن كان معنى صحيحًاقُبل، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص دون الألفاظ المجملة، إلا عند الحاجة، مع قرائن تُبين المراد، مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها، ونحو ذلك(٢).

[٣] قوله: «سبحانه قد استوى كماورد» أي: في القرآن، فهذا إثبات ما أثبته الله لنفسه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٢) أفادني الشيخ محمد بن مهدي العجمي -جزاه الله خيرا- أنه زار الشيخ محمد بن عثمان القاضي، فكان مما أفاد به: أن الشيخ السعدي كان يدرسهم السفارينية، وأنه علق على هذا البيت بقوله: «هذا تكلف، ولم يرد في النصوص، ونحن نقف مع النص». وأنه أملى بدله:

ليس الإله مُشبها عبيدهْ في الخلق مع أوصافه الحميدهْ

٤٥- فَـلَا يُحِيـط علمنَـا ب ذَاتـه	كَـذَاك لَا يَنْفَـكّ عَـن صِفَاته[١]
٤٦- فَـكل مَا قد جَاءَ فِـي الدَّلِيل	فثابـت مـن غيـر مَـا تَمْثِيل[٢]
٤٧- مـن رَحْمَة وَنَحْوهَـا ك وَجهه	وَيَـده وكل مَـا مـن نهجـه[٣]

وقوله: «من غير كيف» هذا رد على المشبهة، الذين يشبهون استواء الخالق باستواء المخلوق. ومثله قوله: «قد تعالى أن يحد» ويرحم الله الإمام مالكا، فإنه قيل له: الرحمن على العرش استوى، كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة(١). وهذه قاعدة نافعة، فكل من سأل عن كيفية صفة من صفات الباري؛ أجبناه بمثل جواب مالك.

[١] قوله: «فلا يحيط علمنا بذاته» ودليله قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾(٢).

قوله: «كذاك لا ينفك» أي: لا يخلص، ولا يزول «عن صفاته» الذاتية، وأفعاله الاختيارية.

[٢] ذكر الصفات التي يثبتها السلف، فمذهب السلف في آيات الصفات: إثباتها وإمرارها، من غير تأويل ولا تفسير.

[٣] قوله: «من رحمة» كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(٣).

قوله: «ونحوها» من محبته، ورضاه، وغضبه، قال تعالى: ﴿بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ﴾(٤). وقال تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾(٥).

قوله: «كوجهه ويده وكل ما من نهجه» النهج الطريق، أي: وكل ما ورد من نحوه هاتين الصفات؛ كالرِّجل، والقدم، والصورة، كما قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾(٦). ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(٧).

(١) أخرجه اللالكائي في: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٣٩٨).
(٢) سورة طه، الآية: ١١٠.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٥) سورة البينة، الآية: ٨.
(٦) سورة الرحمن، الآية: ٢٧.
(٧) سورة الفتح، الآية: ١٠.

٤٨- وعينه وَصفَة النُّزُول وخلقه فاحذر من النُّزُول[١]

٤٩- فسائر الصِّفَات وَالْأَفْعَال قديمَة لله ذِي الْجلَال[٢]

٥٠- لَكِن بِلَا كَيفَ وَلَا تَمْثِيل رغما لأهل الزيغ والتعطيل

٥١- فَمُرْهَا كَمَا أَتَت فِي الذّكر من غير تَأْوِيل وَغير فكر[٣]

[١] **قوله: «وعينه»** قال تعالى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾(١).

قوله: «وصفة النزول» إلى السماء الدنيا، كما صحت به الأحاديث، والنزول من صفات الأفعال، فنؤمن به، ولا نؤوّل، ولا نكيّف.

قوله: «وخلقه فاحذر عن النزول» كما قال ابن القيم(٢):

احذَرْ تَزِلْ فتَحت رجلِك هوَّة

[٢] **قوله: «فسائر الصفات»** أي: مطلقا، سواء كانت ذاتية؛ كالحياة، والقدرة، والإرادة، والسمع، والعلم، والكلام، ونحوها. أو خبرية؛ كالوجه، والعينين، والقدم، والرجلين.

قوله: «والأفعال» أي: وصفات الأفعال؛ كالاستواء، والنزول، والمجيء، والتكوين.

قوله: «قديمة» قد تقدم النقل عن كتاب بدائع الفوائد بما فيه فصل الخطاب، أن لفظة: **«القديم»** ليست من الأسماء الحسنى، وإنما هي من باب الإنشاء، وتقدم أيضا هذا المعنى عند قول الناظم: «الحمد لله القديم الباقي... إلخ»(٣).

[٣] لما ذكر ما يجب لله من أسمائه وصفاته الذاتية والخبرية والفعلية، بين ما يستحيل عليه في البيتين بعده، كما أشار إلى ذلك فيما تقدم بقوله: «فيعلم الواجب والمحالا...إلخ»(٤).

---

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.

(٢) في النونية، ص ١٨٣.

(٣) انظر: ص٧٦١.

(٤) انظر: ص٧٦٣.

٥٢- ويستحيل الْجَهْل وَالْعجز كَمَا قد اسْتَحَالَ الْمَوْت حَقًّا والعمى[١]

٥٣- فَكل نقص قد تَعَالَى الله عَنهُ فيا بشرى لمن وَالَاهُ[٢]

[١] **قوله: «ويستحيل الجهل»** ضد العلم؛ لأنه تعالى يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن: لو كان كيف كان يكون، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١). فـ «**شيء**» نكرة في سياق [الإثبات]، فتعم جميع الأشياء.

قوله: «والعجز» ضد القدرة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾(٢).

قوله: «كما قد استحال الموت» ضد الحياة «**حقا**» مصدر «**والعمى**» ضد البصيرة.

[٢] **قوله: «فكل نقص»** مما يضاد الأسماء الحسنى «**قد تعالى الله عنه**».

قوله: «فيا بشرى لمن والاه» الضمير يحتمل أن يعود على «**الله**»، أو على «**من**»، **فعلى الأول:** يكون المعنى: يا بشرى لمن اتخذ اللّهَ وليًّا. **وعلى الثاني:** يا بشرى لمن اتخذه الله وليًّا، وهو إشارة إلى الحديث القدسي: «**من عادى لي وليًّا؛ فقد آذنته بالحرب**»(٣) إلخ.



(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٤.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فصل
فِي ذكر الْخلاف فِي صِحَة إِيمَان الْمُقَلّد فِي العقائد وَفِي جوَازه وَعدَمه[١]

٥٤- وكل مَـا يطْلـب فِيـهِ الْجَزْمُ　　فَمنــع تَقْلِيــد بِــذَاكَ حتمُ[٢]

٥٥- لِأَنَّـهُ لَا يَكْتَفِـي بِالظَّـنِّ　　لذِي الحجى فِي قَول أهل الْفَنّ[٣]

٥٦- وَقيل يَكْفِي الْجَزْم إِجْمَاعًا بِمَا　　يطْلـب فِيهِ عِنْد بعـض العلما[٤]

---

[١] يذكر المصنف في هذا الفصل إيمان المقلد في عقيدته: هل يصح أم لا؟

[٢] **قوله: «وكل ما يطلب فيه الجزم»** أي: اليقين **«فمنع تقليد»** وهو أخذ مذهب الغير بلا دليل، فإن أخذه بدليل فليس بمقلد، فالصواب: أن قبول قول الرسول ليس بتقليد.

قوله: «بذاك حتم» أي: لازم واجب.

[٣] **قوله: «لأنه»** الضمير للشأن **«لايكتفى»** في العقائد وأصل الدين **«بالظن لذي الحجا»** أي: صاحب العقل **«في قول أهل الفن»**.

[٤] **قوله: «وقيل يكفي الجزم»** لا الشك والتردد **«إجماعًا بما يطلب»** الجزم **«فيه»** من أصول الدين**«عند بعض العلما»**.

حاصل ما ذكره في هذا الفصل: أن إيمان المقلد فيه قولان للعلماء:

أحدهما: لا يصح، وهو قول أكثر المتأخرين، واستدل بأمره تعالى بالتدبر والتفكر والنظر، في صحيح ابن حبان...

٥٧- فالجازمون من عوام الْبشر فمسلمون عِنْد أهل الْأَثر

لما نزل في آل عمران ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١]. الآيات، قال ﷺ: **«ويل لمن قرأهن، ولم يتدبرهن، ويل له، ويل له»**[٢].

والقول الثاني: يصح إيمانه إذا جزم، ولو لم يستدل. وهو قول بعض الشافعية والحنابلة.

وفيه قول ثالث: ذكره شيخ الإسلام في الفتاوى[٣]، وفي العقل والنقل[٤]، واختاره، وهو أن كل العلوم -سواء كانت أصولية أو فروعية- يجب على الإنسان منها ما يستطيع، كما يجب عليه أن يعمل ما يقدر عليه من واجبات الدين، وما يعجز عنه، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها، كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[٥].فمن يحسن الاستدلال؛ وجب عليه، ومن لا؛ فلا. وهذا هو الصواب.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٢٠) عن عائشة رضي الله عنها، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٦٨).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٨٩).

(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٤٤٥).

(٥) سورة التغابن، الآية: ١٦.

الْبَاب الثَّانِي
فِي الْأَفْعَال المخلوقة



الباب الثاني
في الأفعال المخلوقة

٥٨- وَسَائِر الْأَشْيَاء غير الذَّات وَغير مَا الْأَسْمَاء وَالصِّفَات[١]

٥٩- مخلوقة لربنا من الْعَدَم وضل من أثنى عَلَيْهَا بالقدم[٢]

٦٠- وربنا يخلق بِاخْتِيَار من غير حَاجَة وَلَا اضطرار[٣]

---

[١] قوله: «وسائر الأشياء» أي: أعيانها وأوصافها وأفعالها.

قوله: «غير الذات» أي: المقدسة، والمراد: الباري، تبارك وتعالى وتقدس.

قوله: «وغير ما الأسماء والصفات» «ما» زائدة، والمعنى: أن جميع الأشياء غير الباري وأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

[٢] قوله: «مخلوقة لربنا من العدم» فهم مسبوقة به.

قوله: «وضل من أثنى عليها» أي: وصفها «بالقدم» هذا رد على أرسطو الفيلسوف، ومن نحا نحوه؛ كالفارابي، وابن سينا، وأمثالهم، الذين يقولون بقدم العالم، وأول من قال به: أرسطو، وانتشر مذهبه بسبب أنه كان وزيرا للإسكندر الذي بنى الإسكندرية، وهو متقدم على زمن المسيح.

[٣] قوله: «وربنا يخلق باختيار» أي: بقدرة ومشيئة، لا بالذات، كما يقوله المعتزلة.

وفسر هذا الاختيار بقوله: «من غير حاجة ولا اضطرار».

وهو أيضا رد على أرسطو وأتباعه، حيث نفوا أن يكون الله فاعلا باختياره، بل قالوا: إنه -تعالى- هو العلة التامة، وغيره المعلول.

٦١- لكنــه لَا يخلق الْخلق ســدى	كَمَا أَتَى فِي النَّص فَاتبع الْهدى[١]
٦٢- أفـعـالـنـا مـخـلـوقـة لله	لَكِنَّهَـا كسـب لنـا يَـا لاهي[٢]
٦٣- وكـل مَـا يَـفْـعَـلـه الْـعـبـاد	مـن طَـاعَـة أَو ضـدهـا مُـرَاد
٦٤- لربنـــا من غير مَـــا اضطرار	مِـنْـهُ لـنـا فَـافْـهَـم وَلَا تمار

[١] قوله: «**لكنه لا يخلق الخلق سدى**» أي: هملا.

[٢] قوله: «**أفعالنا مخلوقة لله**» هذا رد على القدرية الذين يقولون: إن العبد هو الذي خلق أفعاله، وهو مستقل بها، فلم تتعلق بالقدرة والمشيئة. وهم مجوس هذه الأمة، ويسمون: الثنوية، لقولهم بالنور والظلمة، وسبب تسميتهم مجوس هذه الأمة: أن المجوس يقولون: إن إبليس هو خالق الشر، والقدرية يقولون: إن العبد هو الخالق لأفعاله، فهذا وجه التسمية.

قوله: «**لكنها كسب لنا يا لاهي**» ردّ على الجبرية، فهُم والقدرية في طرفي نقيض.

فالقدرية يقولون: إن العبد هو خالق أفعاله، ومستقل بها، فلم تتعلق بقدرة الله ومشيئته -كما تقدم آنفا- فنفوا أن يكون الله خلق.

والجبرية يقولون: إنه لا فعل للعبد أصلا، بل هو مجبور على أفعاله، وأن حركاته بمنزلة حركات الجمادات، وهبوب الرياح، وتحرك الأشجار، وحركة مختلف الأعضاء، ونحوها.

وأما أهل السنة: فهم وسط بين نقيضين، فهم يعتقدون أن الله خالق كل شيء، فلا يوجد شيء إلا بإرادته ومشيئته، ويعتقدون أيضا: أن العبد فاعل حقيقة، وله مشيئة وقدرة، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨﴾(١).

وإذا قيل لك: ما الدليل الذي تطمئن إليه النفس على أن الله خالق أفعال العباد، وأنها كسب لهم، وقعت عن مشيئتهم وقدرتهم؟

فالجواب: أن الله هو الذي خلق العبد كله؛ روحه، وبدنه، وقواه، وإرادته، وقدرته، ومشيئته،

(١) سورة التكوير، الآية: ٢٨.

٦٥- وَجَـاز للْمولـى يعذب الورى	من غير مَا ذَنْب وَلَا جرم جرى[١]
٦٦- فَـكل مَا مِنْـهُ تَعَالَـى يجمل	لِأَنَّـــهُ عَــن فـعـلـه لَا يــسْــأَل
٦٧- فَـإِن يثـب فَإِنَّـهُ مـن فَضله	وَإِن يعــذب فبمحــض عدلـــه

فالذي خلق السبب الذي هو القدرة والمشيئة خالق للمسبب الذي هو فعل العبد، فالله هو المقدر، والعبد هو الفاعل حقيقة، لأنه باشر الفعل.

[١] **قوله:** «وجاز للمولى» الثلاثة الأبيات. هذا القول مبني على مذهب الجبرية، الذين ينفون الحكمة في خلقه تعالى، فعندهم أنه لا حكمة في الأمر والنهي، بل ما ثم إلا الترجيح بمجرد المشيئة، وهذا قول جمهور من يثبت القدر، وينسبه إلى الله، من أهل الكلام والفقه وغيرهم. والمؤلف لم يرتض هذا القول، ولذلك نبه في شرحه(١) على أنه يميل إلى القول الصحيح، الذي يدل عليه الكتاب والسنة وأقوال أئمة السلف، ومنهم: شيخ الإسلام وابن القيم(٢)، وهو أن الله حكيم في أفعاله، وفي قدره، وفي شرعه، وفي جزاءه، فهو تعالى أحكم الحاكمين.

وهو -أيضا- مبنيّ على قول الجهمية وأمثالهم: بأن الظلم الذي نفاه الله عن نفسه هو المستحيل لذاته، فلا يجوز أن يكون مقدورا له، ولا لأنه تركه باختياره، وإنما هو من باب الجمع بين الضدين، وجعل الجسم الواحد في مكانين.

والصحيح: أن الظلم هو: الزيادة في السيئات، أو النقص في الحسنات، والدليل قوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ من زيادة في سيئاته ﴿وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾(٣). أي: نقصًا من حسناته. وهذا قول سلف الأمة وأئمتها، فالله تعالى حكيم، والحكمة وضع الأشياء مواضعها، فتأبى حكمته تعالى أن يُعذّب من أفنى عمره في طاعته ومرضاته، وأن يُنعّم من أفنى عمره في محادّة الله ورسوله.

قوله: «من غير ما ذنب ولا جرم» هي شيء واحد.

---

(١) (١/ ٢٨٤، ٣٢٨).

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٢/ ١٨٧)، وشفاء العليل (١/ ٢١٨).

(٣) سورة طه، الآية: ١١٢.

٦٨- فَلم يجــب عَلَيْهِ فعل الْأَصْلَح وَلَا الصّلاح وَيْح مــن لم يفلح[١]

٦٩- فَــكل من شَــاءَ هـــداه يَهْتَدِي وَإِن يـــرد ضـــلال عبـــد يعتدي[٢]

قوله: «فكل ما منه تعالى يجمل» أي: يحسن.

قوله: «فبمحض عدله» أي: خالصه، والمحض: اللبن الخالص، الذي لم يُشب بشيء. ومنه حديث: «اللهم بارك لهم في محضها ومخضها»(١). أي: الخالص المشوب.

فائدة: الجهمية يسمون: جبرية، ومرجئة، ومعطلة. فهم: جبرية في الأفعال، مرجئة في الإيمان، معطلة في الصفات.

[١] قوله: «فلم يجب عليه فعل الأصلح ولا الصلاح» رد على المعتزلة، فإنهم يثبتون الحكمة، ويشبهونها بحكمة المخلوق، ولذلك أوجب عليه فعل الأصلح؛ كمعتزلة بغداد، أو الصلاح؛ كمعتزلة البصرة، وهم أخف من معتزلة بغداد. والحاصل أن للناس في الحكمة ثلاثة أقوال: فالجهمية ينفونها، والمعتزلة يثبتونها ويشبهونها بحكمة المخلوقين.

قوله: «ويح من لم يفلح»«ويح» كلمة ترحّم، وهي منصوبة على المصدر، وضدها: ويل. والفلاح من الكلمات الجوامع، وهو عبارة عن أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعزّ بلا ذل، وعلم بلا جهل. قالوا: فلا كلمة أجمع للخير منها، وقد نظم ذلك بعضهم في بيت، فقال:

إذا رمـت تـفـسـيـر الـفـلاح فـإنـه بـقـاء غـنـاء ثـمّ عـز وعـلـمـه

[٢] قوله: «فكل من شاء هداه يهتدي» اعلم أن أنواع الهداية أربعة:

أحدها: الهداية العامة المذكورة في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾(٢).

---

(١) أخرجه ابن الأعرابي في معجمه (٢٠٤٠)، عن عمران. وعزاه المتقي الهندي في كنز العمال لابن الجوزي في الواهيات، عن علي رضي الله عنه.

(٢) سورة طه، الآية: ٥٠.

....

الثاني: هداية البيان.

الثالث: هداية التوفيق.

الرابع: الهداية إلى الجنة والنار، وهي الغاية. اهـ من بدائع الفوائد ملخصا، وتمامه فيه، فلقد أجاد وأفاد[1].

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٣٧).

فصل
فِي الْكَلَام على الرزق

٧٠- والـرزق مَـا ينفع مـن حَلَال ... أَو ضِـدّه فَحـل عَـن الْمحَـال

٧١- لِأَنَّــهُ رَازِق كل الْخلــق ... وَلَيْـسَ مَخْلُـوق بِغَيْـر رزق[١]

٧٢- وَمن يمـت بقتْله من الْبشـر ... أَو غَيـره فب الْقَضَـاء وَالْقدر[٢]

[١] هذه المسألة ليست من باب العقائد، فلا مناسبة لذكرها هنا. ومراد المصنف: الرد على المعتزلة القائلة: إن الإنسان إذا تغذى طول عمره بالحرام؛ لم يرزقه الله حلا.

وفي المسألة ثلاثة أقوال:

أحدها: ما ذكره المصنف.

الثاني: أن الرزق هو الحلال فقط، وتقدم أنه مذهب المعتزلة.

الثالث: أنه إن أريد بالرزق: الرزق المطلق الذي ليس له تبعة؛ فلا يكون إلا من الحلال. وإن أريد مطلق الرزق المغذي؛ فهذا يكون من الحلال ومن الحرام.

ومثله: النعمة. إذا قيل: نعمة الله المطلقة -أي: الكاملة-؛ فهي خاصة بالمؤمنين. وإن أريد: مطلق النعمة؛ فهي على المؤمنين والكافرين. وهذا هو الصواب، الذي اختاره ابن القيم في النونية، وفي بدائع الفوائد[1]، لأنه يجمع الأقوال، وهو الموافق لظواهر النصوص.

[٢] قوله: «ومن يمت بقتله من البشر أو غيره» الضمير في «غيره» يعود على البشر، ويحتمل أن يعود على القتل.

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢٣).

٧٣- وَلـم يفت من رزقه وَلَا الْأَجَل شَيْء فدع أهل الضلال والخطل[١]

[١] **قوله: «فدع أهل الضلال والخطل»** أي: الكلام الفاسد.

وهذه المسألة من فروع مسألة الإيمان بالقدر، قال الإمام أحمد: القدر قدرة الله. وهي كلمة جامعة تدل على غزارة علم، وقد استحسن ابن عقيل من الإمام أحمد، قال في النونية(١):

واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد

ومراد المؤلف بأهل الضلال والخطل؛ المعتزلة الذين يقولون: إن للمقتول أجلين: القتل، والموت، وإنه لو لم يقتل لعاش إلى أجله الذي هو الموت. وهذا معلوم بطلانه ومضادته لما دلت عليه الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وكلام سلف الأمة وأئمتها.

فائدة:

قال شيخ الإسلام: إن علم الله السابق محيط بالأشياء على ما هي عليه، لا محو فيه ولا زيادة ولا نقص، وأما ما جرى بالقلم في اللوح المحفوظ؛ فهو يقع به محو وإثبات، على قولين للعلماء، وأما الصحف التي بيد الملائكة فيحصل فيها المحو والإثبات. اهـ(٢). وذكر أيضا أن مراتب الإيمان بالقدر أربع، وفصّلها في الواسطية(٣) وغيرها.

---

(١) ص ٤٤.

(٢) انظر: مختصر الفتاوى المصرية، ص ١٨٠.

(٣) انظر العقيدة الواسطية.

الْبَاب الثَّالِث
فِي الْأَحْكَام وَالْكَلَام على الْإِيمَان ومتعلقات ذَلِك[١]

٧٤- وواجب على الْعباد طرا أَن يعبدوه طَاعَة وَبرا[٢]
٧٥- ويفعلوا الْفِعْل الَّذِي بِهِ أَمر حتما ويتركوا الَّذِي عَنهُ زجر[٣]

[١] **قوله: «في الأحكام»** أي: أحكام الشرع التي هي: الواجب، والمحرم، والمسنون، والمكروه، والمباح، ولذلك قال:

[٢] **«وواجب على العباد طرا»** أي: جميعا **«أن يعبدوه طاعة وبرا»** أي: لأجل الطاعة والبر، فهما مفعولان لأجله.

ثم فسر العبادة بالبيت بعده، فقال:

ويفعلوا الفعل الذي به أمر حتمًا ويتركوا الذي عنه زجر

[٣] فهذا حد العبادة.

قوله: **«ويفعلوا الفعل الذي به أمر»** يشمل الواجب والمسنون «حتما» أي: لازما **«ويتركوا الذي عنه زجر»** يشمل الحرام والمكروه.

وهذا الحد الذي ذكر المؤلف جامع مانع.

ومثله ما حدها به الفقهاء، فقالوا: العبادة ما أمر به شرعا، من غير اطراد عرفي، ولا اقتضاء عقلي(١).

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

....

وحدها شيخ الإسلام بقوله: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة[1].

وهذه العبارات وإن اختلفت لفظا، فمعناها واحد.

(١) انظر: كشاف القناع (١/ ٤١٨).

فصل
فِي الْكَلَام على الْقَضَاء وَالْقدر

٧٦- وكل مَا قدر أَو قَضَاهُ فواقع حتما كَمَا قَضَاهُ[١]

٧٧- وَلَيْسَ وَاجِبا على العَبْد الرِّضَا بِكُل مقضي وَلَكِن بالقضا[٢]

٧٨- لِأَنَّهُ من فعله تَعَالَى وَذَاكَ من فعل الَّذِي تقالى[٣]

---

[١] ذكر إسماعيل بن أحمد النيسابوري في كتاب: «**الوجوه والنظائر**» أن لفظة «**قضى**» في القرآن جاءت على خمسة عشر وجها، وسردها[(١)].

[٢] **قوله: «لأنه»** أي: القضاء.

[٣] **قوله: «وذاك»** أي: المقضي المبغوض لله ورسوله من أنواع المعاصي«**من فعل الذي تقالا**» أي: تباغض إلى الله بفعله ما نهى عنه، والقلى: البغض.

واعلم أن الرضا بالقضاء والقدر قسمان:

قسم يتعلق بأفعال الله، وقسم يتعلق بأفعال العباد.

أما أفعال الباري: فهي قسمان أيضا: أحكام شرعية، وأفعال قدرية.

أما الرضا بأحكامه الشرعية: فهو واجب، ولا يتم إيمان العبد إلا به، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[(٢)].

---

(١) انظر: الوجوه والنظائر، ص ٢٦٥-٢٦٦.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

....

وأما أفعاله القدرية: فهي أيضا قسمان: نعم، ومصائب. أما الرضا بالنعم: فالنفوس مجبولة عليه، وأما المصائب: فالرضا بها مشروع بالاتفاق. لكن هل يجب أو يستحب؟ الذي يدل عليه كلام الناظم وجوبه، والصواب أنه مستحب، لا واجب، وإنما يجب الصبر.

وأما القسم الثاني: فهو المتعلق بأفعال العباد، فهو تابع لأحكامها، فالرضا بالواجب واجب، وبالمحرم محرم، وبالمسنون كذلك، وبالمكروه مكروه، وهكذا.



فصل
فِي الْكَلَام على الذُّنُوب ومتعلقاتها

٧٩- ويفسق المذنب بالْكَبِيرَهْ   كَذَا إِذا أصر بالصغيرة[١]

٨٠- لَا يخرج الْمَرْء من الْإِيمَان   ب موبقات الذَّنب والعصيان[٢]

[١] **قوله: «ويفسق المذنب بالكبيره»** أصل الفسوق: الخروج عن الاستقامة، وبه سمي العاصي: فاسقا، ومنه حديث: «**خمس فواسق...**» إلخ(١).

والكبيرة قد حدها الشيخ موسى الحجاوي في نظم الكبائر بحد جامع مانع، مفيد جدا، فقال:

فما فيه حد في الدنا أو توعد   بأخرى فسم كبرى على نص أحمد

وزاد حفيد المجد أو جاء عبده   بنفي لإيمان ولعن لمبعد

ومراده بحفيد المجد: شيخ الإسلام ابن تيمية.

قوله: «كذا إذا أصر» لزم وداوم «**بالصغيره**» الباء بمعنى على، أي: على الصغيرة، وأما من أتبعها بالتوبة والاستغفار؛ فليس بمصرّ عليها، وفي الحديث: «**ما أصر من استغفر**»(٢).

[٢] **قوله: «بموبقات»** أي: مهلكات.

والبيتان في الرد على الخوارج والمعتزلة والمرجئة.

فالخوارج يقولون: إن الفاسق الملي كافر مخلّد بالنار.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣١٤)، ومسلم (٦٧-١١٩٨)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبو داود (١٥١٤)، والترمذي (٣٥٥٩)، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٤٧٤).

٨١- وواجــب عَلَيْــهِ أَن يتوبــا ... مــن كل مَــا جــر عَلَيْــهِ حوبا[١]

٨٢- وَيقبل الْمولى بمحض الْفضل ... من غيــر عبــد كَافِــر مُنْفَصِل[٢]

٨٣- مَا لــم يتب من كفــره بضده ... فيرتجــع عَــن شــركه وصــده[٣]

والمعتزلة يقولون: ليس بمؤمن ولا كافر، ويثبتون له المنزلة بين المنزلتين، ويخلدونه في النار.

والمرجئة بضدهم يقولون: إن الفاسق مؤمن كامل الإيمان.

وأهل السنة: وسط بين طرفين، فلا ينفون عنه مطلق الإيمان، ولا يثبتون له الإيمان المطلق، بل مؤمن ناقص الإيمان، وهو الذي تدل عليه نصوص الكتاب والسنة.

[١] **قوله: «وواجب عليه أن يتوبا من كل ما جر»** أي: قاد وجذب **«عليه حوبا»** أي: إثما.

حد التوبة: الرجوع عن معصية الله إلى طاعته.

وحكمها: الوجوب.

قال الشافعي:

فــرض عــلــى الــنــاس أن يــتــوبــوا ... لــكــن تــرك الــذنــوب أوجــب

وشروطها ثلاثة: -وبعضهم يسميها أركانا، والخلاف لفظي-: الندم على ما فات، والإقلاع عن الذنب في الحال، والعزم على أن لا يعود. هذه في حق الله. ويزيد حق الآدمي شرط رابع، وهو: أن يرد عليه ما له عنده من كل ما يمكن رده أو معاوضة. فإن كان عرضا ونحوه، وهو لم يعلم به، فقال الجمهور: إنه يستغفر له، ويدعو له، ولا يلزمه إعلامه، ولا استحلاله؛ لأنه قد يكون سببا للعداوة والشحناء، وإن كان قد علم بذلك؛ فيلزمه استحلاله.

[٢] **قوله: «ويقبل المولى بمحض الفضل»** مفعول **«يقبل»** محذوف، تقديره: التوبة.

قوله: «من غير عبد كافر منفصل» عن الدين، وأما العبد الكافر المنفصل عن الدين فلا تقبل توبته من الذنوب.

[٣] **قوله: «ما لم يتب من كفره بضده»** وهو الإسلام **«فيرتجع عن شركه وصده»** أي: إعراضه عن الدين.

٨٤- وَمن يمت وَلم يتب من الخطا ... فَأمـــره مفوض لــــذِي العطا

٨٥- فَإِن يَشَـأْ يعْفُو وَإِن شَاءَ انتقم ... وَإِن يَشَـأْ أعْطى وأجـزل النعم[١]

والمعنى: أن الله يقبل من العاصي توبته من معاصيه بشرط أن يكون مسلما، وأما الكافر فلا يقبل توبته من المعاصي حتى يتوب من الشرك أوّلًا بالإسلام، فإذا أسلم؛ فالتوبة تجب ما قبلها ولو كفر.

[١] قوله: «وأجزل النعم» اعلم أن النعم نعمتان: نعمة مطلقة، ونعمة مقيدة. **فالمطلقة**: هي المتصلة بسعادة الأبد، وهي نعمة الإسلام، وهي المذكورة في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾(١)، وإذا قيل: ليس لله على الكافر نعم بهذا الاعتبار؛ فهو صحيح.

والنعم الثانية: النعم المقيدة؛ كنعم الغنى، والعافية، وكثر الولد، والزوجة. أكثر هذه مشتركة بين البر والفاجر، فإذا قيل: إن لله على الكافر نعما بهذا الاعتبار؛ فهو حق. فمطلق النعم مشترك بين المؤمن والكافر، والنعم المطلقة خاصة بالمؤمنين. ذكره ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية(٢).



(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

(٢) (٢/٣٦).

فصل
فِي ذكر من قيل بِعَدَمِ قبُول إِسْلَامه من طوائف الْمُلْحِدِينَ

٨٦- وَقيل فِي الدروز والزنادقهْ ... وَسَائِر الطوائف المنافقهْ[١]

٨٧- وكل دَاع لابتداع يقتل ... كمن تكَرر نكثه لَا يقبل[٢]

[١] **قوله: «وقيل في الدروز»** هذه صيغة تمريض، لأن المؤلف لا يرتضي هذا القول، وهو المشهور من المذهب في الدروز من الحمزاوية، أتباع حمزة اللباد، القائلين بأولوهية الحاكم العبيدي، ومثلهم البابية، القائلين بأولوهية الباب، وغيره من طواغيتهم، وهم أربع فرق، كما في الكواكب الدرية.

قوله: «والزنادقة» أي: المنافقين، قال شيخ الإسلام(١): لفظ **«الزندقة»** لا يوجد في القرآن، ولا في كلام رسول الله ﷺ، وهو لفظ أعجمي مولد من كلام الفرس، وما في القرآن والسنة من ذكر المنافقين يتناول مثل هذا بإجماع المسلمين، ومن أظهر الإسلام وأبطن خلافه كان يسمى: منافقا، واليوم يسمى: زنديقا، والمعنى واحد، فالزنديق والمنافق والملحد شيء واحد.

[٢] **قوله: «وكل داع لابتداع يقتل»** هذا مقول القول **«كمن تكرر نكثه»** واتجه الشيخ مرعي في الغاية أن أقل التكرار: ثلاث(٢).

قوله: «لا يقبل» منه الإسلام، على المشهور من المذهب(٣).

---

(١) انظر: بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية (١/ ٣٣٨).

(٢) انظر: مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (٦/ ٢٩٢).

(٣) انظر: دقائق أولي النهى لشرح المنتهى (٣/ ٣٩٨).

٨٨- لِأَنَّـهُ لـم يبـد مـن إيمَانـه	إِلَّا الَّـذِي أذاع مـن لِسَـانه[١]
٨٩- كملحـد وسـاحره	وهـم على نياتهـم فِي الْآخِرَه[٢]
٩٠- قلت وَإِن دلّـت دَلَائِل الْهدى	كَمَـا جـرى للعيلبوني اهْتَدَى[٣]
٩١- فَإِنَّـهُ أذاع مـن أسـرارهم	مَا كَانَ فِيهِ الهتك عَن أسـتارهم
٩٢- وَكَانَ للدّيـن القويـم ناصـرا	فَـصَـارَ منـا بَـاطِـنـا وظـاهـرا
٩٣- فَـكل زنديـق وكل مـارق	وجـاحـد وملـحـد مُـنَـافِـق

[١] **قوله: «أذاع» أظهر.**

[٢] **قوله: «وهم على نياتهم في الآخرة»** فمن كانت توبته صادقة، فهي مقبولة عند الله بلا خلاف، هذا هو المشهور من المذهب، وفي المسألة رواية عن الإمام أحمد قول ثاني، اختاره جمع من الأئمة المحققين، منهم: شيخ الإسلام وتلاميذه وابن عقيل وغيرهم، أن توبة المذكورين مقبولة ظاهرا وباطنا، في الدنيا والآخرة. قال شيخ الإسلام في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا ﴾(١). أي: أصروا عليه حتى ماتوا، وأما مَن تاب قبل الموت فيدخل في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾(٢).

وهذا هو الصواب بحول الله تعالى، ولكن المصنف توسط القولين بقوله: **«قلت وإن دلت دلائل الهدى»**...إلخ.

[٣] **قوله: «العيلبوني»** هو: حسن العيلبوني، نسبة إلى عيلبون، بلدة بالشام، وكان شاعرًا لبيبًا فائقًا، أخذ عن الشمس البابلي وغيره، وارتحل إلى مصر ودمشق، وجاور بها. ومن شعره: القصيدة النونية التي هجا به الدروز، وهي نحو: ثلاثمائة بيت، ذكر فيها فساد مذهبهم وضلالاتهم، ثم ارتحل من دمشق إلى عكا، ومات بها سنة ١٠٨٥(٣).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧. وانظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٧).

(٣) انظر ترجمته في: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للحموي (٢/ ٧٩).

٩٤- إِذا اسـتبان نصحـه للدّيـن ... فَـإِنَّـهُ يـقـبـل عَـن يَـقِـيـن[١]

[١] يعني: أن الزنديق ونحوه إذا تبين لنا يقينا صحة إيمانه وتوبته ونصرته ونصحه؛ فهناك تقبل توبته، ويحكم بها ظاهرًا وباطنًا، ودليله قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصۡلَحُوا۟ ﴾(١).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٠.

فصل
فِي الْكَلَام على الْإِيمَان واختلاف الناس فيه وتحقق مذهب السلف في ذلك

٩٥- إيمَاننَا قَول وَقصد وَعمل ... تزيده التَّقْوَى وَينْقص بالزلل[١]

٩٦- وَنحن فِي إيمَاننَا نستثني ... من غير شكّ فاستمع واستبن

---

[١] **قوله: «إيماننا قول وقصد وعمل»** هذا تعريف الإيمان.

فقوله: «قول» يدخل فيه قول اللسان؛ وهو نطقه، وقول القلب؛ وهو اعتقاده وتصديقه، فأصله العلم.

وقوله: «وقصد» أي: فيه، فيدخل فيه أعمال القلوب، وهي الراجعة للإرادة؛ كالمحبة، والتوكل.

وقوله: «وعمل» يدخل فيه أعمال الجوارح؛ كالصلاة.

وعرّفه شيخ الإسلام بأنه قول وعمل؛ أي: قول باللسان والقلب، وعمل بالقلب واللسان والجوارح(١).

وهنا تعريف أوضح منهما: وهو أن الإيمان يدخل فيه أربعة أشياء: قول اللسان، وأعمال الجوارح، واعتقاد القلوب؛ وهي أقوالها، وأعمال القلوب.

فمثال الأول: النطق بالشهادتين.

والثاني: الصلاة.

---

(١) كما في العقيدة الواسطية. ومجموع الفتاوى (٣/ ١٥١)، وغيرها من كتبه.

٩٧- نتابع الأخيار من أهل الأَثر ونقتفي الْآثَار لَا أهل الأشر[١]

٩٨- وَلَا تقل إيمَاننَا مَخْلُوق وَلَا قديم هَكَذَا مطلوق[٢]

والثالث: التصديق.

والرابع: المحبة.

وقوله: «تزيده التقوى وينقص بالزلل» ردٌّ على: المعتزلة، والمرجئة، والماتريدية، والأشاعرة، والكَرَّامية، وغيرهم، مِن الذين يقولون: إن الإيمان مجرد التصديق، فلا يزيد، ولا ينقص.

[١] وهذا أيضًا ردٌّ على طوائف من أهل البدع، الذين لا يستثنون في الإيمان؛ كالجهمية ومَن شاكلهم.

قال شيخ الإسلام: وأما الاستثناء في الإيمان، فالناس فيه على ثلاثة أقوال: منهم من يوجبه، ومنهم من يحرمه، ومنهم من يجوّز الأمرين باعتبارين، وهذا أصح الأقوال. اهـ(١).

واختلف السلف في معنى الاستثناء على قولين:

أحدهما: أنه للتبرك، وهو ظاهر كلام المصنف.

والثاني: أنه يتضمن السؤال من الله التثبيت عليه، والتوفيق لما يكمّله؛ لأنه لا غنى للإنسان عن ربه طرفة عين. وهذا هو الصواب.

قوله: «من غير شك» اعلم أن أول درجات العلم: الوهم، ثم الشك، ثم الظن، ثم العلم، وهو ثلاث مراتب: علم اليقين، ثم عين اليقين، ثم حق اليقين، فالشك التردد بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر.

قوله: «فاستمع واستبن»بسكون الباء، للوزن.

[٢] **قوله: «ولا تقل إيماننا مخلوق»**...إلخ الثلاثة الأبيات. إدخال هذه المسألة هنا ليسله

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٤٢٩).

٩٩- فَإِنَّـــهُ يَشْـــمَل للصَّـــلاَة وَنَحْوهَا مــن سَـائِر الطَّاعَات[١]

١٠٠- ففعلنَا نَحْــو الرُّكُوع مُحدث وكل قُــرْآن قديــم فابحثــوا[٢]

١٠١- ووكل اللــه مــن الْكِـرَام اثْـنَـيْـنِ حـافـظـيـن لـلأنـام

١٠٢- فيكتبــان كل أَفعَــال الورى كَمَا أَتَى فِي النَّص من غير امترا[٣]

مناسبة؛ لأنه قد تقدَّم أن أفعال العباد مخلوقة لله، وأن القرآن كلام الله.

[١] **قوله: «لأنه يشمل»** بفتح الميم، ومضارع شمل بكسرها، من باب علم يعلم.

[٢] **أما قوله: «وكل قرآن قديم»** فقد تقدَّم أن هذه اللفظة لم ترد عن السلف، وأن كلام الله حادث الآحاد قديم النوع، كما تدلُّ عليه نصوص الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة.

[٣] **قوله: «ووكل الله من الكرام اثنين حافظين للأنام... البيتين»** الأنام والورى هم الخلق. **«كما أتى في النص»** في قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾(١).

فكل إنسان موكل به أربعة أملاك:

اثنان يحفظان عليه، فيكتبان أعماله؛ وكاتب الحسنات عن يمينه، وهو أمير على كاتب السيئات، فكاتب السيئات عن شماله.

واثنان يحفظانه؛ أحدهما أمامه، والثاني وراءه، كما قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾(٢).

(١) سورة ق، الآية: ١٨.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.

الْبَاب الرَّابِع

فِي بقية السمعيات[1]

١٠٣- وكل مَا صَحَّ من الْأَخْبَار ... أَو جَاءَ فِي التَّنْزِيل والْآثَار

١٠٤- من فتْنَة البرزخ والقبور ... وَمَا أَتَى فِي ذَا من الْأُمُور[٢]

[١] **السمعيات:** ما كان طريق العلم بها السمع، فلا مدخل للعقل بها، بخلاف ما كان طريقه العقل، فيسمى: عقليات ونظريات، وأهلها يسمون: النُّظَّار.

[٢] **قوله: «من فتنة البرزخ والقبور»** البرزخ من وقت الموت إلى القيامة.

وقوله: «والقبور» من عطف الخاص على العام؛ لأن عذاب القبر من فتنة البرزخ.

قوله: «وما أتى في ذا من الأمور» فقد ثبت أن في البرزخ أمورا عظيمة، منها: سؤال الملكين، والصحيح أنه ليس بخاص بهذه الأمة، بل عام لجميع الأمم.

ومنها: عذاب القبر، ونعيمه، وضغطته، وظلمته، وهما لكل واحد من الناس، فلا يختص بهما الكافر، وأنكرت الملاحدة والزنادقة وبعض المعتزلة عذاب القبر.

وعذاب القبر عام للروح والبدن، كما هو قول أهل السنة، وهو أيضًا عام لكل ميت؛ قُبر أو لم يقبر.

فصل
فِي ذكر الرّوح وَالْكَلَام عَلَيْهَا

١٠٥- وَأَن أَرْوَاح الـورى لم تعدم	مَـعْ كَونهَـا مخلوقـة فاسـتفهم
١٠٦- فَكل مَا عَن سـيد الْخلق ورد	من أَمـر هَذَا الْبَاب حق لَا يرد[١]

[١] فيه مسألتان عظيمتان:

أحدهما: أن الأرواح مخلوقة، كما قال شيخ الإسلام: روح الآدمي مخلوقة مبتدعة، باتفاق سلف الأمة وأئمتها، وسائر أهل السنة. اهـ(١).

والثانية: أنها لا تفنى بعد مفارقتها البدن، ولا تنعدم، كما تدل عليه الأحاديث الواردة في تنعيم الأرواح وعذابها بعد مفارقتها للأبدان. قال ابن القيم(٢): إن أريد بموت النفوس أنها تضمحل وتصير عدما محضا؛ فهذا غير مُسلّم، بل الصواب أن موتها مفارقتها لأجسادها وخروجها منها.

وأما قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾(٣).فالمراد كل شيء مما كُتب عليه الفناء هالك، إلا ما خُلق للبقاء.

والمستثنى من الهلاك ثمانية أشياء، ذكرها السيوطي بقوله(٤):

ثـمـانـيـة حـكـم الـبـقـاء يعمّها	من الخلق والباقون في حيز العدم
هـي الـعـرش والـكـرسي نـار وجنة	وعجـب وأرواح كذا اللـوح والقلم

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٢١٦).
(٢) في كتاب الروح، ص ٣٤. (٣) سورة القصص، الآية: ٨٨.
(٤) انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن (١٠/ ١٦٠).

فصل
فِي أَشْرَاط السَّاعَة وعلاماتها الدَّالَّة على اقترابها ومجيئها

١٠٧- وَمَا أَتَى فِي النَّص من أَشْرَاط فكله حق بِلاَ شطاط[١]

١٠٨- مِنْهَا الإِمَام الْخَاتم الفصيح مُحَمَّد الْمهْدي والمسيح[٢]

[١] **قوله: «وما أتى في النص»** الكتاب والسنة، **«من أشراط»** الساعة، وهي علاماتها وأماراتها، وهي ثلاثة أقسام:

قسم ظهر وانقضى: كالفتن الواقعة بين الصحابة.

وقسم ظهر ولم ينقض: وهي تتزايد وتكثر، وقد وردت بها آثار، كقوله ﷺ: **«يأتي على الناس زمان الصابر على دينه كالقابض على الجمر»**(١). وكقوله: **«لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس بالمساجد»**(٢). ونحو ذلك.

القسم الثالث: العلامات الكبار التي تتتابع كنظام انقطع سلكه، وتعقبها الساعة، وهي المذكورة بالنظم.

قوله: «فكله حق بلا شطاط» كسحاب وكتاب، بفتح الشين وكسرها، أي: من غير طول ولا بعد.

[٢] **أما المهدي**: فقد ورد بذكره جملة أحاديث وآثار، وكلها لا تخلو من مقال، وورد أيضا أحاديث وآثار بنفيه، فاختلف العلماء فيه، فبعضهم صحح الأحاديث، وأوجب اعتقاد خروجه،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٦٠)، عن أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٥٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٤٩)، وابن ماجه (٧٣٩)، عن أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٢١).

١٠٩- وَأَنــــه يـقـتـل لـلـدجـال ببَــاب لــدٍّ خلٍّ عَــن جِـدَال[١]

١١٠- وَأمر يَأْجُــوج وَمَأْجُوج أثبت فَــإِنَّــهُ حـق كـهـدم الْـكَـعْـبَـة[٢]

وبعضهم ضعفها وأبطلها، وقال: لا يثبت فيه شيء، وكأن هذا -والله أعلم- أقرب إلى الصواب؛ لأن مبنى الاعتقاد اليقين، وهو مفقود هنا، ومن تتبع سير ملوك بني العباس ومن كانوا ينتحلونه من هذا القول، زعما منهم أن سياسة الملك تقتضيه، ووافقهم بعض علماء زمانهم لغرض ما؛ ترجح عنده القول بعدم ثبوته، وعلى كلّ فالله أعلم بالصواب.

وأما المسيح: فهو عيسى بن مريم، عليهما السلام، سمي مسيحا، ونزوله ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، خلافا للفلاسفة والملاحدة، فلا يعتد بقولهم.

ونزوله عند المنارة البيضاء، شرقي دمشق، واضعا كفيه على أجنحة ملكين، كما في صحيح مسلم(١)، ويكون مقرِّرا لهذه الشريعة، لا أنه رسول مستقل، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، كما في الصحيحين(٢).

[١] **قوله: «وأنه»** أي: المسيح عيسى ابن مريم **«يقتل للدجال»** ويخرج الدجال في خراسان، كما في سنن الترمذي(٣)، ويتبعه سبعون ألفا من يهود أصفهان. كما في صحيح مسلم(٤).

قوله: « بباب لُد» بضم اللام، بوزن مُد، قال ياقوت(٥): قرية قرب بيت المقدس، من نواحي فلسطين. وقد دلَّ على ذلك حديث في مسند الإمام أحمد(٦).

[٢] **قوله: «وأمر»** مفعول مقدم لقوله: **«أثبت»** وهو مضاف، و**«يأجوج»** مضاف إليه، مجرور

---

(١) برقم (١١٠-٢٩٣٧)، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٧٦)، ومسلم (٢٤٢-١٥٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٢٣٧)، وابن ماجه (٤٠٧٢)، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠٤).

(٤) أخرجه مسلم (١٢٤-٢٩٤٤)، عن أنس رضي الله عنه.

(٥) في معجم البلدان (٥/ ١٥).

(٦) برقم (١٧٦٢٩)، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (١١٠-٢٩٣٧).

١١١- وَأَن مِنْهَا آيَة الدُّخان وَأَنه يذهب بالقُرْآن[١]

بالفتحة نيابة عن الكسرة، للعلمية والعجم، و«**مأجوج**» معطوف عليه، مجرور بالفتحة أيضا نيابة عن الكسرة.

قوله: «**أثبت**» أي: اعتقد ثبوته «**فإنه حق**» أي: أمرهم، وهو خروجهم ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، فخروجهم قطعي، يجب الإيمان به.

قال المؤرخون: أولاد نوح ثلاثة: سام: وهو أبو العرب والعجم والروم. وحام: أبو الحبشة والزنج والنوبة. ويافت: أبو الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج(١).

قوله: «**كـ**» ثبوت «**هدم الكعبة**» كما في الصحيحين وغيرهما، من حديث أبي هريرة مرفوعا: «**يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة**»(٢). و(السويقتين): تصغير ساق، أي: صاحب الساقين الدقيقين، وهل يكون ذلك بعد خروج الدابة؟ أو بعد ظهور الآيات كلها قُرب قيام الساعة؟ أو زمن المسيح؟ أقوال.

[١] **قوله**: «**وأن منها**» أي: من أشراط الساعة: «**آية الدخان**» وهي ثابتة بالكتاب والسنة.

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾(٣). قال ابن عباس، وابن عمر، والحسن، وزيد بن علي: (هو دخان قبل قيام الساعة، يدخل في أسماع الكفار والمنافقين، ويعتري المؤمن كهيئة الزكام، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه، ولم يأت بعد، وهو آت)(٤).

وأما السنة: فروى مسلم، والترمذي، وابن ماجه، والبغوي، وألفاظهم مختلفة، واللفظ لمسلم،

---

(١) انظر: المنتظم (١/ ٢٤٧)، والبداية والنهاية (١/ ٢٦٨). وأخرج أحمد في مسنده (٢٠٠٩٩)، والترمذي (٣٢٣١)، عن سمرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم**». وضعفه الألباني في الضعيفة (٣٦٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٥٩٦)، ومسلم (٥٧-٢٩٠٩).

(٣) سورة الدخان، الآية: ١٠.

(٤) انظر: تفسير البغوي (٧/ ٢٢٩).

١١٢- طُلُوع شـمس الْأُفق من دبور كذَات أجيـاد على الْمَشْـهُور[١]

من حديث حذيفة مرفوعًا: «**إنها** -أي الساعة- **لن تقوم حتى تروا عشر آيات...**»، فذكر منها: الدخان(١).

قوله: «**وأنه**» الضمير للشأن «**يذهب**» بالبناء للمفعول «**بالقرآن**» فهذا معنى قول السلف: إن القرآن كلام الله، منه بدأ، وإليه يعود. فمعنى: «**منه بدأ**» أي: هو المتكلم به، لم يخلقه في غيره. ومعنى: «**وإليه يعود**» أن القرآن يسرى به، حتى لا يبقى في المصاحف منه حرف، ولا في القلب منه آية، كما جاء ذلك في الآثار، وهو الذي أشار إليه الناظم.

[١] أي: من أشراط الساعة: «**طلوع شمس الأفق**» هو الناحية، والجمع: آفاق، والأفق أيضًا ما ظهر من نواحي الفلك، وهو المراد هنا،«**من دبور**» أي: جهة المغرب، سميت بذلك لأنها تدابر باب الكعبة.

قال العلماء: طلوع الشمس من مغربها ثابت في السنة الصحيحة الصريحة، ففي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعًا: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس؛ آمنوا أجمعون، فذلك حين** ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾(٢)... **الآية**»(٣). وقد استنبطها جمهور المفسرين من هذه الآية.

قوله: «**كذات أجياد على المشهور**» يعني: أن طلوع الشمس من مغربها من شروط الساعة، كما أن ذات أجياد منها، وهي الدابة التي تخرج من الأرض. و«**ذات**» بمعنى صاحبة، و«**أجياد**» أرض بمكة أو جبل بها. ولما كان موضع خروجها مختلفا فيه قال: «**على المشهور**» وأما خروجها فهو ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩-٢٩٠١)، والترمذي (٢١٨٣)، وابن ماجه (٤٠٥٥)، والبغوي في شرح السنة (٤٢٥٠)، عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٦)، ومسلم (٢٤٨-١٥٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

١١٣- وَآخـر الْآيَـات حشـر النَّار	كَمَا أَتَــى فِي مُحكــم الْأَخْبَار[١]
١١٤- فَكلهَــا صحت بهَــا الْأَخْبَار	وســطـرت آثــارهــا الأخــيــار[٢]

[١] **قوله: «وآخر الآيات حشر النار»** للناس، مِن المشرق إلى المغرب، ومِن اليمن إلى أرض الشام.

قوله: «كما أتى في محكم الأخبار» كما رواه مسلم عن حذيفة بن أسيد مرفوعًا[١]. وروى البخاري عن أنس مرفوعا حديثا لا يعارضه[٢].

[٢] **قوله: «فكلها»** أي: الأشراط المذكورة **«صحت بها الأخبار»** أي: بأكثرها، فإن أحاديث المهدي لم تصح عند أكثر علماء الحديث.

(١) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

(٢) فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«أول أشراط الساعة: نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب»**. أخرجه البخاري معلقا بصيغة الجزم في كتاب الفتن، باب خروج النار.

فصل
فِي أَمر الْمعَاد

١١٥- واجزم بِأَمْر الْبَعْث والنشــور	والحشــر جزمًا بعد نفخ الصُّور[١]
١١٦- كَذَا وقُوف الْخلق لِلْحســابِ	والصحــف وَالْمِيــزَان للثَّــواب

[١] قوله: «واجزم بأمر البعث» بعد الموت، وهو جمع ما تفرق، لا إيجاد ما انعدم، كما تقوله الجهمية وطائفة من الأشعرية. ويجب اعتقاده، ويكفر منكره، كما قال تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۞ ﴾[١]. قال ابن القيم في كتاب الروح[٢]: (معاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى).

قوله: «والنشور» هو بمعنى البعث، «والحشر» جمع أجزاء الإنسان بعد تفرقها.

قوله: «جزمًا بعد نفخ الصور» أي: نفخة البعث؛ لأن النفخ في الصور ثلاث نفخات: الأولى: نفخة الفزع.

والثانية: نفخة الصعق.

والثالثة: نفخة البعث، وهي المرادة بالبيت، وكلها ورد بها القرآن.

وأما الصّور: فهو القرن الذي تجتمع فيه الأرواح، فينفخ فيه إسرافيل، فتخرج كل روح حتى تعود إلى جسدها.

---

(١) سورة التغابن، الآية: ٧.

(٢) ص ٥٢.

١١٧ - كَذَا الصِّرَاط ثمَّ حَوْض الْمُصْطَفى ... فيا هُنَا لمن بِهِ نَالَ الشفا[١]

١١٨ - عَنهُ يذاد المفتري كَمَا ورد ... وَمن نحا سبل السَّلامَة لم يرد

١١٩ - فَكُن مُطيعًا وَاقِف أهل الطاعه ... فِي الْحَوْض والكوثر والشفاعه[٢]

١٢٠ - فَإِنَّهَا ثَابِتَة للمصطفى ... كَغَيْرِهِ من كل أَرْبَاب الوفا

١٢١ - من عَالم كالرسل والأبرار ... سوى الَّتِي خصت بِذِي الْأَنْوَار

[١] الصواب: أن الحوض قبل الصراط، وأنه بالموقف، كما تدل عليه النصوص.

[٢] الكوثر: نهر في الجنة، وقيل: إنه الخير الكثير.

فصل
فِي الْكَلَام على الْجنَّة وَالنَّار

١٢٢- وكل إِنْسَان وكل جنَّة	فِي دَار نَار أَو نعيم جنَّة[١]
١٢٣- هما مصير الْخلق من كل الورى	فَالنَّار دَار من تعدى وافترى[٢]
١٢٤- وَمن عصى بِذَنبِهِ لم يخلد	وَإِن دَخلهَا يَا بوار المعتدي[٣]
١٢٥- وجنة النَّعيم للأبرار	مصونة عَن سَائِر الْكفَّار[٤]
١٢٦- واجزم بِأَن النَّار ك الْجنَّة فِي	وجودهَا وَأَنَّهَا لم تتْلف[٥]

[١] قال أبو حنيفة: إن مؤمني الجن يكونون ترابا، ولا يدخلون الجنة.

[٢] كل من يدخل النار فهو داخل في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾(١). وهذا حد جامع مانع، أي: كذّب بالخبر، وتولى عن الأمر.

[٣] قوله: «**يا بوار**» أي: هلاك، «**المعتدي**» يريد: الخوارج والمعتزلة، القائلين بخلود المؤمن العاصي بالنار.

[٤] الكفر: تكذيب ما جاء به الرسول، أو بعضه.

[٥] مذهب الجهمية والمعتزلة فناء الجنة والنار، وهذا بناء على أصلهم الفاسد، وهو: عدم تسلسل الحوادث في أفعال الله تبارك وتعالى، لا في الماضي ولا في المستقبل. وتوسط العلاف من المعتزلة فقال: تفنى حركاتهم، لا ذواتهم(٢).

(١) سورة الليل، الآية:١٦.

(٢) انظر: ص٦٠١ من التعليقات السعدية على القصيدة النونية.

١٢٧- فنسأل الله النَّعيم وَالنَّظَر لربنا من غير مَا شين غبر[١]

١٢٨- فَإِنَّهُ ينظر بالأبصار كَمَا أَتَى فِي النَّص وَالْأَخْبَار[٢]

١٢٩- لِأَنَّه سُبْحَانَهُ لم يحجب إِلَّا عَن الْكَافِر والمكذب

[١] مذهب الجهمية أن الله لا يُرى في الجنة، وكذلك المعتزلة.

[٢] قوله: «بالإبصار» لا بالبصيرة، كما تقول الأشعرية.

الْبَاب الْخَامِس
فِي ذكر النُّبُوَّة وفضل الصحابة

١٣٠- وَمن عَظِيم مَنِّه السَّلَام ... ولطفه بِسَائِر الْأَنَام[١]

١٣١- أَن أرشد الْخلق إِلَى الْوُصُول ... مُبينًا للحق ب الرَّسُول

١٣٢- وَشرط من أكْرم ب النُّبُوَّة ... حريَّة ذكورة كقُوَّة

١٣٣- وَلَا تنَال رُتْبَة النُّبُوَّة ... بالْكسْب والتهذيب والفتوة[٢]

١٣٤- لَكِنَّهَا فضل من الْمولى الْأَجَل ... لمن يشا من خلقه إِلَى الْأَجَل

١٣٥- وَلم تزل فِيمَا مضى الأنباء ... من فَضله تَأتي لمن يَشَاء

١٣٦- حَتَّى أَتَى بالْخَاتم الَّذِي ختم ... بِهِ وأعلانا على كل الْأُمَم

١٣٧- وَخَصه بِذَاكَ كالمقام ... وَبَعثه لسَائِر الْأَنَام

---

[١] قوله: «ومن عظيم منّه...البيتين» شاهده قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[(١)].

الصواب: أن النبوة مِن كمال رحمته ومنته التي أوجبها على نفسه.

[٢] قوله: «الفتوة» هي تمرين النفس بالتحلي بالأوصاف المحمودة، والتخلي عن ضدها.

المتفلسفة الاتحادية -كابن عربي، وابن سبعين- هم الذين يقولون: إن النبوة تُدرك بالتكسّب وتهذيب النفس.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

١٣٨- ومعجــز الْقُــرْآن ك الْمِعْرَاج	حَقًّــا بِــلَا ميــن وَلَا اعوجــاج
١٣٩- فكــم حبــاه ربــه وفضله	وَخَصــه سُــبْحَانَهُ وخولــه
١٤٠- ومعجــزات خَاتــم الْأَنْبِيَــاء	كَــثِيــرَة تــجــل عَــن إحصائي
١٤١- مِنْهَــا كَلَام الله معجز الورى	كَذَا انْشِــقَاق الْبَدْر من غير امترا
١٤٢- وَأفضل الْعَالم من غير امترا	نَبينَــا الْمَبْعُــوث فِــي أم الْقرى
١٤٣- وَبعــده الْأَفْضَل أهــل الْعَزْم	فالرُّسُــل ثــمَّ الأنبيــا بِالْجَــزْم
١٤٤- وَأَن كل وَاحِــد مِنْهُم سـلم	من كل مَا نقص وَمن كفر عصم[١]
١٤٥- كَــذَاك من إفْك وَمــن خيانه	لوصفهــم بالصــدْق والأمانــه[٢]
١٤٦- وَجَائِــز فِي حق كل الرُّسُــل	الــنّــوم وَالــنِّــكَاح مثل الْأكــل

[١] قوله: «من كل ما نقص» بالديانة والمروءة.

[٢] يجب للرسل الصدق مطلقا، أي: لا يدخل خبرهم تعمد كذب أو خطأ.

قال المحققون: قد يقع من الرسل بعض الذنوب التي لا يُقرّون عليها، بل يتوب الله عليهم.

فصل
فِي الصَّحَابَة الْكِرَام رضي الله عنهم

١٤٧- وَلَيْسَ فِي الْأمة بالتحقيق فِي الْفضل وَالْمَعْرُوف كالصّديق[١]

١٤٨- وَبعده الْفَارُوق من غير افترا وَبعده عُثْمَان فاترك المرا[٢]

١٤٩- وَبعد فالفضل حَقِيقا فاسمع نظامي هَذَا للبطين الأنزع[٣]

١٥٠- مجدل الْأَبْطَال ماضي الْعَزْم مفرج الأوجال وافي الحزم

١٥١- وافي الندى مبدي الْهدى مردي العدا مجلي الصدى يَا ويل من فِيهِ اعْتدى

١٥٢- فحبه كحبهم حتما وَجب وَمن تعدى أَو قلى فقد كذب

١٥٣- وَبعد فَالْأَفْضَل بَاقِي العشره فأهل بدر ثمَّ أهل الشجره[٤]

[١] قوله: «في الفضل» اللازم في نفسه، «والمعروف» المتعدي للغير.

[٢] قال أيوب السختياني: من زعم أن عليا أفضل من عثمان، فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار. [و] بالاتفاق أن الشيخين أفضل من علي.

[٣] قوله: «البطين» عظيم البطن. «الأوجال» المخاوف، و«الحزم» هو العقل.

ما أشبه علي بالمسيح في الغلو والجفا والتوسط، أعني: فعل الناس به.

[٤] العشرة كلهم من المهاجرين، وليس في الصحابة -بل جميع الأمة- مثلهم، فضلا أن يكون أفضل منهم.

أهل بدر: ٣١٣/ ٣١٩. أهل بيعة الرضوان: ١٤٠٠/ ١٥٠٠.

١٥٤- وَقيــل أهــل أحــد المقدمه وَالْأول أولى للنصوص المحكمه

١٥٥- وَعَائِشَة فِي الْعلم مَعَ خَدِيجَة فِي السَّـبق فَافْهَم نُكْتَـة النتيجه

قيل: إن سعد بن معاذ في الأنصار بمنزلة أبي بكر في المهاجرين.

فصل
فِي ذكر الصَّحَابَة الْكِرَام وَبَيَان مزاياهم على غَيرهم والتعريف بِمَا يجب لَهُم من الْمحبَّة والتبجيل وتقبيح من آذاهم

١٥٦- وَلَيْسَ فِـي الْأمة ك الصَّحَابَة ... فِي الْفضل وَالْمَعْرُوف والإصابة

١٥٧- فَإِنَّهُم قد شاهدوا المختارا ... وعاينوا الْأَسْرَار والأنوارا

١٥٨- وَجَاهدُوا فِي اللـه حَتَّى بانا ... دين الْهدى وَقد سما الأديانا

١٥٩- وَقد أَتَى فِـي مُحكم التَّنْزِيل ... من فَضلهمْ مَا يشفي للغليل

١٦٠- وَفِي الْأَحَادِيث وَفِي الْآثَار ... وَفِـي كَلَام الْقَوْم والأشعار

١٦١- مَا قد رَبًّا من أَن يُحِيط نظمي ... عَن بعضه فاقنع وَخذ عَن علم

١٦٢- وَاحْذَرْ من الْخَوْض الَّذِي قد يزري ... بفضلهم مِمَّا جرى لَو تَدْرِي

١٦٣- فَإِنَّهُ عَن اجْتِهَاد قد صدر ... فَاسْلَمْ أذلّ اللـه من لَهُم هجر

١٦٤- وبعدهم فالتابعون أَحْرَى ... بِالْفَضْلِ ثمَّ تابعوهم طرا

فصل
فِي ذكر كرامات الأَوْلِيَاء وإثباتها

١٦٥- وكل خارق أَتَى عَن صَالح	من تَابع لشرعنا وناصح
١٦٦- فَإِنَّهَا من الكرامات الَّتِي	بهَا نقُول فاقف للأدلة
١٦٧- وَمن نفاها من ذَوي الضلال	فقد أَتَى فِي ذَاك بالمحال
١٦٨- فَإِنَّهَا شهيرة وَلم تزل	فِي كل عصر يَا شقا أهل الزلل[١]

[١] ذُكر في ترجمة ابن الجوزي أنهم حسبوا أيام عمره، وحسبوا مصنفاته، ووزعوها على أيام عمره، فصار حصة كل يوم تسعة كراريس.

وشيخ الإسلام قيل: إنه يكتب -أي يصنف- كل ليلة أربعين ورقة، هذا مع ما هو عليه من الأوراد، وقيام الليل، ونومه.

فصل
فِي المفاضلة بَين الْبشر وَالْمَلَائِكَة[1]

١٦٩- وَعِنْدنَا تَفْضِيل أَعْيَان الْبشر ... على ملاك رَبنَا كَمَا اشْتهر

١٧٠- قَالَ وَمن قَالَ سوى هَذَا افترى ... وَقد تعدى فِي الْمقَال واجترى

[١] هذه المسألة إدخالها في باب العقائد فيه نظر؛ لأن فيها خلافًا بين علماء السنة، وليس فيها نص عن المعصوم يجب المصير إليه.

الْبَاب السَّادِس
فِي ذكر الْإِمَامَة ومتعلقاتها
فِي الْأَمر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَن الْمُنكر

١٧١- وَلَا غنى لأمة الْإِسْلَام ... فِي كل عصر كَانَ عَن إِمَام

١٧٢- يذب عَنْهَا كل ذِي جحود ... ويعتني بالْغَزْو وَالْحُدُود

١٧٣- وَفعل مَعْرُوف وَترك نكر ... وَنصر مظلوم وقمع كفر

١٧٤- وَأخذ مَال الْفَيْء وَالْخَرَاج ... وَنَحْوه وَالصرْف فِي منهاج[1]

١٧٥- ونصبه بالنَّص وَالْإِجْمَاع ... وقهره فَحل عَن الخداع

١٧٦- وَشَرطه الْإِسْلَام وَالْحريَّة ... عَدَالَة سمع مَعَ الدرية

١٧٧- وَأَن يكون من قُرَيْش عَالما ... مُكَلّفا ذَا خبْرَة وحاكما

١٧٨- وَكن مُطيعًا أمره فِيمَا أَمر ... مَا لم يكن بِمُنكر فيحتذر

---

[١] الأموال ثلاثة أنواع: خاصة، وعامة، ومتوسطة.

فالخاصة: الغنيمة، فهي خاصة للغانمين.

والعامة: الفيء، فهو لجميع المسلمين.

والمتوسطة: الزكاة، فهي للأصناف الثمانية.

فصل
فِي الأَمر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَن الْمُنكر

١٧٩- وَاعْلَم بِأَن الْأَمر وَالنَّهْي مَعًا ... فرضا كِفَايَة على من قد وعا

١٨٠- وَإِن يكن ذَا وَاحِدًا تعينا ... عَلَيْهِ لَكِن شَرطه أَن يأمنا

١٨١- فاصبر وَزَل بالْيَد وَاللِّسَان ... لمُنكر وَاحْذَرْ من النُّقْصَان

١٨٢- وَمن نهى عَمَّا لَهُ قد ارْتكب ... فقد أَتَى مِمَّا بِهِ يقْضى الْعجب

١٨٣- فَلَو بدا بِنَفسِهِ فزادها ... عَن غيها لَكَانَ قد أفادها

الخاتمة

نسأل الله تعالى حسن الخاتمة

في ذكر الأدلة وما يتعلق بها

١٨٤- مدارك العلوم في العيان ... محصورة في الحد والبرهان

١٨٥- وقال قوم عند أصحاب النظر ... حس وإخبار صحيح والنظر

١٨٦- فالحد وهو أصل كل علم ... وصف محيط كاشف فافتهم

١٨٧- وشرطه طرد وعكس وهو إن ... أنبا عن الذوات فالتام استبن

١٨٨- وإن يكن بالجنس ثم الخاصة ... فذاك رسم فافهم المحاصة

١٨٩- وكل معلوم بحس وحجى ... فنكره جهل قبيح في الهجا

١٩٠- فإن يقم بنفسه فجوهر ... أو لا فذاك عرض مفتقر

١٩١- والجسم ما ألف من جزئين ... فصاعدا فاترك حديث المين

١٩٢- ومستحيل الذات غير ممكن ... وضده ما جاز فاسمع زكني

١٩٣- والضد والخلاف والنقيض ... والمثل والغيران مستفيض

١٩٤- وكل هذا علمه محقق ... فلم نطل به ولم ننمق

١٩٥- والحمد لله على التوفيق ... لمنهج الحق على التحقيق

١٩٦- مسلما لمقتضى الحديث ... والنص في القديم والحديث

١٩٧- لا أعتني بغير قول السلف ... موافقا أئمتي وسلفي

١٩٨- ولست في قولي بذا مقلدا ... إلا النبي المصطفى مبدي الهدى

١٩٩- صلى عَلَيْـهِ الله مَا قطر نزل وَمَـا تعانـى ذكـره مـن الْأَزَل

٢٠٠- وَمَا انجلى بهديـه الديجور وراقـت الْأَوْقَـات والدهور

٢٠١- وَآلـه وَصَحبـه أهـل الوفا معـادن التَّقْـوَى وينبـوع الصَّفَا

٢٠٢- وتابـع وتابـع للتابـع خيـر الـورى حَقًّا بِنَصّ الشَّـارِع

٢٠٣- وَرَحْمَـة الله مَـعَ الرضْوَان وَالْبـر والتكريـم وَالْإِحْسَـان

٢٠٤- تهدي مَـعَ التبجيل والإنعام منـي لمثـوى عصمَـة الْإِسْـلَام

٢٠٥- أَئِمَّـة الدّيـن هـداة الْأمـة أهـل التقـى مـن سَـائِر الْأَئِمَّة

٢٠٦- لَا سِـيمَا أَحْمـد والنعمـان وَمَـالـك مُـحَـمَّـد الـصـنـوان

٢٠٧- من لَازم لكل أَرْبَـاب الْعَمَل تَقْلِيـد خبـر مِنْهُم فاسـمع تخل

٢٠٨- وَمن نحا لسـبلهم من الورى مَـا دارت الأفلاك أَو نجم سـرى

٢٠٩- هَدِيَّـة مني لأرباب السّـلف مجانبـا للخوض من أهل الْخلف

٢١٠- خُذْهَا هديـت واقتفي نظامي تفـز بِمَـا أملـت وَالسَّـلَام

تمت بِحَمْد الله



فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة

التوضيح المبين
لتوحيد الأنبياء والمرسلين
من الكافية الشافية

الموضوع رقم الصفحة

الحق الواضح المبين
في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين

الموضوع	رقم الصفحة

التنبيهات اللطيفة
على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية
من المباحث المنيفة

الموضوع	رقم الصفحة

القول السديد
شرح كتاب التوحيد

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

البراهين العقلية
على وحدانية الرب ووجوه كماله

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الدرة البهية
شرح القصيدة التائية

أصول الدين

الموضوع رقم الصفحة

شرح كتاب أصول الإيمان
للشيخ محمد بن عبد الوهاب

الموضوع رقم الصفحة

منهج الحق
منظومة في العقيدة والأخلاق

رسالة في
خروج الدابة وحقيقتها

الموضوع	رقم الصفحة

التعليقات السعدية
على قطعة من نونية ابن القيم

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع رقم الصفحة

التعليقات السعدية
على قطعة من العقيدة السفارينية

الموضوع	رقم الصفحة

